ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسَّسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها[1] .

تقدير وتكريم :

انتخَبَه مجمعُ اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتَّصف به من العِلْم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثَّفة المشكورة في الأدب العَربي الإسلامي .

اخْتِير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م .

اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .

اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلَّفه القيِّم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » .

مُنح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كَشْمِيْر عام ١٩٨١م .

اختير رئيساً لمركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣م .

اختير عضواً في المجمع المَلَكِيّ لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن) .

اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤م .

أُقِيمَتْ ندوةٌ أدبيةٌ كبيرةٌ حول حياته ، وجُهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب في إستانبول « تُركيا » عام ١٩٩٩م ، حضرت فيها كبرى الشخصيات الدينية ، والأدبية من أنحاء العالم العربي والإسلامي .

---

(١) اقرأ للاطلاع على رحلاته الدعويَّة في الخافقين كتاب « رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي مشاهداته ـ محاضراته ـ انطباعاته ـ لقاءاته » ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقدَّمَ إليه الجائزةَ وليُّ العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سُمُوّ الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

منح له سلطان برونائي جائزةً لخدمات الإسلامية ، عام ١٩٩٨م ، وذلك اعترافاً بمكانته العلمية والفكرية الإسلامية العظيمة ، وتقديراً لخدماته المتميزة التي أنجزها في مجال الدعوة الإسلامية العظيمة ، والفكر الإسلامي .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

تولَّى العلامةُ الندوي الرئاسةَ والعضوية لعِدَّة جامعات إسلامية ، ومجامع عربية ، ومنظَّمات دعوية ، ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (الّتي أخذت صفةَ العالمية منذ ترأَّسَ أمانَتها ، وتفوَّقَتْ على معظم جامعات العالم الّتي تَهْتَمُّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العِلْمِي في لكهنؤ (الهند) .

رئيس مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعُموم الهند .

رئيس هيئة التعليم الدِّيني للولاية الشمالية (أُتْرَابَرْدِيْش) .

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية الأردني .

عضو المجمع المَلَكِيّ لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسَّسة آل البيت) بالأردن .

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرِّباط (المغرب) .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإِسْلَام آبَادْ (باكستان) .

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم دِيُوْبَنْد الإسلامية (الهند) .

وعدا ذلك تولَّى العلامةُ الرئاسةَ والعضويةَ لكثير من الجامعات الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظَّمات الدعوية ، ولِجَان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه .

وفاتـــه :

توفِّيَ ـ رحمه الله ـ عَقِبَ نوبةٍ قلبيةٍ مفاجِئةٍ عن السادسة والثمانين من عمره الحافل بالأعمال القيمة والمآثر العظيمة ، والخدمات الجليلة في مجال الفكر والدَّعوة والأدب يومَ الجمعة في ٢٣ من شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٠هـ (وكان آخر يوم من شهر ديسمبر عام ١٩٩٩م) في مسقط رأسه « رَائي بَرِيْلي » .

صلِّي عليه في أنحاء العالم الإسلامي صلاة الغائب ، وصلَّى كذلك حوالي خمسة ملايين من المسلمين الوافدين من مختلف أصقاع العالم في الحرمين الشريفين في ٢٧ رمضان بعد صلاة العِشاء ، رحمه اللهُ رحمةً واسعةً ، وتغمَّده بها وأسكنه فسيح جنانه .

خَلْقُه وخُلُقُه :

كان ـ رحمه الله ـ نحيفَ البدن ، ونحيل العود ، نقيَّ اللون ، وقوراً مهيباً في غير عبوس أو فظاظة ، طَلِْقَ الوجه دائم البِشْر ، نظراته عميقةٌ نفاذة ، ونبراته دقيقة أخّاذة ، فيها بحة .

كان جمَّ التواضع، هادئاً، محباً للخير ، ودوداً محبوباً من كافة الطبقات.

كان خيرَ مثلٍ للعالم ، الورع الخلوق ، الذي يضمر الخير للجميع ، كان مثالًا في النزاهة ، والتواضع والجرأة النادرة في الدعوة إلى الإصلاح ، وفي الاستقامة ، والحرص على الحقِّ .

كان عدوّاً للمظاهر الكاذبة ، يتخفَّف في ثيابه وطعامه وفراشه ، ويكره التكلُّفَ والمجاملة الزائدة ، ولا يُقِيم للمال وزناً في حياته ، كانت ثقته بربِّه فوق كلِّ شيءٍ ، وكانت مثابرته على النضال في سبيل ما يُؤمن به مضرب الأمثال ، وإخلاصه العميق كان سرَّ نجاحه ، بينما يفشل الآخرون .

كان دائمَ المطالعة ، حريصاً على صحبة الكتاب في خلواته وأوقات فراغه ، وكان شديد الاهتمام والعناية بكتب السيرة ـ على صاحبها ألف ألف سلام ـ وبكتب السلف والتاريخ والأدب .

كان فصيحَ اللسان ، بليغ الكلام ، وكان يمتاز بتمكُّنٍ عجيبٍ من اللغة العربية ، وتذوُّقٍ رفيعٍ للأدب ، وكانت تراكيبه اللفظية تلفت السامع ، وتستهوي القلب ، وكان يغلب على أسلوبه العنصر العاطفي الملتهب ، ومع ذلك إذا طرق بابَ البحث أجاد وأفاد وأمتع .

كان شديدَ العبادة والاجتهاد في رمضان ، وكان يؤمُّه مئاتٌ من الناس من أنحاء الهند ويصومون معه ويقومون ، ويتحوَّل المكان الذي يقضي فيه رمضان إلى زاويةٍ عامرةٍ بالذكر والتلاوة ، والسهر والعبادة .

كان مِن أعظم آماله ـ رحمه الله ـ أن يرى الإسلامَ سائداً على الأرض ، وأن يرى الدول الباغية مقهورة حتى يسلِّي نفسه ويستبشر ، ويرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلامَ وأذلُّوا المسلمين .

مؤلَّفاته :

للعلاَّمة الندوي ـ رحمه الله ـ مؤلَّفاتٌ قيمة ، ورسائلُ ممتعةٌ في السيرة ، والفكر ، والدَّعوة ، والأدب ، والتراجم ، نذكر هُنا ما هو الأشهر منها بالعربيَّة :

١ ـ السيرة النبوية .

٢ ـ الطريق إلى المدينة .

٣ ـ سيرة خاتم النبيين صلَّى الله عليه وسلَّم (للمبتدئين) .

٤ ـ المُرتضىٰ (في سيرة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه) .

٥ ـ رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام (أربع مجلَّدات) .

٦ ـ الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله .

٧ ـ شخصياتٌ وكُتبٌ .

٨ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟!

٩ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية .

١٠ ـ الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية .

١١ ـ إلى الإسلام من جديد .

١٢ ـ المسلمون وقضية فلسطين .

١٣ ـ روائعٌ من أدب الدعوة في القرآن والسيرة .

١٤ ـ الأركان الأربعة في ضوء القرآن والسنة .

١٥ ـ العقيدة والعبادة والسُّلوك .

١٦ ـ التربية الإسلامية الحُرَّة .

١٧ ـ المدخل إلى الدراسات القرآنية .

١٨ ـ المدخل إلى دراسات الحديث .

١٩ ـ ربَّانيةٌ لا رهبانيَّة .

٢٠ ـ القاديانية والقادياني دراسةٌ وتحليلٌ .

٢١ ـ في مسيرة الحياة (ثلاثة أجزاء في سيرته الذاتية) .

٢٢ ـ مختاراتٌ من أدب العرب (مجلَّدان) .

٢٣ ـ روائع إقبال .

٢٤ ـ إذا هبَّت ريحُ الإيمان .

٢٥ ـ المسلمون في الهند .

٢٦ ـ مذكَّرات سائح في الشرق العربي .

٢٧ ـ قصص النبيِّين (للأطفال) .

٢٨ ـ قصصٌ من التاريخ الإسلامي (للأطفال) .

وللعلاَّمة غير هذه المؤلَّفات والكُتب ـ مئاتُ المقالات والمحاضرات والبُحوث في السيرة النبوية ، والفكر ، والدَّعوة ، والأدب ، والتراجم وفي موضوعات مختلفة ، وقد جمعناها ونشرناها مصحَّحةً ومنقَّحةً في سلسلة « تُراث العلاَّمة الندوي » فقد صدر منها حتى الآن :

١ ـ محاضراتٌ إسلاميةٌ في الفكر والدَّعوة (ثلاث مجلَّدات) .

٢ ـ مقالاتٌ إسلاميةٌ في الفكر والدَّعوة (مجلَّدان) .

٣ ـ دراساتٌ قُرآنيةٌ .

٤ ـ مقالاتٌ في السيرة النبوية .

٥ ـ من أعلام المسلمين ومشاهيرهم .

٦ ـ أبحاثٌ في التعليم والتربية الإسلامية .

٧ ـ أبحاثٌ في الحضارة الإسلامية والتربية .

٨ ـ بحوثٌ في الاستشراق والمستشرقين .

٩ ـ رحلات العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

١٠ ـ مكانة المرأة في الإسلام .

١١ ـ خطابات صريحة إلى الأمراء والرُّؤساء .

١٢ ـ اسْمَعِيَّات[١] .

●●●

(١) من يريد الاستزادةَ من الاطلاع على حياته وشخصيته داعيةً ، ومفكِّراً ، ومربِّياً وأديباً يرجع إلى كتابنا « أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكِّر الداعية الأديب » (الطبعة الثالثة) طبع في دار ابن كثير بدمشق .

مقالات

في الفكر والدعوة

دَعْوتَان مُتنَافسَتَان[1]

لم تزل في الدنيا منذ وُجدت دعوتان متنافستان متصارعتان ، دعوة تدعو إلى اتِّباع النفس وتحكيمها ، وإلى حرية الإنسان المطلقة ، التي لا تقف عند حد ـ إلا إذا اضطرت إلى ذلك ـ وإن كان في غضون هذه الحرية وأثنائها مئات وآلاف من أنواع الرق والعبودية. ودعوة تقول: إن الإنسان عبدٌ لله ، مكلَّف ومسؤول أمامه ، وتدعو إلى اتِّباع الوحي من الله وشرائع الأنبياء.

الدَّعوة الأولى هي «الجاهلية» في مصطلح الإسلام الواسع ، والدَّعوة الثانية هي دعوة الإسلام نفسه ، واقتسمت هاتان الدعوتان أمم العالم وأجياله ، ولم تزل تتداول قيادتهما وتمثيلهما من حين إلى حين ، وليس تاريخ الأديان ، والعقل ، والأخلاق إلا حكاية هذا الصراع المستمر ، والنزاع الدائم ، وذلك أكبر صراعٍ وأوسعه ، شهده العالم في عمره الطويل.

ومنذ ثلاثة عشر قرناً ونصف اختار الله لقيادة الدعوة الثانية ـ الإسلام ـ أتباع محمد ﷺ ، وكتب لهم الإمامة في ذلك إلى يوم القيامة.

كذلك لم تزل تمثل الدَّعوة الجاهلية وترأسها أمم وحضارات جاهلية في عصورها ودوائرها ، حتى قضى ربك أن تتولى زعامتها ، وتحمل رايتها أممُ أوربة النَّصرانية قبل نحو قرنين ، وإنما رشحها لهذا المنصب ، وجعلها حاملةً لرسالة الجاهلية في العالم مجاهدةً في سبيلها سوءُ تمثيل النَّصرانية المحرَّفة للدِّين المطلق ، ورهبانيتها ، وعجزها عن حل القضايا الإنسانية

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السادس المجلد الثاني عام ١٩٥٧ م.

والمعضلات البشرية ، ثم سوء تمثيل علمائها، وكهنتها، وقسُسِها للنَّصرانية نفسها ، وبما حالوا بين أمتهم وبين الرقيِّ والتقدم ، وبما أذاقوا العلماء الأحرار والمكتشفين من أنواع العذاب التي تقشعر لها الجلود ، وتتفطر منها مرارة الإنسان مما حفظه لنا تاريخُ الصراع بين الدِّين والمدنية ، والدِّين والعقل ، والدِّين والعلم في أوربة ، زد إلى ذلك كله تهور الثائرين على النظام القديم ، وطيشهم ، فكان عاقبة ذلك أن أصبحت أمم أوربة وهي المتحفزة للنهوض ، الطامحة إلى الرقيِّ تبغض الدين مطلقاً ، وتتحرَّر من كل نظامٍ قديمٍ ، وتعادي كلَّ دعوة دينية خلقية ، وترى فيها حجر عثرة في سبيلها ، وفي أصحابها عدواً لدوداً للرقيِّ الإنسانيِّ.

وعلى كلٍّ تحوَّلت أممُ أوربة جاهليةً ماديةً محضة ، وكان هذا التحوُّل من أتعس الحوادث التي وقعت في التاريخ والذي قد جرَّ على الإنسانية شقاءً طويلاً ، وويلاً عظيماً ، ولكنَّه كان واقعاً لا محالة لأسبابٍ طبعيةٍ عقلية.

وتقدَّمت أمم أوربة الفتية المتحمسة لغزو العالم وفتحه ، وقد أخذت له أهبته، وأعدت له عدته ، فكان بحكم الطبيعة أن تصادم ممثلي الدَّعوة الثانية المضادَّة لها ، وهم المستولون على أجمل رقع العالم المتمدِّن المعمور ، وعلى أهمِّ بقاع الأرض سياسياً وجغرافياً ، وأخصبها وأثراها اقتصادياً ، وكان بديهياً أن يقع أول صراعٍ وأكبره بين هاتين الفئتين ، فكان ذلك!

كان ذلك والمسلمون منذ أمدٍ بعيد قد فقدوا روح الرسالة التي كانوا يحملونها ، والتي قد أصبحوا بقوتها سيلاً جارفاً جباراً ، لا تقاومه الحشائش ، ولا تقف في وجهه الصُّخور ، وقوةُ المسلمين وروحُهم دائماً من الرسالة والدعوة ، فأضحوا لا يحملون رسالة الإسلام إلى العالم ، ولا يدعون دعوة دينية تنفخ فيهم الحماسة والفتوة ، ويأتون لها بخوارق ومعجزات ، وتفتح لهم هذه الرسالة قلوباً وعقولاً ، وتسخر لهم ممالك ودولاً ، وأصبحوا جيلاً من الناس كسائر الأجيال ، يرى ما يحدث في العالم من خير وشر ، وما يسود فيه من حقٍّ وباطل ، هادئاً مطمئناً ، كمتفرج ، أو كعاجز ليس له من الأمر شيء.

وفقدوا الإيمان والحماسة الدينية ، ففقدوا القلوب التي كانوا يلقون بها عدوَّهم ، وسلاحهم الذي كانوا يقارعون به ، فيهزمون أضعافهم في العدد والعُدد ، وأصبحوا كسائر الناس ، لا يمتازون بمزيد قوةٍ ، ولا بزائد يقينٍ ، يألمون كما يألمون ، ولا يرجون من الله ما كانوا يرجون.

وفقدوا الأخلاق والفضائل التي كانت لهم قوةً روحيةً وسلاحاً ماضياً في معترك الحياة ، دانت بها لهم الجبابرة ، ولانت بها صخور القلوب ، واستبدلوا بها عيوباً وأدواء خلقية واجتماعية ، أخذوها من الأمم الجاهلية المنحطة التي عاشروها ، وسرت فيهم أيام ترفهم وانحطاطهم الخلقي والاجتماعي ، فكانت كدابَّة الأرض تأكل منسأتهم ، وتنخر الدعائم التي قام عليها بناؤهم.

ونضب معين علومهم ، وجمدت قرائحهم وعقولهم ، وحرموا الاجتهاد ، والتفكير ، وقوة الاكتشاف ، والإبداع ، ومني علماؤهم بجمودٍ عقليٍّ ، وركودٍ علميٍّ ، لا يزيدون في ثروة العلم ، ولا يفتحون للعقل أبواباً ومنافذ جديدة ، ولا ينظرون في علوم الطبيعة والكون ، بينما كانت أوربة تسخِّر لمصالحها قوى الطبيعة ، ويكشف علماؤها عن أسرار الكون ، ويتَّخذ عاملوها نفقاً في الأرض وسلَّماً في السماء.

أما الأمراء والملوك المسلمون؛ فقد تركوا الجهاد في سبيل الله منذ قرون ، واشتغلوا عنه بحروب بغضاء ومنافسة ، وشهوات ومطامع ، حتى دهم الإسلامَ الزَّحفُ الصليبيُّ ، فلم يقم له إلا صلاح الدين الأيوبي وبعض الأفراد المتَّصلين به. ومرَّت كارثة الأندلس ، وكأن لم يكن شيء ، وزحف التتار والمغول ـ ذلك الجراد المنتشر ـ فنهكوا قوى المسلمين ، وزادوهم وهناً على وهن.

هذه هي العوامل التي ساعدت الأوربيين في فتحهم ، وانتصرت بهم الجاهلية على الإسلام ، فكان أكبر انتصار نالته الجاهلية على الإسلام منذ زمنٍ طويل ، ولو تكلمت لقالت: اليوم انتصفت من عدوِّي ، وأخذت ثأر الأمم التي فتحها ، والدول التي محاها ، والحضارات التي طمسها ومن

اليوم أزدهر في بلاده وأخصب في نجاده ووهاده، وأجري مجراي لا يسدُّ تياري شيء.

لو قالت لصدقت؛ لأنَّ المسلمين ـ على علاتهم ـ كانوا أمناء لرسالة الأنبياء، حملةً لمصابيح شرائعهم، وحرزاً للدين في الدُّنيا، ودرءاً للأخلاق والفضيلة على كل حال، وكانوا أعظم سدٍّ في وجه الجاهلية، ويتحوَّلون أكبر خطر عليها في كل وقت.

كانت رزيئةُ المسلمين في هذه الهزيمة عظيمةً، وخطبهم فادحاً جداً، فقد خسروا بلادهم التي كانت تفيض لبناً وعسلاً، وخسروا جميع دولهم تقريباً، ومنوا بنوعين من العبودية السياسية والعقلية، وحيث أفلتوا من العبودية المادية لم يفلتوا من العبودية العلمية والخلقية.

ورزئوا في أخلاقهم التي أورثتهم إيَّاها تعاليم الأنبياء، والمحاسن التي حافظوا عليها طوال هذه القرون: من صدقٍ، وأمانةٍ، وشجاعةٍ، ووفاءٍ، وعفَّةٍ، وطهارةٍ، وكرمٍ، وتواضع، وتقوى الله في السرِّ والعلانية، ومراقبة حدوده، إلى غير ذلك مما يمتاز به أتباع الشرائع السماوية عن أهل الجاهلية، وتسلَّطت عليهم بتأثير الأمم الغربية العيوب الخلقية، والمخازي البشرية؛ التي ورثتها أوربة من روما ويونان الوثنيتين، ومن قرونها المظلمة، ومن جاهليتها: كالنفاق، والرِّياء، والغدر بالعهود إذا دعت إلى ذلك مصلحة، والجشع المادي، والإيمان بالقوة وحدها، والاحترام للمال والثروة وحدها، وتقديم المصالح والمنافع على الأخلاق والفضائل.

وما كانت رزيئة الإنسانية في هذا الانتقال بِهَيِّنَةٍ، فتزلزلت مباني الأخلاق والفضيلة في كل صقعٍ وقطر، وحدثت ثورة على كل نظام قديم، وإن كان عادلاً وحسناً، وعمَّتِ الفوضى في البيوتات والأسر، وتغيَّر الولد للوالد، وعقه، وتركت المرأة بعلها، وثارت عليه، وانحلت عقد الأرحام، ولم يعد الصغير يوقِّر الكبير، ولم يعد الكبير يرحم الصغير، وتعوَّضت القلوب من الألفة والمحبة الجفاء والبغضاء، وكثر التنافس في

الحياة الدُّنيا ، وفي الرقي المادي ، وفي أسباب الجاه والثروة ، وتولَّدت من ذلك ثروةٌ وآفاتٌ كدَّرت صفو الحياة ، وأماتت القلب والروح ، إلى غير ذلك من الظواهر التي تشكو منها كلُّ ديانة ، وكلُّ حضارةٍ شرقية بثَّها وحزنها ، ومما يشترك فيه المسلمون وغيرُهم من الشرقيين.

ثم إنَّ هذه الأمم قد أصبحت تتحكم في أموال الناس ، ونفوسهم ، وأرزاقهم ، وأصبحت تملك السلم والحرب ، وأصبح العالم في حضانتها كولدٍ يتيم ، أو شابٍّ سفيه ، لا يملك من أمره شيئاً ، فتارةً تسوقه إلى ساحة القتال ، وطوراً تملي عليه الصُّلح ، وليس له في صلحٍ أو حربٍ يدٌ مرفوعة ، أو كلمةٌ مسموعة.

ماذا عسىٰ أن يكون أثر هذه الهزيمة والرزية العامة في نفوس المسلمين وفي نفوس بني آدم عامة؟

أما الناس عامَّةً فلكلِّ إنسان أن يجيب عنه ، وسيجيبون عنه ، أما المسلمون وهم أولى بأن يوجه هذا السؤال إليهم؛ لأنَّ منهم انتقل هذا الملك الواسع والأمر والنهي إلى الأوربيين ، ولأنَّ دينهم يقتضي أن يكون ظاهراً على كلِّ دين ، وأن يكونوا هم الأسوة وحدهم للعالم ، فسيقول كلُّ مسلم لم يمت قلبه: إنَّ من الطبيعي أن تنطوي صدور المسلمين على إحنٍ وأحقادٍ للجاهلية ، وأن ينظروا إلى كلِّ من يمثلها في كلِّ مكان كعدوٍّ غاصب ، وغريمٍ منافس. وإن طبيعة رسالتهم ودعوتهم في العالم تقتضي بداهةً أن تعزل الأمم الجاهلية من قيادة العالم ، والتأثير في عقول الناس وتوجيه أفكارهم ، وأن تمنع من تمثيل الجاهلية في العالم ، وأن ينزع منها سلطانها حتى لا تكون في دعوتها فتنة لمفتون ، وحتى لا تنافس الدعوة إلى الله دعوةٌ ، ولا ينازع في الدنيا عاملان يتجاذبان النفوس والعقول إلى جهتين مختلفتين: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ويعلم كلُّ ذي بصيرة بل كلُّ ذي بصر: أنَّ مجرد سيادة هذه الأمم ، واستعلائها السياسي والمادي دعايةٌ عظيمة لدينها ، وحضارتها ومبادئها ، ومناهج فكرها وأخلاقها ، لا يقاومها منطقٌ ولا استدلال ، ولا حجةٌ

ولا برهان ، ولا فلسفةٌ ولا أخلاق ، ولا تنجح ضدَّها دعوة الأديان ، وأنها قد أصبحت بزخارفها مغناطيساً للقلوب ، تنجذب إليها كما ينجذب الحديد.

هذه هي الحقيقة التي ذكرها موسى عليه الصلاة والسلام فيما حكى القرآن عنه في دعائه الذي دعا به في مصر على عهد فرعون ، وهي حقيقة في كل عصر ومصر :

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس : ٨٨].

فماذا كان المنتظر من المسلمين ـ وهم حاملو رسالة الإسلام ـ؟ كان المنتظر منهم أن يروا في أوربة وأمريكا زعيماً للجاهلية ، الذي تولى كبرها وحمل رايتها في الآفاق. وكان الواجب أن تكون هذه المسألة هي أمَّ المسائل وكبراها في نظرهم ، وأن تشغل ذهنهم ، وتستغرق سعيهم ، وكان الواجب أن يعدُّوا أنفسهم في كل ناحية من نواحي العالم ممثلين لدعوة الإسلام ضدَّ هذه الدعوة الجاهلية ، وألا يتخذوا موقفاً مهما كان اقتضاء المصالح الوطنية والسياسية والمالية لا يتفق وممثلي الإسلام ، وحاملي رسالته ، وألاَّ يأتوا بشيءٍ تتغـذَّى بـه الحركة الجاهلية في العالـم ، أو ألاَّ يظهر منهم شيءٌ ينمُّ عن ركونهم إلى هذا النظام الجاهلي الذي بسطته هذه الأمم في العالم ، وتريد أن تبسطه ، ويظهر به تعاونهم على الإثم والعدوان؛ الذي لا عدوان أكبر منه.

ولكن مما يبعث الأسف العميق ، والعجب الشديد في النفوس «**عجباً يميت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان**» كما قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في خطبةٍ له ، إنَّ المسلمين عامتهم لم يدركوا هذه الحقيقة مع وضوحها وانجلائها ، وذهلوا عن موقفهم الصحيح في العالم ، ونسوا وجهلوا أنَّهم والأمم الأوربية الجاهلية دعاةٌ لنظامين للحياة متضادين ،

ولحضارتين متناقضتين ، وأنَّهم وإياها ككفتي ميزان ، كلَّما رجحت واحدةٌ طاشت الأخرى.

وأصبح المسلمون أخيراً ـ لجهلهم بالدِّين وما يقتضي من حبٍّ وبغض ، وبتأثير الدِّعاية ـ يرون الجاهلية الأوربية كالحليف الوحيد للإسلام ، وأنهم يقرعون بين أممها ودولها أيها أقرب إليهم ، وأنفع لمصالحهم ، وأغراضهم السياسية والمالية ، ويجهلون أنها مهما اختلفت في نظمها السياسية ، وفي إدارتها الداخلية ، أو سياستها الخارجية ، ومهما تعادت ، وتباغضت فيما بينها ، فإنَّها أخوات شقيقات من أب واحدٍ وأمٍّ واحدة ، وأنها لا تختلف في المبادىء الأوليَّة وفي فلسفتها التي يسميها الإسلام «الجاهلية» وغاب عن عقلاء المسلمين والمتعلمين منهم ، بل وقادتهم وزعمائهم ، ـ فضلاً عن العامة ـ أنه ما دامت هذه الأمم تتمتَّع بالغلبة السياسية ، وما دامت لها سيطرة على العالم فهي المثل الكامل والقدوة المثلى في الأخلاق والسيرة ، والعلم والمدنية ، والفضائل والرذائل ، وما دامت كلمتها عليا؛ فلا تزدهر للدِّين دعوةٌ ، ولا تعلو له كلمة ، ولا تسود في العالم الأخلاقُ الفاضلة ، ولا تكون لها قيمة ، ففي مصلحة الإسلام ، وفي مصلحة الإنسانية أن تعزل بأسرها عن قيادة العالم ، ولما كان المسلمون هم المسؤولون وحدهم عن صلاح العالم وفساده ، ووظيفتهم الحِسبة على الناس ، وهم القوَّامون بالقسط ، شهداء لله ، وهم المراقبون لسير العالم ، فلهم أن يجتهدوا في ذلك أكثر من كل شعب وأمة ، بل يجب عليهم أن يكونوا طليعة ، وأن يكونوا إماماً في الحركة ضدَّ الجاهلية وأممها ، بل يجب أن تبدأ منهم الدَّعوة ، وإليهم تعود.

ولكن أَجِلْ نظرك في العالم الإسلاميِّ كلِّه وانظر في شعوبه ، وأممه ، ودوله ـ إن كانت فيه دول تملك أمرها ـ وفي جميع طبقات المسلمين ، هل ترى شيئاً تستدل به على أنَّ هذه الأمة المنبثة في أرجاء الأرض صاحبةُ رسالة في العالم ، وصاحبةُ دين وعقيدة ، وأنها تنكر مما وقع وواقع شيئاً؟ وتحمل في صدرها حفيظة ضدَّ الجاهلية وأهلها ، وتريد أن ترفع للإسلام رايةً ، وتجتهد لإعلاء كلمة الله؟

كلا! بل ترى أمةً هادئةً ، مطمئنةً ، راضيةً بكل ما يقع في العالم اليوم ، سليمة الصدر ، قريرة العين ، ناعمة البال ، تتعاون مع الجاهلية وأممها وتتحالف ، وتقدِّم لها كل معونة تقدر عليها.

لمثلِ هذا يَذوبُ القلبُ مِنْ كمدٍ إنْ كانَ فِي القلبِ إسلامٌ وإيمانُ!

أجل إن كان في القلب إسلامٌ وإيمان لما ارتضى مسلمٌ بهذا الخزي ، ولكن كلُّ ذلك يرجع إلى كون الرَّجل مسلماً. يحبُّ لله ، ويبغض لله ، ويوالي في الله ، ويعادي في الله ، ولذلك ذكره القرآن شرطاً في قوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٢] ثم ضرب لذلك مثلاً بإبراهيم وأصحابه:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

يلاحظ القارىء العربي النكتة في قول إبراهيم وأصحابه: «كفرنا بكم» وبلاغة الكلمة وسعتها ، فلم يقولوا كفرنا بدينكم ، كأنهم قد أصبحوا صورةً وتمثالاً للكفر والجاهلية ، جامعين لمعانيها وأشكالها ومظاهرها ، ولأنَّ حياتهم كلَّها وما يتصل بها من علومٍ ، وفلسفةٍ ، وحضارةٍ ، وثقافة قد سرى فيها روح الكفر والجهل ، وذلك ينطبق على كل أمة جاهلية حرمت هَدي الأنبياء وعلومهم ، وبنت حياتها وعلومها ومدنيَّتها على دلالة الحواسِّ ، أو على القياس ، أو التجارب ، فعم الإنكار لجميع هذا ، وكأنهم أعلنوا بهذا اللفظ أنهم ثائرون على هذا النظام الجاهليِّ برمته وحذافيره ، جاحدون به ، كافرون بأصحابه ، لا يؤمنون لهم بفضل ، ولا يخضعون لهم بشيء!

ثم لينظر القارىء ويعتبر كيف أنَّ المسلمين ـ وهم أتباع دين وأصحاب

يقين ـ قد آمنوا بزعماء الجاهلية وأئمة الكفر ولو لم يؤمنوا بدينهم ، ولكنَّهم آمنوا بهم بأوسع معاني الكلمة ، وقد اشترط الله للإيمان به الكفر بالطاغوت وقدم عليه ، وقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

أما إذا أصبح المسلمون لا يعنيهم أمر الدين والأخلاق ، ولا يهمهم مصير الإنسانية ، ومستقبل العالم ، ولا تهمهم إلا المصالح السياسية ، والفوائد الماديَّة الحاضرة التي تعود على بلادهم أو شعبهم ، وبالأصح على أشخاصهم ، فحبلهم على غاربهم ، وأمرهم بيدهم ، ولكن ليعلموا أخيراً أن سفينة الجاهلية التي اختاروها لسفرهم قد أحيط بها ، وأنَّ ألواحها قد تآكلت ، ونخرت منذ زمن ، وأن ربابينها قد اختلفوا فيما بينهم في تسييرها وقيادتها ، ويعلموا أنَّ هذه السفينة إذا غرقت فإنَّها تغرق ركابها ، وكل من وصلوا أسبابهم بأسبابها ، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم. وقد قال:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢].

* * *

القاديانية في الميزان

مظاهر الحكومة الإنجليزية وإلغاء الجهاد[1]

الدور الذي مثلته بريطانيا والإنجليز في الشرق: غزت أوربة الشرق الإسلامي في القرن التاسع عشر ، وبسطت سلطتها على الأقطار الإسلامية وكان في مقدمتها «بريطانيا العظمى» الَّتي تولَّت كبر هذا الزحف والهجوم السياسي والمادي ، واستولت على الهند ، ومصر ، وعاكست الدولة العثمانية ، وتآمرت عليها ، وقعدت لها بالمرصاد ، تساعد منافساتها من الدول ، وتحرِّض عليها ، وبدأت تتسرب في الجزيرة العربية ، وتبذر فيها بذور الفساد.

هذا وقد أصبحت مسيطرةً على الهند الإسلامية ، وأصبحت الحكومة المغولية التيمورية ـ وهي الدولة المسلمة الأخيرة ـ أسيرةً أو رهينةً في يدها ، تتصرف في ممتلكاتها تصرف الحر ، وقاومها الملك الشهم الأبي السلطان تيبو ، فسقط في المعركة شهيداً عام ١٧٩٩م وانبث القسوس والرهبان في الهند يدعون المسلمين ـ بصفةٍ خاصَّةٍ ـ إلى المسيحية ، ويسخرون من الدين الإسلامي ، ومبادئه ، وتعاليمه ، وانتشر الفساد والخلاعة ، وغزت الحضارة الأوربية بيوت المسلمين ، وبدأ الإلحاد ، وثار المسلمون ـ ومعهم المواطنون الأحرار ـ على الإنجليز عام ١٨٥٧م ،

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الخامس المجلد الثالث ، عام ١٩٥٢ م.

وانضمَّ إلى هذا المعسكر كلُّ مَنْ في قلبه ذرةٌ من إيمان ، أو جمرة من غيرة ، وانتصر الإنجليز ـ بدهائهم وحسن نظامهم ، وقوة عزمهم ـ فانتقموا من أهل البلاد ، ومن المسلمين خاصة انتقاماً شديداً ، وكانوا مصداق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل : ٣٤] ولم يكن الإنجليز طغاةً ظالمين ، وملوكاً مستبدين فحسب ، بل كانوا رسل الفساد ، والإلحاد ، والخلاعة ، والإباحة ، وكانوا حملة لواء الاستعمار ، والاستهتار ، والثورة على القيم الروحية والخلقية التي جاء بها الأنبياء ، ونزلت بها الصُّحف ، وكانوا مغيرين على العالم الإسلامي ، وزعماء الاستعمار الأوربي السياسي ، والثقافي والخلقي .

سيرة الأنبياء وخلفائهم: لقد عرفنا من سيرة الأنبياء وخلفائهم : أنهم كانوا دائماً حرباً على الظالمين والمجرمين ، بعيدين عن تأييدهم ومساعدتهم ، وقد قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : ١٧] ودعا على فرعون عصره ومصره بقوله : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] وقال تعالى مخاطباً للمؤمنين : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[هود : ١١٢] ، وقال النبيُّ ﷺ : «**أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**» وأسوة النبي ﷺ وأصحابه وخلفائه ـ من العلماء الربانيين والدعاة المخلصين ـ معلومةٌ مسجلةٌ في التاريخ ، والحديث يطول .

دعوة إلى تأييد الإنجليز وإلغاء الجهاد: ولكن من وصايا القرآن الواضحة وروح الدِّين الإسلامي ، وبالعكس من أسوة الأنبياء والمرسلين ، وأصحابهم وخلفائهم الصَّادقين نرى الميرزا غلام أحمد ـ الَّذي يدعي أنه مأمور من الله ومرسل من عنده ـ يمدح أكبر فراعنة عصره ـ الإنجليز ـ ويحرص على تأييد الحكومة الغاشمة الظالمة التي اغتصبت المملكة الإسلامية ، وأغارت على العالم الإسلامي ، وحملت راية الفساد والإلحاد ، وصادرت الأوقاف الإسلامية ، وقتلت الأبرياء والصفوة

المختارة من العلماء ، نراه يحرص على تأييد هذه الحكومة ، ويتملَّقها في أسلوبٍ سافرٍ يترفع عنه كلُّ صاحب ضمير ومبدأ فضلاً عن الدعاة ، فضلاً عن خلفاء الأنبياء ، فضلاً عن الأنبياء أنفسهم ، ونراه يعنى بهذا الموضوع في يقظة ودقة من مبدأ أمره ، فتراه في مؤلفه الأول «براهين أحمدية» يعدُّ حسنات هذه الحكومة ومننها ، ويحثُّ الجمعيات الإسلامية على ترتيب وثيقة يوقع عليها العلماء ورجال الدين ، ويفتون بإلغاء الجهاد ، وتقدم هذه الوثيقة إلى الحكومة، ثم نراه لا يضيع فرصةً ، ولا مناسبةً للثناء العاطر على هذه الحكومة ، ولا ينسى ـ مع أنه كثير النسيان والغفلة ـ قضية الجهاد ، ووجوب نسخه ، وإلغائه ، ونشر ذلك في الهند ، وفي الأقطار الإسلامية.

خدمات الميرزا في تأييد الحكومة الإنجليزية: وإلى القارىء بعض الأمثلة من هذه المكتبة الواسعة في موضوع تأييد الحكومة الإنجليزية ، وإلغاء الجهاد ـ الذي كان المسلمون في حاجة ملحة إلى إحيائه ، والدعوة إليه؛ ليتحرروا من نير الحكم الأجنبي ، ويتخلَّصوا من هذا السرطان الإنجليزي الذي امتدَّ في جسم العالم الإسلامي. يقول في كتابه «ترياق القلوب» ص ١٥ :

«لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنجليزية ، ونصرتها ، وقد ألفت في منع الجهاد ، ووجوب طاعة أولي الأمر الإنجليز من الكتب ، والإعلانات ، والنشرات ما لو جمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة ، وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية ، ومصر ، والشام ، وتركيا ، وكان هدفي دائماً أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة ، وتمحى من قلوبهم قصص المهدي السَّفاك ، والمسيح السَّفاح ، والأحكام التي تبعث فيهم عاطفة الجهاد ، وتفسد قلوب الحمقى».

وقال في آخر كتابه «شهادة القرآن» : **«إنَّ عقيدتي التي أكررها : أنَّ للإسلام جزءين: الجزء الأول إطاعة الله ، والجزء الثاني إطاعة الحكومة؛ التي بسطت الأمن ، وآوتنا في ظلِّها من الظالمين ، وهي الحكومة البريطانية[1]».**

---

(١) ملحق شهادة القرآن.

ويقول في رسالة قدَّمها إلى نائب حاكم المقاطعة عام ١٨٩٨م: «لقد ظللتُ منذ حداثة سني وقد ناهزت اليوم الستين أجاهد بلساني، وقلمي لأحرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص لهذه الحكومة الإنجليزية، والنُّصح لها، والعطف عليها، وألغي فكرة الجهاد التي يدين بها بعض جهَّالهم، والتي تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة، وأرى أنَّ كتاباتي قد أثرت في قلوب المسلمين، وأحدثت تحولاً في مئات آلافٍ منهم».

وقال في محلٍّ آخر:

«لقد ألَّفت عشرات من الكتب العربية، والفارسية، والأردية أثبت فيها: أنَّه لا يحلُّ الجهاد أصلاً ضدَّ الحكومة الإنجليزية التي أحسنت إلينا، بل بالعكس من ذلك يجب على كلِّ مسلم أن يطيع هذه الحكومة بكلِّ إخلاصٍ، وقد أنفقت على طبع هذه الكتبً أموالاً كبيرة، وأرسلتها إلى البلاد الإسلامية، وأنا عارف: أنَّ هذه الكتب قد أثرت تأثيراً عظيماً في أهل هذه البلاد (الهند) وقد كوَّن أتباعي جماعةً تفيض قلوبهم إخلاصاً لهذه الحكومة، والنُّصح لها - إنَّهم على جانب عظيم من الإخلاص، وأنا أعتقد أنهم بركةٌ لهذه البلاد، ومخلصون لهذه الحكومة، ومتفانون في خدمتها»[1].

ويقول في محلٍّ آخر: «لقد نشرت خمسين ألف كتاب ورسالة وإعلان في هذه البلاد، وفي البلاد الإسلامية تفيد أنَّ الحكومة الإنكليزية صاحبة الفضل والمنَّة على المسلمين، فيجب على كلِّ مسلم أن يطيع هذه الحكومة إطاعةً صادقةً، وقد ألَّفت هذه الكتب في اللغات الأردوية، والعربية، والفارسية، وأذعتها في أقطار العالم الإسلامي حتى وصلت، وذاعت في البلدين المقدسين مكَّة، والمدينة، وفي الآستانة، وبلاد الشام، ومصر، وأفغانستان، وكان نتيجة ذلك أن أقلع ألوف من الناس عن فكرة الجهاد التي كانت من وحي العلماء الجامدين، وهذه مأثرة أتباهى بها، يعجز المسلمون في الهند أن ينافسوني فيها».

---

(١) من رسالة مرافعة إلى الحكومة الإنجليزية بقلم الميرزا غلام أحمد.

وربما يخامر القارىء الشكَّ في دقَّة الترجمة العربية؛ لأنَّ النصوص في الأردوية ، مع أنَّ الكاتب قد تحرَّى الإتقان ، والتدقيق ، والترجمة الحرفية ، فلنقدم نصوصاً عربيةً بحرفها ، ولفظها ، يقول في كتابه «نور الحق»:

«ولا يخفى على هذه الدولة المباركة أنا من خدَّامها ، ونصحائها ، ودواعي خيرها من قديم ، وجئناها في كل وقت بقلم صميم ، وكان لأبي عندها زلفى ، وخطاب التحسين.

ولا نظنُّ أن ننسها في حين ، وكان والدي الميرزا غلام مرتضى ابن الميرزا عطا محمد القادياني من نصحاء الدولة ، وذوي الخلة ، وعندها من أرباب القربة ، وكان يصدر على تكرمة العزة ، وكانت الدولة تعرفه غاية المعرفة ، وما كنا قطُّ من ذوي الظنة بل ثبت إخلاصنا في أعين الناس كلِّهم ، وانكشف على الحاكمين ، وتستطلع الدولة حكامها الذين جاؤونا ، ولبثوا بيننا ، كيف عشنا أمام أعينهم ، وكيف سبقنا في كل خدمةٍ مع السابقين»[1] .

حرز للدولة ، وحصنٌ لها: ويزداد صراحةً ويعدُّ خدماته السياسية الغالية للحكومة الإنجليزية ، ووقعها ، وتأثيرها ، فيقول في نفس الكتاب:

«وما كان تأليفي في العربية إلا بمثل هذه الأغراض العظيمة ولم يخل تنتاب العربيين كتبي[2] ، حتى رأيت فيهم آثار التباشير ، وجاءني بعضٌ منهم وراسلني بعض ، وبعضهم هجوا ، وبعضهم صلحوا ووافقوا كالمسترشدين ، وإني صرفت زماناً طويلاً في هذه الإمدادات حتى مضت عليَّ إحدى عشرة سنة في شغل الإشاعات ، وما كنت من القاصرين ، فلي أن أدَّعي التفرُّد في هذه الخدمات ، ولي أن أقول: إنني وحيد في هذه التأييدات ، ولي أن أقول: إني حرزٌ لها ، وحصنٌ حافظ من الآفات ، وبشرني ربِّي ، وقال: ما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم. فليس للدولة نظيري

---

(١) نور الحق:ص ٢٧ و٢٨ .

(٢) كذا في الأصل.

ومثيلي في نصري ، وعوني ، وستعلم الدولة إن كان من المتوسمين»[1] .

وأعتقد: أنَّ في هذا بلاغاً ، ومقنعاً ، ونختم هذا الفصل بكلمتين أخريين تلقيان الضَّوء على نواياه ، وأهدافه ، وصلته بالحكومة الإنكليزية. يقول في رسالة قدمها إلى نائب حاكم المقاطعة الإنجليزية في اليوم الرابع والعشر ين من فبراير سنة ١٨٩٨م:

من غرس الإنجليز: **والمأمول من الحكومة أن تعامل هذه الأسرة التي هي من غرس الإنجليز أنفسهم ، ومن صنائعهم بكلٍّ حزمٍ ، واحتياطٍ ، وتحقيقٍ ، ورعايةٍ ، وتوصي رجال حكومتها أن تعاملني وجماعتي بعطفٍ خاصٍّ ، ورعايةٍ فائقة**[2] .

علة الحدَّة في مناظرة القسوس: ويقول في تعليل حدَّة قد تعتريه في الرد على بعض القسوس: «**لقد غلا بعض القسوس والمبشرين في كتاباتهم ، وجاوزوا حدَّ الاعتدال ، ووقعوا في عرض رسول الله ﷺ ، وخفت على المسلمين الذين يعرفون بحماستهم الدينية أن يكون لها ردُّ فعلٍ عنيف ، وأن تثور ثائرتهم على الحكومة الإنكليزية ، ورأيت من المصلحة أن أقابل هذا الاعتداء بالاعتداء حتى تهدأ ثورة المسلمين وكان كذلك**»[3] .

تحريم الجهاد في هذا العصر: أمَّا الجهاد ـ الذي أقلق الإنجليز ، وشغل خاطرهم ـ فأفتى بكلِّ صراحةٍ وقوَّةٍ بحرمته في عصره ، وكتبه وكتاباته طافحةٌ بذلك ، والقليل من هذا الكثير أنه قال في كتابه الأربعين:

«**لقد ألغي الجهاد في عصر المسيح الموعود إلغاءً باتاً**». وقال في الخطبة الإلهامية: «**لقد آن أن تفتح أبواب السماء وقد عطل الجهاد في الأرض ، وتوقفت الحروب كما جاء في الأحاديث: أنَّ الجهاد للدِّين يحرم في عصر المسيح ، فيحرم الجهاد من هذا اليوم ، وكل من يرفع السيف للدِّين ، ويقتل**

---

(١) نور الحق:ص ٣٣ و٣٤.

(٢) تبليغ رسالة المجلد السابع ص ١٩ ـ ٢٥.

(٣) ترياق القلوب:ص ٣١٠.

الكفار باسم الغزو والجهاد يكون عاصياً لله ولرسوله» ، ويقول في ترياق القلوب: «**إنَّ الفرقة الإسلامية التي قلدني الله إمامتها ، وسيادتها تمتاز بأنها لا ترى الجهاد بالسيف ، ولا تنتظره ، بل إنَّ الفرقة المباركة لا تستحلُّ الجهاد سراً كان أو علانية ، وتحرمه تحريماً باتاً**»[1] .

في سبيل الإنجليز: وقد أمدَّت هذه الحركة وهذه الفئة الحكومة الإنجليزية بخير جواسيس لمصالحها ، وأصدقاء أوفياء ، ومتطوعين متحمسين ، كانوا موضع ثقة الحكومة الإنجليزية ، ومن خيار رجالها ، خدموا الحكومة الإنجليزية في الهند ، وخارج الهند ، وبذلوا نفوسهم ودماءهم في سبيلها بسخاءٍ كعبد اللطيف القادياني الذي كان في أفغانستان يدعو إلى القاديانية ، وينكر على الجهاد ، وخافت حكومة أفغانستان أن تقضي دعوته على عاطفة الجهاد ، وروح الحرِّية التي يمتاز بها الشعب الأفغاني فقتلته ، كذلك الملا عبد الحليم ، والملا نور علي القاديانيان عثرت الحكومة الأفغانية عندهما على رسائل ، ووثائق تدلُّ على أنهما وكيلان للحكومة الإنجليزية ، وأنهما يدبِّران مؤامرة ضدَّ الحكومة الأفغانية ، وكان جزاءهما القتل ، كما صرح بذلك وزير داخلية أفغانستان سنة ١٩٢٥م ، ونقل ذلك «الفضل» صحيفة القاديانيين الرَّسمية بسرور وإعجاب في ٣ مارس من ذلك العام.

موقف القاديانية إزاء العالم الإسلامي : وبقيت الجماعة القاديانية في عهد مؤسسها وبعده معتزلة عن جميع الحركات الوطنية ، وحركة التحرير والجلاء في الهند ، صامتةً ، بل شامتة لما دهم العالم الإسلامي من رزايا ونكبات على يد المستعمرين الأوربيين ، وعلى رأسهم الإنجليز ، مقتصرة على إثارة المناقشات الدينية ، والمباحثات حول موت المسيح ، وحياته ، ونزوله ، ونبوَّة الميرزا غلام أحمد ، لا اتصال لها بالحياة العامة ، والمسائل الإسلامية ، والحركات التي كانت مظهراً للغيرة الإسلامية والشعور السياسي في هذه البلاد ، دائبة على الإخلاص للحكومة الإنجليزية ،

---

(١) ترياق القلوب:ص ٣٣٣.

حريصة على خدمة مصالحها السياسية ، حتى اعتقد كثيرٌ من المفكرين والدَّارسين: أنَّ هذه الدعوة كانت من وحي الإنجليز ، ووليد السياسة الإنجليزية ، وغرسها ، ولذلك كان الدكتور محمد إقبال مصيباً في رأيه عن الميرزا غلام أحمد وجماعته في شعره السائر: «إنه يتحدَّث عن مقام الأولياء ، والعظماء ، وإنَّما كان مريداً مخلصاً للسَّادة الإنجليز ، إنه يعتقد أنَّ بهاء الإسلام ومجده في حياة العبودية ، وأن سعادة المسلمين في ألا يزالوا محكومين ، أذلاء ، إنه كان يعدُّ حكومة الأجانب رحمةً إلهية ، لقد رقص الرَّجل حول الكنيسة ، ومضى لسبيله»[1].

* * *

(١) انظر مقالات العلامة الندوي في هذا الموضوع ، في كتاب «القادياني والقاديانية دراسات وتحليل وعرض علمي». طبع دار ابن كثير بدمشق.

أمَّة الحاضر وأمَّة المستقبل

إنَّ حياة الأمم بالرسالة والدعوة ، وإن الأمة التي لا تحمل رسالة ، ولا تستصحب دعوة حياتها مصطنعة غير طبعية ، إنَّها كورقةٍ انفصلت من شجرتها ، فلا يمكن أن تحيا بسقي أو ري ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧].

إننا أيها القراء! أمة الحاضر وأمة المستقبل ، قد كتب لنا الخلود والنصر ، لأننا أصحاب دعوة ورسالة نبوية ، وهي الرسالة الأبدية التي قضى الله بخلودها وظهورها ، فلسنا تحت سيطرة المادة وحكم الزمان بشرط أن نقوم بدعوتنا ، ونشتغل برسالتنا ، ونعود أمة دعوة نبوية كما بدأنا ، دعوة فيما بيننا معشر المسلمين ، دعوة في غيرنا من الأجانب في الدِّين .

لقد تخلفنا عن الأمم المعاصرة في العلوم الطبعية والأسباب الحربية ، وفي الأخذ بأسباب الرقي المادي بعدَّة قرون ، وقد كانت المسابقة بيننا وبينهم كمسابقة الأرنب والسلحفاة ، إلا أن الأرنب كان ساهراً مع خفته وسرعته ، والسلحفاة نائمة رغم بطئها وثقلها! فلو جارينا هذه الأمم اليوم لاستغرق ذلك قروناً ، ثم كانت المقارنة بحساب دقيق ، فإذا فاق العدو ، وسبقنا بشعرة في القوة المادية ، والعدد الحربية رجحت كفته؛ لأنَّ المادة عمياء وهي من القساوة والحياد التام بمكان لا تفرق فيه بين المحق والمبطل ، والشريف والوضيع .

* * *

رِدَّةٌ وَلا أبا بَكر لها[1]

شهد التاريخ الإسلاميُ حوادث ردَّةٍ عديدةً ، أبرزها وأعنفها ردة القبائل العربية على إثر وفاة الرسول ﷺ ، والثورة الكبيرة التي وأدها أبو بكر الصدِّيق في مهدها بإيمانه ، وعزمه الذي ليس له مثيل في التاريخ ، ومنها حركة التنصير التي انتشرت في إسبانيا على إثر جلاء المسلمين ، والتي ظهرت في بعض الأقطار التي استولت عليها الدول الغربية المسيحية ، ونشط فيها القسس و«الإرساليات» ، ومنها قضايا شاذة من ارتداد بعض ضعاف العقول وصغار النفوس من المسلمين عن دين الإسلام ، واعتناقهم للبرهمية ، أو الآرية في الهند ، ولكنها حوادث نادرةٌ جداً ، وفي الحقيقة : إنَّ تاريخ المسلمين لا يعرف الردَّة العامة ـ إذا استثنينا إسبانيا البائسة إذا صح أن نسميها ردة ـ كما اعترف به مؤرخو الدِّيانات .

وتتسم هذه الحوادث كلُّها بسمتين : أولاهما المقت الشديد من المسلمين ، والثانية الانفصال عن المجتمع الإسلامي ، فكان كلُّ من يرتد عن دينه يستهدف لسخط المسلمين الشديد ، وينفصل عن المجتمع الإسلاميِّ الذي يعيش فيه بطبيعة الحال ، وتنقطع بمجرد ارتداده بينه وبين ذوي قرابته الأواصر والأرحام، وكانت الردَّة انتقالاً من مجتمع إلى مجتمع ، ومن حياةٍ إلى حياة ، وكانت الأسرة تقاطعه ، وتهجره ، وتقصيه ، فلا

---

(١) نشر هذا المقال أولاً في مجلة «المسلمون» الصادرة في جنيف ، ثم أعيد نشره في مجلة «البعث الإسلامي» بعنوان «ردة جديدة» في عددها الرابع المجلد الرابع ، عام ١٩٥٩ م .

مصاهرة ، ولا زواج ، ولا إخاء ، ولا تـوارث ، وكانت حركات الردَّة تثير روح المقاومة في المسلمين ، والمقارنة بين الديانات ، والدفاع عن الإسلام ، وكلُّ قطر من أقطار المسلمين ظهرت فيه حوادث الردَّة تحمس علماء المسلمين ودعاة الإسلام وحملة الأقلام فيه للردِّ عليها ، وتتبع أسبابها ، وعرض محاسن الإسلام ومزاياه ، واجتاحت المجتمع الإسلاميَّ موجةٌ عنيفة من السُّخط ، والاستنكار ، والقلق ، وكانت هذه الحوادث المقيمة المقعدة للمسلمين ، وكانت الحديث العام ، والشغل الشاغل للعامَّة فضلاً عن الخاصَّة وأهل الغيرة الدينية ، هذا ما اتسمت به حوادث الردَّة ، على ندرتها وشذوذها ، وعلى عدم تأثيرها في الحياة.

ولكن جرَّب العالم الإسلامي في العهد الأخير ردَّةً اكتسحت عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه ، وبزَّت جميع حركات الردَّة التي سبقتها في العنف وفي العموم ، وفي العمق وفي القوة ، ولم يخل منها قطر ، وقلَّما خلت منها أسرة من أسر المسلمين ، هي ردَّةٌ تلت غزو أوربة للشرق الإسلامي ، الغزو السياسي والثقافي ، وهي أعظم ردَّةٍ ظهرت في عالم الإسلام ، وفي تاريخ الإسلام منذ عهد الرسول ﷺ إلى يوم الناس هذا.

ماذا تعني الردَّة في عرف الإسلام ، وفي مصطلح الشريعة الإسلامية؟ هي إبدال دينٍ بدين ، وعقيدةٍ بعقيدة ، وإنكار ما جاء به الرسول ، وتواتر عنه ، وثبت بالضرورة من دين الإسلام.

وماذا كان يفعل المرتدُّ؟ ينكر الرسالة المحمدية ـ على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ وينتقل إلى المسيحية ، أو اليهودية ، أو البرهمية ، أو يلحد في الدين ، وينكر الرسالات ، والوحي ، والمعاد ، هذا ما كان يعرفه العالم القديم أو المجتمع القديم من معاني الردة ، وكان كلُّ من يرتد عن دينه يدخل الكنيسة إذا تنصَّر ، أو يدخل الهيكل أو معبد الأصنام إذا اعتنق البرهمية مثلاً ، فيعرف ذلك الجميع ، ويصبح شامة بين الناس يشار إليه بالبنان ، ويقطع منه المسلمون الأمل ، ولا يكون ارتداده ـ في غالب الأحوال ـ سرّاً من الأسرار.

حملت أوربة إلى الشرق الفلسفات التي قامت على إنكار أسس الدين ، وإنكار القوة المصرفة لهذا العالم ، القوة الواعية التي أخرجت هذا العالم من العدم إلى الوجود ، وبيدها زمام الكون: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وعلى إنكار عالم الغيب والوحي والنبوءات ، وإنكار الشرائع السماوية ، وإنكار القيم الروحية والخلقية ، ومنها ما تبحث في علم الحياة والنشوء والارتقاء ، ومنها ما تتصل بالأخلاق ، ومنها ما تدور حول علم النفس ، ومنها ما موضوعها الاقتصاد والسياسة ، ومهما اختلفت هذه الفلسفات في ألوانها ، وأهدافها ، وأسسها؛ فإنها جميعاً تلتقي على النظرية المادية المحضة إلى الإنسان وإلى الكون ، والتعليل الماديّ لظواهرهما وأفعالهما.

غزت هذه الفلسفات المجتمع الشرقيَّ الإسلاميَّ ، وتغلغلت في أحشائه ، وكانت أعظم ديانة ظهرت بعد الإسلام في التاريخ ، أعظمها انتشاراً ، وأعمقها جذوراً ، وأقواها سيطرةً على العقول والقلوب ، وأقبل عليها زهرة البلاد الإسلامية ، وزبدتها عقلاً وثقافةً ، وأساغتها ، وهضمتها ، ودانت بها كما يدين المسلم بالإسلام والمسيحيُّ بالمسيحية بكل معنى الكلمة ، فهي تستميت في سبيلها ، وتقدِّس شعارها ، وتجلُّ قادتها ، ودعاتها ، وتدعو إليها في أدبها ومؤلفاتها ، وتحتقر كلَّ ما يعارضها من الأديان ، والنظم ، والعقليات ، وتؤاخي كلَّ من يدين بها ، فأفرادها أمةٌ واحدةٌ ، وأسرةٌ واحدةٌ ، ومعسكرٌ واحد.

وما هي هذه الديانة ـ وإن أبى أصحابها أن يسمُّوها ديانة ـ؟ إنكارٌ لفاطر الكون العليم الخبير؛ الذي قدَّر فهدى؛ وإنكار للمعاد وحشر الأجساد ووجود الجنة والنار والثواب والعقاب ، وإنكار النبوءات والرسالات ، وإنكار الشرائع السَّماوية ، والحدود الشرعية ، وإنكار أنَّ الرسول الأعظم هو الذي فرض الله طاعته على جميع الخلق ، وحصر الهداية والسعادة في اتِّباعه ، وأن الإسلام هو الرسالة الأخيرة الخالدة المتكفلة لجميع السعادات الدنيوية والأخروية ، ونظام الحياة الأمثل الأفضل ، وهو الدِّين الذي

لا يقبل الله غيره ، ولا يُسعد العالم سواه ، وإنكار أنَّ الدُّنيا خلقت للإنسان ، وأنَّ الإنسان خُلق لله .

هذه ديانة الطبقة المثقفة الممتازة التي تملك زمام الحياة في أكثر البلدان الإسلامية ، وإن لم تكن كلُّها طبقةً واحدةً في الإيمان بها ، والتحمُّس لها ، وفيها ولا شك مؤمنون بالله ، متدينون بالإسلام ، ولكن سمة هذه الطبقة؛ التي تغلب عليها مع الأسف ، وديانة أكثر أفرادها ورؤسائها هي الديانة المادية ، وفلسفة الحياة الغربية؛ التي قامت على الإلحاد.

إنها ردَّة ، أعود فأقول: اكتسحت العالم من أقصاه إلى أقصاه ، وغزت الأسر والبيوتات ، والجامعات والكليات ، والثانويات والمؤسسات ، فما من أسرة مثقفة ـ إلا من عصم ربك ـ إلا وفيها من يدين بها ، أو يحبُّها ، أو يجلُّها ، وإذا استنطقته ، أو خلوت به ، أو أثرته عرفت أنه لا يؤمن بالله ، أو لا يؤمن بالآخرة ، أو لا يؤمن بالرسول ﷺ ، أو لا يؤمن بالقرآن الكتاب المعجز الخالد ودستور الحياة ، وأفضلهم من يقول: إنَّه لا يفكر في مثل هذه المسائل ، ولا يهتمُّ بها كبير اهتمام.

إنَّها ردةٌ ، ولكنَّها لم تلفت المسلمين ، ولم تشغل خاطرهم؛ لأن صاحبها لا يدخل كنيسة ، أو هيكلاً ، ولا يعلن ردته وانتقاله من دينٍ إلى دينٍ ، ولا تنتبه لها الأسرة ، فلا تقاطعه ، ولا تقصيه بل يظلُّ يعيش فيها ، ويتمتَّع بحقوقها ، وقد يسيطر عليها ، ولا ينتبه لها المجتمع ، فلا يحاسبه ، ولا يعاتبه ، ولا يفصله ، بل يظلُّ يعيش فيه ، ويتمتَّع بحقوقه ، وقد يسيطر عليه.

إنَّها قضية العالم الإسلامي الكبرى ، إنَّها مشكلة الأمة الإسلامية الكبرى ، ردة تنتشر وتغزو المجتمع الإسلامي ، ثم لا ينتبه لها أحد ، ولا يفزع لها العلماء ورجال الدين ، لقد قالوا قديماً: «**قضية ولا أبا حسن لها**» وأقول: ردةٌ ولا أبا بكر لها.

إنا قضية لا تطلب حرباً ، ولا تطلب تهييج الرأي العام ، ولا تطلب ثورة ، ولا تطلب عنفاً ، بل إن العنف يضرُّها ، ويهيجها. والإسلام

لا يعرف محاكم التفتيش ، ولا يعرف الاضطهاد ، إنَّها تطلب عزماً ، وتطلب حكمة ، وتطلب صبراً واحتمالاً ، وتطلب دراسة .

لماذا انتشرت هذه الديانة في الشرق الإسلامي؟

لماذا استطاعت أن تغزو المسلمين في عقر دارهم ؟ .

ولماذا استطاعت أن تسيطر على العقول والنفوس هذه السيطرة القوية؟ إنَّ كل ذلك يتطلب التفكير العميق الدقيق ، والدراسة الواسعة .

ضَعُفَ العالم الإسلاميُّ في القرن التاسع عشر المسيحي في الدعوة ، والعقيدة ، والعقلية ، والعلم ، وبدا عليه الإعياء والشيخوخة ، والإسلام لا يعرف الشيخوخة والهرم ، إنَّه جديدٌ كالشَّمس ، وقديمٌ كالشَّمس ، وشابٌّ كالشَّمس ، ولكنَّ المسلمين هم الذين شاخوا ، وضعفوا ، فلا سعة في العلم ، ولا ابتكار في التفكير والإنتاج ، ولا عبقرية في العقل ، ولا حماسة في الدعوة ، ولا عرضاً جميلاً ومؤثراً للإسلام ومزاياه ورسالته إلا النادر القليل .

ولا صلة بالشباب المثقف والتأثير في عقليتهم ، وهم أمة الغد والجيل المرتجى ، ولا محاولة لإقناعهم بأنَّ الإسلام هو دين الإنسانية والرسالة الخالدة ، وأنَّ القرآن هو الكتاب المعجز الخالد؛ الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا تنفد ذخائره ، ولا تبلى جدته ، وأنَّ الرسول هو المعجزة الكبرى ، ورسولُ الأجيال كلِّها ، وإمام العهود كلِّها ، وأنَّ الشريعة الإسلامية هي الآية في التشريع ، وهي الصَّالحة لمسايرة الحياة ، وقضاء مآربها الصَّالحة ، والإشراف عليها ، وأنَّ الإيمان ، والعقيدة ، والأخلاق ، والقيم الروحية هي أساس المدنية الفاضلة ، والمجتمع الكريم ، وأنَّ الحضارة الجديدة لا تملك إلا الوسائل والآلات ، وأنَّ تعاليم الأنبياء هي مصدر العقيدة ، والخلق ، والغايات ، ولا مطمع في المدنية الصالحة المتزنة إلا بالجمع بين الوسائل والغايات .

وفي هذه الساعة هجمت أوربة بفلسفاتها؛ التي تَعِبَ في تدوينها وتهذيبها كبارُ الفلاسفة ، ونوابغُ العصر ، وصبغوها بصبغةٍ علمية فلسفية

يخيل إلى الناظر أنها غاية ما يصل إليها التفكير الإنسانيُّ ، ومنتهى الدراسات والاختبارات ، ونتاج العقول البشرية ، وعصارة التأملات ، وكان فيها ما يقوم على الاختبار والمشاهدة ، وتصدقه التجربة ، وما يقوم على الافتراض والتحكم والتخييل والتوهم ، وفيها الحقُّ والباطل ، والعلم والجهل ، والحقائق الراهنة والتخيلات الشعرية ، وليس الشعر محصوراً في النظم والقوافي ، هو في الفلسفة والعلم أيضاً.

ووردت هذه الفلسفات مع الفاتحين الأوروبيين ، فخضعت لها العقول والنفوس البشرية ، وأذعنت لها وقَبِلتها الطبقة المثقفة في الشرق ، وفيها من يفهمها ، وهم القلَّة القليلة ، وفيها من لا يفهمها ، وهم الكثرة الكاثرة؛ ولكن كلٌّ مؤمن بها مسحورٌ بسحرها ، يرى الظرافة والكياسة في اعتقادها ، ويرى ذلك شعار المثقفين الأحرار.

وهكذا انتشر الإلحاد والارتداد في الأوساط الإسلامية من غير أن ينتبه له الآباء ، والأساتذة المربون ، وأهل الغيرة؛ لأنَّ أهلها لم يقوموا في كنيسة ، ولم يدخلوا في معبد ، ولم يسجدوا لصنم ، ويذبحوا لطاغوت ، وكان ذلك دليل الارتداد والكفر والزندقة في العهد القديم.

وكان المارقون القدماء يخرجون من المجتمع الإسلاميِّ ، وينضمون إلى مجتمع الديانة التي يدينون بها جديداً ، ويعلنون عقيدتهم ، وتحولهم بصراحةٍ وشجاعةٍ ، ويتحمَّلون كلَّ ما يخسرونه في سبيل عقيدتهم الجديدة، ولا يلحون على البقاء في المجتمع القديم؛ ليحافظوا على ما كانوا يتمتعون به من حقوق وحظوظ.

أما الذي يقطع صلته عن دين الإسلام اليوم فلا يريد أن يقطع صلته عن المجتمع الإسلاميِّ ، مع أنَّ المجتمع الإسلامي هو المجتمع البشري الوحيد الذي يقوم على العقيدة ، ولا يتحقَّق هذا المجتمع من غير عقيدةٍ ، ويلحُّون على أن يعيشوا في مراكزهم متمتعين بثقة هذا المجتمع ، متمتعين بالحقوق التي يخولها الإسلام ، إنَّ هذا وضع شاذٌّ لم يعرفه التاريخ الإسلاميُّ.

وهنالك نزعاتٌ جاهليةٌ ومبادىء جاهليةٌ حاربها الإسلامُ بكل وضوح ،

وحاربها الرسولُ بكلِّ قوة ، كالعصبية الجاهلية؛ التي تقوم على وحدة الدم ، أو الوطن ، أو الجنس ، وتُمجَّد هذه العصبية ، ويبالغ في تقديسها ، والدفاع عنها ، والقتال تحت رايتها ، وتوزيع المجتمع الإنساني على أساسها ، حتى تصبح ديانةً وعقيدةً.

وتسيطر على العقول ، والنفوس ، والأرواح ، والآداب ، ولا شك أنَّها في عمقها ، ورسوخها ، وقوَّتها ، وشمولها تنافس الأديان ، وتستعبد الإنسان ، وتحبط مساعي الأنبياء ، وتحدد الدين ـ الذي جاء ليحكم على الحياة ـ في العبادات والطقوس ، وتقسم العالم الإنسانيَّ إلى معسكراتٍ متحاربةٍ ، والأمة التي قال الله عنها: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢] في أممٍ كثيرة.

لقد حارب الرسول هذه العصبية الجاهلية بكلِّ قوَّةٍ ، ومن غير هوادة ، وأنذر منها ، وسدَّ منافذها ، فلا بقاء للدين العالمي ، ولا بقاء للأمة الواحدة مع هذه العصبيات ، ومصادرُ الشريعة الإسلامية زاخرةٌ بإنكارها ، وتشنيعها ، والنصوصُ في ذلك أكثر من أن تستقصى ، وهذا الذي يعرف بداهةً من الإسلام ، والذي عرف طبيعة الإسلام ، بل عرف طبيعة الأديان عرف أنَّها لا تسيغ هذه العصبيات ، وَمَنْ درس التاريخ متجرداً عن الميول ، والمذاهب السياسية عرف أنها لم تزل ولا تزال من أقوى عوامل الهدم ، والتخريب ، والإفساد ، والتفريق بين الإنسان والإنسان ، والمعقول المنتظر من الإنسان الذي جاء ليوحِّد العالم ، ويجمع النوع الإنساني تحت رايةٍ واحدةٍ ، وعلى عقيدةٍ واحدة ، ويكوِّن مجتمعاً جديداً قائماً على الدين ، وعلى الإيمان بربِّ العالمين ، ويبسط الأمن والسَّلام ، وينشر الحبَّ والوئام بين أعضاء الأسرة الإنسانية ، ويجعلها جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمىٰ ، من المعقول جداً من هذا الإنسان أن يحارب هذه العصبيات بكلِّ وضوحٍ وصراحةٍ ، ويجعلها كلمةً باقية في عقبه لعلَّهم يرجعون.

ولكنَّ العالم الإسلامي أصبح بعد ما غزته أوربة سياسيّاً ، وثقافيّاً

يخضع لهذه العصبيات الدَّموية ، والجنسية ، والوطنية ، ويؤمن بها كقضية علمية ، وحقيقة مقررة ، وواقع لا مفرَّ منه ، وأصبحت شعوبه تندفع اندفاعاً غريباً إلى إحياء هذه العصبيات التي أماتها الإسلام ، والتغنِّي بها ، وإحياء شعائرها ، والافتخار بعهدها الذي تقدَّم على الإسلام ، وهو الذي يلحُّ الإسلام في تسميته بالجاهلية ، وليس في معجمه تعبير أهول ، وأفظع منها ، ويمنُّ القرآن على المسلمين بالخروج عنها ، ويحثِّهم على شكر هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

والطبيعي من المؤمن ألا يذكر الجاهلية مهما تقادم عهدها أو قارب إلا بمقتٍ ، وكراهيةٍ ، وامتعاضٍ ، واقشعرارٍ ، وهل يذكر السجين المعذب الذي أطلق سراحه أيام اعتقاله وتعذيبه وامتهانه إلا وَعَرَتْهُ قشعريرةٌ ، وثارت الذكريات الأليمة القاتمة! وهل يذكر البارىء من علَّةٍ شديدةٍ طويلةٍ أشرف منها على الموت أيام سقمه إلا وانكسف باله ، وامتقع لونُه ، وهل يذكر الإنسان رؤيا فظيعةً مفزعةً رآها إلا وشكر الله على أنَّها حلمٌ زائلٌ ، وهمٌّ راحل ، والجاهلية التي تجمع معاني الجهل والضلالة ، والبعد عن الحقائق ، وأنواع الخطر والمضار في الدنيا والآخرة أعظمُ من كلِّ ذلك ، وجديرةٌ بأن يثير ذكراها المقتَ الشديد ، وتحث على الشُّكر على التخلص منها وانقضاء أيامها؛ ولذلك جاء في الصحيح: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يُقذف في النَّار**».

وقد ذمَّ الله شعائر الجاهلية ، وأبطالها ، وعظماءها في غير رفق وتحفظٍ ، فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ

﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١ ـ ٤٢] ويقول: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٧ ـ ٩٩].

ولكن كثيراً من الأقطار الإسلاميَّة والشعوب الإسلاميَّة ـ بتأثير الفلسفات الغربية والتفكير الغربي وحده ـ أصبحت تمجِّد عهدها العتيق الذي سبق الإسلام، وحضارته، وتقاليده، وتحنُّ إليه، وتحرص على إحياء شعائره، وتخليد عظمائه، وأبطاله، وملوكه، وأمجاده، كأنه عهدها الذَّهبيُّ، وكأنه نعمةٌ حرمها الإسلام إيَّاها، وفي ذلك من الجحود والنكران للجميل، وقلة تقدير نعمة الإسلام، وفضل محمد عليه الصلاة والسَّلام، وتهوين خطب الكفر، والوثنية، وما اشتملت عليه الجاهلية من خرافات، وضلالات، وسفاهات، ومضحكات، ومبكيات ما لا يعقل عن مسلم واع، وما يخاف معه الحرمان من نعمة الإسلام، وسلب الإيمان، والتعرض لسخط الله الشديد، وقد قال:

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

زد إلى ذلك ما يوجد في العالم الإسلامي اليوم من التهور في الحصول على المادة وإيثارها عل كل مبدأ وعقيدة، وإيثار الدُّنيا على الآخرة، والإخلاد إلى الأرض واتِّباع الهوى، وما تبع ذلك من التفسُّخ والاستهانة بمحارم الله، وشيوع الخمر والفسوق في الطبقات الراقية، حتى تكاد تكون هذه الطبقة نسخةً واحدة، وصورةً واحدةً في كلِّ بلدٍ إسلاميٍّ إلا من عصم ربك، وقليل ما هم، والتحرُّر من قيود الإسلام وفرائضه تحرراً تاماً، حتى كأنها لا صلة لها بالإسلام وشريعته، وكأنها شريعة منسوخةٌ وأسطورةٌ خيالية.

هذا تصوير العالم الإسلاميِّ الدينيِّ والاعتقاديِّ بالإجمال، وهي موجة جاهلية تكتسح العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وهي أعظم موجة واجهها العالم الإسلامي في تاريخه الطويل، وهي تفوق كلَّ موجةٍ معارضةٍ

عرفها التاريخ الإسلامي سواءً في قوتها ، وفي شمولها ، وفي تأثيرها في المجتمع الإسلاميِّ ، وتمتاز عنها بأن المنتبهين لهذه الأخيرة قلائل ، والذين ينقطعون إلى محاربتها ، ويجندون لها قواهم ومواهبهم أقل ، فقد حدث الإلحاد ، وظهرت الزندقة بتأثير الفلسفة اليونانية في العهد القديم ، فوجد من يحاربها بعقله الكبير ، وذكائه النادر ، وعلمه الغزير ودراسته الواسعة ، وشخصيته القوية ، وظهرت الباطنية والملاحدة ، فوجد من يحاربها بالعلم والحكمة والبرهان وبقي الإسلام محتفظاً بنفوذه العقلي ، ومكانته العلمية ترتد عنه كل موجة عاتية ، وينحسر عن طوده كلُّ فيضان ، وكلُّ سيل جارف.

ليست المسألة مسألة انحطاطٍ في الأخلاق ، وضعف في العبادات ، وترك للشعائر ، وتقليد للأجانب ، وإن كانت مسائل تستحق العناية والجهاد ، ولكن مسألة العالم الإسلامي اليوم أعظمُ وأضخمُ من كلِّ ذلك ، إنَّها مسألة كفر وإيمان ، إنَّها مسألة بقاء على الإسلام وخلع له ، إنَّ المعركة قائمة بين الفلسفة الغربية اللادينية وبين الإسلام آخر الرِّسالات ، وبين المادية والشرائع السماوية ، ولعلَّها آخر معركة تقوم بين الدين واللادينية ، وإنها تحدِّد مصير العالم.

إنَّ جهاد اليوم ، وإن خلافة النبوة ، وإنَّ أعظم القربات وأفضل العبادات أن تقاوم هذه الموجة اللادينية التي تجتاح العالم الإسلامي ، وتغزو عقوله ، ومراكزه ، وأن تعاد الثقة المفقودة إلى نفوس الشباب والطبقات المثقفة بمبادىء الإسلام وعقائده، وحقائقه، ونظمه، وبالرسالة المحمدية ، وأن يزال القلق الفكريُّ ، والاضطراب النفسيُّ اللذان يساوران الشباب المثقف ، وأن يقنعوا بالإسلام عقلياً وثقافياً ، وأن تحارب المبادىء الجاهلية التي رسخت في النفوس ، وسيطرت على العقول علمياً وعقلياً ، وأن يحلَّ محلَّها المبادىء الإسلامية باقتناعٍ ، وإيمانٍ وحماسةٍ.

لقد مضى علينا قرنٌ كاملٌ وأوربة تغتصب شبابنا وعقولنا ، وتنبت في عقولنا الشكَّ، والإلحاد، والنفاق، وعدم الثقة بالحقائق الإيمانية الغيبية ،

والإيمان بالفلسفات الجديدة الاقتصادية ، والسياسية ، ونحن مُعْرِضون عن مقاومتها ، ومعتمدون على ما عندنا من تراث ، مضربون عن الإنتاج الجديد ، معرضون عن فلسفاتها ونظمها ومحاسبتها محاسبة علمية ، ونقدها وتشريحها كتشريح الأطباء الجرّاحين ، متعلِّلون بالبحوث السطحية والمستعجلة ، وبالزيادة في ثروتنا العلمية القديمة؛ حتى فوجئنا في العصر الأخير بانهيار العالم الإسلامي في الإيمان ، والعقيدة ، ومَلَكَ زمام الأمور في البلاد الإسلامية جيلٌ لا يؤمن بمبادىء الإسلام وعقيدته ، ولا يتحمَّس لها ، ولا تربطه بالشعب المسلم المؤمن البريء إلا «القومية الإسلامية» أو المصالح السياسية.

وبدأت هذه العقلية أو النفسية اللادينية تتسرب عن طريق الأدب ، والثقافة ، والصحافة ، والسياسة إلى الجماهير؛ حتى أصبحت الشعوب الإسلامية ـ وفيها كلُّ خير ، وكلُّ صلاح ، وكلُّ استعداد ، وهي من أصلح الكتل البشرية في العالم ـ خاضعة لهذه الطبقة بحكم ثقافتها ، وذكائها ، ونفوذها ، وإذا بقي هذا الوضع؛ تسرب الإلحاد ، والفساد إلى هذه الشعوب ، وإلى الطبقات التي تعيش في البادية ، والقرى ، وتعمل في المصانع ، والمزارع ، وصارت في طريق اللادينية والزندقة ، هذا ما وقع في أوربة ، وهو واقع في الشرق إذا جرت الأمور مجراها الطبيعي ، ولم تحل إرادة الله القاهرة.

إنَّ العالم الإسلامي في حاجةٍ شديدةٍ إلى دعوة إسلاميَّةٍ جديدة ، وإنَّ هتاف الدُّعاة والعاملين فيه وهدفهم اليوم: «**إِلَى الإِسْلَامِ مِنْ جَدِيْدٍ**» ، ولا يكفي الهتاف ، إنَّه لا بدَّ من تصميمٍ حكيمٍ قبل العمل ، لا بدَّ من تفكيرٍ هادىءٍ عميق: كيف نرد الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة ، وتملك الزمام إلى الإسلام من جديد ، وكيف نبعث فيها الإيمان والثقة بالإسلام ، وكيف نحررها من رق الفلسفات الغربية والحضارة العصرية ونظرياتها اللادينية.

إنَّه في حاجة إلى رجال ينقطعون إلى هذه الدعوة ، ويكرِّسون عليها علمهم ، ومواهبهم ، وكفايتهم ، ولا يطمعون في منصبٍ ، أو جاهٍ ، أو

وظيفةٍ أو حكومة ، ولا يحملون لأحدٍ حقداً ، ينفعون ، ولا ينتفعون ، ويعطون ، ولا يأخذون ، ولا يزاحمون طبقة في شيءٍ تحرص عليه ، وتتهالك ، حتى لا تكون لها حجة عليهم ، ولا للشيطان سبيل إليهم ، شعارهم الإخلاص ، والتجرُّد عن الشهوات ، والأنانيات ، والعصبيات.

إنَّ العالم الإسلامي في حاجة إلى منظمات علمية ، تهدف إلى إنتاج الأدب الإسلاميِّ القويِّ الجديد؛ الذي يعيد الشباب المثقف إلى الإسلام بمعناه الواسع من جديد ، ويحرِّرهم من رق الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعيٍ ، ودراسةٍ ، وأكثرهم بتقليدٍ وتسليمٍ ، ويقيم في عقولهم أسس الإسلام من جديد ، ويغذي عقولهم ، وقلوبهم ، إنَّه في حاجةٍ إلى رجالٍ في كلِّ ناحيةٍ من نواحي عالم الإسلام عاكفين على هذا الجهاد.

إنَّني لم أكن في فترة من فترات حياتي مِمَّن يقول بفصل الدين عن السياسة ، وممَّن يفسر الدين تفسيراً لا يتصادم مع وضع ـ مهما انحرف وشذَّ عن الإسلام ـ وينسجم مع كل مجتمع ، ولا ممَّن يعتبر السياسة «الشجرة الملعونة في القرآن» بل أنا في مقدمة من يدعو إلى إيجاد الوعي السياسي الصحيح في الشعوب الإسلامية ، وإيجاد القيادة الصَّالحة ، وممَّن يعتقد أنَّ المجتمع الدِّينيَّ لا يقوم إلا بالملك الديني الصحيح والحكم الصَّالح المؤسس على أسس الإسلام ، ولا أزال أدعو إلى ذلك حتى ألقى الله ، إنما المسألة مسألة ترتيبٍ ، وتقديمٍ ، وتأخيرٍ ، وما تقتضيه حكمة الدين وفقهه ، وما تفرضه الأوضاع.

إنَّنا بذلنا جهودنا ، ومواهبنا ، وما أوتينا من فرص ووسائل في حركات سياسية وتنظيمية ، وكان كل ذلك على أساس أنَّ الشعب مؤمن وأنَّ من يقوده ، ويملك زمامه ـ وهي الطبقة المثقفة لا محالة ـ مؤمن مقتنعٌ بالإسلام ، وعقيدته ، ومبادئه ، متحمِّسٌ للإسلام ، وعلوِّه ، ونفاذ حدوده ، وإذا الأمر بالضدِّ ، وإذا الشعب قد ضعف في إيمانه ، وانحطَّ في أخلاقه من حيث لم نشعر ، ولم يشعر ، وإذا الطبقة المثقفة ذابت في أكثر أفرادها العقيدةُ الإسلاميَّة ، وتبخَّرت بتأثير فلسفات الغرب ، وسياسته ،

ونفوذه ، وكثير من أفرادها ثائرٌ على العقيدة الإسلامية ، مؤمنٌ بالفلسفات الغربية ، وما جاءت به من عقائد وأفكار تصادم الدين ، وينتصر لها ، ويتحمَّس لها ، ويحرص على نشرها ، وتنفيذها ، ويريد أن ينظم الحياة على أساسها وفي ضوئها ، ويصل بالشعب إليها ، فمنهم مسرع متهور ، ومنهم حكيم متدرج ، ومنهم منفذ بالقوة يفرضها على الشعب فرضاً ، ومنهم هادىء يزينها للشعب ، والهدف واحد ، والغاية واحدة.

ورجال الدين ـ إن صحَّ هذا التعبير؛ إذ ليس في الإسلام الكهنوت والطبقة الدينية الممتازة ـ في ذلك فريقان: فريق يحارب هذه الطبقة حرباً شعواء ، ويكفِّرها ، ويبتعد عنها ، ويعرض عن تتبع أسباب هذا الاتجاه اللاديني ، وعن ثقافتها ، ولا يعنى بإصلاح الأحوال ، وتغيير هذا الاتجاه المعارض ، والمحارب للإسلام بالاختلاط بها ، وإزالة الوحشة والنفور عن الدِّين ، وعن رجال الدِّين ، وتشجيع ما عندها من خير وذرة إيمان ، وتغذيتها بالأدب الإسلاميِّ الصَّالح المؤثر ، وبالزهد فيما عندها من حياةٍ ، أو مالٍ ، وقوة وسلطان ، وتقديم النصح الخالص ، والتوجيه الحكيم.

وفريق يتعاون معها ، ويساهمها في المنافع والخيرات ، وينتفع بها في دنياه من غير أن ينفعها في دينها ، فلا دعوة ولا عقيدة ، ولا غيرة على الدِّين ، ولا حرص على الإصلاح ، ولا رسالة لها في هذا القرب والتعاون.

والفريق الثالث ـ الذي يتألم بهذا الوضع ، ويتوجع له ، ويعترف بأنَّ هذه الطبقة مريضةٌ صالحةٌ للتَّداوي ، مستعدةٌ للشفاء ، ويتقدَّم إليها بالدَّعوة الرفيقة ، والرسالة الحكيمة ، والنصيحة الخالصة ـ يكاد يكون مفقوداً ، فلا صلة لهذه الطبقة بالدِّين وبالجو الدِّينيِّ ، تعيش في عزلةٍ عنه ، وفي وحشة منه ، ولا تزداد إلا بعداً عن الدِّين ، وازدراء بكل ما يتصل به ، ويزيدها الفريق الذي يحاربها حرباً شعواء لا هوادة فيها ، والفريق الذي يتزعم الدين ، ويريد أن ينزع منها الحكم ، وينافسها في الجاه والمنصب ، لا يزيدها الفريقان إلا بغضاً للدِّين ، وإشفاقاً منه ، والإنسان مفطور على بغض من ينافسه في دنياه؛ إذا كان لا يؤمن إلا بالدنيا ، وينتزع منه الحكم

والسلطان؛ إذا كان لا يعيش إلا على الحكم والسلطان ، ويساهمه في مادته وشهواته؛ إذا كان لا يعرف إلا المادة والشهوات .

والأقطار الإسلامية اليوم بحاجة إلى فريق يتجرَّد عن المطامع ، ويخلص للدعوة ، ويبتعد عن كل ما يوهم بأن همَّه الدنيا ، والمادة والتغلب على الحكومة لنفسه ، أو عشيرته ، أو حزبه ، يحلُّ العقد النفسية ، والعقلية التي أحدثتها الثقافة الغربية ، أو أخطاء «رجال الدين» أو سوء التفاهم ، أو قلة الدراسة والابتعاد عن الإسلام وجوِّه ، وذلك بالمقابلات ، والصداقات ، والمحادثات ، والمراسلات ، والرحلات ، وبالأدب الإسلاميِّ الصالح المؤثر ، وبالروابط الشخصية ، وبالنزاهة ، وعلوِّ الأخلاق ، وقوَّة الشخصية ، والزهد في حطام الدنيا ، والعزوف عن الشهوات ، وتمثيل أخلاق الأنبياء ، وخلفائهم .

هذا هو الفريق الذي خدم الإسلام في كلِّ عصرٍ ، وإليه يرجع الفضل في تغيير اتجاه دولة بني أمية ، وظهور خامس الخلفاء الراشدين «عمر بن عبد العزيز» ونجاحه ، وقد أعيد هذا التاريخ في عصر الملك المغولي الأكبر جلال الدين أكبر؛ الذي ثار على الإسلام ، وصمم على تحويل هذه القارة الإسلامية الواسعة (الهند) التي عاشت في الحكم الإسلامي أربعة قرون ، جاهلية برهمية ، ولكن بفضل هذه الدعوة الحكيمة ، وبظهور داعية إسلاميٍّ مجدد ، وشخصية إسلامية حكيمة[1] أخلصت للإسلام وأحسنت فقهه ، وفقه الدعوة ، وبتأثير تلاميذه عادت الهند إلى الإسلام أقوى وأفضل ، وتوالى على عرش «أكبر» ملوك يتدرجون في الصلاح وحبِّ الإسلام حتى جاء على العرش ملك يتجمل تاريخ الإسلام ، وتاريخ الإصلاح بذكره وحديثه[2] .

---

(١) هو العالم الربَّانيُّ المجدد الكبير الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، المتوفىٰ عام ١٠٣٤ هـ. انظر للاطلاع على حياته الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة الندوي ، صدر عن دار ابن كثير بدمشق .

(٢) هو الملك الفاضل الصَّالح القويُّ الأمين «محيي الدين أورنك زيب» المشهور «بعالمكير» الذي تنسب إليه «الفتاوىٰ الهندية» المتوفىٰ عام ١١١٨ هـ. انظر للاطلاع =

إنَّها فريضةٌ لا تحتمل التأخير ، ولا تأخير يوم واحد ، فالعالم الإسلاميُّ يواجه اليوم موجة ردةٍ عنيفةٍ منتشرة في أعز أبنائه وأقوى أجزائه ، إنها ثورة على أعز ما يملك من عقيدة وخلقٍ وقيم ، ولا بقاء للعالم الإسلامي بعد ضياع هذه الثروة التي خلفها الرسول ، وتوارثتها الأجيال ، وجاهد في سبيلها أبطالُ الإسلام.

فليكن الموضوع موضع دراسةٍ واهتمامٍ لجميع مَنْ يهمُّهم أمرُ الإسلام.

* * *

= على ترجمته بكاملها كتاب «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للعلامة عبد الحي الحسني ، الجزء الثاني ، طبع دار ابن حزم ببيروت.

المشي على الأرض كإنسان
أفضلُ وأهمُّ من الوصول إلى القمر[1]

عدمُ الاتزان بين الوسائط والغايات مأساةُ الحضارة الحديثة

بدأت أوربة تتقدم في ميدان التحقيق ، والتجربة ، والكشف ، ودراسة الطبيعة والكون ، وقد كانت ـ من أجل أسباب تاريخيَّةٍ مختلفةٍ ، أهمُّها صراعُ الكنيسة والبلاط ، وسوءُ تمثيل أهل الكنيسة للدين ، وعداؤهم للعلم ـ بعيدةً عن الدِّين بل كارهةً له ، إنها كانت في الحقيقة مأساة الإنسانية ، إنَّ الذي كان يملك الزمام لم يكن يملك الشعور الأخلاقيَّ والضمير ، ولم يكن يعرف الغايات الرَّشيدة الواضحة للحياة ، وكان لا بدَّ أن تتمَّ عملية الكشف والاختراع ، والدراسة والتجربة ، لقد حاولت الكنيسة أن تخفي مظاهر الكون وحقائقه ، وتسترها كما تستر العيوب ، فكانت نتيجته الحتمية أن نشأ في الجيل الجديد توقٌ شديدٌ إلى العلم والمعرفة ، وحب الاستطلاع ، والرغبة الجامحة في دراسة الكون ، وكشف أسراره ، وهتك أستاره ، فإنَّ من حق الإنسان الطبيعي أن يحاول فهم هذا الكون الذي يعيش فيه ، ويسخِّر طاقاته وقواه ، وكلُّ من تولى القيادة فعل ذلك طبعاً ، ولو كانت إسبانيا المسلمة إذ ذاك زعيمة العالم تبنت هذه النهضة العلمية ، فلا ملامة ، ولا مؤاخذة على العلم والعلماء ، بل إنَّهم يستحقون شكرنا لأنَّهم هيؤوا لنا

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الحادي والثاني عشر ، عام ١٩٥٩ م. وهو: ملخص الكلمة الصَّريحة التي ألقاها العلامة الندوي في جامعة عليكره في حفل كبيرٍ حضره كثيرٌ من الطلاب وأساتذة الجامعة وكبار المسؤولين.

وسائل الحياة ، ولكن الشيء المؤسف: أنَّ هذه النهضة نهضة العلوم الطبيعية لم تكن مقرونةً بالأخلاق ، والإنسانية ، والغايات الصَّالحة ، والدوافع النظيفة بقدر ما كانت هي في حاجة إليها ، ذلك لأنَّ أوربة ذاتها كانت تفقد هذا الاتزان، والتعاون المطلوب ، إنها اختارت وجهة واحدةً من الحياة ، واستمرّت فيها مسرعةً ، وكانت نتيجته أنَّ الإنسان حاز الانتصارات تلو الانتصارات في تسخير الكون والعالم الطبيعي ، ونجح في ذلك نجاحاً لم يخطر ببال أسلافنا ، ولكنه مع ذلك ظل يتدحرج، وينحطُّ في الأخلاق والإنسانية ، واستمرّت النهضة العلمية ، والمادِّيّة ، والانحطاط الخلقي ، والروحيُّ معاً ، حتى وصلت كلٌّ منها إلى آخر درجة من درجات الكمال ، فتجمَّعت لديه أكداس من الوسائل ، ووفرةٌ من المعلومات ، لم يكن في وسع إنسان العصر القديم أن يحلم بها ، وفي الناحية الأخرى أفلس في الغايات الصالحة ، والأهداف النبيلة ، والأخلاق السَّامية ، والتعاون والإيثار ، ونكران الذات ، والعزوف عن الشهوات إفلاساً شائناً ، لم يفلس مثله في دور من أدوار التاريخ.

ليس ثمة شك أنَّ الوسائل منحةٌ عظيمةٌ ، ونعمةٌ ثمينة ، ولكن الغايات أيها الإخوة! أعلى منها قدراً ، وأرفع شأناً فالغاياتُ هي التي تبارك الوسائل ، وتجعلها رحمةً للإنسان ، أما عند فقدان الغايات والدوافع الصَّالحة للعمل فإن هذه الوسائل لا تستخدم إلا في مآرب التدمير ، والهلاك ، والفناء ، أو في مواضع حقيرة ، ومآرب تافهة سخيفة ، فالواضح المبين: أنَّه إذا لم يكن لدينا الشعور الإنسانيُّ النبيل ، والحسُّ الأخلاقي ، فإننا لا نستفيد من هذه الوسائل ، ولا نرجع منها بطائل ، اليوم نستطيع بكلِّ سهولةٍ أن نسمع دقات قلب واحدٍ منا ، وضربات نبضه على بعد آلاف الأميال ، ولكنني أتساءل: إنه إذا لم يكن عند القوم صلاحية التأثر والانفعال؛ هل تنفعه تلك الوسائل؟

واستطرد الأستاذ قائلاً: إنَّ أوربة كانت مفلسةً في الأخلاق ، والروح ، والسبب في ذلك يرجع إلى الظروف التاريخية ، ورواسب الماضي ، ولكن الشرق يختلف في ذلك عن الغرب تمام الاختلاف ، فإنَّ التعاليم السماوية ،

والأمانة النبوية في متناول يده ، ولذلك كان من واجبنا أن نعطي أوربة وجهة النظر الصحيحة للكون ، ونعطيها الغايات المثلى والدوافع الطيبة للعمل ، والكفاح ، والجهاد ، إنَّه كان من واجبنا أن نعطي أوربة الفكرة التي ترى بها هذا الكون ، لا كوحدات منتشرة وغير مربوطة ، بل كوحدة شاملة ، ومجموعة كاملة ساعياً وراء هدف صحيح ، وغاية صحيحة ، حتى لا يشغل الإنسان باله ـ بفضل هذه الفكرة ـ بهذه المصنوعات والعجائب ، بل يجتازها إلى صانِعها ، وخالقها ، وبارئها ، ويعرف الغاية الصحيحة للأدب والشعر ، إنه من الجفاء ، ومعارضة الفطرة ، وفتور العقل أن نطالب العلوم الطبيعية أن تمنحنا الغايات ، والأخلاق ، والدوافع النبيلة إلى العمل الصالح ، فإنَّ الأخلاق والدوافع خارجةٌ عن نطاق هذه العلوم ، لا تمتُّ إليها بصلة.

لقد أدَّى العلم دوره ، وأدَّى واجبه بكل أمانة ، ودقة ونشاط ، ولم يقصر في ذلك تقصيراً ، ولكن الإيمان واليقين لا يوجد إلا عند الأنبياء والرسل ، والتوجيه الخلقي وظيفة الدِّين فحسب ، ولكن مع الأسف مازال الشرق مديناً لأوربة ، فقد استورد منها الاختراعات ، والوسائل ، ولم يصدر إليها الإيمان ، واليقين والأخلاق ، والروحانية.

إنَّه يجب على معاهدنا ، وجامعاتنا العلمية أن تبتكر ، وتجتهد في أفكارها ، وطرقها ، وتضيف إلى الحضارة الإنسانية ذخائر علومها وأفكارها ، ولكن اليوم أصبحت وظيفتها الاطلاع على ما كدسته أوربة من معلومات وإحصاؤها وترديد دروسها ، إنه موضع أسف وحسرة أنَّ هؤلاء الذين كان المرجو منهم أن يقودوا الإنسانية ويتزعموها ، أصبحوا أذناب أوربة Camp Followers والمتطفلين على فتات مائدتها.

وختم كلمته وخاطب الشباب الجامعي قائلاً: ألا يبذلوا جهودهم في الردِّ على «الطائفية» التي يتهمون بها بين حين وحين ، بل يحاولوا أن يثبتوا تفوقهم الأخلاقيَّ ، والعلميَّ ، والعقليَّ ، وأهميتهم للإنسانية ، ويجعلوا ذلك أكبر همهم ، وغاية جهدهم.

إنَّ العالم يطلب الواقعية ، ويولع بالكمال والابتكار ، ويحبُّ النفع الملموس ، والفائدة المحسوسة ، فكلٌّ من أهميته ، وتفوقه العلميِّ ، ونبوغه العقليِّ هو لا يستحق الحياة فحسب ، بل يفوز بعرش القيادة.

* * *

ثورةٌ في التفكير[1]

إننا ـ معشر المسلمين ـ في حاجةٍ إلى ثورةٍ ، ثورةٍ في التفكير .

منذ قرون طويلة بدأنا ننظر إلى أنفسنا كمجموعةٍ بشريةٍ موزَّعةٍ في العالم ، منتشرةٍ في البلاد ، ذات قوميات مختلفة ، ولغات متنوعة ، وثقافات محلِّيَّة محاطة بظروف وأجواء خاصة ، و«إمكانيات» محدودة ، تجمع بين فروعها المختلفة وأسرها المتشتتة «وحدتان» اثنتان ، لا ثالثة لهما : «العقيدة» ، والخضوع للغرب ، والانحصار عليه في المعيشة والسياسة .

ومنذ مدةٍ طويلةٍ بدأنا نزن أنفسنا ، وقيمتنا ، ومكانتنا في خارطة العالم بهذه الطاقات «والإمكانيات» وبما نملكه من الوسائل ، والمواد الخام ، وحواصل البلاد ومنتجاتها ، وعدد النفوس ، والقوة الحربية ، فنرى كفتنا راجحةً في إقليم ، طائشةً في آخر ، راجحةً في حين ، طائشةً في حينٍ آخر .

ومنذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب ، وقيادته ، وأنه أمرٌ مقرَّرٌ وواقعٌ ، ليس منه مفر ، وآمنا بأنَّه وضعٌ لا يقبل التحوُّل ، ولا التطوُّر ، وتجدَّد المثل القديم وأصبح عقيدةً شائعة ، «وإذا قيل لك : إن التتر انهزموا ؛ فلا تصدق»[2] .

وأصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب ، ومناقشة سيادته ، وجدارته

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها ١٩ (ديسمبر وأكتوبر ١٩٥٩ م ـ ١٣٧٩ هـ) .

(٢) كانت تلك الجملة المأثورة الشائعة في المجتمع الإسلامي في القرن السابع عند غزو التتار للعالم الإسلامي وإخضاعه من أقصاه إلى أقصاه .

للسيادة، وإذا فكرنا في ذلك ـ على حين غفلة من العلم والدراسة والكياسة ـ استعرضنا طاقاتنا ، ووسائلنا ، والقوة الحربية في بلادنا ، وسهمنا من المخترعات الحربية ، والطاقات الذرية ، فاستولى علينا اليأس والتشاؤم ، وآمنا بأننا لم نخلق إلا للخضوع والخنوع ، ولنعيش على هامش الحياة ، وعيالاً على الغرب، مرتبطين معقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين.

هكذا يفكر العرب ، وهكذا يفكر المسلمون في باكستان ، وفي أندونيسيا ، وفي تركيا.

وهكذا يفكر الناس في اليابان ، وفي الصين ، وفي الهند ، وفي سيام ، وفي بورما.

هذا هو التفكير «السليم» ، وهذا هو المنطق «السديد» ـ كما يسميه الناس ـ وهذا هو الاستنتاج العلميُّ المبنيُّ على الدراسة والإيمان بقوة الأسباب ، وطبيعة الأشياء.

ولكن هناك جماعةٌ لا تقبل هذا التفكير ، ولا تؤمن بهذا المنطق ، بل تثور على هذا المنهج الفكريِّ ثورةً قويةً عارمةً. إنَّ لها منهجاً ـ في العمل ـ مختصاً بها ، وإلى هذا المنهج يرجع الفضل في أفضل الثورات ، وأصلحها ، وأقواها في التاريخ ، وفي تغيُّر الأوضاع في العالم تغيراً مدهشاً ، وفي سعادة البشرية بعد الشقاء الطويل ، وصلاح المجتمع البشري بعد الفساد الشامل.

ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج. ولا مستقبل للأمم ـ التي تؤمن بالمبادىء ، وتحتضن الدَّعوات ـ إلا في هذا المنهج.

ولنفهم هذا المنهج ، وقوته ، وفضله ، ونتائجه الباهرة للعقول نرجع قليلاً إلى الماضي ، ونستوحي «الصحف الصادقة».

يولد موسى في مصر في بيئة قاتمة خانقة قد انطبقت على بني إسرائيل كلَّ الانطباق ، وسدَّت في وجوههم المنافذ والأبواب ، حاضر شقيٌّ ، ومستقبل مظلم ، قلَّةُ عدد؛ وفقر وسائل ، وذلَّة نفوس ، عدوٌّ قاهر ،

وسخرةٌ ظالمة، لا قوة تدافع، ولا دولة تحمي، أمةٌ مصيرها معلومٌ محتومٌ، قد خلقت للشقاء والفناء.

ويولد موسى ، وولادته ، وحياته كلُّها تحدٍّ لفلسفة الأسباب ، ومنطق الأشياء ، أراد فرعون ألا يولد ، فولد ، وأراد ألا يعيش ، فعاش ، يعيش في صندوق خشبي مسدود ، وفي ماء النيل الفائض ، وينشأ في حضانة العدو ، ورعاية القاتل ، ويجدُّ به الطلب القوي الساهر ، فيفلت ، وينجو ، ويأوي إلى ظل شجرة كئيباً غريباً ، فيجد الضيافة الكريمة ، والزواج الحبيب ، ويرجع أهله فيلفه الليل المظلم ، والطريق الموحش ، وتتمخَّض زوجه ، فيطلب لها ناراً تصطلي بها ، فيجد نوراً يسعد به بنو إسرائيل ، ويهتدي به العالم ، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة ، فيجد النجدة والمدد للإنسانية كلِّها ، ويكرم بالنبوة والرسالة.

ويدخل على فرعون في أبهته وسلطانه ، وفي ملئه وأعوانه ، وهو المطلوب بالأمس ، قد تحققت عليه الجناية ، وتوجهت إليه الدَّعوى ، وفي لسانه حبسةٌ ، وفي موقفه ضعفٌ ، فيقهر فرعون وملأه بدعوته ، وإيمانه ، وحجته ، وبيانه ، ويلجأ فرعون إلى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجزة موسى التي ظنها فناً ، وسحراً ، فإذا بالسَّحرة خاضعون خاشعون ، يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢].

ويؤمر بالخروج ببني إسرائيل ، والإسراء في الليل من أرض الظلم إلى أرض النجاة ، ويتبعه فرعون بجنوده ، ويصبح موسى والبحر أمامه ، والعدو من ورائه ، ويخوض البحر فينفلق ، ويكون كلُّ فرقٍ كالطَّود العظيم ، ويعبر موسى وقومه ، ويتبعهم فرعون بجنوده ، فيلتهمهم البحر الهائج.

وهكذا يهلك فرعون وقومه الأقوياء الأغنياء ، ويملك بنو إسرائيل الضعفاء الفقراء ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ما هي القوة التي قهر بها موسى أعظم قوة في عصره ومصره، وما سرُّ انتصار بني إسرائيل على أعدائهم، وما سلاحُهم الذي واجهوا به العدو القاهر الكاسر، وأخضعوا به المحيط الحانق الثائر؟

اقرأ قصة موسى ـ في القرآن ـ من جديد، تر أنَّ السِّلاح الذي واجه به موسى فرعون وقومه، وانتصر به بنو إسرائيل، وتبوؤوا الإمامة والزعامة في مصر وما حولها هو «الإيمان» و«الطَّاعة» و«الدَّعوة إلى الله» ويتجلَّى هذا الإيمان، وهذه الطاعة، والدَّعوة في ثنايا القصَّة ومطاويها، وقد تجلَّى هذا الإيمان النبويُّ في دعوة فرعون وقومه، وبه تغلَّب موسى على حجاج فرعون ودهائه، هو يريد أن يشغله عن موضوعه، ويثير عليه الملأ، وهو ثابت على دعوته، ثابت في إيمانه، لا يتزعزع، ولا يتزلزل، ولا يتحوَّل، ولا يتغير، قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨].

ويسأله فرعون عن الأجيال التي مضت، وهو موضوع شائك، وسؤال محرج، ولكن موسى يتغلب على دقة الموقف بإيمانه الرَّاسخ، وحكمته النبوية، فيقول: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] ويفيض في الحديث عن الإله الواحد ـ الذي يفرُّ منه فرعون ـ فيقول: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

ويتجلَّى هذا الإيمان في أبرز مظاهره لمَّا رأى موسى أمامه البحر المائج، ومن ورائه العدو الهائج، فلا متقدم ولا متأخر، وهو وقومه بين طبقتي الرَّحى، ويناديه بنو إسرائيل في جزع وفي فزع: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] ولكنه ثابت الجأش، قوي الإيمان، يعرف أن

الله ناصر عبده ، ومنجز وعده ، يقول في صراحةٍ ، وثقة : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢].

ويعيش بنو إسرائيل في مصر حياة ذلٍّ ، وشقاءٍ ، وبؤسٍ ، وفقرٍ ، يعانون أفظع أنواع الظلم والاضطهاد ، وأقسى أساليب الحكم والاستبداد ، فيؤمرون بالإنابة إلى الله ، وتقوية الإيمان ، وتحسين الصِّلَة بالله؛ ليستحقوا نصره ، ويوجدوا في أنفسهم صلاحية الوراثة والخلافة في الأرض: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٨٧].

ولا طاعة أعظم من طاعة موسى وانقياده واستسلامه للأمر الإلهي ـ يؤمر بالتوجه إلى أعظم ملوك عصره ـ وهو الثائر الموتور شديد البطش ، عظيم السلطان ، فيقال له : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات : ١٧] ويتوجه إلى بلاط جبار يدَّعي الربوبية ، فيدعوه إلى الله الواحد القهار ، ويستمر في دعوته وجهاده ، وفي وعظه وإرشاده ، حتى يفتح الله بينه وبين قومه بالحق ، وهو خير الفاتحين.

لقد كان الإيمان ، والطاعة ، والدعوة إلى الله القوة التي واجه بها موسى «مشاكل» عصره ، وقهر بها أعظم إمبراطورية على وجه الأرض ، وأرقاها مدنيةً ، وأوسعها رقعة ، وأغناها أسباباً ، وأعظمها جبروتاً.

لو كان موسى ـ كزعيم لبني إسرائيل ـ يفكر تفكير الزعماء السياسيين ، ويستعرض «الإمكانيات» والوسائل التي يملكها قومه ، ويزن كلَّ شيءٍ في ميزان الواقع والحكمة العملية ، ولو نظر ـ وهو الذي نشأ في البلاط الملكي ـ إلى العدد ، والعدة ، والعزة ، والمنعة ، والجنود ، والبنود ، والثروة ، والذخائر التي كان يملكها فرعون ، وقارن في ذلك بين قومه وقوم فرعون؛ لما جاز له ـ في شريعة العقل ـ أن يواجه فرعون بما يسوءه ، ولتحتم عليه أن يقنع بحظه وحظ قومه ، ويرضى بالوضع السائد ، فلا إيمان ، ولا صلاح ، ولا عدل ، ولا أخلاق ، ولا تقوىٰ ، ولا إنسانية.

ولكنَّه نبيٌّ يرشده الوحي ، ولكنَّه مؤمن يؤمن بقوة الله ، ويؤمن بنصر

الله ، ولكنَّه داعية يفكر تفكير الدعاة ، وإنَّ هذا المنهج من التفكير والعمل هو الذي غيَّر مجرى التاريخ ، وأتى بالمعجزات ، وأدهش العقول ، وحيَّر الألباب.

ولو كان الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ يفكِّر تفكير الزعماء ، ويستعرض الإمكانيات والوسائل التي كانت تملكها قريش ، ولو أنه نظر إلى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين توزعتا العالم المتمدن المعمور ، الإمبراطورية الرومية ، والإمبراطورية الفارسية ، وما تتمتعان به من حول وطول ، وقد عرف قوتهما وسعة مملكتهما ـ وهو الفقيه الواعي ـ لما جاز له ـ في شريعة العقل ـ أن يتوجه بدعوته إلى الإنسانية جميعاً ، ويكتب إلى سيدي العالم المعاصر ، ورئيسي الإمبرطوريتين الغربية والشرقية يدعوهما إلى الإسلام ، ولبقي الوضع الذي كان يسود من قرون ، فمتى تملك هذه الحفنة البشرية التي آمنت به القوة التي تصارع قوة الإمبراطوريتين ، بل تفوقها ، حتى تهزمها وتدحرها؟ وإلى متى كان يجب عليه أن ينتظر؟ وماذا كان مصير العالم ومصير الإنسانية لو اتجه هذا الاتجاه ، وفكَّر هذا التفكير؟ لقد شقيت الإنسانية إذاً شقاءً طويلاً ، وتأخر أو توقف طلوع الصبح الصادق ، ولكان للإنسانية تاريخ غير هذا التاريخ.

ولكنَّـه ﷺ نبي يؤمر ، فيعمل ، ويتلقى التوجيه والإرشاد من السماء فَـيُـنَفِّذ ، ولكنَّه مؤمن يؤمن بقوة الله ، ويؤمن بنصره ، ويؤمن بأنَّ الضعيف مع نصره قوي ، والقوي بخذلانه ضعيف ، ويؤمن بقوله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ، ويؤمن بقوله: ﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ويؤمن بأن الله قد تكفَّل بنصر من ينصر دينه ، وينهض لإعلاء كلمته ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧] وقال: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣] ويؤمن بأن الله قد وعد بالانتصار ، والغلبة ، والعلوِّ ، والسيادة لعباده الذين قد تحققت فيهم صفة الإيمان ، وتجلَّت فيهم حقيقته ، فقال:

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٩] ولم يعد بشيءٍ من ذلك ـ من النصر، والفتح، والظفر، والغلبة، والعلو، والسيادة ـ على الأهواء والنزعات، والطموح، والكبرياء، وحبِّ المجد ـ الفردي أو القومي ـ وشرف الدماء، والأنساب، والبلاد، والعصبيات، والقوميات، فلم يتقدَّم بشيءٍ من ذلك إلى العالم، ولم يطلب به النصر مع أنَّه ـ ﷺ ـ من أشرف الأمم وأفضل البيوتات، وأقدس البلاد، إنَّما تقدَّم بدعوة دينية، ومنهجٍ خاصٍّ للحياة، لا غنى للأمم وطوائف البشر عنه على اختلاف أوطانها، وألوانها، ولغاتها، فخضعت له هذه الأمم، وهذه الطوائف من البشر، ولم تعقها عن ذلك عصبيةٌ، أو قوميَّةٌ؛ لأنه لم يكن من دعاة عصبيةٍ، أو جاهليةٍ، وإنَّما كان داعي دينٍ عامٍّ للإنسانية، وداعي عقيدةٍ، ومبدأ، ومنهجٍ فاضلٍ للحياة، ونصره الله على قلَّةٍ، وضعف، وفقر، ونصر كلَّ من قام بهذه الدَّعوة الدينية، وبهذا المنهج الخاص للحياة، وتكفَّل بنصرهم إلى آخر الدهر، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

إنَّني لست ممن يدعو إلى رفض الأسباب، والتوكُّل السَّلبي، ولست ممن يعيش في عالم الخيال والأحلام، ولست ممن ينكر الحاجة إلى الاستعداد، وممن لم يقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقد لمت العالم الإسلامي ومن تزعمه من الشعوب والدول لوماً شديداً في كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» على التقصير في الاستعداد الحربيِّ، والصناعيِّ، والتخلف عن أوربة في ذلك، واعتبرت ذلك سبب شقاء الإنسانيَّة، واتجاه العالم من الرشاد إلى الضلال، ومن البناء والازدهار إلى الهدم والدَّمار.

ولكنِّي أعارض هذا التفكير الذي تسلَّط على عقلية العالم الإسلامي في العهد الأخير، وهو النظر إلى الأمم الإسلامية ـ في مختلف أنحاء العالم ـ ككتل بشرية شأنها شأن القطعان البشرية الأخرى؛ التي لا رسالة لها في العالم، ولا دعوة لها للأمم، توزن في ميزان الإمكانيات، والوسائل، والاستعداد الماديِّ، وتقوَّم بما تملكه من ثروةٍ وذخائر، والتناسي أو

الإعراض عن قوتها الكبرى «الإيمان ، والطاعة ، والدعوة إلى الله» .

إننا يا قوم! فقراء ، ضعفاء ، متخلفون في العلم والصناعة ، وفي الاقتصاد والسياسة ، المسافة بيننا وبين الأمم الأوروبية مسافة قرون وعهود ، فليكن ذلك موضع اهتمام الزعماء والقادة ، ولينل ذلك كلَّ عنايةٍ ورعاية .

ولكننا في وقتٍ واحدٍ القوةُ الكبرى في العالم ، فعندنا دينٌ هو حاجة البشرية كلِّها ، وعندنا دعوةٌ تنقذ العالم من نهايته الأليمة التي تنتظره ، وتدنو إليه ، وعندنا الإيمان الذي يخلق الأمانة والشعور بالمسؤولية في النفوس ، ويخلق الدوافع القوية إلى عمل الخير وخدمة الإنسانية ، وقد حرمتها الأمم الزعيمة للعالم بعد ما ملكت كلَّ الأسباب والوسائل لعمل الخير وخدمة الإنسانية ، فأصبحت هذه الوسائل ضائعةً ، بل متجهة إلى القضاء على المدنية ، والإنسانية ، وحاجة أوربة في اقتباس هذا الإيمان منَّا أشدُّ وأعظم من حاجتنا إلى الاقتباس من صنائعها وعلومها؛ لأنَّ هذا الإيمان هو الأساس ، وهو الموجه ، وهو الضابط. وعندنا شريعة تحلُّ جميع المشاكل ، والأزمات التي يواجهها المجتمع البشري في القرن العشرين ، وعندنا ـ أولاً وآخراً ـ نبيٌّ أُرسل رحمةً للعالمين: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٦].

ألا فلنتجه بهذه الدَّعوة إلى أوربة الحائرة التائهة بإخلاصٍ ، ونزاهة ، وتوجُّع ، وشفقة ، وبقوَّةٍ وثقةٍ ، وإيمان ، ولننظر إلى أنفسنا كدعاة ومنقذين ، مبشرين منذرين ، ونستخدم هذه القوة الجبارة في تغيير مصيرنا ومصير العالم ، ولنحتل بفضلها مكان الزعامة والقيادة في ركب الإنسانية ، ومصافِّ الأمم ، بعد ما عشنا زمناً طويلاً في مؤخر الركب ، وفي صف التلاميذ والحاشية ، ولنتجه بهذه الدَّعوة المقدسة المنصورة؛ التي إما تقبل فترفع وتؤمن ، وإما ترفض فتهلك وتقهر ، بهذه الدعوة التي أوجب الله على نفسه نصرها ونصر رجالها .

ولنتجه بهذه الدعوة إلى مجالات مهجورة ، وكنوز مطمورة في آسيا وفي إفريقية ، إلى الشعوب التي ملكت الوسائل والعلم والصناعة ، والبلاد الواسعة ، والعقول الخصبة ، والسواعد القوية ، وجهلت الدين والغايات الصالحة ، والمبادىء الفاضلة ، وهي مستعدةٌ لقبول هذه الدَّعوة ، وإذا قبلت هذه الدعوة ، وفقهها ، وأخلصت لها تغير مجرى التاريخ من جديد ، كما تغيَّر في العهد الأول بإسلام الفرس ، والترك ، والدَّيلم ، وفي العهد الأوسط بإسلام التَّتار ، والمغول.

ألا إننا في حاجة إلى ثورةٍ في التفكير ، والمنهج.

* * *

نحن في معركة...[1]

إخواني الأعزاء! إنكم تفتتحون اليوم حفلات النادي العربي لهذا العام ، فجدير بي أن يكون موضوع خطابي اليوم (لماذا نتمرن على الخطابة باللغة العربية والكتابة فيها) إنَّه يمكن أن يقال الكثير عن حاجتنا إلى التمرن على الخطابة باللغة العربية ، ويمكن أن يتسع الكلام في هذا الموضوع.

إنَّ هنالك دواعي كثيرة ، ودوافع عديدة إلى هذا التمرن والممارسة للخطابة باللغة العربية ، وقد سبق في هذا الموضوع آراء وأحاديث ودلائل ، لا أعيدها اليوم ، ولكن الإنسان مادام حياً لا يزال يتقدَّم في الدراسة والتجربة ، وتتجدَّد له آراء وأفكار ، وتتفتح له منافذ جديدة ، سأقول بهذه المناسبة ما يختلف ويزيد على ما قلت سابقاً ، إني في هذه المرحلة من العمر والتفكير والثقافة أصرح بأنَّ الكتابة بأيِّ لغة ، أو الخطابة فيها بحيث لا تكون لها رسالة ، ولا يكون لها هدف ، ليس إلا ضرباً من العبث ، أقول لكم بكلِّ صراحةٍ: إنَّ كلَّ خطابة ، وكتابة ، وأدب ، وشعر ليست وراءه غاية سامية ومبدأ وأساس ديني من عقيدة ، أو دعوة ، ليست إلا ضرباً من التسلية ، والفكاهة فلا أكلفكم أيها الإخوان! أن تتمرنوا على الخطابة باللغة العربية لتكونوا خطباء بارعين، وكتاباً مجيدين فحسب، لا أكلفكم هذا؛ لأنه

---

(١) من العادات المتبعة في دار العلوم ـ ندوة العلماء أن العلامة الندوي ـ رحمه الله ـ كان يفتتح النادي العربي كل عام ويحث الطلبة على المساهمة في حفلاته بنشاط واجتهاد ، وقد ألقى العلامة هذا الحديث في حفلة السنة الافتتاحية عام ١٩٦٠ م. ونُشر هذا الحديث في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الخامس ، المجلد الخامس ، عام ١٩٦٠ م.

ليست له قيمة كبيرة في نظري ، وإنما أنظر إلى هذا الموضوع من ناحية أخرى.

إننا في معركة ثقافيةٍ عقليةٍ أدبية ، وقد سبقت لهذه الأمة معارك يعرفها التاريخ ، وتعرفونها جميعاً ، إنني لا أهون من قيمتها ، ولا أقلِّل من شأنها ، إنما هي معارك عظيمة حقاً ، ظهر فيها الإيمان ، وظهرت فيها الاستماتة في سبيل المبدأ في أسمى أشكالها ، وهي معارك خالدة ، مشهودة ، مذكورة في التاريخ وفي المجتمع الإسلامي.

ولكن هنالك معارك أخرى كانت معارك حاسمة في تاريخ هذه الأمة ، وفي سيرها وبقائها ، وهي الغزوات الثقافية التي غزيت بها هذه الأمة ، وامتحنت بها في عصورها المختلفة ، وفي مناطقها المختلفة. إنَّ أول هذه المعارك الفكرية هي المعركة العقلية التي خاضت فيها هذه الأمة في الفترة التي دخلت عليها الفلسفات الأجنبية ، وكانت فلسفات مؤثرة عاشت قروناً ، وحملت محصول عقول كبيرة كثيرة ، وكانت ثروةً ، زاخرةً ، خصبةً ، عميقةً ، امتحنت الأمة الإسلامية العربية في عهد طفولتها بهذا التراث الناضج المختلف الذي انتقل إلى العرب من يونان ، وروما ، وإيران ، والهند ، وكانت الأمة العربية لا تزال في دور التكوين والنشوء ، فكانت معركة دقيقة محرجة؛ لأنَّ الأمة الإسلامية العربية كانت لا تزال في دور الطفولة العلمية ، ولكنها بإيمانها الثابت ، وعزمها القوي ، وكتابها الخالد ، وبفضل السنة المحمدية ، وبفضل النوابغ الإسلاميين الذين ظهروا في هذا العصر ، استطاعت أن تخرج من هذه المعركة ظافرةً ، منتصرة ، لم تفقد في هذه المعركة شخصيتها ، ولم تتزلزل في عقيدتها ، وما كان هذا الانتصار إلا بفضل نوابغها ، وأدبائها ، وعلمائها ، وكتابها ، ومفكريها ، ولم يكن ذلك ميسوراً لهذه الأمة بشجاعتها فقط ، وبثباتها فقط وبسيفها فقط. فقد كانت معركةً عقليةً علمية ، لا يؤثر فيها إلا العقل النابغ ، والقلم البليغ ، واللسان المبين ، والدراسة الواسعة العميقة.

لقد كانت هذه المعركة معركةً حاسمةً لو ضعفت هذه الأمة ، وتزلزلت؛

لذهبت ، وأصبحت حديثاً من الأحاديث.

ثم جاءت معركة أخرى لا تقلُّ عن الأولى في الهول ، قد كانت هذه المعركة بين معسكر أهل السنة والجمهور بين المسلمين ، وبين معسكر الباطنيين ، لقد كان هذا المعسكر الأخير مسلحاً بأقوى أسلحةٍ فكرية وأمضاها ، وقد استطاع هؤلاء الأذكياء أن ينشئوا دولة عاشت ، وازدهرت عدة قرون ، انظروا إلى تاريخ الباطنية ، لقد كان فيهم علماء وأدباء من الطراز الأول ، يؤلفون رسائل (إخوان الصفا) في المشرق ، وتنتشر في الأندلس «المغرب الأقصى» في مدة قريبة ، ويعجب بها المثقفون ، والشباب في كل ناحية ، لقد كانت فتنة هائلة لولا إرادة الله ، ولولا نبوغ علماء الدين ، وعزمهم على أن يواجهوا الأدب بالأدب ، والذكاء بالذكاء ، والعلم بالعلم؛ لبقيت هذه الفلسفة تقود الشباب المسلم المثقف ، وتسيطر على عقليته وعقيدته ، ولكن نجح علماء السنة وحكماؤها في كفاحهم ، وقضوا على هذه الفلسفة وتأثيرها علمياً وثقافياً ، حتى أصبحت مدفونةً في كتب التاريخ والفلسفة.

شكراً لهؤلاء العلماء ، وتحيات خالدة لأولئك الأئمة المبدعين؛ الذين قاموا في وجه هذه التيارات الجارفة ، وقابلوا الحركات الهدامة التي هي من أقوى الحركات المالكة لأكمل الكفايات الإنسانية بكفاياتهم ، وجهودهم ، وعبقريتهم ، فتغلبوا عليها ، وحفظوا على هذه الأمة عقيدتها ، وشخصيتها ، ووحدتها الفكرية ، وصلتها بمنابع الدين الأصلية ، وسلفها المهتدين الصالحين.

والمعركة الثالثة ، هي: غزوة الغرب الثقافية الفكرية ، وقد كانت بكفايات جديدة ، وبروح جديدة ، وعبقرية جديدة ، وقد انتشرت في أقرب مدة في الشرق ، فما من قرية إلا وقد تأثرت بهذه الغزوة الثقافية في قليلٍ أو كثير.

وقد رافقت هذه الغزوة فلسفاتٌ ومذاهبُ فلسفيةٌ ، واقتصادية ، وعقلية ، تقوم على الإلحاد والتفكير المادي المحض ، وأبرز هذه

الفلسفات وأوسعها انتشاراً ، وأكثرها تأثيراً في الحياة العامة ثلاث ، الأولى هي «العلمانية» ، وهي فلسفة تقول : إنَّ الدين قضية شخصية ، لا شأن لها بالدولة ، ولا صلة لها بالنظام السياسي ، ولا بالتشريع ، ولا بسياسة البلاد ، وعلاقاتها بالدول ، ويجب أن تقوم الدولة على أساس «اللادينية» وأصبحت أكثرية المتعلمين المثقفين تؤمن بأعماق قلبها بهذه الفلسفة ، إنَّها فلسفة سيطرت على أذهان المسلمين مدَّةً طويلة ، وكان لها ولا يزال أنصار ، ودعاة في تركيا ، وفي مصر ، وفي الهند ، وباكستان ، وشمال إفريقية ، وعدد كبير من قادتنا السياسيين وأعلام الفكر والثقافة والأدب يدينون بهذه الفلسفة ، ويدعون إليها بحماسةٍ .

والفلسفة الثانية هي «القومية» كما يتصورها الغرب ، وكما صدَّرها إلينا قادة الفكر والسياسة في أوربة ، وقد أصبحت ديانةً ، وعقيدةً ، وفلسفةً لها شريعتها ، وشعائرها ومقدساتها ، ولها أمجادها ، وأبطالها من غير نظر إلى كفر ، وإيمان ، وفسق ، وصلاح ، وجاهلية ، وإسلام ، وإنَّما هي على أساس المجد القومي ، والبطولة القومية ، وقد آمن بهذه القومية بمفهومها العقائدي عدد ضخم من كتابنا ، وأدبائنا ، ومفكري الشرق العربي ، وهم الآن في طريقهم إلى صبغها بالصبغة العلمية ، وتدوينها كفلسفة ، والدعوة إليها كدين .

أما الفلسفة الثالثة ، فهي «الشيوعية» وهي من أقوى الفلسفات الغربية المادية ، وأوسعها ، وقد خضع لها عدد كبير من كتابنا ، وأدبائنا ، وتطوعوا لنشرها في الشرق الإسلامي بكل ما أوتوه من مواهب ، وهم من أنشط الكتاب والمؤلفين ، وأبرزهم في ميدان الأدب ، والرواية ، والتاريخ ، والفلسفة ، وقد انضم إلى هذا المعسكر كثيرٌ من شبابنا الأذكياء ، وكتابنا البارعين .

إنَّ القضية التي لا تقبل مناقشةً : أن الفلسفات الغربية قد حظيت بأكثر الكتّاب والنوابغ من أمتنا ، وأولئك هم الذين يتهافت على كتاباتهم القراء والشباب تهافت الظمآن على الماء ، ويعشق كتابتهم الشباب المثقفون في مكة ، والمدينة ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، والسودان ، وفي

المغرب الأقصى ، وفي مدن الجنوب العربي ، وفي كراتشي ، ودهلي ، والمدن التي لم تسمعوا بأسمائها ، يدخل فيها كتب هؤلاء الأدباء والمفكرين (الذين يفكرون التفكير الغربي ، ويؤمنون بفلسفاته) فتتخطفها الأيدي ، ويلتهمها الشباب والكهول قراءةً ومطالعةً ، ليس فيهم الكتاب المؤمنون الدعاة إلا النادر ، ليس فيهم من يؤمن من أعماق قلبه بأنَّ الإسلام دين خالد ، يصلح لكل عصر ومجتمع ، ويستحق وحده أن يسود ، ويقود ، ليس فيهم من يحارب الرذيلة ، والخلاعة ، والمبادىء الهدامة بقوة وحماسة ، ويدافع عن القيم الدينية والخلقية بقوة وحماسة إلا نادر النادر ، هؤلاء هم أدباؤنا الذين يملكون زمام الأدب ، ويسيطرون على عقول الشباب.

إنَّ احتكار هذا الصنف من الأدباء والكتاب للأدب وللكتابة ، وتزعمهم للحركة الأدبية وطبقة الكتاب والمثقفين قد اتجه بالشباب والطبقة المثقفة إلى الشك في صلاحية الدين في هذا العصر ، وجعله ـ على الأقل ـ يعيش في عزلةٍ عن الدين وثقافته وتأثيره ، إنَّ الأدب لم يزل ولا يزال من أقوى عوامل الإصلاح والإفساد ، إنَّ الأديب لا يزال منذ القديم يسوق بعصاه ـ بقلمه الصغير ـ ملايين من البشر ، إنَّ ما يبنيه علماء الدين المسلمون المصلحون في عام يهدمه الأديب الكاتب في ساعة ، فكيف إذا كان جيشٌ من الكتاب والأدباء يغزو الفكر الإسلامي كلَّ صباح ومساء!!

إنَّ من المؤسف المخجل ألا يوجد في الشرق الإسلامي كله إلا عدد ضئيل لا يتجاوز عدد الأنامل من الأدباء الإسلاميين الذين يستحقون أن يعدوا في الطبقة الأولى من الكتاب ، والذين يملكون ناصية البيان ، وينقدون هذه الفلسفات من خلال دراسة واسعة عميقة ، وفي أسلوب بليغ مشرق ، وفي لغة أدبية راقية ، يكتبون ، فينشط لقراءته هواة الأدب ، والمتذوقون للغة ، ولا تثقل قراءته على الشباب الناهضين الذين تعودوا قراءة الكتابة الخفيفة الرشيقة العصرية ، إنَّه لا بدَّ أن نكسر هذا الحصار الذي أقيم حول الأدب ، والكتابة ، والفلسفة ، والنقد ، والحصار الذي لا يسمح للدين بالدخول فيه ، إنه لا بد أن نقضي على الاحتكار الأدبي

الذي استبد به صنف خاصٌ من الأدباء والكتاب ، إنَّه لا بدَّ أن يحتل الكتاب المؤمنون محل الصدارة والزعامة في الأدب والكتابة ، إنَّ الأدب قوة كبرى في هذا العصر ، فيجب أن نستخدمها في الدعوة ، ومحاربة الجاهلية ، والفساد ، وغرس الإيمان والعقيدة.

لقد رأيتم كيف استطاع شاعر أديب مؤمن بعبقريته الأدبية ، وشخصيته العلمية القومية أن يحدث ثورة في الأدب والمجتمع وأساليب البيان والتفكير؛ وفي التراكيب وطرق التعبير ، ونحا بالأدب والشعر نحواً جديداً ، وهو كما تعرفون: الدكتور محمد إقبال. وقد رد مجموعة كبيرة من كبار المثقفين ، ومن أعلام الفكر والثقافة في شبه القارة الهندية إلى الإيمان والعقيدة ، وأوجد في عددٍ كبير لا يحصيه أحد الثقة بالإسلام ، والإعجاب بشخصية محمد عليه الصلاة والسلام ، أليس ذلك دليلاً على قوة الأدب والشعر ، وفضل الأديب المؤمن والشاعر المؤمن؟

وقد رأيتم أن كتابات بعض أدباء العربية في هذا العصر في موضوعات إسلامية والعرض الجميل للتاريخ الإسلامي وتقديم بعض الشخصيات الإسلامية القديمة إلى النشء الجديد في ثوب عصري قشيب ، وأسلوبٍ أدبي علمي رائع ، قد اتجه بعدد كبير من الشباب العرب إلى تقدير هذه الشخصيات ، وإجلالها ، والإعجاب بها. أغراهم بدراسة التاريخ الإسلامي ، وأثار فيهم كوامن الإيمان وحب الإسلام ، وهو عمل لا يستهان بقيمته ، فكيف إذا انصرف هؤلاء إلى الكتابات الأدبية الدينية ، وأخلصوا لرسالتهم ، وانقطعوا إليها ، وتحمَّسوا لها.

إننا أيها الإخوان! في معركة ثقافية عقلية أدبية يجب أن نخوض فيها بقوةٍ ، واستعدادٍ وعدةٍ ، وعتاد ، يجب أن نهيىء لها دراسات واسعة عميقة ، وألسنة مبينة ، وأقلاماً بليغة ، وأساليب قوية جميلة ، وملكات أدبية ، ومواهب علمية ، يجب أن يكون منا خطباء ، وأدباء ، وكتاب من الطراز الأول ، والطبقة العليا ، يجب أن نقدم للقراء والطبقات المثقفة كتابات أدبية علمية ، يتهافت على قراءتها الشباب في العواصم العربية

والإسلامية ، ويندفعون إليها بدوافع من الذوق ، والعلم ، يجب أن تكون لنا في ميدان العلم والأدب راية مرفوعة معروفة ، وأن نكون في موضع القيادة والزعامة في الحركة الأدبية والعلمية ، وفي مكان التوجيه والإرشاد ، لذلك أنشأت دار العلوم هذا النادي ، وعنيت بتربية الملكة الأدبية ، والكتابية ، والخطابية في أبنائها وشبابها ، ولذلك أيها الإخوان! أحثُّكم على الدراسة والتمرن ، وعلى التنافس في ذلك لتسدُّوا هذا العوز ، وتملؤوا هذا الفراغ الواقع في حياتنا الأدبية والعلمية ، وهو فراغ قد جر إلى إقصاء الدين ورجاله عن الحياة ، وحصر نفوذهم في دائرةٍ ضيقة ، ونطاقٍ محدودٍ جداً.

* * *

فراغ يجب أن يملأ[1]

للمصطلحات والأسماء الشائعة بين الناس للأشياء جناية على الحقائق ، ولهذه الجناية قصة طويلة في كل فن ، وفي كل أدب ودين ، فإنها تولد كائناً آخر تنشأ عنه الشبهات ، وتشتد حوله الخصومات ، وتتكون فيه المذاهب ، وتستخدم لها الحجج والدلائل ، ويحمى فيها وطيس الكلام والخصام ، فلو عدلنا عن هذه المصطلحات المحدثة ، وعن هذه الأسماء العرفية ، ورجعنا إلى الماضي ، وإلى الكلمات التي كان يعبر فيها الناس عن هذه الحقائق في سهولة وبساطة ، وإلى ما كان ينطق به رجال العهد الأول والسلف الأقدمون؛ انحلّت العقدة ، وهان الخطب ، واصطلح الناس.

ومن هذه المصطلحات والأسماء العرفية التي شاعت بين الناس «التصوف» ومن هنا ثارت أسئلة وبحوث ، وتساءل الناس: ما مدلول الكلمة أو مأخذها ، هل هو من الصوف ، أو من الصفاء ، أو من الصفو أو من الصفة؟ أو هي مأخوذة من الكلمة اليونانية (صوفيا) معناها الحكمة[2]؟ ومتى حدثت هذه الكلمة؟ ولم نعرف لها أثراً في الكتاب والسنة ، وما جاءت في كلام الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان ، وما عرفت في خير القرون ، وكل ما كان هذا شأنه ، فإنه من البدع المحدثة ، وحميت المعركة بين أنصاره وخصومه ، والموافقين والمعارضين ، حتى تكونت بذلك مكتبةٌ كبيرة ، يصعب استعراضها.

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها التاسع ، المجلد الخامس ، عام ١٩٦٠ م.

(٢) كلها أقوال قيلت في معنىٰ التصوف واشتقاقه ، راجع دائرة المعارف للبستاني وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان.

أما إذا عدلنا عن هذا المصطلح الذي نشأ ، وشاع في القرن الثاني[1] ورجعنا إلى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين ، وتأملنا في القرآن والحديث ، وجدنا القرآن ينوه بشعبة من شعب الدين ، ومهمة من مهمات النبوة ، يعبر عنها بلفظ «التزكية» ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بعث الرسول الأعظم ﷺ لتحقيقها وتكميلها ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] وهي تزكية النفوس ، وتهذيبها ، وتحليتها بالفضائل وتخليتها عن الرذائل ، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم ، وأخلاقهم ، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي؛ الذي ليس له نظير في التاريخ ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة؛ التي لا مثيل لها في العالم .

ووجدنا لسان النبوة يلهج بدرجة هي فوق درجة الإسلام والإيمان ، ويعبر عنها بلفظ «الإحسان» ، ومعناها : كيفية من اليقين والاستحضار يجب أن يعمل لها العاملون ، ويتنافس فيها المتنافسون ، فَيُسأل الرسولُ ﷺ ما الإحسان؟ فيقول : «**أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك**»[2] .

ووجدنا الشريعة ، وما أثر عن الرسول ﷺ من الأقوال ، والأحوال ، ودُوِّن في الكتب ينقسم بين قسمين : أفعال ، وهيئات ، وأمور محسوسة ، كقيام ، وقعود ، وركوع ، وسجود ، وتلاوة ، وتسبيح ، وأدعية ، وأذكار ، وأحكام ، ومناسك ، وقد تكفل بها الحديث روايةً وتدويناً ، والفقه استخراجاً واستنباطاً ، وقام بها المحدثون والفقهاء ـ جزاهم الله عن الأمة خير الجزاء ـ فحفظوا للأمة دينها ، وسهلوا لها العمل به .

وقسم آخر هو كيفيات باطنية كانت تصاحب هذه الأفعال ، والهيئات عند الأداء ، وتلازم الرسول ﷺ قياماً ، وقعوداً ، وركوعاً ، وسجوداً ،

---

(١) كشف الظنون : ج١ ص ٢٨٠ نقلاً عن الإمام القشيري .
(٢) رواه البخاري (٢٤٤٣) ، والبيهقي في السنن (١١٢٩٠) عن أنس رضي الله عنه .

وذاكراً ، وآمراً ، وناهياً ، وفي خلوة البيت ، وساحة الجهاد. وهو الإخلاص والاحتساب ، والصبر والتوكل ، والزهد وغنى القلب ، والإيثار والسخاء ، والأدب والحياء ، والخشوع في الصلاة ، والتضرُّع والابتهال في الدعاء ، والزهد في زخارف الحياة ، وإيثار الآخرة على العاجلة ، والشوق إلى لقاء الله تعالى ، إلى غير ذلك من كيفيات باطنية ، وأخلاق إيمانية هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد ، والباطن من الظاهر ، وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات ، وآداب وأحكام تجعل منها علماً مستقلاً ، وفقهاً منفرداً ، فإن سمي العلم الذي تكفل بشرح الأول وإيضاحه ، وتفصيله ، والدلالة على طريق تحصيله: «فقه الظاهر» سمي هنا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات ، ويدل على طريق الوصول إليها: «فقه الباطن».

فكان الأجدر بنا أن نسمي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس ، وتهذيبها ، وتحليتها بالفضائل الشرعية ، وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية ، ويدعو إلى كمال الإيمان ، والحصول على درجة الإحسان ، والتخلق بالأخلاق النبوية ، واتباع الرسول ﷺ في صفاته الباطنية ، وكيفياته الإيمانية ، كان الأجدر بنا وبالمسلمين أن يسموه «التزكية» أو «الإحسان» أو «الفقه الباطن» ولو فعلوا ذلك لانحسم الخلاف ، وزال الشقاق ، وتصالح الفريقان اللذان فرق بينهما المصطلح ، وباعد بينهما الاستعمال الشائع ، فالتزكية ، والإحسان ، وفقه الباطن حقائقُ شرعية علمية ، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة يقرُّ بها المسلمون جميعاً ، ولو ترك «المتصوفون» الإلحاح على منهاج عملي خاصٍّ للوصول إلى هذه الغاية التي نعبر عنها بالتزكية ، أو الإحسان ، أو فقه الباطن ، فالمناهج تتغير ، وتتطور بحسب الزمان والمكان ، وطبائع الأجيال ، والظروف المحيطة بها ، وألحُّوا على «الغاية» دون «الوسائل» لم يختلف في هذه القضية اثنان ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وخضع الجميع ، وأقروا بوجود شعبة من الدين وركن من أركان الإسلام يحسن أن نعبر عنه بالتزكية ، أو الإحسان ، أو فقه الباطن ، وأقرُّوا بأنه روح الشريعة ، ولب لباب

الدين ، وحاجة الحياة ، فلا كمال للدين ، ولا صلاح للحياة الاجتماعية ، ولا لذة بالمعنى الحقيقي ـ في الحياة الفردية ـ إلا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة.

ومن هنا كانت جناية هذا المصطلح والعرف الشائع «التصوف» على هذه الحقيقة الدينية الناصعة عظيمةً ، فقد حجبتها عن أنظار كثيرة وصدَّت فريقاً كبيراً من الناس عن سبيلها ، والحرص على تحصيلها ، ولكن كان ذلك لأسباب تاريخية يطول ذكرها ، والأمور تجري كثيراً على غير الأهواء والمصالح ، وليس لنا الآن إلا أن نقرر الحقيقة ، ونتحرر من القيود والمصطلحات ، ومن النزعات والتعصبات ، ولا نفر من حقيقة دينية يقررها الشرع ، ويدعو إليها الكتاب والسنة ، وتشتد إلها حاجة المجتمع والفرد؛ لأجل مصطلح محدث ، أو اسم طارىء دخيل.

ثم جنى على هذه الحقيقة الدينية شيء آخر ، وهو أنه دخل فيها دجَّالون ، ومحترفون ، وباطنيون ، وملحدون ، اتخذوها وسيلةً لتحريف الدين ، وإضلال المسلمين ، وإفساد المجتمع ، ونشر الإباحية ، وتزعموا هذا الفن ، وحملوا لواءه ، فكانوا ذلك ضغثاً على إبَّالة ، وزهد فيه ، ونفر منه أهل الغيرة الدينية ، والمحافظون على الشريعة الإسلامية.

طائفة أخرى من غير المحققين لم يعرفوا أرواح هذه الشعبة وغايتها ، ولم يميزوا بين «الغاية» و«الوسائل» فخلطوا بينهما ، وألحُّوا على الوسائل إلحاحاً ، وضيعوا الغاية ، أو أدخلوا ما ليس من هذا الفن في صميم هذا الفن وصلبه ، وعدُّوه من الكمالات ، ومن الغايات المطلوبة ، وعقدوا المسألة وطولوها ، وجعلوا الشيء الذي يكلف به كل مسلم ، والذي هو لبُّ الدين وحاجة الحياة لغزة ، وفلسفة ، ورهبانية ، ولا يجرؤ عليها ، ولا يطمع فيها إلا من نفض يده من أسباب الحياة ، ورفض الدنيا وما إليها ، ولا شك أنَّ أولئك قليل من قليل ، في كل عصر وجيل ، وليست هذه دعوة للدين ، ولا أسوة الرسول ، ولا حكمة الخلق.

ولكنَّ الله قيَّض للمسلمين في كل عصر وجيل من ينفون عن هذا الدين

«تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» ويدعون إلى التزكية الخالصة من شوائب العجمة، والفلسفة، وإلى «الإحسان» و«فقه الباطن» «من غير تحريف وانتحال وتأويل، ويجددون هذا «الطب النبوي» لكلِّ عصر، وينفخون في الأمة روحاً جديدة من الإيمان والإحسان، ويجدِّدون صلة القلوب بالله، والمجتمع بالأخلاق، والعلماء بالربانية، ويوجدون في الجمهور قوة مقاومة الشهوات، وفتنة المال والولد، وزينة الحياة الدُّنيا، وفي الخواصِّ قوة مقاومة صلات الملوك وسياطهم، ووعدهم ووعيدهم والجرأة على الجهر «بكلمة حق عند سلطان جائر» والاحتساب على الملوك والأمراء، والاستهانة بالمظاهر والزخارف، والقناعة باليسير. فيستطيع أحدهم أن يقول ـ وقد طلب منه أن يقبل يد الملك ليرضى عنه ـ **«يا مسكين! والله! ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلاً عن أن أقبل يده. يا قوم! أنتم في واد وأنا في واد»**[1] ويقول بعضهم وقد عرض عليه ملك بلاده أن يقبل شيئاً مما آتاه الله من الخير الكثير: «**إن الله يصف هذه الدنيا بطولها وعرضها بالقلة والخسة، فيقول:** ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] **وقد رزقك الله جزءاً صغيراً من قطعتها الصغيرة، فلا أرزؤك فيه**»[2]. ويمدُّ أحدهم رجله إلى أمير جبار، ويرسل إليه هذا الأمير صرة من الذهب، فيرفضها قائلاً: «**إنَّ من يمد رجله لا يمد يده**»[3].

وكان المسلمون في كلِّ عصرٍ في حاجة إلى دعاة وشخصيات قوية جامعة، تجمع بين تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس[4] وهكذا تخلّف الرسول ﷺ في أمته بعد انقطاع النبوة، وتجدد صلتها بالله والرسول، وتجدد الميثاق الذي دخلت فيه هذه الأمة والمسلمون جميعاً عن طريق الإيمان والنطق بالشهادتين، وما عاهدت عليه، وبايعت

---

(١) قالها الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

(٢) قالها الشيخ المرزا مظهر الدين.

(٣) هو عالم دمشق الشيخ سعيد الحلبي من رجال القرن الماضي.

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا﴾ [الجمعة: ٢].

الرسول ﷺ مع بعد الزمان والمكان من السمع ، والطاعة ، ومخالفة النفس ، والهوى ، والشيطان ، والتحاكم إلى الله والرسول ، والكفر بالطاغوت ، والمجاهدة في سبيل الله ، فقد تغافل عن ذلك الخلفاء ، واقتصروا على الجباية ، والفتوح ، وأخذوا البيعة لأنفسهم وأولادهم ، وعجز عن ذلك العلماء ، فاشتغلوا بالفتوى ، والوعظ ، والتدريس ، والعلم ، والتأليف ، وإذا أرادوا ذلك لم يخضع لهم العامَّة؛ لأنهم لا يرون فيهم ـ إلا نادراً ـ الإخلاص ، والزهد ، وأثر الخلافة النبوية ، وهكذا أضعف الشعور في العامة ، والسوقة ، والفلاحين ، والعملة ، حتَّى في كثير من الخاصة والمتعلمين بأنَّ الإسلام عهد وميثاق ، وبيع وشراء بين العبد وربه ، وأصبحوا أحراراً في تصرفاتهم ، جامحين عاتين في شهواتهم ، هملاً وقطعاناً لا يضبطهم راعٍ ، وضعفت في كثير منهم الرغبة في الطاعات ، وبلوغ درجة الإحسان ، والحصول على نور اليقين ، وبشاشة الإيمان ، وتقاصرت الهمم ، وخمدت النفوس ، وأقبل الناس ـ إلا من عصم ربك ـ على اللذات ، والشهوات بنهامةٍ وشرهٍ.

ضيعت الخلافةُ الإسلامية روح الخلافة ، وأمانة النبوة ، وأصبحت ملكاً وسياسة ، وإدارةً وجبايةً ، فقام في نواحي المملكة الإسلامية الواسعة خلفاء الرسول ﷺ والربانيُّون ، يجدد الناس بدعوتهم وصحبتهم ميثاق الإسلام ، ويدخلون في السلم فقهاً وإرادة بعد ما دخلوا في الإسلام وراثة وعادة ، ويستردون بتعليمهم وتربيتهم حلاوة الإيمان ، ويخرجون من سلطان الهوى ، ورقِّ الشهوات ، وعبادة الناس ، وينشطون في العبادات ، والطاعات ، والدعوة إلى الله ، والجهاد في سبيله.

وقد كان لخلفائهم وتلاميذهم ولمن سار سيرتهم في الدعوة وتهذيب النفوس من أعلام الدَّعوة وأئمة التربية (في القرون الوسطى والمتأخرة) فضلٌ كبير في المحافظة على روح الإسلام ، وشعلة الإيمان ، وحماسة الدعوة والجهاد ، وقوة التمرد على الشهوات والسلطات ، ولولاهم لابتلعت المادية التي كانت تسير في ركاب الحكومات والمدنيات هذه الأمَّة ، وانطفأت شرارة الحياة والحب في صدور أفرادها ، وقد كان لهؤلاء فضل

كبير في نشر الإسلام في الأمصار البعيدة التي لم تغزها جيوش المسلمين، أو لم تستطع إخضاعها للحكم الإسلامي[1] وانتشر بهم الإسلام في إفريقية السوداء، وفي إندونسيا، وجزر المحيط الهندي، وفي الصين، وفي الهند.

ولما فتح التتار العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري، وأثخنوه جراحاً وقتلاً، ولم يتركوا فيه إلا روحاً ضعيفة، ونفساً خافتاً، وفلَّ سيف الجهاد والمقاومة، فأصبح لا يؤثر ولا يعمل، وأغمده المسلمون يأساً وقنوطاً، وآمن الناس بأن التتار لا يمكن إخضاعهم، وأنَّ العالم الإسلامي قد كتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الهمج وأنَّ الإسلام لا مستقبل له.

قام هؤلاء الدعاة المخلصون الذين لا يزال تاريخ الدعوة والإصلاح على إحصائه واستقصائه ـ يجهل أسماء كثيرٍ منهم ـ يتسربون في هؤلاء الغلاظ الشداد، يفتحون قلوبهم للإسلام، حتى تفتحت له وأحبته، وساروا يدخلوا في دين الله أفواجاً، ولم يمضِ على زحفهم على العالم الإسلامي وإذلالهم له كثير زمان حتى أسلم جلُّهم، أو كلهم، وصاروا من حماة الإسلام، وحملة رايته، وكان منهم فقهاء، وزهَّاد، ومجاهدون[2].

فلا شك لولا هؤلاء لانهار المجتمع الإسلاميُّ من زمان إيماناً وروحانية، وجرفت موجة المادية الطاغية العاتية بالبقية الباقية من إيمان الأئمة وتماسكها. وضعفت صلة القلوب بالله، والحياة بالروح، والمجتمع بالأخلاق، وفقد الإخلاص والاحتساب، وانتشرت الأمراض الباطنية، واعتلَّت القلوب والنفوس، وفقد الطبيب، وتكالب الناس على حطام الدنيا، وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب، وغلب عليهم الطمع والطموح، وتعطلت شعب من أهم شُعَبِ النبوة ومهماتها، وهي «تزكية النفوس، والدعوة إلى الإحسان، وفقه الباطن».

انظر إلى بلاد ضعفت فيها الدعوة إلى الله، والربانية، وتزكية النفوس

(١) راجع كتاب «دعوة الإسلام» لتوماس أرنلد الإنكليزي.

(٢) ليراجع كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة الندوي.

من زمان ، وندر فيها وجود الدعاة إلى الله ، وتجديد الصلة بالله ، وإصلاح الباطن ـ بنفوذ الحضارة الغربية ، أو للقرب من مركزها ، أو بفعل عوامل أخرى ـ إنك تشعر فيها بفراغ هائل ، لا يملؤه التبحر في العلم ، ولا التعمق في التفكير ، ولا فضل من ذكاء ، ولا غنى من أدب ، ولا نسب قريب بلغة الكتاب والسنة ، ولا نعمة من استقلال ، إنها أزمة روحية وخلقية لا علاج لها ، ومشكلة من أدق مشكلات المجتمع لا حل لها ، فالدهماء والشعب فريسة المادية الرعناء ، ونهامة المال العمياء ، والأمراض الاجتماعية الخلقية ، والمثقفون ـ الثقافة الدينية أو المدنية ـ فريسة الحرص على الجاه ، والمنصب ، والأمراض الباطنية من حسد ، وشح ، ورياء ، وكبر ، وأنانية ، وحب الظهور ، ونفاق ، ومداهنة ، وخضوع للمادة والقوة ، والحركات الاجتماعية والسياسة تفسدها الأغراض ، وعدم تربية النفوس ، وضعف القادة ، والمؤسسات. يفسدها الخلاف ، والشقاق ، وقلة الشعور بالمسؤولية ، والتفكير الزائد في المادة ، وزيادة الرواتب ، والعلماء يضعف سلطانهم اهتمامهم الزائد بالمظاهر ، وخوفهم الزائد من الفقر ، وسخط الخاصَّة والعامَّة ، واعتبارهم الزائد للحياة الرخيَّة الناعمة ، ولا علاج لكل ذلك إلا في «التزكية النبوية» التي نطق بها القرآن ، وبعث لها الرسول ، وفي «الربانية» التي طولب بها العلماء : ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران : ٧٩].

إنني لا أُلِحُّ على منهاج خاصٍّ من التزكية درج عليه جيلٌ من أجيال المسلمين ، واشتهر في الزمن الأخير ـ بالتصوف ـ من غير حاجة إلى ذلك ، وقد كان في كلمات الكتاب والسنة ومصطلحاتهما غنىً عنه ـ ولا ترى طائفة ممَّن تزعم هذه الدعوة وتضطلع بها من نقص في العلم والتفكير ، أو خطأ في العمل والتطبيق ، ولا أعتمد عصمتها فكل يخطىء ويصيب ، ولكن لا بدَّ أن نملأ هذا الفراغ في حياتنا ومجتمعنا ، ونسدَّ هذا المكان الذي كان يشغله الدعاة إلى الله ، والربانيون ، والمشتغلون بتربية النفوس ، وتزكيتها ، وتجديد إيمانها ، وصلتها بالله ، والدعوة إلى إصلاح الباطن ، والعناية بالفرد قبل المجتمع ، وأن نجدِّد التزكية ، والإحسان ،

وفقه الباطن ، كما تجلى ذلك لكل السلف الصَّالح ، ودعا إليه أئمة السنة ، وأن يكون ذلك على منهاج النبوة ، وفي ضوء الكتاب والسنة ، ولكن لا بدَّ من شيءٍ في ذلك ، فالفراغ هائل ، وأثره في حياتنا الاجتماعية والفردية خطير ، إنني أقول للمتحمسين في نقد هؤلاء الدعاة والمنكرين عليهم بلسان الشاعر العربي:

أقلُّوا عليهم لا أبا لأبيكم ... من اللَّوم أو سدُّوا المكان الذي سدُّوا

* * *

المعركة المبدئية
ودور المجلات الإسلامية فيها(١)

نحن في معركة عقلية ثقافية مبدئية ، صراع بين عقيدة وعقيدة ، وحضارة وحضارة ، ودعوة ودعوة.

أما العقيدة فقد تطور مفهومها ، وتوسعت دائرتها ، كما تطور مفهوم حقائق كثيرة ، وتوسعت أو ضاقت دوائرها في هذا العصر ، فالعقيدة الأساسية التي تركز فيها الصراع في هذا الوقت ، وانحصرت فيها المعركة ، وشملت الحياة كلها والمجتمع كله ، هي: هل لا بدَّ من تأسيس الحياة ـ بما فيها من الأفكار والاتجاهات والتصرفات والكفاح ـ على حقائق جاء بها الرسل في عصورهم ، ودعوا إليها في أممهم ، وجاء بها الرسول الأعظم ﷺ للأبد وللجميع ، أم نؤسس حياتنا ـ بأوسع معانيها ـ على مشاهداتنا ، وتجاربنا ، وميولنا ، ورغباتنا وهل وراء الحس غيب هو أوسع منه ، وبعد هذا العالم عالم لا آخر له ، أم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

وأما الحضارة فهنالك حضارتان متنافستان لا أعرف لهما ثالثة ، حضارة أسسها إبراهيم مؤسس العهد الجديد ، وأبو الجيل المؤمن الجديد ، وجددها ، وكملها حفيده ، ووارث دعوته محمد بن عبد الله العربيُّ القرشيُّ

---

(١) نشر هذا المقال أولاً في مجلة «المسلمون» في عددها الأول (في دورها الثاني) ثم أعيد نشره في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثاني عشر ، المجلد الخامس ، عام ١٩٦٠ م.

خاتم الرسل ، وإمام الكلِّ ، ومنير السبل ، حضارة تتسم بسمات وشعائر كثيرة ، أبرزها أربعة :

أولاً: إنها طعِّمت باسم الله والإيمان به ، وغمست في هذه الصبغة غمساً ، لا تفارقها هذه الصبغة ، ولا يغلب عليها لون آخر ، وإذا استعرضت حياة المسلم ـ الذي انفرد بتمثيل هذه الحضارة لأسباب تاريخية ، وفعل عوامل كثيرة ليس هذا موضع شرحها ـ وجدت هذا الاسم الكريم ، واستحضار مسماه ، واللهج بذكره لا يفارقه من المهد إلى اللحد ، من الأذان في أذني المولود إلى الصلاة عليه ميتاً ، إلى أن يوضع في لحده.

والشعار الثاني: هو التوحيد النقيُّ الخالص الذي قرره الرسل جميعاً ، وحمل لواءه إبراهيم ، وهاجر في سبيله ، ودعا إليه محمد ﷺ الناس جميعاً ، وجاهد في سبيله.

والشعار الثالث: هو الإيمان بشرف الإنسان ، وكرامة بني آدم والمساواة بين أعضاء الأسرة الإنسانية بصرف النظر عن ألوانهم ، وأوطانهم ، وأجناسهم ، وطبقاتهم ، فكلهم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى.

الشعار الرابع: الكفاح في سبيل الدعوة إلى الله ، وإسعاد البشرية عامة ، ومحاربة الأوثان بجميع أنواعها وباختلاف أسمائها ، الكفاح لإعلاء كلمة الله ، وإجراء حكم الله على خلق الله ، وقد أكرم الله المنتمين إلى هذه الدوحة الإبراهيمية التي بعث فيها محمد ﷺ بهذا الكفاح المقدس المجيد الفريد ، وخصَّهم به ، حتى أصبح لهم شعاراً ، وفيهم وراثة يتوارثونها كابراً عن كابرٍ ، وجيلاً بعد جيل.

* * *

وتقابل هذه الحضارة حضارة مؤسسة على الغفلة عن الله ، والبعد عنه ، وعلى الإشراك به ، وعلى التمييز بين لون ولون ، وجنسٍ وجنس ، وسلالةٍ

وسلالة ، ووطن ووطن ، والتفريق بين السود والبيض ، والسادة والعبيد ، والأغنياء والفقراء ، وبين شعوب وشعوب ، وبلاد وبلاد ، يخطُّون بين البشرية خطوطاً عريضة ودقيقة ، جامدة ورقيقة ، منها البحار ، ومنها الأنهار ، ومنها الجبال ، ومنها الحدود المصطنعة ، ومنها الكلمات المصطلحة ، كلها من صنع الإنسان ، ودعاوى فارغة ما أنزل الله بها من سلطان.

وأما الدَّعوة: فهل تستحق هذه العقيدة الأبدية المتميزة ، وهذه الحضارة المشرفة المنصفة أن تكون غاية نجند لها قوانا ومواهبنا ، ونحشر لها وسائلنا وذخائرنا ، ونجعلها موضوع تفكيرنا ، وأدبنا وجهادنا ، وأن نميز بينها وبين ما نضطر إليه من دعوةٍ ، وتنظيمٍ ، وكفاحٍ ، ونضالٍ ، وأهدافٍ مؤقتة محلية ، أم نعتقد أنَّ الأولى قد مضى أوانها ، وانتهت رسالتها ، فلا بدَّ من دعوةٍ جديدة ، دعوةٍ قائمة على قومية ، أو وطنية ، أو نظامٍ اقتصادي ، أو معسكر سياسيٍّ ، نزج بها كل ما عندنا من مواهب وطاقات ، نعظمها كإله ، وندعو إليها كدين ، ونجاهد في سبيلها كعقيدة ، ونستهين بما عداها من عقائد دينية ، وقيم خلقية ، وذخائر معنوية ، ونعتبرها هي الجامعة ، ونستخف بالجامعة التي تربط الإنسان بالإنسان ، وتجمع بين الشرقيِّ والغربيِّ ، والعجميِّ والعربيِّ ، والأبيض والأسود ، والغنيِّ والفقير ، وتمتد من أقصى الأرض إلى أقصاها ، ومن أدنىٰ البشرية إلى أعلاها ، الجامعة التي لا سبيل بعدها إلى الحروب ، ولا سبيل بعدها إلى الاستعمار والجنسية والعنصرية ، والعصبية الجاهلية ، وجميع النزعات الممزقة ، والمذاهب الهدامة.

هذه هي المعركة والمسلمون فيها جنود:

هذه هي المعركة ، والمجلات والصحف تستطيع أن تمثل فيها دوراً لا يمثله أحد ، فهي التي تحمل الفكرة ، وهي التي تنشر الفكرة ، وتزرعها في عقول ونفوس لا يحصيها إلا الله ، ثم تتعهدها حيناً بعد حين ، وتغذيها ، وتسقيها ، وتراقبها.

وهي التي تحمل الرسالة من ناحية في العالم إلى ناحية بعيدة ، ومن رأس إلى رؤوس كثيرة ، ويسمع صرير أقلامها ، ودبيب أفكارها في قرارة النفوس ، وسويداء القلوب ، وأعماق العقول ، وهي التي تمشي بين أعضاء أسرة آمنت بفكرة ، والتقت على عقيدة فتحمل تحية بعضها إلى بعض ، ورسالة بعضها إلى بعض ، فتكون رسول حبٍّ وسلام ، ووسيلةً إلى التعارف وصلة الأرحام.

وهي التي تقيم العوج من الأفكار ، وتصلح الفاسد من الآراء ، وتعلم الجاهل ، وتقوّي ملكة الكاتب الناهض ، وتعرض أمثلة من الفكر السديد ، والأدب الرفيع ، والاطلاع الدقيق ، والملاحظات الصائبة ، فهي مدرسة ينشأ فيها تلاميذ ، ويتخرج فيها فضلاء هم أبناء اليوم ، وأساتذة الغد.

* * *

الشرق الثائر[1]

إنَّ ما يرجع إليه الفضل في أهمِّ الأحداث التي غيرت مجرى الأمور ، وفكَّت السلاسل ، وحطَّمت الأغلال ، وردَّت الأمر إلى نصابه ، والحقَّ إلى أصحابه (غضبة) غضبها حقٌّ مهضوم ، أو شعب مظلوم ، أو حرٌّ يستعبد ، أو دين يضطهد ، أو كرامة تتهدد ، أو كريم يتحدَّى ، إن الغضب مهما قال فيه علماء الأخلاق ، وكيفما حلله المؤلفون في علم النفس من علامات الحياة ، وسمات الرجولة ، إذا حُرِمَه فرد؛ كان بالجماد أشبه منه بإنسان حي ، وإذا تجرَّدت منه أمة؛ كانت قطيعاً من غنم ، أو لحماً على وضم ، لا تستحقُّ الحياة فضلاً عن الاستقلال ، ولا تستحق الاحترام فضلاً عن الإكبار ، والإجلال.

إن الغضب هو حماية الفرد والجماعة التي يحميان بها نفسهما ، ويصونان بها حياتهما ، وإن الله لم يحرم مخلوقاً من سياج يحوطه ، ومن حامية تذب عنه ، ولمَّا منح الورد طبيعة الحرير؛ رزق الأشواك التي حوله طبيعة الحديد ، ولا بقاء للحرير إذا لم يكن دونه شوك ، أو حوله حديد.

إنَّ الغضب قوة كامنة في النفس قد لا يعلمها صاحبها ، فإذا أثيرت هذه القوة ، وانطلقت؛ أتت بالمعجزات ، وأظهرت الآيات البينات ، وقربت البعيد ، وأذابت الحديد ، وأحالت اليأس رجاءً ، والممتنع ممكناً ، وطوت المسافات البعيدة في لمح البصر أو أقرب.

---

(١) كتب العلامة الندوي هذا المقال لمجلّة «الرسالة» للأستاذ حسن الزيات ، ثم أعيد نشره في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثاني ، المجلد السَّادس ، عام ١٩٦٠ م.

إنَّ للغضب في تاريخ الإنسان العام ، وفي تاريخ الإسلام أياماً مشهورة، وفضائل مأثورة ، ومواقف مشكورة ، وإنَّ أروع هذه الأيام وأفخرها يوم غضبت الأمة ، وثارت الجماعة ، وما أمثلة هذه الغضبات في تاريخ هذه الأمة بنادرة .

إنَّ أشد ما نُكِب به هذا الشرق الإسلاميُّ ، وإنَّ أكبر ما جني عليه في العهد الأخير: أنَّه فقد طبيعة الغضب ، والتزم الحلم والأناة ، والرحمة والتنزل عن الحق في كل وقت ، ومع كل أحد ، مع أنه لا حلم مع الضعف ، ولا رحمة مع العجز ، ولا عفو مع الإرهاق ، ولا تنزل مع القهر ، إنما هي كلُّها أخلاق اضطرارية لا قيمة لها ، ولا فضل ، وليس مصدرها إلا برودة الدم ، وموت الرجولة ، وانحطاط الإنسانية ، وقديماً وصف الشاعر العربيُّ قبيلة أسرفت في السماحة والعفو:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السُّوء إحسانا
كأنَّ ربك لم يخلقْ لخشيتهِ ... سواهم من جميع النَّاس إنسانا

لقد هجم الغرب على الشرق بدون داعٍ ولا مبرر ، ولا دين ينشره ، ولا رسالة يبلغها ، ولا فضيلة يحميها ، ولا عقيدة يدعو إليها ، إنما هو الجشع الأرضي ، والشَّره الاقتصاديُّ ، والاستغلال التجاريُّ ، والاحتلال السياسيُّ ، وبالإجمال طبيعة قابيل القديمة ، هجم عليها بدافع الطمع والحرص ، فغزا عقوله ، ونفوسه ، وأسواقه ، وبيوته ، واتخذه ناقة ركوباً حلوباً ، يحلب ضرعها ، ويجز صوفها ، ويقتر عليها في مائها وعلفها ، ويقسو عليها في استخدامها ، واستأثر بموارد هذا الشرق وخيراته ، وأصبح في بلاده الغنية التي تدر لبناً وعسلاً كالإسفنج يمص الماء هنا ، ويصبه هناك استأثر بمعادنه ومناجمه ، وبالذهب الأصفر والأسود ، وأملى على شعوبه معاهدات ، وإيجارات جار فيها وغشَّ ، وطفف الكيل وأخسر الميزان ، وضحك عليه كما يضحك على الأطفال ، وأقام عليه الحَجْرَ والوصاية ، كما تقام على السفهاء .

هجم عليه الغرب فاتخذه سوقاً مفتوحة لبضائعه ، وزبوناً دائماً لسلعه ،

وعمالاً مخلصين لمصانعه ، ووقوداً حاضراً لحروبه ، يسخره للأغراض كيف شاء ، ويسوقه إلى ميدان الحرب متى شاء ، ويجعله وقاية وجُنَّة دون رجاله وبلاده ، ويعيش في بلاده بفضل هذه الخيرات والأيدي العاملة ، والجيوش الحامية عيش الأحرار والملوك ، ويدلّ بمستعمراته وأسواقه وعبيده في الشرق على جيرانه ومنافسيه في الغرب.

وكان أكبر مجرم تولى كبر هذا الاستعمار الغاشم ، وتفرّد بالقسط الأكبر في هدر الحريات والكرامات ، واستعباد الشعوب والأمم ، ونشر القلق والاضطراب في العالم ، وكان أكبر عامل من عوامل الفساد الخلقي ، والأثرة الاجتماعية ، واختلال النظم الاقتصادية ، وأكبر معاداةٍ للإسلام وكيداً لأهله ، هي : بريطانيا (العظمىٰ) التي سبقت جاراتها وشقيقاتها إلى غزو الشرق ، واحتلال أقطاره ، واستعباد شعوبه.

وكانت أكثر هذه الأقطار الشرقية التي احتلتها بريطانيا إسلامية بالطبع ، فكانت الهند التي لا تزال بلداً إسلامياً تحكمها ـ ولو بضعفٍ كبير ـ أسرة مغولية ، وكانت مصر التي تحكمها الأسرة العلوية ، وسواحل الجزيرة العربية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية هي التي تكوِّن الإمبراطورية البريطانية الجديدة ، إذاً فكانت بريطانيا هي المعتدية الغاصبة الظالمة ، وكان الشرق الإسلامي هو المعتدى عليه.

ثم كانت بريطانيا هي التي ولَّدت المشاكل للشعوب الإسلامية ، وخلقت لها أزمات طريفة ، فهي صاحبة الوحي ، وصاحبة الفكرة في دولة إسرائيل الجاثمة على صدر العالم العربي ، وهي التي أبرزتها من العدم إلى الوجود ، ومن التمنيات إلى عالم الواقع ، وهي المسؤولة عن جلاء العرب ، وضياع فلسطين العربية ، وشقاء أهلها ، والخطر الذي يهدد الحكومات العربية كلها.

ثم فاقت بريطانيا الحكومات المستعمرة كلَّها في النفاق ، والتزوير ، وأخلاق الثعالب ، والمكر ، والدَّهاء ، ونكران الجميل ، ونسيان

الوعود ، ونقض العهود ، وقد أثبت تاريخها: أنه لا أيمان لها ، وأنها لا ترقب في مؤمنٍ إلاًّ ، ولا ذمَّةً.

إن في تاريخ بريطانيا السياسي صفحاتٍ سوداً ، لعلَّها لا توجد في تاريخ دولة مستعمرة أخرى ، مع أن الاستعمار كله صحيفة سوداء ، فإذا اقتصرنا على تاريخ الاستعمار البريطاني في الهند وجدنا فظائع لا تزال وصمة عار في وجه الحكم الإنجليزي ، ففي ١٣ من إبريل عام ١٩١٩م انعقدت أيام حركة الاستقلال الوطنية في الهند حفلة شعبية عظيمة في «جليان والاباغ» في مدينة امرتسر حضرها عشرون ألفاً بالأسوار من جوانبها الأربعة ، وليس لها إلا منفذ واحد تخرج منه عربةٌ واحدة ، وحضر الجزار الإنجليزي المعروف بالجنرال «واتر» ومعه مئة وخمسون (١٥٠) جندياً ، فأمر المحتفلين بالانفضاض وبعد دقيقتين ، كما جاء في تقريره أمر بإطلاق النار على هذا الجمع الحاشد الوديع ، وأطلقت عليه ألف وستمئة طلقة (١٦٠٠) مات فيها كما جاء في التقرير الرسمي أربعمئة رجل مع أنه غير معقول ومخالف للبداهة أن يموت أربعمئة فقط بطلقات نارية يبلغ عددها إلى ألف وستمئة طلقة في مكان ضيق محصور على هذا الجمع الحاشد ، أما عدد الجرحىٰ فيتراوح كما قالت المصادر الرسمية بين ألف وألفين ، وبات القتلى والجرحىٰ طوال الليل من غير ماء ، وإسعاف طبي.

وفي سنة ١٩٤٣م كانت مجاعة بنغال الكبرىٰ التي خلقتها الحكومة الإنجليزية في الهند، وفرضتها على أهل بنغال فرضاً لمصالحها الاستعمارية والسياسية ، كما تحقق علمياً ، وتاريخياً ، ويقدر أنَّ الذين هلكوا فيها يبلغ عددهم إلى خمسة ملايين.

وفي سنة ١٩٤٧م وقعت الاضطرابات الطائفية الهائلة التي هيأتها ، ومهدت لها الحكومة الإنجليزية ، وتغافل عنها وارتضاها ممثلها الرسمي اللورد (موت بيتن) المجرم ، حاكم الهند العام حينئذٍ ، وكان أكثر من نصف مليون نسمة نتيجة هذه المجزرة الإنسانية ، إنَّ طبيعة الأشياء ، وغريزة الإنسان ، وشريعة العدل كلُّ ذلك كان يحكم ، بل يفرض أن يغضب

الشرق ، وبالأخصِّ الشرق الإسلامي ، ويثور ، وينتهز كلَّ فرصة للانتقام من بريطانيا وتصفية الحساب معها.

ظلَّ الشرق الإسلامي خاضعاً ، ولا أقول راضياً لهذه الأوضاع التي تثير غضب الحليم ، لا يحرك ساكناً ، ولا يبدي سخطاً ، بل يتحيز بين حينٍ وآخر إلى المعسكر المجرم الذي يسميه الحلفاء كذباً وميناً بالمعسكر الديمقراطي ، ويحارب بجانبه ، ويستميت في سبيل شرفه وكرامته ، ويصدق في عهوده ، ويحترم معاهداته ، فاسترسلت بريطانيا وإخوانها على أثرها في سياستها الجائرة ، وأمعنت في غلوائها ، فأضرَّ ذلك بالسياسة الأوربية كلِّها؛ لأنها أصبحت كالفيل الهائج ، وفقدت السياسة الدولية الاتزان والتفكير ، وأغرىٰ سكوت الشرق وهدوءه الزائد واحتماله المسرف المستعمرين بالاستمرار في سياستهم الغاشمة ، والانتصار للمدرسة السياسية الغربية القديمة؛ التي تفكر التفكير الاستعماري ، وتحلم بالإمبراطوريات والمستعمرات ، فكان لا بدَّ أن يغضب الشرق غضبة تردُّ المستعمرين إلى صوابهم ورشدهم ، وتردُّ إلى السياسة العالمية اتزانها وتعادلها ، وتردُّ إلى شعوب الشرق شرفها وكرامتها ، وتردُّ إلى العالم الأمن والسَّلام.

وما كان يدري أحدٌ أنَّ إيران ستكون السابقة إلى هذه الثورة العادلة ، والغضبة الموفقة ، وستنتصر هذا الانتصار الباهر ، وستهاجم الغرب المتغطرس هذه المهاجمة المفاجئة القوية ، وتصفع بريطانيا الكريمة هذه الصفعة المؤلمة المخجلة؛ التي يحمر لها وجهها ، وينتكس لها رأسها ، إنَّها لصفعة موجعةٌ حقاً ، مخجلةٌ حقاً ، تألم لها كل إنجليزي في كل ناحية من نواحي العالم ، بل تأثرت بها أرواح بناة الإمبراطورية البريطانية ، ومؤسسو مجدها في السابق وسيلتصق عارها بكل مولود يولد في بريطانيا إلى عهد بعيد.

لقد سُرَّ كلُّ شرقي ، وكل مسلمٍ بهذه الغضبة الفارسية وكأنه يتمنىٰ أن يغضب العالم العربيُّ ، ويثور ، ويقوم قيام الثائر الموتور؛ لأنه أحقُّ

بالغضب ، وأولى بالثورة من كل بلدٍ وقطر ، لأن بريطانيا (الصديقة للعرب) قد طوقته من كل جانب ، وتملّكت جميع منافذه ، فهذا الخليج العربي لا يزال مرفأ بريطانياً ، وقلعة بريطانيا الحصينة ، والعقبة ومعان مما تحرص بريطانيا على الاحتفاظ بهما ، واحتلالهما ، ولا تزال إمارات الخليج العربية خاضعة للنفوذ البريطاني ، ولا يزال العراق مرتبطاً بالعجلة البريطانية ، ولا تزال فلسطين العربية تشكو بثها وحزنها ، وتئن من جراحاتها وآلامها ، ولا تزال دولة إسرائيل برهاناً ساطعاً على صداقة بريطانيا للعرب ووفائها لهم ، ولا تزال مصر محتلةً بالجيوش البريطانية ، ولا يزال السودان المصري يرزخ تحت أثقال الحكم البريطاني.

إذاً فكانت غضبة العالم لو غضب من أعدل ما شهد التاريخ من الغضبات ، وكانت ثورته لو ثار من أشرف ما دوَّنت الكتب من الثورات.

وكان لا بدَّ من أن يغضب بلدٌ عربيٌّ يتزعم العالم العربيّ ، يقوده فكرياً ، وثقافياً ، وسياسياً ، ويتمتَّع بمركزٍ محترم، ومكانةٍ مرموقةٍ ، ونفوذٍ ملحوظٍ ، حتى يسري هذا الغضب في جميع أقطّار العالم العربي ، يتردَّد صداه في جميع الشعوب العربية ، ويكون كما قال جرير الشاعر العربي:

إذا غضبتْ عليكَ بنو تميم — حَسِبْتَ الناس كلهم غضابا

هنالك طلعت مصر ، وغضبت غضبةً جاءت على قدر ، أرضت جميع المنصفين في العالم ، أما العرب فقد أنشدوا بلسانٍ واحد:

هذا الذي كانت الأيام تنتظر — فليوف لله أقوامٌ بما نذروا

حيَّاك الله يا مصر العزيزة! وبارك جهادك ، وقوَّى أبطالك ، وثبَّت مجاهديك ، إنَّ غضبتك سترضي أجيالك القادمة ، وتشرفها ، وستسجل فتحاً عظيماً في الشرق ، فانظري في المستقبل ، وما يخطه لك قلم المؤرخ من سطور الثناء والإجلال ، ولا تنظري في العقبات التي تعترضك ، فإنَّها زائلة وذائبةٌ ، وانظري إلى الثمار التي سيجنيها العالم العربيُّ بالأخصِّ ، والعالم الإسلامي بالأعم من جهادك ، فإنه يبث في العالم العربي الروح والحياة، وما أحوجه اليوم إلى الروح والحياة، ويحرِّك فيه الحمية والأنفة ،

ويوقظ فيه ثورة جبارة مثل ما تقومين به اليوم ، فليست ثورتك هي ثورة مصر المحلية ، إنما هي نفخة صور للعالم العربي ، وفاتحة عهدٍ جديد إن شاء الله في تاريخ العرب السياسي. احتسبي جهادك يا مصر! وقدِّسيه بنفسك ، فإنَّه جهاد يعلي كلمة الله ، ويشرف الإسلام والمسلمين ، ويرفع رأسهم عالياً أينما كانوا ، وإنه جهاد يغيظ أعداء الإسلام ، فحيَّا الله أبناءك المرابطين ، وأبطالك المجاهدين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

اعلمي يا مصر العزيزة! إنَّ القوة الوحيدة التي يخضع لها الغرب هي إرادة الشعب القوية ، والعزم الصادق الثابت ، والجبهة الموحدة ، فاحرصي على قوة إرادتك حكومةً ، وشعباً ، وعلى ثبات العزم ، وتوحيد الصفوف ، وآمني بأنَّ شعباً قد صدقت عزيمته ، وقويت إرادته ، وتوحَّدت صفوفه لا يمكن أن يجبر على ما لا يرضاه ، ويفرض عليه ما يأباه ، فقوتك في الداخل ، لا في الخارج.

قوتك في أبنائك ونفوسهم وعزمهم ، فإذا أبوا إلا جلاء الجيوش الإنجليزية من منطقة القنال ، ووحدة وادي النيل؛ فليست في العالم قوة تقف في سبيل هذا العزم ، وإذا ألغوا معاهدة سنة ١٩٣٦ م في نفوسهم واستنكفت من استمرارها حتى فضلوا الموت على عودتها فاعلمي يقيناً أنها قد ألغيت ، وليس لأمةٍ في العالم أن تعيدها.

اعلمي يا مصر! أن السياسة متقلبة بطبيعتها ، وأنَّ الدِّين ثابت بطبيعته وأنَّ المصلحة متحركة بطبيعتها ، فاستندي في جهادك إلى الإيمان والعقيدة أكثر مما تستندين فيه إلى السياسة والمصلحة ، وأيقظي الروح الدينية ، وروح الجهاد في سبيل الله ، واعطفي عليها ، وعلى رجالها ، فإنَّها أمضى سلاحك ، وأقوى جنودك.

وأنت أيها العالم العربي! فقم بواجبك ، وانتهز فرصة غضب مصر

وثورتها ، واعلم أنها من الفرص السانحة التي لا تدوم ، ولا تعود. فاغضب غضبةً واحدةً ، وقم قومة رجلٍ واحد ، اغضب لنفسك إن لم تغضب لمصر ، وهل هي إلا جزء من أجزائك ، وابن كريم من أبنائك ، وانصح لنفسك إن لم تنصح لغيرك ، فكرامتك اليوم منوطةٌ بمصر ، فلا كرامة لك إن هدرت كرامة مصر ، فاحرص على كرامة مصر حرصك على كرامتك ، وجاهد في سبيلها جهادك في سبيلك ، أستغفر الله ، بل جهادك في سبيل الدين ، وفي سبيل الحقِّ والعدل.

إنك مسؤول أيها العالم العربي! ومعاتب ، وملوم على كل تقصير في جنب هذا الجهاد المقدس ، وإنه محسوب عليك ، كما هو محسوب على مصر.

إنَّ العدو ماكر داهية ، وقد جرب منك سقطات وزلات في السابق ، وإنه واثق بولائك ووفائك ، فلا يخدعنك عن نفسك وعقيدتك ، ولا يحولن بينك وبين مصر ، ولا يشترين دولة من دولك ، أو شعباً من شعوبك بأرفع ثمن ، فإنه نار في الآخرة ، وعار في التاريخ ، ولا أنسىٰ أن أخاطبك يا مستر (جان بول) فأنت صاحبنا القديم عرفناك في الهند ، وعرفتنا ، وأعتذر إليك إن كنت آلمتك بذكر الهند التي فقدتها ، أريد أن أسألك أيها الشيخ السياسيُّ المحنك عن هذا الدفاع الذي ضقت به ، وغضبت عليه: هل يصحُّ أن يسمى دفاعاً ، وأيُّ فرقٍ بينه وبين الاحتلال ، وهل يجدي هذا الدفاع إذا لم ينشط له هذا الشعب الذي تدعي أنك تدافع عنه ، ولم يتحمَّس ، ولم يعاونك عليه.

وكيف بك لو احتلت جنود أمريكا الحليفة الصديقة الزميلة بلادك على رغمٍ منك ، ورغمٍ من المستر تشرشل بحجة الدفاع عنك؛ لأنك ضعيف قد أنهكتك الحرب الماضية ، هل تقر هذا الاحتلال ، وتسكت عنه جون بول؟

إني لا أجد لك (يا جون بول) ولمصر مثلاً إلا مثل زنجي وطفلٍ: زعموا أنَّ زنجياً كان يحمل طفلاً ، وكان الليل شديد الظلام ، ولم يكن الزنجي أقلَّ سواداً من الليل ، وكان الطفل كلما رأىٰ الزنجيَّ ارتعب ، وفزع ، وبكىٰ ،

وكان الزنجي كلما بكىٰ الطفل وخاف ضمَّه إلى صدره ، وآنسه ، وقال له مرة: لماذا تبكي يا بني وأنت في حجري ، وأنا لا أفارقك؟ فقال الطفل: أنت أصلُ بلائي وشقائي ، ومنك أبكي ، وأرتعب ، فيا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ، فبئس القرين!

وهكذا أنت يا مستر جون بول تريد أن تدافع عن مصر ، وأنت بغيض ثقيل على مصر ، ولا أحب إليها من مفارقتك ، واعلم أخيراً يا مستر جون بول! أنَّ عهد الاستعمار قد انتهى من غير رجعة ، فلا تتعب نفسك في استرداده ، وقل للمستر تشرشل: كان خيراً لك أن تبقى بطل الحرب الثانية ، وقاهر الألمان ، وأن تحتفظ بسمعتك ، وعلى نفسك جنيت؛ إذ رجعت إلى الحكومة ، وأخاف أن يكون مصيرك كمصير الإمبراطور البيزنطي هرقل؛ الذي انتصر على الفرس ، وسجل لنفسه فتحاً رائعاً في التاريخ ، ثم صادم العرب ، فلم يمت حتى انهزم أمامهم ، فأحبط ماضيه ، وأساء إلى نفسه ، وكان كالساعي إلى حتفه بظلفه ، وكلمة أخيرة إلى الرئيس أيزنهاور: ما هذا التعاون على الإثم والعدوان أيها الرئيس الجليل! وأين الديمقراطية التي تزعمها ، وتزعم أنك تدافع عنها ، وتجاهد في سبيلها ، فلم نرك إلا مردِّداً لصدى بريطانيا ، وكأنك جبل لا تملك إلا الصدى ، ولم نرك تقبض مرَّةً على يد الظالم ، وتنصر المظلوم ، وتغضب للحق ، ولم نرك انتصرت لشعب مستضعف ، ومنعت زميلتك بريطانيا من الظلم وحذرتها من عواقبه ، بل بالعكس رأيناك تسابق بريطانيا ، وساويتها في جحد الحق والمكابرة وإرغام الشعوب على ما لا ترضاه ثقةً بثروتك الضخمة ، ومواردك العظيمة ، وما ننسى فلا ننسى سياستك الغاشمة في قضية فلسطين ، وممالأتك السافرة لليهود ، وكيف احتضنت الصهيونية ، وتبنيت إسرائيل ، ولا تزال تحدب عليه كالأم الرؤوم ، أفليس من السذاجة أو من الوقاحة إذا طمعت في صداقة العرب بعد ذلك ؟!

ألا فليسمع مستر أيزنهاور، وليسمع الذي له أذنان: أنَّ سياسة الاستعمار قد أخفقت، وأنَّ الشرق قد بدأ يفهم الحقائق، وأنه جرَّب الغرب بمعسكراته وجبهاته ، فلم يره إلا شراً ، ومرّاً ، وظلماً ، وجوراً ، ودعاوىٰ فارغة ،

وتبجحاً ، وتنطعاً ، وعبثاً بالعقول ، وأنَّ في الشرق الإسلامي عقولاً لا تخدعها البهرجة ، والتزويق ، والوعود الخلابة ، وأنَّ هناك ضمائر ، وذمماً لا يستطيع الدولار الأمريكي أن يشتريها ويتملكها ، فليرجع الغرب أدراجه ، ويشتغل بنفسه ، والدفاع عنه ، وليترك الشرق الإسلامي يقول كلمته ، ويدبر شؤونه ، ويدافع عن نفسه ، ومن المقرر أن الشرق الإسلامي ، والأقطار الإسلامية بعيدة عن كل هجوم وخطر إذا دفع المعسكر الغربي عنها حضانته ، وابتعد عنها.

* * *

موقف المسلم
إزاء أسلافه الجاهليين(١)

خطب سميورنا نند رئيس الوزراء السَّابق للولاية الشمالية «أتر برديش» ورئيس «لجنة الانسجام العاطفي» المركزية في حفل انعقد في ذكرىٰ وفاة المستر بنت وزير داخلية الهند ، وقال في هذا الخطاب :

«إنَّ ٩٠ في المئة من مسلمي هذه البلاد أحفاد الهنادك ، أسلموا أخيراً ، ولكنه من الأسف أنهم لا يعرفون مآثر أسلافهم ، ولا يرغبون في أن يعرفوها ، ويطلعوا عليها ، إنَّهم لا يعرفونهم ، ولا يعتزون بجلائل أعمالهم ، وقال في خطابه : **إنَّه إذا كان مسلمو إيران يفتخرون بآبائهم الغير المسلمين ، ويعتزُّون بهم ، فما لمسلمي هذا البلد لا يعتزُّون بأجدادهم القدامىٰ ، ولا يفتخرون بمآثرهم وخدماتهم ، فقد ينبغي لهم أن يعترفوا بـ «رام كرشنا» و«أشوكا» وغيرهما من أبطال الهند ، كأجدادهم ، ويتعلَّموا احترامهم ، والاعتزاز بمآثرهم ، وبطولاتهم»** .

إنَّ الدكتور سميورنانند رجلٌ عالم ، له صلة طويلة بالعلم والتعليم ، وهو الآن رئيس أهم لجنة مركزية يمكنها أن تلعب دوراً خطيراً في بناء الهند الحديثة ، إنَّه أعاد هذا الحديث مراراً ، وأبدى هذا الرأي بجدٍّ لا يستهان به ، إنَّه عرض هذه الفكرة في أسلوبٍ علميٍّ تاريخيٍّ ، وإذا صرفنا النظر عن خطاب «كاتجو» الذي هو خطاب حماسي تعلوه العاطفة؛ فعلينا أن نعير

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الرابع ، المجلد السادس ، عام ١٩٦١ م.

خطاب الدكتور سميورنانند اهتمامنا ، وعنايتنا ، فإذا نجحنا في تغيير وجهة نظره؛ فذلك ما كنا نبغي ، وإلا فقد أبدينا الحقَّ أمام المسلمين ، وعرضنا عليهم وجهة النظر الإسلامية؛ لأنَّهم في حاجة إلى توجيهٍ صحيح في هذا الأمر ، ويريدون أن يعلموا موقف مواطن مسلم نبيل ينتمي إلى أسرةٍ قديمة غير إسلامية إزاء أسلافه الجاهليين ، أو أجداده الكافرين والمشركين ، وما يتطلَّب منه النبل الخلقي ، والدين والعقيدة في هذا المجال؟

إن سميورنانند أثار سؤالاً علمياً ، وثقافياً يطلب حلاًّ صحيحاً ، لا تؤثر فيه العواطف والمشكلات السياسية الراهنة.

إنَّ هذا السؤال ليس سؤال الهند فحسب ، بل إنَّه سؤال جميع الدول التي خرج فيها المسلمون عن حلقة أجيالهم الجاهلية ، واعتنقوا الدِّين الإسلاميَّ ، إنَّ جميع هذه الدول تحمل حضارةً خاصَّةً ، وتضمُّ في أحشائها مجموعة طيِّبة من أبطال وعظماء تطلب مآثرهم وجهودهم والاعتزاز بها في الأجيال القادمة.

الشيء الأساسيُّ الأول في هذا الموضوع: هو أنَّ الإسلام عقيدة جامعة محددة ، وهو يتطلب من أتباعه صلةً روحية ، وقلبية ، تحكم جميع الصلات المادية ، والوشائج الدَّموية ، وأواصر النسب والجنس ، والوطن ، واللون ، والشرط الأول عنده لحب شخصيَّةٍ أو حضارة هو أن تكون عقائد هذه الشخصية ، وميِّزات هذه الحضارة مطابقة للإسلام ، ولا بدَّ لنا في هذا المكان أن نفرق بين الاحترام «والافتخار والانتساب» كيف يمكن للإسلام الذي يعلم احترام شخصيات بلاد أخرى ألا يرضى باحترام شخصيات لنا بهم صلة النسب ، ولكنه من الواجب أن نعلم أنَّ احترام شخصية ، أو إكرامها لا يؤثر في العقل والقلب ، والفكر والعقيدة ، والمدنية والحضارة بمثل ما يؤثر فيه الاعتزاز ، والانتساب ، نحن نكرم أشياء كثيرة في هذا العالم ، ولكنا لا نجد في أنفسنا رغبة في تقليدها ، وميلاً إلى اتباعها.

أما الاعتزاز والانتساب فإنَّه مسؤوليةٌ دقيقةٌ خطرةٌ ، نحن لا نعتز إلا

بشخصيات هي عندنا شخصيات مثالية إلى حدٍّ كبير ، إنَّ الاعتزاز والانتساب ثورةٌ نفسيَّةٌ ، واستسلام فكريٌّ ، والإسلام لا يعطي هذا الحق لأحدٍ مهما كان لنا به صلة النسب؛ إلا إذا كان يتفق مع عقيدته الأساسية ، ويحمل تلك الصفات التي تعرف بها عظمة الإسلام وسموُّه.

لا يستطيع منصف أن ينكر أنَّ الاعتزاز والانتساب بشخصية ، والإيمان بها كشخصية مثالية نموذجية يحدث ثورة في الفكر الإنسانيِّ وحياته ، ويغيِّر محور حبه تغييراً عميقاً ، ولذلك نرىٰ الإسلام أنَّه لم يقدم للاعتزاز والمثال إلا رجالاً لا يتطرق الشك إلى صلتهم بالله ، وصحة عقيدتهم ، ودعوتهم إلى التوحيد واتزان حياتهم ، وسلامة فطرتهم ، إنَّ حياتهم وتاريخهم في ضوءٍ باهرٍ ، ونهارٍ ساطع ، لا موضع فيها للشك في عقيدتهم ، والطعن في حياتهم.

ها نحن نرىٰ القرآن يذكر الأنبياء الذين كانوا دعاة التوحيد وأئمة الهدىٰ على اختلاف الأجناس والأوطان ، فيقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] ونرى المسلم يكرر في كلِّ صلاة:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

المسلمون لا يعيشون في الهند فحسب ، وهذا السؤال ليس سؤالاً جديداً أُثير للمرَّة الأولى في التاريخ ، فكل فئة اعتنقت الإسلام في بلدٍ غير إسلامي واجهها هذا السؤال في أول يوم من دخولها الإسلام ، كأنوشيروان ، وكيخسرو ، ورستم ، وسهراب ، وماني وبهزاد في إيران ، أما مصر فقد حكمها الفراعنة لقرون وأجيال وتركوا آثاراً خالدة لذكائهم وعظمتهم ، وعزمهم وجلدهم ، يحقُّ لكل مصري أن يجلَّها ، ويحترمها ، وكان في الشام في الفينيقيين ، والآشوريين ، والغسانيين ملوك عظماء في التاريخ ، كما أنَّ كثيراً من مسلمي التتار من سلالة جنكيز ، وهولاكو ، أو من أسرهم التي دوخت البلاد ، إنَّ هذه الشخصيات لم تكن حاملة دين ، ولم تكن لها سمعة دينية وتقديس روحي ، ولكن المسلمين لم يرغبوا في

الانتماء إليها، والاعتزاز بها قبل دور «القومية» الذي أنشأته المدنية الغربية.

إنَّ أكثر ما فعلوا أنهم اعترفوا بجزء من كمالهم، وجزء من مآثرهم، وهذا ليس واجب بلدٍ خاصٍّ يختصُّ بشعبٍ دون شعب، بل إنَّه كان واجب كل رجل منصف مثقف، ولا داعي لذلك إلى استثارة وطنية، أو قومية، بل إنَّه من الجفاء بهذه الشخصيات أن نضطر إلى استنهاض عاطفة قومية للاعتراف بعظمتهم وتقدير مآثرهم.

إنَّها كانت معجزة قوة الإسلام، وثورته المدهشة (التي لا تضارعه فيها مدنية أو حضارة) إنَّ غير المسلمين رغبوا دائماً في الانتماء إلى هذا الدين، وقالوا بفخر واعتزاز: إنَّهم ليسوا في حاجة إلى الانتماء إلى حضارتهم القديمة، والانتساب إلى أسلافهم بعد ما أغناهم الإسلام عنهم، بل كان من تأثير الروح الإسلامية الصحيحة أنَّهم اعترفوا بضعفهم ومعائبهم التي كانت قبل الإسلام برحابة صدر، وأعلنوا أنَّ الإسلام منحهم حياةً جديدةً، أعلن به جعفر بن أبي طالب النجاشي بحضور من وفد قريش؛ مع أنه كان ينتمي إلى أكرم أسرة من أسر العرب قريش وبني هاشم. وهنا كثير من حديثي العهد بالإسلام من غير العرب استأنفوا حياتهم الشعورية بالإسلام، سئل سلمان الفارسي عن نسبه، فأجاب من غير تردُّدٍ: «سلمان ابن الإسلام» مع أنه كان من أسرة إيرانية قد تكون أسلافها رستم، وسهراب، أو أنوشيروان وكيخسرو، وفعل مثل فعله عدة من المسلمين الجدد، واعترف علماء إيران بمآثر سعد بن أبي وقاص «فاتح إيران» وخالد بن الوليد «فاتح الشام» وغيرهما من أبطال العرب، وذكروهم بعظمةٍ، وإجلالٍ، وإنَّ لإيران صلة قوية بعلي كرَّم الله وجهه، والحسن، والحسين رضي الله عنهما، وهما من العرب الأقحاح، وإنَّ لها غراماً شديداً بهم، هو أكبر دليل على أن العاطفة الإسلامية تغلبت على القومية الإيرانية في جميع الأحوال، ولا تزال.

وهكذا العرب فإنَّهم لما أسلموا كان تاريخهم حافلاً بالأبطال والشخصيات العظيمة، ولكنَّهم لم ينتموا إليهم، ولم يفتخروا بهم ولم

يعدوهم أبطالهم حتى في عصر القومية العربية ، فقد كان هناك أمثال حاتم الطائي وابن جدعان اللذين كانا مضربي الأمثال في الجود والسخاء ، ولكنَّ تاريخ العرب لا يدلنا على الاعتراف بعظمتهم وتقدير بطولاتهم إلا في مجالٍ خاصٍّ ، وهو مجال الجود والكرم وحسن الوفادة فحسب؛ الذي كان موضع شهرتهم ، وميزتهم الكبرى.

وقد استشهد الدكتور سميورنانند في بعض خطبه ومقالاته بالشاعر الإيراني العظيم الفردوسي الّذي نظم الملْحمة الإيرانية الذائعة الصيت؛ التي تعرف «بشاهنامه» ، وقد تغنى فيها ببطولة رستم ، وسهراب ، والأمجاد الفارسية القديمة وملاحمها وبطولاتها ، وقد استدل به الدكتور على أنه ليس بمستنكر على مسلم ، ولم يثر ذلك سخطاً أو إنكاراً في الأوساط الإسلامية ، ولم يعد ذلك من عيوب الشاعر ودليلاً على ضعف عقيدته وإخلاصه للإسلام ، وتمنى لو كان في الشعب الإسلامي الهندي شاعر يتغنَّى بمجد الهند ، وبطولات العهد الذي سبق دخول الإسلام في هذه البلاد ، وشخصيات العهد القديم ورجالاته.

إننا نريد أن نقول للدكتور: إنَّ ذلك لم يكن ، وإنَّ الفردوسي لما بالغ في تمجيد العنصرية الإيرانية ، والافتخار بأبطال إيران القديمة ، وتقديسهم حتى تورط في انتقاص فضل العرب ، وهجائهم في بعض الأحيان ، ولم يعرف للفتح الإسلامي فضله في إنقاذ الفرس من براثن الوثنية المجوسية ، وعبادة النار ، والشهوات ، وجور الطبقات العالية استهدف سخط المسلمين المخلصين في إيران نفسها ، واستحق ملامة كثيرٍ من الفضلاء الإيرانيين في القديم ، ونظمت منظومات وملاحم في انتقاده والردِّ عليه ، منها «عمر نامه» لشاعر إيراني ، وهي الملحمة الإسلامية التي أشاد فيها بالفتح الإسلامي ، وما جرَّ على الإيرانيين من سعادة ونعمة ، ومنها «صولة فاروقي» ومن أبياته السائرة البيت الذي انتقد فيه الشاعر النزعة القومية في الفردوسي ، ونسبها إلى العِرْق المجوسي فيه ، يقول الشاعر ما ترجمته بالعربية:

قلبه مجوسي ، وروحه مجوسية ، ولسانه مجوسي إنّه يحكي قصة المجوس في اللغة المجوسية».

بجانب هذه الحقيقة التي ذكرناها آنفاً نجد في أفكار الدكتور أخطاءً علمية ، وضعفاً في الاستدلال لا يليق برجل عالم مفكر مثله ، وهو أنه خلط الجنس والدين في سرد أسماء الشخصيات ، وتقديم رأيه في هذا الموضوع ، فإذا كان يريد من المسلمين أن يفتخروا بأجدادهم وأسلافهم على أساس النسب والجنس ، فكان يجب عليه أن يختار لهم شخصيات لا تكون لها مكانة دينية مرموقة ، وتاريخ ديني مشهور؛ لأنَّ المسلمين أمة دينية ذات رسالة خاصة ، وعقيدة خاصة ، وأنهم لا يستطيعون في أيِّ حال من الأحوال أن ينسبوا نفوسهم إلى شخصيات دعت إلى دين ، وحملت فلسفة دينية ، أو حدبت على حركات خاصَّة ، واشتهرت بها ، كما لا يمكنهم أن يعتزوا ، ويفتخروا بها.

أما إيران التي قدَّمها سميورنانند مثلاً لذلك فإنَّه يوجد فيها نوعان من الشخصيات ، النَّوع الأول منها: ما كانت له شهرة دينية ، ومكانة دينية مرموقة ، والنوع الثاني: شخصيات لم تعرف بخدمة دين ، ولكنها امتازت في بعض أنواع البطولات والكمال الإنساني. إنَّ مسلمي إيران لم يفتخروا ولم يعتزوا برجال عرفوا بدعوة دينية ، أو فكرة وفلسفة خاصَّة ، ولم يرضوا بالانتماء إليهم أمثال «زردشت» و«مزدك» وغيرهما الذين كانوا دعاة دين ، ومؤسسي فلسفة، بل ظل علماء إيران وكتابها ينتقدون أفكارهم وفلسفاتهم، ولا يذكرونهم بتقديس وإجلال ، وأهل إيران بالعكس من ذلك اعترفوا بمآثر رستم ، وسهراب ، وماني ، وبهزاد ، وبطولاتهم ، ولم يبخلوا بتقديرهم، والثناء عليهم ، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقه ، ولكنه يجب ألا ننسى أنَّ هذا الاعتراف والاحترام لم يكونا إلا في مجال خاصٍّ ، ودائرة خاصَّة نالوا فيها شهرةً عالمية ، فاشتهر ماني ، وبهزاد في الرسم والتَّصوير، ورستم وسهراب بالبطولة والشجاعة ، واستحقا تقديراً عاماً ، واحتراماً عاماً.

أما رام وكرشنا فإنهما يحملان طابعاً دينياً ، وأنهما من مؤسسي ديانة

وفلسفة ، أو كبار دعاتها ، أما أشوكا فرغم أنه كان ملكاً كبيراً ، ولكنه كان من دعاة البوذية المتحمسين ، وحامي ديانتها ، وهو الذي تولى نشر هذه الديانة خارج الهند ، وإليه يرجع الفضل في توسيع الحكم البوذي إلى بلاد نائية في آسيا ، واستمراره عدة قرون.

وهنا نكتة نفيسة فاتت الدكتور سميورناننددد ، ولكن لا نستطيع أن نهملها ، أو نتغافل عنها ، وهي أنَّه قامت في الهند في عصرنا محاولات ، ونشرت أحاديث حول إحياء الحضارة البرهمية القديمة ، وتجديدها ، وتحريض المسلمين على العودة إلى هذه الحضارة البرهمية القديمة وفلسفتها الاجتماعية ، فإقبال المسلمين على هذه الدعوة (وهم في هذه الظروف الدقيقة) دعوة الانتساب إلى أسلافهم الجاهليين ، وأجدادهم القدامى العريقين في القدم (الذين هم رمز هذه الحضارة والفلسفة وزعماؤها) والمباهاة بهم نذير خطر جديدٍ لكيان الشعب الإسلامي ، والجيل الإسلامي الجديد ، وشخصيته ، ومستقبله الدينيِّ في هذه البلاد ، فكل من يحب أن يرى الجيل الجديد متمسكاً بالعقيدة الإسلامية بالنواجذ له حقٌّ في أن يشك في هؤلاء الدعاة أمثال «سيمورناننند» و«كاتجو». إنَّ مقاومة شخصيات وراءها فلسفة خاصَّة ، وحضارة مستقلة ـ ولا يزال يحاول زعماؤها إحياء هذه الحضارة بكلِّ قوة وإصرار ـ بشخصيات أصبحت أسطورة من أساطير التاريخ ، ورواية من روايات الأدب لا تصحُّ أبداً ، فالذين يريدون من المسلمين أن يؤمنوا بأسلاف الهند القدامى من الآريين ، ويقدمون رستم وسهراب مثالاً على ذلك ، هم إما مخدوعون يعيشون في عالم الأحلام ، أو عقلاء بعيدو النظر ، يحاولون أن يغالطوا ضعاف العقول من المسلمين.

وهنا شيء آخر يجدر بالذكر ، وهو أننا لا ندري لماذا فرض الدكتور سميورناننند أن ٩٠ في المئة من مسلمي الهند هم أحفاد الآريين، وورثتهم ، فإنَّه يعرف تلميذ صغير من تلاميذ مادة التاريخ الهندي ، أن أكثرية المسلمين تتصل بالأمم القديمة التي حكمت الهند قبل بدء العهد الآري ، فإذا كان المطلوب هو ولاؤهم للهند ووفاؤهم للنسب ، والعرق ، والدم ، فلماذا

لا يُذكر بجانب الآباء الآريين الآباءُ الآخرون من السلالات القديمة أجداد شعوب الهند الجنوبية والوسطى الذين تنحدر عنهم الكثرة من «المهتدين» والمسلمين المعاصرين.

الحقيقة أنَّ تحديد الحضارة الهندية، وأمم الهند، وشعوبها في الجنس الآري وبعض أفراده البارزين (الذين كانوا رمز حضارة خاصة، وعرفوا بالاضطهاد والاستعباد وتدمير الحضارات السابقة) جفاءٌ بالتاريخ، ودليلٌ على ضيق النظر، وترديد للفلسفة النازية المؤمنة بتقديس الجنس الآري، ومعاداة كلِّ ما عداه من أجناس وحضارات.

ولا بد هنا من الاعتراف بهذه الحقيقة المرة أننا في حاجة إلى جهاد طويل، وكفاح شاق في الأكثرية لإيجاد النظام والانسجام العاطفي بين فئات الهند المختلفة بدلاً من الأقلية، فالواضح لكل ذي عينين أنَّ مسؤولية هذا الفتور والخلل في الانسجام والوئام بين هاتين الفئتين تقع على موقف الأكثرية وأسلوب تفكيرها، وتقاليدها الاجتماعية، واستكبارها، وتمسكها باللمس المنبوذ، وإنها في حاجة إلى أن تعلم احترام الإنسانية، وقيمة حياة الإنسان، وإيثارها على حياة الحيوانات والأشجار، والإيمان بطهارته فطرياً وشرفه، وقد أبانت حوادث «عليكره» و«جبليور» أنَّ عقلية الأكثرية في حاجة إلى تغير كبير، وتطور جديد، وأنه من سوء الحظ أنَّ الذين ينهضون لخدمة البلاد، هم ينصرفون إلى بذل النصيحة للأقلِّيَّة وتوجيهها بدل أن يجاهدوا في سبيل تغيير عقلية الأكثرية، ويتعرضوا لسخطها وملامها، والإنسان مفطور على حبِّ السهل وإيثار أهون الأمرين.

إنَّ تربية الشعب الفكرية، وبناء الهند من جديد، وإنشاء الانسجام بين عناصرها وفئاتها على قدم من المساواة والأمانة مهمةٌ عسيرة، ومسؤولية ضخمةٌ تحتاج إلى التفاني، وإنكار الذات، والتضحية، وشيء كبير من المغامرة، ونعجب إذ لا نجد في هذه البلاد الواسعة من يتفقد الأكثرية في شجاعة وصراحة، ويقول لها كلمة حق غير مبالٍ بخطر، ويحاسبها حساباً

صحيحاً ، بدقَّةٍ ، وأمانة ، وجرأة ، وشجاعة ، إنَّ هذا خطر على البلاد ، وفراغ كبير لا يملؤه شيء.

إنَّ المسلمين مصممون على خدمة الهند المعاصرة وإنهاضها ، وسوف يقومون بهذا الواجب بانسجام عاطفي مع المواطنين ، يسمح به دينهم ، وعقيدتهم ، ويرفعون مكانتها ، ولا حاجة البتة إلى الدعوة إلى الافتخار بعرقٍ قديم ، والانتساب إليه ، والاعتزاز به والرجوع إلى أغوار الماضي السحيق والحضارات التي فقدت صلاحيتها للبقاء وجدارتها للحياة ، وإنه عبث وفضول ، وإضاعة وقت وجهود ، وجهاد في غير جهاد.

* * *

خطاب مفتوح(١)

إخواني في الدين وزملائي في الصحافة والكتّاب!

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته! وبعد فأعزيكم ـ تعزية مفجوع لمفجوعٍ ـ في كارثة العالم العربيِّ؛ التي لا يوجد لها نظير في تاريخنا الإسلاميِّ العربيِّ القريب ، وإنَّ اللغة العربية على عبقريتها اللغوية وسعتها المعجزة ، وإنَّ معاجمنا على غناها ، وضخامة ثروتها لتعجز عن مجاراتنا ، وإسعافنا في إبداء الشعور العميق ، الَّذي يملكنا في هذه المناسبة ، وفي أقلِّ من هذه المأساة نكبةً ، وأقصر منها رقعةً ، قال أمير الشعراء شوقي:

سلامٌ من صبا بردى أرقُّ ... ودمعٌ لا يكفكفُ يا دمشق!
ومعذرةُ اليراعةِ والقوافي ... جلالُ الرُّزءِ عن وصفٍ يدقُّ

لقد كانت مأساة جنت على كرامة العرب في كل رقعةٍ من الأرض ، وكرامة تاريخهم؛ الذي كان المؤلفون والباحثون يقفون أمامه دهشين خاشعين ، وذلَّت بها رقاب المسلمين في كل بقعةٍ يسكنونها ، وهبَّت عليهم في هذه الأيام التي انتشرت فيها أخبار النكسة عاصفةٌ هوجاء من الشماتة ، والهزء ، والسُّخرية ، والتندر المرير ، والتنكيت اللاذع من جيرانهم ومواطنيهم ، لا يقدر عنفها ولذعها وتخاذل المسلمين أمامها إلا من استهدف لذلك أو شاهده.

---

(١) وجّه العلامة الندوي هذا الخطاب إلى رجال الصحافة والإذاعة ، والكتّاب والأدباء ، وقادة الفكر وزعماء الإصلاح ، في الأقطار العربية ، نُشر هذا الخطاب في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها العاشر ، المجلد السادس ، عام ١٩٦٨ م.

ولقد لبست الهند الإسلامية ـ ككلِّ بلدٍ يسكنه المسلمون في عدد كبير ـ ثوب الحداد ، وغرقت في بحر الأسى ، والحزن ، والخجل ، ولا يزالُ حديث فلسطين ، وحديث المسجد الأقصىٰ ، وحديث كارثة العالم العربي بصفةٍ عامَّةٍ يشغل أكبر جزءٍ من الصحف والمجلات الإسلامية ويبحث الكتاب الكبار عن أسباب هذه النكبة في عمقٍ ، ودقَّةٍ ، وصراحةٍ ، وقوة ، يبحثون عنها في حياة إخوانهم العرب ، الذين يدينون بحبِّهم ، وينظرون إليهم كالجيل المثالي للإسلام ، وكأصحاب الفضل عليهم في التخلص من جاهليتهم ، ووثنيتهم القديمة ، ويدرسون القرآن ، ويستفتونه في ذلك ، فيجدون فيه البيان الوافي ، والجواب الشافي ، وينتقدون القيادة الرئيسية ، التي تحمَّلت مسؤولية الحرب ، ووقف إطلاق النار ، يتناولونها ببحث دينيٍّ ، وتحليل علميٍّ عملاً بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء : ١٣٥] ، لا تمنع من ذلك مصلحة سياسية ، ولا دعاية قومية ، فإنَّ الأمم تعيش على محاسبتها لنفسها وقادتها ، فإنَّ الأمة خالدةٌ ، والقيادات عارضةٌ ، فلا يضحىٰ بالأمة في سبيل القيادة ، وإنما يضحىٰ بالقيادة في سبيل الأمة ، وليس أمثالكم في حاجة إلى الإفاضة في هذا الموضوع .

ظللنا نتابع قراءة الصحف التي تصدر من الأقطار العربية الشقيقة ؛ وكنا مؤمنين بأن النكبة الحديثة التي هزَّت الحياة ، وهزَّت المشاعر في كلِّ بلدٍ إسلاميٍّ لا بدَّ أن تهيمن على كلِّ ما يكتب في الصحف والمجلات ، وتطبعها بطابعها ، وكنا نتوقع أنَّ الحديث عن أسباب النكبة ، ومواضع الضعف في مجتمعنا العربي ، وفي أخلاقنا وأوضاعنا سيغلب على كلِّ حديث وموضوع ، بحيث إذا اطلع أحد على عدد لأيِّ صحيفة عرف أنها صحيفة أيام النكبة ، وصحيفة أمةٍ منكوبة ، وصحيفة أسرةٍ مفجوعة في أعز أعضائها ، وأفلاذ كبدها ، وأنَّها ستتعرض لنقد المجتمع ، النقد المخلص النزيه ، نقد الأستاذ الشفيق ، والمربِّي الرفيق ، وتتعرض لنقد القيادة التي أدت إلى هذه النتيجة المخزية ؛ التي لم ينته إليها المسلمون بعد سقوط بغداد في أيدي التتار الوحوش ، ووقوع العالم الإسلامي كلِّه تحت أقدامهم

وتحت سنابك خيلهم ، النتيجة التي وصمت وجوه المسلمين بوصمة عار لا يغسلها ، ولا يزيلها إلا فتح مبين من فتوح صلاح الدين ، أو وقعة حاسمةٍ مشرقةٍ كوقعة حطين.

نصارحكم كأعضاء أسرة الأدب والكتابة ، وكزملاء مهنة الصحافة ، بأننا لم نجد هذه الصحف والمجلات العربية الشقيقة تخضع لآثار هذه النكبة ، وتنمُّ عن أثرها العميق في النفوس والقلوب ، وفي الأدب والبيان ، كما كنا نتوقع ، ولم نر الباحثين من العلماء والكتاب يبحثون عن جذور هذه النكبة ، الدقيقة العميقة في أعماق المجتمع العربي ، والجذور التي مهدت السبيل لهذه النكبة ، وسهَّلت سيرها ، وتقدُّمها ، بل دعتها لتشق طريقها إلى الإمام ، وتغزو العالم العربي هذا الغزو العاتي ، إنَّ التعليقات الصَّحفيَّة ، والبحوث السطحية لا تكفي في هذا الموضوع ، ولا تفي بحقِّ هذه النكبة الموجعة ، والخطب الفادح ، إنَّ هذه النتيجة تستحق أن تعتبر الخط الفاصل بين تاريخين وبين عهدين ، فكلُّ عربي بعد اليوم التاسع من حزيران ١٩٦٧م غير العربي قبل هذا اليوم شرفاً ، وكرامةً ، وثقة بالنفس ، واعتزازاً بالقوة ، والمسلم بعد هذا اليوم هو غير المسلم قبل ذاك اليوم عزَّةً ، ومناعةً ، واستناداً إلى هذا العالم العربي الواسع ، واحتجاجاً بهذا التاريخ الذي يدلُّ به ، ويستدل ، وليست غلطة من غلطات القيادة العسكرية هي المسؤولة عن هذا الدَّمار والعار اللذين لحقا العرب والمسلمين ، مع أن هنالك غلطاتٍ فاحشةً يجب أن تحسب ، وتحاسب.

لقد تحقق أنَّ الحياة التي لا تقوم على الإيمان الراسخ ، والدين المتين ، والخلق القوي ، وعلى الأخذ بالجدِّ واللباب ، وتعتمد على الدعاية والثرثرة ، وترفيه النفوس ، ومجاراة الشعب في أهوائه ومطالبه ، وتتكل على قوَّةٍ خارجيَّةٍ ، وتعيش في عالم الأوهام والأحلام ، ومعركة الجدل والكلام ، وظهور مايغضب الله ورسوله من أعمال وأقوال ، وأخلاقٍ وعادات ، ما يضعف نشاط الشعب وحماسه في سبيل العقيدة والكرامة والفوضى الفكرية التي تجرُّها الصحافة المحترفة ، والأدباء الماجنون ، والمجلات الخليعة ، والأدب المكشوف تفقد الأمة روح المقاومة للعدو ،

والثبات على المبدأ ، وتحمُّل الشدائد ، وتحرم البلاد والأمة من نصر الله ، وتعرضها للخذلان ، رأينا مثاله الفظيع في المعركة الأخيرة.

وقد ألقت الحياة في مصر وصحافتها وإذاعتها ونتاج مكتباتها العملاقة ظلالها الكثيفة السوداء على المجتمعات العربية كلِّها ، وخضعت لتأثيرها في قليلٍ أو كثير على قرب بعضها ، وبعد بعضها ، وحبِّ بعضها ، وكره بعضها ، وفعلت الحضارة الغربية ، وتسهيلات التوريد ، ونشاط التجارة الأجنبية ، وإقبال هذه الشعوب إلى ترفيه النفس بنهامة جامحة غريبة فعلها الطبيعي في هذه البلاد ، فأصبحت الحياة في جميع الأقطار العربية متشابهةً متشاكلةً ، وهذا ما ينذر بخطرٍ كبيرٍ ، وتشغل فكر المحبين المخلصين الذين يربطون مصيرهم ومصير الإسلام والمسلمين بهذه البلاد ، وبهذه الشعوب.

اسمحوا لي أن أقول: إنَّ من أعظم أسباب النكبة التي نكبت بها مصر ، وامتدت هذه النكبة إلى جميع البلاد العربية: الصحافة ، والإذاعة المصريتان ، فقد لعبتا دوراً رئيسياً في إفساد الذوق ، وشلِّ النظام الفكري ، وتخدير الأعصاب ، وتعمية الأبصار عن إدراك الحقائق ، ونشر المجون والعبث بالقيم والموازين ، وأصول الأخلاق والشرائع ، وإنَّ كل شعب يعيش تحت وطأة هاتين السلطتين ، اللتين تستحق أن تسمى كلُّ واحدة منهما بصاحبة الجلالة ، ويهبهما قلبه وعقله ، وسمعه وبصره ، لا بدَّ أن يفقد الاتزان ، ويخلَّ الميزان ، فلا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، ولا يحبُّ طيباً ، ولا يعاف خبيثاً ، وإنَّه عرضةٌ لكل خطر ، وهدفٌ لكلِّ إهانة ، وجديرٌ بكل هزيمة: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

إنَّ هذه النكبة ـ لا سمح الله بها ـ لا تُمنع ، ولا تُسدَّ في وجهها الأبواب والطرق بالتقدُّم في المدنية ، والزيادة في أسباب الترفيه والتسلية ، ولا باقتباس المناهج الفكرية ، والمذاهب الاقتصادية الحديثة ، فقد فعلت مصر وسورية كلَّ ذلك ، فلم يغن عنهما شيئاً ، بل كانت من أسباب النكبة. إنَّه لا يحال بينها وبين الشعب إلا بالإنابة إلى الله تعالى ظاهراً وباطناً ،

والتمسُّك بحبله ، والالتجاء إلى عتبته ، وتحكيم الشريعة في الحياة ، وإخضاعها للآداب ، والأخلاق الإسلامية ، وترك المشاقة مع الله ورسوله ، والدخول في السلم كافة ، والأخذ بالجدِّ واللباب في المدنية والحياة الفردية والاجتماعية ، وتوطين النفس على تحمُّل المكاره، وشظف العيش ، وخلال الرجولة والفتوة ، والعمل بما أمر به مربي الجيل الإسلامي الأول عمر بن الخطاب بقوله: «تمعددوا[1] واخشوشنوا[2] ، واخشوشبوا[3] ، واخلولقوا[4]» وحياة الاقتصاد والبساطة في جميع المجالات ، والكف عن الإسراف والمجون ، والتبذير الفاحش ، والمواساة لجميع الطبقات ، التي أمر بها الإسلام ، ومحاربة الفقر المدقع والغنى الفاحش في وقتٍ واحد في ضوء تعاليم الإسلام ، وأسوة الرسول والصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ من غير تقليد لمذهبٍ اقتصادي مستورد ، ومن غير خضوع لفكرةٍ أجنبية ، والبراءة من القيادة التي عبثت بعقول الأمة ، وعاثت في البلاد والعباد ، وجرَّت عليها الشقاء الذي لا مثيل له في تاريخنا الطويل ، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣] ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧].

والصحافة ، والإذاعة ، والأدب ، والكتابة هي أقوىٰ وسيلة لغرس هذه المعاني في النفوس ، وتحبيبها إلى العقول ، وتسريبها في الحياة ، وأخاف أن تكون هذه آخر فرصة ـ لا قدَّر الله ـ للانتباه من السبات ، وتدارك ما فات ، والاستعداد لما هو آت ، فأرجو أن تتجلَّى هذه المعاني في كل عدد من أعداد صحفنا ، وفي كل برنامج من برامج إذاعاتنا ، وفي معظم ما نكتب ، وما نقول ، وأن تجند لها الحكومات وسائلها ، ويجند لها

---

(١) تمعدد الغلام: شب وغلظ ، وقيل معناه: تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف.

(٢) اخشوشن: تخشن في المطعم والملبس.

(٣) اخشوشب: صار صلباً كالخشب في أحواله وصبره على الجهد.

(٤) اخلولقوا: تبذلوا في الملابس.

الأدباء ، والشعراء ، والكتاب ، والصحفيون ، والمذيعون قواهم ، ومواهبهم ، وطاقاتهم ، ويسخروا لها القرائح ، والعبقرية الأدبية ، والمعاني الشعرية ، والبراعة الكتابية ، حتى يؤمن بها الشعب إيماناً راسخاً ، ويتخذها منهجاً في الحياة ، وبذلك لا نعتصم عن نكبةٍ جديدةٍ فحسب ، بل نستطيع بحول الله أن ننقذ العالم العربي من هذا الوضع الفظيع ، ونستعيد فلسطين والمسجد الأقصىٰ ، ونسترد ما خسرناه من كرامتنا واعتبارنا ، ومن كرامة التاريخ الإسلامي والعربي ، الذي فقد الشيء الكثير من قيمته ، وجلاله ، وروعته ، وثقة الناس به.

وهذه أمانة في أعناق جميع الكتاب ، والأدباء ، والصحفيين ، وحملة الأقلام ، والخطباء على المنابر ، وزعماء الشعوب العربية ، وقادة الفكر والرأي «**اللهم هل بلّغتُ؟!**».

* * *

مَصْرَعُ الجاهليَّة[1]

من الأساطير التي سمعنا في الصغر ، وبقيت في غضون الذاكرة وبعض ثناياها : أنَّ رجلاً اعتدى عليه عفريت من الجن بمثل ما كان يعتدي به الجنُّ على البشر ، فبرز الرَّجل بكلِّ ما أوتي من حولٍ وطولٍ ، وبكلِّ ما قدر عليه من سلاح وشكَّة ليقتله.

هجم الرجل على العفريت بكلِّ سلاحٍ ماضٍ ، وسيفٍ باتر ، وسهمٍ مصيب ، ونثر كنانته ، ولم يدع في القوس منزعاً ، ولكنَّه لم ينكأ عدوَّه ، ولم يصب منه مقتلاً ، وما زال الرَّجل يعيد الكرة بعد الكرة ، ويجرِّب سلاحاً بعد سلاح ، والعفريت ساخرٌ منه ، غير محتفل به ، كأنه في نفسه على أمان ، ومن سهام الرَّجل وهجماته في حصن حصين.

حار الرَّجل في أمره ، وأعياه أمر العفريت ، وكاد يقطع من قتله الرجاء؛ إذ أخبره أحد العقلاء أنَّ روح هذا العفريت في حوصلة ببغاء ، وهذه الببغاء في قفص من حديد ، وهذا القفص معلق في غصن شجرة ، وهذه الشجرة في غابةٍ كثيفة ، يسكنها سباعٌ ضارية ، وحيَّات فتاكة ، وعقارب سامَّة ، ودونها خرط القتاد ، وحولها شمُّ الجبال.

وما زال الرَّجل يطلع جبلاً بعد جبل ، ويقطع وادياً بعد وادٍ ، ويقتل وحشياً بعد وحشيٍّ ، حتى خلص إلى هذا القفص ، وخنق هذه الببغاء ، ولم

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الخامس ـ المجلد السابع ، عام ١٩٦٣ م.

يكد يقتلها حتى حدثت رجةٌ عظيمةٌ ، دارت بها الأرض الفضاء ، وأظلمت بها آفاق السماء ، وصاح العفريت صيحته الأخيرة ، وكان جثةً هامدةً لا حراك بها ، وهكذا قتل الرَّجل عدوَّه بعد ما لقي منه عَرَقَ القِرْبَة .

لعلَّك سمعت هذه الأسطورة من عجوز في بيت تحكيها لأحفادها أو أسباطها ، فمررت بها مستهزئاً ، وقلت : حديث خرافة يا أمَّ عمرو .

نعم إنَّها لحديث خرافة ، وأسطورة من أساطير الأولين ، ولكنَّها تفيدنا بأنَّ كلَّ حيٍّ له مقتل ووريد ، ولا يؤثر فيه عدوٌّ ، حتى يصيبه في مقتله ، ويقطع منه الوريد ، وأنَّ دون ذلك المقتل ، وحول هذا الوريد حواجز وحصوناً .

قد تسلط على الأمة الإسلامية عفريتٌ من الحياة الجاهلية ، واعتدى عليها بصنوفٍ من الخبال ، وضروب من الأذى والوبال ، ظهرت في كثير من أخلاقها وأفعالها، كاستخفاف بأحكام الشرع ، وتجرؤ على المعاصي ، ووقوع في محارم الله ، واستعباد لعباد الله ، وإمعان في الشهوات ، وإسراف في سبيل المتع واللذات ، وتهافت على الخسائس والرذائل ، وفرار عن مكارم الأخلاق والفضائل ، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

والناس طبقات : عامةٌ ، وأوساطٌ ، وعظماء .

فأما العامة فمساكين تدور حولهم رحىٰ الحياة بسرعة ، لا يرفعون فيها إلى الدين والسعادة الأخروية والاستعداد للموت رأساً ، وإنَّما همُّهم أن يؤدوا ضرائبهم ، ويجمعوا لأيام فراغهم ، ويكسبوا قوت يومهم ، ويكسوا عيالهم ، فهم يكدحون في الحياة كدح الحمير والثيران ، لا يتعبون إلا للراحة الموهومة ، ولا يستريحون إلا للتعب الواقع ، فهم من البيت إلى الدُّكان ، ومن الفراش إلى المصنع ، أو السوق ، أو الإدارة ، ومن نَصَب إلى نصب ، ومن همٍّ إلى همٍّ ، لا تنتهي همومهم ، ولا تنقضي متاعبهم : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام : ٣١] .

وأما الأوساط فهم أسوأ منهم حالاً ، وأكدر منهم بالاً ، عذبهم الله بالحرص ، والجشع ، ينظرون دائماً إلى من فوقهم ، ولا ينظرون أبداً إلى من دونهم ، فهم في همٍّ متواصل ، وأحزانٍ متسلسلة ، وشقاءٍ مستمر ، وتذمُّرٍ جارٍ ، وشكوىٰ قائمة ، وأنينٍ باق ، يجرون في رهان لا تنتهي ، ويسابقون جياداً لا تكلُّ ولا تُسْبَق ، ولا يزال قَصَبُ السبق بعيداً ، كلَّما انتهوا إلى غاية رأوا غايةً أخرىٰ ، فجروا وراءها ، وهي تبتعد عنهم ، كما يبتعد الأفق من الطفل الذي يحاول مسكه ، وشعاع الشمس الذي يجتهد لقبضه ، وهكذا يتفلت منهم «المثل الأعلى» في الغناء والثروة ، والرَّخاء والجاه ، فيموت الواحد منهم كئيباً منكسراً ، لم يستعد ليوم الجدِّ ولم يأخذ لنفسه عدتها ، ويأتيه الموت فيقول: ﴿ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

وأمَّا العظماء ـ من الملوك وأبناء الملوك والأمراء ـ فإنَّهم يريدون أن يلتهموا الدُّنيا طولاً وعرضاً ، وينتهبوا المسرات جرياً وركضاً ، ولا يشفى عليلهم ولا يروىٰ غليلهم ، وهم من دقائق الرَّاحة إلى دقائق ، ومن بدائع إلى بدائع ، ومن ابتكارٍ إلى ابتكار ، ومن لذيذٍ في الطعام والشراب إلى ألذّ ، ومن حديث من مستحدثات المراكب والقصور والأزياء إلى أحدث ، لا تكفيهم في ذلك موارد قطر بأسره ، ومنابع ثروة أمة بطولها ، حتى يلجؤوا إلى استقراضٍ ، وتجاراتٍ ، وضرائب جديدة ، وأتاوات ، ولا يبالون في سبيل ذلك أن يرهَنوا بأيدي عدوِّهم رداء الزَّهراء ، أو كساء أبي ذر ، أو شملة أُوَيس ، أو مصحف عثمان ، أو صمصامة عمرو بن معدي كرب ، أو رمح الزبير ، أو بردة كعب بن زهير ، ويهيئوا صبوحاً أو غبوقاً.

وقد هجم على عفريت الجاهلية جيش من المصلحين فصاحوا به من كلِّ جانب ، ورموه عن قوسٍ واحدةٍ ، ولكن لم ينكؤوا عدوَّهم ، ولم يصيبوا منه مقتلاً.

ألقىٰ الوعاظ ، والآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر دروساً في

الأخلاق ، وأحاديث في الترغيب والترهيب ، طمَّعوا الناس في الجنة ، وحذَّروهم من النار ، بشَّروهم بالوعد ، وخوَّفوهم من الوعيد ، فسمع الناس كلَّ ذلك في هدوء ، ولم يحرك منهم ساكناً ولم يغير منهم خلقاً.

ألف المؤلفون كتباً جاؤوا فيها بكلِّ رقيقٍ مرقِّق ، أوردوا فيها حكايات زهد العُمَرين ، وتقشف علي بن أبي طالب ، ومواعظ الحسن البصري ، وكلمات ذي النون المصري ، ورقائق الفُضيل بن عياض ، وزهديات أبي العتاهية ، وفصاحة الواعظ ابن الجوزي ، وتحليل الإمام الغزالي.

قوارعُ تَـبْـري العَظْمَ من كَلْمٍ مـضّ:

فقام الأغنياء والأمراء وأبناء الملوك ، فاقتنوا هذه الكتب ، وزينوا بها مكاتبهم ، وتحدَّثوا عنها إلى ندمائهم وزائريهم في لباقةٍ ، ورشاقةٍ ، ولكن لم تنفذ سهامها من العيون إلى القلوب ، ولم تجاوز أحاديثها تراقيهم.

قام الخطباء البارعون ، فألقوا خطباً أسمعت الصمَّ واستنزلت العُصْم ، فسمعها هؤلاء ، وأثنوا على براعتهم وفصاحتهم ، ومضوا لسبيلهم ، لم يبكوا على زلة ، ولم يقلعوا عن سيئة ، ولم يحدثوا لله عهداً.

لقد كان ـ والله ـ أقلُّ من هذا يهزُّ القلوب في الجوائح ، ويستفرغ الدُّموع من العيون ، ويرجف القصور ، ويقلب عروش الملوك ، ويجعل من أبناء السَّلاطين والأمراء مثل ابن أدهم ، وشقيق البلخي ، يسمع أحدهم وهو خارج من قصر ، أو رائح إلى لهو قارئاً يقرأ: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (الآية) [الحديد: ١٦] فيقول: والله لقد آن! والله لقد آن! ويرمي آلات اللهو ، ويخرج من أبهة الملوك ، وحشمة السلاطين إلى تبذل الفقراء ، وتقشف الزُّهَّاد.

فهل فقدت الألفاظ على تعاقب الأيام معانيها ، أم اعتلت الأذواق؟ أم استعجمت اللغات؟ أم ماذا؟

إنَّ شيئاً من ذلك لم يقع ، ولكن نفسية الإنسان تغيَّرت تغيراً عظيماً ، كان أمرُ الدِّين في الزمان الماضي ـ برغم جميع أدوائه وعيوبه الخلقية والاجتماعية ـ جِدّاً غير هزل ، وكان أمرُ الدِّين يعني كلَّ واحد ، ويهمُّه كما

تهمُّه الحقائق والأمور الواقعة ، وكان في بعض الأحيان حجب من الترف ، والطبع ، والرسم ، وسوء المعرفة ، وقلة العلم ، فإذا ارتفعت هذه الحجب ، وتطرقت دعوة الدِّين إلى القلوب لم يحل دون التوبة ، وإصلاح الحال شيءٌ.

أما الآن فقد أصبح الدِّين موضوعاً تاريخياً ، أو حديثاً علميَّاً بحتاً ، وأصبح الحديث عنه في المجتمع العصري كالحديث عن كوكب المريخ وعجائبه وعن القطب الشمالي وأخباره ، لا يعود على المتحدِّث والمستمعين بضررٍ أو نفع ، ولا يطالبهم بعمل أو تركٍ ، ولا يمسُّهم في صميم مسائلهم ، ولا يعني الإنسان ، ولا يهمه في حياته إلا بمقدار ما يتظرف بمعرفته ودراسته في بعض المجالس ، أو ما يحادث به أهله عند الحاجة ، أو ما يجلب به نفعاً ويدفع به ضرَّاً في مجتمع لا يزال يدين بالدِّين ، أو يحترمه ، فليس له إلا قيمته المادية المؤقتة.

وأصبحت الحياة وتكاليفها جدَّ الجدِّ ، ولبَّ اللباب ، وأصبحت مسائلهم همّ الشيخ ، ودرس الصبي ، وشغل الشباب ، وأصبح الجهاد في سبيلها ، والنجاح في ميدانها مقياس الفطنة والذكاء ، ومعيار الظرافة ، واللباقة ، ورمز المروءة والشهامة.

وهنا يقف الدَّاعي الديني حائراً في أمره كيف يواجه هذه العقلية الهامدة ، والنفسية الباردة في سبيل الدين ، إنه واجه العقول الثائرة على الدين ، فأخضعها ببراهينه ، ووجد شكوكاً وريباً تمكَّنت من النفوس ، فسلَّها بحكمته ، وملأ القلب إيماناً ، وطمأنينة ، ولكن ها هنا يجد نفسه في موقف غريب لم يعهده ، فلا إنكار ، ولا جحود ، ولا إباء ولا استكبار ، ولا عناد ، ولا اعتراض ، ولا دليل ، ولا فلسفة ، ولكن حياد تام في مسألة الدين ، واستغناء عن كل ما يتصل بالآخرة ، وإخلادٌ إلى الأرض ، ورضاً بالحياة الدُّنيا ، واطمئنانٌ بها.

هنا يقف الدَّاعي حائراً في أمره: كيف يواجه هذه النفسية؟ ومن أي باب يدخلها؟ إنَّه يجد حولها غشاءً من حبِّ الدنيا والمال ، فلا سبيل إليها ،

ولا نفوذ فيها إلا بطريق الدنيا والمال ، وإنَّ سبيل الدين غير سبيل المال ، وإنَّ طريق الغيب غير طريق الحسِّ والشهود ، فماذا يصنع؟ ومن أين يبدأ؟

إن ألقى على القوم نصائحه ، ووجَّه إليهم خطابه وحكمته ، ونثر كنانته في الدين ، وأجلب عليهم بخيل العلم والبراهين؛ ذهب كلُّ ذلك فيهم سدىً ، وأجابه لسان الحال قائلاً : ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت : ٥].

قرأنا في حكايات «ألف ليلة وليلة» أنَّ سندباد البحري وجد بيضةً عنقاء ، فظنَّها لكبرها ، وضخامتها ، وملاستها قصراً من الرُّخام ، فدار حولها لعله يجد باباً يدخل منه في داخل القصر ، ودار مراراً عديدةً ولكنَّه لم يجد باباً ، وعرف بعد ذلك أنها بيضة عنقاء ، لا قصراً من القصور.

كذلك يدور الدَّاعي حول هذه النفسية المستديرة؛ التي استهوتها الدُّنيا ، وغشي عليها حبُّ المال ، أو الجاه ، فلا يجد فيها منفذاً ينفذ منه إلى النفسية ، وينزل في أعماقها ، فيقطع منها الرجاء ، وينقلب منها خاسئاً وهو حسير.

إذاً روح هذا العفريت الجاهلي ، هو الإخلاد إلى الأرض ، والرِّضا بالحياة الدنيا ، والاطمئنان بها ، وعبادة المال والمادة.

هذا مقتل هذا العفريت ، وهذا أبْهَرُه ووريده.

وإنَّما ضاعت فصاحة الفصحاء ، وخطابة الخطباء ، وبلاغة المؤلفين ، وأصحاب اليراع ، وإخلاص المخلصين ، وحكمة الحكماء؛ لأنهم لم يضربوا على الوتر الحسَّاس ، ولم يصيبوا العدو في مقتله.

بلغت المادية أوجها في عهد استيلاء الأوربيين ، وأصبحت فلسفةً ، وفنّاً ، وحياة ، ودنيا ، وليس من مظهر من مظاهر حياتها ، ولا مركز من مراكز نشاطها اليوم إلا والفضل فيه يرجع إلى أوربة ، وسيطرتها السياسية والاقتصادية مباشرةً ، أو بواسطة ، وإلى غزوها التجاري العالمي.

نافس تجَّار الغرب بدافعٍ من حبِّ الغنى والثروة ، واحتكار الأموال في

الصناعة والإنتاج ، وغزوا ببضائعهم الشرق ، وامتصُّوا بها دماءه ، ولم يقض ذلك لبانتهم؛ لأنَّ نطاق الضرورة ضيق ، والجشع ما له نطاق ، فنافسوا في إنتاج دقائق المدنية ، وفضول الصنائع ، وكماليات الحياة ، وصبوها على الشرق صبّاً ، واستهلكوا في ترويجها كلَّ ذكاء ، وأدبٍ ، وفلسفةٍ ، وسياسةٍ ، واستغلُّوا سذاجة الشرق وحبه للدِّعاية والفخر ، فما لبثت هذه الدقائق والكماليات أن دخلت في أصول المعاش ولوازم الحياة في الشرق ، وأصبح الذي لا يتحلَّى بها لا يعد من الأحياء ، ولا يعامل في المجتمع معاملة سواء ، وأخذت بتلابيب الشرقي ، وأذهلته عن الدِّين والآخرة ، وعن كلِّ شيء غيرها في الدنيا ، وأهاجت عليه هموماً لا رجاء لها ، وبعثت فيه شرهاً للمال لا نهاية له ، وأصبحت عليه الحياة جحيماً ، لا يسمع فيها إلا : هل من مزيد؟!

وما يكاد الشرقيُّ يصل إلى هذه المنتجات وشروط الحياة إلا على جسرٍ من المتاعب والمصائب ، وعلى طريق من شوكٍ وقتادٍ ، ولا يكاد يتحلَّى بها إلا وتصبح هذه المستحدثات آثاراً عتيقةً وأطماراً باليةً ، ويهجم عليه الغرب بطرازٍ حديث من المنتجات والمصنوعات ، فينكص على عقبيه ، ويتزود لاقتنائها بالمال اللازم ـ بوجهٍ مشروعٍ ، أو غير مشروع ـ ولا يكاد يطلع بها على مجتمعه إلا ويرحل المنسوخ ويحلُّ الناسخ ، وهكذا لا يزال من حياته في جهاد مضنٍ شاقٍّ ، ومع المصانع الغربية والتصدير الغربيِّ في رهانٍ دائم ، يسبقه ، فيلحقه ، ويلحقه ، فيسبقه ، ولا يزال من عيشه في مضضٍ وغصص : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم : ١٧].

أفسدت المدنية الغربية والتجارة الغربية طبائع أهل الشرق وأذواقهم على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ، ألانت منهم القناة ، وأطفأت فيهم جمرة الحياة ، وأذهبت منهم التَّمَعْدُدَ العربيَّ ، والتجلُّد العجميَّ ، وأحدثت فيهم التخنُّثَ والتأنُّث الأوربي ، وأصبحت الفروسية العربية ، والنخوةُ التركية ، والفتوةُ الفارسية ، والبطولةُ الهندية ، والغيرةُ الأفغانية حديثاً من أحاديث التاريخ ، وأصبحت الحياة في حواضر الشرق ، بل وفي بواديه نسخةً قاصرةً

ممسوخةً من الحياة الغربية المصطنعة، لها ضرَّاؤها، وليست لها سرَّاؤها، ولها الغُرْمُ دون الغُنْمِ.

أصبح الناس في كلِّ البلاد في تيار الحضارة الغربية يسيل بهم سيلها الجارف، ولا يملكون من أمرهم شيئاً، وأصبح الوالد لا يملك ولده، والعاهل لا يملك أهل بيته، بل وأصبح الإنسان لا يملك نفسه أمام الهوىٰ، وانتقاد المجتمع اللاذع، ووخز الضمير، وغاص الناس في بحر المدنية إلى آذانهم، فترى الصعاليك من العجم يغدون في حلَّةٍ، ويروحون في أخرىٰ، وترىٰ الحفاة العراة العالة من العرب رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، ويتفاخرون باقتناء السَّيارات الأميركية من أحدث الطراز، وأفخر الأنواع، حتى يُخاف أن تنقرض الخيل العتاق من أرض الجزيرة التي ملأت التاريخ والأدب بحديثها وأخبارها.

شحنت البضائعُ الغربية أسواق الشرق الإسلاميِّ، وانبثَّت شرايين التجارة الغربية وعروقها ـ وهي طلائع السيادة الغربية وسيطرتها السياسية، وسهامها التي لا تطيش ـ في جوف أقدس البلاد الإسلامية وأحشائها، وجاست خلال الديار، وأصبح أهلها عالة على البضائع الأجنبية، حتى عادوا لا يتصورون الحياة والمعيشة بغيرها، ولا يقضون حقوق الأعياد والأفراح إلا بها، وامتصت هذه البضائع أموالهم بل دماءهم كالإسفنج، يتشربها في بلادهم، ويصبها في بلاده، وهكذا أصبح ما يكسبه المسلم بعرق جبينه، وكدِّ يمينه، وبرزيئةٍ في أخلاقه، وعلى حساب دينه ينتقل إلى البلاد الأجنبية.

التجأت الحكومات الإسلامية لتحقيق مشاريعها العمرانية كما تقول، أو لقضاء مآرب رجالها كما يقول الناس إلى الاستدانة من الدول الأجنبية، فخفت لذلك، رحبت به، ورصدت لها بعض المال بشروطٍ تجاريةٍ، وامتيازاتٍ سياسية، وأقبلت البلاد الإسلامية تحلب ضروعها، وتستخرج الذَّهب الوهاج، وماء حياة الصناعة والتجارة (البترول) من بطونها، ويتهافت الفقراء الذين أجهدتهم الضرائب وتكاليف الحياة على أجورها

وخدمتها تهافت الفراش على الضوء ، والجياع على المائدة ، وهكذا تصبح بلاد الإسلام بين أخطار من الإلحاد والاحتلال الأجنبي.

ثم هنالك «الطابور الخامس» وهو ذلك الأدب المسلول المسموم الذي ولدته الثورة الفرنسية ، وأرضعته الفوضىٰ الخلقية والإباحية في أوربة ، وغذته الشيوعية ، ذلك الأدب الخليع المستهتر ، الذي ينبت في القلوب النفاق ، و يسقي غرس الشهوات ، ويقوِّض دعائم العمران ، ويفسد نظام الأسرة ، ويسخر من كل فضيلة ، ويستهين بكل أدب ونظام ، ويزَيِّنُ للقارىء مذهب اللذة والانتفاع ، وانتهاز الفرص ، يلخص التاريخ ، ويوجز الفلسفة والعلم في حب المال والميل الجنسي ، ويصور العالم كله ، كأنه ليس إلا ظهور هاتين العاطفتين ، وليس وراء ذلك حقيقة علمية ، ومبدأ سامٍ ، أو غرض شريف.

وقد انتشر هذا الطابور في أنحاء العالم عن طريق الأدب والروايات والمجلات «والراديو» و«السينما» وتأثر به الحاضر والباد ، وتحدثت به العواتق في خدورها ، وصار ينخر الحضارة الدينية ، والأدب الإسلامي حتى تسرب العطب اليوم إلى لبابه.

وهكذا أصبح العالم كلُّه شعوباً وحكوماتٍ وأفراداً تحت سلطان المادية ، والقوة ، والجاه ، والشهوات ، قد شغلت منه كل موضع ومنفذ ، وملكت عليه جميع مشاعره ، واستهلكت في سبيلها جميع مواهبه وقواه وتفكيره وذكاءه ، وخلقت في الإنسان نفسية لا تؤمن إلا بالمحسوس ، ولا تفكر إلا في اللذة ، والهناءة ، والسعادة الدنيوية ، ولا تهتمُّ إلا بهذه الحياة ومطالبها الكاذبة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والتي إنما فرضتها على الإنسان الحياة المزورة ، والمجتمع الفاسد ، والتجارة الجشعة.

كيف يحلُّ في هذه النفس المادية الدين الذي أساسه الإيمان بالغيب ، وإيثار الآخرة على العاجلة ، الذي يقول: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] والذي يقول: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ

مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١].

والذي يقول نبيه ﷺ: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**» ويقول: «**حُفَّت الجنة بالمكاره**».

إذاً فالمادية في هذا العصر هي علة العلل، وعدوُّ الدين الألد، ومنافسه الأكبر، وإنَّ الغرب هو زعيمها الذي تولى كبرها، ووكرها الذي تطير منه وتأوي إليه، وفيه تبيض، وتفرخ.

فأين ذلك البطل الذي يمثل قصة الآدمي من الجني على مسرح التاريخ والواقع؟

وأين تلك الأمة التي تعارض هذا التيار الجارف، وتأبى أن تفقد شخصيتها، ومقومات حياتها، وتغلب على أمرها، فتحول هذا التيار، وتقلبه رأساً على عقب، أو تقف فيه كجبل راسٍ، أو صخرة صماء، فيحوِّل التيار مجراه، ويتخذ طريقاً آخر؟

إنَّ البطل الذي يمثل قصة الآدمي مع الجني، ويفتك به هو رجل السَّاعة، وبطل الأبطال، وفتى الفتيان.

وإنَّ الأمة التي تعارض هذا التيار، وتغيِّر مجراه هي إمام الأمم المبعوثة إلى العالم، فأين ذلك البطل؟ وأين تلك الأمة؟ هل تجيب الأمة الإسلاميَّة وهل يجيب العالم العربيُّ على هذا السؤال؟!

* * *

الطبعة الجديدةُ العربيَّةُ للحركة الكمالية التُّركية[1]

لم تزل الثقافة الأجنبية ـ في داخل البلاد وخارجها ، ولم تزل الدعوة إلى «التغريب» والفلسفات الغربية المادية التي ترِد إلى البلاد من الخارج ، ويتطوَّع لنشرها وشرحها كبارُ الأدباء والكتاب في البلاد تعمل عملها الطبيعي في أذهان الناس ، وتلتهمها الطبقة الجامعية المثقفة ، والشباب الناشىء ، والضباط في الجيش ، وكلُّ ذكيٍّ وثائرٍ على الأوضاع الفاسدة السائدة التي لا تطاق ، ويظهر في هذه الأغراض كتب ومؤلفات ، يقرؤها الشباب عند المراهقة الفكرية ، فيسيغونها ، وتصبح جزءاً من فكرتهم ، وعقيدتهم ، ومطامحهم في الحياة ، وينظرون إلى هذه الفلسفات كالطريق الوحيد للنهضة بالبلاد ، ومجاراة الدول والأقطار الحرَّة الراقية ، وتعجز المعارف؛ ووسائل التربية ، والتوجيه ، والأدب المقبول عن أن يخلق في هؤلاء تفكيراً أسمى ، وطموحاً أبعد من هذه الخطط التقليدية المرسومة المرددة في كل بلد ، والتي سبق إليها كمال أتاتورك ، وتحقَّقت له الزعامة في حركة التغريب ، وتطوير البلاد والمجتمع والعقلية من الأساس الإسلاميِّ الإيمانيِّ إلى الأساس الغربي الماديِّ ، فيحاولون تقليدها ، وتطبيقها في بلادهم باختلاف نوع القومية[2] وبالإضافة الاشتراكية التي لم تبلغ في عصر كمال

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عدديها السابع والثامن ، المجلد السابع ، عام ١٩٦٣ م.

(٢) القومية العربية بدل القومية التركية.

أتاتورك هذا الطور الواضح المتميِّز القوي ، ولم تكسب هذه السيطرة ، وهذا السحر على العقول والأفكار ، ولم يبق لهذه الطبقة إلا أن تتولى القيادة وتجد فرصةً لتطبيق مخططها الفكري.

جاءت ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ، ونجحت بطبيعة الحال ، ورحب بها كل ساخط على الأوضاع الفاسدة ، وكلُّ محبٍّ للبلاد وللنهضة والقوة ، والاستقلال ، وعقد بها الناس ـ على اختلاف طبقاتهم ووجهات نظرهم ـ آمالاً كثيرةً مختلفةً ، وكان في إمكانها ، واستطاعتها أن تعيد إلى مصر مكان الصدارة في العالم العربي والزعيم للإسلام ، ومكان التوجيه والثقة والاحترام في العالم الإسلامي ، وأن تشقَّ طريقها إلى الأمام ، وأن تنهج لها نهجاً في الحياة يوافق طبيعة الشعب المصري المسلم ، القوي في إيمانه وفي عاطفته الدينية ، وطبيعة العالم العربي الذي أبى الله أن ينهض ، ويتَّحد ، ويسود إلا بهذا الدين الذي اختاره الله له ، واختاره لزعامته وقيادته ، ويوافق طبيعة العالم الإسلامي الذي لا ينشط ، ولا يتحمَّس ، ولا يرتبط إلا بدعوة دينية ، ويوافق طبيعة العصر الذي ضاق بالقوميات وتخطى ـ في سيره الحثيث ـ العصبيات التي تقوم على أساس العنصرية أو اللغة ، أو اللون ، أو الوطن ، وصار ينظر إلى هذه الروابط والجامعات كدعوات رجعية جاهلية تمزق الأسرة الإنسانية والوحدة البشرية ، وينتظر من شعب عربيٍّ قيادةً أوسع نظراً ، وأكثر «تقدميَّةً» من القوميات ، وكلٌّ ينتظر من قادة هذه الثورة الموفقة عقلية أوسع ، وصدراً أرحب ، وذكاءً أكثر عمقاً ، وتخطيطاً أكثر أصالة ، ومطابقة للواقع.

محاولـة تطويـر المجتمع المصري والعربي كلِّـياً:

ولكن تحقَّق سريعاً أن هذه الثورة ليست إلا «الطبعة العربية الجديدة (مزيدة منقحة) لحركة التغريب والتطوير التي تزعمها كمال في تركيا» وأنَّها فكرةٌ مستقلةٌ ، وفلسفةٌ قائمةٌ بذاتها ، وخطَّةٌ كاملةٌ مصمَّمةٌ تصميماً دقيقاً لتطوير المجتمع المصري ، وبواسطته وعن طريقه المجتمع العربي تطويراً قوميّاً مادّياً اشتراكياً ، حتى تصبح مجتمعاً جديداً «يستخلص لنفسه علاقاتٍ

اجتماعيةً جديدةً تقوم عليها قيم أخلاقية جديدة ، وتعبر عنها ثقافة وطنية جديدة»[١] وينظر إلى الحرية ، والاشتراكية والوحدة[٢] كأسس الحياة ، وأهداف النضال ، ويبحث عن جذور النضال المصري «في التاريخ الفرعوني صانع الحضارة المصرية والإنسانية الأولى[٣] ويحدد نضاله للأمة العربية التي تقوم على وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكرة والعقل ، ووحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان ، ووحدة الأمل التي تصنع وحدة المستقبل والمصير[٤]» أما الدين الإسلامي ـ الذي هو دين العرب إلا من شذَّ منهم ـ فينظر إليه كأيٍّ دين من الأديان الكثيرة التي تدين بها أمَّة ، أو بلادٌ ، ويضعها جميعاً في صعيد واحدٍ ، ومستوىً واحدٍ ، ويسمح لها بالبقاء ، ويعترف بها ـ جميعاً ـ بالشرف والتأثير : «إنَّ حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها في حياتنا الجديدة الحرة ، إنَّ القيم الروحيَّة الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان ، وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان ، وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحقِّ والمحبَّة[٥]» ويتكلَّم عن هذه الأديان كأي اشتراكي مادي لا ينظر إلا إلى قيمة الأديان المادية والثورية ، ودورها في التاريخ الإنساني ، ولا يؤمن بالآخرة والحقائق الغيبية ، وإلى قيمة العقيدة الدينية والثواب الأخروي : «إن رسالات السماء كلها في جوهرها كانت ثورات إنسانية ، استهدفت شرف الإنسان وسعادته ، وإنَّ واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته[٦]» وينظر إلى المجتمع وأعضائه وحقوقهم نظرة لا تتقيد

---

(١) نفس التعبير الذي جاء في النص الرسمي لميثاق العمل الوطني الذي قدمه الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الوطني للقوىٰ الشعبية في يوم ٣١ مايو ١٩٦٢ م انظر الباب الأول نظرة عامة.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الميثاق القومي الباب الثالث.

(٤) أيضاً ، الباب التاسع.

(٥) أيضاً ، الباب السابع.

(٦) أيضاً ، الباب السابع.

بالتشريعات الإسلامية ، والحدود التي بينها الله تعالى للإنسان ، وإنما تقوم على أسس المجتمع الغربي والتفكير العصري ، فالمرأة في نظره «تتساوى بالرجل ولا بدَّ أن تسقط بقايا الأغلال التي تعوق حركتها الحرَّة حتى تستطيع أن تشارك بعملٍ وإيجابية في صنع الحياة»[١].

وبصرف النظر عن هذه التفاصيل والشواهد فإنَّه مما لا شك فيه أنَّ الفكرة التي تسيطر على هذا الميثاق وواضعه ، والتي دفعت إلى سبكه في هذا القالب هي الفكرة المادية ، وللإنسان أن يسحب من نص الميثاق كله العرب ومصر التي تتردد كثيراً ، وما يدلُّ على البيئة التي صدر فيها هذا الميثاق ، وينسبه إلى أي جمهورية علمانية اشتراكية في الشرق ، وكلُّها تعترف بحرية العقيدة الدينية وقداستها ، وبتأثير القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان في تاريخ الإنسان والمدنية.

وقد اتخذ قادة الثورة خطوات حاسمة إيجابية لتطوير المجتمع المصري وتطوير العقلية المصرية ـ كمرحلة إلى تطوير العقلية العربية ـ فشجعوا على الإشادة بالقومية العربية كديانة وعقيدة ، وجعلوا الأدباء والكتاب يتغنون بها كالهدف الأسمىٰ ، ويتغنون بأمجاد العهد الفرعوني ، والدعوة إلى إحيائها ، والفرعونية كقومية وحضارة وتراث ، وهتف الهاتفون «نحن أبناء العرب والفراعنة» ولم تعد كلمة «فرعون» تثير في النفوس الكراهة والاحتقار ومعاني اللعنة والعار؛ التي ألحقها به القرآن ، وآمن بها المؤمنون في كل زمان ومكان ، وأصبح العرب والعروبة تشارك الله في العزة والكرامة ، فيقول القائلون «العزة لله وللعرب» ويرحبون بكلِّ من يغلو في ذلك ويبالغ ، ولو وصل إلى درجة الكفر ، وخرج من الإسلام ، ويشجعون على ذلك بالجوائز ، والصلات ، وأنواع التحبيذ ، وأساليب التحسين ، وأرخوا العنان للكتاب والصحفيين يسترسلون في ذلك ما شاؤوا ، وسمحوا للصحف أن تستهزىء بالدين ، وشعائره ، ومقدساته ، وتنتهك الحرمات ، وتنشر في المجتمع الخلاعة ، والاستهتار ، والميوعة ، ولم يزدها التأميم

---

(١) أيضاً ، الباب السابع.

إلا خبالاً وإسرافاً في نشر الصور العارية الخليعة ، والروايات الماجنة ، والقصص الغرامية ، وأخبار الحوادث المثيرة للغريزة الجنسية والإجرام ، حتى يتطور المجتمع ، وتتطور العقلية ، وتأخذ لونها المادي ، وطابعها الاشتراكي.

واتخذوا لتطوير المجتمع خطواتٍ إيجابية أخرى من تطوير الأزهر وإلغاء المحاكم الشرعية ، والقضاء الشرعي ، والوقف الشرعي ، ومن التعليم المختلط ، والعناية الزائدة بالبرامج الثقافية ، والرقص والغناء.

سوء تأثير الثورة المصرية وقيادتها في العالم العربي:

وأصبح الشباب المصري ، وكلُّ ذي طموح ممن تمنَّى مجد العرب وتمنَّى لهم كياناً ودولةً قويةً موحَّدةً تقوم في الشرق الأوسط يتخذ «الجمهورية العربية المتحدة» مثلاً أعلى ، ويدين بحبها ، ويعتبرها انتفاضة الروح العربية تعيد إلى العرب كرامتهم ، ومجدهم الغابر وسيادتهم المسلوبة ، ولا غرابة في ذلك ، ولا ما يستحق اللوم والعذل ، فالإنسان مفطور على حب المجد ، والغلبة ، والقوَّة ، وللشباب العرب كلُّ حقٍّ في أن ينشدوا المجد ، ويريدوا القوة ، ويعضوا على الوحدة بالنواجذ ، ولكن - مع الأسف الشديد - قد اقترنت بالثورة المصرية وفلسفتها في العهد الأخير معاني وحوادث وتصرفات ، وتوجيهات تضعف قيمة الإسلام ، وتقطع رابطة هؤلاء العرب وقادتها عن إخوانهم في العالم الإسلامي ، وتنشىء فيهم المبالغة في تقديس القومية العربية ، والتعصب لها ، والإيمان بها كفكرة كاملة وديانة لها مفهومها العقائدي ، وقد بدأ الإلحاد ينتشر بسرعة غريبة في الشباب المثقف في العواصم العربية ، وتبدر من المتحمسين منهم كلمات يخاف منها على صاحبها الكفر والمروق من الدين ، وأصبحوا لا ينظرون إلى الرسول الأعظم - ﷺ - كمنقذ للعرب ، ومصدر الحياة الجديدة ، والكرامة ، والشرف ، والخلود لهذا الشعب العظيم ، ويرجعون إلى الماضي السحيق ، ويحيون أمجاده وحضارته ، ويغضبون للجاهلية إذا ذمت ، وتأخذهم حمية الجاهلية.

طليعة ردة فكرية :

إنَّه نذيرُ شرٍّ خطير ، وطليعة ردَّةٍ فكرية ، وثقافية ، ودينية ، لا يتداركها ، ولا يجبر كسرها أعظمُ مجد ، وأقوى دولة ، وأكبر نهضة ، وأهول قوة ، إنها خسارة ليست فوقها خسارة ، إنها طريق إلى الخزي والعار ، والتشتت والفرقة ، والهزيمة والإخفاق بعد الإخفاق ، والخيبة إثر الخيبة في الدنيا ، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت : ١٦] ويصدق عليهم قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٥] .

* * *

بين الجباية والهداية[1]

(إنما تقوم الحكومات في الأصل لتحكم بالحقِّ والحكمة ، ومن هناك كان اشتقاق اسمها ، ولكن الحكومات تفرقت بها السبيل ، فالكثير منها صارت للجباية وحدها تستغل ، وتجمع ، وتكنز ظالمة ، فتشيع بذلك روح التمرد ، والخيانة ، والإهمال !

ولقد بعث الله بالإسلام محمداً صلوات الله عليه هادياً لا جابياً ، ومتى سبقت الهداية؛ فقد ضمنت الجباية دون أن تقصد ، وتاريخ الإسلام يفيض بأروع الأمثال في عفة الحاكمين ، وعدالة القائدين ، وزهد القادرين ، ولن يصلح الأمر اليوم إلا بما صلح به أوله لو كانوا يعقلون).

الدول والحكومات قسمان ، دولة شعارها الجباية ، ودولة شعارها الهداية ، وكلٌّ لها طابعٌ خاصٌّ ، ونفسية خاصَّة ، ورجالٌ ممتازون ، ولكلٍّ نتائج متميزة.

فميزان الأشياء ، ومناط الأحكام في دولة الجباية هو تضخم الميزانية ، وكثرة الدخل ، والإيراد ، ورفاهية رجال الحكومة ، واحتفال الحضارة ، وزهو المدنيَّة ، وإن كان ذلك بامتصاص دماء الفقراء ، وشقاء الفلاحين والعملة، والضرائب المجحفة، والمكوس المرهقة ، فلا يعنى هذا الضرب من الحكومة إلا بما يزيد في مواردها وماليتها ، وبما يهيىء لها أسباب الفخار ، والزينة ، والأبهة ، وبما يهيىء للأمراء ، والوزراء ، وأبناء

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الحادي عشر ، المجلد السابع عام ١٩٦٣ م.

أبنائهم ، والمتصلين بهم ، ورجال الحكومة ، وأُسرهم ، وخدمهم أسباب التَّرف ، والتنعُّم ، والبذخ ، وبما يبنون به قصوراً فاخرةً ، ويشترون به أملاكاً واسعةً في داخل البلاد وخارجها.

تغفل هذه الحكومة تربية الجمهور الدينية والخلقية ، وتعطل الحسبة والرقابة على الأخلاق والنزعات، تتغافل عن كل ما ليس بسبيلها، وما لا يجر عليها فائدة ماليَّةً ، أو قوَّةً سياسية ، وقد تبيح منكراً ، أو محرماً؛ إذا كانت تجني معه نفعاً ، وتحرِّم مباحاً؛ إذا كانت تخاف منه خطراً سياسياً ، أو خسارةً مالية ، ولا يزال الجشع ، والنهامة للمال تدفعها ، وتزين لها خطتها ، حتى تفرض ضرائب على العبادات ، وعلى الموت والحياة ، وهكذا تتحوَّل من حكومةٍ ساهرةٍ على مصالح الجمهور وراحتهم ، ومن مربِّيةٍ ، وحارسةٍ للأمة إلى شركةٍ تجاريةٍ كبيرةٍ ، لا يهمُّها إلا جمع الأموال ، وزيادة الأرباح.

أمَّا الدَّولة التي شعارها الهداية؛ فمهمَّتُها الدعوةُ إلى الله ، والأمرُ بالمعروف ، والنهيُ عن المنكر ، ومعيارُها تحسُّنُ أخلاق الجمهور ، وسموُّ روحهم ، وتحلِّيهم بالفضائل ، وإقبالُهم على الآخرة ، وزهدُهم في الدُّنيا ، والقناعة في المعيشة ، واجتنابُهم المحرَّمات والمعاصي ، وتنافُسهم في الخيرات ، ولو كان ذلك على حساب ميزانيتها ، وخسارة ماليَّتها ، فتنصب الوعاظ ، وترسل الدعاة ، وتشجِّع الحسبة ، وتمنع الخمور ، وتنكر على الفجور ، وتحرِّم الملاهي والمعازف ، وتطارد المستهترين والخلعاء ، وتمنع كل ما يفسد على الناس عقيدتهم وأخلاقهم ، ويفسد الحياة المنزلية ، وتغصُّ في حكمها المساجد ، وتقفر الحانات ، ويزدهر الدِّين والتقوى ، وتضمحلُّ المعاصي والجنايات ، ويقوم أهلُ الدِّين والصَّلاح ، وينشطون ، ويتحمَّسون. ويتوارىٰ الفجَّار ، والملحدون ، وينكمشون ، ويكون ما وصفه الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

تمتاز مضخَّة حكومة الهداية بأسرها عن مضخَّة حكومة الجباية بأسرها، تمتاز عنها في النزعات، والرُّوح، والسيرة، والمعاملة، والسلوك، فنرى في الأولى التَّطوع، والاحتساب، وروح الخدمة، والإيثار، والاستماتة، والتضحية، والوفاء بينما نرى في رجال حكومة الجباية معاكسة القانون ورجاله، والاجتهاد في معاجزته والتفلُّت منه، والكبر، والتجبُّر، والأثرة، والخيانة، والنِّفاق، والزُّور، وفشوّ الرشوة إلى حد يدعو الإنسانُ بين الركن والمقام ألا يبتلى بهم، فلا ينال الإنسان حقَّه من العدل، والراحة، ولا يتمتَّع بحقوقه المدنية إلا إذا رضخ من ماله لهذا، وقدَّم طعمة لذاك، ويستفحلُ الأمر، ويجلُّ الخطب حتى لا يرى أحدٌ في هذه الحكومة: أنَّه خادم أمة، وأمين حكومة. لا يعدُّ نفسه إلا جابياً ـ ولكن لنفسه وعياله ـ قد منحته الحكومة فرصة جمع الأموال، فلا يريد أن تفوته هذه الفرصة، ويتخلَّف عن قافلة الجباة الشخصيين، وقد اشتدَّ بها الجدُّ، وجدَّ بها السَّير.

لقد سبق في التاريخ أمثلةٌ لكلٍّ من حكومات الجباية والهداية. أما حكومات الجباية فلا تحتاج إلى تمثيل، ولا إلى شرح وبيان، فإنها هي السائدة الفاشية في الماضي، والحاضر، وفي الشرق، والغرب. وقد جربها الإنسان، وعرفها في كل عصر. أما حكومات الهداية فهي نادرةٌ جداً.

فلنضرب لها مثلاً:

بُعث محمدٌ ﷺ فدعا الناس إلى الإسلام، فالتفَّ حوله: ﴿فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥] وكان هؤلاء الفتيان هدفَ كل قسوةٍ، وظلمٍ، واضطهادٍ، وبلاءٍ، وعذابٍ، وقد قيل لهم من قبل: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟

وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣] فصمدوا لكلِّ ما وقع لهم، وثبتوا كالجبال، وقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢] حتى أذن الله في الهجرة، ولم تزل الدَّعوة تشقُّ طريقها وتؤتي أكلها حتى قضىٰ الله أن يحكم رجالُها في الأرض، ويقيموا القسط، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، فقد عرف أنَّهم إذا تولوا وسادوا: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة كما تأتي الأمطار بالخصب، والزرع، وكما تأتي الأشجار بالفاكهة والثمر، فلم تكن هذه الحكومة إلا ثمرةً من ثمرات هذه الدَّعوة الإسلامية. ولم تكن هذه العزَّة والقوة إلا نتيجةَ ذلك العذاب الذي تحمَّلوه من قريش وغيرهم، وذلك الهوان الذي لقوه في مكة وغيرها.

جاءت الحكومة بما يتبعها من عزةٍ، وشوكةٍ، ورجالٍ، وأموالٍ، وكنوزٍ، وخزائن، وجبايةٍ وخراج، ورفاهةٍ، ونعيم، وكان المجال واسعاً جدّاً لجمع الأموال، وحكم الرجال، ورفاهة الحال؛ إذ اختاروا طريق الملوك والسلاطين في فرض الضرائب الكثيرة، والأتاوات المتنوعة، والمكوس الجائرة.

التفت القوم فإذا دولتهم الوليدة على مفترق الطرق ـ طريق الجباية وطريق الهداية ـ وهنالك سمعوا هاتفاً يقول: «**ويحكم إن محمداً ﷺ لم يبعث جابياً وإنما بعث هادياً، وأنتم خلفاؤه**» فلم يترددوا في إيثار جانب الهداية على جانب الجباية، واتِّخاذ الدعوة والهداية شعاراً ومبدأً لحكومتهم فكان ذلك.

لقد علموا أنَّهم لو آثروا جانب الجباية، وأطلقوا أيديهم في أموال الناس، واسترسلوا إلى النعيم، ورتعوا في اللذات لم يحل بينهم وبين ذلك أحد، ولم يقف في سبيلهم واقف، ولكنَّهم علموا: أنَّهم لو فعلوا ذلك؛ لقد غشوا إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، وقضوا نحبهم بدون أن يأكلوا

ثمار غرسهم ، لقد خانوا أولئك الذين لم يعرفوا إلا الجهاد ، والتَّعب ، والجوع ، والسَّغب ، ولقد وصلوا إلى الحكومة على جسرٍ من متاعبهم ، وإيثارهم. أفيجوز لهم أن يستغلُّوها لمصلحتهم ، وشهواتهم ، وأبنائهم ، وأقاربهم ، ويتمرَّغوا في النعيم ، ويسرفوا في الأكل والشرب؟ لقد ظلموا إذاً عثمان بن مظعون ، وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وأنس بن النَّضر ، وسعد بن معاذ ، وكثيراً من رفقتهم الذين لم يروا شيئاً من الفتوح والغنائم ، ولم يشبعوا أياماً متوالية ، وقف القوم ولم يطب لهم الأكل والشرب ، وأرادوا أن يلحقوا بإخوانهم ، ولم يأخذوا من الدُّنيا إلا البلاغ.

تأسست دولة الإسلام ، وفتحت فارس ، وبلاد الروم ، والشام ، ونقلت إلى عاصمة الإسلام ـ المدينة المنورة ـ كنوز كسرى ، وقيصر ، وانصبت عليها خيراتُ المملكتين العظيمتين ، وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين وطرفها وزخارفها ما لم يدر قطُّ بخلدهم ، وقد انقضىٰ على إسلامهم ربع قرن ، وهم في شدةٍ وجهدٍ من العيش ، وفي جشوبة المطعم ، وخشونة الملبس ، لا يجدون من الطعام إلا ما يقيم صلبهم ، ولا من اللباس إلا ما يقيهم البرد والحر ، فإذا بهم اليوم يتحكَّمون في أموال الأباطرة والأكاسرة ، فإذا أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرىٰ ، وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت والله هذه محنةٌ عظيمةٌ تزول فيها الجبال الراسيات ، وتطير بها القلوب من جوانحها ، وتعمش لها العيون ، ولكنَّهم سرعان ما فطنوا أنَّهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب ، بل إنهم خيِّروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم ، وإمامتهم ، ومبادئهم ، وينفضوا منها أيديهم ، فلا يطمعوا فيها أبداً ، وبين أن يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية ، وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين ، وحملة الدعوة المؤمنين المخلصين.

كان لهم أن يؤسِّسوا ملكاً عربياً عظيماً على أنقاض الدولة الرومية والفارسية ، وينعموا كما ينعم ملوكُها وأمراؤها من قبل ، فقد ورثوا إمبراطوريتين: الفارسية ، والرومية ، وجمعوا بين موارد دولتين. فإذا كان

كسرىٰ يترفه بموارد فارس فقط ، وإذا كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترفه بموارد الإمبراطوريتين ويبذخ بذخاً لم يبذخه أحدهما.

كان له ولأصحابه كلُّ ذلك بكلِّ سهولة ، ولكنهم سمعوا القرآن يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] وكأنهم يسمعون نبيهم ﷺ يقول قبل وفاته: «**لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتهلككم ، كما أهلكتهم**» فهتفوا عن آخرهم قائلين:

اللهـمَّ لا عيـشَ إلا عيـشُ الآخـرة فـاغفـرْ لـلأنصـار والمهـاجِـرَة

وهكـذا حـافظـوا علـى روح الـدَّعـوة الإسـلاميـة ، وسيـرة الأنبيـاء والمرسلين ، وعاشوا في الحكومة كرجال الدَّعوة ، وفي الدنيا كرجال الآخرة ، وملكوا أنفسهم في هذا التيار الجارف؛ الذي سال قبلهم بالمدنيات ، والحكومات ، والشعوب ، والأمم ، وسال بالمبادىء ، والأخلاق ، والعلوم ، والحكم.

ما زال الناس يعدون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ، ووصولهم إلى الشطِّ الثاني من غير أن يصابوا في نفسٍ ، أو مالٍ ، أو متاع حادثاً غريباً من أغرب ما وقع في التاريخ. إنَّ الحادث لغريب ، ولكن أشَدُّ منه غرابةً ، وأدعىٰ للعجب: أنَّ المسلمين في عهد الخلافة الراشدة ، وعصر الفتوح الإسلامية الأولى خاضوا في بحر مدنية الروم وفارس ، وهو مائجٌ هائجٌ ، وعبروه ، ولم يفقدوا شيئاً من أخلاقهم ، ومبادئهم ، وعاداتهم ، ووصلوا إلى الشط الثاني ، ولم تبتلَّ ثيابهم ، ولم يزل الخلفاء الراشدون وأمراء الدولة الإسلامية من أصحاب النبيِّ ـ ﷺ ـ محتفظين بروحهم ، ونفسيتهم ، وزهدهم ، وبساطتهم في المعيشة ، وتخشنهم في أوج الفتوح الإسلامية.

حكىٰ الطبريُّ دخول الهرمزان المدينة ، ومواجهته لعمر رضي الله عنه ، قال: **هيِّئوا الهرمزان في هيئتـهِ ، فألبسوه كسوتـه في الديباج الذي فيـه**

الذهب ، ووضعوا على رأسه تاجاً يدعىٰ الآذين مكلَّلاً بالياقوت ، وعليه حليته كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته ، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله ، فلم يجدوه ، فسألوا عنه ، فقيل: جلس في المسجد لوفدٍ قدموا عليه من الكوفة ، فانطلقوا يطلبونه في المسجد ، فلم يروه ، فلما انصرفوا مرُّوا بغلمانٍ من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم: ما تلددكم؟ تريدون أمير المؤمنين؟ فإنه نائم في ميمنة المسجد متوسداً برنسه! وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس ، فلما فرغ من كلامهم ، وارتفعوا عنه ، وأخلوه نزع برنسه ثم توسده فنام ، فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا رأوه جلسوا دونه: وليس في المسجد نائم ، ولا يقظان غيره ، والدِّرَّةُ في يديه معلقة ، فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا! وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه ، وأصغىٰ الهرمزان إلى الوفد ، فقال: أين حرسُه وحجَّابُه عنه؟ قالوا: ليس له حارس ، ولا حاجب ، ولا كاتب ، ولا ديوان! قال: ينبغي له أن يكون نبياً ، فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء ، وكثر الناس ، فاستيقظ عمر بالجلبة ، فاستوى جالساً ، ثم نظر إلى الهرمزان ، فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم! فتأمَّله ، وتأمل ما عليه ، وقال: أعوذ بالله من النَّار ، وأستعين بالله! وقال: الحمد لله الذي أذلَّ هذا وأشياعه ! يا معشر المسلمين! تمسكوا بهذا الدِّين ، واهتدوا بهدي نبيكم ، ولا تبطرنَّكم الدنيا ، فإنَّها غرارة! فقال الوفد: هذا ملك الأهواز ، فَكَلِّمْه ، فقال: لا ! حتى لا يبقي عليه من حليته شيء! فرمى عنه بكلِّ شيءٍ عليه إلا شيئاً يستره ، وألبسوه ثوباً صفيقاً ، فكلَّمه[1].

ويصف ضرار بن ضمرة عليَّ بن أبي طالب في خلافته بعد وفاة علي لمعاويةَ، فيقول: «يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدَّمعة! طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله! كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، يعظِّمُ أهل الدين ، ويحبُّ

---

(١) تاريخ الطبري:ج٤ ص ٢١٧ .

المساكين ، لا يطمع القَوِيُّ في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخىٰ الليل سجوفه ، وغارت نجومه. وقد مثل في محرابه ، قابضاً على لحيته يتململ تململ السَّليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا! أبي تعرضت؟ أم لي تشوفت؟ هيهات هيهات! غري غيري ، قدَ بتتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعُمرك قصيرٌ ، وعيشُك حقيرٌ ، وخطرُك كبيرٌ ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق[1] !.

كان شعار الدولة الإسلامية الأولى الهداية ، والدَّعوة إلى الله ، وخدمة الناس ، فكانت الدولة تخسر أموالاً عظيمةً في سبيل الأخلاق والدين ، وكانت إذا خيرت بين أرواح الرجال ومبالغ من المال اختارت الأرواح ، وخسرت الأرباح ، وتطيب بذلك نفساً ، وتقرُّ به عيناً ، وإذا كان عكس ذلك ، فكسبت الأموال ، وخسرت الرجال ، حزنت لذلك ، وحزن المسلمون كحزنهم على ملك زائل ، وسلطان راحل ، وقد فضَّل الخلفاء الراشدون وخامسهم عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أن يدخل المجوس والنصارىٰ في الإسلام ويعفوا من الجزية ، فيخسر بيت مال المسلمين مقداراً عظيماً من المال ، ويكسب الدِّين الإسلاميُّ ، والأمة الإسلامية رجالاً يتخلَّصون من النار ، وإذا كسب ، وربح بيتُ المال على حساب الإسلام؛ حزنوا حزناً شديداً.

حدَّث الطبريُّ عن زياد بن جزء الزبيديِّ ، قال: **جمعنا في مصر ما في أيدينا من السبايا ، واجتمعت النصارىٰ ، فجعلنا نأتي بالرجل ممَّن في أيدينا ، ثم نخيِّره بين الإسلام وبين النصرانية ، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرةً هي أشد من تكبيرنا حين تفتح قرية. . قال: ثم نحوزه إلينا ، وإذا اختار النصرانية نخرت النصارىٰ ، ثم حازوه إليهم ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً ، حتى كأنه رجل خرج منا إليهم**[2].

---

(١) صفة الصفوة:لابن الجوزي ج ١ .

(٢) تاريخ الطبري:ج ٤ ص ٢٣٧ .

وهكذا انتشر الإسلام وانتشرت الأخلاق الفاضلة في عقود من السنين من أقصىٰ الشرق إلى أقصىٰ الغرب ، وتغلغلت الدعوة الإسلامية في أحشاء المجتمع البشري ، لم يتمتع العالم الإسلامي بخلافة عمر بن عبد العزيز إلا سنتين وبضع شهور ، ولكنه بحرصه على الدعوة ، ومحافظته على شعار الهداية ، وسيرة خلفاء الأنبياء عليهم السلام تمكن من التأثير في القلوب والعقول ، وقلب تيار المدنية ، وإظهار الدين ، وإخماد الكفر ، والفسق والقضاء على رسوم الجاهلية ما لم تتمكن منه دول إسلامية طويلة الأمد؛ لتراوحها بين الهداية والجباية ، وتفضيلها الجباية في أكثر الأحيان على الهداية.

وكانت المدن الإسلامية الكبرى وعواصم الإسلام مركز دعوة وهداية ، بحيث إذا دخلها الإنسان عرف أنه يمشي في مركز الإسلام ويتنفس في جوِّه ، فيرى الحدود قائمةً ، وأحكام الشرع نافقة. ولا يجد أحداً يتهاون في أمر من أمور الدين ويستخف به ، أو يجاهر بإثم ومعصية ، ولا يرىٰ بدعةً ولا فجوراً ، ولا دعارة ، ولا خدعة ، ولا يسمح برشوة ، ولا خيانة ، ولا ما ينافي روح الإسلام ، ويسمع الدعوة إلى الله ، وإلى الدار الآخرة ، وإلى الفضيلة والتقوى ، واتباع الكتب والسنة ، والاجتناب من الشرك ، والبدعة ، والتمسك بفضائل الدين في كل مكان ، ويرىٰ العمل بذلك في الطرقات ، والمجامع ، وبيوت الناس ، ودواوين الحكومة ، فيتشبع بروح الدين ويتضلع إيماناً ، وحماسةً ، وفقهاً في الدين ، ومعرفة بأحكامه وشرائعه ، وحباً لأهله فلا يخرج إلا وقد استفاد الإيمان والعلم ، والتصلب في الدين ، والثقة برجاله وممثليه ، وإذا دخلها أجنبي أو حديث عهد بالإسلام؛ عرف مزايا الحياة الإسلامية ، وفضَّل حكومة الإسلام وآثر الإقامة فيها وكره أن يفارقها ، ويعود إلى دار الكفر ، كما يكره أن يقذف بالنار.

أمَّا الحَرَمان؛ فقد كانا في الإسلام ـ المؤسَّس على مبدأ الهداية ـ مدرسة التدين ، ومهد الحضارة الإسلامية ، تتمثل فيهما الحياة الإسلامية بكمالها

وجمالها ، ويأتي إليهما المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، ومن كل فجٍّ عميق فيشهدون منافع لهم ، ويتفقهون في الدين وينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم ، ويحتجون في بلادهم مما رأوه في الحرمين ، فيكون ذلك حجّة محافظة الحجاز على الدين والسنة وحرص حكومتها على الحياة الإسلامية في مركز الإسلام ومنبعه.

ثم أتى على المسلمين حينٌ من الدّهر نسوا أنَّ الحكومة في الإسلام لم تكن إلاجائزة الدَّعوة والجهاد في سبيلها ، ولولا رسالة محمد ﷺ ودعوته إلى الله ، وما لقي في مكة ، والطائف من قريش والقبائل ، ولولا الهجرة والاختفاء في غار ثور ، والرباعية المكسورة يوم أحد. ولولا ما صنع بحمزة يومئذٍ ، ولولا قتلى بئر معونة ومصلوب الأنصار[1]؛ لما دانت الدنيا للعرب ، ولا كانت دمشق ، ولا بغداد ، ولا كان لبني مروان أن يجبوا خراج الروم وفارس ، ولا كان للرشيد أن يقول لسحابة مرّت به: **(أمطري حيث شئت ، فسيأتيني خراجك)**.

أسَّس ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة دولهم على مبدأ الجباية والسياسة ، وأهملوا الدَّعوة إلى الله ، وإلى دار السَّلام ، وعطَّلوا الحدود ، وأبطلوا الحسبة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، ولم تعد مراكز الإسلام مدرسة الدين ، ومرآة المدنية واجتماعه ، بل أصبحت تغرس الشكَّ والنِّفاق في قلوب الوافدين وتزعزع عقيدتهم ، وثقتهم بالدِّين وأهله ، وأصبح القاصدون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي يكتسبون منها استخفافاً بشعائر الإسلام ، ورقَّةً في الدين ، ووهناً في العمل وسوء ظنٍّ بممثلي الإسلام ، ورجعوا يحتجون بالأوضاع الفاسدة في مراكز الإسلام ، وبالفوضى الدينية ، فكانت داهية عظيمة على رجال الإصلاح والدعوة في الأقطار الإسلامية ، وفتنة كبيرة.

---

(١) هو خبيب بن عدي بن مالك الذي قتله بنو الحارث بن عامر ، وبضعوا لحمه ، وحملوه على جذعة وهو القائل:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي

ليس العالم الإسلامي اليوم بأشد افتقاراً إلى شيء منه إلى حكومة تمثله تمثيلاً صحيحاً، وتقوم على أساس الدعوة، والهداية، والنصيحة، والخدمة، فإنَّ الإسلام لا يؤثر في عقول الناس، ولا يشفي المتفحصين حتى تكون له رقعة في الأرض تتمثل فيها حياته، وتتجلّى فيها مدنيته، واجتماعه، وتظهر فيها نتائج دعوته وتعاليمه، فإذا كان ذلك ولو في رقعةٍ صغيرة؛ كان على الإسلام إقبالٌ عظيم، لم يعهد من قرون.

وليس العالم الإنسانيُّ بأقلَّ افتقاراً من العالم الإسلامي إلى مثل هذه الحكومة، التي شعارها الهداية والإصلاح، لا الجباية والكفاح، فإنَّ الإنسانية العليلة جريحةٌ لا يسعفها اليوم إلا قيام هذه الحكومة التي تتأسَّسُ على أساس الفضيلة، والدين، واحترام الإنسانية، وإيثار الأرواح على الأرباح، والأخلاق على الأعلاق، وكسب الرجال على كسب الأموال، فإذا تأسست هذه الحكومة ـ مهما كانت صغيرةً، ومهما كانت مواردها ضيقةً ـ كان ذلك حادثاً غريباً، يستحقُّ كلَّ تنويهٍ وإشادةٍ، وقام كبار السياسيين، وأصحاب اليراع، وقادة الفكر يشيرون إليها بالبنان، ويضربون بها الأمثال، ويؤلفون عنها مؤلفات، وأصبح الناس يأوون إليها، كما يأوي الغرقىٰ إلى جزيرة في البحر، لينعموا في ظلِّ حكومتها وينفضوا عنهم غبار الظلم والفتن، ويتنفَّسوا من متاعب المدنية المعقدة المزورة، والحكومات الجابية الجائرة، ولكانت هذه الحكومة غرَّةً في جبين الدَّهر، وشامة بين الحكومات والدُّول.

إنَّ الإنسانية قد جربت حكومات الجباية على اختلاف أنواعها وأسمائها ـ من شخصية، وديمقراطية، ورأسمالية، واشتراكية ـ فوجدتها بناتَ علاَّت، لا تختلف في أصلها، ومبدئها، وروحها، ونزعتها، وقلَّبتها على كل جانب، فلم تر إلا شراً ومراً، ولم تر اختلاف الأسماء يغني عن شيء، وإذا تأسست جديدة باسم جديد؛ نادىٰ لسان الحقيقة في لفظ أبي العلاء المعريِّ:

ألا إنَّمــا الأيــامُ أبنــاءُ واحــدٍ وهــذه الليــالــي كلُّهــا أخــواتُ

فلا تطلبَنْ مِنْ عند يومٍ وليلةٍ خلافَ الذي مرَّت به السَّنواتُ

وإذا أضيفت إلى هذه الحكومات المعدودة بالمئات حكومةٌ جديدة لا تختلف عن أخواتها إلا أنها يرأسها مسلم ، أو يديرها عدد من المسلمين لم تكن بدعاً ، ولم تكن شيئاً طريفاً ينوه به ، أو يشار إليه بالبنان ، أو تعقد به الآمال ، فإنَّ هنالك حكومات تفوق هذه الحكومة عشرات من المرات في طول مساحتها ، وضخامة ميزانيتها ، وكثرة إنتاجها ، وإصدارها ، وفي جيشها ، وأساطيلها ، وبوارجها الحربية ، وعدد الطائرات ، وكثرة المصانع ، ورقي الصناعة والتجارة ، واحتفال المدنية والحضارة ، وحسن الإدارة ، وانتشار العلم في طبقات الشعب ، وقلة الأمِّيَّة إلى غير ذلك مما تمتاز به الحكومات الأوروبية .

إنَّ قيام دولة للمسلمين في بقعة من بقاع الأرض فرصةٌ سعيدةٌ نادرةٌ لا تسنح في كل حين ، ومثل هذه الفرص ـ كما يعرف المطلع على السنن الإلهية ، وعلى تاريخ الأديان ، والدعوات الإصلاحية ـ قد تسنح بعد قرون ، وتكون من فتات الدهر ، وفي قصرها كوميض البرق في ليلة مظلمة ، وتكون امتحاناً عظيماً لرجالها كيف يستخدمون هذه الفرصة لدعوتهم ومبادئهم الدينية على حساب مصالحهم الذاتية ، وراحتهم ، ولذائذهم ، فإذا انتهزوا هذه الفرصة ، وعرفوا قيمة الوقت ، وأحسنوا تمثيل هذه العقيدة والدِّين الذين ينتسبون إليه ، وَحَسُنَ ظنُّ الناس بهم ، وصدَّقوهم فيما يقولون؛ فقد خدموا دينهم ، وأنفسهم خدمةً باهرة ، وإن كان غير ذلك ، فأساؤوا استعمالها ، واستغلُّوها لمصالحهم الشخصية على حساب الدَّعوة الدينية ، ورجالها المخلصين ، وجهودهم في سبيل نشر هذه الدعوة الدينية ، وقيام هذه الحكومة ، كما فعلت الدولة الأموية ، والعباسية ، ودولٌ كثيرة؛ فقد ضيعوا الفرصة ، وخسروا دورهم ، وخسرت معهم الدَّعوة التي وصلت أسبابها بأسبابهم دورها ، وما يعلم أحدٌ متى يعود هذا الدور ، وهل يعود أم لا؟ فقد شهد التاريخ أمماً وجماعاتٍ كثيرةً ضيعت فرصة حكمها ، وسلطانها ، ولم تنتفع بها ، وانتهى دورها القصير أو الطويل ، فوقفت مع المتفرجين المعتزلين ، وبقيت تنتظر دورها في حلبة

الأمم ، وتعضُّ على تفريطها بنان الحسرة والندم.

هذا وإلى الحكومات الإسلامية ومن كان على رأسها أن ينتهزوا الفرصة ويحرزوا قَصَبَ السَّبق ، ويبلغوا بهمتهم وعنايتهم إلى حيث لا يبلغ إليه كبارُ الصالحين والأتقياء بعبادتهم وزهدهم ، وذلك بما آثرهم الله من حولٍ ، وطولٍ ، ونفوذٍ ، وسلطانٍ ، وفرضٍ لا تتأتى لغيرهم ، ولهم أن يصلوا في خدمة هذا الدين ، وإعادة شبابه ، وإصلاح المجتمع ، وتغير اتجاهه من الجاهلية إلى الإسلام في يوم واحد ـ إذا أرادوا بذلك ، وصحت عزيمتهم ، وصدقت نيتهم ـ ما لا يصل إليه المصلحون والمؤلفون والعاملون في أعوام وقرون ، وينالوا من رضا الله ، وثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ما يغبطهم عليه كثيرٌ من العباد ، والمتقين ، وعباد الله الصالحين ، وما أطلق الناس على عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكبير والخليفة الراشد إلا بتغييره مجرىٰ الحكومة من الجباية إلى الهداية ، والإصلاحات التي قام بها ، وبرجولته وعصاميته في سبيل مبدئه ، ولو وزن ما تنازل عنه من نعيم زائل ، ومتاع فان ، وأنواع من لباسٍ وطعامٍ ودوابٍّ وأنعام ـ كان لا بدَّ أن يتركها يوماً من الأيام ـ لو وزن ذلك كله بما اكتسب من نعيم لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وما يرجو من مرافقة محمد ﷺ وأصحابه ، والالتحاق بحزبه ، وما جعل الله له من لسان صدق في الآخرين؛ لرجح ما اكتسبت رجحاناً واضحاً ، وعدَّ من كبار الأذكياء ، وعقلاء العالم.

* * *

حبُّ البلاد أم حبُّ الذات؟[1]

إنَّ الثورات التي حدثت في بلادٍ مختلفة في عصر قريب تلتقي ـ رغم اختلاف دواعيها ومراميها ـ على نقطةٍ واحدةٍ ، وهي القضاء على كلِّ أسلوب من التفكير غير أسلوب قادة الثورة ، وعلى كل استقلالٍ في الفكر ، وتنوُّعٍ في الرأي ، وعلى إخفات كلِّ صوت لا يرتفع بالموافقة التامَّة ، وقطع كلِّ يدٍ لا تصفق للقادة بحماسة وحرارة ، وإنْ أفقد ذلك البلادَ والأمَّة ثروةً معنوية لا تقوم بقيمة ، وحرمها أكبرَ نوابغها ، وعباقرتها في العلوم والآداب ، والدِّين ، والقانون ، والأخلاق ، والإخلاص ، وأعظمَ أبطالها وفرسانها في محاربة المستعمر ، ومعركة التحرير ، والذين هم مفخرة الأمة ، وجمال البلاد ، وعدة الحروب ، من غير نظر إلى قيمتها العلمية ، وبطولتهم في الماضي ، وحاجة البلاد إليهم في الحاضر ، وغنائهم في المستقبل ، ومن غير نظر إلى أنهم لا عيب فيهم ، ولا جناية لهم إلَّا أنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على شخصيتهم الفكرية ، ولم يتغلبوا على طبيعة حبِّ البلاد ، والنصيحة لها ، والصَّراحة في إبداء الرأي ، ولم يستطيعوا أن يمشوا في ركاب القادة صماً وعمياناً.

إذا كانت الفكرة التي تسيطر على هؤلاء القادة هي حب الخير للبلاد ، وحب الخير للأمة ، وإذا نظروا إلى كلِّ فردٍ من أفراد الشعب بعين الأم

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثاني ، المجلد الثامن ، عام ١٩٦٣ م.

الرؤوم التي تحبُّ كل أبنائها ، وتحتمل كلَّ عيوبهم ، وتعطف عليهم؛ لأنَّهم أفلاذ كبدها ، وإذا نظروا إليه بعين الولد ـ وما أجدر من يتزعم القيادة أن يعتبر نفسه الوالد ـ بل ولو نظروا إليهم بعين الأخ الأكبر؛ لحرصوا على بقائهم ، وفكَّروا في الانتفاع بهم على علاتهم ، وإذاً استطاعوا أن يجعلوا من هؤلاء الأفراد الذين تختلف أساليب تفكيرهم ، أو أساليب تعبيرهم مجموعةً زاهية الألوان ، وحديقةً بديعة فيها رَوْحٌ وريحان.

هكذا كان القادة المخلصون الذين كانوا يقيسون كلَّ فردٍ من أفراد الأمة بمقياس غنائه للأمة ، ومقياس حاجة الأمة إلى مواهبه ونبوغه ، ومقياس إخلاصه للعقيدة الأساسية والمبدأ الرئيسي ـ وكان في الحكومات الدينية والخلافة الإسلامية هو العقيدة والتقوىٰ ، وفي الحكومات العادلة العاقلة الإخلاص للأمة والوفاء للبلاد ـ وكان قادتها يحتملون كلَّ اختلافٍ في الرأي ، وكلَّ اختلافٍ في الذوق ، وكلَّ اختلاف في الأسلوب ، فكانوا يمنحون لكل واحدٍ مهما اختلف ذوقه ومنهجه في التفكير ، ونزعته في الحياة حقَّ البقاء ، وحقَّ الحياة ، يتمتع بحقوقه في المجتمع ، ويعيش حرّاً كريماً ، حتى إذا جَدَّ الجدُّ ، وكان هو حاجة الأمة والرجل المطلوب قدموه وتمتعوا بمواهبه.

لقد كان بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وبين سيف الله خالد بن الوليد ـ رضي الله تعالى عنه ـ اختلاف في الذوق ، واختلاف في النزعة ، واختلاف في سياسة الحروب ، حمل ذلك عمر على عزله من القيادة الكبرىٰ ، ولم يجعل ذلك حرمانه حق الحياة ، ولم يحمله ذلك على إقصائه من المجتمع الإسلامي ، لعلَّه يحتاج إليه في المستقبل ، ولماذا يحرمه عمر حق الحياة ، ولم يجن جنايةً يستحقُّ بها الموت في شريعة الإسلام ، ولم يخن ، ولم يغدر ، ولم يرتد عن دينه؟ وإنما أقصاه عمر عن قيادة الجيوش؛ لأنه يريد شخصاً أرق منه قلباً ، وعاطفةً ، وأعظم منه زهداً وتقوىٰ ، وكلاهما عادلٌ رحيم ، وزاهدٌ كريم ، ولكن الناس يتفاوتون ، والمجتمع يتطور ، والأحوال تختلف ، وربما كان الجيش الإسلاميُّ ومنطقة الحرب في ذلك الطور أحوج في نظر عمر إلى «أمين الأمة

منه» إلى «سيف من سيوف الله» وخصوصاً إذا كان هذا السيف ـ بما طبع عليه من الإخلاص ، وإنكار الذات ـ تحت تصرف هذه اليد القوية الأمينة يتحرك بأمره ، ويقف بأمره ، إذاً لم يخسر الجيش شجاعة خالد وغناءه في الحرب ، وإنما اكتسب حنكة أبي عبيدة ، ورأفته ، أما إذا كان مكان عمر قائد ثورة ، أو رئيس جمهورية لما ارتضىٰ للقائد المعزول غير القتل ، أو التشريد حفظاً للنظام ، و«حرصاً على سلامة البلاد».

وقد كان بين عثمان وبين أبي ذر اختلاف في الرأي ، واختلاف في الذوق ، واختلاف في النزعة ، يذهبان في المال ـ على زهدهما ، وإيثارهما ـ مذهبين مختلفين ، ويفهمان الآيات التي نزلت فيه ، والأحاديث ـ التي وردت حوله ـ فهمين مختلفين على إخلاصهما وجلالة شأنهما ، وقد حمل ذلك عثمان ـ رضي الله عنه ـ على أمر أبي ذر بالبقاء في الرَّبَذَةِ حرّاً كريماً، يتمتع بحقوقه في المجتمع ، ويحضر الجمعة والجماعات، ويشهد الحجَّ ، ويبدي الرأي لمن أصغىٰ إليه ، أو استفتاه ، ولم يحمله على قطع صلته من الحياة ، ولا على إسكات صوته ، وقطع بلعومه ، لأنه يرىٰ فيه الصحابي الجليل ، والصادق المخلص ، والزاهد الكريم ، إلا أنه يخاف أنَّ المجتمع المتطور لا يحتمل هنا الزهد العنيف ، وكان مقتنعاً بأنه ليس مراد القرآن والسنة ، وكلٌّ عالم ، وكلٌّ مجتهد ، ولكلٍّ أجرٌ.

أما قادة الثورة ، فإنَّهم يجعلون شخصيتهم والحفنة من الأشخاص التي تجتمع حولهم هي المقياس للإخلاص ، ومقياس حبِّ البلاد ، والمقياس في حق البقاء ، وجدارة الحياة ، فإذا وافقهم فرد ـ مئة في المئة ـ في تفكيرهم ، وتخطيطهم ، وفي مشاريعهم ، وفي سياستهم ، وفي فلسفتهم؛ منحوه حق الحياة ، وقلدوه أعظم مركز في البلاد ، وأدق مسؤولية في الحكومة ، وإن كان رجلاً تافهاً ، لا قيمة له ، ولا ماضي له؛ وإن عارضهم فردٌ عشرة في المئة أو أقل من ذلك ، أو خالفهم في قضيةٍ جزئيةٍ ، أو رأوا أنَّه لا يصفق لهم تصفيقاً حادّاً تلتهب له الكفُّ ، وتدوي له المجالس ، ولا يقدسهم ، ولا يسبِّح بحمدهم ، ولا يضفي عليهم هالات من الثناء ، وعقوداً من المدح والإطراء؛ عاملوه معاملة عدوٍّ مستعمر؛ وخائنٍ غادر ،

وأهانوه إهانةً فظيعة ، وعذَّبوه تعذيباً تنخلع له القلوب ، وتقشعر له الجلود ، ثم قتلوه (أو أعدموه كما يقال في لغة الجرائد) شرَّ قتلة ، وأطبقوا عينهم عن كل ما اشتهر به من نبوغ وعبقرية في فن من الفنون ، وعن كل ما كان يتمتَّع به من ثقةٍ وإجلالٍ في العالم الإسلاميِّ ، وعن كل الآمال التي كانت تناط به ، وعن الفراغ الهائل الذي يخلفه وراءه في عالم العلم والأدب ، والقانون والفلسفة والفكرة الإسلامية ، وعن الدور الذي كان يستطيع أن يلعبه في معركةٍ وطنيةٍ ، أو حرب قادمة ، وليس ذلك إلا لأنه لم يفهم أنَّ الأمة هي شخصية القائد ، وأنَّ البلاد هي تلك الحفنة أو العصابة التي تألفت ، واجتمعت حول زعيمها ، ولأنه فهم أنَّ الحقَّ أعظمُ من الرجال ، وأنَّ مصلحة البلاد هي أهم من مصلحة الأفراد ، ومصلحة الأحزاب ، وأنَّ الدين مقدم على كل شيءٍ ، ولأنه لم يخضع وبالأصح لم يستطع أن يخضع عقله ، وتفكيره ، وفهمه للقضايا وفهمه للإسلام ، وفهمه للقيم لفهم رجل نشأ نشأةً عسكرية ، وضاق نطاق فكره وتحكمت فيه الأهواء ، والشهوات ، والأنانية الطاغية.

هذا كله لأنَّ حب الذات وشهوة الجاه وشهرة الحكم هي التي تسيطر على قادتنا وزعمائنا ، ولأنَّهم ينظرون إلى كلِّ قضية ، وإلى كلِّ حرب ، وإلى كلِّ شخصٍ ، وإلى كل مؤسسة بمنظارهم الشخصيِّ ، ويقيسون كلَّ ذلك بمقياس ذاتهم ، ومن اندمج وتفانى في ذاتهم ، وهي الأنانية التي تتوسع ، وتتضخَّم ، وتظهر في ثيابٍ كثيرة ، فتسمىٰ أحياناً «القومية» أو «الوطنية» أو «الديمقراطية» أو «الاشتراكية» أو «الشيوعية» ، وما هي إلا أنانية فرد واحد ، أو حفنة من الأفراد اتخذت لها قالباً أوسع ، ومجالاً أفسح ، ولقباً أسمىٰ ، وعنواناً أروع ، وإنَّ حبَّ الذات ينمو على حساب حبِّ البلاد ، وحب الأمة ، وحب المبادىء ، وحب العدالة والعقيدة ، وحبِّ الإنسانية ، ولا عبرة بالأسماء والمصطلحات ، والمظاهر والألقاب ، إنما العبرة بالحقيقة والنتيجة.

* * *

درسٌ من الأندلس (١)

قضيت في الشهر الماضي (أكتوبر) نحو عشرة أيام في الأندلس الإسلامية ، عشت في خلالها في حاضر الأندلس ، وغابرها ، وعشت في غابرها وتاريخها أكثر مما عشت في حاضرها ، أزور المعالم والآثار ، وأقف عند الدِّمن والأطلال ، وأسكب الدُّموع والعبرات.

أقف مرة بغرناطة آخر الحصون الإسلامية في الأندلس وأنشد شعر جرير بتعديل يسير:

لمن الديارُ ببرقةَ الروحان ... إذْ لا نبيعُ زماننا بزمانِ

صدع (الليالي) إذْ رَمَيْنَ (دياره) ... صدعُ الزجاجةِ ما لذاكَ ثانِ

وأقف مرَّةً بجامع قرطبة ، وأتذكر قول الشاعر:

هي المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إنْ كان في القلب إسلام وإيمان

قرطبة التي كانت تحوي على الأقل ثمانمئة مدرسة وألف وسبعمئة جامع ، يدوِّي من منابرها الشامخة الذاهبة في السماء الأذان خمس مرات كلَّ يوم ، طال عهدها بالأذان والصلوات ، والنطق بالشهادتين ، ومضىٰ على ذلك قرون وأحقاب ، حتى كأنه لا عهد لها بشيءٍ من ذلك. ولم تطأ أرضها قدمُ مسلمٍ قطُّ ، مدينة العلم والعلماء ، يعتبر عمل أهلها حجةً في

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السابع والثامن ، المجلد الثاني ، عام ١٩٦٣ م.

المغرب كلِّه ، وعند فقهاء المذهب المالكي ، ويشترط للقاضي أن يحكم به ، ويكون مطلعاً عليه ، لا يشذُّ عن ذلك إلا شاذ ، ينسىٰ أهلها مبادىء الإسلام المعروفة ، وشعائر الإسلام الواضحة ، ويجهلونها أكثر من أهل أي بلد في أوربة ، حتى إذا قمنا نصلِّي صلاة العصر في فناء الجامع الكبير كاد الناس يكونون علينا لبداً ، ووقف الشباب حولنا سماطين يستغربون هذا المنظر الغريب ، ويحارون في فهمه ، وتعليله ، حتى إذا انصرفنا من الصلاة ورأينا هذه الدهشة والاستغراب جرىٰ على لسان قول شاعر عربيٍّ قديم:

فواعجباً للناس يستشرفونني   كأن لم يروا قبلي محباً ولا بعدي

ونزور مدينة إشبيلية مدينة المعتمد بن عبّاد ، والقاضي أبي بكر ابن العربيِّ ، فلا أرىٰ أثراً لإمارة عربية إسلاميَّة كان يمثلها المعتمد وعشرات غيره من فضلاء الأمراء ، ولا أثارةٍ من علم ديني كان يمثله القاضي أبو بكر ومئات غيره من نوابغ العلماء وكبار الفقهاء ، ولا أرىٰ في هذه المدينة الزاخرة بالمدارس ، والمعاهد ، ودور الإمارة في القديم إلا برجاً لجامع قديم أصبح برجاً للكنيسة الرئيسة في إشبيلية ، وقصراً قديماً لا يزال محافظاً على اسمه القديم القصر (Alcazar) وآثاراً قليلة منتشرة في البلد فأتمثَّل ببيتي الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصَّفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ
بل نحن كنا أهلها فأبادنا   صروفُ الليالي والجدود العواثرُ

ولكن هل هو صرف الليالي والجدُّ العاثر فقط؟ هل هي مصادفة من المصادفات العمياء؟ أو هي حادثة معقولة مؤسسة على مقدمات ، وأسباب ، وعلل؟ يتحكم فيها قانون المكافأة الإلهي الحكيم ، وسنةٌ من السنن الإلهية التي لا تعرف التخلُّف والفوضى ، ولا تعرف الظلم والمحاباة؟ إنَّ قصة الأندلس الإسلامية قصةٌ فريدةٌ في التاريخ الإسلاميِّ ، لا نظير لها في الماضي ، ولا في الحاضر ، أرض حكم فيها المسلمون نحو ثمانية قرون ، وازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ، والثقافة العربية الإسلامية ازدهاراً يكاد يكون منقطع النظير ، يجلىٰ عنها الإسلام

والمسلمون جلاء يكاد يكون منقطع النظير كذلك ، فكانت الأندلس في عهد زهوها ، وأوجها منقطعة النظير ، وهي في تجردها عن الإسلام والمسلمين بحيث لا تتنفس على أرضها اليوم نسمة تلفظ بكلمة الإسلام ، وتنطق بالشهادتين ، وتتكلم بالعربية عديمة النظير ، شقاء لا يشاركها فيه قطر من الأقطار الأوربية المسيحية ، وجارة من جاراتها البعيدة عن الإسلام ، والمحاربة للإسلام وأهله ، فعاصمة فرنسا فيها نحو نصف مليون من العرب والمسلمين ، وعاصمة بريطانيا فيها نحو خمسين ألفاً من المسلمين أو يزيدون ، وألمانيا كذلك ، فضلاً عن رومانيا ، ويوغوسلافيا ، وألبانيا وكلها مرت بمحنٍ قاسية من اضطهاد الإسلام والمسلمين ، ولا تزال فيها بقيةٌ صالحةٌ من الأسر الإسلامية والجاليات الإسلامية ، فلماذا تفردت الأندلس العريقة في الآداب الإسلامية ، والحضارة الإسلامية ، والتي كانت معلمة أوربة ، ومدرسة الغرب ، ومصدر الإشعاع بهذا المصير الغريب ، وما السرُّ في ذلك؟

شغل خاطري هذا السؤال مدَّة بقائي في الأندلس ، وبعد ما خرجت عنها ، ولم أكن أحمل معي في هذه الرحلة إلا كتاباً واحداً لمؤلف إنجليزي منصف يمتاز بين أقرانه وبين جلدته بحبِّ العرب والمسلمين والاطلاع على المصادر العربية الأصيلة ، وهو كتاب «العرب في أسبانيا» (the moors in spain) لمؤلفه (syanly lane poale) الكتاب الوحيد الذي ظفرت به في لندن ، والأندلس الإسلامية تكوِّن مكتبة كبيرة في اللغة العربية وغيرها من اللغات ، وكتاب المقري (نفح الطيب في ذكر الأندلس الرطيب) وحده دائرة معارف ومكتبة مستقلة ، وكتاب الأمير شكيب أرسلان في العهد الأخير (الحلل السندسية) كذلك موسوعة وكنز عن الأندلس ، ولكن جاءت زيارة الأندلس مفاجأة[1] وعلى غير ميعاد ، فقمت بها معتمداً على ذاكرتي

(١) لأن الأخ الحبيب الدكتور سعيد رمضان مدير المركز الإسلامي العام قرر أن أزور الأندلس قبل أن أصل إلى جنيف ، وصادف ذلك رغبة قديمة عندي فقبلت اقتراحه شاكراً مسروراً. (العلاَّمة الندوي).

الضعيفة ، ودراساتي المتقطعة ، مستظهراً بهذا الكتاب الإنجليزي الوحيد الذي تكرَّم به أحد الأصدقاء في لندن.

ولكن هذا الكتاب على وجازته وصدوره عن قلم كاتب إنجليزي كان يكفي لفكِّ هذه اللغزة التي شغلت خاطري ، وسيطرت على تفكيري ، وهي في الحقيقة ليست لغزة من الألغاز ، أو سراً من الأسرار ، إنَّما هو السهل الممتنع القريب البعيد ، استشكله من لم يعرفه ، واستهان به من عرفه ، شأن جميع الألغاز التي يمتحن بها الذكاء.

إنَّ السبب الوحيد في جلاء الإسلام والمسلمين عن إسبانيا ، وتقلُّص كلِّ ظلٍّ من ظلال الحضارة والثقافة الإسلاميتين العربيتين ، إنما هو التنافس في الملك ، والشقاق بين الطوائف الإسلامية ، وبين أفراد الأسرة الواحدة أحياناً ، والمحاربات الداخلية ، وشهوة الحكم والمجد ، والأنانية البغيضة ، وبالاختصار ، وفي كلمة واحدة: «الأنانية» لمن فضَّل هذا التعبير ، أو فقِهَ هذا المعنى في حدوده الواسعة.

وقد يقول قائل: وقد وقع كلُّ هذا في كل بلد من بلاد المسلمين ، وقد يكون ما حدث في بعض البلاد الإسلامية كما حدث في إسبانيا ولكن لم يصب أي بلدٍ في العالم الإسلامي مثل ما أصاب إسبانيا الشقية ، ولم يعاقب شعب من الشعوب الإسلامية على خصوماته وأنانية أمرائه وملوكه مثل ما عوقب الشعب الأندلسي العربي الإسلامي ، فلماذا هذا الفارق الكبير؟ ولماذا كان قسط الأندلسيين من العقوبة أوفر من قسط غيرهم؟ ولماذا طفح كأسهم ، ولم يطفح كأس الآخرين من تدفقها؟

والجواب عن ذلك: إنَّ موقف الإسلام والمسلمين في إسبانيا كان موقفاً فريداً دقيقاً ، لا يشاركهم فيه شعب آخر في بلد آخر ، فقد كانوا نقطة مغمورة في القارة الأوروبية الواسعة وبين المسيحيين الذين يحيطون بهم إحاطة السوار بالمعصم ، والهالة بالقمر ، بل إحاطة البحار الزاخرة بجزيرة صغيرة محدودة ، فكانت مسؤوليتهم أعظم وأضخم من مسؤولية أي شعب مسلم يتصل بلده بالبلاد الإسلامية اتصال الحلقة بسلسلة طويلة من

عمارات ، وثكنات إسلامية ، لقد عاش الأندلسيون يحجز بينهم وبين إخوانهم في إفريقية البحر ، لا يعتمدون في سياستهم ودولتهم وبقائهم في الأرض النائية إلا على وحدتهم ، واتحادهم ، واجتماع كلمتهم وإلا على قوتهم الحربية الفائقة ، وتيقظهم الدائم ، ورباطهم المستمر ، وكان يجب أن يكون دستورهم وشعارهم الدائم وصية القائد الإسلامي الحكيم عمرو بن العاص للمسلمين في مصر ، بل كانوا هم أولى بالعمل بها من المصريين: **(واعلموا: أنَّكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم إليكم ، وإلى داركم)**.

أما قصة التنافس على الملك في الأندلس ، والخصومات القبلية ، وقصة ملوك الطوائف ، ومحارباتهم فيما بينهم؛ فهي قصة قد تبدو مهزلة سخيفة لتفاهة الدوافع والغايات ، ولأنها جهاد في غير عدو ، وقد تبدو مأساةً أليمة إذا نظرنا إلى نتائجها البعيدة ، وأثرها على الإسلام والمسلمين ، وعلى مصير هذا الشعب الإسباني البائس ، وأجياله الكثيرة التي حرمت نعمة الإسلام ، وحيل بينها وبين هذه السعادة إلى مدَّة لا يعلمها إلا الله.

غزا المسلمون إسبانيا في سنة ٩١هـ (٧١٠م) تحت قيادة طريف بن زرعة ، وجيش المسلمين يتكون من خمسمئة فارس ، ثم غزاها في العام القابل (٩٢هـ ـ ٧١١م) طارق بن زياد يقود اثني عشر ألفاً من المسلمين ، وفتح الفتح العظيم الذي غير مجرىٰ التاريخ ، وأوغل طارق في البلاد ، وانتشر جيشه في شبه الجزيرة ، ففتحت قرطبة في نفس العام ، وغرناطة ، ووصلوا إلى طليطلة في الشمال ، وأخضعوا عاصمة الفيقوط الذين لجؤوا إلى الغابات والجبال في أقصى الشمال ، وأكمل المسلمون فتح شبه الجزيرة في سهولة ويسر ، وأخضعوها لخلفاء بني أمية في دمشق في عقدين من السنين ، واستوعبوها فتحاً ، وتنظيماً ، وإدارة.

وما كان فتحهم لضعف العدو أو قلَّة عدده أو جُبْنه ، فقد عرف الفيقوط بقوة الشكيمة ، وشدة المراس ، والضراوة بالحروب ، وقد كان الجيش

الذي يقوده لذريق (Roderick) لقتال طارق لا يقل عن سبعين ألف مقاتل على أقل تقدير عند المؤرخين الأوروبيين ، وإنما هي روح الجهاد في الفاتحين ، وحبهم للشهادة ، واستهانتهم بالحياة ، وتضافرهم ، ووحدة كلمتهم ، وتقشفهم ، فتقدَّموا في بلاد أجنبية انقطعت عنهم فيها الميرة والإمداد ، وانقطعت صلتهم عن مركزهم بشيء طبيعي هو البحر ، وبشيءٍ من صناعة أيديهم ، هو إحراق السفن[1] ، تقدموا كالسَّيل الجارف لا يلويه شيء ، ولا يعوق سيره ، وكانوا في تعبير كاتب إنجليزي بليغ «**كمسمار يغرز في خشب ناعم**» حتى وصلوا إلى طور في أواسط فرنسا ، ولولا حادثة اغتيال[2] القائد عبد الرحمن الغافقي (سنة ١٠٢ هـ) الذي وجد قتيلاً في خيمته ، وانصرفت الجيوش الإسلامية على أعقابها؛ لواصل العرب فتوحهم في أوربة ، ولتغير مجرىٰ التاريخ في العالم ، ومصير الإنسانية كلِّها ، بل كما يقول لين بول (Lane poole) : «**لتحولت كنيسة بولس الراهب في روما جامعاً إسلامياً ، ولم يكن لأحد أن يقف في وجه العرب ، ويمنعهم عن غزو إنكلترا ، وغيرها من البلاد الموغلة في الشمال ، والغرب ، ولكن بقي العرب يحكمون ناربون (Narlbonne) ومديرياتها ، وتوابعها في جنوب فرنسا إلى آخر القرن الثامن المسيحي**» ثم ماذا كان؟ غلبت على العرب الفاتحين طبيعتهم القبلية التي قهرتها العاطفة الدينية ، والاشتغال بالفتوح ، والغزوات ، فلما استقرت الأمور ، ونفضوا عنهم غبار الحروب؛ ظهر التنافس بين القيسية واليمانية حيناً وبين العرب والبربر حيناً آخر ، وكادت الأندلس تذهب ضحية قصر نظرهم ، وضعف تفكيرهم ، وكادت تقع مأساة الأندلس التي تأخرت سبعة قرون.

وأدرك الله الأندلس بلطفه ، وشاءت حكمته سبحانه أن ينتشر فيها

---

(١) أمر طارق عند نزوله على بر الجزيرة بإحراق السفن التي حملت الجيش حتىٰ لا يفكر المسلمون في الرجوع والفرار «المقري».

(٢) أخبرني الدكتور حميد الله وهو من أعلم الناس في هذا العصر بتاريخ الإسلام في أوربة أن تراجع الجيوش الإسلامية في طور لم يكن عن هزيمة في ساحة القتال ، إنما كان سببه اغتيال القائد عبد الرحمن الذي كانت نتيجة مؤامرة ، ودسيسة لم تعلم حقيقتها.

الإسلام ، وتسعد به أجيال كثيرة أراد بها الخير ، فكان عبد الرحمن الداخل صقر قريش ، والرَّجل العصامي الخالد سنة ١٣٨هـ (٧٥٥م) الذي أعاد إليها النظام والوحدة ، وضبط البلاد ، وأدارها بيد قوية ، وإرادة صارمة حازمة ، لا تعرف الهوادة والوهن ، وقامت دولة قرطبة الزاهية الزاهرة التي يعتبرها مؤرخو الفرنج أعجوبة القرون الوسطىٰ ومشعل الثقافة في دياجير أوربة التي تتسكع في الجهل ، والبداوة ، والشعوذة.

وخلف عبد الرحمن (١٧٢هـ) أمراء من بيته يختلفون في القوة والوهن ، والتوفيق والتخاذل ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ هـ - ٨٩١ م) ففتح الأندلس مرَّةً ثانية ، واسترد ما ضاع من الولايات ، وأخضع ما استقل من إمارات ، وعادت إلى الأندلس الوحدة والنظام والقوة والمجد ، والهيبة والشوكة ، وبلغت قرطبة في عهده الزاهر الطويل (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) أوجها ، وأخذت زخرفها ، وظهرت مدينة الزهراء التي كانت أشبه بحلم، وبصورة خيالية في فنِّ العمارة والزخرفة[١] .

وتعاقب على عرش عبد الرحمن أمراء يغلب عليهم الوهن ، ويشغلهم اللهو ، حتى قيض الله للأندلس رجلاً عصامياً آخر ، وعبقرياً من طراز المؤسسين للدول ، وهو الوزير المنصور بن أبي عامر الذي فتح الأندلس مرَّة ثالثة ، وأوغل في الشمال ، وأخضع القلاع المسيحية الحصينة والمدن النصرانية المنيعة ، وفتح برشلونة ، وأدخل في قلوب الأعداء الرعب ، والذعر ، وكان آخر ولاة الأندلس الأقوياء ، والإداريين النبغاء ، الذين انتظمت ، وتوحدت في ولايتهم البلاد الأندلسية .

وانفرط عقد الأندلس الإسلامية الموحدة بعد الوزير المنصور ، وتناثرت حلقاتها المرتبطة ، وقامت إماراتٌ ودويلاتٌ ، وعادت الطبيعة العربية الانفصالية الانعزالية ، وكان كما قال الشاعر القديم :

وتشعبوا شعباً فكلُّ جزيرةٍ فيها أمير المؤمنين ومنبر

---

(١) اقرأ تفاصيلها المدهشة في كتب المؤرخين العرب ، واقرأ صورة مؤخرة لها في كتاب ستانلي لين بول (Stamly Lane Poale) .

وقامت دول ملوك الطوائف المتنافسة المتحاربة ، فلم يطلع القرن الخامس الهجري وينتصف القرن الحادي عشر الميلادي إلا وقد تكونت عشرون إمارة أو دولة[1] كما كان يسميها أهلها ، توزعت الأندلس كلها وتقاسمتها كالمال السائب ، فبنو حمود في مالقة وبالجزيرة ، وبنو عباد بإشبيلية ، وبنو زيري بغرناطة ، وبنو برزال بقرحونة ، وبنو يحيى بلبلة ، وبنو جهور بقرطبة ، وبنو الأفطس ببطليوس ، وبنو ذي النون ، والعامريون ببلنسية ، وبنو مادح بالمرية ، وبنو هود بسرقسطة إلى غير ذلك من الأسر المستقلة في إمارات مستقلة ، لم تتحاش من الزحف على المدن الإسلامية حتى على قرطبة ، مفخرة العصر ، ودرة الأندلس وحصار الإسلام ، والمسلمون هم الذين نهبوا قرطبة ، وسلبوها حتى ضعفت وسقطت في أيدي النصارى في ٢٣ من شوال سنة ٦٣٦هـ ، وأحرقوا مدينة الزهراء وعاملوا إخوانهم وأشقائهم في العقيدة والثقافة والحضارة معاملة الأعداء الألداء ، والأجانب البعداء.

وتخللت هذا التاريخ الطويل الثقيل المظلم الذي يضيق القارىء الصبور بقراءته ذرعاً ومضات من نور ، وفترات من وحدة كقدوم المرابطين في آخر القرن الحادي عشر الميلادي ، والموحدين في منتصف القرن الثاني عشر الميلاد ، وانتصاراتهم الباهرة على المسيحيين التي بيضت وجه المسلمين ، وأعادت إلى الإسلام اعتباره ومكانته ، وكانت فرصة سانحة لتدارك الأمر ، وتأسيس دولة قوية إسلامية موحدة ، وكانت الأنانية وقصر النظر الذي كان يغلب العرب دائماً ، كلما ضعفت العاطفة الإسلامية ، ووهنت الرابطة الدينية لم تمكن من انتهاز هذه الفرصة ، وكان المرابطون والموحدون كل في دوره فريسة الفرقة ، والضعف ، والبذخ ، والمدنية الزائفة ، حتى لقي

---

(١) قال ابن حزم: «فضيحة لم يقع في الدهر مثلها ، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها يسمىٰ كل واحد منهم بأمير المؤمنين ، ويخطب لهم في زمن واحد ، أحدهم في أشبيلية ، والثاني بالجزيرة الخضراء ، والثالث والرابع بسبتة ، وأصبح العرب والبربر في خصام مستديم: والجميع في خلاف مع أهل المغرب الأقصىٰ من الجنوب ، وفي حروب مع بقايا الأمم الإسبانية ، والبرتغالية من الشمال والغرب».

الموحدون ـ الذي عرفوا بقوتهم ، وحبهم للجهاد ، وتقشفهم في الماضي ـ هزيمةً منكرة شنيعة في سنة ١٢١٢م ، وقتل منهم أكثر من نصف مليون نفس ، ولم يمض على ذلك ربع قرن حتى أُقْصيَ الموحدون من الأندلس كلها.

وأصبح المدُّ الإسلامي الذي بلغ إلى أقصىٰ شمال إسبانيا ، وتعدىٰ إلى فرنسا ـ ينحسر ، ويتراجع إلى جنوب الأندلس ، وكان دليلاً على أنَّ المسلمين قد فقدوا الثقة بأنفسهم ، وتجردوا عن الطموح وصاروا يتخلون عن الأندلس التي حكموها هذه المدة الطويلة ، وقد تقرر مصير الأندلس ، ومستقبل الإسلام فيها على بني نصر بغرناطة ، وكانت جميع الشواهد والقرائن توجب وحدة المسلمين ، والتفافهم حول رايةٍ واحدة ، وتحرِّم عليهم ـ بموجب الشرع والسياسة والعقل ـ كلَّ فرقةٍ ، وانقسام ، وتنافس على الزعامة والإمامة والإمارة ، وكلَّ أنانية ، وفردية ، أو قبلية ، أو تسلية.

ولكن الأندلس كانت تدنو رويداً رويداً ـ ولكن في وضوح وجلاء ـ إلى مصيرها المحتوم المشؤوم، وإلى الهاوية التي لا قرار لها، فكان المسيحيون الذين عاشوا قروناً طويلة مشتتين ، منقسمين ، متنافسين ، لا تجمعهم كلمة ، ولا تضمهم راية بدؤوا يتغلبون على حزازاتهم العميقة ، وخصوماتهم القديمة الموروثة ، ويملؤون كل يوم فجوة حدثت في الزمن الماضي ، والمسلمون الذين كانوا في دور الاحتضار وعلى شفا حفرة من الانهيار يزدادون كل يوم فرقةً وانقساماً ، وتنافساً على الملك والإمارة خضوعاً لشهوة الحكم والعظمة ، وكانت دولة غرناطة معقل المسلمين الأخير ، بل معقل الإسلام في الأندلس ، يلجأ إليها المسلمون الذين يفتح بلادهم المسيحيون من كل ناحية ، فقد لجأ خمسون ألفاً من المسلمين من بلنسية ، وثلاثمئة ألف من إشبيلية وقادس ، وكان سقوطها نهاية التاريخ الإسلامي الزاهر في الأندلس.

ولكن العرب ـ مع الأسف ـ وملوك بني نصر الذين كانوا أمناء على

الشعب الإسلامي كلِّه في الأندلس لم يسمعوا الإنذار الصارخ القارع ، ولم يروا السيف المصلت على رقابهم ، ورقاب المسلمين ، وظلوا يتنافسون على الملك والسلطان ويتحاسدون في الزَّعامة والولاية ، ويقومون بالثورات ، ويدبرون المؤامرات.

واتحدت دولة قشتالة وأراغون المتنافستان المتخاصمتان عبر القرون بزواج أميريهما فرديناند وإيزابلا ، فملئت آخر فجوة في القيادة المسيحية ، ووقع عكس ذلك في القيادة الإسلامية العربية في غرناطة ، فثار أبو عبد الله على والده أبي الحسن[1] وبقي يعاكسه ، ويحاربه ، ويمالىء أعداءه المسيحيين ، حتى إذا توفي أبو الحسن وخلفه أخوه الزغل[2] البطل الإسلامي ، كان أبو عبد الله حرباً عليه ، وفضل هو الأخير الصداقة والولاء للعدو المشترك على الطاعة لعمه ، والقتال تحت رايته ، وبلغ به العداء لعمه: أنه لما فتح فرديناند وإيزابلا مدينة مالقة الإسلامية أرسل إليه أبو عبد الله بالتهاني وباركه ، وأعطاهما عهداً أنهما إذا استوليا على إمارة الزغل فإنَّه يسلم إليهما غرناطة ، فلما تم ذلك في سنة ١٤٩١ م وخرج الزغل إلى إفريقية طريداً ذليلاً طالب الملك المسيحي وقرينته بغرناطة وفاء بالوعد وتحقيقاً للشرط ، فلما تماطل أبو عبد الله ، وسقط في يديه ، وثار المسلمون وأبوا ذلك؛ تقدمت الجيوش الصليبية إلى غرناطة مصممة على نصب «الصليب المقدس» على الجامع الكبير ، وفتح آخر حصن للإسلام في إسبانيا المسيحية.

وطال الحصار ، وانقطع المدد ، وتخاذل المسلمون الذين كانوا يملؤون العالم ، ويملكون أقوىٰ دول على الأرض ، وانتشرت المجاعة في البلد وعيل صبر الناس ، فصالح أبو عبد الله المهاجمين ، وكتب العقد في ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١م ، وسلم غرناطة المعقل الإسلامي الأخير ، وسلم مصير الشعب المسلم البائس ، وأجيال المسلمين القادمة إلى العدو الثائر

---

(١) هو أبو الحسن علي بن سعد من آخر ملوك بني الأحمر توفي سنة ٨٩٠ هـ.
(٢) هو محمد الثاني عشر بن سعد الزغل خلع سنة ٨٩٢ هـ.

الموتور ، الذي لا يحمل للمسلمين عطفاً ، ولا رحمة ، ولا يرقب في مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، وخرج من غرناطة في اليوم الرابع من ربيع الأول سنة (٨٩٧هـ ـ ٢ من يناير سنة ١٤٩٢م) ووقعت المأساة التي تشيب لهولها الولدان ، وتقشعر من ذكرها الجلود ، وتشمئز منها الآذان والأذهان ، وما يوم حليمة بسر.

إنَّ المسلمين والعرب لم يغلبوا في الأندلس ـ شهد الله ، والملائكة ، وأولو العلم ، وشهد التاريخ ، وشهد الأعداء ـ بقلة عدد ، ولا بفقر ، ولا بجبن ، وفي الأيام الأخيرة حين كانت الأندلس الإسلامية تلفظ نفسها الأخير ، وكان الذبالة تشتعل لتنطفىء سريعاً ، كلما ظهر بطل مثل الزغل وموسى ـ الحمي الغيور البطل ـ وكلما ثبت المسلمون انقشع الضباب ، وتراجع العدو ، وظهر تفوق المسلمين الحربي ، وظهرت فروسيتهم العربية الإسلامية ، وقد كان يخرج بعض المجاهدين الأفراد ويدعو ـ وهو محطم الأعصاب حزين النفس ـ إلى المبارزة فلا يواجهه بطل من أبطال الصليبيين إلا ويخرُّ صريعاً يتشحط في دمه ، حتى تفانىٰ الأبطال الفرسان (؟؟؟) في المعسكر الصليبي ، واضطر فرديناند القائد العام إلى أن ينهى الفرسان عن قبول هذه الدعوة إبقاءً على البقية الباقية منهم ، وإشفاقاً من لحوق العار ، ودخول الرعب في قلوب المهاجمين وهكذا كان موسى قائد الثورة بطلاً لا يغلب ، مهاجماً لا يبارى ، ولكن هيهات ، لقد فات الوقت ومضى زمن البطولة والمقدرة الفردية ، والفروسية الشخصية ، وتقرَّر المصير الذي جرَّته أخطاء المسلمين ، وجناياتهم المتتابعة المتوالية ، وأمامهم تاريخ مسطور ، وسجل مفتوح لأخطائهم ، وقصر نظرهم ، وضعف تفكيرهم ، والصوت السرمدي يقول مخاطباً لكل متعجب ومعاتب: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء: ١٤]. فهل في قصة الأندلس؛ التي لم يسطر التاريخ رواية أوضح منها ، ولا أفجع درس للمسلمين وللعرب خاصَّة؟ هل في قصة الأندلس درس للحكومات العربية وزعمائها في الشرق الأوسط ، الذين يتنافسون على الزعامة ، ويتحاسدون على العظمة ، ويتنازعون على الرئاسة ، ويتآمرون على الأخ الشقيق ، وإسرائيل المنظمة

المتحدة بالمرصاد ، مسرورة شامتة بواقع الأقطار العربية الإسلامية ، والصحافة العالمية ، والإذاعات تروي كل يوم رواية جديدةً لثورةٍ جديدةٍ ، ولانشقاقٍ جديد ، يتندى لها جبين كلِّ مسلمٍ ، وكلِّ عربي ، ويتنكس رأسه خجلاً وخزياً؟

وهل في قصة الأندلس درس للمملكة المغربية وللجمهورية الجزائرية في خلافهما الجديد الذي يشمت العدو ، ويفضح الإسلام ، ويحزن الصديق ، والذي لا تجدان فيه من يصلح بينهما إلا ملكاً مسيحياً حمل روح فرديناند وإيزابلا ، ومثل دورهما في الحبشة؟

إنَّ الأندلس الإسلامية خسارةٌ فادحةٌ في التاريخ الإسلامي لا نظير لها ، ولكنها ستعود ربحاً إذا انتفع المسلمون بمأساتها ، وتلقوا درساً يمنعهم من مأساة تقع مرَّةً ثانية في جزءٍ من أجزاء العالم العربي ، أو العالم الإسلامي؟! فهل من مدَّكر؟!

* * *

وامُعتصِمَاه![1]

روى المؤرخ الكبير ابن الأثير في «الكامل» أنَّ المعتصم بلغه: أنَّ امرأةً هاشمية صاحت وهي أسيرةٌ في أيدي الروم: «وامعتصماه» فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك! لبيك! ونهض من ساعته، وصاح في قصره: النفير النفير! وأشهد القضاة والشهود على ما وقف من الضياع، وغزا «عمورية»، وأمر بها فهدمت، وأحرقت[2].

هذا حديث عصر كانت السيطرة فيه للحميَّة الإسلامية، والغضب للحق، والانتصار للمظلوم، والأخذ على يد الظالم، وكان الذين يتولَّون أمور المسلمين يعتبرون أنفسهم حماةً للإسلام والمسلمين، يجازفون في سبيل حماية فردٍ ضعيف، وفي سبيل عجوزٍ بائسة بحياتهم وملكهم، وكان المسلم قوياً، عزيزاً، آمناً، مطمئناً في كل بلد، وفي أقصىٰ العالم، يؤمن بأن له أنصاراً يحمونه، وإخوةً أشقاء يثورون له، وكان المجرمون يعتقدون: أنَّ الاعتداء عليه إثارة ليوث الغاب، وتحريك خلايا للنحل الحانقة الموتورة، لا تهدأ حتى تنتقم لصاحبها، وأنها لا ينجو منها العدو المثير في برٍّ ولا بحر، وكان الواحد من هذه الأمة يعد بعدد المجموع، وكان الواحد يقوم بكل ما يتمتع به من حمايةٍ ونصرة.

كان الأمراء المسلمون الذين روىٰ التاريخ عنهم كلَّ فضيحة وشائنة، ولم يُعدوا قط في طبقة الصالحين الأبرار، أو العادلين الأخيار، ولم

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثامن، المجلد الثامن، عام ١٩٦٣ م.

(٢) اقرأ القصة بطولها وكاملها في تاريخ «الكامل» لابن الأثير ج ٦ ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

يزعموا لأنفسهم فضلاً في دين أو علم ، بل اعترفوا بذنوبهم ، وأقرُّوا بخطاياهم ، بلغت بهم الحمية الإسلامية ، إلى أن أرسلوا جيوشاً كثيفة يقودها أفضل قادتهم ، وأعزُّهم عليهم لحماية بيت من بيوت المسلمين ، أو نسوة غريبات تعرض لهن بعض من لا خلاق لهم بأذى أو اعتداء ، وكانت مغامرة خطرة ، وقاهم الله شرها؛ لإخلاص نيتهم ، وسموّ عاطفتهم ، وكان سبب فتحٍ عظيم ، وبداية عهدٍ جديد ، فقد روى البلاذري في كتابه الشهير «فتوح البلدان» :

«إن نسوةً مسلماتٍ في سفينة ، عرض لهن قوم من ميد[1] الديبل[2] في بوارج ، فأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهن ، وكانت من بني يربوع : يا حجاج! وبلغ الحجاج ذلك ، فقال : «يا لبيك» فأرسل إلى داهر ليسأله تخلية النسوة ، فقال : إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم ، فأغزا الحجاج عبيد الله بن نبهان الديبل ، فقتل ، ثم أمر بديل بن طهفة ، فلما قتل ولّى الحجاج محمد بن القاسم في أيام الوليد بن عبد الملك ، فغزا السند»[3] .

والتاريخ الإسلامي حافل بمثل هذه المآثر ، والبطولات ، والمغامرات؛ التي تجلت فيها الغيرة؛ التي هي من أعظم مواهب الله تعالى ، ومن أسمى الأخلاق التي تكتسب بها الحياة الإنسانية الحرارة ، واللّذة ، والعزَّة ، والكرامة ، ويرجع إليها الفضل الأكبر في حماية المدنيَّة الصالحة ، والحقوق الإنسانية ، وعقوبة العابثين بكرامتها وحرمتها وقداستها ، المعتدين على الضعفاء ، المتمسكين بشريعة الغابات ، وقانون العصابات .

وقد عيَّر الإنسانُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ كلَّ من تجرد عن هذه الغيرة ، ووصفه بأقبح الأوصاف والنعوت ، وكان العرب الذين عاشوا في جاهليتهم

---

(١) من أقدم الشعوب الهندية .

(٢) قال ياقوت : وهي مدينة شهيرة على ساحل بحر الهند .

(٣) انظر : «فتوح البلدان» ص ٤٤١ .

وإسلامهم على أفضل السجايا الخلقية ، والمواهب الفطرية ، ويعتبرون هذه الغيرة أساس أخلاقهم ، وعماد حياتهم ، ويعيِّرون القبيلة التي تخذل أختها في النائبات وعند شن الغارات ، وتتهاون في نصرتها عاراً يلتصق بها على مدى الدهر ، ويتوارثه الأبناء من الآباء ، وأبناء الأبناء ، ويهجونها الهجاء المقذع الذي يخلَّد في تاريخ الأدب ، وكان المبدأ الذي يؤمنون به «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»[1] وكلُّ من أخلَّ به ، أو فرَّط فيه كان من سقط المتاع ، وممن لا قيمة له في المجتمع .

أغار ناسٌ من بني شيبان على قريط بن أنيف أحد بني العنبر ، وأخذوا له ثلاثين من الإبل ، ولم يقم له بنو قومه بما جرت به العادة في الجاهلية من النصر والحماية ، فغضب الشاعر العربي الكريم الأبيُّ ، وقال شعراً خالداً طار في الآفاق ، وذهب مثلاً في المجتمع العربيِّ ، وهو من الشعر العالميِّ البليغ الخالد :

لو كنت من مازنٍ لم تستبح إبلي … بنو اللقيطة مِنْ ذُهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصري معشرٌ خشنٌ … عند الحفيظة إن ذو لوثةٍ لانا
قومٌ إذا الشرُّ أبدىٰ ناجذيه لهم … طاروا إليه زرافاتٍ وَوُحْدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبُهم … في النائبات على ما قال برهانا
لكنَّ قومي وإن كانوا ذوي عددٍ … ليسوا من الشرِّ في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً … ومن إساءة أهلِ السُّوء إحسانا
كأن ربَّك لم يخلق لخشيته … سواهُم مِنْ جميع الناس إنسانا
فليتَ لي بهمُ إذا ركبوا … شدُّوا الإغارة فرساناً وركبانا[2]

وجاء الإسلام ، وأدخل على المبدأ الجاهلي ؛ الذي أصبح شريعةً يعمل بها العرب تعديلاً يتفق مع روحه ، ورسالته ، وطبيعة الرسالات السماوية ، فقال الرسول ﷺ والصحابة حوله : «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**» ولما استغرب ذلك الصحابة رضي الله عنهم ما ألفوه ، وتذوقوه من تعاليم النبوَّة

---

(١) نصر الظالم في الإسلام أن تأخذ على يديه ، وتمنعه من الظلم .
(٢) «ديوان الحماسة» لأبي تمام الطائي .

المنصفة ، قالوا: هذا ننصره مظلوماً ، فكيف ننصره ظالماً ، ففسَّره النبيُّ ﷺ التفسير الإسلامي الجديد ، وقال: «**تأخذ فوق يديه**»(١).

ظلَّ العالم الإسلاميُّ متمسكاً بهذا المبدأ النزيه الشريف ، ينصر المسلمون إخوانَهم ـ القريبين والبعيدين ـ إذا كانوا مظلومين ، ويحولون بينهم وبين الظلم إذا كانوا ظالمين ، ويذمُّون الظلم بجميع أنواعه ، وفي كلِّ بلدٍ ، ولا يمالئون الظالم ، ولا يقومون لجواره ، ولا يسكتون على ظلمه مهما كانت عاقبة ذلك ، ومن شذَّ عن ذلك ، عُيِّر بالخيانة والغدر ، وسقوط الهمة ، وتبرأ منه المسلمون ، وكرهوه كرهاً شديداً.

ثم أتى على المسلمين حينٌ من الدَّهر ، استحوذت عليهم الأنانية ، وشهوة الحكم ، والملك ، وماتت فيهم الغيرة الإنسانية ، فضلاً عن الحمية الإسلامية ، فكان لا يثيرهم سقوط حكومة إسلامية ، أو جلاء شعب مسلم كبير ، أو مجزرة تقع في البلاد ، أو تحوُّل مساجد إلى كنائس ، أو الأذان إلى الناقوس ، ووقع حرائر مسلمات في يد العدو المتسلط ، إلى غير ذلك من الفضائح التي لا يتحملها الإنسان الشريف.

وفي هذه الفترة المظلمة ، وقعت كارثة الأندلس فلم يستطع الشاعر الأندلسي ، «صالح بن شريف الرَّندي» الذي طاف في العالم الإسلامي ، ولم يستطع شعره الحزين الباكي أن يحرِّك ساكن القلوب ، ويثير كامن الغيرة والحميّة:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لِفراقِ الإلف هيمانُ
على ديارٍ من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفرِ عُمرانُ
حيث المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما ... فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ ... حتى المنابرُ ترثي وهي عِيْدانُ
أعندكم نبأٌ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديثِ القوم ركبانُ
كيف يستغيثُ بنا المستضعفون ... وهم قتلىٰ وأسرى فما يهتزُّ إنسانُ

(١) رواه البيهقي في السنن (٢٠٠٣٥) ، وأبو يعلى في المسند (٧٣٢٠) عن أبي موسى.

ماذا التقاطع في الإسلام بينكمُ   وأنتمْ يا عبادَ الله إخوانُ
ألا نفوسٌ أَبِيَّاتٌ لهم هممٌ   أما على الخير أنصارٌ وأعوانُ
لمثل هذا يذوبُ القلبُ مِنْ كَمَدٍ   إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

ولكن القلب لم يذب؛ لأنه تجرد عن الغيرة منذ زمنٍ طويل ، ووقعت مأساة الأندلس في عصر كانت الإمبراطورية العثمانية تتسع فيه ، وتزدهر ، وكانت إفريقية المسلمة تحتفل بالحكومات والإمارات ، وعرف العالم المسيحي: أن المسلمين فقدوا الحميَّة الإسلامية التي كانت شعارُهم وعقيدتهم في هذه المدَّة الطويلة ، وأنهم أصبحوا قطعان غنم ، كلٌّ يهتمٌّ بعلفه ونسله ، ومجموع أمم ، كلُّ واحدةٍ منها تنظر إلى مصالحها الخاصة ، وقررت أن تعيش منطويةً على نفسها ، يومئذٍ هان الإسلام والمسلمون ، وبقي العدوُّ ينتهز الفرصة لاقتطاع هذا الملك العريض ، وهكذا كان «وما يوم حليمة بسر».

نهض في العالم الإسلاميِّ في الدور الأخير رجالٌ يدعون إلى إحياء الحميَّة الإسلامية في قلوب المسلمين ، ويشعلون الحماسة الإسلامية في نفوسهم ، وكانت أعظم قوة ، وأقوىٰ عامل بنَّاء جرّبه التاريخ ، ويدعون المسلمين في طرف ، وإلى إغاثة إخوانهم في طرف آخر ، فقام الإمام السيد أحمد الشهيد وأصحابه في الهند ينتصرون لإخوانهم الذين كانوا يرزحون تحت نير الاستعباد في الحدود الشمالية الغربية من الهند ، وانطلقت موجةٌ عاتيةٌ من الحمية الدينية التي حسبت لها الحكومة الإنجليزية ألف حساب ، وقام السيد جمال الدين الأفغاني ، وأقام في الهند ومصر يدعو إلى الجامعة الإسلامية التي فزعت لها أوربة ، وخافت أن يخرج المارد من القمقم ، وقضىٰ مدَّةً في باريس ، يصدر منها مجلة «العروة الوثقى» التي كانت شعلةً ملتهبةً من الحمية.

وجاء الهجوم الغربي المنظم على الدولة العثمانية ، فهبَّ العالم الإسلاميُّ من شرقه إلى غربه ، يبدي سخطه الشديد ، ويحمي الدولة العثمانية بما يملكه من حول وطول ، وكان للهند التي تحكمها بريطانيا

زعيمة الحلفاء النصيبُ الأوفر من هذه المظاهرات الصاخبة ، والتبرعات السخيَّة ، والتضحيات النادرة ، والاعتقالات المنتشرة ، والخسائر الفادحة ، وانتشرت حركةٌ واسعةٌ من الاستقالات من الوظائف الحكومية الكبيرة ، ومقاطعة البضائع الأجنبية؛ التي جعلت المواطنين والأجانب يعترفون بقوة العاطفة الإسلامية ، والمواساة الإنسانية ، وقد قاد هذه الحركة الجبارة مولانا أبو الكلام آزاد ، وشيخ الهند محمود الحسن الديوبندي ، ومولانا محمد علي ، وأيدها الزعيم غاندي وزملاؤه ، وكان ذلك سبباً من أسباب انبعاث الشعور القومي الوطني في الهند ، وحركة التحرير في المواطنين الهنود أدَّى إلى استقلال هذه البلاد.

ووقعت كارثة فلسطين ، وقد فقد المسلمون جانباً كبيراً من حماستهم الإسلامية ، وحميتهم الدينية بطول الحكم الإنجليزي ، وبإخفاقهم في المواقف التي وقفوها من العالم الإسلامي ، ولكنَّهم لم يقصروا في إبداء سخطهم للتقسيم الجائر ، وقيام دولة إسرائيل في قلب العرب ، فكانت مؤتمرات عظيمة شهدها ألوف الآلاف من المسلمين ، وكانت إضرابات ، ومقاطعات ، وبرقيات ، وقرارات ، وهذا جلُّ ما كان يملكه المسلمون في هذه البلاد ، وجاء العدوان الثلاثي ، ومعركة بور سعيد ، فسجَّل المسلمون تأييدهم للحكومة المصرية ، والشعب المصري المسلم العربيّ ، واستنكارهم لهذا الهجوم الغاشم ، وكذلك كان موقف المسلمين من قضية الجهاد الجزائري الباسل المنقطع النظير ، موقف تأييدٍ صارخ ، وتحمُّسٍ شديد ، وتتبُّع دقيقٍ لأخباره ، وكانت الصُّحف تتسابق في نشر أخبار بطولاته ، ومظالم فرنسا الهمجية ، وكانت الأسر الإسلامية تكتتب ، وتجمع التبرعات السخيَّة أحياناً ، والمتواضعة أحياناً أخرى ، وترسلها إلى ممثل حكومة الجزائر الحرَّة في دهلي الجديدة ، وبذلك يضع المسلمون الهنود قلبهم الكبير في جوار القلوب المسلمة الدامية المقروحة.

سنذكر كلَّ ذلك ـ والحديث ذو شجون ـ ولا منٌّ ولا فخرٌ ، فكلُّ ذلك ما يفرضه الإسلام ، وما تفرضه الأخوة الإسلامية ، وما تفرضه العاطفة الإنسانية ، وقد جاء في حديث شريف: «**ترى المؤمنين في تراحمهم**

وتوادهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمَّى» ولا خير في المسلمين إذا عاشوا لأنفسهم ، وفي دائرةٍ ضيِّقة جغرافية محدودة ، ويرى المسلمون من واجبهم المقدس أن يستنكروا الظلم والقسوة على بني النوع الإنساني ، وعلى الضعفاء ، وعلى الأقليات ، ولو صدر ذلك في بلد يتسمَّى بالمسلم ، أو يتزعم الإسلام ، لأن الظلم قبيح في كل بلد ، ومن كلِ شخص ، وهو من المسلم أقبح ، إنهم لا ينسون قوله تعالى : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء : ١٣٥].

إنَّ مقابل كلِّ ذلك فوجىء المسلمون في الأيام الأخيرة بانصراف الشعوب الإسلامية ـ حتى الشعوب العربية التي لم تزل معدن الغيرة ومنبع الحمية ـ إلى نفسها وقضاياها ، والجهل والإعراض عمَّا يقع في مناطق أخرى من حوادث وخطوب ، وكان الجانب اليقظ والنشيط الذي تقدَّمت فيه الصحافة تقدُّماً كبيراً ، وتقدَّم الوعي السياسي قد أصيب بالقومية التي تزن الأشياء والقضايا في ميزانها الخاص ، ميزان المصلحة القومية ، وينظر إلى كل قضية من ناحية تبادل المنافع والمساومة السياسية ، ينظر إلى الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن ، ومن يؤيِّد موقفه فيه قبل أن ينظر إلى مصلحة المسلمين العامة ، وقبل أن ينظر إلى ما توحيه الأخوة الإسلامية ، والمواساة الإنسانية والعدالة ، وينظر إلى من هو المسؤول عن هذه الحوادث قبل أن ينظر إلى من يصبح فريسة هذه الحوادث ، وقد يوحيه ذلك أن يسكت على أعظم مجزرة ، وأقسىٰ همجية يقتل فيها آلاف من الأبرياء والأطفال الصغار ، وتحرق فيها ألوف من البيوت والمخازن والمصانع التي يملكها المسلمون ، وتنتهك فيها أعراض النساء العفيفات ، وتحرم آلاف من الأغنياء والتجار الكبار مما يمسك رمقهم ، ويكسو عورتهم ، ويبقون في البرد الشديد تحت السماء ، ويصدر فيها من أنواع القسوة والنذالة ما تستنكف عنها الحيوانات ، وما يصرخ عليه زعماء هذه الطائفة المعتدية ، ويثار الموضوع في البرلمان ، ويلقي النواب المنصفون الأحرار من كل طائفة دينية ، ومن كل حزب سياسي خطباً قويةً مكشوفة ، وكلمات

مجلجلة مدوية ، يعترفون فيها بهمجية المعتدين ، وهول هذه الحوادث وفظاعتها.

أما كثير من الحكومات الإسلامية والشعوب العربية ، فتسكت على ذلك سكوتاً مطلقاً ، ولا تنشر صحفها ما يجلّي حقيقة هذه الحوادث ، وينير الرأي الإسلامي العام ، ويطلعُ المسلمين على مآسي إخوانهم الأشقياء ، ولا تعير هذه الحوادث من العناية والاهتمام ربع ما أعارت كونغو وزعيمها لوممبا ، ولا تنبس سفارتها ببنت شفة ، ولا تتلقى الحكومة برقية استنكار واستياء تقوي موقفها العلماني ، وتشجعها على مقاومة هذه الموجة الطاغية التي تكتسح البلاد ، وتهددها في حريتها وسمعتها.

إنَّ عصر الزحف ، وجرِّ الجيوش ، ونصر المظلوم بالسِّلاح قد ولى من غير رجعة ، ولا يزيد التدخل الحربي أو التهديد القضية ـ إن كان هنالك من يستطيع ذلك ـ إلا تعقداً. ويجب على المسلمين في كل بلد أن يتوكلوا على الله ، ويعتمدوا على كفايتهم ومواهبهم ، وقوة مقاومتهم ، ومساهمتهم الغالية المخلصة في بناء الوطن وحراسته ، وعلى الحقوق التي يمنحها الدستور ، وتعلنها الحكومة الجمهورية العلمانية ، ولكن من حقهم على إخوانهم في الخارج أن يبدوا بين حين وآخر عنايتهم بإخوانهم الذين تربطهم بهم رابطة العقيدة والثقافة ، والذين قادوا الركب الإسلامي الثقافيَّ في فتراتٍ كثيرةٍ من التاريخ ، وأمدَّت بلادهم العالم الإسلامي بنوابغ عبقريين ، وبعض عماليق الفكر الإسلامي ، وأتحفت المكتبة الإسلامية العالمية بطرف ونفائس لا تزال منقطعة النظير ، والتي لا تزال مركزاً من أقوى مراكز الدَّعوة الإسلامية والعلوم الإسلامية ، وأن يطلعوا على أخبارهم ، وما يجيش في صدورهم من الآمال والآلام ، لا ننكر عليهم ذلك سياسة عالمية ، أو مصالح وطنية ، فذلك في صالح الإنسانية ، وذلك في صالح الأمم والبلاد جميعاً. فالإنسانية ثروةٌ مشتركة ، والحياة الإنسانية أمانةٌ للجميع ، والكرامة الإنسانية يجب أن تظلَّ مقدسةً عند الجميع ، لا يخوَّل لأحدٍ أن يعتدي عليها ، أو يعبث بها. وإهدارُ كرامة إنسان إهدارٌ لكرامة الإنسانية كلِّها ، ونشرٌ للفوضى ، وعودةٌ إلى حياة الغابات.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

إنَّ هذا الوضع غير الطبيعي الذي يعيش فيه العالم، من السكوت على الإجرامات، والاعتداءات في أيِّ بلد، ووزن القضايا كلها في ميزان المصالح القومية وضعٌ خطرٌ جداً، إنه يفتح باب الفساد والفوضىٰ، ويمزِّق الأسرة الإنسانية في أجزاء وأوصال لا يتَّصل بعضها ببعض إلا عن طريق المصالح السياسية، وطريق الأغراض والمطامع، والأرباح والمنافع، إنَّها رابطةٌ حيوانية لا يفتخر بها إنسان، ولا يتنزل إليها مسلم.

* * *

حاجة العالَم إلى الدَّعوة الإسلاميَّة[1]

العالم الإسلامي اليوم حائر بين دين لا يسهل عليه العمل به والقيام بمطلبه لعادات نشأ وتربىٰ عليها ، وحكومات أفسدته ، وشهوات لا تتفق مع عقيدته ورسالته ، وبين جاهلية لا ينشرح لها صدره لإيمان لا تزال له بقية فيه ، إنه حائر بين فطرته التي تنزعه إلى الدين وتاريخه الذي يدفعه إلى الإيمان والجهاد ، وكتاب الله الذي يُقبِل به على الآخرة ويبعث في نفسه الثورة على المجتمع الفاسد والحياة الزائفة ، وبين التربية العصرية التي تزين له المادية وتطبعه على الجبن والضعف ، إنه حائر بين شباب ثائر ، ودم فائر ، وذهن متوقد ، وبين قيادة شائخة شائبة قد تفتَّتت في العقلية والحياة ، وحرمت الابتكار والإبداع .

لقد كان يحدث مثل هذه المحن والنكبات في الأمم السابقة ، وكان الله يبعث الأنبياء والمرسلين ، ولكن نبوة محمد ﷺ لم تكسف شمسها ، ولم يتوار نورها ، وإنَّ دينه لا يزال حياً ، وإنَّ الكتاب الذي جاء به لم يزل محفوظاً ، وإنَّ أمته التي أرسلت معه لتبليغ رسالته ، والقيام بدعوته لا تزال على وجه الأرض ، ولا تزال فيها الحياة والروح .

لقد أغنانا الله بفضل دينه وكتابه ونبوة رسوله محمد ﷺ عن رسالة جديدة ، ورسولٍ جديد ، وكان لا بدَّ من تجديدٍ واسع ، ودعوة صارخة ،

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها التاسع ، المجلد الثامن عام ١٩٦٣ م .

وكفاح شديد يغير هذا الوضع الجاهلي؛ الذي تورَّط فيه العالم الإسلامي تورُّطاً قبيحاً ، وقد وعد الله وأخبر رسوله باستمرار هذه الدَّعوة الإسلامية ، وبقاء التجديد الديني ، ودوام الكفاح في تاريخ الإسلام ، وقد أصبح حالُ العالم الإسلاميِّ ، وفساد أحوال المسلمين ، وانحرافهم عن جادة الإسلام ، وطغيان بحر المادية أعظم وأوسع من أن يتدارك بجهودٍ فردية ، وخطبٍ منبرية ، ودروسٍ دينية ، ورسائل دورية ، ومحاربة الأفراد والأشخاص ، إنَّ السيل لا يمسكه إلا سيلٌ مثله ، والتيار لا يدفعه إلا تيارٌ أقوىٰ منه ، فلا بدَّ إذاً من كفاحٍ عنيفٍ ، وصراعٍ شديدٍ ، يغير مجرىٰ الزمن ، ويقلب تيار الحياة من جهة إلى جهة ، ويحدث انقلاباً في المجتمع والحياة.

ليس حالُ الدعوة الدينية ، والتجديدُ الإسلاميُّ بهيِّن ، فليست رسالتها ومهمتها قلب نظام فقط ، أوتغيير وضع سياسيٍّ بوضع سياسيٍّ آخر ، ونظام اقتصاديٍّ بنظام اقتصاديٍّ آخر ، ولا نشر الثقافة والعلم ، ومكافحة الأمِّيَّة والجهل ، أو معالجة عيوب اجتماعية ، أو خلقية ، وإنما هي دعوة الإسلام التي تشمل العقيدة ، والأخلاق ، والأعمال ، والسياسة ، والعبادة ، والسلوك الفردي والاجتماعي ، وتتناول العقل ، والقلب ، والروح ، والجسم ، وتعتمد على تغيير عميق في القلب والنفسية ، والعقيدة ، والعقلية ، وتنبع من القلب قبل أن تنبع من قلم أو صحيفة أو كتاب ، وتنفذ على جسم الداعي قبل أن يطالب المجتمع والأمة بتنفيذها.

هذه الدعوة كانت جديرة في الحقيقة بالأنبياء ، ومواهبهم ، وقواهم ، ورسالتهم ، وإيمانهم ، وجهادهم ، وثباتهم ، وفقههم ، وحكمتهم ، وإخلاصهم ، ولكنها ليست خاصَّةً بالأنبياء ، بل هي دعوة خلفائهم ، وأتباعهم ، فلا بدَّ أن تتجدَّد في كلِّ زمانٍ ، وفي كلِّ مكان ، وتكون مطابقةً لسيرتهم ، مقتبسةً من مشكلتهم.

إننا إذا تتبعنا سيرة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في دعوتهم رأينا جوانب

كثيرة تقوم عليها دعوتهم ، يميزون بها عن سيرة ودعوة القادة المصلحين من عامة البشر :

(١) ـ الالتجاء إلى الله في جميع مراحل الدعوة والجهاد ، بل في جميع مراحل الحياة ، والإيمان القوي بأنَّ الله وحده هو النافع الضارُّ ، والناصر الخاذل ، وألا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، هذا الإيمان كان يوحي إليهم بالابتهال في الدعاء ، وإطالة الوقوف ببابه ، وفي هذا كان يدعو رسول الله ﷺ فيقول : «**اللهم! إنَّك تسمع كلامي ، وترىٰ مكاني ، وتعلم سرِّي وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيء من أمري ، وأنا البائس ، الفقير ، المستغيث ، المستجير ، الوجل ، المشفق ، المقرُّ ، المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، مَنْ خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذلَّ لك جسمه ، ورغم لك أنفه ، اللهم! لا تجعلني بدعائك شقياً ، وكن بي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين! ويا خير المعطين!**» .

واذكروا موقفه عليه الصلاة والسَّلام في بدر حين فزع إلى الله تعالىٰ في إنابة نبي ، وإلحاح عبد ، ودعاء مضطر ، وشفع لهذه العصابة في كلمات صريحةٍ ، واضحةٍ ، نيرة ، خالدةٍ ، هي تعريف لهذه الأمة ، وبيان لمهمتها وغرضها الذي خلقت له : لقد عدَّل رسولُ الله ﷺ الصفوف ، ورجع إلى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر ورسولُ الله يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول ما بعث المسلمون لأجله : «**اللهم! إن تهلك هذه العصبة اليوم لن تعبد في الأرض بعد اليوم**» .

أجاب الله دعاء الرسول ﷺ ، وقضىٰ بانتصار المسلمين على عدوهم وبقائهم ، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطاً بقيام حياة العبودية بهم وقيامهم بها ، فلو انقطعت الصِّلة بينهم وبين العبادة انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة ، ولم يبق لهم على الله حقٌّ ولا ذمَّة ، وأصبحوا كسائر الأمم ، خاضعين لنواميس الحياة وسنن الكون ، بل كانوا أقلَّ قيمة من الأمم الأخرىٰ ، إذا لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترط لهم ، وقال : ﴿ قُلْ مَا

يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ [الفرقان: ٧٧].

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط، وبروا بهذا العهد، وتذكروا أنَّهم إنما نصروا على عدوهم ـ وقد كاد يأتي عليهم ويستأصلهم في ساحة بدر ـ لأنَّ عبادة الله منوطةٌ بهم على أرض الله.

بهذه الرسالة انبثوا في العالم، وحملوها إلى الملوك، والسوقة، والأمم، وفي سبيل ذلك هاجروا، وجاهدوا، ولأجل ذلك حاربوا، وعاهدوا ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعوثون من الله إلى الأمم، وحاملو راية الإسلام في العالم.

بهذه الرسالة الخالدة سار أصحاب رسول الله ﷺ، فكانت كلمتهم حقيقةً، وكان إيمانهم حقيقةً، وكانت صلاتهم حقيقةً، ونحن اليوم متجردون عن هذا الحقائق كلِّها.

أما سمعتم عن قوة إيمان خُبيب ـ رضي الله عنه ـ حين رفع على الخشبة، وتناوله المشركون بالرماح والأسنة حتى تمزق جسمه، وهو قائم لا يشكو، ولا يئنُّ، فيقال له: أتحبُّ أن يكون محمد مكانك؟ فيضطرب ويقول: والله لا أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه...

إنَّ الذي ثبَّت خبيباً في هذا المكان، وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة في حبِّ الرَّسول هي حقيقة الجنة التي مثلت بين عينيه وهي تناجيه: «**صبراً يا خبيب! فما هي إلا لمحات وثوان، وها أنذا أنتظرك، ورحمة الله ترتقبك، فإذا احتملت آلام هذا الجسد الفاني، والحياة الزائلة العابرة؛ نلت السعادة الدائمة، والحياة الباقية**».

ومثل قصة خبيب في تاريخ الإسلام كثير.

فهذا صهيبٌ ـ رضي الله عنه ـ حين كان في طريقه من مكة مهاجراً إلى المدينة؛ إذ يعترضه جماعةٌ من المشركين ويقولون له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك!! والله! لا يكون ذلك أبداً.. وهنا قامت المعركة بين حقيقة الإسلام وحقيقة المال، فانتصرت حقيقة الإسلام، وقال لهم صهيب:

أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلُّون سبيلي! قالوا: نعم! قال: فإني قد جعلت لكم كلَّ مالي! وهكذا انطلق صهيب بدينه متجرداً من ماله، فرحاً مسروراً، كأن لم يفقد شيئاً، ولم يخسر شيئاً.

وكذلك خرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة فلما رآه رجالٌ من بني المغيرة؛ قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟؟ ونزعوا خطام البعير من يده، وأخذوها منه، وأخذ بنو عبد الأسد ولده الصغير سلمة. وهنا اصطدمت حقيقةُ الإسلام بحبِّ الزوج والولد، فما لبثت أن انتصرت عليه، وغادر أبو سلمة زوجه وولده تحت رعاية الله، وهاجر وحيداً... أين نحن من هذا؟! أين نحن ممن يقدر على ترك الزوجات والأولاد في سبيل العقيدة والدين؟ لقد سمعنا أن أناساً قد ارتدُّوا عن دينهم في سبيل المال والأزواج والأولاد وغير ذلك من متع الدنيا وزخارفها.

تلك كانت عدة الأنبياء عليهم السلام، وعلى هذا السنن نهج أصحابه رضوان الله عليهم، فامتازت دعوتهم بتقديم الدعاء مع قوَّة الإيمان وحقيقة الإسلام الماثلة أمامهم، وامتازت دعوتهم وجهادهم في سبيلها بطابعهما الروحي والإيماني، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصَّلاة، وقال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ولا شك أنَّ مهمة الدعوة أعظم من أن يضطلع بها الإنسان بقوته الجسدية، وعدته المادية، وكفايته العلمية والعقلية، فهو لا يستقلُّ بها إلا بالقوَّة الروحية، ونصر الله، ومعونته، وتأييده.

(٢) امتازت دعوة الأنبياء وجهودهم بتجرُّدها من التفكير في المنافع المادية، والثمرات العاجلة، فكانوا لا يبتغون بدعوتهم وجهادهم إلا وجه الله، وامتثال أوامره، وتأدية رسالته، فقد تجرَّدت عقولهم وأفكارهم في العمل للدنيا، ونيل الجاه، والحصول على الحكم، هذا الحكم الذي ما قام لهم في وقته إلا ليكون جائزةً من الله، ووسيلةً للوصول إلى أهداف الدين، وتنفيذ أحكامه، وتغيير المجتمع، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن

مَكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] ولم تكن هذه الحكومة التي أقاموها غاية من غاياتهم، أو هدفاً من أهدافهم، إنما كانت نتيجةً طبعيةً للدَّعوة والجهاد، كالثمرة التي هي نتيجة طبعية لنمو الشجرة، وقوة إثمارها.

وهكذا بعث محمد ﷺ فدعا الناس إلى الإسلام، فالتف حوله ﴿فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥]، وكان أولئك الفتية هدف كل قسوة، وظلم، واضطهاد، وبلاء، وعذاب، وقد قيل لهم: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣]، فصمدوا لكل ما وقع لهم، وثبتوا وقالوا: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢] حتى أذن الله في الهجرة، ولم تزل الدعوة تشق طريقها، وتؤتي أكلها، حتىٰ قضىٰ الله أن يحكم رجالها في العالم، ويقيموا القسط، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فقد عرف عنهم أنهم إذا تولوا وسادوا ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

وهكذا جاءت الدَّعوة بالحكومة كما تأتي الأشجار بالفاكهة والثمر، فلم تكن هذه الحكومة إلا ثمرةً من ثمرات الدَّعوة، ولم تكن هذه العزَّة والقوة إلا نتيجة ذلك العذاب الذي تحمَّلوه من قريش وغيرهم، وذلك الهوان الذي لقوه في مكة وغيرها.

٣ ـ ومما امتازت به حياة الأنبياء عليهم السلام وسيرتهم النبوية المثابرة على الدَّعوة، والصبر عليها، فلا يتخطون هذه المرحلة التي هي الأساس بسرعة وعجلة، ولا يطفرون منها طفراً إلى مرحلةٍ أخرىٰ، بل يقضون فيها

سنين طويلة ، ولا يشتغلون بغيرها ، ولا يطمئنون إلى أنَّ المجتمع قد عقل دعوتهم ، واستساغها ، وأنَّ النفوس قد قبلت دعوتهم ، وهضمتها هضماً صحيحاً ، وأحلَّتها منها محلاًّ لائقاً ، لا يطمئنون إلى كل هذا حتى يتحققوه ، ويختبروه مرَّة بعد مرة ، فلا يخدعون عن أنفسهم ، ولا تغرُّهم بهرجة الكلام ، فإذا قامت الحكومة ؛ قامت على أساس متين من الأخلاق ، وعلى أكتاف رجال أقوياء : أقوياء في عقيدتهم ، أقوياء في سيرتهم ، أقوياء في خلقهم ، أقوياء في عبادتهم ، أقوياء في سياستهم ، لا يندفعون مع التيار ، ولا يلعب بعقولهم الغنىٰ بعد الفقر ، واليسر بعد العسر ، والقوة بعد الضعف ، ولا تستهويهم المطامع والمنافع هكذا كان شأن الخلافة الراشدة ، وهكذا كانت سيرة الخلفاء الراشدين ، فقد تأسَّست دولة الإسلام ، وفتحت فارس ، وبلاد الروم ، والشام ، ونُقِلت إلى عاصمة الإسلام ـ المدينة المنورة ـ كنوزُ كسرىٰ وقيصر ، وانصبت عليها خيرات المملكتين العظيمتين ، وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين وزخرفها ما لم يدر قطُّ بخلدهم ، قد انقضىٰ على إسلامهم زهاء ربع قرن فقط ، وهم في شدَّةٍ ، وجهدٍ من العيش ، وفي خشونةٍ من المطعم والملبس ، لا يجدون من الطعام إلا ما يقيم صلبهم ، ولا من اللباس إلا ما يقيهم البرد والحر ، فإذا بهم اليوم يتحكمون في أموال الأباطرة والأكاسرة ، ولو أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرىٰ ، وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت والله هذه محنة عظيمة تزول فيها الجبال الراسيات ؛ ولكنَّهم سرعان ما فطنوا أنَّهم ما وقفوا بين الفقر والغنىٰ فحسب ، بل إنهم خيِّروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم ، وإمامتهم ، ومبادئهم ، وينفضوا منها يدهم ، فلا يطمعوا فيها أبداً ، وبين أن يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين وحملة الدعوة المؤمنين المخلصين .

كان لهم أن يؤسسوا ملكاً عربياً عظيماً على أنقاض الدولة الرومية ، وينعموا كما نعم ملوكها وأمراؤها من قبل ، فقد ورثوا الإمبراطوريتين ، وجمعوا بين موارد دولتين ، فإذا كان كسرىٰ يترف بموارد فارس فقط ، وإذا

كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكن أن يترف بموارد الإمبراطوريتين ، ويبذخ بذخاً لم يبذخه أحد من قبل.

كان له ولأصحابه كل ذلك بسهولة ، ولكنهم سمعوا القرآن الكريم يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] وكأنهم يسمعون نبيهم ﷺ يقول قبل وفاته: «**لا الفقر أخشىٰ عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتهلككم كما أهلكتهم**» فهتفوا عن آخرهم قائلين:

اللهمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وهكذا حافظوا على روح الدَّعوة الإسلامية ، وسيرة الأنبياء والمرسلين ، وعاشوا في الحكومة كرجال الدعوة ، وفي الدنيا كرجال الآخرة.

٤ ـ ومن مزايا الأنبياء والدعاة إلى الله التجرُّدُ للدعوة ، والتفرغ لها بالقلب والقالب ، والنفس والنفيس ، والوقت والقوة ، فمن شأنهم أنهم يركزون جهودهم ومواهبهم ، ويوفرون أوقاتهم وقواهم لهذه الدعوة ونشرها ، والجهاد في سبيلها ، ويعطونها ، ولا يضنُّون عليها بشيءٍ ، ولا يؤثرون عليها شيئاً ، لا وطناً ، ولا أهلاً ، ولا عشيرةً ، ولا هوىً ، ولا مالاً ، ثم قد تثمر بعد حياتهم ، فهذا هو النبي ﷺ يخاطبه ربه بقوله: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦] وإذا كان هذا شأن الدعوة بعد ما أعطاها الأنبياء كل ما عندهم ، فكيف بها إذا أعطيناها بعض ما عندنا؟! وكانت الدعوة تملك عليهم عقولهم ومشاعرهم ، وتملك عليهم تفكيرهم وصحتهم ، فما زال القرآن يسلي النبيَّ ﷺ ، ويقول له: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

٥ ـ ومن مزايا الأنبياء عليهم السلام ومن كان على طريقهم في الدَّعوة إلى الله وإلى الدار الآخرة ، أنَّ هذه الدعوة تسري في حياتهم كما يسري الدم في العروق ، وتظهر في أخلاقهم وعباداتهم ، فترق قلوبهم ، وتخشع

نفوسهم ، وتزداد رغبتهم في العبادة ، ويشتد اهتمامهم بها ، وحرصهم عليها ، وإيفاؤهم لحقوقها ، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتىٰ تورمت قدماه فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً!!**» وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلةً ، والآية هي: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] وانتقلت هذه اللذة بالعبادة والاهتمام بها إلى الصحابة رضي الله عنهم في أشد الأوقات شغلاً ، وأقلقها خطراً ، حتىٰ كان أعداؤهم يعرفون ذلك عنهم ، وقد وصفهم رجل من الروم بقوله: (هم فرسان بالنهار ، رهبان بالليل).

٦ ـ ومن مزايا الأنبياء عليهم السلام ومن كان على سننهم أنَّهم يأخذون بالعزيمة في الدين ولا يأخذون بالرُّخصة ـ إلا بياناً للحكم الشرعي ، وشكراً لنعمة الله ، ورفعاً للحرج عن الأمة ـ ولا يعفون أنفسهم ، ولا يتساهلون في العبادات ، لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم قادة الأمة يشمرون عن ساق الجد في العبادات ، والمحافظة على الجماعات ، والعمل بالسنن الدقيقة ، والاهتمام بالآداب ، ولا يكتفون بالأدنىٰ ، ولا يقفون عند الفريضة ، وبذلك استطاعوا أن يورثوا الدين هذا الجيل موفوراً غير منقوص ، وهو أمانة عند هذا الجيل ، فلينظر كيف يورثه الأجيالَ الآتية.

٧ ـ ومما يمتاز به الأنبياء والمرسلون: أنَّهم يعنون بتربية النفوس والأشخاص الذين يضطلعون بأعباء الدعوة بعدهم ، وينفذون تعاليمهم ورسالاتهم علماً وعملاً ، ومعلوم أنَّ دعوتهم العظمىٰ لا تقوم إلا علىٰ أكتاف الأصحاء الأقوياء الحنفاء المخلصين في إيمانهم ، والمخلصين في تفكيرهم ، والمخلصين في نياتهم ، الذين قد تنقت رؤوسهم وصدورهم من ألواث الجاهلية ، والذين هضموا الإسلام هضماً صحيحاً ، وانقطعت كلُّ صلةٍ في حياتهم عن الجاهلية بأوسع معانيها ، وخلقوا في الإسلام خلقاً جديداً.

كذلك الدعوة الإسلامية التي تكفلنا بها والجهاد الذي أخذناه على عاتقنا

يفرض علينا إنشاء جيلٍ جديدٍ للإسلام ، جديدٍ في قوة إيمانه ، جديدٍ في حماسته وثقته ، جديدٍ في أخلاقه ، جديدٍ في تفكيره وعقليته ، جديدٍ في كفايته العلمية واستعداده العقلي ، وأن نجاحنا في هذا الإنتاج البشري مقياس نجاحنا في مهمتنا ، ودعوتنا ، فكلَّما كان نجاحنا كبيراً في إيجاد هذا الجيل ، وتكوين هذا الشباب كان نجاحنا باهراً في دعوتنا ورسالتنا ، ومعلومٌ أنَّ إنشاء الجيل الجديد أو تقويم الجيل المعاصر الذي ـ لم يفقد صلاحيته ونموه ـ ليس بالأمر الهيِّن ، إنها مهمة لتنوء بالعصبة أولي القوة ، إنها تحتاج إلى تكريس الجهود ، وتركيز القوىٰ علىٰ هذه الغاية ، والتفكير العميق الواسع والتعاون الشَّامل ، والتصميم الحكيم ، إنها تطلب أساليب التربية الحكيمة العميقة الأثر ، وجهوداً عملية في ميدان الدَّعوة والإصلاح ، إنَّها تطلب حركة التأليف والإنتاج الواسعة ، ومقداراً كبيراً من الابتكار ، إننا سنبدأ في عمل جديد وجهادٍ جديدٍ يستغرق منا وقتاً طويلاً ، ويستنفد جهوداً عظيمة ، وذلك وإن كان عملاً شاقاً ، طويلاً ، متعباً ، مملاًّ ، متشعباً ، ولكن لا بدَّ من إنجاز هذا العمل ، ومن مواجهة هذه الحقيقة ، والتغلب على العقبات التي تعترض سبيلها .

هذه مزايا الدَّعوة النبوية وواجباتها ، وهذا ما تمتاز به دعوتنا عن الحركات القومية ، والإصلاحات الاجتماعية ، والثورات السياسية والاقتصادية ، ومن هذه المنابع تستمدُّ دعوتنا القوة والروح ، وتستحق من الله النصر ، وتجلب الرحمة ، فلنحافظ عليها محافظتنا على الشعائر والعقيدة ، ولنحرص عليها حرصنا على الحياة والقوة .

إننا أمة الحاضر ، وأمة المستقبل ، قد كتب الله لنا الخلود والنصر ؛ لأننا أصحاب دعوة ورسالة نبوية ، وهي الرسالة الأبدية التي قضىٰ الله بخلودها ، وظهورها ، فلسنا تحت سيطرة المادة وحكم الزمان بشرط أن نقوم بدعوتنا ، ونستقل برسالتنا ، ونعود أمة دعوة نبوية كما بدأنا ـ دعوة فيما بيننا معشر المسلمين ، ودعوة في غيرنا من الأجانب في الدين ـ .

لقد انتشر أسلافنا في عواصم الجاهلية الأولىٰ ، ومراكزها الكبرىٰ

يقولون: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فخلَّصوا الأمة الروميَّة ، والأمَّة الفارسية وغيرهم من الأمم من عبادة غير الله ، والعالم اليوم ينتظر منه زمان رسل المسلمين ، ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية ليهتفوا: الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس ، والأثرة ، والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة ، والإيثار ، والزهد ، ونعيم الروح ، وطمأنينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية إلى عدل الإسلام.

هذه هي الدعوة التي تهيب بنا ، وهذه الإنسانية البائسة تستصرخنا ، وتستغيثنا على أعدائها ، وليس العالم اليوم بأقل ظمأ وأقل فاقة إلى الدَّعوة الإسلامية الصحيحة منه بالأمس ، وهو لا يختلف عمَّا كان عليه في القرن السادس الميلادي، فقد ضاق العالم بالأمم والحكومات، وفاض بالحركات ، والدعوات ، وضجر بطغيان الأهواء والنزعات ، والدعوة إلى الله هي الناحية الوحيدة التي لا تزال فارغة في خارطة العالم ، لا تشغلها أمة ، ولا دعوة ، فإذا عمرها المسلمون؛ أحسنوا إلى الإنسانية وإلى أنفسهم ، وأمسكوا هذا العالم المتمدن الذي يكاد يهوي في الهاوية.

* * *

لا بدَّ من التخطيط وإصلاح الأوضاع[1]
درس من أفغانستان واليمن

لقد أصبحت الأقطار الشرقية ـ من غير استثناء تقريباً ـ فريسة الحضارة الغربية في الزمن الأخير ، وانجرفت في سيلها العارم من غير امتناع ، أو مقاومة؛ لفقدان العقل الراجح المتزن في القيادة ، وفقدان عملية التمييز والاختيار المحكمة في الوجهين ، وعدم وجود التصميم أو التخطيط الحكيم في نظام المعارف ، وتنظيم البلاد تنظيماً جديداً قائماً على التجارب الحديثة ، ولسبب وجود نظم وأوضاع كانت نتيجة الانحراف عن التعاليم الإسلامية الصحيحة ، لا يقرُّها العقل والعدل ، ولا تصلح للبقاء في أيِّ عصرٍ من العصور فضلاً عن هذا العصر القلق الثائر. وهذه قصة أفغانستان التي عرفت في الشرق بشدة محافظتها وتمسكها بالقديم والتقاليد الأفغانية القديمة ، فقد استطاعت أن تعيش بعيدة عن تأثير الحضارة الغربية محتفظةً بتراثها القديم من ثقافة ، واجتماع ، تزهد في الجديد الصالح ، حتى رفعت الحجاب بينها وبين الحضارة أخيراً ، بدأت تهجم على الحضارة الغربية ، وعاداتها ، وتأخذها بنهامة وشغف.

وقد حدث هناك ثورة في الأوضاع في خلال ٣٢ سنة فالمجتمع الأفغاني الذي ثار على «أمان الله خان» الأمير العريق في الملك والشرف لأجل إصلاحات وتطويرات قام بها ، حتى اضطرته تلك الثورة إلى التنازل عن

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثاني ، المجلد التاسع ، عام ١٩٦٥ م.

العرش والجلاء الدائم ، أصبح هذا المجتمع الأفغاني! يقبل إلى المدنية الحديثة وأوضاعها المخالفة للتقاليد الإسلامية الأفغانية بخطىٰ سريعة واسعة ، وأصبحت أفغانستان المحافظة المصونة تتطور تطوراً سريعاً لا يعرف أحد مداه ونهايته ، ويستطيع الإنسان أن يقدر ذلك بما نقدمه من تقرير أحد الصحفيين الأوربيين ، يقول المراسل الأوربي الشهير (Kitchie Colder) لتايمز آف انديا (Times of India) الذي حضر عيد الاستقلال الأفغاني في عام ١٩٦٣ م ، في عددها الصادر ٢٨ يوليو ٦٣ م: «. . . . إنَّ الألعاب النارية الواسعة النطاق (التي لم أرها في أفغانستان من ذي قبل) كانت تثير هتافات وتصفيقات نصف مليون متفرج ، وهكذا كانت أفغانستان تحتفل بأسبوع عيد استقلالها ، وقال لي وزير خارجية أفغانستان (الذي كان بجواري على المقاعد الملكية على شاطىء البحيرة ، حيث كانت الألعاب النارية متواصلة مستمرة): إنك لم تحسن اختيار الوقت الذي تزور فيه هذه البلاد ، نحن نحتفل الآن بعيد الاستقلال ، ونحن في متعة وفرح لا نستطيع أن نتحدث معك عن تفاصيل مشاريعنا التقدمية لخمس سنوات».

قلت له: «**لا يا صاحب المعالي! إنها فرصة حسنة لائقة ، وهي أفضل مناسبة لاختبار مآثر بلاد ومدىٰ تقدمها ، إنني أريد أن أرىٰ السيدات الأفغانيات باسمات ، وهنالك تقدمت إلينا فتاة أفغانية جميلة ، وابتسمت**».

إنَّ ذلك يلقي ضوءاً علىٰ مدىٰ التطور الذي نشأ في أفغانستان أقوىٰ من الأضواء التي تنير «كابل» بالتخطيط الكهربائي ، ومن مبانيها كلها ، والصناعات الحديثة ومن الرقي المادي كله.

كانت نساؤها متمسكات بالحجاب قبل ثلاث سنوات ، وإن سمح لهن أن يخرجن لمثل هذه المناسبات ، فكن يأتين إليها متغطيات بالملاءة والأردية التي تغطيهن من الأرجل إلى الرؤوس ، ويخفي وجوههن القناع الذي فتحت فيه ثقوب للنظر.

ولكن الآن تغير كل شيء ، يشاهد اليوم عدد كبير من النساء اللواتي يشهدن الحفل متسترات بالأقنعة التي تميزهن ، ولم يتعودن إلى الآن أن

يكشفن وجوههن بحرية وانطلاق ، ولكن الأغلبية الساحقة من النساء أصبحن سافرات .

يعسر على الذين يسكنون خارج أفغانستان أن يقدروا مدىٰ تأثير هذا التطور على نساء الأفغان ، قد خلع العلماء الملك «أمان الله خان» وحرم عرش آبائه قبل ٣٢ عاماً لأنه سمح لعقيلته بأن تخرج سافرة .

ويصح أن يقال إنَّ إلغاء الحجاب السائد في المجتمع إنما جاء عن طريق نظام القابلات ، ودور الولادة الطبية ، عندما حلت الدكتورة أنا ميريا جيد (Anna Mariagade) (وهي الآن رئيسة المركز الإقليمي لدائرة الصحة الدولية بدهلي) أفغانستان من دانمرك قبل عشر سنين ، ولم تكن هناك في ذلك الحين طبيبة للتوليد ، وكان في أفغانستان كلها مئة وعشرون طبيباً ، وكلهم كانوا رجالاً ، ولم يسمح لطبيب أن يفحص النساء ، ولم تكن القابلات المحلية يعرفن بتاتاً طرق المعالجة الحديثة .

بدأت الدكتورة «جيد» تربي النساء على القبالة وتعلمهن ، وكانت تشترك فيه سيدات الأسرة الملكية أيضاً ، وأقيمت مراكز التوليد والصحة ، وبدأت ترد عليها النساء المتحجبات كثيراً ، ولم يتمتعن هناك بفوائد جسمية وصحية فحسب ، بل نشأ بذلك تطور ثوري ، وتغير جذري في التفكير ، وأساليب الفكر ، والنظر ، بل عرفن بعد الاجتماع مع الطبيبات والقابلات أنَّ النساء يستطعن أن يكسبن أرزاقهن أيضاً بهذه المهنة كالرجال، واسترعت هذه المراكز الطبية انتباه المريضات إلى خطورة شخصياتهن ، وشعرن أنهنَّ لسن من أثاث المنازل الذي يبقىٰ في زوايا البيت ، ولا يرىٰ ضوء الشمس .

قد أسست اليوم مستشفيات راقية ممتازة لهؤلاء النساء ، وألقيت مسؤولياتها وإدارتها على كواهل نساء أحرزن شهادات عالية ، يتمسكن بقوانين الصحة ، وأسسها القوية الحسنة ، وبغاية من النظافة والأناقة ، ويراعين تلك التقاليد التي تركتها الدكتورة جيد ، ويرتبطن بها ارتباطاً وثيقاً .

بدأت نساء الأفغان يخرجن سافرات من آب (أغسطس) ١٩٥٩ م سمح

بمنشور ملكي للنساء السفور ، ولم يفرض ذلك عليهن فرضاً ، سألت السيدة معصومة الكاظمي التي كانت قد تخرجت من جامعة كابل بشهادة الليسانس الداخلية في الطب ، وكانت صورةً حية للظرف ، وخفة الروح ، مليئة بالحياة ، ماذا فعلت بعد صدور هذا المنشور؟

قالت: إنني وأختي طرحنا الملاءة ، وأردية القناع في التنور ، وسجرناها ، وحلفنا أننا لا نرجع إليها أبداً ، إنَّ معصومة وأختها فيروزة ابنتا صاحب مصرف ، وإنهما ستكملان دراستهما الطبية وتحرزان شهادة الدكتوراه في الطب في سنة ١٩٦٥ م ، وسيتخرج الفوج الأول للطبيبات بعد إنهاء مناهج الطب لسبع سنوات عام ١٩٦٤ م.

ويوجد التعليم المختلط في جامعة أفغانستان اليوم ، وكانت الطالبات في السابق ، يأتين متغطيات بالأردية والملاءة الساترة ، يدرسن في الصفوف المستقلة المنقطعة عن الطلاب ، والدراسة والتربية في الجامعة مجانية ، تدفع الحكومة الرسوم الجامعية والكتب والملابس والأطعمة ، ويتخرج عدد كبير من الطالبات من الجامعة ويعين معلمات في الجامعة ، والجامعة الآن في حاجة ماسة ملحة إلى الأساتذة الرجال والنساء؛ لأن الدراسة في الجامعة تعتمد إلىٰ حد كبير على الأساتذة الأجانب». وتكاد تكون هذه قصة اليمن ، وجميع الأقطار الإسلامية التي أقامت حولها سوراً عالياً يمنع من دخول كل جديد ، من العلوم المفيدة والتنظيمات الصَّالحة ، والوسائل البريئة ، وطرق ترفيه الشعب ، وتقوية البلاد عسكرياً ، وصناعياً ، وتموينياً.

وتقدر إلى حد حالة اليمن ، ومشاريعها التقدمية ، ونظمها الإدارية الداخلية ، وعلاقاتها الدولية ، وسيرها في مضمار الحياة الراقية الحديثة إلى عام ١٩٥٥ م من المعلومات التالية التي التقطها المشرف على ركن الشؤون العربية في الصحيفة السيارة «روز اليوسف» الأسبوعية المصرية «الأستاذ ممدوح رضا» في مقابلة صحفية مع نائب وزير خارجية اليمن السيد محمد عبد الله العمري ، ونشرتها الصحيفة في عددها الصادر في ٧ من

فبراير (شباط) سنة ١٩٥٥ م محادثة جرت بينهما ، ونصل منها إلى الحقائق التالية:

«ولم يجر في اليمن إحصاء عام منظم إلى عام ١٩٥٥م ، وكانت وسائل الدخل مقصورة على الضرائب والجمرك ، وكانت الزراعة وحدها وسيلة العيش والحياة لسكانها ، وكان للري طريقان اثنان فحسب: الأمطار والآبار ، وكانت ميزانية البلاد السنوية خمسة عشر مليون جنيه ، وكان رصيد البلاد وثروة الإمام الخاصة لا يتجاوز ٨٠ مليون جنيه.

ولم تكن شوارع في البلاد عامة ، وفتح شارع طويل يمتد ١٢٠ كيلومتراً بين البلدين «مخا» و«تعز» قبل زمن يسير ، ولم يكن تاماً مبلطاً إلى سنة ١٩٥٥ م.

وكان ستمئة كتَّاب في البلاد ، وكانت مدارس ابتدائية في جميع المدن ما عدا هذه الكتاتيب ، والمدارس الثانوية في تعز ومخا وحديدة ، وكانت للجيش أنواع ثلاثة ، والعسكر الذي كان يؤدي خدماته يتكون من ستة ضباط ، والعسكر الثاني الذي ترك بعد التدريب للاحتياط والأعمال العرفية كان يتكون من ١٤ ضابطاً ، وكان عشرون ألف جندي من القبائل المختلفة ، والحيوانات هي الوسيلة الوحيدة للمواصلات ، وكانت بعض السيارات الخاصة في البلاد ، ولم تكن أية طائرة عسكرية ، وكانت إحدىٰ عشرة طائرة فحسب ، بينها ثلاث طائرات من قسم «داكوتا» ولم يكن فندق ، ولا مطعم في البلاد ، ولا معمل ولا الشرطة ، وقد اتفقت الحكومة مع بعض الشركات الأوربية للتنقيب عن الفحم ، والبترول ، والزيت.

إن هذا الانحطاط والتخلف للبلاد والظروف الدنيا المحيطة بها ، ونهضة البلدان المجاورة لها اضطرت الحكومة أن تأخذ ببعض أسباب الرقي والتطوير والإصلاح ، وكان لذلك سبيل واحد هو المساعدات من البلاد الراقية ، فاتفقت حكومة اليمن مع الاتحاد السوفيتي وجمهورية الصين الشعبية بمعاهدات مختلفة ، ومنحت تلك الدول حكومة اليمن قروضاً ضخمة ، تولت مسؤوليات بعض المشاريع الإنمائية الخطيرة ، ولذلك

قبلت الصين عام ١٩٥٨ م على إثر معاهدة أن تدفع لليمن سبعين مليوناً من الفرنك السويسري ، بدون الربا والمنافع ، وتنفق في المشاريع التالية :

١ ـ فتح شارع بمسافة ٥٠٠ كيلومتر يصل حديدة بصنعاء .

٢ ـ تأسيس معمل سكر .

٣ ـ تأسيس معمل للأسماك المجففة .

٤ ـ تأسيس معمل للأقمشة .

٥ ـ تأسيس معمل للزجاج .

لم يكن مصير هذا التخلف والبعد عن الركب النشيط المتحرك السائر (الذي لم يكن مؤسساً على المشروع والتخطيط المحكم ، ولا منبعثاً من الثقة والعاطفة الدينية ، ولكن من الكسل ، والفتور ، والجهل الذي خيم على هذه البلاد المنجبة الغنية زمناً طويلاً) إلا أن يفتح هذا الباب المغلق على مصراعيه بفعل العواصف والتيارات الجارفة ، فلا يميز بين الصالح والطالح ، والحابل والنابل ، وبين القشور واللباب ، ويجرف تيار الحضارة الحديثة والنظام الجديد بمحاسن النظام القديم ، والأفكار الصالحة والقيم السليمة ، ويصاب اليمن (الذي كان يسمىٰ «اليمن الميمون» وشهد بقوة إيمان أهلها ، وحكمتهم الدينية ، اللسان النبوي الصادق بكلمات يغبط عليها اليمنَ كلُّ قطرٍ وكلُّ بلد إسلامي ، فقال في مناسبة قدوم وفد من اليمن : «أتاكم أهل اليمن ، أرقُّ أفئدةً ، وألين قلوباً ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية». يصاب هذا البلد العريق في الإيمان والحكمة والعلوم الدينية بالاضطراب الفكري والخلقي ، والسياسي ، ويصبح ضحية الاشتراكية ، ويقدم الأجانب لحياته مشاريع جديدة .

وقد أبدىٰ مؤلف هذا الكتاب قبل أن تحدث هذه الثورة في أوضاع اليمن بإحدىٰ عشرة سنة تخوفه ، وإشفاقه من هذا المصير الذي سار إليه اليمن أخيراً ، في حديث جرىٰ بينه وبين سعادة القاضي محمد عبد الله العمري وكيل وزارة الخارجية اليمنية ، وذكر له الطريق المتزن المتوسط الذي يجب أن يسلكه اليمن في الاقتباس من الحضارة الغربية ، والذي يستطيع وحده أن

ينقذ البلاد من التطرف المتهور الذي وقعت فيه الأقطار الإسلامية الأخرىٰ ، وكان هذا الحديث في فندق قصر الجزيرة في القاهرة في يوم ١٣/ ٢/ ٥١ م وهنا ننقل قطعة من كتاب «مذكرات سائح في الشرق العربي» للمؤلف :

يقول الكاتب في مذكرة يوم الثلاثاء ٧/ ٥/ ٧٠هـ ١٣/ ٢٠/ ٥١ م بعد ما يذكر لقاءه لسعادة وكيل وزارة الخارجية اليمنية وما جرىٰ بينهما من تحية ، واحتفاء ، وحديث تمهيدي ، قلت لسعادته :

إنَّ الأقطار العربية قد أصبحت لا تملك من أمرها شيئاً ، فهي مندفعة مع التيار الغربي وليس لها الخيار ، أما اليمن فلا يزال على اختياره ، ولا يزال يملك أمره ، فأرجو أن لا يستعجل ، ولا يتهور في الاقتطاف من الحضارة الغربية ، ونظم تعليمها ومنهج حياتها ، ولا يتساقط عليها تساقط الظمآن على الماء ، أو الفراش على النور ، فيختار منها ما يوافق حياته ، ودينه ، وطبعه ، ورسالته ، ويدع فضولها وشرورها ، وقد عاش اليمن في العزلة عن العالم ، وهو يعتقد أنه تخلف عن الركب ، فأخاف أن يستعجل السير ليلحق بالقافلة ، فيعثر ، أو يضل الطريق ، ويقع ما لا يمكن تداركه ، ولا تقال عثرته .

قلت : دعامة الحياة الصحيحة عندي في البلاد الإسلامية : وجود الشعور الديني الصحيح القوي في الشعب ، ولا يكون هذا إلا عن طريق الدعوة العامة ، والاتصال بالشعب ، وتربيته الدينية ، وإيجاد الوعي في طبقاته .

والدعامة الثانية : منهاج التعليم الصحيح ، والجمع بين العلم المأخوذ من الوحي والنبوة؛ الذي لا يتطرق إليه الخطأ ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو علم كل عصر ، وأساس كل حياة ومدنية فاضلة ، وبين العلوم الطبعية ، والمعلومات العصرية ، والتجارب ، والاكتشافات التي سبق إليها الغرب ، وانتصر بها على الشرق .

وأرجو أن يوفق اليمن للجمع بين هاتين القوتين ، وإذاً نرجو أن يكون له شأن غير شان الأقطار العربية الأخرىٰ؛ التي أصبحت لا إسلامية ، ولا أوربية .

وقد أبدىٰ مثل هذا الانطباعات مؤلف غربي (W .Erichbethmann) في كتابه «اليمن على العتبة» (Yemen on the threshold) وقد زار هذا المؤلف اليمن في عام ١٩٥٩ م بعهد الإمام أحمد عندما كانت أبوابها مغلقة للنهضات الجديدة، وقد أعرب هذا المؤلف عن فرحه وتخوفه بالكلمة التالية :

«إنَّ الناس هنا يبدون فرحين مستبشرين رغم أنهم لا يملكون كثيراً من مرافق الحياة ، ووسائل الترفيه ، ولا يحنون إليها كذلك ، وقد حاول المرحوم الإمام يحيىٰ والإمام أحمد الحالي(١) أن يظل الباب مغلقاً لكل جديد مع شعورهما بأن تيارات العصر الحاضر الجارفة ستُحدِث في حياة اليمن التي اعتادتها كثيراً من التطوير الذي يأتي بنتائج خطرة ، ونجحاً فيه إلى حد كبير ، ولكن يشك في أن تبقىٰ هذه الأوضاع إلى مدة طويلة .

إنَّ العصر الحديث يقرع أبواب اليمن ، وقد دخلت الطائرات والسيارات ، والهاتف ، والإذاعة والأضواء الكهربائية في البلاد ، وستصلها الأشياء الأخرىٰ على إثرها ، وسيحدث هذا الاصطدام تبلبلاً عظيماً ، وستدخل مرحلة انتقالية ، ولا ندري أن هذه المرحلة ستمرُّ بدون اضطراب ، أم تنشيء في البلاد الفوضى والقلق؟ يعتمد ذلك إلى حدٍّ كبير على السبيل التي يختارها ، والخطوة التي يخطوها اليمن لتأليف حكومة على طرازٍ جديدٍ ، تكون مؤسسة على التنظيم الاقتصادي العصري ، يجب أن تقطع هذه المرحلة الانتقالية تدريجياً ، وتحتاج إلى حكمة بليغة وبصيرة نافذة ، وأن تكون الخطوات البدائية متزنة ، وأن تكون الطرق التي تتخذ لتقدم البلاد سليمة مستقيمة» .

وبعد ما يذكر المؤلف المشاريع، والنظم، والتطورات الجديدة الرئيسية الهامة التي يتخذها اليمن لتدعيم البلاد ، ويتحدث عن الخبراء الفنيين الذين يستطيعون أن يقدموا لبناء البلاد القويم المحكم وترقيتها اقتراحات صحيحة مخلصة يدعو إلى الانسجام السليم بين الروحية والمادية ونهضة البلاد

---

(١) قد توفي أيضاً رحمه الله .

المقتصدة؛ الذي كان متوقعاً من مفكر مسلم شرقي أكثر من عالم غربي ، فيقول :

«لا ريب أن اليمن سيحاول للرفاهة والسعادة نطاق الاقتصاد محاولة جادة ، ولكن يجب أن يكون ذلك مع المحافظة على التراث الديني والروحي القيم ، ولا يستطيع الرقي المادي وحده أن يداوي الأمراض الإنسانية ، وأن يمنح الإنسان السرور والطمأنينة بسرعة ، تجرب ذلك البلاد التي وصلت إلى القمة في الرقي والنهضة كل يوم بكل أسفٍ وحزن ، وحينما يحافظ على القيم الإنسانية الأساسية ، ويحتل التراث الديني والروحي مكانة مرموقة في ضمائر الأفراد (الذين تتألف منهم الأمة) يصبح الرقي المادي نعمةً كبرى ، وتثري كلُّ ناحية من نواحي الحياة.

إنَّ اليمن يصبح «جنة عدن» لبلاد العرب التي يعيش فيها الناس بكل طمأنينة وهدوء إذا احتفظ بحكمته البليغة ، وبتراثه الروحي الثمين ، واقتناء قدر من الرقي المادي الذي يحتاج إليه ، وينسجم مع حياته وظروفه ، ويستطيع أن يساهم اليمن بهذا الانسجام الحسن بين الحكمة والنهضة مساهمةً مقتصدة ليس في ترقية العالم الإسلامي فحسب ، بل في ترقية العالم كله على الجملة .

ولقد كان الوعي الإسلامي كافياً وكافلاً لإصلاح هذه الأوضاع ، ولكنه كان ضعيفاً ، أو مغلوباً على أمره ، حتى جاءت هذه الحضارة المادية الثائرة تنادي في شيءٍ كثير من الغلو والإسراف بالحرية والمساواة ، وتدعو إلى قلب الأوضاع القديمة مهما كانت ، فتفشى القلق والتذمر في هذا المجتمع ، وقوي الشعور ، وتضخم بفساد هذه الأوضاع ، وعدم صلاحيتها للبقاء ، وجاشت النفوس بالكراهة والثورة على الأوضاع القائمة مهما كانت عاقبتها ، وهذا سر ظهور الثورات العسكرية في الأقطار الإسلامية ثورة بعد ثورة ، وحكم عسكري على أثر حكم عسكري آخر .

* * *

الردَّةُ الفكريَّةُ أكبرُ خطرٍ على العنصر الإسلاميِّ(١)

الحمدُ لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى . أما بعد : فقبل أن أخوض في الموضوع وأتناوله بالبحث أتجاسر أن أقول : إنَّ الإسلام منذ زمن طويل يعيش على صلاحيته للبقاء ، وما أودع الله فيه من طاقات وجاذبية منقطعة النظير ، وعلى وضعه المعجز ورسالته السامية ، وعلى ما بينه وبين الطبيعة البشرية السليمة من صلة ونسب وتفاهم ، وهو الدين الوحيد الذي يتقدم ، وينتشر ، ويشقُّ طريقه إلى الأمام من غير حكومات تتبناه ، ومن غير مجتمع يمثله تمثيلاً صحيحاً كاملاً ، وهو يتقدَّم ، وينتشر بجهود فردية مبعثرة ، وطاقات شخصية منثورة ، وقد انتشر بسرعة غريبة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب عند المؤرخين ، ولا يزال يغزو منطقة بكراً ، ومجتمعاً حديثاً في إفريقية ، وآسيا ، وأمريكا ، وهو جدير بأن يفتح له مجالاً جديداً ، ويكسب لعروقه دماً فائراً جديداً ، ويضم إلى عبقرياته السابقة ـ التي استطاع أن يتقدم بها ركب العلم والمدنية ، ويبدع هذا الإبداع في مجال العلوم والآداب ـ عبقرية جديدة من الألمان واليابان إذا وجد لدعوته أفراداً وجماعات تتصف ببعض صفات الأولين ، وأحسنت فهم العقد النفسية ، والمشكلات الفكرية التي يعانيها هذان الشعبان المتدفقان بالحيوية والطموح والمواهب العظيمة، ووهبت لهذه الغاية التي قد تغير مجرى التاريخ حياتها ، ومواهبها ، وآمالها في الحياة ، ومطامحها في المستقبل ، كما

---

(١) قدَّم العلامة الندويُّ هذا البحث إلى لجنة الدعوة الإسلامية التابعة للمؤتمر الإسلامي العام لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة ، تحدَّث فيه عن كثير من المشكلات التي تواجه الدَّعوة الإسلامية ، وطرق علاجها ، نُشر هذا البحث في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها التاسع ، المجلد التاسع ، عام ١٩٦٥ م .

فعل الدعاة الذين أسلم على يد بعضهم التتار ، والأتراك على بكرة أبيهم ، وعلى يد بعضهم إيران ، وأفغانستان من أقصاها إلى أقصاها.

إنَّ الإسلام كدينٍ وشريعةٍ ليس له منافس من الأديان في الحقيقة ، وقد انسحبت جميع الديانات من مجال الحياة ومن ميدان الصراع العلمي ، وإنَّ قصة الصراع بين الدِّيانات ، بصفتها ديانات ، والمقارنة بين ديانة وديانة ، وشريعة وشريعة قصةٌ قديمة لا يعيدها ولا يهول شأنها إلا من يعيش في الدراسات القديمة ، وقد ضعفت مزاحمة هذه الديانات القديمة للإسلام في هذا المجال ، وفقد هذا الصراع سلطانه على النفوس والعقول منذ زمنٍ طويل إلا ما يثيره بعض المستشرقين في كتاباتهم وبعض (المبشرين) في دعوتهم من شكٍّ ، أو نقاش يبقى في نطاقٍ محدود من المثقفين والدارسين ، وقد وضعت الحرب أوزارها في الهند ، وفي كل بلد شرقيٍّ ، وبقي الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتحمَّس للدعوة ، ويصارع الإلحاد والمادية ، ويريد أن يهيمن على الحياة والمجتمع من غير أن يجد له منافساً من الديانات الأخرى ، ومن الدعوات الدينية الأخرى ، فلا خطر على الإسلام والمسلمين في الحقيقة من أيِّ دين من الأديان القديمة التي عارضت الإسلام في الزمن الماضي معارضةً شديدة ، أو صارعته في المجال العلمي والعقلي ، وقصة غزو هذه الديانات للمجتمع الإسلامي ، وتوسعها في الأقطار الإسلامية ، وتحديها للإسلام والمسلمين ، وإنَّ عدداً كبيراً منهم قد أصبح فريسة هذه الدعوات قصةٌ فيها شيءٌ كثير من المبالغة ، أو التشاؤم ، أو الانخداع ، ونرجو الله واثقين بنصره ، ونؤكد أنَّ مأساة الأندلس الدينية ، وقصة ردة شعبٍ بأسره من الشعوب الإسلامية لا تتكرر إن شاء الله.

وذلك لا يرجع إلى قوة المسلمين فحسب ، وتماسكهم أمام التيار ، وظهور فضل الإسلام علمياً وعقلياً في هذا العصر ، بل يرجع كذلك إلى تحوُّلٍ وقع في طبيعة أصحاب هذه الديانات ، وتغيُّر أساليب الإخضاع ، والتسخير.

إنَّ الخطر الأكبر على العنصر الإسلامي هو الردَّةُ الفكرية التي تحمل

بذورها ، وتقود ركبها التياراتُ الفكرية الحديثة ، التي تشتغل في المجتمع الإسلامي بكلِّ حرِّيَّةٍ ونشاط ، وهي لا تقلُّ في إقصاء هذا العنصر عن العقيدة الإسلامية ، والحياة الإسلامية ، والمزاج الديني ، والتفكير الديني عن أية ديانةٍ منافسةٍ للإسلام ، بل تفوق في ذلك كلَّ ديانة ، فإنها تجعل من يخضع لها ، أو يدين بها ثائراً على الدين ، ومعادياً له ، وعلى القيم الخلقية ، والمفاهيم الدينية كلِّها ، وتثير فيه الحماسة الشديدة ، ثم لا تثير هذه الردةُ استنكاراً في المجتمع الإسلامي ، أو قلقاً ، أو اضطراباً ، وقد لا تسترعي انتباهاً؛ لأنَّ صاحبها لا يعلن خروجه من الإسلام ، ولا يرجع إلى كنيسة ، أو معبد ، ولا ينضم إلى مجتمع آخر ، وهذه هي الردة التي غزت المجتمع الإسلامي ، وتوزعت الأسر الإسلامية حتى الدينية فيها ، وانتشرت في العالم الإسلامي انتشاراً فظيعاً ، ولولا الثقة بما وعد الله لهذه الملة من النصر ، ولهذا الدين من البقاء ، ولولا خلود هذه الرسالة؛ لجاز التكهن بأن هذه الأمة يمكن أن تكون في زمن من الأزمان كالشعوب الأوربية ، أو الشعب الياباني ، يغلب عليه الطابع اللاديني ، أو الطابع العلماني ، ويفقد الإسلام كل سيطرة على المجتمع ، وعلى الحكومة ، وعلى الثقافة والآداب ، وعلى التفكير ، وتفقد هذه الأمة ـ لا سمح الله بذلك ـ قيمتها ، ومركزها في الحياة والتاريخ ، وتفقد الإنسانية الأمل الأخير في العودة إلى الدين والإنابة إلى الله ، والرمق الأخير من حياة الروح ، ويقظة القلب ، وحسِّ الضمير ، وتواجه الأديان ودعوات الأنبياء كلهم النكسة التي لا نهوض بعدها ، وتواجه الإنسانية آخر مأساة من مآسيها الكثيرة.

إذاً يجب أن تعتبر الدَّعوة الإسلامية هذه التيارات الفكرية ، وهي المادية الطاغية ، والقومية المتطرفة ، والاشتراكية اللادينية ، والإباحية الفاجرة منافسها الحقيقي ، وأن تتخذها الجبهة الحاسمة التي تحشد لها قواها ، وطاقتها ، ومواهبها ، وأن تتقدم إليها بحدها وحديدها ، وتناضلها نضالاً مستميتاً حتى تدحرها على أعقابها ، وتقصيها من المجتمع الإسلامي الذي اقتحمته من غير حق ، واستولت عليه على حين غفلةٍ من أهله.

إن المجالات التي يجب أن تتجه إليها الدعوة الإسلامية لمحاربة هذه التيارات هي مجال الثقافة ، والتعليم أولاً ، المجال الذي أصبح مجال هذه التيارات الرئيسي ، ومفتاح انتصارها ، وقيادتها السِّحري ، الذي يفتح لهذه التيارات كل قفل معقد ، ويتوصل به إلى كرسي الحكم ، والقيادة ، وإلى مركز التوجيه ، والإشراف على الشعب والمجتمع ، ثم يليه مجال الأدب ، والكتابة ، والصحافة ، ومجال العلم ، والفلسفة ، والاقتصاد ، والسياسة ، وهي الزعامات التي احتكرتها ، واستولت عليها هذه التيارات ، وتنازل عنها زعماء الدعوات الدينية في عجزٍ ، وضعف ، وسقوط همة ، وسوء تقدير ، خلافاً لقادة الفكر الإسلامي ، وزعماء الإصلاح في العصر السابق ، الذين امتلكوا ناصية هذه الطاقات ، وتزعموها في عصرهم ، وتفردوا بتوجيه العلوم والآداب ، وقيادة الحركة العلمية والأدبية في عصرهم ، ولا تعود قيادة الجيل الجديد إلى الدعاة إلى الدين وإلى أنصاره إلا باسترداد القيادة الفكرية ، وإلا بالتسلح بالعبقريات الحديثة في مجال الفكر ، والعلم ، والأدب ، ولا يتحقق ذلك ، ولا يستطيع الإسلام أن يمثل دوره في الحياة ، ويمثل مركزه في العصر الجديد إلا بصياغة المعارض ، ونظام الثقافة صياغةً إسلاميةً جديدةً ، صياغة تقوم علىٰ أساس عقيدته ، وروحه ، ورسالته ، وطبيعة عمله في العالم ، وعلى التطورات التي يفرضها الزمان ، والمكان ، وأحداث التاريخ ، وارتقاء الفكر البشري ، وتعقد الحياة.

ويجب أن تحارب هذه التيارات محاربة علمية مجردة ، وأن تناقش في ضوء العلم ، والعقل ، والتجربة ، والواقع ، وأن يقوم دعاة الإسلام ، وعلماء الدين ، والباحثون الإسلاميون بواجبهم في هذا العصر ، كما قام الإمام أبو الحسن الأشعري ، وحجة الإسلام الغزالي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، أو حكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في عصورهم من دراسة المذاهب الفكرية الحديثة ، ونقدها ، والاستدلال للإسلام وفضله ، وأن تكون لذلك مجامع علمية ، يجتمع فيها رجال الاختصاص ، ويبحث في هذه الموضوعات ، ويؤلف فيها الكتب القيمة ، والبحوث النيرة التي

توازي المكتبة التي تكونت في هذا الموضوع في المعسكر المنافس دقة بحث ، وحصافة رأي ، وعمق دراسة ، وقوة استدلال ، وجمال أسلوب ، وتبرز هذه البحوث في مظهر جميل شائق.

وتستخدم لنشرها وإذاعاتها الوسائل الحديثة ، وإلا فإنَّا لا نستطيع أن ننقذ شبابنا الحائر المضطرب من التيار الثقافي ، أو (الصليبية) الثقافية التي تغزوه ، وتكتسحه اكتساحاً.

وتستطيع رابطة العالم الإسلامي بدورها أن تسهم في هذا الموضوع إسهاماً له قيمته وتأثيره ، فتستطيع أن تكوّن لهذا الغرض مجمعاً علمياً يختار له رجال الاختصاص في العالم الإسلامي ، يجتمعون على صعيدها في فترة تراها مناسبة ، وتنشر الرابطة هذا الإنتاج العلمي في لغات إسلامية متنوعة ، وفي بعض اللغات الأوربية ، وللرابطة أن تدرس هذا الموضوع وأن تتخذ له خطوات عملية إيجابية ، ومن أهم ما تحتاج إليه الدعوة الإسلامية إزاء هذه التيارات الفكرية هو وجود دعاة يتصفون بأفضل صفات الداعية الإسلامي ، فإنَّ الدعوة الإسلامية لا تقاس على المخططات السياسية ، وعلى الإرساليات المسيحية التي تعتمد أكثر من كل شيءٍ على التخطيط العلمي والبرنامج المدروس ، وعلى الوسائل المادية ، وعلى ما تسميه الجمعيات والمؤسسات اليوم (بالصندوق). إنَّ الدعوة الإسلامية لم تزل في كل زمان ومكان تعتمد أكثر من كل شيءٍ على الإخلاص ، وعلى التوجع للإنسانية ، والزهد في زخارف الدنيا ، والربانية العميقة التي لا قرار لها ، وإنَّ فراغ العالم الإسلامي الهائل هو قلة هؤلاء الربانيين ، وهم الذين وحدهم يستطيعون أن يداووا القلوب المريضة التي غزتها المادية ، وسيطرت عليها ، وأن يمسوا حبات القلوب وقراراتها التي لا يبلغ إليها الإشعاع ، ولا تراها أدق مكبرة في العالم ، وهم الذين يستطيعون أن يثبتوا بتمردهم على المظاهر الساحرة للنفوس ، وإفلاتهم من شبكات أصحاب السلطات والزعامات أنَّ هنالك عالماً آخر يفوق هذا العالم المادي في الجمال ، والبهاء ، وفي الإغراء ، والاستهواء ، وأنَّ هنالك حقائق ، وغايات قد يكون أثرها للنفوس ، وسيطرتها على القلوب أقوىٰ ، وأشدَّ من سيطرة

لذات هذه الحياة ، وما يتنافس فيه المتنافسون اليوم ، ولولا ذلك لما آثروا الآجلة على العاجلة والنسيئة على النقد ، وذلك ما حمل جبار بن سلمى على التساؤل والبحث عن هذا الدين ثم الإيمان به لما طعن رجلاً من المسلمين بالرمح بين كتفيه ورآه يخرج من صدره فخر صريعاً يتشحط في دمه ، وهو يقول: (فزت ورب الكعبة!) فتساءل في نفسه ما هو هذا الفوز يا ترىٰ؟ فإني أراه قد خسر كل شيءٍ ، وفقد رأس ماله ، وهو الحياة ، وانتهىٰ به هذا التساؤل والبحث إلى مصدر هذا الإيمان ، وسرِّ هذا السرور والشعور بالفوز حتىٰ أسلم ، وحسن إسلامه.

وذلك هو الفراغ الأكبر في العالم الإسلامي اليوم ، وبهذا الإيمان العميق والنزاهة التي لا ترتقي إليها المطامع ، ولا تحوم حولها الشبهات نستطيع أن نحارب هذه التيارات التي ليست إلا وليدة الطموح، وحب الجاه، والمال، وشهوة الحكم، وإنَّ قادتها ، وزعماءها من كبار الانتهازيين.

الشيء الثالث الذي تحتاج إليه الدعوة الإسلامية اليوم هو وجود مجتمع يعيش بالإسلام ، ويعيش فيه الإسلام حياةً واضحةً يلمسها كلُّ أحد ، وقد كان وجود هذا المجتمع أقوىٰ دعاية للإسلام في العصر الماضي ، وقد تأوي إليه النفوس القلقة ، والأرواح المتطلعة إلى الحقيقة ، كما يأوي الغريق المشرف على الموت إلىٰ لوحة من ألواح سفينة محطمة في البحر ، وكان دعاة الإسلام والدعاة إلى القيم الروحية والخلقية يستمدون قوتهم في الدعوة ، وبلاغتهم ، وتأثيرهم ، وسحرهم على النفوس من هذا المجتمع الذي كان وراء ظهرهم ، وكان يصدق كل ما يدعونه ، ويتغنون به من فضل الحياة الإسلامية ، وسعادة الإنسان فيها ، فكان الإنسان الذي تبلغه هذه الدعوة ، وتطرق مسامعه يرىٰ في هذا المجتمع صورة الإسلام المشرقة ، الوضاءة ، والجميلة. وأفضل ما تحارب به هذه التيارات هو تكوين هذا المجتمع ، وإن كان في حدود ضيقة ، ونطاق محدود ، مجتمع تطبق فيه التعاليم الإسلامية: الخلقية ، والروحية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية، ولا توجد فيه بفضل العمل بتعاليم الإسلام المعضلات

الاقتصادية ، والاجتماعية ، التي أعيت علماء الاقتصاد والاجتماع في الغرب ، وإذا وجدت تنحل وتنقشع بالحلول التي يقدمها الإسلام ، وتسود فيه روح التقوىٰ ، والطهر ، والنزاهة ، والأمانة ، والجد ، والرجولة ، والعطف ، والمواساة؛ التي دعا إليها الإسلام ، وعمل بها ﷺ وخلفاؤه الراشدون والتابعون لهم بإحسان في كل عصر ، وهي لافتة الإسلام الكبرى؛ التي نستغني بها عن جميع الدعايات التي ننفق عليها الكثير ، ولا نربح بها إلا القليل.

وخير مكان لقيام هذا المجتمع الإسلامي الحي هو هذا البلد الذي نجتمع فيه ، ويجب أن يكون هذا البلد الأمين بلداً إسلامياً مثالياً في كل عصر ، يصور الحياة الإسلامية بجميع جوانبها ، ومزاياها ، ومظاهرها. حتى يلمسها ، ويتذوقها كلُّ واردٍ إليه مهما قصرت إقامته ، وقلَّت معرفته؛ لأنَّ الله قد قضىٰ أن يكون هذا البلد مركز الحج إلىٰ آخر الزمان ، ومثابةً للمسلمين من جميع أنحاء العالم في كل سنة ، يفدون إليه وهم مؤمنون بحق بأنهم يقصدون بلداً هو معدن الطهور ، ومولد الدين ، وعاصمة الإسلام الروحية ، وكل ما يشاهد ، ويسمع في جوانبه هو حجة للمسلم الغريب الذي يعيش بعيداً عن مهد الإسلام ، وليس بعد عمل أهل مكة والمدينة حجة عند عامة المسلمين ، وما وراء عبادان قرية ، وهذه الطبيعة البشرية التي لا نستطيع أن نتغلب عليها بمنطق ، أو دليل ، أو خطابة ، أو بلاغة ، وهو الاحتجاج بعمل أهل المركز زعيم الدين أو الحضارة ، وهو العرف الذي جرىٰ في مجال اللغة ، والآداب ، والحضارة ، والفقه ، فكانت لغة قريش ، ثم لغة البادية العربية هي الحجة في اللغة العربية ، ومناهج كلامها ولهجاتها ، وكان عمل أهل المدينة حجة عند مذهب كبير من المذاهب الفقهية الإسلامية ، ظلَّ عمل أهل قرطبة حجة عند كثير من فقهاء المغرب عندما كانت في أوجها العلمي الثقافي ، وكانت مجمع العلماء والقضاة ، واحتج الناس قديماً وحديثاً بعادات عاصمة البلاد ومركزها الحضاري ، وتنافس الناس في تقليدها ، ورأوا فيها المثل الكامل ، والقدوة في الحضارة ، والأناقة ، والظرف ، ودعاة الإسلام ،

وزعماء الإصلاح يلقون صعوبة ومحنة إذا احتج الحجاج بما قد يشاهدونه ويسمعونه في مركز الإسلام ومهبط الوحي مما لا يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية ، أو آدابها ، ويصعب إزالتهم عن ذلك.

وقيام هذا المجتمع في ناحية من نواحي العالم الإسلامي الواسع هو حاجة الإسلام الكبرىٰ في هذا العصر. فالشيوعية دعوةٌ ومجتمع ، والرأسمالية دعوةٌ ومجتمع ، والمادية بمعناها الواسع وأشكالها المتنوعة دعوةٌ ومجتمع ، ومن العار للمسلمين جميعاً أن يكون الإسلام وحده دعوة ، ولا مجتمع وسيكون قيام هذا المجتمع أكبر حادث في التاريخ الحديث وأبرز خدمة للإسلام والإنسانية ، وإنَّ البلد الذي يحقق هذا الأمل سيحتل مكانة فريدة في خارطة العالم ، ويكون له من الخطر ، والقيمة ، والإجلال ، والإكبار ما لا يكون لأكبر مملكة ، ولأقوىٰ دولة في العالم ، ويشد الرِّحال إليه كبار المفكرين ، ويقصدونها من أنحاء العالم البعيدة ، ويؤثرونها بالإقامة ، ويصبح أكثر موضوع للباحثين.

وتكسب هذه الحكومة التي تقوم بهذه التجربة من الشرف ، والكرامة ، والثقة ، والمكانة بين الشعوب والدول ما لا يكسب معشاره عن طريق السفارات ، والدعايات ، والثقافة ، والإذاعة ، وعن طريق تقليد الحضارة الغربية ، والتقدم في المدنية ، والرفاهية ، هذه خواطر أملاها الفكر المجهود ، والخاطر المكدود ، وكتبتها تحقيقاً لرغبة الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي واقتراحها ، عسىٰ أن تكون وسيلةً لخير ، وموضوع حديث ينفع الإسلام والمسلمين ، والسَّلام عليكم ، ورحمةُ الله وبركاته.

* * *

العَالَمُ في حاجةٍ إلى قناةٍ جديدة[1]

تحمل بضاعة الإيمان إلى الغرب، وتنقل الوسائل والمعلومات إلى الشرق

الشرق في حاجة إلى أبطال مغامرين، وعلماء مجتهدين، ودعاة مؤمنين.

أيها الأبناء والشباب! إنني لا أدَّعي النبوة أو الولاية، ولا أتنبأ، ولا أتكهن، ولا أزعم أن لي عيناً بصيرةً تهتك الأستار، وتكشف الأسرار، ولكني أحب الساعة أن أقول: إنَّ في هذا الجمع شباباً يملكون غداً مقاليد الحكم في بلادهم، ويقلدون بمسؤوليات ضخمة دقيقة في أيامهم القادمة، إنكم تدرسون في هذه البلاد وكراسي الحكم، وعروش القيادة والتوجيه شاغرةٌ في أوطانكم، تنتظر قفولكم، وتنتظر قبولكم.

إني لأرىٰ صورة هذا المستقبل الرائع في ملامح وجوهكم، وفي جباهكم الوضيئة المشرقة، كان هناك في الزمن الماضي طريق واحد للوصول إلى الحكم، طريق الساعد المفتول، والسيف المسلول، وقد ضرب الإسكندر، وقيصر، وهولاكو مثلاً رائعاً في فتح العالم، وتسخير الشعوب، والأمم بِظُبَةِ السيف، وسنان الرُّمح، ولكنَّ الزمان تغير، فأصبحت القوة الحربية لا تغني من ذلك إلا قليلاً، وأصبحت القوة العلمية في الدرجة الأولىٰ للحصول على القيادة، والاستيلاء، والحكم الجمهوري.

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الأول، المجلد العاشر، عام ١٩٦٥م.

إنَّ الطريق الذي اتخذته الدول المتقدمة الراقية ، والدول الإسلامية في هذا العصر ، وتلك الملابسات التي أحاطت بها ، والمشكلات التي واجهتها تبدي بوضوح: أنَّ الذين يرثون قيادتها ، وتوجيهها هم رجال تضلعوا من العلوم العصرية ، وأتقنوا اللغات الغربية ، وتزودوا بكفاءات ومؤهلات توصلهم إلى مناصب الحكم في النظام الديمقراطي المعاصر.

إنَّ هذه الفرص والتسهيلات التي تتمتعون بها للدراسة في هذه المراكز العلمية ، والثقافية الهامة تدل على أنكم ستصلون إلى هذه المناصب في وقت قريب ، وهناك تجدون فرصةً سانحة لأداء بعض الواجب نحو بلادكم ، وشعوبكم ، والتأثير في اتجاهها بقسطٍ أكبر ، ونصيب أوفر ، إنَّه امتحان خطيرٌ دقيقٌ لكم؛ لأن مصير هذه البلاد ومستقبلها يتَّصل بنفوسكم ـ على أكبر حدٍّ ـ اتصالاً مباشراً وثيقاً.

إنَّ هذه البلاد التي غادرتموها ، وتنتمون إليها ، وسوف ترجعون إليها إن شاء الله بعد إنهاء دراستكم ، بلادٌ مسلمةٌ عريقةٌ في الإسلام؛ وهي على عهدها القديم في الثبات على المبدأ والوفاء بالأمانة ، إنها وصلت إلى هذا الإسلام على جسر من الدماء والدموع ، فهو أحب إليها ، وأغلىٰ عندها من أيِّ شيءٍ آخر ، إنَّ الأغلبية الساحقة في هذه البلاد للمسلمين ، وكثير منها تفوق الدول الأوربية في مساحتها ، ورقعتها ، وعدد أهلها ، وإنها ـ فضلاً عن ذلك ـ تعجُّ وتطفح بالثروات العظيمة ، والمعادن الكريمة ، إنها ثروة طبيعية لا تدور بدونها عجلة الغرب ، إنها أفاضت على العلوم والصناعة قوةً جديدة ، ومنحتها قسطاً جديداً من الحياة ، والتقدم ، والرخاء ، وليست هناك دولة تزاحم هذه البلاد المسلمة في المواد الخام.

وبجانب هذه الثروات الصامتة فإنَّ شعوب هذه البلاد غنيةٌ زاخرةٌ بالمواهب الإنسانية ، والطاقات البشرية ، والقوىٰ الخلقية ، والمعنوية ، وهي لا تزال فيها من القدرة على الجهاد ، والحنين إلى الشهادة ، وعاطفة التضحية ، وحبِّ الإيثار ، ونفحة الحب ، والوفاء ، والفداء ما لا يوجد له نظير في شعب من شعوب العالم ، إنَّ الذين ساحوا في العالم ، وزاروا

كثيراً من الشعوب والأمم ، ورأوها عن قريب وكتب يشهدون أن أيَّ شعبٍ في العالم لم يسبق هذه الشعوب المسلمة ، البريئة ، النقية ، المخلصة في هذا الشأن حتىٰ الآن ، إنها لا تزال فيها شعلة الحياة ، وبإمكانها أن تبرز كأكبر قوة على وجه الأرض؛ إذا نالت القيادة الرشيدة ، والتوجيه الصحيح ، إنها لا تزال تنفرد ببساطتها ، وثقتها بقيادتها ، وحماسها ، وعاطفتها ، وانقيادها ، وطاعتها ، ولكن هذه الملكات ، والطاقات ، والمواهب ، والمؤهلات لم تجد لها منفذاً ، ولم تجد لها مظهراً منذ أمدٍ بعيد ، إنَّ قيادتها (Leader Ship) تجهل قيمتها ، وهي لا ترغب في استخدام هذه المواهب ، ولا تقدر عليه.

إذا سألني أحد: ما هي أهمُّ مشكلةٍ ، وأعمُّها في العالم الإسلامي؟ قلت بلا تأمل ، ولا تلعثم: إنها مشكلة القادة والشعوب ، إنها مشكلة الفجوة الهائلة التي وقعت بينهما ، والتي أدت إلى صراعٍ فكري يستمرُّ بين الجماهير والطبقة الحاكمة المثقفة.

إنَّ هذه الشعوب تستميت في سبيل الإسلام ، إنَّها تريد أن تحيا في سبيله ، وتموت في سبيله ، إنَّها لا تفهم لغة غير لغة الدين ، ولا تعرف أسماء وشعائر ومصطلحات غير أسمائه ، وشعائره ، ومصطلحاته ، إنَّها لا تتحمس لشيءٍ غير الله ورسوله ، والجنة والآخرة ، والجهاد ، والشهادة ، وهو الهتاف الوحيد الذي تهتز له أوتار كيانها ، وتفور به دماء عروقها، وتحدث فيها نشوة الحب والوفاء ، وتهون عليها التضحية والفداء.

إنَّ هذا الهتاف ، وهذا النداء ، وهذه الدعوة هي التي أسكرت المسلمين في الجزائر ، وألهبت عواطفهم ، ودفعتهم إلى تضحيات لا يوجد لها نظير في العصر الحديث ، وشجعتهم على المضي في جهادهم المرير حتىٰ جاء وعد الله.

إنَّ هؤلاء المسلمين يؤمنون بالشريعة الإسلامية ، والدستور الإسلامي ، ويثقون بسموه ، وتفوقه ، وخلوده ، إنهم يحبون المجتمع الإسلامي ، والحضارة الإسلامية ، إنهم يتمنون ويحلمون أن يروا الشريعة والحياة

الإسلامية وكلمة الله عاليةً ظاهرةً ، سائدةً في بلادهم ، ولا يرغبون في غيرها شيئاً.

ولكن من المآسي التي يذوب لها القلب ، ويتقطع بها الفؤاد أن هذه الطبقة التي ملكت زمام قيادة الشعوب ، وحكمت في رقابها عاشت طول حياتها ، ونالت تربيتها في محيط لا صلة له بهذه العقائد والأفكار ، وبهذه الآمال والأحلام ، إنَّ جهازها الفكري وضع بعيداً عنها ، فصار غريباً عليها ، إنَّ شباب هذه الطبقة وأذكياءها تثقفوا ، وتربوا في نفس العواصم التي تدرسون فيها الآن ، وإنَّ أساتذتهم اقتفوا بهم ، بل إنهم أثروا في عقليتهم تأثيراً عميقاً بأنَّ عصر الإسلام ولىٰ من غير رجعة ، وأنَّه لعب دوره المحدود الضيق النافع إلى حد في زمنٍ خاصٍّ مضىٰ ، وهو لا يحمل الآن رسالة لهذا العالم المتحضر ، والمجتمع الكبير ، وليس بإمكانه أن يساير هذا المجتمع المتطور ، أو يتفاهم معه في أيِّ حال من الأحوال.

أليس هذا من المؤلم المخجل أن تكون الشعوب مسلمةً متحمسةً لإسلامها قادرة على أن تنجب أمثال محمد بن القاسم ، وطارق بن زياد ، وموسىٰ بن نصير ، ومحمد الفاتح ، وأن يكون قادتها وحكامها متزعزعين في ثقتهم بدينهم ، أو أنهم فقدوا هذه الثقة على الإطلاق ، يائسين من عودة الإسلام ، وهم لا يجدون في أنفسهم ميلاً إليه ، ورغبة فيه.

إنَّهم جاؤوا إلى الغرب ليأخذوا منه وسائل ، وأدوات ، ومعلومات تنفع الإسلام والمسلمين ، إنهم جاؤوا إلى الغرب ليدرسوا فيها العلوم الطبعية ، والتطبيقية ، والصناعية ، وما شاكلها من العلوم التي سبق فيها الغرب على الشرق ، ثم يسخروها للإسلام ، ويستخدموها لأهدافهم الإسلامية ، ويضعوها تحت تصرفها ، وفي خدمتها.

إنهم جاؤوا إلى هذه البلاد ليضيفوا من علومها إلى إيمانهم ، ثم يفتحوا قناة جديدة بين الغرب والشرق مثل قناة السويس التي تعرفونها ، ولكنها قناة تقوم على أساس النفع المتبادل العادل ، قناة تحمل بضاعة الإيمان ،

والعمل الصالح ، والدوافع الخيرة إلى الغرب ، وتنقل ما شاءت من وسائله البريئة الصالحة إلى الشرق.

فماذا كان؟!

إنَّ هؤلاء الذين علَّقنا بهم الآمال الكبار ، والذين تقع عليهم مسؤولية هذا الأمر خيبوا ظنوننا ، وضحكوا على ذقوننا دائماً ، إنَّهم عادوا جهالاً لا يعرفون غير التبعية والتقليد ، إنَّ عملهم تجرد من أي نوع من الأصالة والابتكار ، والذكاء والاجتهاد ، ورضوا بأن يكونوا معَ الخوالف ، والأتباع ، والأذيال ، بدلاً من أن يكونوا أئمة الهدىٰ وقادة الإنسانية ، وحملة النور ، وكتائب الإنقاذ. أيها الأبناء! إنكم ما جئتم إلى أوربة لتذوبوا أمام بريقها كالشمعة ، إنكم جئتم هنا لبناء عالم جديد. إنَّ أولاد إبراهيم ، ومن دخل في دينه وملَّته هم وحدهم يقدرون على بناء هذا العالم ، إنَّ الأيدي النظيفة العادلة الأمينة التي رفعت قواعد البيت المحرم في مكَّة المكرمة هي وحدها تستطيع أن ترفع قواعد العالم الجديد من جديد.

إنكم ما جئتم إلى الغرب لتقلدوا أهل الغرب فيما درستم فيه كالببغاوات ، أو تظاهروا أمامهم بتقليدهم ، ومحاكاتهم كالقرود.

إنَّ الشرق ليس في حاجة إلى ببغاوات وقرود أبداً ، إنه في حاجة إلى أبطال مغامرين ، وأذكياء نابهين ، وعلماء مبتكرين ، ودعاة مؤمنين ، يقولون للغرب إذا أخطأ: أخطأت ، وإذا أصاب: أصبت ، ويثورون على نظامه ، وحياته ، ويشنون عليه حرباً لا هوادة فيها ، وينقضُّون عليه كالصقر ، ويعلنونها واضحة صريحة: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

أما أولئك الذين لا يعرفون إلا قولاً واحداً: أصبت ، وأحسنت في كل ما فعلت! فالشرق منهم بريء ، وهو لايحتاج إلى مثل هؤلاء ، إنه لا قيمة للحواشي والعبيد الذين رفعوا الغرب على رؤوسهم ، وداسوا الشرق تحت أقدامهم إنَّ القادة المعاصرين في تركيا ، وأندونيسيا ، ومصر لم يثبتوا تفوقهم ودورهم الاجتهادي الأصيل ، إنهم ضحوا بأعز ما يملكون في سبيل

القيم الغربية ، واستيلاء الغرب ، وكان ما نالوا جزاء على هذه التضحية شيئاً حقيراً تافهاً بالنسبة إلى ما ضحوا به ، وما فقدوه.

أيها الأخوة الأعزاء! إنَّ الذين أوفدوكم إلى هذه البلاد لا يرضون منكم بأن تكونوا علماء خبراء ، وصناعيين ، وأدباء باللغات الأوربيَّة ، إنهم يريدون منكم أن تمثلوا براعتكم ، وذكاءكم ، وابتكاركم ، واجتهادكم في هذه العلوم العصرية ، إذا كنتم طلاب الحقوق؛ فعليكم أن تتضلعوا من التشريع الإسلامي ، ثم تدرسوا مبادىء القانون العالمي لتثبتوا تفوق التشريع الإسلامي إزاء القوانين الوضعية الأرضية ، وتعودوا إلى بلادكم قائلين شاهدين بأنَّ الغرب الآن في أسوأ حال ، وهو كالثمر الناضج لا يدري أحد متىٰ يهوي على الأرض.

أما إذا رجعتم إلى الشرق ، وقلتم: إنَّ الغرب كلَّه خير ، وليس فيه شيء يؤخذ عليه ، فقد خدعتم أمتكم ، وكذبتم على أنفسكم.

يجب عليكم أن تشرحوا لإخوانكم بعد العودة محاسن الغرب ومخازيه سواءً بسواء ، وتصوروا جوانبه الجميلة ، وسرَّ قوته ، ونهضته ، والنواحي التي تجدر بالتقليد مع عيوبه وأدوائه التي تنخر كيانه ، والجذام الخلقي الذي أصابه ، والنواحي التي يجب أن نمقتها ، ونفرَّ منها كما يفر الصحيح من المجذوم ، والأمور التي لا تجدر بالتقليد والاتباع ، والتي لا صلة لها بقوة الغرب ، وسرِّ نهضته ، واستيلائه على العالم.

أيها الإخوان! إنني إذا أعدت ما قلت لكم الساعة أمام القادة والزعماء السياسيين في كراتشي ، وجكارتا ، والقاهرة ، ودهلي ، أو أي عاصمة شرقية؛ كان ذلك بعد فوات الفرصة ، لأنَّهم وصلوا إلىٰ نقطة لا عودة منها ، ورسخت فيهم الأفكار والعادات إلى حدٍّ لا يمكن تحويلهم منها ، إنَّ العقلية والتفكير والقلب يصنع في هذا المعمل ، ويعمل عمله في الشرق ، فالمحلُّ اللائق لهذا الحديث ، المحلُّ الذي يصنع فيه هذا الجهاز الفكري هو أنتم الذين ستقودون بلادكم وشعوبكم في المستقبل ، فإذا أدركتم مدىٰ

قوة أمتكم وأهميتها ، وآمنتم بقوة الإسلام الداخلية وحيويته؛ فقد أصبتم الهدف ، وحققتم الأمل.

إنَّ هذه البلاد العظيمة الغنية التي تنتمون إليها أمانة في أعناقكم. إنَّ هذه القوة الكبرىٰ ، وهذا المجتمع الكبير هو من حسن حظكم وسعادتكم ، فسيروا على بركة الله ، واستعرضوا اقتصاد هذه البلاد ، وذخائرها ، وثروتها الطبعية والإنسانية ، واستخدموا علومكم ، وخبرتكم في الانتفاع بها في سبيل أهدافكم الإسلامية البعيدة ، واضربوا مثلاً في الإخلاص والخدمة التي لا تشوبها منفعةٌ ذاتيَّةٌ ، ومصلحةٌ شخصية.

إنكم إذا فعلتم ذلك ، ووصلتم إلى مكانتكم اللائقة في القيادة الإسلامية؛ ظفرتم بكلمةٍ باقية ، وقمة عالية في التاريخ والإنسانية ، قمة لم يصل إليها بل لم يحلم بها كمال أتاتورك ، وجمال عبد الناصر ، وابن بلا ، وأحمد سوكارنو ، ولا أي قائد آخر في الأقطار الإسلامية بأسرها ، إنها مكانة الحب والقبول العام ، وإحياء الإسلام ، مكانة العمل الخالص لوجه الله ، والجهاد لإعلاء كلمة الله ، وهي مكانة لا يتشرف بها إلا أفذاذ من السعداء في التاريخ.

إنَّه الطريق الوحيد الذي ينقذ العالم الإسلاميَّ من ذلك الصراع الفكري ، والتنازع الطبقي ، والفوضىٰ الفكرية.

أيها الإخوة الأعزاء!

اعرفوا نفوسكم ، واعرفوا شعوبكم ، وتأملوا في هذه الإمكانيات الواسعة العظيمة المدهشة لفتوحكم ، وانتصاراتكم ، وطموحكم ، وطيرانكم ، واكتشفوا هذا العالم الجديد المجهول؛ الذي انصرف عنه المغامرون ، وزهد فيه الطامعون.

وإذا لم تصغوا إلى حديثي؛ فاصغوا إلى حديث قلبكم ، وإذا لم تفهموا نفسي؛ فافهموا أنفسكم ، واظفروا بها.

* * *

المدنيةُ الإسلاميَّةُ[1]

*** الأئمة المسلمون وخصائصهم:**

ظهر المسلمون، وتزعموا العالم، وعزلوا الأمم المريضة من زعامة الإنسانية؛ التي استغلتها، وأساءت عملها، وساروا بالإنسانية سيراً حثيثاً متزناً عادلاً، وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم، وتضمن سعادتها، وفلاحها في ظلهم، وتحت قيادتهم:

أولاً: إنهم أصحاب كتاب منزل، وشريعة إلهية، فلا يقننون، ولا يشترعون من عند أنفسهم؛ لأن ذلك منبع الجهل، والخطأ، والظلم، ولا يخبطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء، قد جعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس، وجعل لهم شريعة يحكمون بها بين الناس ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ثانياً: إنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية، وتزكية نفس، بخلاف غالب الأمم والأفراد، ورجال الحكومة في الماضي والحاضر، بل مكثوا زمناً طويلاً تحت تربية محمد ﷺ وإشرافه الدقيق، يزكيهم،

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها العاشر، المجلد الحادي عشر، عام ١٩٦٧ م.

ويؤدبهم ، ويأخذهم بالزهد ، والورع ، والعفاف ، والأمانة ، والإيثار على النفس ، وخشية الله ، وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها ، يقول: «**إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله ، أو أحداً حرص عليه**»[1] ، ولا يزال يقرع سمعهم: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب تهافت الفراش على الضوء ، بل كانوا يتدافعون في قبولها ، ويتحرجون من تقلدها ، فضلاً عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة ، ويزكوا أنفسهم ، وينشروا دعاية لها ، وينفقوا الأموال سعياً وراءها ، فإذا تولوا شيئاً من أمور الناس؛ لم يعدوه مغنماً ، أو طعمة ، أو ثمناً لما أنفقوا من مال أو جهد؛ بل عدوه أمانة في عنقهم ، وامتحاناً من الله ، ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ، ومسؤولون عن الدقيق والجليل ، وتذكروا دائماً قول الله تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨] وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ثالثاً: إنهم لم يكونوا خدمة جنس ، ورسل شعب أو وطن ، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان ، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاماً لها ، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ، ويشمخون ، ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم ، إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده ، كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد: «**الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان**

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٦/ ٤١٩) برقم (٣٢٥٤١) عن أبي موسى الأشعري.

إلى عدل الإسلام»[1]. فالأمم عندهم سواء، والناس عندهم سواء، الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر ـ وقد ضرب ابنُه مصرياً، وافتخر بآبائه قائلاً: خذها من ابن الأكرمين، فاقتص منه عمر ـ: «**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً**»[2]، فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً، بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمَّت العباد، وغوادي مزنة أثنى عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد، على قدر قبولها وصلاحها[3].

في ظلِّ هؤلاء، وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب ـ حتى المضطهدة منها في القديم ـ أن تنال نصيبها من الدين، والعلم، والتهذيب، والحكومة، وأن تساهم مع العربِ في بناء العالم الجديد، بل إنَّ كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب، وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدِّثين، حتى قال ابن خلدون: «**من الغريب الواقع أنَّ حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية، ولا من العلوم العقلية**[4]، **إلا في**

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ج ٧ ص ٤٠.

(٢) القصة بتمامها في تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي.

(٣) عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا، وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فَعَلِم، وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به» رواه البخاري: العلم رقم ٧٩.

(٤) يعني سواء في ذلك العلوم الشرعية، والعلوم العقلية.

القليل النادر ، وإن كان منهم العربي في نسبته ، فهو عجميٌّ في لغته ، ومرباه ، ومشيخته ، مع أنَّ الملَّة عربية ، وصاحب شريعتها عربيٌّ»[1] ، ونبغ من هذه الأمم في عصور الإسلام قادةٌ ، وملوكٌ ، ووزراءُ وفضلاءُ ، هم نجومُ الأرض ، ونجباءُ الإنسانية ، وحسنات العالم فضيلةً ، ومروءةً ، وعبقريةً ، وديناً ، وعملاً ، لا يحصيهم إلا الله.

رابعاً: إنَّ الإنسان جسم وروح، وهو قلب، وعقل، وعواطف، وجوارح، لا يسعد، ولا يفلح، ولا يرقى رقياً متزناً عادلاً حتى تنمو فيه هذه القوى كلُّها نمواً متناسباً لائقاً بها ، ويتغذَّى غذاءً صالحاً ، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط دينيٌّ خلقيٌّ عقليٌّ جسديٌّ يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنسانيَّ ، وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا كانت قيادة الحياة، وإدارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة، ويكونوا أمثلةً كاملةً في الحياة الدينية والخلقية ، وأصحاب عقول سليمة راجحة ، وعلوم صحيحة نافعة ، فإذا كان فيهم نقص في عقيدتهم ، أو في تربيتهم عاد ذلك النقص في مدنيتهم ، وتضخم ، وظهر في مظاهر كثيرة ، وفي أشكال متنوعة ، فإذا تغلبت جماعة لا تعبد إلا المادة وما إليها من لذة ومنفعة محسوسة ، ولا تؤمن إلا بهذه الحياة ، ولا تؤمن بما وراء الحس أثرت طبيعتها ومبادئها وميولها في وضع المدنية وشكلها ، وطبعتها بطابعها ، وصاغتها في قالبها ، فكملت نواح للإنسانية ، واختلت نواح أخرى أهم منها ، عاشت هذه المدنية وازدهرت في الجص والآجر ، وفي الورق والقماش ، وفي الحديد والرصاص ، وأخصبت في ميادين الحروب ، وساحات القتال ، وأوساط المحاكم ، ومجالس اللهو ، ومجامع الفجور ، وماتت في القلوب والأرواح ، وفي علاقة المرأة بزوجها ، والولد بوالده ، والوالد بولده ، والأخ بأخيه ، والرجل بصديقه ، وأصبحت المدنية كجسم ضخم متورم يملأ العين مهابة ورواءً ، ويشكو في قلبه آلاماً ، وأوجاعاً ، وفي صحته انحرافاً ، واضطراباً.

---

(١) المقدمة:ص ٤٩٩.

وإذا تغلبت جماعة تجحد المادة ، أو تهمل ناحيتها ، ولا تهتمُ إلا بالروح وما وراء الحس والطبيعة ، وتعادي هذه الحياة وتعاندها؛ ذبلت زهرة المدنية ، وهزلت القوى الإنسانية ، وبدأ الناس ـ بتأثير هذه القيادة ـ يؤثرون الفرار إلى الصحارى والخلوات على المدن ، والعزوبة على الحياة الزوجية ، ويعذبون الأجسام حتى يضعف سلطانها ، فتتطهر الروح ، يؤثرون الموت على الحياة ، لينتقلوا من مملكة المادة إلى إقليم الروح ، ويستوفوا كمالهم هنالك ، لأنَّ الكمال في عقيدتهم لا يحصل في العالم المادي ، ونتيجة ذلك أن تحتضر الحضارة ، وتخرب المدن ، ويختل نظام الحياة ، ولما كان هذا مضاداً للفطرة لا تلبث أن تثور عليه ، وتنتقم منه بمادية حيوانية ليس فيها تسامح لروحانيةٍ وأخلاق ، وهكذا تنتكس الإنسانية ، وتخلفها البهيمية والسبعية الإنسانية الممسوخة ، أو تهجم على هذه الجماعة الراهبة جماعة مادية قوية ، فتعجز عن المقاومة لضعفها الطبعي ، وتستسلم وتخضع لها ، أو تسبق هي ـ بما يعتريها من الصعوبات في معالجة أمور الدنيا ـ فتمد يد الاستعانة إلى المادية ورجالها ، وتستند إليهم أمور السياسة ، وتكتفي هي بالعبادات والتقاليد الدينية ، ويحدث فصل بين الدين والسياسة ، فتضمحل الروحانية والأخلاق ، ويتقلص ظلها ، وتفقد سلطانها على المجتمع البشري والحياة العملية ، حتى تصير شبحاً وخيالاً ، أو نظرية علمية لا تأثير لها في الحياة ، وتؤول الحياة ماديةً محضةً ، وقلَّما خلت جماعة من الجماعات التي تولت قيادة بني جنسها من هذا النقص ، لذلك لم تزل المدنية متأرجحةً بين مادِّية بهيميةٍ ، وروحانيةٍ ، ورهبانيةٍ ، ولم تزل في اضطراب.

يمتاز أصحاب النبي ﷺ بأنهم كانوا جامعين بين الديانة ، والأخلاق ، والقوة ، والسياسة ، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها ، وشعبها ، ومحاسنها المتفرقة في قادة العالم ، وكان يمكن لهم ـ بفضل تربيتهم الخلقية والروحية السامية ، واعتدالهم الغريب الذي قلما اتفق للإنسان ، وجمعهم بين مصالح الروح والبدن ، واستعدادهم المادي

الكامل ، وعقلهم الواسع ـ أن يسيروا بالأمم الإنسانية إلى غايتها المثلى الروحية ، والخلقية ، والمادية.

*** دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصَّالحة:**

وكذلك كان ، فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل ، وأجمل ، وأزهر في جميع هذه النواحي من هذا الدور ، دور الخلافة الراشدة ، فقد تعاونت فيه قوة الروح ، والأخلاق ، والدين ، والعلم ، والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل ، وفي ظهور المدنية الصالحة ، كانت حكومةٌ من أكبر حكومات العالم ، وقوةٌ سياسية مادية تفوق كلَّ قوةٍ في عصرها ، تسود فيها المثل الخلقية العليا ، وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ، ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخلاق ، والفضيلة مع التجارة والصناعة ويساير الرقيُّ الخلقيُّ اتساع الفتوح واحتفال الحضارة ، فتقلُّ الجنايات ، وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ، ورغم دواعيها وأسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد ، والفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالفرد ، وهو دور كماليٌّ لم يحلم الإنسان بأرقى منه ، ولم يفترض المفترضون أزهى منه ، ولم يكن إلا بسيرة الرجال الذين يتولون الحكم ، ويشرفون على المدنية بعقيدتهم ، وتربيتهم ، وخطتهم في الحكم ، وسياستهم ، فكانوا أصحاب دينٍ وأخلاقٍ عالية أينما كانوا ، كانوا أعفة أمناء ، خاشعين متواضعين ، حكاماً كانوا أو رعايا ، أو شرطة أو جنوداً ، يصف شيخ من عظماء الروم جنود المسلمين فيقول: **إنهم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم**[(1)]. وقال الآخر: «**هم فرسان بالنهار ، رهبانٌ بالليل ، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه**»[(2)]. ويقول الثالث: «**أما الليل فرهبان ، وأما النهار ففرسان ، يريشون النبل ، ويبرونها ، ويثقفون القنا ، لو حدَّثت**

(١) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٨) و(٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٣.

جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر»(١) . ويغنم الجند في المدائن تاج كسرى ، وبساطه ، وهو يساوي مئات الألوف من الدنانير ، فلا تعبث به يد ، ولا تشح عليه نفس ، ثم يسلمونه إلى الأمير ، ويرسله الأمير إلى خليفة المسلمين ، فيتعجب ويقول: إن الذين أدوا هذا لأمناء(٢) .

*** تأثير الإمامة الإسلامية في الحياة العامة :**

إنَّ هذا الرعيل من أتباع محمد ﷺ كان خليقاً بأن يسعد النوع الإنساني في ظلِّه ، وتحت حكمه ، وأن يسير بقيادته سديد الخطى ، رشيد الغاية ، مستقيم السير ، وأن يعمر ، ويطمئن العالم في دوره وتخصب الأرض ، وتأخذ زخرفها ، فإنهم كانوا خير القائمين على مصالحها حارسين لها ، ولا ينظرون إلى هذه الحياة كقفصٍ من حديد ، أو غلٍّ في عنق ، فيعادونه ، ويكسرونه ، ولا ينظرون إليها كفرصة من لهو ، ونعيم ، ومتعة لا تعود أبداً ، فينتهزونها ، ويهتبلونها ، ولا يضيعون منها ساعةً ، ولا يدخرون من طيباتها ، وكذلك لا يعدونها عذاباً وعقوبة بجريمة ، فيتخلصون منها ، ولا ينظرون إلى الدنيا كمائدة ممدودة فيتهالكون عليها ، وإلى مافي الأرض من نعماء ، وخزائن وخيرات كأنها مال سائب يتقاتلون عليه ، وإلى الأمم الضعيفة كفريسة يتسابقون في اقتناصها ، بل يعدُّون هذه الحياة نعمةً من الله ، هي أصل كل خير ، وسبب كل برٍّ ، يتقربون فيها إلى الله ، ويصلون إلى كمالهم الإنساني الذي قدر لهم ، وفرصة من عمل وجهاد لا فرصة بعدها ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٧] ويعدُّون هذا العالم مملكة لله استخلفهم فيها ـ أولاً ـ من حيث أصل الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ

---

(١) البداية والنهاية:ج ٧ ص ١٦ .

(٢) سيرة عمر بن الخطاب:لابن الجوزي .

﴿فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وثانياً: من حيث إنه إنسان أسلم لأمر الله، وانقاد لحكمه، فاستخلفه في الأرض، واسترعاه أهلها ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، ومنحهم حق التمتع بخيرات الأرض من غير إسراف وتبذير ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وجعل لهم الولاية على أمم الأرض وجماعات البشر، يراقبون سيرها، وسيرتها، وأخلاقها، ورغباتها، فيرشدون الضالَّ، ويردون الغاوي، ويصلحون الفاسد، ويقيمون الأود، ويرأبون الصدع، ويأخذون للضعيف من القوي، وينتصفون للمظلوم من الظالم، ويقيمون في الأرض القسط، ويبسطون على العالم جناح الأمن ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد وصف عالم ألماني مسلم ميزة المسلم وصفاً دقيقاً. قال:

«إنَّ الإسلام لا ينظر ـ كالنصرانية ـ إلى العالم بمنظار أسود، بل هو يعلمنا ألا نسرف في تقدير الحياة الأرضية، وأن لا نغالي في قيمتها مغالاة الحضارة الغربية الحاضرة، إنَّ المسيحية تذم الحياة الأرضية، وتكرهها، والغرب الحاضر ـ خلاف الروح النصراني ـ يهتم بالحياة كما يهتم النهم بطعامه، هو يبتلعه، ولكن ليس عنده كرامة له، والإسلام بالعكس ينظر إلى الحياة بسكينة واحترام، هو لا يعبد الحياة، بل يعدُّها كمرحلةٍ نجتازها في طريقنا إلى حياة عليا، وبما أنها مرحلة، ومرحلة لابدَّ منها ليس للإنسان أن

يحتقرها ، أو يقلل من قيمة حياته الأرضية ، إنَّ مرورنا بهذا العالم في سفر الحياة لابدَّ منه ، وقد سبق به تقدير الله ، فالحياة الإنسانية لها قيمتها الكبرى ، ولكن لا ينبغي لنا أن ننسى أنها ليست إلا واسطة وآلة ، وليست قيمتها إلا قيمة الوسائط والآلات ، الإسلام لا يسمح بالنظرية المادية القائلة: «إن مملكتي ليست إلا هذا العالم» ولا بالنظرية المسيحية التي تزدري الحياة ، وتقول «ليس هذا العالم مملكتي» وطريق الإسلام طريق وسط بينهما ، القرآن يرشدنا أن ندعو: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] فالتقدير لهذا العالم وأشيائه ليس حجر عثرة في سبيل جهودنا الروحية الخصبة ، والرقي المادي مرغوب فيه مع أنه ليس غاية في نفسه ، إنَّ غاية جهودنا ينبغي أن تكون إيجاد أحوال وظروف شخصية واجتماعية ـ والمحافظة عليها إن وجدت ـ تساعد في ارتقاء القوة الخلقية في الإنسان ، مطابقة لهذا المبدأ ، الإسلام يهدي الناس إلى الشعور بالمسؤولية الخلقية في كل عمل يعمله ، كبيراً كان أو صغيراً ، إنَّ نظام الإسلام الديني لا يسمح أبداً بمثل ما أمر به الإنجيل قائلاً: «أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وأعطوا ما لله لله»؛ لأنَّ الإسلام لا يسمح بتقسيم حاجات حياتنا إلى خلقية وعملية ، ليس هناك إلا خيرة فقط ، خيرة بين الحق والباطل ، وليس شيء وسطاً بينهما ، لذلك هو يلح على العمل ، لأنه جزء لازمٌ للأخلاق لا غنى عنه ، ينبغي لكلِّ فردٍ مسلم أن يعد نفسه مسؤولاً شخصياً عن المحيط الذي يحيط به ، وكل ما يقع حوله ، ومأموراً بالجهاد لإقامة الحق ومحق الباطل في كلِّ وقت وفي كلِّ جهة ، فإن القرآن يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، هذا هو المبرر الخلقي للحركة الإسلامية الجهادية ، والفتوح الإسلامية الأولى ، والاستعمار الإسلامي ، فالإسلام استعماري إن كان لابدَّ من هذا التعبير ، ولكن هذا النوع من الاستعمار ليس مدفوعاً بحب الحكومة والاستيلاء ، وليس من الأثرة الاقتصادية للقومية في شيء ، ولم يكن يحفز المجاهدين الأولين إلى الجهاد طمعٌ في خفض من العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين ، ولم يقصد منه إلا بناء إطار عالمي لأحسن ما يمكن للإنسان من

ارتقاء روحي ، كما أنَّ العلم بالفضيلة حسب تعليم الإسلام يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل ، الإسلام لا يوافق أبداً على الفصل الأفلاطوني ، والتفريق النظري البحت بين الفضيلة والرذيلة ، بل يرى أنه من الوقاحة والرذيلة أن يميز الإنسان نظرياً بين الحق والباطل ، ولا يجاهد لارتقاء الحقِّ وإزاحة الباطل ، فإنَّ الفضيلة ـ كما يقول الإسلام ـ تحيا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض ، وتموت إذا خذلها ، وتقاعد عن نصرتها»[١].

* المدنية الإسلامية وتأثيرها في الاتجاه البشري:

كان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها ، وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامها في القرن الأول لهجرة محمد ﷺ فصلاً جديداً في تاريخ الأديان والأخلاق ، وظاهرةً جديدةً في عالم السياسة والاجتماع ، انقلب به تيار المدنية ، واتجهت به الدنيا اتجاهاً جديداً ، فكانت الدعوة الإسلامية لم يزل يأتي بها الأنبياء ، ويبشر بها المبشرون ، ويجاهد في سبيلها المخلصون ، ولكن لم يكن يتمكن دعاتها من إقامة حكومة قائمة على أساسها ، ومنهاجها ، متشعبة بمبادئها ، ومن إقامة مدنية مطبوعة بطابعها ، مبنية على أحكامها مثل ما تمكنوا في هذه المرة ، ولم تنل هذه الدعوة والجهود من النجاح في هذا السبيل مثل ما نالت أخيراً على يد محمد ﷺ وخلفائه الراشدين ، فكان هذا الفتح المبين للإسلام محنةً جديدةً للجاهلية لم تعهدها من قبل ، ولم تعرف كيف تخرج منها ، عهدها بها دعوة دينية روحية ، فإذا هي تصبح نجاةً ، وسعادةً ، وروحاً ، ومادةً ، وحياةً ، وقوةً ، ومدنيةً ، واجتماعاً ، وحكومة ، وسياسة ، دين سائغ معقول ، كله حكمة وبداهة إزاء أوهام وخرافات وأساطير ، وشرعٌ إلهيٌّ ووحيٌّ سماويٌّ إزاء أقيسة وتجارب إنسانية وتشريع بشري ، ومدنية فاضلة قوية البنيان ، محكمة الأساس ، يسود فيها روح التقوى ، والعفاف ، والأمانة. وتقدر فيها الأخلاق الفاضلة فوق المال والجاه ، والروح فوق المظاهر الجوفاء ،

---

(١) Mohammad Asad leopold weiss Islam At the cross roads , p.2q.

يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلا بالتقوى ، ويهتمُّ الناس بالآخرة ، فتصبح النفوس مطمئنة ، والقلوب خاشعة ، ويقلُّ التنافس في أسباب هذه الحياة ، والتكالب على حطام الدنيا ، ويقلُّ التباغض والتشاحن ، كلُّ ذلك إزاء مدنية صاخبة ، مضطربة ، متناحرة ، متداعية البنيان ، متزلزلة الأركان ، يظلم الكبير فيها الصغير ، ويأكل القوي فيها الضعيف ، ويتسابقون في اللهو والفجور ، يتنافسون في الجاه والأموال وأسباب الترف والنعيم ، حتى تصبح الدنيا كلها حرباً في حرب ، وتصبح المدنية جحيماً على أهلها ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] حكومة عادلة تساوي بين رعيتها ، وتأخذ للضعيف من القوي ، وتحرس للناس أخلاقهم ، كما تحرس لهم بيوتهم وأموالهم ، وتحفظ عليهم دماءهم وأعراضهم ، خيارُهم أمراؤهم ، وأزهدُهم في العيش أملكهم لأسبابه وأقدرُهم عليه إزاء حكومة عمَّ فيها الجور والعسف ، وتواضع رجالها على الخيانة والظلم ، وتسابق أهلها في أكل أموال الناس ، وهتك أعراضهم ، وسفك دمائهم ، تفسد على الناس أخلاقهم بما تضرب لهم مثلاً بأخلاقها ، شرارهم أمراؤهم وملوكُهم ، تشبع دوابُّهم ، وكلابُهم ، وتجوع رعيَّتُهم ، وتكسى بيوتُهم ، ويعرى الناس.

فأصبح الناس لا يجدون عائقاً عن الإسلام ، ولا يواجهون صعوبة وعنتاً في سبيل قبول الإسلام ، ولا يرون للجاهلية مرجحاً ومصلحة ، ويدخل الرجل في الإسلام فلا يخسر شيئاً ، ولا يفقد شيئاً ، ويجد برد اليقين ، وحلاوة الإيمان ، وعزة الإسلام ، ودولةً قوية يعتزُّ بها ، وأنصاراً يفدونه بأرواحهم وأنفسهم ، ونفساً مطمئنة ، وثقةً في الحياة بعد الموت ، فصار الناس ينتقلون من معسكر الجاهلية إلى معسكر الإسلام باختيارهم ، وصارت أرض الجاهلية تنتقص من أطرافها ، وكلمة الإسلام تعلو ، وظلُّه يمتد ، حتى ارتفعت الفتنة ، وكان الدِّين لله.

وكان تأثير هذا الانقلاب عظيماً جليلاً ، فكان الطريق إلى الله من قبل في دولة الجاهلية وغربة الإسلام شاقاً ، عسيراً ، محفوفاً بالأخطار ، فأصبح الآن سهلاً يسيراً ، آمناً ، مسلوكاً ، وكان يصعب على الإنسان في الوسط

الجاهليِّ أن يطيع الله ، فصعب عليه في الوسط الإسلامي أن يعصي الله ، وكانت الدعوة إلى النار بالأمس ظاهرةً منصورةً ، فأصبحت اليوم خافتةً مخذولةً ، وكانت أسباب سخط الله وعصيانه مكشوفةً موفورةً ، فعادت نادرةً مستورةً ، وكانت الدعوة إلى الله في أرض الله جريمةً قد ترتكب سراً وخفية ، فأصبحت جهراً وعلانيةً ، وحرَّةً آمنةً ، لا تلقى معارضة ذات بال ، ولا يخاف أصحابها اضطهاداً في سبيل العقيدة ، وأذىً في سبيل الدين الجديد ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [الأنفال: ٢٦] وأصبح أصحابها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يأمرون ، وينهون بمعنى الكلمة.

صارت طباع الناس وعقولهم تتغير وتتأثر بالإسلام من حيث يشعرون ، ومن حيث لا يشعرون ، كما تتأثر طبيعة الإنسان والنبات في فصل الربيع ، وبدأت القلوب العاصية الجافة ترقُّ وتخشع ، وبدأت مبادئ الإسلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس وتتغلغل في الأحشاء. وبدأت قيمة الأشياء تتغيَّر في عيون الناس ، والموازين القديمة تتحول ، وتخلفها الموازين الجديدة ، وأصبحت الجاهلية حركةً رجعيةً كان من الجمود والغباوة المحافظة عليها ، وصار الإسلام شيئاً راقياً عصرياً ، كان من الظرف والكياسة الانتساب إليه ، والظهور بمظاهره ، وكانت الأمم ، بل كانت الأرض تدنو رويداً رويداً إلى الإسلام ، ولا يشعر أهلها بسيرهم كما لا يشعر أهل الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس ، يظهر ذلك في فلسفتهم ، وفي دينهم ، وفي أدبهم ، وفي مدنيتهم ، وتشف عن ذلك بواطنهم ، وضمائرهم ، وتنمُّ عنه الحركة الإصلاحية التي ظهرت فيهم حتى بعد انحطاط المسلمين.

جاء الإسلام بالتوحيد ، ونعى على الوثنية والشرك ، فهان الشرك منذ ذلك اليوم في عيون أهله ، وصغر ، وصار أهله يخجلون منه ، ويتبرؤون منه ، ولا يقرُّون به ، بعدما كانوا يجتهدون في إظهاره ، ويستميتون في الدفاع عنه ، وأصبح أهل كل دين يُؤوِّلون مافي نظامهم الديني من شرك أو مظاهر شرك ووثنية ورسومها وتقاليدها ، ويلوون بذلك ألسنتهم ،

ويجتهدون في التعبير عنه وشرحه بما يقرب إلى التوحيد الإسلامي ويشبهه.

يقول الأستاذ أحمد أمين: «ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام من ذلك: أنه في القرن الثامن الميلادي: أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ظهرت في سبتمانيا (Septimania) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس، وأن ليس للقسس حقٌّ في ذلك، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده في غفران ما ارتكب من إثم، والإسلام ليس له قسيسون، ورهبان، وأحبار، فطبيعي ألا يكون فيه اعتراف».

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (Iconoclasls) ذلك أنه في القرن الثامن والتاسع للميلاد، أو القرن الثالث والرابع الهجري، ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل، فقد أصدر الإمبراطور الروماني «ليو» الثالث أمراً سنة ٧٢٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل، وأمراً آخر سنة ٧٣٠ م يعد الإتيان بهذا وثنية، وكذلك كان قسطنطين الخامس، وليو الرابع، على حين كان البابا جريجوري الثاني، والثالث، وجرمانيوس بطريرك القسطنطينية، والإمبراطورة إيريني من مؤيدي عبادة الصور، وجرى بين الطائفتين نزاعٌ شديد لا محل لتفصيله، وكل ما نريد أن نذكره أنَّ بعض المؤرخين يذكرون أنَّ الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرةً بالإسلام، ويقولون: إن كلوديوس ومششيهعس أسقف تورين (الذي عين سنة ٨٢٨ م وحوالي ٢١٣ م) والذي كان يحرق الصور والصلبان، وينهى عن عبادتها في أسقفيته، ولد وربي في الأندلس الإسلامية، وكراهية الإسلام للتماثيل والصور معروفة، روى البخاريُّ ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قال: قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت سهوةً لي بقرام فيه تماثيل، فلما رآه هتكه، وتلوّن وجهه، وقال: «**يا عائشة! أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله**». قالت: فقطعناه، فجعلنا منه وسادةً أو وسادتين»[1] والأحاديث في هذا الباب مستفيضة.

---

(١) السهوة: النافذة بين الدارين، والقرام: الستر.

وكذلك وجدت طائفة من النصارى[١] شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية ، وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام[٢].

ويمكن لمن يطالع تاريخ أوربة الديني وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الإسلام العقلي في نزعات المصلحين ، والثائرين على النظام الأسقفي السائد ، أما دعوة «لوثر» الإصلاحية الكبيرة؛ فقد كانت ـ على علاتها ـ أبرز مظهر للتأثر بالإسلام ، وبعض عقائده ، كما اعترف المؤرخون.

وترى كذلك تأثيراً للعقلية الإسلامية والشريعة الإسلامية في أخلاق الأمم ، واجتماعها ، وتشريعها ، في أوربة النصرانية ، وفي الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامي[٣] تراه وتلمسه في الاتجاه إلى التوحيد ، ونزعات الاحترام للمرأة ، وحقوقها ، والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر ، إلى غير ذلك مما سبق إليه الإسلام وامتازت به شريعته ، ومدنيته.

يقول الباحث الهندي المعروف (K.M. Panikkar) سفير الهند في مصر سابقاً وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية في عقلية الشعب الهندي ودياناته:

من الواضح المقرر: أنَّ تأثير الإسلام في الديانة الهندكية كان عميقاً في هذا العهد (الإسلامي) ، إنَّ فكرة عبادة الله في الهنادك مدينة للإسلام ، إنَّ قادة الفكر والدين في هذا العصر ، وإنْ سمّوا آلهتهمْ بأسماء شتَّى؛ قد دعوا إلى عبادة الله ، وصرحوا بأنَّ الإله واحد ، وهو يستحق العبادة ، ومنه تطلب النجاة والسعادة ، وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلاميِّ كديانة «Bhagti» ودعوة «كبير»[٤].

---

(١) Hain's Christianity of Islam In Spain. P 16.

(٢) ضحى الإسلام: ج ١ ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٣) Influnce of Islam on inclidn culture by doctor Tara Chand.

(٤) A Survey of Indian History .P.132.

ويقول رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو في كتاب (Discovery of India) : «إنَّ دخول الغزاة الذين جاؤوا من شمال غرب الهند ، ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند ، إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي ، إنَّه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ ، وحبَّ الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند ، إن نظرية الأخوة الإسلامية ، والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ، ويعيشون بها ، أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً ، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندوكي المساواة ، والتمتع بالحقوق الإنسانية».

ويقول كاتب عصري فاضل وهو (N. C. Mahta) في كتابه «الحضارة الهندية والإسلامية» (Indian Civilization an Islsm) :

«إنَّ الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلاً من نور قد انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلي ، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية ، لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة ، شأنه في الأقطار الأخرى ، لقد كان من سوء الحظ أن ظلَّ تاريخ الإسلام في هذا القطر (الهندي) مرتبطاً بالحكومة فبقيت حقيقة الإسلام في حجاب ، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مختفية عن الأنظار».

ولا يستطيع دينٌ من الأديان ، ومدنيةٌ من المدنيات تعيش في العالم المتمدن المعمور أن تدَّعي أنها لم تتأثر بالإسلام والمسلمين في قليل ولا كثير.

يقول : (Robert Briffault) في كتابه (The Makeing of Hamanity) :

«ما من ناحية من نواحي تقدم أوربة إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير ، وآثارٌ حاسمةٌ لها تأثير كبير»(١).

---

(١) P. 190.

ويقول في موضع آخر:

«لم تكن العلوم الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل إلى العرب) هي التي أعادت أوربة إلى الحياة، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوربة تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربة»[1].

فلو جرت الأمور هكذا، وتمتَّعت الأمم الإنسانية بقيادة الجماعة التي خلقت بقيادتها، وأعطيت القوس باريها، وجرت المياه في مجاريها؛ لكان للعالم الإنساني تاريخ غير التاريخ الذي نقرؤه حافلاً بالزلازل والنكبات، ناطقاً بطول بلاء الإنسانية ومحنها، لكان له تاريخٌ مجيدٌ، جميلٌ يغتبط به كلُّ إنسان، ويقَرُّ عيناً، ولكن جرت الأقدار بغير ذلك، وبدأ الانحطاط في المسلمين أنفسهم.

* * *

(١) P. 202.

كيف يعود العالم الإسلامي
إلى مكانته القيادية؟[1]

*** اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية :**

لأسباب تاريخية عقلية ، طبعية قاسرة ، ذكرناها في البحوث السابقة ، تحوَّلت أوربة النصرانية جاهليةً مادية ، تجردت من كل ما خلَّفته النبوة من تعاليم روحية ، وفضائل خلقية ، ومبادىء إنسانية ، وأصبحت لا تؤمن في الحياة الشخصية إلا باللذة ، والمنفعة المادية ، وفي الحياة السياسية إلا بالقوة ، والغلبة ، وفي الحياة الاجتماعية إلا بالوطنية المعتدية ، والجنسية الغاشمة ، وثارت على الطبيعة الإنسانية ، والمبادىء الخلقية ، وشغلت بالآلات ، واستهانت بالغايات ، ونسيت مقصد الحياة ، وبجهادها المتواصل في سبيل الحياة ، وبسعيها الدائب في الاكتشاف والاختبار ، مع استهانتها المستمرة بالتربية الخلقية ، وتغذية الروح ، وجحودها بما جاءت به الرسل ، وبإمعانها في المادية ، وبقوتها الهائلة ، مع فقدان الوازع الديني ، والحاجز الخلقي ، أصبحت فيلاً هائجاً ، يدوس الضعيف ، ويهلك الحرث والنسل ، وبانسحاب المسلمين من ميدان الحياة ، وتنازلهم عن قيادة العالم وإمامة الأمَّة ، وبتفريطهم في الدِّين والدُّنيا ، وجنايتهم على أنفسهم ، وعلى بني نوعهم أخذت أوربة بناصية الأمم ، وخلفتهم في قيادة العالم ، وتسيير سفينة الحياة والمدنية التي اعتزل ربَّانها ، وبذلك أصبح العالم كله ـ بأممه ، وشعوبه ، ومدنياته ـ قطاراً سريعاً تسير به قاطرة

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثاني ، المجلد الثاني عشر ، عام ١٩٦٧ م.

الجاهلية والمادية إلى غايتها ، وأصبح المسلمون ـ كغيرهم من الأمم ـ ركّاباً ، لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وكلّما تقدمت أوربة في القوة والسرعة ، وكلما ازدادت وسائلها ووسائطها؛ ازداد هذا القطار البشري سرعةً إلى الغاية الجاهلية ، حيث النار ، والدَّمار ، والاضطراب ، والتناحر ، والفوضىٰ الاجتماعية ، والانحطاط الخلقي ، والقلق الاقتصادي ، والإفلاس الروحي ، وهاهي أوربة تستبطىء الآن أسرع قطار ، وتريد أن تصل إلى غايتها بسرعة الطائرة بل بسرعة القوة الذريَّة .

*** استيلاء الفلسفة الأوربية على العالم :**

وليس على وجه الأرض اليوم أمة ، أو جماعة تخالف الأمم الغربية في عقائدها ، ونظرياتها ، وتزاحمها في سيرها ، وتعارضها في وجهتها ، وتناقشها في مبادئها ، وفلسفتها الجاهلية ، ونظام حياتها المادي ، لا في أوربة ، ولا في أمريكا ، ولا في إفريقية ، وآسيا ، والذي نرىٰ ونسمع من خلاف سياسيٍّ ، ونزاع بين الأمم ، فإنما هو تنافس في القيادة ، وتنازع فيمن يكون هو القائد إلى هذه الغاية المشتركة ، فدول المحور إنما كانت تكره أن يبقىٰ الحلفاء مستبدين بالقيادة العالمية منذ زمن طويل ، مستأثرين بموارد الأرض ، وخيراتها ، وأسواقها ، ومستعمراتها ، وبشرف السيادة على العالم وحدهم ، مع أنها لا تقلُّ عنهم في القوة ، والعلم ، والنظام ، والنبوغ ، والذكاء ، بل ربما تفوقهم ، أما إنَّها كانت تريد أن تسير إلى غاية أخرىٰ ، وأن تقوم بدعوة المسيح ، وتقيم في الأرض القسط ، وأن تقود الأمم إلى الدين ، والتقوى ، وتنصرف بها ، وتتجه من المادية إلى الروحانية والأخلاق ، فهيهات هيهات!

أمَّا روسيا الشيوعية فليست إلا ثمرة الحضارة الغربية ، قد أينعت وأدركت ، ولا تمتاز عن الشعوب والدول الأوربية إلا أن روسية قد خلعت جلباب النفاق والزور ، ونفَّذت ما تزوِّره ، وتبطنه الأمم الغربية منذ زمنٍ طويل ، وتعتقده منذ قرون في الأخلاق والاجتماع ، وقد استبطأت روسيةُ سير هاتيك الأمم والدول في سبيل الإلحاد ، واللادينية ، والإباحية ،

والمادية البهيمية ، فهي تريد أن تتولىٰ قيادة العالم ، وتسير بالأمم الإنسانية سيراً حثيثاً إلى ما وصلت إليه.

*** الشعوب والدول الآسيوية :**

أمَّا الشعوب والدول الآسيوية والأمم الشرقية فهي في طريقها إلى الغاية التي وصلت إليها شعوب أوربة في الحضارة والسياسة ، وتدين بما تدين به هذه الشعوب في الأخلاق ، والآداب ، والاجتماع ، وتعتقد ما تعتقده عن الحياة ، والكون ، وتتحلَّى به من سيرة ، وخلق ، وتهذيب ، إلا أنَّها لا ترضىٰ أن يتولىٰ أمرها النزلاء الأجانب ، ويقيموا عليها الحجر ، كما يقام على السفيه ، وأن تكون للأوربيين عليها دول وإمبراطوريات ، ينعمون في ظلها ، ويرتعون في جنباتها ، ولا يكون لها مثلها في الشرق ، وإفريقية ، وآسيا ، ولا تستمتع حتى في داخل بلادها بما استمتع به الأوربيون طويلاً حتى في خارج بلادهم. أما إنها تنكر على الأوربيين ماديتهم ، وتنقم منهم أخلاقهم وسيرتهم ، وتنعىٰ عليهم فلسفتهم ومبادئهم؛ فلعلَّ ذلك لا يخطر منها على بال ، بل قد زُيِّنَ لها كل ما تتصف به الأمم الأوربية ، فحلا في عينها.

وكلما سنحت لهذه الأمم فرصة الاستقلال ، وملكت زمام أمورها؛ تجلَّت أخلاقها ، ومبادئها ، وظهرت سيرتها الجاهلية في صورتها الطبيعية الحقيقية ، فإذا هي أفظع صورة ، وأبشعها في التاريخ ، قساوة قلب ، وضراوة بالدم الإنساني ، وهتكاً للأعراض ، ونهباً للأموال ، وقتلاً ، وتدميراً ، وقد ظهرت من بعض هذه الشعوب الآسيوية على أثر استقلالها من الحكم الأجنبي فظائع ومنكرات تستبشعها الوحوش والسباع ، وتصتك منها الأسماع ، فقد عاملت بعض الشعوب المواطنة بعصبية دينية وسياسية معاملةً عزَّ نظيرها في التاريخ ، رضعاء يقتلون ، ويقطعون إرباً إرباً ، ونساء تهتك أعراضهنَّ ، ثم يقتلن من غير رحمة ولا حياء ، وآبار تسمم ، وبيوت تهدم ، ونيران تشعل ، وقنابل تقذف ، وإذا دخلوا قرية فاتحين منتشرين أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، ووضعوا فيها السيف ، وعاث

الوحوش في الدماء والأعراض ، حتى أقفرت القرى ، وامتلأت الآبار بالسيدات اللاتي آثرن الموت على هتك الأعراض ، هذا عدا نساء قتلن بهمجية وطرق فظيعة ، لم تسبق في التاريخ ، إلى غير ذلك من الأفاعيل التي يشكُّ فيها الناس في البلاد الإسلامية والمتحضرة.

هذا غير ذلك الاضطهاد الديني ، والمقاطعة الاجتماعية التي تلقاها تلك الطوائف في بلادها ، وما تلقىٰ ثقافتها وديانتها من مطاردة ، ومهاجمة من تلقاء هذه الشعوب ، فتحرم الحرية الثقافية واللسانية ، وترغم على لغة مصطنعة دائرة ، ويحاول الأقوياء أن يمحوا كل أثر من آثار حضارتها وثقافتها ، ويختلقوا عليها الأكاذيب والجنايات ، ويمثلوا قصة الحمل والذئب كلَّ يوم ، فيعزل رجالها من الوظائف ، وتسدُّ في وجوههم أبواب المعاش ، والتجارة ، والحرف ، وتقفل دكاكينهم ومحالُّهم التجارية ، وتصادر أملاكهم وأموالهم بعلل واهيةٍ مضحكة.

ثم إنَّ هذه الأمم أفلست إفلاساً شائناً في الدين والأخلاق ، وقد أشربت في قلوبهم حبَّ المال والمادة ، وتسلَّط عليها شيطان الأثرة والجشع ، حتى ضجَّت منها الحكومات ، وتعبت ، فقد ارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً ، فلما التجأت الحكومة إلى التسعير اختفت السِّلع والأموال ، وأصبح الناس لا يجدون كسوةً ، ولا طعاماً ، ولا حاجة إلا بالسعر الذي يريده التاجر ، فنفقت السوق السوداء ، وشاعت الجنايات ، والخيانات ، والارتشاء ، والتهريب ، وأصبحت الحكومة والتجار كفرسي رهان ، أو قرني ميدان ، كلٌّ يريد أن يغلب صاحبه ، وينتهز غرته ، وأصبح الناس حبة بين حجري الرحىٰ ، لا يدرون كيف يفعلون.

وقد حاول رجال الإصلاح والديانة أن ينفخوا في هذه الأمم حياةً جديدةً ، ويبنوا فيها روح الأخلاق ، والفضيلة ، والأمانة ، والاقتصاد ، فأخفقوا إخفاقاً تاماً ، وعلموا أنَّ خَلْقَ أمة بأسرها أهون من إصلاح هذه الأمم وتهذيبها ، وقد انقطعت مادتها ، وانقضىٰ أجلها.

وهكذا أصبح العالم شرقاً، وغرباً في أزمة روحيَّةٍ، وخلقيَّةٍ، واجتماعيَّةٍ ، واقتصاديَّةٍ تطلب حلاً سريعاً عاجلاً .

*** الحلُّ الوحيد للأزمة العالمية :**

والحلُّ الوحيد هو تحوُّل القيادة العالمية ، وانتقال دفة الحياة من اليد الأثيمة الخرقاء التي أساءت استعمالها إلى يدٍ أخرىٰ بريئةٍ حاذقة .

إنَّ تحوُّل القيادة من بريطانيا إلى أمريكا ومنهما جميعاً إلى روسيا لا يغني غناءً ، ولا يغيِّر من الموقف شيئاً ، فإنَّ هذا التحوُّل ليس إلا نقل المجداف من اليمين إلى الشمال إذا تعبت الأولىٰ ، أو بالعكس ، فما دام المجداف واحداً؛ فلا فرق بين يمينه وشماله ، وليست بريطانيا ، وأمريكا ، وروسيا إلا أيدي رجل واحد ، تتداول دفة الحياة ، وتتناوب تجديف السفينة على خطٍّ واحدٍ ، وإلى جهةٍ واحدة .

إنَّ التحول المؤثر الواضح هو تحوُّل القيادة من أوربة ـ بالمعنىٰ الواسع الذي يشمل بريطانيا ، وأمريكا ، وروسيا ، ومن كان على شاكلتها من الأمم الآسيوية والشرقية ـ التي تقودها المادية والجاهلية ، إلى العالم الإسلامي الذي يقوده سيدنا محمد ﷺ برسالته الخالدة ، ودينه الحكيم .

هذا هو التحول الذي يغيِّر وجه التاريخ ، ويحوِّل مجرىٰ الأمور ، وينقذ العالم من الساعة الرهيبة التي ترقبه .

إنَّ حقاً على العالم الإسلامي أن يمني نفسه بهذا المنصب الخطير ، ويطمح إليه ، وإنَّ حقّاً على كلِّ بلدٍ إسلاميٍّ ، وشعب إسلاميٍّ أن يشدَّ حيازيمه لذلك ، وإنَّ حقاً على كل مسلم أن يجاهد في سبيله ، ويبذل ما في وسعه ، فهذه هي المهمَّة الشريفة التي نيطت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود ، ويوم ظهرت نواتها في جزيرة العرب .

*** العالم الإسلامي على أثر أوربة :**

من الغريب الواقع أنَّ المسلمين قد أصبحوا في الزمن الأخير في كثير من نواحي الأرض حتى في مراكز الإسلام وعواصمه حلفاء للجاهلية الأوربية ،

وجنوداً متطوِّعين لها ، بل صار بعض الشعوب والدول الإسلامية يرىٰ في الشعوب الأوربية التي تزعمت حركة الجاهلية منذ قرون ، ونفخت فيها روحاً جديدة ، وركَّزت أعلامها على الشرق والغرب ، ناصراً للمسلمين ، حامياً لذمار الإسلام المستضعف ، حاملاً لراية العدل في العالم ، قواماً بالقسط .

ورضي عامَّة المسلمين بأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامي ، وسرت فيهم الأخلاق الجاهلية ، ومبادىء الفلسفة الأوربية سريان الماء في عروق الشجر ، والكهرباء في الأسلاك ، فترىٰ المادية الغربية في البلاد الإسلامية في كثير من مظاهرها ، وآثارها ، ترىٰ تهافتاً على الشهوات ، ونهماً للحياة ، نهم من لا يؤمن بالآخرة ، ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة ، ولا يدَّخر من طيباتها شيئاً ، وترىٰ تنافساً في أسباب الجاه والفخار ، وتكالباً عليها ، فعل من يغلو في تقويم هذه الحياة وأسبابها ، وترىٰ إيثاراً للمصالح والمنافع الشخصية على المبادىء والأخلاق ، شأن من لا يؤمن بنبيٍّ ، ولا بكتاب ، ولا يرجو معاداً ، ولا يخشىٰ حساباً ، وترىٰ حباً للحياة ، وكراهة للموت ، دأب من يعدُّ الحياة الدنيا رأس بضاعته ، ومنتهىٰ أمله ، ومبلغ علمه ، وترىٰ افتتاناً بالزخارف والمظاهر الجوفاء ، كالأمم المادية التي ليس عندها أخلاق ولا حقيقة حيَّة ، وترىٰ خضوعاً للإنسان ، واستكانةً للملوك ، والأمراء ، ورجال الحكومة والمناصب ، وتقديسهم شأن الأمم الوثنية ، وعبدة الأصنام .

* المسلمون على علاَّتهم موئل الإنسانية وأمَّة المستقبل :

ولكن برغم كلِّ ما أصيب به المسلمون من علَّةٍ وضعفٍ فإنَّهم هم الأمَّة الوحيدة على وجه الأرض ؛ التي تعدُّ خصيم الأمم الغربية ، وغريمتها ، ومنافستها في قيادة الأمم ، ومزاحمتها في وضع العالم ، والتي يعزم عليها دينها أن تراقب سير العالم ، وتحاسب الأمم على أخلاقها ، وأعمالها ، ونزعاتها ، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوىٰ ، وإلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وتحول بينها وبين جهنم بما استطاعت من القوة ، والتي

يحرم عليها دينها ، ويأبىٰ وضعها وفطرتها أن تتحوَّل أمةً جاهلية .

هذه هي الأمة التي يمكن أن تعود في حينٍ من الأحيان خطراً على النظام الجاهلي ؛ الذي بسطته أوربة في الشرق والغرب ، وأن تحبط مساعيها .

وقد وصف هذا الخطر شاعر الإسلام الحكيم «محمد إقبال» في قصيدته البديعة : (برلمان إبليس) على لسان إبليس ، ذكر فيها : أنَّ الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورىٰ ، وتباحثوا في سير العالم ، وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفةٍ على نظامهم الإبليسي ، ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار قد أحدقت بهم ، وهدَّدت نظامهم ، وجللوا خطبها ، وتناذروا شرها ، فذكر أحدهم الجمهورية وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولنك أمرها ؛ فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ؛ إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ، ويفيق ، ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها ، فألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك . إنَّ الملوكية لا تنحصر في وجود شخص ترتكز فيه الملوكية ، وفرد يستبدُّ بالسلطان ، إنَّما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالاً على غيره ، مستشرفاً إلى متاع غيره ، سواء في ذلك الشعب والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهوري وجهه مشرق وضاح ، وباطنه أظلم من باطن جنكيزخان؟

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدَّهماء التي أثارها هذا اليهودي الذي يُدْعَى كارل ماركس ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ، ولكنه يحمل عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ أنه أقام العالم ، وأقعده ، وأثار العبيد على السادة ، حتى تزعزعت مباني الإمارة والسيادة؟

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحب الفخامة! إنَّ سحرة أوربة ، وإن كانوا مريديك المخلصين ، ولكني لم أعد أثق بفراستهم ، هاهو السامري اليهوديُّ الذي هو نسخة من مزدك (الزعيم الفارسي الاشتراكي) قد كاد يأتي على العالم بقواعده ، فاستنسر البغاث ، وأصبح

الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ، ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحاً) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية ، وهاهي قد استفحلت ، وتفاقم شرُّها ، وهاهي الأرض ترجف بهول فتنة الغد ، يا سيدي! إنَّ العالم الذي كنت تحكمه سينقضُّ عليك؛ إذ ينقلب نظام العالم ظهراً لبطن.

فتكلم رئيس المجلس (إبليس) وقال: إنِّي أملك زمام العالم ، وأتصرف به كيف أشاء ، وسيرىٰ العالم عجباً إذا حرَّشت بين الأمم الأوربية ، فتهارشت تهارش الكلاب ، وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب ، وإذا همست في آذان القادة السياسيين وأساقف الكنائس الروحانيين؛ فقدوا رشدهم ، وجُنَّ جنونهم.

أمَّا ما ذكرتم عن الاشتراكية؛ فكونوا على ثقةٍ أنَّ الخرق الذي أحدثته الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطق المزدكي (الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ، والصعاليك السفهاء.

إن كنتُ خائفاً؛ فإنِّي أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنةً في رمادها ، ولا يزال فيها رجال تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع ، وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً ، لا يخفىٰ علىٰ الخبير المفترس: أنَّ الإسلام هو فتنة الغد ، وداهية المستقبل ، ليست الاشتراكية.

أنا لا أجهل أنَّ هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنَّها فتنت بالمال ، وشغفت بجمعه وادِّخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير أنَّ ليل الشرق داج مكفهر ، وأنَّ علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ، ويضيء لها العالم ، ولكني أخاف أنَّ قوارع هذا العصر وهزاته ستقض مضجعها ، وتوقظ هذه الأمة ، وتوجهها إلى شريعة (محمد ﷺ) إنِّي أحذركم ، وأنذركم من دين (محمد) حامي الذمار ، حارس الذمم والأعراض ، دين الكرامة والشرف ، دين الأمانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغي كلَّ نوع من أنواع الرقِّ ، ويمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرق بين مالك

ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكي المال من كل دنس ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ، ويجعل أصحاب الثروة والملاَّك مستخلفين في أموالهم[(١)] أمناء لله وكلاء على المال ، وأي ثورة أعظم ، وأي انقلاب أشدُّ خطراً مما أحدثه هذا الدِّين في عالم الفكر والعمل يوم صرخ: أن الأرض لله ، لا للملوك والسلاطين. فابذلوا جهدكم أن يظلَّ هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ، وليهنئكم أنَّ المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه ، فخير لنا أن يبقىٰ مشتغلاً بمسائل علم الكلام ، والإلهيات ، وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على أذان المسلم فإنَّه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ، ويبطىء سحره ، اشغلوه يا إخواني! عن الجدِّ والعمل حتى يخسر الرهان في العالم. خير لنا أن يبقىٰ المسلم عبداً لغيره ، ويهجر هذا العالم ، ويعتزله ، ويتنازل عنه لغيره زهداً فيه ، واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا! ويا شقوتنا! لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسُّه[(٢)] .

*** رسالة العالم الإسلامي :**

لا ينهض العالم الإسلامي إلا برسالته التي وكلها إليه مؤسسه ﷺ ، والإيمان بها ، والاستماتة في سبيلها ، وهي رسالة قوية ، واضحة ، مشرقة ، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ، ولا أفضل ، ولا أيمن للبشرية منها.

وهي الرسالة نفسها التي حملها المسلمون في فتوحهم الأولىٰ ، والتي لخَّصها أحد رسلهم في مجلس يزدجرد ملك إيران بقوله: «**الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام**» رسالة لا تحتاج إلى تغيير كلمة وزيادة

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ٧].

(٢) انظر «روائع إقبال» للعلامة الندوي.ص ١٢١ .

حرف ، فهي منطبقةٌ تمام الانطباق على القرن العشرين انطباقها على القرن السادس المسيحي ، كأنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خرج المسلمون من جزيرتهم لإنقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية.

فلا يزال الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم ـ من أوثان منحوتة ، ومنجورة ، ومقبورة ، ومنصوبة ـ ولا تزال عبادة الله وحده مغلوبةً غريبة ، ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق ، ولا يزال إله الهوىٰ يُعبد ، ولا يزال الأحبار ، والرهبان ، والملوك والسلاطين ، وأصحاب القوة والثروة ، والزعماء ، والأحزاب السياسية أرباباً من دون الله تقرَّب لها القرابين ، وينصب لها الجبين.

* وكذلك العالم اليوم رغم اتساعه ، وتوفر وسائل السفر ، والانتقال من مكان إلى مكان ، واتصال الشعوب والأمم بعضها ببعض أضيق بأهله منه بالأمس ، قد ضيقته المادية التي لا تنظر إلا إلى قدمها ، ولا تؤمن إلا بفائدة صاحبها ، ولا تعرف غير العكوف على الشهوات ، وعبادة الذات ، وقد خنقته الأثرة التي لا تسمح لاثنين بالعيش في إقليمٍ واسع ، والوطنية الضيقة التي تنظر إلى كل أجنبي شزراً ، وتجحد له كلَّ فضلٍ ، وتحرمه كلَّ حق.

ثم ضيق خناق هذه الحياة المادية المسيطرون السياسيون؛ الذين يحتكرون وسائل الحياة ، والرزق ، والقوت ، يضيقون هذه الحياة لمن شاؤوا ، ويوسعونها لمن شاؤوا ، ويبسطون الرزق ـ زعموا ـ لمن شاؤوا ، ويقدرونه لمن شاؤوا ، فأصبحت المدن الواسعة أضيق من جحر ضب ، وأصبح الناس في بلادهم في شبه حَجْر كحَجْر السفيه واليتيم ، وضاقت على الناس الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وأصبح الناس في أغلال وأصفاد من المدنية و المملكة مهددين في كلِّ وقت بمجاعات مصطنعة ، وحقيقية ، وحروب خارجية ، وداخلية ، وإضرابات واضطرابات أسبوعية ، ويومية.

نعم ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام! ولا تزال في هذا العصر المتنور الواعي المثقف أديان تعبث بعقول الناس ، وتسخرهم كالحمير والبقر ، وتزين لأتباعها قتل مئات من البشر لأجل بقرة ذبحت في عيد الأضحىٰ ، أو

شجرة مقدسة عضدت في قرية من القرىٰ.

وهنالك أديان بغير اسم الأديان لا تقلُّ في نفوذها وسلطانها ، ولا تقلُّ في جورها ، وعدوانها ، وعبثها بعقول أتباعها ، وفي عجائبها عن الأديان القديمة ، وهي النظم السياسية ، والنظريات الاقتصادية التي يؤمن بها الناس كدين ورسالة ، كالجنسية ، والوطنية ، والديموقراطية ، والاشتراكية ، والدكتاتورية ، والشيوعية ، وهي أقلُّ مسامحةً لمن لا يدين بها ، وأشدُّ قسوة على منافسيها ، وأضيق عطناً من الأديان الجاهلية ، والاضطهاد السياسي اليوم أفظع من الاضطهاد الديني في القرون المظلمة ، فإذا تغلب حزب من الأحزاب الوطنية ، أو ساد مبدأ من المبادىء السياسية ، أو انتصر فريقٌ على فريق في الانتخاب؛ سدَّ في وجه منافسه الأبواب ، وعذبه أشدَّ العذاب ، وما حرب أسبانيا الأهلية التي دامت مدة طويلة ، وسُفكت فيها دماءٌ غزيرة ، وما حرب الصين التي قامت بين الجمهوريين والشيوعيين من أهل الصين ، وحرب «كوريا» التي قامت بين الجنوبيين والشماليين ، إلا نتيجة اختلاف في العقيدة السياسية ، والنظريات الاقتصادية.

فرسالة العالم الإسلامي هي الدعوة إلى الله ورسوله ، والإيمان باليوم الآخر ، وجائزته الخروج من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد ظهر فضل هذه الرسالة ، وسهل فهمها في هذا العصر أكثر من كل عصر ، فقد افتضحت الجاهلية ، وبدت سوءاتها للناس ، واشتدَّ تذمُّر الناس منها ، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام ، ولو نهض العالم الإسلامي ، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة ، ودان بها كالرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال.

*** الاستعداد الروحي:**

ولكنَّ العالم الإسلامي لا يؤدي رسالته بالمظاهر المدنية التي جادت بها

أوربة على العالم ، وبحذق لغاتها ، وتقليد أساليب الحياة التي ليست من نهضة الأمم في شيء ، إنما يؤدِّي رسالته بالروح ، والقوة المعنوية؛ التي تزداد أوربة كلَّ يوم إفلاساً فيها ، وينتصر بالإيمان ، والاستهانة بالحياة ، والعزوف عن الشهوات ، والشوق إلى الشهادة ، والحنين إلى الجنة ، والزهد في حطام الدُّنيا ، وتحمُّل الأذى في ذات الله صابراً محتسباً قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤]. فقوة المؤمن ، وسرُّ انتصاره في إيمانه بالآخرة ، ورجائه لثواب الله ، فإذا كان العالم الإسلامي لا يرمي إلا إلى ما تراه أوربة من العرض القريب ، ولا يطمح إلا فيما تطمح فيه أوربة من حطام الدنيا ، ولا يؤمن إلا بما تؤمن به أوربة من المحسوسات والماديات ، كانت أوربة بقوَّتها المادية أحقَّ بالانتصار والسيادة من العالم الإسلامي؛ الذي يتخلَّف عنها في القوة المادية تخلفاً شائناً ، ولا يفوقها في القوة المعنوية.

لقد أتى على العالم الإسلامي حينٌ من الدهر وهو مستخفٌّ بهذه القوة المعنوية ، لا يحتفل بها ، ولا يحتفظ بالبقية منها ، ولا يغذِّيها ، حتى نضب معينها في قلبه ، فلما خاض العالم الإسلامي في المعارك التي تحتاج إلى الإيمان ، والصبر والثبات ، وتحمل الشدائد والنكبات ، وزلزل بعض الزلزال ، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين ، كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، هنالك عرف أنه قد جنى على نفسه جناية عظيمة بإهمال هذه القوة الروحية وتضييعها ، وبحث في جعبته ، فلم يجد شيئاً يسدُّ مكانها ، ويغني غناءها.

وخاض العالم الإسلامي في معارك حاسمة ، وهو يرى أنَّ المسلمين تقوم قيامتهم ، وسوف يُهرعون للدفاع عن الإسلام وحماية بلادهم المقدسة ، ويغضبون لله ورسوله وحرماته ، وإنَّ الأقطار الإسلامية تشتعل ناراً ، وتتوقَّد حمية وحماسةً ، فإذا الحادث لم يؤثر في العالم الإسلامي التأثير المنتظر ، وإذا النظر ضئيل ، والسخط خافت ، وإذا العالم الإسلامي

كعادته ـ في غدواته وروحاته ـ منهمك في لذاته وشهواته ، كأن لم يحدث كبير شيء ، فعرف أنَّ الحمية الدينية قد ضعفت في العالم الإسلامي ، وأنَّ شعلة الجهاد قد انطفأت ، أو كادت ، وهنالك عرف الناس ضعف العالم الإسلامي ، وخذلانه ، وهوانه علىٰ أنفسهم.

فالمهمُّ الأهمُّ لقادة العالم الإسلامي ، وجمعياته ، وهيئاته الدينية ، وللدول الإسلامية غرس الإيمان في قلوب المسلمين ، وإشعال العاطفة الدينية ، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله ، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأولىٰ ، لا تدَّخر في ذلك وسعاً ، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة ، وطرق النشر والتعليم ، كتجوال الدعاة في القرىٰ والمدن ، وتنظيم الخطب والدروس ، ونشر الكتب والمقالات ، ومدارسة كتب السيرة ، وأخبار الصحابة ، وكتب المغازي والفتوح الإسلامية ، وأخبار أبطال الإسلام وشهدائه ، ومذاكرة أبواب الجهاد ، وفضائل الشهداء ، وتستخدم لذلك الراديو ، والصحافة ، وكتب الأدب ، وجميع القوىٰ والوسائل العصرية.

القرآن وسيرة محمد ﷺ قوتان عظيمتان ، تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان ، وتحدثا في كل وقتٍ ثورةً عظيمة على العصر الجاهلي ، وتجعلا من أمة مستسلمة ، متخاذلة ، ناعسة أمةً فتيةً ملتهبة حماسةً ، وغيرةً ، وحنقاً على الجاهلية ، وسخطاً على النظم الجائرة.

إنَّ علة علل العالم الإسلامي اليوم هو الرضا بالحياة الدنيا ، والاطمئنان بها ، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة ، والهدوء الزائد في الحياة ، فلا يقلقه فساد ، ولا يزعجه انحراف ، ولا يهيجه منكر ، ولا يهمُّه غير مسائل الطعام واللباس ، ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية ـ إن وجدا إلى القلب سبيلاً ـ يحدث صراعٌ بين الإيمان والنفاق ، واليقين والشك ، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة ، وبين راحة الجسم ونعيم القلب ، وبين حياة البطالة وموت الشهادة ، صراع أحدثه كلُّ نبيٍّ في وقته ، ولا يصلح العالم إلا به ،

حينئذٍ يقوم في كل ناحية بلد إسلامي ﴿فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٤].

هنالك تتجدَّد ذكرىٰ بلال، وعمَّار، وخبَّاب، وصهيب، وخبيب، ومصعب بن عمير، وعثمان بن مظعون، وأنس بن النضر، هنالك تفوح رائحة الجنة، وتهبُّ نفحات القرن الأول، ويولد للإسلام عالم جديد لا يشبه العالم القديم في شيء...

*** الاستعداد الصناعي والحربي:**

ولكن مهمة العالم الإسلامي لا تنتهي هنا، فإذا أراد أن يضطلع برسالة الإسلام، ويملك قيادة العالم؛ فعليه بالمقدرة الفائقة، والاستعداد التام في العلوم، والصناعة، والتجارة، وفنِّ الحرب، ويستغني عن الغرب في كل مرفق من مرافق الحياة، وفي كلِّ حاجة من الحاجات، يقوت، ويكسو نفسه، ويصنع سلاحه، وينظم شؤون حياته، ويستخرج كنوز أرضه، وينتفع بها، ويدير حكوماته برجاله وماله، ويمخر بحار المحيط به بسفنه وأساطيله، ويحارب العدو ببوارجه، ودباباته، وأسلحة بلاده، وتزيد صادراته على وارداته، ولا يحتاج إلى الاستدانة من الغرب، ولا يضطر إلىٰ أن يلجأ إلى راية من راياته، وينضمَّ إلى معسكر من معسكراته.

أما ما دام العالم الإسلامي خاضعاً للغرب في العلم، والسياسة، والصناعة، والتجارة، يمتصُّ الغرب دمه، ويحفر أرضه، فيستخرج منها ماء الحياة، وتغزو بضائعه أسواق العالم الإسلامي، وبيوته، وجيوبه كلَّ يوم، فتستخرج منها كلَّ شيء، وما دام العالم الإسلامي يستدين من الغرب الأموال، ويستعير منه الرجال، ليديروا حكومته، ويشغلوا الوظائف الخطيرة، ويدرِّبوا جيوشه، ويستورد منه البضائع، ويجلب منه الصنائع، وينظر إليه كأستاذ ومرب، وسيد ورب، لا يبرم أمراً إلا بإذنه، ولا يصدر إلا عن رأيه، فلا يستطيع أبداً أن يواجه الغرب فضلاً عن أن يناهضه ويغالبه.

هذه هي الناحية العلمية والصناعية التي أخلَّ بها العالم الإسلامي في الماضي فعوقب بالعبودية الطويلة ، والحياة الذليلة ، وابتلي العالم الإسلامي بالسيادة الأوربية الجائرة التي ساقت العالم إلى النار ، والدمار ، والتناحر ، والانتحار ، فإنْ فرَّط العالم الإسلامي مرَّةً ثانيةً في الاستعداد العلمي والصناعي ، والاستقلال في شؤون حياته؛ كتب الشقاء للعالم ، وطالت محنة الإنسانية وبلاؤها .

*** تبوُّء الزعامة في العلم والتحقيق :**

وقد تنازل العالم الإسلامي ـ بما فيه العالم العربي ـ منذ زمن طويل عن مكانته في القيادة العلمية والتوجيه ، والاستقلال الفكري ، وأصبح عيالاً على الغرب متطفلاً على مائدته حتىٰ في اللغة العربية ، وآداب اللغة وعلومها ، وحتىٰ في علوم الدين ، كالتفسير ، والحديث ، والفقه ، وأصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين في البحث والتحقيق ، والدراسة والتأليف ، وهم المنتهىٰ والمرجع والحجة في الأحكام ، والآراء الإسلامية ، والنظريات العلمية والتاريخية ، وهم الأسوة في النقض والإبرام وعدد كبير منهم قسوس ، وإرساليون ، ويهود ، ومسيحيون متعصبون ، يضمرون للإسلام وصاحب رسالته ـ ﷺ ـ العداء والبغضاء ، وللحضارة الإسلامية السخرية والاستهزاء ، ويخونون في النصوص والنقول ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ومنهم عدد لم يتقن اللغة العربية ، ولم يبرع فيها ، وهم يخطئون في فهم النصوص وترجمتها أخطاء فاحشة ، وقد تغلغلت أفكارهم ودعاياتهم في الأوساط العلمية الحديثة في العالم الإسلامي ، وتجلَّت بصورةٍ واضحةٍ في الدعوة إلى فصل الدين عن السياسة ، وأنَّ الدين قضية شخصية لا شأن له بالمجتمع ، وأنَّ الدين عقيدة وعبادة وخلق ، لا شأن له بالسياسة والحكم ، وفي الدعوة إلى تغيير مفهوم الدين وأحكام الشريعة الإسلامية على أساس الحضارة الغربية وفلسفتها . . إلىٰ غير ذلك من الأفكار التي يدعو إليها تلاميذ المستشرقين ، والخاضعون لهم في الشرق الإسلامي .

وقد عجز كتاب الشرق المسلمون ، والمفكرون الشرقيون عن مواجهة الحضارة الغربية وجهاً لوجه ، ونقد أسسها ، وقيمها نقداً حراً جريئاً ، فيه الابتكار ، وفيه الاستقلال ، وقد بلغ بعضهم من ضعف التفكير ، والإغراق في التقليد منزلة رأىٰ فيها أنَّ الحضارة الغربية هي آخر ما وصل إليه العقل البشري ، وأنه لا منزلة وراءها ومنهم من دعا إلى تطبيق الحضارة الغربية برمَّتها ، وعلى علاَّتها في الشرق ، ودعا بعض الأقطار الإسلامية العربية إلى اعتبار نفسها جزءاً لا يتجزأ من القارة الأوربية ، وإذابتها فيها ، واختيار الثقافة اليونانية التي هي أصل الثقافات الأوربية .

وندر في هذه الطبقة وجود «عملاق» يكفر بالحضارة الغربية وفلسفة حياتها ، وقيمها ، ويشرح الحضارة الغربية وأسسها التي قامت عليها في ثقةٍ واعتداد وعلم ، وبصيرةٍ ، ونستثني من هذه الكلية بعض الأفراد الأفذاذ كالعلامة «محمد إقبال» من المسلمين القدامىٰ ، والأستاذ «محمد أسد» من الأوربيين المهديين بالإسلام .

ولا بدَّ ـ إذا أراد العالم الإسلاميُّ أن يقوم على قدميه ، ويفكر بعقله ـ أن يقاوم هذا الخضوع ، ويكون فيه علماء عماليق ، وكتاب جهابذة ، يتناولون الحضارة الغربية بالنقد والتشريح ، وكتابات المستشرقين وآراءهم بالجرح والتعديل . ويتبحَّرون في العلوم الإسلامية ، ويتعمَّقون فيها ، حتىٰ يفيد منهم كبار المستشرقين في أوربة وأمريكا ، ويصححون بهم آراءهم وأخطاءهم ، ويتوجه روَّاد العلم والتحقيق والدراسات العالية إلى عواصم العالم العربي ، وحواضر العالم الإسلامي ، كما اعتادوا أن يتوجهوا إلى عواصم أوربة وأمريكا ، فهذه المدن الإسلامية أولىٰ بأن تكون مركزاً للثقافة الإسلامية ، والعلوم الدينية ، وآداب اللغة العربية من العواصم الأوربية ، وجامعات أوربة ، ومن سقوط الهمَّة والقناعة بالدون أن تتخلىٰ هذه العواصم العريقة في العلم والدين عن زعامتها العلمية ، ومكانتها الرئيسية .

*** التنظيم العلمي الجديد :**

ولا بدَّ للعالم الإسلامي من تنظيم العلم الجديد بما يوافق روحه

ورسالته. وقد ساد العالم الإسلامي على العالم القديم بزعامته العلمية، فتسرَّب بذلك في عقلية العالم وثقافته، وتغلغل في أحشاء الأدب والفلسفة، وظلَّ العالم المتمدن قروناً يفكر بعقله، ويكتب بقلمه، ويؤلف بلغته، فكان المؤلفون في إيران، وتركستان، وأفغانستان، والهند لا يؤلفون كتاباً له شأن إلا باللغة العربية، وكان بعضهم يؤلف الأصل بالعربية، ويلخصه بالفارسية، كما فعل الغزالي في: «كيمياء السعادة».

وإن كانت هذه الحركة العلمية التي ظهرت في صدر الدولة العباسية متأثرة باليونان والعجم، وغير مؤسسة على الفكر الإسلامي النقي، والروح الإسلامي، وإن كانت فيها مواضع ضعف من الناحية العلمية والدينية، ولكنها سادت على العالم بقوتها، ونشاطها، واضمحلت أمامها النظم العلمية القديمة.

وجاءت نهضة أوربة، فنسخت هذا النظام القديم باختباراتها، ونقدها العلمي، ووضعت منهاجاً للعلم والدراسة كان نسخةً صادقةً لروحها، وعقليتها، ونفسيتها المادية، فلا يخرج منه الطالب إلا وهو متشبع بهذه الروح، وخضع العالم مرَّةً ثانية لهذا النظام التعليمي، وخضع له العالم الإسلامي بطبيعة الحال ـ إذ كان مصاباً بالانحطاط العلمي، والشلل الفكري من زمان، وكان لا يجد المدد والغوث إلا في أوربة ـ فقبل هذا النظام التعليمي على علاته، فهو النظام السائد اليوم في أنحاء العالم الإسلامي.

وكانت نتيجة هذا النظام الطبيعية، صراعاً بين النفسية الإسلامية ـ إن كانت لا تزال في الشباب لم تقتلها البيئة ـ وبين النفسية الجديدة، وبين وجهة الأخلاق الإسلامية، ووجهة الأخلاق الأوربية، وبين الميزان القديم والجديد للأشياء وقيمتها، وكانت نتيجة هذا النظام حديث الشك والنفاق في الطبقة المثقفة، وقلة الصبر، ونهامة الحياة، وترجيح العاجل على الآجل، إلى غير ذلك مما هو من طبائع المدنية الأوربية.

فإذا أراد العالم الإسلامي أن يستأنف حياته، ويتحرَّر من رقِّ غيره،

وإذا كان يطمح إلى القيادة؛ فلا بد إذاً من الاستقلال التعليمي ، بل لا بدَّ من الزعامة العلمية ، وما هي بالأمر الهيِّن ، إنها تحتاج إلى تفكيرٍ عميق ، وحركة التدوين والتأليف الواسعة ، وخبرة إلى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر ، مع التشبع بروح الإسلام ، والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه ، إنها لمهمة تنوء بالعصبة أولي القوة ، إنما هي من شأن الحكومات الإسلامية ، فتنظم لذلك جمعيات ، وتختار لها أساتذة بارعين في كلِّ فنٍّ ، فيضعون منهاجاً تعليمياً يجمع بين محكمات الكتاب ، والسنة ، وحقائق الدين التي لا تتبدل ، وبين العلوم العصرية النافعة ، والتجربة ، والاختبار ، ويدوِّنون العلوم العصرية للشباب الإسلامي على أساس الإسلام ، وبروح الإسلام ، وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد ، مما ينظمون به حياتهم ، ويحافظون به على كيانهم ، ويستغنون به عن الغرب ، ويستعدُّون للحرب ، ويستخرجون به كنوز أرضهم ، وينتفعون بخيرات بلادهم ، وينظمون مالية البلاد الإسلامية ، ويديرون حكوماتها على تعاليم الإسلام بحيث يظهر فضل النظام الإسلامي في إدارة البلاد ، وتنظيم الشؤون المالية على النظم الأوربية ، وتنحلُّ مشاكل اقتصادية عجزت أوربة عن حلِّها.

وبالاستعداد الروحي ، والاستعداد الصناعي ، والحربيِّ ، والاستقلال التعليمي ينهض العالم الإسلاميُّ ، ويؤدِّي رسالته ، وينقذ العالم من الانهيار الذي يهدِّده. فليست القيادة بالهزل ، إنما هي جدُّ الجدِّ ، فتحتاج إلى جدٍّ واجتهاد ، وكفاحٍ وجهاد ، واستعدادٍ أي استعداد:

كلُّ امرئٍ يجري إلىٰ يوم الهياج بما استعدَّا

* * *

ليتجدَّد الإيمان[1]

خاض العالم الإسلامي معارك حاسمة ، وهو يرىٰ أنَّ المسلمين لا بدَّ أن يهرعوا للدفاع عن الإسلام ، وحماية بلادهم المقدسة ، وسيغضبون لله ولرسوله وحرماته ، وأنَّ الأقطار الإسلاميَّة ستشتعل ناراً ، وتتوقَّد حميَّةً وحماساً ، فإذا الحادث لم يؤثر في المسلمين التأثير المنتظر ، وإذا النصر ضئيل ، والسخط خافت ، وإذا المسلمون كعادتهم في غدواتهم ، وروحاتهم منهمكين في لذاتهم وشهواتهم ، كأن لم يحدث كبير شيء ، فاعرف : أن الحمية الدينية قد ضعفت في المسلمين ، وأنَّ شعلة الجهاد قد انطفأت أو كادت ، وهنالك عرف الناس ضعف العالم الإسلامي ، وخذلانه ، وهوانه على أنفسهم .

وبعد ذلك أقول : إنَّ العالم الإسلامي على ضعفه وانحرافه مستعد كل الاستعداد ، ليكون ذلك العالم الإسلامي السليم القوي الدافق بالحياة الذي يصحُّ الاعتماد عليه في حلِّ المشكلات الإنسانية كلِّها ، فضلاً عن مشكلة واحدة ، ولو كانت ضخمةً معقدةً ، كمشكلة فلسطين .

إنَّه مستعد ليكون ذلك؛ لأنه لا يزال مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالنبوة المحمدية ، على صاحبها الصلاة والتحية ، إنَّه لا يزال متصلاً بمنبع الدين وإمامه ، وقائده ، والإيمان هو قوة العالم العربي التي حارب بها العالم البشري كله ، فانتصر عليه ، وهو قوته وسلاحه اليوم ، كما كان بالأمس ،

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الرابع ، المجلد الثاني عشر ، عام ١٩٦٧ م .

به يقهر أعداءه ، ويحفظ كيانه ، ويؤدي رسالته ، إنَّ العالم العربي لا يستطيع أن يحارب الصهيونية ، أو الشيوعية أو عدواً آخر بالمال الذي ترضخه بريطانيا ، أو تتصدق به أمريكا ، أو تعطيه مقابل ما تأخذه من أرضه من الذهب الأسود ، إنما يحارب عدوه بالإيمان والقوة المعنوية ، وبالروح التي حارب بها الدولة الرومية ، والإمبراطورية الفارسية في ساعةٍ واحدةٍ ، فانتصر عليهما جميعاً. إنه لا يستطيع أن يحارب أعداءه بقلب يحب الحياة ، ويكره الموت ، وبجسم يميل إلى الدعة والراحة ، وعقل يخامره الشك ، وتتنازع فيه الأفكار والأهواء ، أو بيد مضطربة ، وقلب مشكك ضعيف الإيمان ، وقوة متخاذلة في الميدان ، فالمهمُّ لأمراء العرب وزعمائهم وقادة الجامعة العربية أن يغرسوا الإيمان في الشعوب العربية ، وجماهير الأمة وأولياء الأمور ، والجيوش العربية والفلاحين والتجار ، وفي كل طبقة من طبقات الجمهور ، ويشعلوا فيها شعلة الجهاد في سبيل الله والتَّوق إلى الجنة ، ويبعثوا فيها الاستهانة بالمظاهر الجوفاء وزخارف الدنيا ، ويعلموهم كيف يتغلبون على شهوات النفس ومألوفات الحياة ، وكيف يتحمَّلون الشدائد في سبيل الله ، وكيف يستقبلون الموت بثغرٍ باسم ، وكيف يتهافتون عليه تهافت الفراش على النور.

* * *

غارة التَّتار علىٰ العالم الإسلامي
وظهورُ مُعْجِزَة الإسلام[1]

غارَةُ التَّتار وأسبابُها الحقيقيَّة في ضوء القرآن :

واجه العالم الإسلاميُّ في القرن السابع الهجري كارثةً ينذُر نظيرها في تاريخ العالم ، وكادت تقضي هذه الكارثة على شخصية العالم الإسلامي ، وهو زحفُ الوحوش التتار الذين تقدَّموا نحو الشرق كجرادٍ منتشر ، وسيطروا على العالم الإسلاميِّ كله.

والمعروفُ أنَّ السبب في هذه الكارثة ، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزم ، وذلك أنَّه أمر بقتل التُّجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما أرسل إليه جنكيز خان سفيراً يسأله عن سبب قتل التجار ، قتله أيضاً ، فاشتعل جنكيز خان غضباً ، وقام بحملة هوجاء علىٰ مملكة خوارزم شاه ، ثم على عالم الإسلام كله.

ولكن إذا تدبَّرنا في ضوء ذلك القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذي أشار إليه القرآن ، ولا سيما ما ذكره في بدء سورة «الإسراء» من تدهور بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض ، وعُلوِّهم وتمردهم ، وما جرَّ ذلك إلى زحف الملوك الظالمين ، وتسلُّطهم على بني إسرائيل ، وخراب المسجد الأقصىٰ ، يبدو لنا أنَّ السبب الحقيقي في هذه الفتنة الكبرىٰ ، والمِحنة التي أصيب بها العالم الإسلامي ،

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السابع المجلد الثالث عشر ، عام ١٩٦٩ م.

ليس أن يقترف ملك أو حاكم من خطأ في التدبير والسياسة ، فيتدفَّق سيلٌ عَرِم من المحن والبلاء ، ويفاجىء العالم الإسلامي ، وتُصاب الأمة الإسلامية بهذه الفتنة العمياء ـ التي لم تكن تتوقعها ، ولا تستحقها ـ لمجرد أن يُخطىء فرد من أفرادها .

إذا حملنا نبراس القرآن في يدنا ، واستعرضْنا أوضاعَ المسلمين الخُلقية والدينية ، والمدنية والسياسية في ذلك العصر تحقَّق لنا كالشمس في رائعة النهار ، أنَّ هذه الحادثة المشؤومة لم تكن مفاجأة ، وإنما هناك أسباب أكثر عمقاً وأصالة مما ظنَّه الناس ، وذكروه ، ولكي نبحث عن هذه الأسباب العميقة الأصلية يجب أن نتأخر إلى سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس بإجمالٍ أوضاع الدول الإسلامية ، ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع في ذلك العصر .

أوضاعُ العالم العَربيِّ ومَركز الخلافة في هذا العصر :

إنَّ المملكة الأيوبية توزّعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٨٩ هـ بين أولاده وأفراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهّلاتهم وكفاءاتهم في أداء هذه الأمانة التي آلتْ إليهم ، شأن كثيرٍ من أولاد الولاة ، وأولي العَزْم من الحكام ، فقد ظلَّ الصراع قائماً بينهم إلىٰ مدَّةٍ طويلةٍ ، حتىٰ إنَّ بعضهم لم يتلكؤوا في الاستعانة بالصليبيين بتدبير المؤامرة ضدَّ إخوانهم وأصحابهم ، وقد أنتج هذا الوضع الشاذ اضطراباً سياسياً ، وانحلالاً خُلقياً ، وفوضىٰ في سائر الولايات التابعة لهذه المملكة ، وكان الناس يعيشون في جوٍّ من القلق ، والخوف .

هذا وكانت الغارة الصليبية الإفرنجية تتعاقب على تلك الحواضر الإسلامية ، التي كان السلطان صلاح الدين قد استردَّها بعد تضحيات ضخمة ، وقد فشتْ أمراضٌ ، وأوبئةٌ ، ومجاعاتٌ شديدة نتيجةً لهذا الانحطاط الخلقي ، والانحراف الإداري ، وفي سنة ٥٩٧ هـ حدثت مجاعةٌ في مصر ، فما فاض فيها النيل ، وتزلزلت أرض مصر بمنازعات الملكين العادل ، والأفضل ، حتى اشتدَّ الغلاء بأرض مصر ، فهلَك خلق كثيرٌ جداً

من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناءٌ عظيم ، حتىٰ حكىٰ الشيخ أبو شامة في «الذيل» :

«إنَّ العادل كفَّن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحواً من مئتي ألفٍ وعشرين ألفٍ ميت ، وأُكلت الكلاب والميتات فيها بمصر ، وأكل من الصغار والأطفال خلقٌ كثير ، يشوي الصغيرَ والداه ويأكلانه ، وكثر هذا في الناس جدّاً حتى صار لا ينكر بينهم ، فلما فرغَتِ الأطفال والميتات ، غلب القويُّ الضعيف ، فذبحه ، وأكله»(١) .

واستمرَّت هذه الحال وفقاً لسنة الله في الأرض ، وظلَّت الإنذارات السماوية ، والأحداث الجسام تُحذِّر الناس ، وكانتْ كفيلة بأن تبعث الناس على التوبة والإنابة إلى الله ، وإصلاح أحوالهم **«وحدثت في نفس هذه السنة زلزلةٌ عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة ، والروم ، والعراق . . . وأخربتْ محالَّ كثيرةً من طرابلس ، ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوىٰ حارة السامراء ، ومات بها وبِقُراها ثلاثون ألفاً تحت الرَّدم . . . ومات أممٌ لا يُحصون ، ولا يعدُّون، حتى قال صاحب «مرآة الزمان» : إنه مات في هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومئة ألف إنسان قتلاً تحتها**(٢) **والله أعلم»** .

هذا ، وقد تفاقم الشَّرُّ في مركز الخلافة (دار السلام بغداد) ، وسيطرت عليه مظاهر الأبَّهة الملوكية ، والسلطان الأعمىٰ ، وتغلغل نفوذ الخدم والحشَم في قصور الخلفاء ، وبلغت الثروة ، والمدنية ذروتهما ، ولا يمكن أن نتصوَّر ما كان يمتلكه الخدم والمماليك الذين كانوا لدىٰ الخلفاء من المال والعقار .

ويكفي أن نذكر على سبيل المثال : أنَّ علاء الدين الطبرسي الظاهريَّ ـ وهو ممن اشتراهم الخليفة الظاهر ـ كان يَحصل له من أملاكه التي

---

(١) «البداية والنهاية» ج ١٣ ص ٢٦ .
(٢) أيضاً : ص ٢٧ .

استجدَّها نحو ثلاثمئة ألف دينار سنوياً ، وكانت له دار لم تكن ببغداد مثلها ، وكذلك مجاهد الدين أيبك الدُّويدار المستنصري ، وقد ملك جَزيل الأموال من العين ، والرقيق ، والدواب ، والعقار ، والبساتين والضياع ، ويتعذَّر وصفُ ما أنفقه من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، والجواهر التي جهز بها أولاده وبناته في ليالي الزفاف ، كما أن الفرَّاش صلاح عبد الغني بن فاخر المتوفىٰ ٦٤٨هـ ، وكان شيخ الفرَّاشين بدار الخلافة ، كان يعيش مع خُلُوّهِ من العلم عيشة الملوك ، بينما كان مُدرسو المدرسة المستنصرية في هذا العصر ـ وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يُدرسون في أكبر جامعة إسلامية فيها ـ لا يتقاضىٰ الواحد منهم أكثر من ١٢ ديناراً شهرياً .

وبجانب ذلك نجد أن ٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم للشرابي علي مجد الدين أيبك المستنصري ، المعروف بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأنَّ ٣٠٠٠ دينارٍ أعطاها الشرابي للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر من الموصل .

ولكي نُدرك مدىٰ نفوذ هذه المظاهر الكاذبة ، والتظاهر بالفخفخة ، والأبهة الملوكية يجب أن نعرف أنَّ المواكب التي كانت تخرج في مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس ، حتىٰ إنهم كانوا يتناسون أنفسهم ، ويتشاغلون عن أداء الصلوات ، ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكي ، الذي خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠ هـ استمرَّ إلى الليل ، وصلىٰ الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاءً[١] ، وذكر في «العسجد المسبوك» أنَّ العساكر في عاشر ذي الحجة سنة ٦٤٤ هـ خرجوا إلى ظاهر البلد ، وصلُّوا صلاة العيد وقت غروب الشمس ، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرَّاتٍ عديدةً فمن الأمور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليدِ وعتبة باب النوبي ، وحافِرِ الخيل ، والأرض ، والرغام .

---

(١) الحوادث الجامعة أخبار سنة ٦٤٠ هـ.

وقد تميَّز هذا العصر بكثرة المصادرات ، وتفشي الرشوة ، وعزل كبار الموظفين ، وإلقاء القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم ، وتفاقم أمر الباطنية ، والشُّطَّار ، والعيَّارين ، واشتداد النزاع الطائفي ، والتفكك الخلقي ، والانصراف إلى الملاهي ، والقِيان ، والتكاثر في الأموال[1].

وفي نفس هذه الأيام كان التَّتر يعبثُون بكرامة فارس وتركستان ، ويأتون عليهما من كلِّ جانب ، وكانت أبصارُهم شاخصةً إلى بغداد ، أكبر مركز إسلامي في ذلك العهد ، يتحدَّث المؤرخ الشهير ابن كثير عن استهلال سنة ٦٢٦ هـ بما يأتي :

«**استُهلَّت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون ، مختلفون**» ، وظلَّت بغداد دار الخلافة الإسلامية مركزاً للاضطراب والفساد ، ولم يتمكَّن الناس من السفر للحج ، ولا استطاع الخليفة تغيير كسوة الكعبة الشريفة ، التي قد جَرت عادة خلفاء الإسلام من قديم بتغييرها ، بين ٦٤٠ هـ و٦٤٣ هـ ، وبقيت جُدران الكعبة عاريةً عن الكسوة إلىٰ ٢١ يوماً ، فتشاءم به الناس.

في سنة ٥٧٥ هـ جلس الخليفةُ الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته إلى أكثر من ٤٦ سنة ، وهي مدةٌ طويلةٌ لم تتيسر لأحدٍ من الخلفاء العباسيين ، ولكنَّها أظلمُ عهدٍ في تاريخ الخلافة العباسية ، وقد ذمَّه المؤرخون ، وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدَّث عنه المؤرخ ابن الأثير ، فيقول :

«**وكان قبيح السيرة في رعيته ظالماً ، فخرِب في أيامه العراق ، وتفرَّق أهله في البلاد ، وأخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان يفعل الشيء وضدَّه ، فمن ذلك : أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان ، فبقيت مدَّةً ، ثم قطع ذلك ، ثم عمل دور الضيافة للحجَّاج ، فبقيت مُدةً ، ثم أبطلها ، وأطلق بعض المكوس التي جدَّدها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جُلَّ**

---

(١) استفاد صاحب المقال في هذا الفصل من مقال «عصر الشرابي ببغداد» للأستاذ ناجي معروف المنشور في مجلة «الأقلام» عدد محرم سنة ١٣٨٦ هـ.

همه في رمي البندق ، والطيور المناسيب ، وسراويلات الفتوة ، فبطل الفتوة في البلاد جميعها ، إلا من يلبس منه سراويل يُدعىٰ إليه ، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة ، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك ، فكان غرامُ الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور ، وكان سببُ ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد ، وراسلهم في ذلك»(1) .

توفي الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢ هـ ، وخلفه المستنصر بالله ، وكان جميل الصورة ، حسن السريرة ، جيِّد السيرة ، كثير الصدقات ، والبرِّ ، والصِّلات ، مُحسناً إلى الرعيَّة بكلِّ ما يقدر عليه ، فكان نموذجاً للخلفاء الصالحين في كثير من خصائصه وعاداته ، ولكنَّه ـ مع الأسف ـ لم يجد فُرصة للتنظيم والإصلاح ، وخلَفه ولدُه المستعصم بالله في سنة ٦٤٠ هـ وكان المستعصم صحيح العقيدة ، متديناً ، يظهر عليه خشوعٌ وإنابة ، لم ينقل عنه أنه عصىٰ الله بفَمه ، ولا بفَرجه ، ولا شرب مُسكراً ، ولا أخلَّ بصيام الإثنين والخميس من كل شهر ، وكان يصوم شهر رجب من كلِّ سنة ، وكان يحفظ القرآن ، مواظباً على الصلوات في أوقاتها ، إلا أنَّ المستعصم لم يكن بصيراً بتدبير الملك على ما رواه ابن كثير ، وكان فيه لينٌ ، وعدم تيقظ ، ومحبة للمال ، وجمعه .

وفي سنة ٦٤٢ هـ استوزر الخليفةُ المستعصمُ بالله محمدَ بنَ العَلْقمي ، ولكنَّه لم يكن وزيرَ صدق ، ولا مرضيَّ الطريقة ، فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين أهل السنة والرافضة في سنة ٦٥٥ هـ «نُهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نُهبت دور قرابات الوزير ، فاشتدَّ حَنَقُه على ذلك ، فكان هذا مما أهاجه على أن دبَّر على الإسلام وأهلِه ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يُؤرخ أبشعُ منه منذ بُنيت بغداد»(2) .

---

(١) تاريخ «الكامل» ج ١٢ ص١٨١ .
(٢) «البداية والنهاية» ج ١٣ ص ٢٠١ .

وبالرغم من أن التتار كانوا يتقدمون نحو بغداد ، وكان الخطر التتاري يقرعُ الأبواب ، كانت «**جيوش بغداد في غاية القلة ، ونهاية الذلة ، لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش كلهم ، قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعصىٰ كثيرٌ منهم في الأسواق ، وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ، ويحزنون على الإسلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي**»(١) .

كان المستعصم رجلاً صالحاً حسن السيرة والفكر ، وكان يحرص على إصلاح الأوضاع ، ورفاهية البلاد ، ولكنَّ فساد الناس واضطرابهم ، وفساد رجال الحكومة بلغ مبلغاً لا يؤثر فيه إلا من رُزق الإرادة القوية ، والشخصية العبقرية ، ومن يستطيع أن يقف سدّاً منيعاً في وجه الفساد ، ويتغلب علىٰ الأوضاع السيئة ، ولم ينفع في مثل هذه الحال إلا العظماء؛ الذين افتتحوا عهداً جديداً ، وأسَّسوا حكوماتٍ جديدةً في التاريخ .

لقد تكرر في التاريخ أنَّ آخر أفراد أسرةٍ حاكمة ، وآخر حاكم في مملكة آخذة بالانحطاط كان يتَّصف بالصَّلاح والتقوىٰ ، غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد وصلت إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور ، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طَفحت ، فلم يكن هنالك من يحول بين هذه الحكومة وبين نهايتها الأليمة التي كان يفرضها قانون السماء ، وتقتضيها طبائع الأشياء ، وشاءت الأقدار أن يُعتبر ذلك الرجل الأخير مسؤولاً عن نهاية الحكومة في أسرتِه الحاكمة بالرَّغم من أنه كان أكثر صلاحاً وديانة ، وأحرصَ على إصلاح الفساد من سَلفه الماضين .

وقد كان عددٌ من الصالحين مشتغلين بالعلم ، والتدريس ، والعبادة ، كما كان عددٌ منهم معتزلين في الزوايا والمساجد ، ولكنَّ الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام ، والمترفين . يقول المؤرخ أبو الحسن الخزرجي يَصف أهل العراق يومئذٍ :

---

(١) «البداية والنهاية» ج١٣ ص ٢٠١ .

«واهتمُّوا بالإقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر في المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوز من الأمور الدنيوية ، واشتدَّ ظُلم العمَّال ، واشتغلوا بتحصيل الأموال ، والمُلك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظُّلم»(١) .

القِسْمُ الشَّرقِيُّ من المَمْلَكَةِ الإِسْلاَمِيَّة :

وكان ملوك الخوارزم مُنفردين بالحُكم في الجزء الشرقي للعالم الإسلامي ، قامتْ دولتهم ذاتُ الشوكة على أنقاض المملكة السلجوقية في آخر القرن الخامس الهجري ، وكان العالمُ الإسلاميُّ كلُّه خاضعاً للحكم الخوارزمي باستثناء مصر والشام ، والعراق والحجاز ، والمنطقة السَّلْجُوقِيَّة الصغيرة الواقعة في الشمال الغربي لآسيا الصغرىٰ ، وكان علاءُ الدِّين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ ـ ٦١٧) أعظم ملوك الأسر طموحاً ، وأعلاهم همَّة ، وأكثرهم فتحاً وانتصاراً ، وهو أكبر ملك مسلم ، وأقواهم في عهده ، يتحدَّث عنه المؤرخ «هيرلد ليمب» في كتابه «جنكيزخان» فيقول :

«كان السلطان محمد خوارزم شاه متربعاً على عرش الملك في قلب البلاد الإسلامية ، وكانت رقعةُ مُلكه تمتدُّ من ثغور الهند إلى بغداد ، ومن بحر الخوارزم (آرال) إلى خليج الفُرس ، وكان مسيطراً على الممالك الإسلامية كلها عدا دولة الأتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصليبيين ، وأسرةِ السلاطين من مماليك مصر ، وكان محمد إمبراطوراً بالنظر إلى مكانته ، وبالرغم من أنَّ الخليفة العباسي الناصر لدين الله سَخِطَ عليه ، ولكنَّه كان يعترف بقوته ، إنَّ الخليفة في بغداد بعد ما تجرَّد عن كل سلطان دُنيوي عاد مجرَّد رمزٍ ديني ، شأن البابوات في رومة»(٢) .

أما المؤرخون العرب ، فإنَّهم لا يُشيرون إلى موضع ضَعْفٍ وعيب شخصي كبير في سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه ، بل إنَّهم يعترفون

---

(١) مقال الأستاذ ناجي معروف «عصر الشرابي ببغداد» مجلة «الأقلام» عدد محرم ١٣٨٦ هـ.

(٢) «جنكيز خان» ص ١٤٧ .

بتديُّنه ، وحسن عقيدته ، وشجاعته ، وتصلُّبه بوجهٍ عام ، ولكنَّ الذي لا خلاف فيه ، أنه بذل جميع مواهبه وطاقاته في القضاء على الحكومات الإسلامية الصغيرة والكبيرة ، حيثما وُجدت في هذا الجزء الشرقي الواسع ؛ إنَّه اضطر السلاجقة إلى التأخر والانسحاب إلى آخر حدودهم في جانب ، كما أنه ظلَّ يحارب الغُوريين في الشرق والجنوب في جانب آخر ، واضطرهم إلى الانحصار في جُزء محدود ، وإنَّ خيرةَ عناصر الفروسية والنضال في إيران وتركستان قد أثخنتها الحروب الطاحنة المتواصلة ، التي لم تكد تنتهي ، فكان الجو الحربيُّ يسود على المدن والأقاليم الخصبة الغنية ، وعلىٰ مشاعر أهلها في كل حين ، وقد اجتمعتْ غنائمُ البلاد المفتوحة ، وحاصلاتُ الأقاليم الخصبة ، وتأنَّق الصُّناع في الصناعات وأدوات الزينة ، فبلغت بذلك كله المدنيَّة أوْجَها ، واجتمعت جميع عوامل الغنىٰ والجِدة ، والرفاهية ، والانتصارات ، وما يتبعها من تَرَفٍ وبطر.

ومن الصعب العسير أن يُوجد حديثٌ عن الأدواء الخُلقية ، التي كانت تُعانيها الحضارة والمجتمع في كتب التاريخ التي تدور حول البلاط الملكي ، والسراري ، ورجال الحكومة ، وإنَّ مظنة هذا الحديث هي كتب المشائخ الصوفية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وكتب المواعظ ، التي اكتسح معظمَها السيلُ التتاري ، ولا يسعُنا أن نحمل ما صرَّح به المؤرخ المسيحي «هيرلد ليمب» في كتابه «جنكيزخان» على مُجرد التعصُّب الديني والمبالغة ، إنه يقول:

«إنَّ العالَم الذي كان يعيش فيه المسلمون كان عالم الحرب والجلاد ، وكان لا يخلو من شغَفٍ بالغناء والموسيقا ، ومن الطرب والاهتزاز ، لكنَّه رغم هذا الظاهر كان يعيش في قَلَقٍ واضطراب ، فكان المماليك والعبيد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس في جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخُلقية ، والمؤامرات السياسية ، وكان زِمام الأمور في يد أولئك الذين كانوا يَنْهَبُون الرعية ، ويترفَّهون علىٰ

حسابها ، وكان حِراسة الحُرَم والإشراف على السراري للخصيان»[1].

خَطَأُ المُلوك الخوارزمية :

وقد صدر عن الملوك الخوارزميين نفسُ الخطأ الكبير الذي وقع فيه الحكام العرب في الأندلس ، ولم يَعْفُ عنهم قانون المكافأة الإلهي ، وذلك: أنهم بذلوا كلَّ قواهم في توسيع رقعة الملك ودعمه. وقمع الخصوم ، ولم يبذلوا أيَّ اهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القِسم البشري الذي كان يعيش بجوار حُدودهم ، وكان بنفسه عالَمَاً مستقلاً ، وبصرف النظر عن الدافع الديني والواجب الإسلامي؛ كان مُقتضىٰ الحزم السياسي ، وبعد النظر أن يُعْنَوا بإيجاد الانسجام العقائدي مع هذه الدنيا الإنسانية الواسعة ، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجاً ، يحفظهم عن ذلك الخطر الذي لم يواجههم وحدَهُم فحسب ، بل اكتسح المسلمين كُلَّهم.

زَحْفُ التتار نَحْوَ العالَم الإسلاميِّ :

في نفسِ هذه الأحوال والزمان تقدَّم التتار باديءَ ذِي بَدء ، كعقاب إلٰهي بقيادة ملكهم «جنكيزخان»[2] نحو الجزء الشرقي للعالم الإسلامي ، إيران ، وتركستان حتىٰ وصلوا إلى بغداد التي أسلفنا ذكرها ، وأخيراً قاموا بتدميرها ، وإبادة أهلها سنة ٦٥٦ هـ ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

إنَّ الدافع القريب لهذا الزحف التتاري ، في عالم الأسباب ، هو أن جَنكيزخان بعث إلى خوارزم شاه رسولاً يقول له: إنَّك تحكم رقعةً عريضة كما أنني أملك مملكةً واسعة ، فإذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ،

---

(١) «جنكيز خان» ص ١٤٣.

(٢) مبدأ مملكة جنكيز خان سنة ٥٩٥ هـ ، وأول حملة على حكومة خوارزم شاه كانت في سنة ٦١٦ هـ وقد مات جنكيز خان ٦٢٤ هـ ، فقام أبناؤه وأحفاده بتحقيق غاياته التي أرادها ، فلما واجهت بغداد الغارة التتارية سنة ٦٥٦ هـ ، كان هولاكو حفيد جنكيز خان قائد القوات التتارية وأميرها.

وسُمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك في صالح البلدين ، فقبل ذلك خوارزم شاه ، وقامتِ العلاقات التجارية ، وبدأ التجار يتبادلون أموال التجارة بين البلدين ، ولكنْ ما الذي حدث بعد ذلك حتىٰ شهد العالم الإسلامي ذلك اليوم المشؤوم الذي يُدعىٰ بغارة التتار؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك المؤرخ الغربي «هيرلد ليمب» ويُصدِّقه تماماً ما جاء في التاريخ الإسلامي ، إنه يقول:

«انفصمت العلاقاتُ التجارية التي أقامها جنكيزخان بين البلدين فجأةً ، وكان السبب في ذلك أنَّ قافلة من التجار كانت متوجهة من «قراقورم» إلى الغرب ، فلما وصلت إلى «أترار» تعرَّض لها حاكمها الذي كان يدعىٰ باينل جق ، وأسر رجالها ، وأخبر مَلِكه خوارزم شاه بذلك ، وقال: إنَّ هذه القافلة لا تخلو من جواسيس جنكيزخان ، وكان هذا الخبر ممَّا يُؤيِّده العقل.

وما أن وصل الخبر إلى خوارزم شاه حتىٰ أمر بقتل التجار كلِّهم دون أن يفكر في هذه القضية ، ويتأنَّىٰ في إصدار الأمر ، ونفَّذ أمرهُ بقتل التجار الذين جاؤوا من قراقورم ، ولما علم بذلك جنكيزخان ، أرسل سفراءَه إلى خُوارزم شاه يشكو إليه ما حدث مع هؤلاء التجار ، وانتهز خوارزم شاه الفرصةَ فقتل رئيس السفراء ، وأمر بإحراق لِحَىٰ الباقين ، الذين رجعوا إلى جنكيزخان ، وقصُّوا عليه القصة ، وفور سماع هذه القصة صعد جنكيزخان على جبل في «صحراء الجوبي» ليُفكر في القضية ، لأنَّ قتل رسول المغول كان جريمة لا تغتفر ، وكان لا بدَّ من الانتصار لها حسب ما جرت عادة المغول في مثل هذه الأمور.

وأعلن جنكيزخان قائلاً: إذا كانت السماء لا تحتمل وجود شمسين ، فإنَّ الأرض كذلك لا تحتملُ وجود ملكين»[1] .

الجُزءُ الشَّرقي للعالم الإسلامي بَينَ التَّتار والدَّمار:

---

(١) «جنكيز خان» ص ١٤٧ .

وقد ابتدأ التتار ببُخارىٰ ، وأتوا عليها من كل جانب ، فدمَّروها حتى عادت كومةً من تراب ، ثم توجهوا إلى سمرقند ، وأحرقوها ، وأبادوا أهلها ، ولقيت نفسَ المصير المدُنُ الشهيرة بالعالم الإسلامي كهمَدان ، وزنجان وقَزوين ، ومَرو ، ونيسابور ، وخُوارزم ، أما خوارزم شاه الذي كان يُعْتَبَرُ الملك الوحيد للعالم الإسلامي ، وأقوىٰ الملوك في عصره ؛ فكان يعيشُ في خوف وهلع ، وتنقُّلٍ وارتحال ، يبحث عنه التتار ويتعقبونه حتى تُوفي في جزيرة مجهولة .

كان خُوارزم شاه قد ضمَّ ولايات فارس ، وتركستان المسلمة ، ودولهما المستقلة إلى مملكته ، فلمَّا هزمه التتار لم يكن هناك من يقاومهم في هذا الجزء الشرقي ، وقد دخل رُعب التتار في قلوب المسلمين ، إلى حدٍّ أن أحد التتار دخل بعض الأحيان في سِكة من سكك مدينة حيث وجد مئة رجل من المسلمين ، فقتلهم كلهم وأتىٰ على آخرهم دون أن يتجرّأ أحدٌ منهم لمقاومته .

وذاتَ مرةٍ دخلت امرأة تاتارية بيتاً متزيِّية بزي الرجال ، وقتلت جميع أفراد الأسرة ، وقد عَرَفَ أحدُ المسجونين الذي كان معها أنها امرأة فقتلها ، وقد حدثَ بعض الأحيان أن تاتارياً أسر مسلماً ، وقال له ضع رأسك على هذا الحجر حتىٰ آتي بالخنجر ، فأذبحك ، وخضعَ له المسلم ولم يَسَعْه أن يبرح مكانه ذاك ، ثم أتىٰ التتاري بالخنجر من المدينة ، وذبحه به[1] .

كانت غارةُ التتار فتنةً عظيمة ، ومحنةً كبيرة ، هزَّت العالم الإسلامي هزاً عنيفاً ، وتركت المسلمين مَبهُوتين مشدوهين ، واستولىٰ الرُّعب والخوف على العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه وغلبَ على الناس اليأس والتشاؤم، فكانوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً، ومُقاومتهم مستحيلة ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى ساد المثل: «**إذا قيل لك: إن التتر انهزموا؛ فلا تصدق**» فكلُّ بلاد أو دولة توجهوا إليها عُرف أنها أُبيدت وخُرِّبت ، ولم

---

(١) من أراد التفصيل فليرجع إلى «الكامل» لابن الأثير ج ١٢ ، و«دائرة المعارف» للبستاني ج ٦ مادة «تتر» .

يبق فيها شيءٌ من مقدسات المسلمين إلا وانتُهكت حرمتها ، فكان اتجاهُ التتار إلى جِهة يُرادفُ معنىٰ التدمير والإبادةِ ، والذِّلة ، وانتهاك الأعراض ، ولا شكَّ : أنَّ العالم الإسلامي كلَّه ، ولا سيما الجزء الشرقي منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء على بكرة أبيه ، إنَّ المؤرخ يشغل بتسجيل كلِّ لون من ألوان الأحداث والوقائع ، وتمرُّ به مناظر كثيرة لإبادة الأمم والبلدان حتى يتعوَّد احتمال كلِّ ذلك ، فيجري قلمُه بتسجيل هذا الحوادث من غير أن يَرقَّ لها قلبُه؛ وتدمع لها عينه ، ولكنَّ المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من إخفاء شعوره الجريح ، وتألُّمه النفسي ، حينما وصل إلى ذكر حادث التتار ، إنه يقول:

«لقد بقيتُ عدَّة سنين مُعرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أُقَدِّم إليها رجلاً وأُؤخِّر أخرىٰ ، فمن الذي يَسهل عليه أن يكتب نَعْيَ الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يَهُون عليه ذِكْر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نَسْيَاً مَنسياً! إلا أني حَثَّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيتُ أنَّ ترك ذلك لا يجدي نفعاً ، فنقول: هذا الفصل يتَضمن ذكر الحادثة العظمىٰ ، والمصيبة الكبرىٰ ، والتي عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، وعمَّت الخلائق ، وخصَّت المسلمين ، فلو قال قائل: إنَّ العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالىٰ آدم إلى الآن لم يُبتلوا بمثلها؛ لكان صادقاً ، فإنَّ التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ، ولا يُدانيها ، ولعلَّ الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، إلى أن ينقرض العالم ، وتفنىٰ الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وهؤلاء لم يُبقوا على أحدٍ ، بل قتلوا النساء ، والرجال ، والأطفال ، وشقُّوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنَّة ، فإنَّا لله ، وإنَّا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لهذه الحادثة التي استطار شرَرُها وعمَّ ضرَرُها ، وسارت في البلاد كالسحاب استدْبَرَتْهُ الريح»[1].

ويقول مؤلف «مرصاد العباد» الذي شهد هذه الوقعة بعينه ، وما دار في

---

(١) «الكامل» لابن الأثير ، ج ١٢ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

مولده «الرَّي» وموطنه «همدان» من حوادث فظيعة بعينه ، ومن التخريب والتدمير :

«استولىٰ الجيش التتاري ـ خَذَلهم اللهُ ودمَّرهم ـ سنة ٦١٨ هـ على بلاد الإسلام ، لا يُعرف نظيرٌ لما قام به هؤلاء الوحوش من الفتنة والإفساد ، والقتلِ ، والهدم ، والإحراق ، وما ظهر من أولئك الملاعين من فظائعَ تقشعر منها الجلود في أيِّ عصرٍ من عصور التاريخ ، لا في الإسلام ، ولا في الجاهلية ، فقد قتلوا ، وأسروا في «ري» وحدها التي هي مولدي أكثر من سبعمئة ألف مسلم ، إنَّ الفتنة التي أثاروها في العالم الإسلامي ، والمصيبة التي أنزلوها على المسلمين لا تسعُ الكلمات أن تصوِّرها ، وهذه الحادثة أغنىٰ من أن تُشرح للناس.

وعياذاً بالله ، إذا لم تتحرك حَميَّة الإسلام وغيرتُه في ملوك المسلمين وسلاطينهم ، ولم يذكروا أنَّهم مسؤولون عن الأمة لقوله ﷺ : «الأميرُ راعٍ على رعيته وهو مسؤول عنها» وإذا لم تنبعث فيهم أريحيَّتهم ورجولتهم لكي يتَّحدوا على كلمة واحدة ، وينقادوا لما أمرهم الله به في قوله : ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٤١]. وإذا لم يستعدوا لبذل النفس ، والمال ، والملك لكي يدفعوا هذه الفتنة؛ فإنَّ ذلك كلَّه يدلُّ على أنَّ المسلمين سيُفاجئهم الذُّل ، والنكسة ، وترتمي مُعظم بلاد الإسلام في أحضان الكفر ، وأخشىٰ أن المسلمين الذين كانوا لا يحملون إلا الاسم ، سيفقِدون الاسم والرَّسم كليهما نتيجةً لما ندَّعيه ، ولا نعمل به»[1] .

صَاعِقَةٌ نَزَلَتْ على العالمِ كُلِّه :

ولم يكن العالم الإسلامي وحده مُصاباً بهذه الفتنة التتارية ، وإنَّما العالم المتمدِّن كلُّه كان متوجلاً من هذه الغارة ، وقد تفشَّىٰ الذُّعرُ والخوفُ في الأمكنة التي لم يكن يُرجىٰ فيها وصول التتار ، يقول «جبون» في كتابه الشهير «تاريخ انحطاط روما» :

---

(١) «مرصاد العباد»(المخطوط المحفوظ في مكتبة دار العلوم ندوة العلماء ، ص ٨).

«حينما اطَّلع سكانُ السويد على أخبار غارة التتار عن طريق روسيا ، تسلَّط عليهم من الذعر والخوف ما منعهم عن الخروج إلى سواحل إنجلترا لصيد الأسماك ، وقد كان ذلك عادةً متَّبعةً لديهم» .

وقد تصدَّىٰ المؤلفون «لتاريخ العهد المتوسط للكيمبردج» بذكر صدام المغول الشديد الذي كان سببه جنكيز خان بما يلي :

«لم يكنْ في وسع الإنسان أن يَسُدَّ سيل المغول ، فقد تغلَّبوا على جميع أخطار الصحاري والغابات ، ولم يقف في وجههم أيُّ شيء من الجبال والبحار ، وشدائد الطقوس ، والفصول ، والقحط ، والأوبئة ، ولم يكونوا يخافون أيَّ خطرٍ ، ولا مانع ، ولا كان هناك قلعةٌ تردُّ هجومهم ، ولا كانت تؤثر فيهم استغاثة من مظلوم . . . نحن نواجه هنا في مجال التاريخ قوَّةً جديدة ، قامت بتقديم الحال السريع لكثير من القضايا المعقَّدة السياسية والوطنية ، التي كانت تشغل العقول في ذلك العصر ، وقضتْ عليها ، كما تقضي الصاعقة التي تنزل من السماء على كل ما تصيبه في الأرض ، وقد كانت هذه القضايا الوطنية والسياسية بالغةً في تعقدها إلىٰ حدٍّ لم يكن يُرجىٰ منه الخلاص لولا أن وقعتْ عليها هذه النازلة» .

«إنَّ ظهور هذه القوة الجديدة في تاريخ العالم ، أعني قُدرةَ رجلٍ واحد على تغيير حضارة النوع البشري ، يبتدىء من جنكيزخان ، وينتهي إلى حفيده قوبيلائي خان الذي بدتْ في عهده آثار الفرقة والانشقاق في مملكة المغول المتحدة المتماسكة ، الحقيقة أنَّ التاريخ لم يشهد إلىٰ الآن قوة تشبه قوة هؤلاء المغول» .

تَـدْميـرُ بَـغـــداد :

وأخيراً دخل هؤلاء الوحوش ـ بعد ما خَضبوا أرض العالم الإسلامي كله بدماء أهله ، وأتوا عليه ـ بغداد دار الخلافة الإسلامية ، ومن مركز العلم والمدنية الأكبر في ذلك العصر بقيادة حفيده هولاكوخان ، ودمَّروها تدميراً ، ولا شك أنَّ تفاصيل قَتْل المسلمين في بغداد وتدميرها طويلةٌ ومؤلمة ،

ونستطيع أن نقدر مدىٰ هذه الوقعة العظيمة ببيان بعض المؤرخين الذين شهدوا آثارها بأعينهم ، وسمعوا تفاصيلها من مشاهديها ، يقول المؤرِّخ ابن كثير :

«وما زالَ السيفُ يقتلُ أهلَها أربعين يوماً ، ولما انقضىٰ الأمرُ المقدور ، وانقضتِ الأربعون يوماً، بقيتْ بغداد خاويةً على عروشها ليس بها أحد ، إلا الشاذُّ من الناس، والقتلىٰ في الطرقات كأنها التلول، وقد سَقط عليهم المطر فتغيرت صُورُهم ، وأنْتَنَتْ من جِيفِهِمُ البلد ، وتغيَّر الهواء ، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدَّىٰ وسرىٰ في الهواء إلى بلاد الشام ، فماتَ خلق كثير من تغيُّر الجوِّ، وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغَلاءُ والوباءُ والفناء»[١] .

ويقول الشيخ تاج الدين السّبكي :

«فأنزل (هولاكو) الخليفةَ (المستعصم) في خيمةٍ ، ثم دخل الوزير ، فاستدعىٰ الفقهاءَ والأماثل ليحضروا العقد ، فخرجوا من بغداد ، فضُربت أعناقهم ، وصار كذلك يُخرج طائفة بعد طائفة فتُضرب أعناقهم ، ثم طلب حاشية الخليفة فضربَ أعناق الجميع ، ثم طلب أولاده فضرب أعناقهم ، وأما الخليفةُ فقيل لهولاكو : إنَّ هذا إنْ أُريق دمه تُظْلم الدنيا ، ويكون سبب خراب ديارك ، فقامَ نصير الدين الطوسي[٢] **وقال : يُقتل ، ولا يُراق دمه ،**

---

(١) «البداية والنهاية» ج ١٣ ص ٢٠٣ .

(٢) يصدق ذلك ما قاله الدكتور مدرس رضوي في كتابه «أخبار وآثار خواجه نصير الدين طوسي» الذي نشرته جامعة طهران ، فقد اعتبر المؤلف نصير الدين الطوسي مسؤولاً عن هذه الوقعة ، إنه يقول :

«إن مكيدة الطوسي السياسية التي نجحت أخيراً هي أنه أثار هولاكو خان على استئصال الخلافة العباسية ، وتدمير القصر الملكي ، وقد كان هولاكو مأموراً من قبل أخيه منكوقا آن ، بالقضاء على الخلافة العباسية بعد استئصال الباطنية .

إنَّ هولاكو بعث إلى الخليفة المستعصم بالله الأمر بالطاعة ، واستمرت المكاتبة على ذلك ، ولكن دون جدوى ، وأخيراً استشار هولاكو زملاءه ، وكانت المغول يعتقدون بسعد النجوم ونحسها ، فلما أخبره منجم سني المعروف بحسام الدين الذي كان ملازماً لبلاطه بأن هذه ساعة نحس للغارة على بغداد ، وكلما تصدى ملك للاستيلاء على الخلافة في مثل هذه الساعة أخفق في إرادته ، وأصيب ببلاء ، فإنك أيها الملك إذا أبيت إلا أن تغير ، ينقطع المطر ، وتعمُّ الزلازل والعواصف ، ويخرب العالم ، =

فقيل: إنَّ الخليفة غُمَّ في بِساط، وقيل: رَفَسُوه حتى مات».

واستمرَّ القتل ببغداد بضعة وثلاثين يومَاً، ولم يَنْجُ إلا من اختفىٰ، وقيل: إنَّ هولاكو أمر بعد ذلك بِعَدِّ القتلىٰ، فكانوا ألفَ ألفٍ وثمانمئة ألفٍ، ثم طَلَبَتِ النصارىٰ أن يقعَ الجَهر بِشرب الخمرِ، وأكلِ لحم الخنزير، وأن يَفعل معهم المسلمون ذلك في شهر رمضان، وأُريقتِ الخمور في المساجد والجوامع، ومُنع المسلمون من الإعلان بالأذان... هذه بغداد لم تكن دار كفرٍ قطُّ، وجرىٰ عليها هذا الذي لم يقع قطُّ منذ قامت الدُّنيا مثله»[1].

وقد ظلَّت بغداد، على علّاتها ومواضع ضعفها أكبرَ مدينةٍ للعالم الإسلامي، ومركَز العلوم والفنون، ومهْدَ العلماء والصَّالحين، وكانت موضع فخرِ المسلمين لكونها دار الخلافة، فاضطرب لتدميرها المسلمون كلُّهم، وبَكَوا عليها، وقد قرضَ الشيخ مصلح الدين سعدي[2] رحمه الله ـ الذي أقام في بغداد كطالبٍ، وشهد بهاءَها، وجمالها ـ قصيدةَ رثاء تنطقُ عن قلوب المسلمين الجريحة، وشعورهم المكلوم في ذلك الوقت، ننقل فيما يلي ترجمةً لعدة أبياتٍ منها، يقول:

«إنَّ للسماء كلَّ الحق أن تُمطر دماً على الأرض لِما أصاب مملكة الخليفة

= وأشدُّ من كل ذلك: إن الملك (منكوقا آن) يهلك، فلما سمع بذلك هولاكو تردَّد هنيهة، واستطلع رأي الطوسي، وقال: ماذا تقول عن مصيرنا إذا أغرنا الآن على بغداد؟ فقال له الطوسي: إن الغارة على بغداد لا يؤول إلا أنك ستحتل محل الخليفة، ثم دعا هولاكو المنجم حسام الدين وطلب منهما المناظرة حول هذا الموضوع، فقال له الطوسي: لقد قتل آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، ولم يظهر فساد، وإذا كان كل هذا مما يخص العباسيين، فانظر إلى طاهر الذي قاتل الأمين لما أمره المأمون بذلك وقتله، وقتل المتوكل على الله أولاده وغلمانه، وقتل المنتصر والمعتضد الأمراء، والغلمان، ولكن لم يحدث هناك زلزلةٌ ولا طوفان.

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» ج ٥ ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) أحد أئمة الشعر الفارسي، وصاحب كتابي «كلستان» «وبوستان» الخالدين في المكتبة العالمية.

المستعصم من زَوالٍ وفناء ، إذا كانت القيامة حقاً واقعاً يا محمد عليه الصلاة والسلام ، فاحْسر عن وجهك الرداء ، وشاهد القيامة بين الخلق اليوم ، ولم يدر بخَلَد أيّ إنسان أبداً أنَّ حوادث الدهر تأتي بما أتت به اليوم ، افتح بصرك يا من شهدت عَظَمة البيت الحرام لتنظر أنَّ الملوك دفنوا تحت التراب ، واحتل محلّهم المغول والخاقان ، أُهريقت دماءُ أبناء عمِّ النبي ﷺ على تلك الأرض ، التي كانت الملوكُ الكبار يخرُّون عليها رُكَّعاً سُجَّداً ، وأصبحتْ دَجلة تزبد بدم أهلها ، وهي تعجن التراب في نخل بطحاء بالدّماء ، إن وجه هذا النهر تغير وامتقع لونه من هذه الوقعة الهائلة ، وبدت التجاعيد في هذا الوجه، إنَّ النياحة لا تحدر على تراب هؤلاء الشُّهداء، فإنَّ أقلَّ جزاء يستحقونه هي جنة الفردوس ، ولكنَّ الواجب الديني ، وصلة الحب والعاطفة تجعل قلب المحب يعيش في لوعة الفراق»[١].

التَّتارُ في الشام:

توجَّه التتار نحو حلبَ الشهباء بعد بغداد ، وعاملوها معاملة بغداد كما ذكره ابن كثير ، ثم تقدَّموا إلى دمشق ، واستولوا عليها في شهر جُمادىٰ الأولىٰ سنة ٦٥٨ هـ ، وقد استقبل نصارىٰ البلد التتارَ الفاتحين خارج البلد ، وقدَّموا إليهم الهدايا ، وقدموا بأمرٍ من حاكمهم حتىٰ دخلوا البلد فاتحين ، يُصَوِّر هذه الوقعة ابن كثير الذي كانت دمشق مسقط رأسه ، تصويراً يمكن به تقدير انتكاس المسلمين وضعفهم:

«ودَخلوا من باب توما ، ومعهم صليبٌ منصوب يحملونه على رؤوس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون: ظهرَ الدين الصحيح ، دين المسيح ، ويذمُّون دين الإسلام وأهلَه ، ومعهم أوانٍ فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلاّ رشُّوا عنده خمراً ، وقماقم ملآنة خمراً يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقومَ لصليبهم ، فتكاثر عليهم المسلمون فردُّوهم إلى سوق كنيسة مريم ، فوقف

---

(١) «كليات سعدي».

خطيبهم فمدحَ دين النصارىٰ ، وذم دين الإسلام وأهلَه».

ثم يقول: «وحكىٰ الشيخ قطب الدين في «ذيله على المرآة» : **إنهم دخلوا إلى الجامع بخمر ، وكان في نيتهم إن طالت مدة التتار أن يُخربوا كثيراً من المساجد وغيرها ، ولما وقع هذا في البلد اجتمع قضاة المسلمين ، فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلِّمها «ايل سيان» فأهينوا ، وطُردوا ، وقدم كلام رؤساء النصارىٰ عليهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[1].**

وَقْعَةُ عَيْنِ جَالوت ، وتَراجُع التتار عن مصر :

وكان التتار متوجِّهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة ، وكانت مصر وحدَها التي لم تصبها ويلات التتار ، وقد كان ملك مصرَ المظفَّر سيفُ الدين قطز قد تفرَّس أن التتار يزحفون إلى مصر بعد الشام ، وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم ، فرأىٰ أن يخرج من مصر بالجنود ويشُنَّ عليهم الهجوم في نَفْس الشام ، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر الإسلامية ، والتتار في عين جالوت يوم ٢٥ من رمضانَ سنة ٦٥٨ هـ ، وانهزمَ التتار شرَّ هزيمةٍ بخلاف ما سبق لهم من الحروب ، فخرجوا منها هاربين ، وتعقَّبهم الجنود المصرية ، فقتلوهم ، وأسروا منهم عدَداً كبيراً ، يقول العلامة السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء» :

«فهُزم التتار شرَّ هزيمة ، وانتصر المسلمون ولله الحمدُ ، وقُتِلَ من التتار مَقْتَلَةٌ عظيمة ، ووَلَّوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يتخطَّفونهم ، ويَنهبونهم»[2].

وهَزَمَهُم الملكُ الظاهر بيبرس بعد انهزامهم في عين جالوت مرَّاتٍ عديدة ، وأخرجهم من أرض الشام وطرَدهم منها ، حتىٰ بطل المثل السائر «إذا قيل لك : إن التتار انهزموا فلا تُصدِّق».

---

(١) «البداية والنهاية» ج ١٣ ص ٢٠٣ .
(٢) «تاريخ الخلفاء» ص ٤٢٥ .

انتشارُ الإسلام في التَّتار:

وقبل أن ينجرف العالم الإسلامي مع هذا السيل الجارف العنيد، وتنطمس معالمه وملامحه، (كما كان المشاهد الملموس عند ذوي البصيرة والخبرة من المؤرخين المسلمين في ذلك الحين) بدأت دعوة الإسلام تنتشر فجأة في هذا الشعب، ويتحقَّق على أيدي دعاة الإسلام ما لم يتحقق بالأسنَّة والرماح، وبطش السلاطين والملوك، وبدأ الإسلام يتسرَّب في نفوس أعدائه، ويأخذ بمجامع قلوبهم، إنَّ خضوع هذا الشعب الذي قهر المسلمين أمام الإسلام مِنْ أغرب الوقائع والأحداث في التاريخ، فإنَّ هجوم التتر على العالم الإسلامي كالجراد المنتشر، وإخضاع العالم الإسلامي كلِّه ليسَ من الغريب المدهش كما يبدو في الظاهر، فإنَّ عالم الإسلام في القرن السابع كان بدوره مصاباً بتلك الأمراض والأسقام؛ التي تَلحق الأمم عامة في أوج حضارتها وشوكتها، وبالعكس من التتر، ذلك الشعب القوي الأبي الذي نشأ على حياة البداوة، والهمجية والضراوة، ولكنَّ الغريب المدهش: أنَّ هذا الشعب خضع للمسلمين المفتوحين المقهورين، واعتنقَ دينهم في أوجِ قوته، وذروة سلطانه، ذلك الدين الذي فقد كثيراً من سلطانه السياسي والمادي آنذاك، وكان أتباعُه موضع سُخرية واحتقار في نظر التتار.

وقد أبدىٰ «أرنولد» استغرابه في هذا الصَّدد في كتابه المشهور Preaching of Islam «الدعوة إلى الإسلام» حيث قال:

«ولكنْ لم يكن بُدٌّ من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولىٰ، وأطلالِ مجده التَّالد، كما استطاع بواسطة دُعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين، ويَحملهم على اعتناقه، ويرجعُ الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين؛ الذين كانوا يُلاقون من الصعاب أشدّها لمناهضة مُنافِسَين قَوِيَّيْنِ، كانا يحاولان إحراز قصَب السَّبق في ذلك المضمار، وليس هناك في تاريخ العالم نظيرٌ لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية، والمسيحية، والإسلام، كلُّ ديانة تنافس الأخرىٰ، لتكسب

قلوبَ أولئك الفاتحين القساة ، الذين داسوا بأقدامهم رِقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم»[١] .

«ويظهر أنَّه لم يكن من اليسير : أنَّ منافسة الإسلام في مُستهل الحكم المغولي لغيره من الديانات القوية ، كالبوذية والمسيحية كانت عملاً بعيد المنال؛ إذ إنَّ المسلمين كانوا قد قاسُوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذي صحب غارات المغول ، وأنَّ معظم هذه المدن التي كانت حتىٰ ذلك الحين مجمع السلطة الدينية ، وكعبة العلم في الإسلام في القارة الآسيوية قد أصبح مُعظمها أطلالاً دارسةً ، حتىٰ إنَّ الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء ، كان نصيبُهم القتل أو الأسر[٢] ، وكان من بين حُكَّام المغول الذين عُرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة من يُظهر الكراهية للدين الإسلامي علىٰ درجات متفاوتة ، فقد أمر جنكيزخان بقتل كل من يَذبح الحيوانات على النحو الذي قرَّره الإسلام ، ثم سار على نهجه قوبيلائي . فعيَّن مكافآت لكل من دلَّ على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين اضطهاداً عنيفاً دام سبع سنين ، حتىٰ إنَّ كثيراً من المعدمين وجَدوا في سَنِّ ذلك القانون فرصة لجمع الثروة ، واتَّهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة؛ لكي يحصلوا على حريتهم[٣] ، وقد عانىٰ المسلمون أقسىٰ ضروب الحَيْف والشدة في عهد كيوك (١٢٤٦ ـ ١٢٤٨ م) الذي ألقىٰ بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحِيَيْن ، والذي امتلأ بلاطُه بالرُّهبان من المسيحيين»[٤] .

---

(١) «الدعوة إلى الإسلام» ص ٢٥٠ (ترجمة جماعة من الأساتذة المصريين) .

(٢) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التي لقيها هؤلاء ، أن رائضي الخيول من أهالي الصين ، كانوا إذا عرضوا أشباحاً ، أظهروا البشر والحبور في صلف وإعجاب بعرض صورة تمثل رجلاً مسناً ذا لحية بيضاء يجرُّه حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل ، وإنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين .
(Howorth Vol. l. p. 159).

(٣) Howorth, Vol. l. p. 165.

(٤) Deguignes, Vol. lll. p. 265.

«وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١ م) رابع إيلخانات المغول في فارسَ المسلمينَ في بلاده ، وصرَفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، كما حرَّم عليهم الظهور في بلاطه ، وعلى الرغم من جميع المصاعب ، أذعنَ هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة[١] آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطىء أقدامهم»[٢] .

إنَّ هذا الحدث مثارُ دهشةٍ وعجب ، ولكن استغرابنا يشتدُّ ، حينما لا نجد تفاصيلَه وافيةً في بطون التاريخ ، إننا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حقَّقوا هذه المآثر ، وأدخلوا هذا الشعب الهمج في حظيرة الإسلام ، مع أنَّ هذه المأثرة لا تقلُّ أهمية عن أي مأثرة إسلامية في التاريخ ، ولهم فضل لا يُنكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الإنسانية كلِّها إلىٰ أن يأذن الله له بالفناء ، فإنهم أنقذوا العالم من دَمار محتوم ، ووضعوه تحت رعاية شعبٍ يؤمن بالله وحده ، ويدعو إلى دين محمد ﷺ .

إنَّ دولة جنكيزخان توزعتْ بعد وفاته إلى أربعة فروع ، وبدأ الإسلام ينتشر في هذه الفروع الأربعة ، وأصبح التتر يعتنقون الإسلام بجهود الخاقان ، حتىٰ دخلوا في ظرف مئة سنة في دين اللهِ ، وقد سرد أرنولد عدة أحداث تُلقي الضوء على هذا الباب ، إنه يحكي قصة شيوع الإسلام في فرع جوجي خان الابن الأكبر لجنكيزخان ، الذي كان يحكم علىٰ سيرا داردا ، الجزء الغربي من الدولة ، فيقول :

«وكان بركة خان (١٢٥٦ ـ ١٢٦٧ م) أول من أسلم من أمراء المغول ، وكان رئيساً للقبيلة الذهبية في روسيا بين سنتي ١٢٥٦ و١٢٦٧ م[٣] **، وقد**

---

(١) وفي القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكاً. (Cahon p. 279).

(٢) «الدعوة إلى الإسلام» ص ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨ .

(٣) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختار الزاهدي ، وضع لبركة خان في سنة ١٢٦٠ م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبي الدينية ، وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه=

قيل في سبب إسلامه: إنه تلاقىٰ يوماً مع عيرٍ للتجار آتية من بخارىٰ، ولما خلا بتاجرَيْن منهم سألهما عن عقائد الإسلام، فشرحاها له شرحاً مقنعاً انتهىٰ به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له، وقد كاشفَ أصغر إخوته أولَ الأمر عن تغييره لدينه، واعتناقه الإسلام، وحبَّب إليه أن يحذو حذوه، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين»[1].

«وقد دخل بركة خان في حِلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) سلطان المماليك في مصر، الذي بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه، فقد احتفىٰ بشرذمةٍ من جُند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المئتين، ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بينَ مَلكهم وبين هولاكو فاتح بغداد، وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه، فرُّوا إلى سورية، حيث يُيَمِّمُونَ منها شطرَ مصر، وهناك استُقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس، الذي أقنعهم بصحة الدين الإسلامي واعتناقه[2]، وكان بيبرس نفسه في حَربٍ مع هولاكو، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب، وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتاباً إلى بركة خان، وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر؛ أنَّ لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماماً ومؤذناً خاصاً، وأنَّ الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس[3]، وكان من أثر هذه العلاقات الودية التي قامت بين بيبرس وبركة خان، أن كثُر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر، حيث اتخذوا الإسلام ديناً لهم»[4].

إنه يحكي قصة انتشار الإسلام في الإيلخانية الفرع الثاني لأسرة جنكيزخان، ويقول:

= الرسالة، وتمدنا بوصف للمناظرات التي قامت بين المسيحيين والمسلمين. (Stein Chneider, p. p. 63 - 40).

(١) «الدعوة إلى الإسلام» ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ (أبو الغازي ج ٢ ـ ص ١٨١).

(٢) المقريزي (م) ج ١ ص ١٨٠ ـ ١٨١، ١٨٧.

(٣) المقريزي (م) ج ١ ص١٢١٥.

(٤) «الدعوة إلى الإسلام» ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠، المقريزي (م) ص ٢٢٢.

«كان الإسلام أقلَّ انتشاراً في بلاد الفرس حيث أسس هولاكو أسرة إيلخانات المغول ، ولكي يقوىٰ على صدِّ هجمات بركة خان وسلطان مصر ، تحالف هولاكو مع القوات المسيحية في الشرق كملك أرمينية والصليبيين ، وكانت زوجتهُ المحبَّبة إليه مسيحية ، فعملت على استمالة زوجها نحو إخوانها في الدين ، كما تزوَّج ابنة أباقاخان (١٢٦٥ ـ ١٢٨١ م) من ابنة إمبراطور القسطنطينية ، ومع أن أباقا نفسه لم يتخذ المسيحية ديناً له امتلأ بلاطه بالقسِّيسين من المسيحيين ، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوربة ، فكان يراسل القديس لويس ملك فرنسا ، وشارل ملك صقلية ، وجيمس ملك أرغونة يطلبُ إليهم التحالف معه على المسلمين ، كما أرسل لهذا الغرض أيضاً بعْثاً من ستة عشر سفيراً من المغول إلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤ م ، حيث دخل رئيسُ أولئك السفراء في المسيحية ، وعُمِّد مع بعض رفاقه ، وقد طمِع المسيحيون ، فعلَّقوا الآمال على اعتناق أباقاخان المسيحية ، ولكن الأيام أظهرت أنَّ تلك الآمال لم تكن إلا سراباً خادعاً ، وكان أخوه تكودار أحمد[١] ، الذي اعتلىٰ العرش من بعده أول إيلخانات المغول الذين اعتنقوا الإسلام في فارس ، وقد شبَّ على المسيحية؛ لأنه (كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه)[٢] : «تَعَمَّد في صباه، وتسمَّىٰ باسم نقولا ، ولكنه دان للإسلام عندما بلغ سِنَّ الرُّشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كَلِفاً بهم ، وأصبح مسلماً دَيِّناً ، ولما ارتدَّ عن المسيحية ، رَغِب في أن يُسَمَّى محمد خان ، وبذل قصاراه في تحول التتار إلى دين محمد وعقائده ، ولما أظهروا صلابة في الارتداد عن دينهم ، لم يجرؤ على حملهم على اعتناق الإسلام ، وإنما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا ، والمنح ، وألقاب الشرف ، حتى إنَّ عدداً كبيراً من التتار دخل في عهده في عقيدة المسلمين» ، وقد بعث تكودار أحمد بنبأ إسلامه إلى سلطان المماليك في مصر (قلاوون) في ذلك الكتاب: «إلى سلطان مصر ، أما

---

(١) أوتيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة ، وقد سمي أحمد بعد اعتناقه الإسلام.

(٢) (Hayton. Ramusio, Tom ll p. 60, C.).

بعد ، فإن اللهَ سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربُوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته ، وحُسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبَريَّته ، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، فلم نزل نميل إلَى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين إلى أن أفضىٰ إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نَوبَة الملك ، فأضفىٰ علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ، ما حقق به آمالنا في جزيل آلائهِ وعوارفه ، وجَلى هذه المملكة علينا ، وأهدى عقيلتها إلينا ، فاجتمع عندنا في قوريليان (Quriltay على الأصح) المبارك؛ ـ وهو المجتمع الذي تُقدح فيه الآراء ـ جميعُ الإخوان والأولاد ، والأمراء الكبراء ، ومُقدَّمو العساكر وزعماء البلاد ، واتفقتْ كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حُكم أخينا الكبير ، في إنقاذ الجمِّ الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلأتِ الأرض رعباً من عظيم صَولتها ، وشديد بطشها ، إلى تلك الجهة بهمَّة تخضع لها صُمُّ الأطواد ، وعَزْمةٍ تلين الصُّم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخَّضتْ زبَد عزائمهم عنه ، واجتمعتْ أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام ، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يُوجب حقن الدماء ، وتسكين الدهماء ، وتجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريحُ به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيماً لأمر الله ، وشفقةً على خلق الله ، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه من تقديم ما يُرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وأننا لا نحبُّ المسارعة إلى هز النِّصال للنضالِ إلا بعد إيضاح المحَجة ، وقَوي عزمُنا على ما رأيناه من دواعي الصَّلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح؛ إذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال الدين عبد الرحمن) ، الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبَّى) دعاه ، ونقمةً على من أعرض عنه

وعصاه ، وأنفذنا أقضى القضاة قطب (الملة) والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللَّذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ، ليعرفُوهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميلُ نيتنا ، وبيَّنا لهم أنَّا من الله تعالى على بصيرة ، وأنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، . . . فإن تطلَّعتْ نفوسٌ إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد ، وحُجة يثقون بها من بلوغ المراد؛ فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره ، وعمَّ أثره ، فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، في إيراد كلِّ أمرٍ وإصداره؛ تقديماً لناموس الشرع المحمَّدي ، على مقتضى قانون العدل الأحمدي ، إجلالاً وتعظيماً ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئةً واقترف ، وقابلناه بالصَّفح ، وقلنا: عفا الله عما سلف ، وتقدَّمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد ، والمشاهد ، والمدارس ، وعمارةِ بقاع الدين ، والربط الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقّيها بشروط واقفيها. . . وأمرنا بتعظيم أمر الحجَّاج ، وتجهيز وفدها ، وتأمين سُبلها ، وتيسير قوافلها ، وأنا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد؛ ليسافرُوا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم» ، وهو يلتمس محالفة سلطان مصر «بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتَحل الأمة أرض الهوينى ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذلِّ(١) والهوان(٢)».

وإن مَن يدرس تاريخ المغول ليَرتاح عندما يتحوَّل فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع ، وما سفكوه من الدماء ، إلى أسمىٰ عواطف

---

(١) «وصاف الحضرة» ص (٢٣١ ـ ٢٣٤).

(٢) وقد ورد هذا الكتاب أيضاً في القلقشندي: «صبح الأعشى» ج ص ٦٥ ـ ٦٨ ، وهو مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ (أغسطس سنة (١٢٨٢ م) ، وقد بعثه به مع رسولين هما قطب الدين شيرازي وأتابك بهلوان ، وقد رد قلاوون على إيلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها (٣ ديسمبر سنة ١٢٨٣ م) ، وقد ورد الكتاب في القلقشندي (ج ٧ ص ٢٣٧ ـ ٢٤٢).

الإنسانية وحبِّ الخير؛ التي أعلنتْ عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها تكودار أحمد إلى سُلطان المماليك في مصر ، والتي يَدهَشُ الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي.

وقد أحفظ تكودار أحمد واضطهاده المسيحيين ، والمغولَ الذين كانوا شديدي الاتصال بهم برغم مخالفتهم في الدين ، وشكوه إلى قوبيلائي خان ، متهمين إياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده ، وقد قامت في وجهه ثورةٌ على رأسها ابن أخيه أرغون الذي دبَّر قتله ، ثم خلفه على العرش ، وفي أثناء حكم أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١ م) القصير ، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد ، على حين لم يكن بد من أن يلقىٰ المسلمون الاضطهاد ، فصُرفوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، وحَرَّم عليهم الظهور في بلاطه[١] .

وقد ظل خلفاء تكودار أحمد على وثنيتهم ، حتى دخل غازان (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤ م) سابع الإيلخانات وأعظمهم شأناً في الدين الإسلامي في سنة ١٢٩٥ م ، وجعله دين الدولة الرسمي في فارس ، وفي عهد إيلخانات المغول الثلاثة الأخيرين الذين سبقوا غازان[٢] ، أملَ المسيحيون آمالاً كباراً في تحويل الأسرة الحاكمة في فارس عن الدين الإسلامي ، تلك الأسرة التي أظهرت نحوهم عطفاً شديداً ، وأسندت إليهم مناصب الدولة الهامة ، وكان بيدوخان سلف غازان؛ الذي كان رأس الفتنة في فارس ، والذي جلس على العرش في سنة ١٢٩٥ م بضعة أشهر فقط ، قد آثر الدين المسيحي ، وجهد في وضع العقبات في سبيل انتشار الإسلام بين المغول ، فحرَّم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين ، أو أن ينشر عقائده بينهم[٣] .

وقد شَبَّ غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام ، وشيَّد عدة معابد

---

(١) De Guignes, Vol. lll p. p. 263 - 5.

(٢) هؤلاء هم أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١) ، وجيخاتو (١٢٩١ ـ ١٢٩٥ م) وبيدو (أبريل أكتوبر سنة ١٢٩٥ م).

(٣) C. D. Ohsson, Tome IV p.p. 141 - 2.

للبوذية في خراسان ، وكان يُسرُّ كثيراً بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين ، والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس في جماعات كبيرة منذ بسَط المغول سلطانهم في هذه البلاد[1] ، ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل إلى تَقليب نظره في المسائل الدينية ، لأنه دَرس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة في زمانه[2] ، وقد أيَّد رشيدُ الدين وزيرَه العالم ومُؤرخ عصره بالبرهان صحةَ اعتقاده الإسلام ، الذي أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره في حماسٍ ، وغيرةٍ طوال عهده»[3].

إنَّ ابن كثير نفسُه ذكر إسلام غازان في وقائع ٦٩٤ هـ بارتياحٍ بالغٍ ، ويبدو منه ـ ويؤيده في ذلك غيره من المؤرخين ـ: أنَّ الفضل في ذلك يرجع إلىٰ الأمير التركي الصالح توزون[4] ، فإنَّ ملك التتر أسلم بجهوده ، كتب ابنُ كثير في وقائع ٦٩٤ هـ ، يقول:

«وفيها مَلك التتار قازان بن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكيزخان فأسلم ، وأظهر الإسلام على يد الأمير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام ، ونُثر الذهب والفضة ، واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه ، وتسمَّى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة ، وخرَّب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم الجزية ، وردَّ مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ، وظهرت السُّبح والهياكل مع التتار والحمد لله وحده»[5].

يقول أرنولد:

«إنَّ أخاه أولجاتيو Aljaytu الذي خلفه في سنة ١٣٠٤ م باسم محمد خدابنده[6] Khudabandah كان على المسيحية دين أمه ، وعُمِّد باسم

---

(١) Ip, 18p. 148.

(٢) C. D. Ohsson, Tome IV p. 365.

(٣) «الدعوة إلى الإسلام» ص ٢٦٠ ـ ٢٦٤.

(٤) يسميه أرنولد وغيره من المؤرخين «نوروزبيك».

(٥) «البداية والنهاية» ج ١٣ ص ٣٤٠.

(٦) ذكر ابن بطوطة ج ١ ص (١٤٣) أنَّ اسمه مختلف فيه ، وقد قيل خُدا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله ، وبنده ومعناه غلام أو عبد ، وقيل خربنده بفتح الخاء =

نيقولا ، على أنه لم يلبثْ أن أسلم بعد موت أمِّه ، وهو لا يزال شاباً في مقتبل العمر ، وذلك بتأثير زوجته[١] ، ويذكر ابن بطوطة[٢] أن سيرة ذلك الأمير ، كان لها أثرٌ كبير في نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدينَ السائد في دولة إيلخانات فارس[٣] .

= ومعناها بالفارسية الحمار ، وبنده ، معناها غلام أو عبد . فيكون عبد الله ، أو غلام الحمار ، وقد قيل : إنَّ سبب تسميته بهذا الاسم الأخير ، أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته ، فلما ولد كان أول داخل الزمال (الزمال صاحب الزاملة ، والزاملة ما يحمل عليه من الحيوان) ، ولعله يريد هنا الحمار فسمي خربنده . وذكر براون : أنَّ غازان لما تولى فر أولجايتو ، وظل مشرداً يرعى الحمير في إقليم كرمان وهرمز ، ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعي الحمير ، وقيل أيضاً : إن أبوي الطفل كانا يطلقان عليه اسماً قبيحاً حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد ، ولذلك سمي خربنده كما يسمي العرب أبناءهم بفهر ، وكلب ، وصخر ، ومعاوية ، ونحو ذلك تفاؤلاً بأن يكون الولد في كبره صخراً أو كلباً على عدوه ، وقال ابن الوردي (تاريخ الوردي ص ٢٦٤) : إنَّ خربندة اسمه خدابنده ، وأن ملكه شمل بلاد العراق ، وخراسان ، والعراق العجمي ، وأذربيجان ، وديار بكر .

(١) Hammer - Purgstall: Gesc Hichte Der Iichanen Vol. ll p. 182
ولا يبعد أن تكون سبايا الإسلام قد قمن في تحويل المغول إلى الإسلام ، ويظهر أنَّ المرأة شغلت مركزاً من مراكز الشرف والكرامة بين المغول ، ويمكن أن نأتي بأمثلة كبيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر في الشؤون السياسية ، وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء في أزواجهن في المسائل الدينية ، ويحدثنا وليم روبرك أنه شاهد بنفسه تأثير إحدى النساء المسلمات ، وكيف وقف ذلك التأثير في سبيل نشر تعاليمه الدينية :
«وفي عيد العنصرة أتى أحد المسلمين عندما أخذنا نشرح تعاليم الدين في أثناء حديثه معنا ، فلما سمع عن نعم الله على الناس ، وعن التجسد ، وبعث الموتى ، ويوم الحساب ، ومحو الخطايا عن طريق التعميد رغب في أن يعمد ، ولكن بينما كنا نعد العدَّة لتعميده ، امتطى صهوة جواده على حين غفلة ، قائلاً : إنه لا بد من أن يذهب إلى داره لاستشارة زوجته ، وفي اليوم التالي قال لنا في أثناء حديثه معنا : إنه لم يستطع أن يجرؤ على أن يعمد ، لأنه لا يستطيع عندئذ أن يشرب لبن الفرس» (Rubruck p.p. 90 - 1) .

(٢) ابن بطوطة:ص ٥٧ .

(٣) «الدعوة إلى الإسلام» ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

الفرع الثالث من هذه الأسرة كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مؤسسها جغطائي بن جنكيزخان.

يقول أرنولد:

«وإنَّ ما لدينا من المعلومات عن تقدُّم الإسلام وانتشاره في إمبراطورية المغول الوسطىٰ ، التي كانت من نصيب جغطائي ، لا يزال ضئيلاً ، وكان كثيرٌ من أعقاب هذه الأسرة يستعينون في دولتهم بوزير من المسلمين ، على الرغم من أنه لم يُبد أي ميل إلى الإسلام ، وقد ضيق جغطائي على رعاياه من المسلمين بما سنَّه من القوانين الشديدةِ الحرج ، التي ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام ، وفرائض الوضوء ، ويذكر الجوزجاني: أنَّ جغطائي هذا كان ألدَّ أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة ، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغبُ في أن ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته ، اللهم إلا إذا أريد بها التحقير ، والحطُّ من شأنها[1] ، وقد ربَّتْ أرغنة Orghana زوجة قراهولاكو Oara-Hulagu حفيد جغطائي وخليفته ابنها على الإسلام ، وتقدم باسم مبارك شاه في سنة ١٢٦٤ مطالباً بعرش خاقانية جغطائي ، الذي كان مثار النزاع بين أمراء المغول ، ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان ، ويظهر أنه لم يكن لإسلامه أيُّ أثر بين المغول ، فإننا لو رجعنا في الواقع إلى أسماء أبنائه ، لا نجد أحداً منهم قد دخل في دين أبيه[2] ، وقد قيل: إن براق خان نفسه قد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة قبل موته في سنة ١٢٧٠ م بأيام قليلة ، وإنه تسمَّى باسم السلطان غياث الدين[3] ، إلا أنه دُفن حسب طقوس المغول القديمة ، ولم يُدفن وفق شعائر الدين الإسلامي ، وأنَّ من أسلموا في عهده ارتدوا إلىٰ وثنيَّتهم الأولىٰ ، ولم يتم انتشار الإسلام بين المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم مُتمسكين في هذه المرة بدينهم الجديد ، وعلى الرغم من

---

(١) الجوزجاني:ص ٣٨١ ـ ٣٩٧ Raverty, p.p. lllo, 1145 - 6.

(٢) رشيد الدين:١٧٣ ـ ٤ ، ١٨٨ .

(٣) أبو الغازي:ج ٢ ص ١٥٩ .

ذلك ، لم يتأصل الميل إلى الإسلام بعدُ في نفوس المغول ، فإن بوزن الذي كان خان المغول في السنين العشر التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة) ، لم يلبث أن طرد طرماشيرين من العرش ، واضطهدَ المسلمين[1] ، على أننا لم نسمع عن ظهور أول ملك مسلم في كاشَغْر إلا بعد سنين قليلة ، وكان ضعفُ أسرة جغطائي قد أتاح لهذه المملكة أن تستقلَّ بحكم هذه البلاد. ويقول بعض المؤرخين: إن إسلام تغلق تيمورخان (١٣٤٧ ـ ١٣٦٣) ملك كاشغْر ، كان على يد رجل من أهل الورع والتقوىٰ في مدينة بخارىٰ ، يقال له: الشيخ جمال الدين ، وكان معه جماعة من التجار ، وكانوا قد اعتدوا على الأراضي التي خصَّصها ذلك الأمير للصيد ، فأمر بأن تُوثق أيديهم وأرجلهم ، وأن يَمثلوا بين يديه. ثم سأله في غضب: كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض ، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يَجُوسون أرضاً محرمة ، ولما علم الأمير أنهم من الفرس ، قال: إن الكلبَ أغلىٰ من أيِّ فارسي ، فأجاب الشيخ: «نعم قد كُنَّا أخسَّ من الكلب ، وأبخس ثمناً منه لو أننا لم ندِن بالدين الحق» ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يُقدَّم إليه ذلك الفارسيُّ الجسورُ عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله ماذا يعني بهذه الكلمات ، وما ذلك الدين؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام في غيرة وحماس ، انفطرَ لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصَوَّر له الكفر بصورة مروعة اقتنعَ معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال: «ولكني إذا اعتنقت الإسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي إلى الصراط المستقيم ، فلتُمهلني قليلاً ، فإذا ما آلت إلي مملكة أجدادي ، فعُد إليَّ» ، وكانت إمبراطورية كغطائي انقسمت في ذلك الوقت إلى إمارات صغيرة ، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمور في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل ، وفي هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضاً شديداً ، فلما أشرف

---

(١) «رحلة ابن بطوطة» ج ٣ ص ٤٧ .

على الوفاة قال لابنه رشيد الدين: «سيُصبح تغلق تيمور يوماً ما ملكاً عظيماً، فلا تنس أن تذهب إليه وتُقرئه مني السلام ، ولا تخش أن تُذكِّره بوعده الذي قطعه لي» ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان ، وكان قد استردَّ عرش إمبراطورية آبائه تنفيذاً لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يَظفرَ بين يدي الخان برغم ما بذله من جهود ، وأخيراً لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة؛ ففي ذات يوم أخذ يُؤذن في الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان ، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان ، وأثار غضبه ، فأمر بإحضاره ومُثوله بين يديه ، وهناك أدَّى رشيد الدين رسالة أبيه ، ولم ينس تغلق تيمور وعدَه وقال: «حقاً ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي ، ولكنَّ الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنتَ على الرحب والسعة» ثم أقرَّ بالشهادتين ، وأصبح مسلماً منذ ذلك الحين ، «وأشرقت شمس الإسلام ، ومحتْ بنورها ظلام الكفر . . . ولكي ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملكُ الأمراء واحداً بعد واحد ، ويعرض عليهم الإسلام ، فمن قَبله جوزي الجزاء الحسن ، ومن أباه ذُبح كما يُذبح الوثنيون وعُباد الأصنام»[1] .

أما الفرع الرابع الذي ينتمي إلى اجتائي خان والذي برز فيه من الملوك والفاتحين أمثال منجوخان ، وقوبيلائي خان ، والذي كان يحكم الجزء الشرقي من إمبراطورية التتر ، فيقول فيه أرنولد:

«ولا بدَّ أن يكون هناك كثيرٌ من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين في طيِّ الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة الإسلام ، ففي عهد اجتائي (١٢٢٩ ـ ١٢٤١ م) نقرأ عن إسلام بوذيٍّ يدعىٰ Tangut وكان حاكماً على بلاد الفرس من قبل المغول[2] ، وفي عهد تيمورخان (١٢٢٣ ـ ١٢٢٨) كان آنندا Ananda حفيدُ قوبيلائي (١٢٥٧ ـ ١٢٩٤) وأميرُ كان سو مسلماً متحمساً ، كما دفع كثيراً من أهل

---

(١) «الدعوة إلى الإسلام» ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧ .

(٢) C. D. Ohsson, Vol. III 121.

تانجوت Tangut وعدداً كبيراً من الجنود الذين كانوا تحت إمرته إلىٰ اعتناق هذا الدين ، وعلى الرغم من استدعائه إلىٰ بلاط تيمور ، وبذل الجهد في ارتداده إلى البوذية ، أبىٰ إلا التمسك بدينه الجديد ، فألقي به في غياهب السجن ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالي تانجوت الذين كانوا شديدي التعلُّق به»[1] .

وهكذا دخل هذا الشعب (الذي دَوَّخ العالم الإسلامي كُلَّه ، وداس أطرافه بأقدامه ونِعال خيوله ، والذي لم تتماسك أمامه أيُّ قوة) في دين الله ـ الإسلام ـ في بِضع سنين ، وبدت هذه الحقيقة مرَّةً أخرىٰ ، واضحةً جلية: أن الإسلام لا يزال يملك أكبرَ نفوذ ، ويتمتَّع بأغرب موهبة في تسخير الأرواح ، وكَسْب الأنصار والأصدقاء ، إنَّ التتر لم يُسلموا رسمياً فحسب ، بل برز فيهم عددٌ كبير من العلماء ، والفقهاء ، والمجاهدين ، والدعاة ، والربانيين ، وأهل الصدق واليقين ، وأدَّوا دورهم الثمين في حماية حمىٰ الإسلام في ظروف دقيقة ، ولحظات عَصيبة من التاريخ .

* * *

---

(١) «الدعوة إلى الإسلام» ص ٢٥٨ ، رشيد الدين ص ٦٠٠ ـ ٦٠٢ .

الإنسان مزيج غريب من الروح والمادة(١)

خُلق الإنسان وسطاً بين الملائكة والحيوانات ، وركبت فيه طبائع هذين الجنسين المتناقضين تركيباً لطيفاً ، حكيماً بديعاً. فهو مزيج غريب من الخواص الملكية ، والخواص الحيوانية ، ومن الأخلاق الإلهية ، والعادات الحيوانية ، ذلك لأنَّ منصبه الذي رشح له ، وغايته التي طلب منه أن يبلغها ويحققها ، ووضع فيه استعدادها وحبها ، لم يرشح له الملائكة ، ولم يخلق له الحيوانات ، وذلك منصب الخلافة ، ومركز الأمانة ، وغاية العبادة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧].

مقتضىٰ «الخلافة» ولوازمها:

وكان منصب الخلافة يقتضي المناسبة القوية بالمستخلف المنيب ، والمناسبة القوية بالمكان الذي يتولىٰ الخلافة فيه ، والمخلوق الذي يتولىٰ السيادة عليه ، والحكم فيه ، فأخذ من الأول أشباح أخلاقه ، وظلال صفاته كسموٍّ ، ونزاهة ، وصمدية ، وغنىً ، ورحمةٍ ، وكرم ، ورأفةٍ ، وبرٍّ ،

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثامن ، المجلد الثاني عشر ، عام ١٩٦٨ م.

وصبرٍ ، وحلم ، وقوةٍ ، وقهر ، وصفاءٍ ، وتجرد ، وأمنٍ ، وسلام ، وقد ظل في جميع أطواره البشرية ، وأدواره التاريخية يجد اللذة ، ويعتقد العزة في هذه الأخلاق ومظاهرها ، ويخضع لحمايتها وأصحابها ، ويدين لهم بالحب والإجلال؛ إذا تجرد عنها ، وعجز عن التحلِّي بها ، أو تقاصرت عنها همته ، وضعفت إرادته.

وأخذ من الثاني خواصه ، وطبائعه ، وشاركه في مواضع ضعفه؛ ليشاركه في آلامه وآماله ، ويحسن سياسته ، وينتفع بكنوز الأرض وخيراتها ، ويتمتع بنعمها وطيباتها ، ويضع ما خلق فيه مواضعه ، وضعت فيه شهوة الطعام والشراب ، وركبت فيه الغريزة الجنسية ، وخلق فيه الجوع والعطش ، وعجنت طينته مع اللذة وحبها ، وطلب المزيد الجديد ، وألهم الصناعة والمدنية ، والتأنق في الطعام والشراب.

تجاذب الروح والجسد إلى مركزهما ، وخصائصهما :

ولذلك كان مجموعاً من روح وجسد ، فالروح هي التي تجذبه إلى أصلها ومنبعها ، وتذكره بمنصبه ومركزه ، وغايته ومهمته ، وتفتح فيه الكوة إلى العالم الذي انتقل منه ، وإلى سعته وجماله ، ونظافته وصفائه ، وتثير فيه الأشواق والطموح ، وتبعث فيه الثورة على المادة الكثيفة الثقيلة ، وتزين له الانطلاق من القفص الضيق الخانق ، وإن كان من ذهب ، والتحليق في الأجواء الفسيحة التي لا نهاية لها ، وفك السلاسل والأغلال من عادات ، ومألوفات ، ولذات ، وحاجات ولو حيناً بعد حين ، وفي شهور وسنين ، وتحبب إليه الجوع والعطش مع وفرة الطعام ، وكثرة الشراب ، فيشعر فيهما بلذة لا يشعر بها في أطايب الطعام والشراب ، وبعد ذلك الوقت القصير الذي يمضي في فراغ الخاطر ، وصفاء النفس ، وخفَّة المعدة ، وإشراق الروح والتجرُّد من الشهوات ، والتحرُّر من النظام الرتيب الخشيب ، قيمة الحياة ولذتها ، وسرور النفس وبهجتها ، فلا يزال يحنُّ إليه حنين الطائر إلى الوكر ، وحنين السمك إلى الماء ، وذلك كله صنع الروح التي أودعت فيه ، وانتقلت إليه من عالم الغيب: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

﴿ٱلرُّوحُۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] والجسد هو الذي يجذبه إلى أصله ومركزه، وهي الأرض ـ بكثافتها، وتبلُّدها، وثقلها، وسفالتها ـ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٢٦] ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ [الصافات: ١١] ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] فإذا ضعف سلطان الروح، أو زال حكمها، وتقلص ظلُّها، وملك الجسد زمام الحكم؛ استرسل الإنسان في لذته، وشهواته، ورتع فيها رتع البهائم السائمة، وجنَّ بها جنوناً... وأبدع فيها ألواناً، وفنوناً، وتخطىٰ حدود العقل، والعرف، والصحة، والطب، والعدل، والشرع، وانصرفت همته، وذكاؤه، وإبداعه، وعبقريته إلى التفنن والتدقيق، والإسراف والإكثار من أنواع الطعام، والشراب، والتهامها، ثم انهضامها، وما يبعث فيه الشهية، ويوقظ فيه الجوع، ثم يعينه على الهضم، ويعده للوجبة الثانية: فيصبح وهو في أوج مدنيته وحضارته، وقمة علمه وثقافته، كحمار الطاحون، أو كثور الحرث، يدور بين المطعم والمرحاض، ومائدة الطعام والبالوعة، لا يعرف سوىٰ ذلك مبدأً ومعاداً؛ ولا يعرف غير الطواف بينهما شغلاً وجهاداً، فتموت فيه كل رغبة الطعام والشراب، ويتبلَّد فيه كلُّ حسٍّ إلا حس اللذة والمتعة، ويزول عنه كلُّ همٍّ الكسب ليأكل، والأكل ليكسب، ولا تصوير أدقّ، وأصدق من تصوير القرآن المعجز ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢] وما ذاك إلا طبيعة الجسد الذي تحرر من سلطان الروح، وحُرم توجيه النبوة، وإرشادها، وانقاد للنفس والهوىٰ نتيجة انجذابه إلى أصله ومصدره: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

أثر انتصار كلٍّ من الروح والجسد في حياة الإنسان وفي تاريخ الأديان والأخلاق:

وما تاريخ الإنسان الديني والخلقي إلا قصة صراع بين الطبيعتين، وتأرجح بين نهايتين؛ فأحياناً تغلبت الطبيعة الأولىٰ، وتطرفت، وابتدعت الرهبانية، وغلت في التقشف في الحياة، ورفض الطيبات والمباحات وإرهاق الطبيعة، وإجهاد النفس، فأطال الإنسان الجوع، وأدام السهر، والتجأ إلى الغابات والمغارات، ورأىٰ السعادة والسمو الروحاني في تعذيب النفس، وإيلام الجسم، وما قصة غلاة القرون الوسطىٰ في أوربة بخبر مجهول: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] فلم تكن نتيجة ذلك إلا أن ضعفت الأجسام، والعقول، وانحلت الروابط، وتعرَّض المجتمع الإنساني لخطرٍ محدق، وتخلَّى الإنسان عن منصب الخلافة الذي أكرمه الله به، وانسحب من ميدان الكفاح والمسؤولية، واتخذ «الملك» له المثل الأعلىٰ، وصار يجسده، ويطمح إليه بعد ما كان محسوداً للملائكة، ومسجوداً لهم.

وتغلبت الطبيعة الثانية، الطبيعة الجسدية الأرضية، أحياناً كثيرة، فانفلت الإنسان من كلِّ قيد من قيود العقل والشرع، ومن كل سلطة من سلطات الروح والأخلاق، وانساق لدواعي المادة والمعدة، وانجرف معها انجرافاً، فأمعن في إرضاء شهواته البدنية، وتحقيق رغباته المادية، لا يعرف لذلك حدّاً، ولا نصاباً، فانطفأت شعلة الروح، والقلب وتضخَّمت المعدة على حساب العقل والضمير، وتوسَّعت، فصار لا يكفيه قوت أسرة، أو قبيلة، ونشأت في جسمه معدة صناعية خيالية، وفي حياته جوعة وهمية أسطورية، لا يشبعها أعظم مقدار من الطعام والشراب، ومن الذخائر والمستودعات، ومن الأبرار والغلات، فنشأت مظالم وجرائم، وأصبح الإنسان حيواناً مفترساً ضارياً، يفترس بني نوعه، ويزدرد أفراد أسرته، وما قصة الحروب والغارات، والفتوح والانتصارات ـ حاشا

الجهاد الديني المقدس - إلا قصة الجشع الفردي، أو الجماعي، وقصَّة الغرام بالتمتُّع والرئاسة، والعلو في الأرض.

تأثير التخمة والنهامة في الأخلاق والأذواق:

وإذا تغلبت هذه الطبيعة الحيوانية، وملكت زمام الحياة، واستحوذت على مشاعر الإنسان وحواسِّه، وأصبحت «المعدة» هي القطب الذي تدور حوله الحياة؛ شقَّ على الإنسان كلُّ ما يحول بينه وبين رغبته، وما يشغله عن إرضاء نهمته، وكل ما يذكره بمبدئه ومصيره، وما يصور له الحساب، والاحتساب، والجزاء والعقاب، فلا يجد في أعوام طوال وقتاً صافياً، وقلباً فارغاً، وعقلاً يقظاً، وضميراً حياً، فتثقل عليه العبادة، والذكر، وما يتصل بهما، ولا يجد لذتها بطبيعة الحال. ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ـ٤٦] ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

* * *

مكانة «المسلم» في الوجود[1]

قال الكاتب في ترجمة الإمام جلال الدين الرومي، في كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لقد تواضعت الحكومات الشخصية المستبدة، والفلسفات الخاطئة، والأديان المحرفة على الاستهانة بقيمة الإنسان، والحطِّ من قدره وشرفه، وقد نشأ ـ بتأثير الحروب الطاحنة التي كانت لا تكاد تنقطع؛ وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ـ مقتٌ شديدٌ في الناس للحياة، وتبرُّمٌ من امتدادها، واستمرارها، وقنوطٌ من المستقبل، وشعورٌ عميق بالمهانة؛ أو ما يسمَّىٰ اليوم «بمركب النقص» وأصبح الإنسان حقيراً في عينه.

وجاء بعض «المتصوفين» العجم، فدعوا دعوة متحمسة إلى «الفناء» الذي تمثله الجملة المأثورة في الأدب الصوفي: «موتوا قبل أن تموتوا» وغلوا في إنكار الذات، حتىٰ أصبح الاعتداد بالنفس، وحبُّ الذات؛ الذي يتوقف عليه الكفاح، والحركة، والنشاط جريمةً خلقيةً، وحجر عثرة في سبيل الكمال الروحي، وقد أسرف الدعاة والمؤلفون في الحث على اكتساب الصفات الملكية، والانسلاخ من اللوازم البشرية، حتىٰ أصبح الإنسان يستنكف من إنسانيته، وأصبح يعتقد أنَّ رقيه في الثورة على الإنسانية، لا في الاحتفاظ بإنسانيته، وأنَّه كلَّما كان أبعد من الإنسانية وأشبه بالملائكة، كان أقرب إلى السعادة والكمال.

ونشأ ـ بتأثير هذه الأفكار والفلسفات، وانحلال المجتمع، وجور

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها العاشر، المجلد الثاني عشر، عام ١٩٦٨ م.

الحكومات ـ أدبٌ متشائم ، وشعرٌ متشائم ، ينظر إلى العالم وإلى الحياة بالمنظار الأسود ، يدعو إلى الفرار من الحياة والتشاؤم من الناس ، والنقمة على الآباء في جنايتهم على ذريتهم ، كما فعل «أبو العلاء المعري» في عصره ، وكانت نتيجة هذه العوامل القوية الطبيعية أن فقد الناس عامةً الثقة بنفوسهم ، والأمل في مستقبلهم، والرغبة في حياتهم، وأصبح الإنسان في هذا المجتمع المتبرم الضجر كاسف البال، منكسر الخاطر، ضعيف الإرادة، محطم الأعصاب ، قد يحسد الحيوانات في حريتها ، والجمادات في سلامتها ، وهدوئها ، لا يعرف لنفسه قيمةً ، ولا لإنسانيته شرفاً، ولا يعرف ذلك الجو الفسيح الذي هيَّأه الله لطيرانه ، وتحليقه ، ولا يعرف تلك الكنوز البديعة ، والقوىٰ الجبارة ، والمواهب العظيمة التي أودعها الله في باطنه ، ولا يعرف أنَّه قد خلق ليكون «خليفة ربِّ العالمين» في هذا العالم الفسيح ، و«وصيّاً عليه» وأخضع له هذا الكون ، وما كان سجود الملائكة لأول بشر إلا إشارة لهذا الخضوع ، فإنهم هم الذين يتصرَّفون في هذا الكون بأمر الله ، ويبلغون رسالاته ، فإذا خضعوا؛ فقد خضع له الكون بالأولىٰ.

في هذا المجتمع الثائر على الإنسانية: الذي كفر بالإنسان ، وقيمته ، ومركزه في هذا العالم ، قام مولانا «جلال الدين الرومي» يمثل الفكرة الإسلامية الصحيحة في شعره الرنَّان ، ويثير كرامة الإنسان المطمورة في أنقاض الأدب المتشائم ، والشعر المتراجع المنهزم ، وبدأ يتغنَّى بكرامة الإنسان وفضل الإنسانية في حماسةٍ ، وبلاغةٍ ، حتى دبَّ في المجتمع دبيب الحياة ، وأصبح الإنسان يعرف شرفه ، وكرامته ، وترنَّح بهذا الرجز والحداء القوي «الأدب الإسلامي» كله. وردده الشعراء ، وضربوا على وتره. وانطلقت في عالم التصوف موجةٌ جديدةٌ تستحق أن تسمَّى «الاعتزاز بالإنسانية»(١).

وجاء دور الفلسفة الغربية ، وسيادة أوربة الثقافية ، والسياسية ، وقد ورثت عن كنيستها النصرانية ، وتفكيرها المسيحي الفكرة الرهبانية وعقيدة

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام:ص: ٢٩٤ ـ ٢٩٦ ، الطبعة الأولىٰ.

الكفارة والفداء المؤسسة على كون الإنسان مذنباً بالفطرة والوراثة ، واحتياجه إلى من يكون كفارة له وفداءً ، هذا بجنب المادية الرعناء التي تصورت الإنسان في آلة الإنتاج ، وماكينة مسخرة ، وحيوان راق منتج لا يعرف إلا إشباع الغريزة ، وإرضاء النهامة ، وإنتاج الرائج النافع للسوق ، وتجاهلت جميع الدوافع الخيرة المخلصة والقيم الروحية ، والآفاق الباطنية ، وجعله مخلوقاً تافهاً خاضعاً للنواميس الطبيعية العمياء.

وقد كان للمسلم الشرقي أكبر نصيب في هذا اليأس والتشاؤم ، وفي إنكار الذات ، وفي الجهل بقيمته وكرامته ، فقد فَقَدَ السيادة والسيطرة في بلاده ، ووطنه الإسلامي الكبير ، وخضع للنفوذ الغربي السياسي ، والاجتماعي ، وبهره بريق الحضارة الغربية ، فذاب أمامه كما تذوب الشمعة في وهج الشمس ، وفقد الثقة بنفسه ، ومستقبله ، وبقيمته ، وغنائه؛ وأصبح أضعف نفساً وإرادةً ، وأقلَّ ثقةً بالنفس من معاصره ، الأوروبي. فقد ضعف إيمانه بدينه وشخصيته ، وحرم المجتمع القومي الذي يعيش فيه ، والحضارة الفنية التي يعتزُّ بها ، والحكومات القوية الغنية التي يستند إليها ، فأصبح إنساناً هزيلاً ، لا قيمة لنفسه في عينه ، ولا أمل له في المستقبل.

وجاءت النظم السياسية، والفلسفات الاقتصادية ، والحكومات الشرقية ـ في آسيا وإفريقية ـ وجاء الأدب الحديث، والشعر المعاصر ، والصحافة ، والنقد ، فلم يضرب كلُّ ذلك إلا على الوتر الواحد ، ولم تردد إلا نغمةٌ واحدةٌ ، كلُّها تتجاهل قيمة الإنسان المؤمن ، وقيمة الفرد المسلم ، وكلُّها تتناسىٰ رسالته الخالدة ، ومضمراتها ، ومكنوناتها التي لا نهاية لها ، وقوتها المعجزة المغيرة للأوضاع ، وكلُّها تجهل مواهبه ، وطاقاته المخبوءة ، وكنوزه ، وثرواته الدفينة. وكلُّها تجهل قوة إيمانه التي تصنع العجائب ، وتبطل التجارب ، وقوة مغامرته ، ومدىٰ إخلاصه ، وتجرده من الأغراض ، ونزاهته وقدسه ، وتمرده على المثل ، والمكاييل المصطنعة ، والحدود والقيود المحدودة ، وشجاعته واستهانته بكلٍّ ما ظلَّ الإنسان يخافه ، ويحذر منه ، ويحسب له الحساب منذ آلاف من السنين ،

وكلُّها تتطفل على مائدة الغرب ، وتستجدي منه ما تعيش عليه ، من مرذول الطعام ، وممجوج الكلام ، والقديم البالي من النظام والأفكار ، والعلوم والآداب. لا فرق في ذلك بين حكومات فردية شخصية ، وبين حكومات جمهورية اشتراكية ، أو ثورية شيوعية ، كلُّها تلتقي على فكرةٍ واحدة عن الإنسان ، ونظرةٍ واحدةٍ إلى المسلم الذي تستمدُّ منه قوتها ، وتتوصَّل بنخوته وحماسته إلى كرسي الحكم.

في هذا الجو الفاتر الخائر يقوم محمد إقبال ، ويتغنَّى بشخصية هذا الإنسان المسلم ، ويثير فيه النخوة والإباء ، ومعرفة الذات ، والثقة بالنفس ، ويريه مكانته في الوجود ، ومركزه في العالم الإنساني ، وينقله من عالم اليأس والتشاؤم ، واحتقار الذَّات ، وجهل النفس إلى عالم كلُّه أملٌ وعمل ، وكلُّه بطولة ومغامرة ، وكلُّه سيادةٌ وسيطرة ، وكلُّه اعتدادٌ واعتزاز ، وكلُّه طربٌ واهتزاز ، وكلُّه ابتكارٌ وإعجاز ، فيقول في قصيدة فارسية له:

«عجباً لك أيها المسلم تجلَّت لك الآفاق ، وغابت عنك نفسُك ، إلى متى تظلُّ غافلاً جاهلاً؟ وتجلس ضائعاً عاطلاً. إنَّ نورك الوهَّاج أنار العالم القديم ، ونسخ الليل البهيم ، ولا تزال «اليد البيضاء» التي ورثتها عن موسىٰ في كمِّك. تخطَّ حدود الآفاق الضيقة ، فأنت السابق لها ، والفائق عليها ، فقد كنت ، ولم تكن ، وستكون ، ولا تكون ، هل تخاف الموت أيها الإنسان الحي الخالد؟! لقد كان جديراً بالموت أن يخافك ، فأنت تكمن له ، وترصد به ، اعلم يقيناً: أنَّ الكريم إذا وهب شيئاً لا يسلبه ولا يسترده ، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح ، إنما حتفه في ضعف الإيمان ، والحرمان من اليقين»[1].

ويقول في قصيدة فارسية أخرىٰ تمتاز بحلاوة الجرس ، وعذوبة الموسيقا ، تصبح بها نشيداً مثيراً للشباب المسلم الطموح ، وهو يهيب بهذا

---

(١) «زبور عجم» ١٦٤.

المسلم المتشائم اليائس ، المتثاقل الناعس ، المتخلف عن ركب الحياة ، المتنازل عن القيادة والإمامة ، يقول :

«افتح عينيك أيها الزهر النائم مثل النرجس الذي لا يطبق عينه لحظة ، ولا يعرف الكرى إليه سبيلاً ، لقد أغار علىٰ وكرنا الأعداء ، ونهبوا كلَّ ما فيه من كنوز وخيرات ، ألا يكفي هدير الحمام ، وصفير الأذان ، وأنين القلوب والأرواح أن يوقظك. انتبه من هذا السبات العميق ، الذي طال أمده ، واشتدت وطأته.

لقد بدأت الشمس رحلتها المباركة المتكررة ، وارتفع عمود الصباح المنير في بحر الظلمات ، وحزمت القوافل في الجبال والصحارىٰ أمتعتها ، وضربت أجراس الرحيل ، فما لك أيتها العين الساهرة! ـ التي خلقت لمراقبة الإنسانية ، وحراسة الضعفاء ـ تنامين ولا تنظرين إلى ما يدور حولك من الأحداث والتقلبات. انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته.

ولقد أصبح يحرك هادئاً ساكناً كالصحراء ، لقد فقد طبيعته وجمد ، ووقف فلا مدَّ فيه ، ولا جزر ، ولا زيادة فيه ولا نقص ، عجباً لهذا البحر الذي لا يهيج ، ولا يموج ، وليس فيه تمساح طموح مغامر ، ولا موج عارم ثائر ، لقد كان جديراً بك أن تقفز من حدوده الضيقة الهادئة ، وتفيض على البراري والقفار ، والنجاد ، والأغوار. انتبه من سباتك العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته.

اعلم أنَّ الوطن جسد من تراب ، والدين هو الروح ، ولا حياة للجسد وللنفس إلا بارتباط الجسد والروح ، انهض أيها المسلم! وفي إحدىٰ يديك ، «المصحف» وفي الأخرىٰ «السيف» فباجتماعهما تسعد البشرية ، وتخصب المدنية. انتبه من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته.

أنت للناموس الأزلي حارسٌ وأمين ، ولسيد هذا الكون يسارٌ ويمين[1]

---

(١) يعني : أنه آلة القدرة الإلهية ، وجارحة لها.

لقد كانت نشأتك من التراب ، ولكن بك قوام العالم وبقاء الأمم. اشرب كأساً فائضة من اليقين ، وانهض من حضيض الظنِّ والتخمين. انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته.

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول ، وسحروا النفوس ، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرَّةً بالرقة والدلال ، ومرَّةً بالقيود والأغلال ، وتارةً مثلوا دور «شيرين» وطوراً لعبوا دور «أبرويز»[1] لقد أصبح العالم كلُّه خراباً يباباً بإغارتهم وغزوهم. يا باني الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد. انتبه من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته»[2].

ويقول في قصيدة أردوية ، تكاد تسيل رقةً وعذوبةً:

«لقد هبت عليَّ نفحةٌ منعشةٌ من نسيم السحر في الصباح الباكر ، ناجتني ، وقالت لي: إن الذي عرف نفسه ، وعرف قيمته ، ومركزه لا يليق به إلا عروش الملوك ، وأسرة السلاطين ، إنَّه لا حياة لك ، ولا قوام ، ولا شرف ، ولا كرامة إلا بهذه «المعرفة» فإذا ملكتها ملكت العالم ، وإذا فقدتها أصبحت من سقط المتاع ، إنه يتربى في مدرسة شعري وأدبي شباب لا يملكون درهماً ، ولا ديناراً ، ولكنَّهم يملكون صولة السلاطين ، ويحسنون آداب الملوك. إنَّ لك الخيار ، فاختر ما شئت ، ولكنني بدوري ، لم يعجبني الفرار من الحياة والعكوف في الزوايا والخلوات.

لقد هيأك الله ، أيها الشباب المسلم! لاقتناص «هما»[3] وما هذه الطيور والأسماك التي تملأ العالم إلا لتتمرن عليها ، في بدء أمرك ، ويتلهىٰ بها غيرك ، ما نطقك بالشهادتين أيها المسلم! سواء كنت عربياً أو عجمياً ، إلا

---

(١) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة تناقلها الأدباء والشعراء في إيران والهند ، تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال و«أبرويز» دور الملك القاهر الذي عشقها واستأثر بها.

(٢) «زبور عجم» ١١٦ ، ١١٨ باختصار وتوسع.

(٣) طائر أسطوري في الأدب الفارسي والأردي ، يضرب به المثل في اليمن والسعادة ، يقال: إنه ما أظل إنساناً ، وما طار فوق رأس إنسان إلا وكان ملكاً في يوم من الأيام.

حديثاً غريباً ، حتىٰ يشهد بهما قلبك[1] .

ويقول في قصيدة خفيفة الوزن ، قصيرة البحر ، سهلة اللفظ ، كأنها قطعة من نثر ، أو حديث من أحاديث الناس :

«إنَّ كل ما في هذا العالم من الظواهر الكونية ، أو الأجرام الفلكية ، راحل زائل ، وغائب آفل ، أنت ـ أيها الإنسان المسلم ـ بطل المعركة ، وقائد الجيش ، وكلُّ ما حولك من سافلٍ ، وعالٍ ، ورخيصٍ ، وغالٍ من جنودك وأتباعك ، أسفاً لك ، أيها الرجل! لم تقدِّر نفسك ، ولم تحسب لها حساباً ، ما أشد جهلك! وما أضيق نظرك! إلى متىٰ تجري وراء الدنيا الذليلة ، وتعبدها ، وتخضع لها؟ إمَّا أن ترفضها رفضاً باتاً ، وتزهد فيها وتتبتل ، وإمَّا أن تملك ناصيتها ، وتسود وتحكم ، لا منزلة بين المنزلتين ، ولا توسط بين النهايتين» .

وهذا قليل من كثير جدّاً ، تطفح به كتبه ، ودواوين شعره ، وفي هذا بلاغ للشباب المسلمين الذين خضعوا لنظام التربية الحديثة والفلسفات المادية؛ التي حجبت عنهم شخصيتهم ، وآفاق عالم الروح والقلب ، وأعماق النفس البشرية ، ومرامي المؤمن القوي الطموح ، ولم تصور العالم إلا سوق تجارة ، أو إنتاج ، أو حانوت خمر ، أو بيت مقامرة ، أو مكان تنافس للقيادة ، وصراع في مجال الاقتصاد والسياسة ، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ﴾ [النجم : ٣٠] .

* * *

---

(١) بال جبريل ٦٧ ، ٦٨ .

العالم الإسلامي على مفترق الطرق[1]

إنَّها حقيقةٌ ـ مهما كانت مرَّةً وأليمةً ـ أنَّ العالم الإسلامي فقد الثقة بنفسه ، وجهل ذاته ، ومعنوياته بصورة عامة ، حتى أنَّ الأقطار الحرة المستقلة في هذا العالم الإسلامي الواسع ـ بما فيها الدول التي كانت مستقلةً منذ قرونٍ ، وأجيالٍ ، وما تأخرت في الاستقلال ـ ظلت عالةً على الغرب علمياً ، وعقلياً ، كبلادٍ متأخرة أخرىٰ نشأت في العبودية والخضوع ، وشبَّت على العبودية والخنوع. قد يقوم رؤساء هذه الدول وزعماؤها أحياناً بمواقف تستحقُّ الإعجاب في المجال السياسي ، ويجازفون بعض الأحيان بمستقبل البلاد ، ويغامرون ـ أو يقامرون ـ بحياة الشعوب ، ولكن لا يبدو منهم ـ في نفس الوقت ـ أي ثقة في النفس ، وحرية في الاختيار ، وملكة نقدٍ حرٍّ ، وحكم عادلٍ على الأشياء يرجىٰ من أي فرد بلغ رشده ، وعرف يمينه من شماله ، مع أنه من المقرر المعلوم في فلسفة التاريخ : أنَّ العبودية الفكرية ، والحضارية ، والتربوية أدهىٰ وأمرُّ ، وأعمق ، وأرسخ من العبودية السياسية ، فإنَّ الشعب الظافر ، المنتصر ، المحبَّ للواقعية يبقىٰ في غنىً عن الاستعباد السياسي ، واستعمال القوة؛ إذا نجح في الاستعباد الفكري ، والعقلي ، والحضاري.

في هذه العقود الأخيرة من القرن العشرين التي اكتوت فيها الإنسانية بنار حربين عالميتين ، وهي على أبواب حرب كونيةٍ ثالثةٍ ، ساحقةٍ ماحقةٍ ، وأصبح فيها إخضاع دولة سياسياً وعسكرياً ، والتحكم في رقابها من غير إذن

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الأول ، المجلد الثالث عشر ، عام ١٩٦٨ م.

أهلها شاقاً عسيراً ، بل شبه المستحيل ، بدأت الدول الكبرىٰ تميل إلى النفوذ الفكري ، والحضاري أكثر من النفوذ العسكري والسياسي ، ولم تكن في هذا المجال قوة أو دعوة تتحدَّى سيطرة الغرب الفكرية والحضارية ، وتواجه وحدته الأساسية والنظرية ، وتعرقل سيره الحثيث ، إلا شخصية العالم الإسلامي المستقلة الأصيلة ودعوته الدينية والخلقية ، وفلسفته في الحياة.

ولكنَّ العالم الإسلامي لأسباب وعوامل تاريخية قدَّمناها في كتابنا «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لم يتشجَّع على مواجهة طاقات الغرب الفائضة المتدفقة مواجهة الندِّ للندِّ ، فإنَّ الطبقة التي تربعت على عرشه وملكت زمام أمره كانت تعيش على هامش الغرب ، بل كانت ـ في تعبيرٍ أصح ـ طفلاً رضيعاً حملته مرضع الغرب ، وغذته بلبانها ، وتكوَّن لحمه ودمه ـ معنوياً وعقلياً ـ من لحم أمه (الغرب) ودمها.

أضف إلى ذلك محاولة الغرب لإضعاف وازع العقيدة والإيمان في شعوب هذه الدول ، وتدمير الأخلاق الفاضلة ، ونسف تقاليد المجتمع الكريمة ، والقوة الباقية للتغلُّب على الشهوات والإغراءات ـ التي تجرَّد عنها الغرب منذ أمد بعيد ـ استخدم فيها أساليب ووسائل تبدو بريئةً سخيةً أحياناً ، آثمة مجرمةً بعض الأحيان ، فحاول البلوغ إلى أهدافه البعيدة المدىٰ عن طريق إعانة اليونسكو ، ورعايته ، والاستعانة بالخبراء الأجانب في التربية ، والتثقيف ، والإعلام ، وبالمدرسين الأوربيين ، وعلماء التربية والتعليم الغربيين ، وعن طريق تلك الموجة العارمة الصارمة من كتب وصحف ومطبوعات؛ التي تبذر بذور الشبهات وتثير الشهوات ، والتي امتدَّت ، وطغت كالسيل الجارف العاتي في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وأراد أخيراً أن يشلَّ جميع قواه ، ويخدِّر طاقاته بتعميم التلفزيون في كلِّ منزلٍ وأسرة ، بل في كلِّ شقةٍ وغرفةٍ باسم رفع مستوىٰ المعيشة وإفاضة النور والبهجة والمتعة علىٰ الحياة ، إنَّه يقيِّد ـ بعض الأحيان ـ مساعداته السخية لهذه الدول المتأخرة الصغيرة ، ويطالب هذه الحكومات بتغييرات

وتحسينات، تتكفل بتطوير المجتمع وطبيعة الجماهير المؤمنة بسهولة وبراعة.

وموجز القول: إنَّ الغرب أحاط بهذه الدول ـ رغم بعده عنها ـ إحاطة السوار بالمعصم، أو الهالة للقمر، وافتعل حولها أوضاعاً جعلت هذه الدول المستقلة تحت رحمة هذه الدول الغربية الكبرىٰ من غير أن تستعمل تلك الأساليب القديمة البالية للإخضاع والاحتلال.

لقد أبدىٰ قادة هذه الدول ـ وفيهم من يلهج لسانه بالإسلام، وفيهم من يتزعَّم إنشاء كتلةٍ إسلامية، وجبهةٍ إسلامية عالمية ـ إيماناً وتسليماً بهذه التغييرات، أو «التحسينات» ونشاطاً وتحمساً في تنفيذها، وتطبيقها على المجتمع والحياة، لا يسبقهم فيه الغربيون أنفسهم، وإنَّ أساليبهم في قبول المخططات الأمريكية، أو السوفيتية للتربية والتعليم، والسَّماح لخبرائها وعلمائها بوضع خطَّةٍ دقيقةٍ مدروسةٍ لتطوير عقلية هذه الشعوب وطبيعتها، والأخذ بكافة الأسباب لتعميم التلفزيون، وتسهيل سبله، واستيراده برمته، وعلى علاته، وإدخاله في كلِّ أسرة مسلمة بتحمُّسٍ ونشاط، وجدٍّ وتصميم، وتوفير جميع الفرص، والوسائل لبعض تلاميذ المستشرقين «النجباء الأوفياء» لإثارة الشبهات والفوضىٰ الفكرية في المجتمع الإسلامي، وتقوية الاتجاه الخطر إلى الرفاهية، وأسباب الترفيه والتسلية ومباهج الحياة، وزخارفها، وتشجيع التبرج، والسُّفور، والتعليم المختلط، وصناعة الأفلام، والإشراف عليها، كلُّ ذلك يثير الشبهات في نفوس كثيرٍ من الناس.

إنهم أصبحوا عملاء ـ لا قدَّر الله ذلك ـ بشعور أو من غير شعور لهذه الدول الكبرىٰ، وانساقوا معها في أهدافها الهدَّامة، أو لعلَّهم يريدون أن يحرِّروا شعوبهم المسلمة، وجماهيرهم المؤمنة عن هذه الغيرة الدينية، والشعور الخلقي، وعن التمييز بين الخير، والشر، والحياء، والخلاعة؛ الذي يحول ـ أكثر الأحيان ـ بينهم وبين إباحيتهم الفردية، وعبوديتهم للغرب، والذي يمكنه أن يتحوَّل في وقتٍ ما في صورة انتفاضة دينية، وحركةٍ إسلامية، ويمثل خطراً لسلطة هؤلاء القادة والحكام.

ويبدو أنَّ هذه العملية ـ عملية التغيير والتطوير ـ إذا استمرَّت عدة سنوات أخرىٰ ، وأتيحت الفرصة للعناصر الهدَّامة ووسائل التدمير أن تعمل عملها بحريةٍ وانطلاق؛ فإنها تؤثر في هذا الجيل الجديد الذي يقبل على كل طريفٍ لذيذٍ تأثيراً بالغاً لا يترك له أيَّ مجالٍ لمواجهة تيار التغريب والتجدُّد ، أمَّا النشء الذي ينشأ في هذه البيئة ، والذي يخلف الجيل المعاصر؛ فإنَّه سيشبُّ على السَّمع ، والطاعة ، ولا يعرف معنىٰ المعارضة. بل إننا نخاف ـ وقد بدت طلائعه وظهرت بوادره ـ أن تقع الطبقة الارستقراطية ، والفئة الحاكمة في هذه البلاد فريسةَ ذلك الجذام الخلقي الذي مسخ الغرب ، وشوَّه صورته ، ثم لا ترىٰ في وجه الأرض مجتمعاً سليماً كريماً تناط به الآمال في تطهير العالم الروحي ، والخلقي ، ويعتمد عليه في إنعاش الإنسانية مرَّةً أخرىٰ.

أمَّا الغرب فإنه لا تصحُّ نيته ، ولا تصلح طويته ـ أبداً ـ إزاء العالم الإسلامي ، إنَّها نتيجةٌ طبعيةٌ وردُّ فعلٍ طبيعي لتاريخه الطويل؛ الذي امتدَّت عليه ظلال الحروب الصليبية الكثيفة ، وطبع بطابع الصِّراع الطويل العنيف الدامي بين الدولة العثمانية ، والدول الأوربية.

إنَّ حبَّ الواقعية والعقل العملي يحكمان بأنَّ العالم الإسلامي وحده يستطيع أن يتحدَّىٰ سيطرة الغرب ، ويبرز على وجه الأرض كقوةٍ ، أو كتلةٍ مستقلةٍ تقوم على أساس فلسفةٍ خاصَّةٍ أصيلةٍ للحياة ، ودعوةٍ عالميَّةٍ للبشرية ، إنها نتيجة الشعور بقيمة تلك الذخائر ، والوسائل الطبيعية ، والمواد الخامة التي تفيض بها أرض العالم الإسلامي ، والتي تملك أهميَّةً كبيرةً حسَّاسة للسيطرة الصناعية ، والتجارية ، والسياسية للغرب ، وقد يقتضي ذلك ضعف الطبيعة البشرية أيضاً ، فإنَّ الإنسان إذا أصابه داءٌ ، أو لحقه عارٌ يتمنىٰ ـ بعض الأحيان ـ أن يصاب به الآخرون ، ويبتلون بذلك ، ويحبُّ أن يستوي هذا ، وذاك ، ولو على الداء والعار.

ولا يتغلب على هذا الضعف والعيب إلا الذين استقرَّ ـ بفضل تعليم النبوة وتأثيرها ـ حبُّ الإنسانية في سويداء قلوبهم وتغلغل الإيمان وخشية الله في

أحشائهم. وذلك ما فقده الغرب ـ مع الأسف ـ منذ زمنٍ طويل.

إنَّ تاريخ عهد الاستيلاء الغربي، وانتصاراته يدلُّ بكلِّ وضوحٍ على أنَّ جميع هذه الدول التي وقعت تحت نير الاستعمار الأوروبي، التصق بها ذلك الداء الخلقي الذي رافق الغرب حيثما حلَّ وسار، وقد حاولت القوىٰ الاستعمارية الغربية ـ على حدِّ تعبير بعض المؤلفين الغربيين ـ إثارة الفوضىٰ الخلقية، والشبهات العقلية في البلاد الشرقية تحت خطَّةٍ مدبَّرةٍ مرسومةٍ محكمةٍ.

فإنَّ الغرب المسيحي مهما كان متشككاً في المسيحية، ومهما وصل تنوُّره الفكري، وتحرُّره العقلي عن العقائد المسيحية إلى حدود الزندقة والإلحاد، ولكنَّه مسيحي متصلِّبٌ، متزمِّتٌ بالنسبة للعالم الإسلامي، والشعوب الإسلامية، إنَّه يسالم اليهود، ويتفاهم معهم في هذه الناحية مع أنَّهم من ألدِّ أعداء المسيحيين، وعريقون في العداوة والبغضاء، ويؤثرهم على المسلمين بكلِّ صراحة وجلاء، وفضلاً عن هذا التعصُّب الدِّيني الذي نشأ في حضانته، ورضع بلبانه، وأصبح من طبيعته وشيمته، إنَّه أحرص على مصالحه، وأغراضه قبل كل شيء.

وقد جرَّبنا مراراً وتكراراً: إنَّه كلَّما وقع صدام بين دولة إسلامية ودولة غير إسلامية وقف دائماً ـ مع الجانب الآخر ـ وساعده من وراء حجاب حيناً، ومن غير حجاب حيناً آخر، وقد أزاحت نكبة ٥ حزيران ١٩٦٧ الستار عن هذه الحقيقة، وتقرر: أنَّه لا يجوز لأيِّ شعبٍ إسلامي، أو دولةٍ إسلاميةٍ، أو هيئة إسلامية أن يثق بصداقة كتلة غربية، أو شرقية، بل ينبغي له ـ في مثل هذه المراحل الحاسمة ـ أن يثق بقوَّته، ويعتمد على سواعده، ووسائله بعد الثقة بالله، والاعتماد عليه.

أمَّا بخصوص قادة العالم الإسلامي وزعمائه؛ فيجب عليهم أن يعرفوا: أنهم مهما جنوا من منافع شخصية لهم ولمن يأتي بعدهم من وراء هذه السياسة، سياسة التجدُّد والتغريب، والتقليد الأعمىٰ، وإثارة الفوضى، والتبلبل الفكري في الشعوب المسلمة؛ فإنها تلحق الأمة بخسارةٍ فادحةٍ في

المجموع ، وبصورةٍ دائمة ، وتهزُّ أركانها ، وجذورها ، ومقوماتها هزّاً عنيفاً ، تبقىٰ آثاره ، ونتائجه لعدَّة قرونٍ وأجيال.

إنَّ هذه الشعوب ـ رغم جميع معائبها وجوانب الضعف فيها ـ لا تزال تحمل تلك العاطفة الفياضة الجياشة من الإيمان ، والحنان ، والتضحية ، والإيثار ، والطَّاعة ، والانقياد ، والحبِّ ، والإخلاص التي لا توجد في أيِّ أمَّةٍ مادِّيةٍ على ظهر الأرض ، إنَّ جماهير هذه البلاد الإسلامية ، رغم جهلها المؤسف ، وتأخرها المؤلم خاماتٌ بشريةٌ ممتازةٌ ، يصنع منها نماذج إنسانيةٌ جميلة ، وطرازٌ رفيعٌ من البشر ، إنَّ أكبر قوتها الإيمان ، والإخلاص ، والبساطة ، والحماس. وهذه القوة لعبت دوراً خطيراً في التاريخ ، وصنعت العجائب ، وأتت ببطولات وخوارق تدهش لها العقول ، وهي التي أنقذت هذه الدول الإسلامية ، وأمسكت بيدها في كلِّ وقتٍ عصيبٍ ، ولحظةٍ حاسمةٍ.

فيجب علينا ـ بناءً على مجرَّد حب الواقعية والحقيقة ـ أن نقدِّر هذه القوة الكبرىٰ حقَّ قدرها ، ونعتبرها أضخم رصيد ، وأمضىٰ سلاح ، وأقوىٰ وسيلة للمحافظة على سلامة البلاد ، وأداء أي واجبٍ كبيرٍ ، ودورٍ خطيرٍ على مسرح العالم ، ولكنَّ هذه القوة الشعبية الإيمانية بدأت تتغضن تحت تأثير عوامل التجدُّد والتغريب ، وبدا في هذه الشعوب سرطان خلقي لا ينفع فيه الدواء والعلاج.

وبالنظر إلى تفوُّق الغرب في مجال الصناعة والعلم الذي لا ينكر ، ولا يسمحُ بإنكاره وغضِّ البصر عنه العقلُ والدِّينُ ، ولا هو بالمتيسر الممكن يقف العالم الإسلامي بين طريقين ؛ فإمَّا أن يقبل ـ مسحوراً مسلوب الإرادة والتفكير ـ فلسفته عن الحياة ، ونظرته إلى الكون وعقائده ، وأفكاره المابعد الطبعية ، ونظرياته الاجتماعية ، والعمرانية ، وفكرته عن الأخلاق ، وأسلوبه ومنهجه في الحياة برمَّته ، وبما فيه من غثٍّ ، وسمينٍ ؛ ويصهر وجوده ، وشخصيته في بوتقته صهراً كاملاً ؛ ويندمج في تياره الحضاري اندماجاً كليّاً.

إنَّ هذا الطريق ـ فضلاً عن أنَّه يعني ردَّةً عامَّةً شاملةً ، وانتحاراً روحياً ومعنوياً ، وخيانةً بالإنسانية التي ارتبط مصيرها بهذه الأمة ـ جهادٌ لا طائل تحته ، وسعيٌ لا مبرر له؛ والذي لا يؤدي إلا إلى صراع عقليٍّ ، وقلقٍ روحيٍّ ، وضياع المواهب الإنسانية ، والطاقات البشرية ، إنَّه تدمير صرحٍ مشيدٍ مكتمل البناء ، وإزالته من الأساس؛ ليقام على أنقاضه وركامه بناءٌ جديدٌ ليس له موادُّ خام ، ومواهب بناءة ، ولا يسمح به الجو ، والبيئة ، والمجتمع ، ولا صلة له بالماضي.

وكلَّما بدت محاولة في هذا المضمار في أي دولةٍ إسلامية؛ أخفقت ، وكلَّما خفَّ هذا الضغط الصناعي وغير الطبيعي من الشعوب ، ووجد الناس فرصةً لإبداء آرائهم ، وما يحبون ، وما يكرهون؛ خلعوا هذا اللباس الفضفاض الذي لم يفصَّل على قامتهم ، ولم يتلاءم مع طبيعتهم ، وذلك ما نراه الآن في تركيا ، وسنراه عمَّا قليل في مصر وسوريا.

هذا هو الطريق الأول ، أمَّا الطريق الثاني فهو أن نستفيد من الغرب في مضمار العلوم ، والصناعة ، والأبحاث العلمية ، والفنية التي لا تقوم إلا على التجارب العملية ، والحقائق العلمية ، وعلى الجهد الإنساني فحسب ، بكلِّ حريةٍ وسعة صدر ، ثم نضع هذه العلوم والوسائل ـ بفهمٍ ، واجتهادٍ ، وذكاءٍ ـ في خدمة تلك الأهداف السامية التي منحتها لنا النبوة الأخيرة، والكتاب الأخير ، ودعانا بخير أمَّةٍ ، وآخر أمَّةٍ على وجه الأرض.

إنَّ هذا الجمع بين الوسائل والغايات الذي حرمه الغرب والشرق على السواء ـ فأصبح الغرب محتكراً للوسائل الجبارة القاهرة ، مفلساً كلَّ الإفلاس في الغايات النبيلة الصالحة ، وأصبح الشرق (الإسلامي) مقتنعاً بالغايات الرشيدة الصالحة ، مفلساً في الوسائل الجبارة القاهرة. الغرب يستطيع أن يفعل كلَّ شيء ، ولكنَّه لا يريد ذلك ، أو في تعبيرٍ أدق لا يعرف الطريق إليه ، والشرق الإسلامي يحب أن يفعل الكثير ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً. هذا الجمع الصالح المتزن العادل يستطيع أن يغيِّر وجه الأرض ، ويأخذ بالإنسانية من طريق الانتحار ، والهلاك إلى طريق

السعادة الخالدة ، والفوز المبين في الدنيا والآخرة.

إنها تكون مأثرةٌ عظيمةٌ خالدةٌ تحوِّل تيار التاريخ واتجاه الإنسانية ، وإنَّها لا تتمُّ إلا بيد هذه الأمة التي حملت تراث النبوة الأخيرة ، وحافظت على رسالتها ، وأمانتها. فيجب أن يكون هتافنا في الوقت الحاضر والعالم المعاصر - هتاف ترتجُّ له الجبال ، وتهتزُّ به أوكار الفساد - هو - كما يقول إقبال -: إنَّ العالم أصبح خراباً يباباً بقسوة الغرب وفظائعه ، فيا أيها الرجل الذي بنيت الحرم قم وابن هذا العالم!

لقد تقدمت دولة فتية طامحة في الشرق ، اليابان ، وقامت بهذه الخطوة والإقدام في إطارٍ ضيِّقٍ محدودٍ ، وعلى مستوىً منحط من وجهة النظر الإسلامية ، إنها استفادت من الغرب في مجال العلم والصناعة استفادةً وصل بها التلميذ إلى درجة المعلم والأستاذ ، وأصبح من العسير التمييز بينهما. وحافظت - في جانبٍ آخر - على معتقداتها ، وخصائصها الحضارية ، وتقاليدها ، ولكنَّ معتقداتها الدينية - من سوء الحظ - لم تكن تتلاءم مع العصر الحديث ، ولم تكن فيها ناحية لخدمة الإنسانية ، ولم تكن تحمل رسالةً عالميةً ، إنها كانت مجموعة تقاليد بالية عتيقة ، حرصت عليها هذه البلاد ، وتمسَّكت بأذيالها ، ولا تزال متمسكةً بها بقوة إرادتها ، وصلتها العميقة الراسخة بالماضي.

ولكنَّ الوضع في العالم الإسلامي يختلف عن وضع هذا البلد كلَّ الاختلاف ، فعنده دين ، وشريعة ، ودستور لا اعتبار فيه للقديم والجديد ، وعنده حضارةٌ قامت على الحقائق الخالدة ، إنَّها شجرةٌ طيبةٌ ، أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربها ، ولذلك فإنَّ هذه البلاد الإسلامية سوف لا تواجه صعوبةً في إيجاد التفاهم ، والتعاون بين تلك العلوم والصناعات ، وهذه الحقائق والغايات ، وتستطيع أن تحصل بهذه العملية على نتائج مدهشة ، تحيط بالعالم كله ، وتشمل البشرية بأسرها ، وتتقدَّم بها على اليابان التي مارست هذه العملية في نطاقها الضيق المحدود ، فلم تأت بالنتائج السَّارَّة المرجوَّة.

إنَّ هذه المحاولة، والعملية في اليابان، وفي أيِّ بلدٍ تقليدي تشبه اللعب بالزُّجاج والحديد، والنار والبترول، ولكنْ لا تناقض بينهما عند المسلم، فإنَّه يرىٰ أنَّ الصِّراع والاصطدام بين الدِّين الصحيح والعلم الصحيح مستحيلٌ، وضربٌ من المحال، وأنَّ الحكمة ضالةُ المؤمن حيثما وجدها فهو أحقُّ بها، العبرة في الوسائل ـ عنده ـ بالغايات التي سخرت لأجلها، واستخدمت في سبيلها، إنه يرىٰ أنَّ كلَّ قوةٍ، وكلَّ علمٍ، وكلَّ أداةٍ فعالةٍ ووسيلة ناجعة، خلقت لخدمة الدين، وصلاح الإنسانية، وإنَّ من واجبه أن يمنح تلك العلوم، والوسائل، والآلات محلَّها اللائق ومكانها الصحيح، ويجعلها أداةً للبناء بدلاً من التدمير.

ولكنَّ هذا العمل الكبير يحتاج إلى ذكاءٍ متوقّدٍ، وشجاعةٍ في التفكير، ونصيبٍ وافرٍ من إيمانٍ، وإخلاصٍ يقاوم كلَّ نزعةٍ تقليديةٍ، وكلَّ شعارٍ مزوَّرٍ، وكلَّ هتاف فارغ، وكلَّ مصلحةٍ شخصيةٍ أو حزبيةٍ، ويتغلَّب عليها، ويقدِّم له قادة العالم الإسلامي كلَّ تضحيةٍ، وإيثارٍ تتطلبه هذه التجربة، وبذلك ينالون ـ كنتيجةٍ أو كمنحة ـ مكانةً فريدةً من الحبِّ والولاء في بلادهم، لا ينالونها من أيِّ طريقٍ آخر، وبالتالي يصلون ـ وتصل بلادهم ـ إلى درجة الهداية، والإمامة، وقيادة النوع الإنسانيِّ التي لم يحلموا بها.

إنَّ الحضارة الغربية أشرفت على الانهيار، وآذنت بالأفول، والزوال، إنها لا تعيش، ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية، وجدارتها للحياة والبقاء، بل لأنه ليست في هذا المجال ـ من تعاسة الحظ ـ حضارة تحلُّ محلَّها، وتسدُّ فراغها. إنَّ جميع الحضارات المعاصرة، والقيادات الحديثة اليوم لا تعدو نوعين: إمَّا هي مقلِّدةٌ جامدةٌ، وصورٌ باهتةٌ للحضارة الغربية، وإمَّا هي ضعيفةٌ، هزيلةٌ، مريضةٌ، سقيمةٌ، منسحبة، منهزمةٌ، لا تستطيع أن تواجه هذه الحضارة، أو تقف معها جنباً إلى جنب. فإذا قامت هذه الدول الإسلامية، والعالم الإسلامي بصورةٍ عامَّة لسدِّ هذا الفراغ الذي سيحدث بعد نهاية هذه الحضارة، وانسحابها عن مسرح القيادة رُدَّ إليه

منصب قيادة الجنس البشري ، وتوجيه الشعوب المعاصرة مرَّةً ثانية. المنصب الذي لا يفوَّض إلا إلى أمة فتيةٍ ، قويةٍ ، أبيةٍ تحمل كلَّ عناصر البقاء ، والاستمرار ، والتقدُّم ، والازدهار ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فلينظر هؤلاء القادة والزُّعماء ما هو أولىٰ لهم ، وأجدر بشأنهم؟ التمسك بأذيال الغرب ، والوقوف على بابه كالشحاذين ، أم منصب قيادة الإنسانية ، وهداية الشعوب الضالة التي لا كرامة (بعد النبوة) مثل هذه الكرامة ، ذلك المنصب العالي السامي الذي تتلاشىٰ عنده جميع هذه الألقاب والشارات ، والشعارات ، والهتافات ، والمناصب الرفيعة ، والحياة الناعمة المريحة ، والإغراءات المادية والجنسية ، إنَّها سلعةٌ غاليةٌ لا يخسر بها المشتري ولو ضحىٰ بنفسه مئة مرَّة.

فهل هنا ـ في ساحة العالم الإسلامي الكبير ـ بلدٌ إسلامي يقوم لهذا العمل الضخم ، العمل الحاسم الفاضل؛ الذي لا يساويه عملٌ في هذا العهد الحديث في الاتساع والعمق ، والشمول ، وفي النتائج ، والآثار ، والثمرات ، والخيرات ، وفي تغيير التيارات ، وتقويم الاتجاهات ، وإصلاح الحضارات والمدنيات ، العمل الذي لا تجدر أمامه نهضة الغرب وثورة فرنسا ، والشيوعية والماركسية بالذكر ، فضلاً عن الإشادة والتنويه.

إنَّ هذه الثورات القديمة تبدو كعبث الأولاد ، أو طفرة من طفرات الشباب بالنسبة إلى جراءة هذا العمل ، وذكائه ، وسحره ، وتأثيره ، إنَّ هذه التجربة تعطي هذه الدول التي تقوم بها ، والعالم الإنساني كلَّه مجالاً بكراً ، جديداً ، فسيحاً للتفكير والعمل ، وطريقاً مأموناً مستقيماً إلى السلامة والأمن ، هذا العمل لا تستحقُّه ، ولا تجدر به ، ولا تنجح فيه إلا الشعوب التي عاشت في حوزة الملَّة الإبراهيمية ، واعتزَّت ببشارة تكميل الدين ، وختم النبوة. إنَّ رسالة السماء تهتف بهؤلاء القادة والزعماء قائلةً مجلجلةً: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ

حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

* * *

حديث عن الإنسان[1]

إنَّها مقتطفات من أجمل ما رسمه يراع العارف الكبير الإمام شرف الدين يحيىٰ المنيري الهندي (م٦٦١ ـ ٧٨٢ هـ) وما فاض به خاطره في رسائله البليغة التي تستحقُّ أن تعتبر من روائع الأدب العالمي الخالد ، في الحديث عن الإنسان ، وكرامته ، وقيمته ، وبعد مراميه ، وأهدافه ، وما يستطيع أن يصل إليه ، ويهدفه ، ويطمع فيه ، ويشرئب إليه ، وما خصَّه الله به من طموح ، وسموٍّ همَّةٍ ، وبعد نظر ، وغموضٍ ودقَّةٍ هي فوق ذكاء الأذكياء ، وتخيلات الشعراء ، وعلوم الحكماء فمن ذلك ما جاء في رسائله :

«إياك أن تستهين بقيمة الماء والطين ، وسلالة من ماء مهين ، إنَّ جميع ما ترىٰ من نبوغ وكمال مودع في هذه الحفنة من التراب ، وكلَّ ما جاء في هذا العالم جاء مقروناً بهذا التراب ، ومرافقاً له ، وكلُّ ما عداه فهو عكسٌ له ، وظلٌّ منه ، ولقد أجاد من قال : إنَّ صقر الحبِّ لما طار من وكره العزيز لم تراود نفسه بالنزول إلا على هذا التراب المهين ، لقد مرَّ بمركز العظمة والسمو ، فلم يتخذه وكراً له ، ولم يستهوه إلا هذا التراب الذي عجن بالمشقَّة ، والجهاد المتواصل .

إنَّ الموجودات والمصنوعات كانت كثيرةً تفوق العدَّ والإحصاء ، وكانت كلُّها كريمةً عظيمةً ذات شرف وقيمة ، ولكن لم يكن من حظٍّ شيءٍ منها ما كان من حظِّ هذا العجين من الماء والطين ، فلما قضىٰ الله أن يكسو

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الثاني ، المجلد الثالث عشر ، عام ١٩٦٨ م .

هذا «التمثال» لباس الوجود ويبوئه عرش الخلافة ، قال الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠] أجابت الرحمة الأزلية: ليس في الحبِّ مشورة ، ولا يجتمع الحبُّ والتدبير ، ما قيمة ذكركم ، وتسبيحكم إذا لم أقبلهما ، وما ضرر ذنوبهم ومعاصيهم إذا شملهم القبول والرضوان ، وهبت عليهم نفحةٌ من العفو والغفران ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، إنكم تسيرون على طريق سويٍّ ممهَّد ، وإنهم يسلكون طرائق قدداً ، ويميلون يميناً وشمالاً ، ولكننا لما نظرنا إليهم بعين الرضا والحبِّ؛ بسطنا لهم بساط الرحمة ، وأحللناهم دار القرار والكرامة؛ فإذا خطَّت الذنوب على جباههم خطاً أسود؛ بادر كرمنا ، فمحاه كالغلط ، إنكم تعلمون أنَّهم يريدوننا بالطاعة والعبادة ، ولكنَّكم لا ترون أننا نريدهم بالحبِّ والكرامة ، وقد أحسن من قال:

وإذا الحبيب أتىٰ بذنبٍ واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

ويقول في رسالة أخرىٰ:

إنَّ منزلة الماء والطين عاليةٌ شامخة ، وإنَّ همَّة ما ركِّب منهما سامية سامقة ، لقد عجنت هذه القبضة من التراب بالفقر والعجز ، والذلِّ والهوان ، ولكن لما طلعت شمس الأمانة في سماء الوجود؛ أقرت الملائكة التي كانت ترتع في رياض الذكر والتسبيح منذ آلاف من السنين ، وكانت تهتف بقوله: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠] بعجزها عن حمل هذا العبء الثقيل ، والمسؤولية الضخمة ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وقالت السموات: إننا نعتز بالرفع والسمو ، فنحرص على بقائها ، ونشفق من زوالها؛ إذا فرطنا في هذه الأمانة ، وصدرت منَّا زلَّةٌ أو خيانة ، وقالت الأرض: إن الله خلع عليَّ بالاستواء والبقاء على حالٍ سواء ، فلا أجازف بهذا الهدوء ، وبهذه الاستقامة ، وأسأل الله العافية والسلامة ، وقالت الجبال: نحن الحراس الأمناء ، ننتصب على أقدامنا ، ولا نبرح مكاننا ، فنخاف أن نعزل عن هذا المنصب الخطير ، ونعاقب على التفريط والتقصير ، وقالت الجواهر الكريمة: إننا قوارير ضعيفة ، يسرع إلينا الكسر ، ويبطىء عنا الجبر ، فلا نطمع إلى هذا

الشرف الذي يرافقه التلف ، هنالك رفعت هذه الذرة الحقيرة التي لا يحسب لها أحدٌ حساباً ، ولا يقيم لها وزناً رأسها ، ومدَّت ذراعها وتناولت هذا العبء الثقيل (الأمانة) وضمَّتها إلى صدرها ، وقالت: أنا لها ، أنا لها! لم يساورها خوفٌ ، ولا حزنٌ ، ولا وجلٌ ، ولا حياءٌ ، وقالت: ما عندي حتىٰ أخاف عليه ؟! وليس وراء التراب منزلة في الذل والهوان.

فإذا دعا إنسان على أحد قال: تربت يداك ، ورغم أنفك ، فأيُّ منزلة بعدها أخافها ، وأي نعمةٍ أخشىٰ زوالها ، وأنا عين التراب؟!

❊ ❊ ❊

طغيان المادة والمعدة في الشرق الإسلامي[1]

ما هي غاية هذا العالم التي ينتهي إليها ، ومصيره الذي يصير إليه؟ هل بعد هذه الحياة حياة أخرى؟ وما هو وضعها إذا كانت؟ وهل لهذه الحياة الآخرة تعليمات ، وإرشادات في الحياة الدنيا؟ ومن أي منبع تستقي هذه المعلومات؟ وما هي الطرق ، والأسس التي إذا سار عليها الإنسان كانت حياته الآخرة راضيةً مرضية؟ وما مصدر هذه الطرق؟ وما هي الطريقة المثلى للوصول بعد الموت إلى نعيم لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع؟ ومن أين تستفاد هذه الطريق؟.

تلك أسئلة ورثها الشرقي أباً عن جدٍّ ، وشغلت خاطره ، وأزعجت فكره طيلة قرون ، ولم يقدر أن يذهل عنها ، ويتناساها حتى في لهوه وزهوه ، وكانت هذه الأسئلة حافز نفسه ، ونداء ضميره ، ولم يستطع أن يتصامَّ عنه ، ويطوي دونه كشحاً ، بل أصغى إليه في رغبة ، ونصيحة ، وإخلاص ، وأحلَّ هذه الأسئلة من نفسه وحياته المحلَّ الأول ، وما زال منذ آلافٍ من السنين في أخذٍ وردٍّ ، ونقض وإبرام في هذا الموضوع ، وليس ما نسميه ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية ، والإشراق والرياضة النفسية ، والعلم والحكمة إلا محاولات ، ومغامرات في هذا الطريق الطويل والمظلم ، وارتياداً إثر ارتياد في مناطق مجهولة ، ينبىء عن اهتمام الشرق البليغ بهذا الموضوع ، ورغبته الملحة فيه.

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الأول ، المجلد الرابع عشر ، عام ١٩٦٩ م.

هذه طبيعة الشرقي ، وطبيعة أكثر أفراد البشر في الأقاليم المعتدلة قبل ظهور الغربيين ، وإن استعرنا لذلك لغة الفلاسفة وتعبيرهم قلنا: لم يزل في الناس - عدا حواسهم الظاهرة الخمس - حاسةٌ سادسة يسوغ أن نسميها بالحاسة الدينية ، وكما أنَّ الحواس الظاهرة لها دوائر عمل تحصل فيها محسوساتها الخاصَّة بها؛ فللعين مبصراتٌ ، وللأذن مسموعات. . إلخ ، كذلك هذه الحاسة الدينية لها ثمرات ، وتأثيرات هي من خواصٍّ هذه الحاسة التي لم تزل لأهل الشرق ضربة لازب ، وكما أنَّ من فقد حاسةً من الحواس الظاهرة بطلت محسوساتها الخاصة بها ، فلا تحصل له بحاسة أخرى إلا بطريق خرق العادة ، ولا تحلُّ حاسةٌ مهما كانت قويةً وصحيحةً محلَّ الحاسة الأخرى ، كذلك من فقد الحاسة الدينية لطارىءٍ مؤثرٍ ، أو حُرمها لنقصٍ في الفطرة؛ بطلت نتائجها الخاصَّة بها ، وانعدمت في حقه؛ بحيث لا يستطيع أن يتصوَّرها ، أو يصدِّقها ، شأن الأعمى لا يبصر الألوان والأجرام المرئية ، وقد يعاند ويكابر في إنكارها ، وشأن الأصم الذي ليست الدنيا الصاخبة إلا مدينة الأموات عنده ، ليس بها داع ولا مجيب ، كذلك من حرم الحاسة الدينية جحد الغيب، وكابر فيما هو وراء الطبيعة، وعاند في المعاني الدينية ، وقسا على الرقائق والقوارع التي تهز النفوس ، وترقق القلوب ، وتذرف العيون: ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ.

أشدُّ العقبات التي واجهها الأنبياء ، والدعاة الدينيون ، واصطدمت بها خطبهم ، ومواعظهم ، ودعوتهم ، هم أولئك الذين حرموا الحاسة الدينية ، أو فقدوها بتاتاً ، والذين تحجَّرت قلوبهم ، وماتت نفوسهم في مسألة الدين ، والذين آلوا على أنفسهم أنَّهم لا يفكرون في أمر الدين ، وأمور الآخرة ، ولا يلقون السمع لهذا الموضوع أصلاً ، والذين لما سمعوا كلام النبيِّ الذي تجيش له الصدور ، وتلين له الصخور؛ مازادوا أن قالوا في صمم ، وإعراض: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧] ولما انتهى النبيُّ من كلامه السائغ المعقول الذي يفهمه الأطفال ، والذي كان بلغتهم الفصيحة؛ قالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا

لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١] ، ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

لا شكَّ أنَّ هذه الأسئلة كانت موضوع دراسة العلماء والمفكرين في فجر النهضة الأوربية الجديدة ، واستمرُّوا يبحثون فيها ، ويؤلفون ، ويتناقشون ، ولكن كلما قطعت المدنية الأوربية شوطاً؛ تخلفت هذه المباحث والأسئلة شوطاً ، ولما ظهرت خواصُّ هذه المدنية الباطنة ، وتجلَّت هي في مظهرها المادي؛ خفت ـ في ضجتها ـ هذا الصوت الذي كان ينبع من أعماق القلب ، وقرارة الضمير الإنساني الحي ، ولا ينكر: أنَّ هذه الأسئلة تدرَّس في قسم الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة في المدارس ، والمجامع العلمية ، والمكاتب العامة ، ويتباحث فيها العلماء المتخصِّصون ، وتظهر لهم في هذا الموضوع تأليفات بين آونةٍ وأخرى ، ولكن الذي لا شكَّ فيه: أنها فقدت سلطانها على القلوب ، والأفكار ، وامَّحت علامة الاستفهام الواضحة النيرة؛ التي كان يراها كلُّ إنسانٍ عاقلٍ ، فيقف أمامها كما تقف القُطُر أمام الإشارات ، وأصبحت هذه الاستفسارات لا تحيك في صدر الإنسان ، ولا تشغله كما كانت تشغل آباءه ، وتحيك في صدورهم.

ولم يكن ذلك عن إيمانٍ ، وانشراح صدرٍ ، وطمأنينة قلبٍ ، واقتناع بحلٍّ صحيح ، وارتياحٍ إلى نتيجةٍ حاسمة ، كلا! لم يكن ذلك إلا لأنَّ هذه الأسئلة قد فقدت أهميتها ، وأخلت مكانها لأسئلة ماديةٍ أهم في أعين أبناء القرنين التاسع عشر ، والعشرين منها ، ولأنَّ رجل العصر قد لزم الحياد التامَّ في هذه المسائل ، وصرف النظر عنها ، فلا عليه إن كانت بعد هذه الحياة حياةٌ ثانية ، وكانت الجنة والنار ، والثواب ، والعقاب ، والنجاة والهلاك ، أو لم تكن ، فلا يهمه شيء من ذلك لا سلباً ، ولا إيجاباً؛ لأنَّ شيئاً من ذلك لا يمسُّ مسائله اليومية ، أو في آخر الشهر ، ولا يتصل بشخصه ، وعياله في الساعة الحاضرة ، وهو رجل لا يعتقد في النسيئة ولا يترك عاجلاً بآجل ، ولا يتكلَّف ما لا يعنيه ، فيترك هذه المباحث

«الفارغة» يبحث فيها معلم الفلسفة في الجامعة ويفضي فيها برأيه المؤلف في هذا الموضوع.

أما هو فهو رجل جدٍّ ، وعملٍ ، لا يعرف إلا حياة المصانع ، والإدارات وسير الماكينات ، ولا يهتمُّ إلا بتسلية النفس ، وترويحها في آخر النهار ، والنوم الهادىء في آخر الليل ، والأجرة في آخر الأسبوع ، أو الراتب في أواخر الشهور ، وحساب الأرباح في آخر السنة ، وإعادة الصحة والشباب في آخر العمر ، وأما ما بعد الحياة؛ فهو عنده مجهولٌ ، ووهمٌ من الأوهام: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

إنَّ هذا الضرب من الناس لا يزال يزداد عدداً وأهميةً في كل أمةٍ وبلادٍ بتأثير الحضارة الغربية ، ذلك الضرب من الناس لم يترك اشتغالهم بالحياة الدنيا والعكوف عليها فراغاً لدعوةٍ دينيةٍ ، وإنَّ الذي يدعوهم إلى الدين والحياة الأخروية ليتحيَّر معهم كما يتحيَّر السندباد البحري ـ كما تروي لنا حكاية ألف ليلة وليلة ـ مع بيضة العنقاء ، ظنَّها السندباد البحري بناءً من رخام ، فدار حولها عدَّة مرات ليبحث عن بابٍ يدخل منه؛ فلم يجد ، كذلك الداعي الديني يدور حول رؤوسهم ، فلا يجد منفذاً يدخل منه إلى عقولهم ، ويدخل به دعوته الدينية إلى نفوسهم ، فقد أقفلت الحياة المادية ومسائلها جميع أبوابها ، وسدَّت جميع نوافذ فكرهم.

وكما أنَّ رجلاً لم يحظ من الفطرة بالذوق الأدبي ، يسمع الألحان الجميلة ، والأبيات الرقيقة فلا يعدُّها إلا أصواتاً لا فنَّ فيها ، كذلك الذي حُرم الحاسة الدينية؛ لا تؤثر فيه دعوة الأنبياء ، وخطب الوعَّاظ ، وحكمة العلماء ، وأمثال الصحف السماوية ، وتضيع فيه بلاغة البلغاء ، وإخلاص المخلصين ، ويصبح كلُّ ذلك صيحةً في وادٍ ، ونفخةً في رماد:

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً ... ولكنْ لا حياةَ لمن تنادي

والذي مني بهذا الضرب من الناس يفهم السرَّ في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ

أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان: ٤٤] وتظهر له حقيقة قوله: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] ولم يلق في شرحها وتعليلها ما لقيه المفسرون من صعوبة؛ الذين لم يشاهدوا هذا النوع.

داء هذا العصر الذي لا ينجح فيه الدواء، ولا يؤثر فيه العلاج هو الاستغناء التام عن الدين، ولم يلق رجال الدَّعوة الدينية من العنت والشدَّة في أحط أدوار الفسق والفجور، وفي أحلك عهود المعصية والغفلة ما يلاقونه في دعوة هؤلآء الذين لزموا الإعراض التام في هذه المسائل (الكلامية) فلا تعنيهم سلباً، ولا إيجاباً ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الروم: ٥٢].

وقد فطن لهذا الفرق الجوهري بين النفسية القديمة والجديدة أحد كبار معلمي الفلسفة وعلم النفس في إحدى جامعات أوربة الكبرى، وشرحه في عبارة وجيزة، قال س ـ م جود:

«ثارت في قديم الزمان شكوكٌ، واعتراضات، وأسئلة، واستفسارات حول الدين، لم يطمئنَّ بعض أصحابها، ولم يرتاحوا إلى جوابٍ مقنع، ولكن مما يمتاز به هذا الجيل: أنه لا تزعجه الأسئلة رأساً، ولا تحيك في صدره، ولا تنشأ في هذا العصر أصلاً.

رووا أنَّ شاعرةً جاهليةً هي «كبشة بنت معديكرب» عاتبت أخاها عمرو بن معديكرب، وعيَّرته بميله إلى قبول دية أخيه المقتول، فقالت:

ودع عنك عمراً إنَّ عمراً مسالمٌ وهل بطنُ عمرٍو غير شبرٍ لمطعم

ما تتصور المرأة الجاهلية البسيطة أنَّ بطن إنسان يتجاوز مقدار شبر، فكيف لو رأت معدة الإنسان الحاضر ابن القرن العشرين، تضخمت وكبرت حتى وسعت الأرض وتجاوزت حتى أصبحت لا يملؤها إلا التراب!.

نعم تضخمت معدة الحرص في الإنسان حتى صارت لا يشبعها مقدار من المال، وتولد في الناس غليلٌ لا يروى، وأوار لا يشفى، وأصبح كلُّ واحدٍ يحمل في قلبه جهنم، لا تزال تبتلع وتستزيد، ولا تزال تنادي هل

من مزيد؟ هل من مزيد؟ تسلط على الناس ـ أفراداً وأمماً شيطان الجشع، والحرص فكأن بهم مسًّا من الجنون، وأصبح الإنسان نهماً يلتهم الدنيا التهاماً، ويستنزف موارده حلالاً وحراماً، ثم لا يرى أنه قضى لبانته، وشفى نفسه، والعمدة في ذلك على وضع الحياة الحاضرة، وطبيعتها، وكونها مادية صرفة، لا تؤمن بالآخرة، وخليق بمن لا يعتدُّ إلا بحياته الدنيا، ولا يرى وراءها عالماً آخر، وحياة ثانية أن تكون هذه الحياة بضاعته، ورأس ماله، وأكبر همِّه، وغاية رغبته، ومبلغ علمه، وأن لا يؤخر من حظوظها وطيباتها ولذائذها شيئاً، وأن لا يضيع فرصة من فرصها، ولأي عالمٍ يدَّخر وهو لا يؤمن بعالم وراء هذا العالم، ولا بحياةٍ بعد هذه الحياة؟.

وقد عبرَّ عن هذه النفسية الجاهلية الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد في صراحةٍ، وبساطة، فقال:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي
كريم يروي نفسه في حياته ستعلم إن متنا غداً أينا الصَّدي

وكلُّ إنسان متمدن اليوم ـ إلا من عصمه الله بالإيمان ـ يرى هذا الرأي، ويذهب هذا المذهب في الحياة، إلا أنه قد يجرؤ على أن يصرِّح به، وقد لا يملك ذلك اللسان البليغ الذي يعبِّر عن ضميره.

والسبب الثاني: ـ هو الأدب العصري ـ بمعناه الواسع ـ الذي لا يتحدَّث إلا عن المادة وأصحابها، ويخنع لأهل الثراء، وأصحاب الاحتكار، وأصحاب الإنتاج، الخنوع الذي لا يليق بالأدب الشريف العالي، فيكتب دقائق حياتهم في تفصيل، وينشر ألقابهم، وأسماءهم بقلمٍ عريض، وكلُّ نفس من أنفاس مدحه وتقريظه، وكلُّ فصلٍ من فصول روايته ينتهي إلى نتيجة مادية، أو إلى بطل من أبطال المادة، ويزين للقارىء المذهب الأبيقوري تارةً بالتلميح، وتارة بالتصريح، ويحث الشباب على التهام الحياة وانتهاب المسرات نثراً، وشعراً، وفلسفةً، وروايةً، وتحليلاً، وتصويراً، فلا ينتهون منه إلا بالروح المادي، والتقديس لرجال المادة.

وكذلك المجتمع الذي لا يقدِّر إلا الغنيَّ الظريف متناسياً كل ما فيه من رذيلة ، ولؤم أصل ، وسوء خلق ، ويتجنى على الإنسان الذي لا يترجَّح في ميزانه مهما كثرت مواهبه ، وطاب عنصره ، وسما جوهره ، ويلحُّ ، وقد يصرح بأن الفقير لا يستحقُّ الحياة ، ويعامله معاملة الدواب ، والحمير ، والكلاب ، فيرغم الإنسان ـ إذا لم يكن ثائراً على المجتمع ـ على أن يخضع لشريعة مجتمعه ، وأن يتجمَّل ، ويتظرَّف لمجتمعه ، فلا يلبس إلا لغيره ، ولا يتأنق إلا لغيره.

وهذا المجتمع لا تزال مقاييسه للشرف ، والظرافة تتغير ومعاييره للإنسانية تتبدل ، وتتحور ، ومطالبه تتنوع ، وتتكثر ، حتىٰ يضيق الإنسان بها ذرعاً ويلجأ إلى طرق غير شريفة لتحصيل المال وإلى كدح ، وكدٍّ في الحياة ، وهناك هموم تتوالىٰ ولا تنتهي ، ومتاعب تتسلل ولا تنقطع.

وزاد الطين بلَّةً تنافس المصانع ، والمنتجين ، والصناع ، ففي كلِّ صباح يتدفَّق على المدينة سيل جديد من أحدث المنتجات ، وأحدث طراز من السيارات ، والسجائر ، والأزياء ، والقبعات ، والأحذية ، والأدهان ، والأطلية ، وأسباب الزينة ، والزخارف ، والأجهزة ، ولا يجلب منها شيء قياماً بالواجب ، وسداً للعوز ، بل كلُّه في سبيل الاستغلال الصناعي ، والاحتكار التجاري ، ولا تلبث هذه المنتجات التي هي من فضول الحياة أن تدخل في أصول المعاش ، ولوازم المدنية ، والذي لا يتحلَّى بها لا يعدُّ من الأحياء.

ولهذه الأسباب ولغيره ارتفعت قيمة المال في عيون الناس ارتفاعاً لم تبلغه في الزمن السابق ، وبلغ من الأهمية والمكانة مبلغاً لم يبلغه ـ على ما نعرف ـ في دورٍ من أدوار التاريخ المدون ، وأصبح المال هو الروح الساري في جسم المجتمع البشري ، والحافز الأكبر للناس على أعمالهم ونشاطهم المدني؛ وقد يدفع المخترع إلى الاختراع ، والصانع إلى صناعته ، والسياسي إلى مقالته ، والمرشح إلىٰ انتخابه ، والعالم إلى تأليفه ، حتى القادة إلى الحرب ، فهو القطب الذي تدور حوله رحىٰ الحياة

العصرية ، كما يقول الأستاذ «جود» معلم الفلسفة وعلم النفس في جامعة لندن: «**إنَّ النظرية المهيمنة السائدة على هذا العصر هي النظرية الاقتصادية ، وأصبح البطن ، أو الجيب ميزاناً لكلِّ مسألة ، فبمقدار اتصالها بالجيب ، وتأثيرها فيه يُقبِل الناس عليها ، ويُعْنَوْن بها**».

إذا حكمت على عصرك وطبائعه وأذواقه وأنت بمعزل عن الحياة ، وبنيت حكمك على مؤلفات ، ومقالات إنما تكتب في زاوية من زوايا المكتب؛ فإنك تغالط نفسك ، وقد تقرأ في هذه الكتب الفلسفية ، أو المقالات العلمية التحليلية كأنَّك في عصرٍ متمدِّنٍ راقٍ ، تتحكم فيه معايير الأخلاق ، وتسود فيه المثل العليا ، ويغشاه سحاب الفضيلة والنبل ، وتحلق عليه روح الديانة والعلم ، ولكن الواقع غير ذلك ، فإن هذه الكتب إنما ألفت في عالم الخيال؛ الذي يعيش فيه مؤلفوها ، وإنَّ أهواءهم وأذواقهم هي التي خلقت لهم عالماً خيالياً ، يصفونه ، ويصورونه في كتبهم ، حتى يخيل إلى القارىء أنَّه هو العالم المحيط به... وللأهواء عجائب وخوارق.

ولكنك إذا اتصلت بالحياة عن كثب ، لا عن كتبٍ ، وخالطت الناس ، ودرست أحوالهم ، وأصغيت إلى حديثهم في البيت ، وفي القطار ، والبستان ، وعلى المائدة ، وفي السمر؛ رأيت (الذهب) حديث النوادي وشغل الألسنة ، وهوىٰ القلوب ، والبداية والنهاية في كل موضوع ، والقطب الذي تدور حوله رحىٰ الحياة.

إنَّ شاعراً عربياً يلعن الصعلوك الذي لا يتعدَّىٰ نظره ، ولا يسمو فكره عن لباسٍ وطعامٍ ، ويقول:

لحـا الله صعلـوكـاً منـاهُ وهمُّـه … من العيش أن يلقىٰ لبوساً ومطعما

فكيف إذا أشرف هذا الشاعر على هذه المدينة وهي تجري بفلاسفتها ، وسياسييها، ونوابغها ، وعلمائها ، وكتابها ، وأشرافها ، وأغنيائها وفقرائها وراء غاية لا تتعدىٰ لبوساً ومطعماً ، مهما تنوَّعت أشكالها وتضخمت ألقابها؟! فالحياة كلُّها جهادٌ في سبيل اللباس والطعام.

احتل الأجانب الشرق الإسلامي وقد أصاب المجتمع الشرقي الإسلامي انحطاطٌ في الأخلاق ، والاجتماع ، وسبقت إليه أدواءٌ خلقية واجتماعية كانت أهم أسباب انهيار الدول الإسلامية وانهزام الأمم الشرقية.

ولكن مع ذلك لم يزل المجتمع الشرقي الإسلامي - علىٰ علاته - محتفظاً ببعض المبادىء الخلقية السامية ، والخصائص الاجتماعية الفاضلة التي لا يوجد لها مثيل في الأمم ، وقد نضج واكتمل فن الأخلاق عند الشرقيين ، ووصل من الدقَّة ، والتفصيل ، واللطافة ، ورقة الحواشي ذروةً لا يصل إليها ذهن العصر ، ولا يتصوَّرها الغربي إلا في الشعر ، والأدب.

يقرأ الإنسان ، أو يسمع روايات عن استحكام الروابط والأواصر بين أعضاء المجتمع العام، وأفراد الأسرة ، وتغلغلها في الأحشاء ، واستمرارها إلى الأحقاب والأجيال ، وخلوها من كلِّ مصلحة ، ومنفعةٍ مادية ، ما لا يتصوره أبناء هذا العصر، وكذلك من حنو الآباء على الأبناء وبر الأبناء بالآباء ، وتوقير الصغير للكبير ، وحدب الكبير على الصغير ، وعن عفاف النساء ، ووفاء الحلائل ، وأمانة الخدم ، ووفائهم ، واستقامة الشبان ، وثباتهم على الأخلاق ، ومعاملة الأشراف بعضهم لبعض ، والمحافظة على الرواتب والعادات والاطراد في مسألة اللباس والشعائر والعشرة ، والإيثار في شأن الأصدقاء ، والنصح لهم ، يسمع منها غرائب لا يكاد يصدق بها.

كان برُّ الأبناء للآباء وطاعتهم إلى حد التفاني في سبيلهم ، والاضمحلال في وجودهم منتزعاً من قول النبي ﷺ: «**أنت ومالك لأبيك**».

وكان حبُّ الأبناء لآبائهم وبرهم وحرصهم على أداء حقوقهم غير مقتصر على حياة الأبوين ، بل كان يستمر إلى ما بعد وفاتهما بصلة أصدقائهما ، وأهل أنسهما ، والإهداء إليهم ، والتحبب إلى أولادهم وعشيرتهم ، وكان ذلك عملاً بقوله ﷺ: «**إن من أبرِّ البرِّ برُّ الرجل بأهل ودِّ أبيه بعد أن يولي**».

وكان الأبوان مثلاً للنصح ، والإخلاص في حبِّهما للأولاد ، وكانا يضحيان بجميع أهوائهما ، وميولهما ، وراحتهما ، وبلذة الأمومة ، والأبوة في سبيل تثقيفهم ، وتربيتهم ، وتعليمهم ، ويتحمَّلان في ذلك

ـ حتىٰ الرجل الأمي والمرأة الجاهلية ـ إجحاف المعلمين ، وعسفهم ، وإضرارهم في بعض الأحيان بجسم الصغار ، ويجرعان المرائر ، ويصبران على الغصص في سبيل الأولاد ونبوغهم ، وقد تواضع على ذلك أهل البيوتات ، والشرف حتىٰ أهل الطبقات الوضيعة ، ويعدون من خالف ذلك رجلاً نذلاً لئيماً ، والذي روي عن هارون الرشيد في تنبيهه لولديه الأمين والمأمون ، ووصيته لهما بخدمة الكسائي معروفٌ في التاريخ ، ومن غرائب ما يروىٰ في هذا الباب ويمثل الطبيعة الشرقية أن «تاج الدين ألدز» أمير الأفغان بعد السلطان شهاب الدين الغوري أسلم ولده إلى معلم ، وضرب المعلم الولد حتىٰ مات ، فلما علم بذلك «تاج الدين» أشار إلى المعلم بأن يهرب ، وقال: «**لا آمن عليك من أم الولد ، فعسىٰ أن ينالك منها مكروه**».

وكانت الرابطة بين الصغير والكبير في المجتمع الإسلامي مؤسسة على تعاليم الشرع «من لم يرحم صغيرنا ، ولم يوقر كبيرنا فليس منا».

ومن خصائص الحضارة الشرقية: الاطراد في الحياة ، والمحافظة على لونٍ واحد ، والتظاهر بمظهرٍ واحد ، فكان الرجل إذا شرع في أمر وتظاهر بمظهرٍ أوصله إلى غايته ، وإذا اتَّخذ عادةً ، أو شارةً في اللباس أو عامل أحداً نوع معاملة واظب عليه إلى آخر أنفاسه ، لا تؤثر في ذلك الحوادث ، ولا تغيِّره الفصول ، ولا انحراف الصحَّة ، ولا الكسل ، ولا المصالح.

ولم يكن العمدة في حياة الأسرة والقبائل ، ولم يكن الميزان في التوقير والشرف هو كثرة المال ، فيختلف المستوىٰ المالي في أسرة اختلافاً كبيراً ، ويتفاوت الرجال في قبيلة ، أو قوم تفاوتاً عظيماً في المال ، والجاه ، فهذا سري مثرٍ ، وذلك فقير معدم ، ولم يكن يستطيع أحد أن يفرق بينهم ، ويرفع بعضهم فوق بعض لأجل التفاوت الاقتصادي في مجتمعات الأسر ، والبيوتات ، والمآتم (بمعناها اللغوي) فإذا شمَّ أحدٌ رائحة الفرق أو نظرة الازدراء؛ ثار كالليث ، أو إذا بدرت بادرة من المضيف تنم عن هذا الفضل؛ انسحبت الأسرة كلها من الضيافة ، وقاطعوا أهل الضيافة ، وكانوا يداً واحدة مع أخيهم المهضوم.

وكان الفقير الصعلوك في قبيلة يواجه الأغنياء والملوك من تلك القبيلة بجراءة ، وهو معتز بنفسه ، معتدٌّ بشرفه ، لا يرىٰ في نفسه نقيصة لأجل فقر ، وكان الغني أو الملك يكرمه ، ويحلُّه المحلَّ اللائق بشرفه ونسبه وفضيلته الذاتية ، بصرف النظر عن رثاثة هيئته ، وتبذله ، والأزمة الاقتصادية الطارئة على كرم عنصره ، وصفاء محتده ، وطيب منبته ، ومتانة دينه ، ووفور علمه.

وكان الفقير في ذلك يبالغ كثيراً في إخفاء عسرته ، وضنك معيشته ، ويتحمَّل ، ويتجلَّد ، ويسوءُه أن يفطن أحد إلى فاقته ، ورقة حاله.

وكان ضمير الحرِّ عزيزاً محترماً ، كدينه وعرضه ، لا يساوم عليه ، ولا يباع بأي ثمن ، وكان الواحد يفضل الموت الأحمر على كذبة ، أو خيانة يخلِّص بها نفسه من الموت.

* * *

المادية الطاغية تغطّي جميع وجوه النَّشاط في حياتنا(١)

إذا كان من أمنية الإنسان أن يعيش حياةً مثقفةً ، وحياة رخاءٍ ، وهناءٍ ، وحياة عزٍّ ، ونعمةٍ؛ فليس مما يعجب منه ، أو يغتاظه غيره من إخوانه ، بل إنني أتجاوز خطوةً أخرى ، وأقول: من حقه أن يهنأ عليه ، ويرحب به على هذه النظرة ، لماذا؟ لأنَّ هذا الشعور ، وهذه الأمنية دليلٌ ظاهر على أنَّ الإنسان قلبه حيٌّ، وعقله مفتوحٌ، ونفسه طموحٌ، وهو يحمل قوة التمييز بين الصحيح والسقيم، وبين الجيِّد والرديء وهو مرهف الحسِّ، ورقيق الخيال.

فكلُّ ما يجري في العالم طبيعي وراءه عوامل ، وأسباب خاصَّةٌ تعمل عملها ، لا أريد أن أتعرَّض للبحث فيها. ولكن مما يبعث على العجب أن يتعدَّى الطموح إلى التسامي ، والحرص على كسب مكانةٍ مرموقةٍ ، تتجاوز حدود الشرف ، ويصل إلى حد النهامة للمال ، والجاه ، والجشع ؛ لإشباع الشهوات والغرائز ، والتكالب على الأعراض التافهة ، والتهافت على تحقيق أغراض ونوايا خسيسةٍ كائناً ما كان ، وبأي طريقٍ كان ، لا يكترث في سبيل الوصول إليها بإراقة دماء الأبرياء ، وهتك الأعراض ، ولا يعبأ بحداد الأرامل ، وصياح الصبيان الأيتام ، واستغاثة الملهوفين المظلومين ، يتبع شهواته العمياء ، وتملك نفسه مشاعره وأحاسيسه ، ويجنُّ وراءَها جنوناً ، لا يفكر إلا فيما يفتح له الأبواب التي تمكنه من القبض على ناصية

---

(١) طبع هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عدد رمضان ، عام ١٣٩٩ هـ.

الأمم ، وإثبات قوتـه ، وجبروتـه أمام الناس على اختلاف طبقـاتهم ، ومذاهبهم.

إنَّ وراء الحروب الضارية التي سوَّدت صفحات التاريخ ، والمعارك الدامية بين بلادٍ وبلاد ، وبين أمَّةٍ وأمة ، والخطوط الدامية التي رُسمت بدم الإنسان الحارِّ المتدفق الطريِّ ، ورسمتها أيدي هؤلاء المجانين ممَّن أنكروا مصالح الأمة الاجتماعية ، وتحدَّوا مستقبل الإنسان وحقوقه المشروعة ، وداسوها بأقدامهم ، وهؤلاء الأبطال والفاتحون الذين دوخوا العالم لم يفعلوا ذلك إلا لكي يضفوا عليه لباس العزة ، ويحموه من الأعداء ، ويقتلعوا منه نفوذ المغرضين المغتصبين من أراضيهم المحتلة.

لقد توَغَّل الإنجليز في الهند ، وبثوا نفوذهم فيها ، ووضعوا فيها سيف الظلم والطغيان ، وعاملوا شعبها بالعنف والشدَّة ، وأذاقوا أهلها سوء العذاب ، وجاوزوا حدود الإنسانية إلى الوحشية الضارية ، فقامت حركات تحرير الهند ، اهتز بها عرشُهم وبنيانهم ، وأرغموا على الانسحاب من القارة الهندية ، فلم ينكر هذه الحركات أحدٌ لأنها كانت من أجل استعادة الحقِّ المشروع ، وإعادة شرف الإنسان.

ولكن إذا تجاوزت حركة من الحركات حدود الشرف ، وكرامة الإنسان وانغمس أصحابها في تدمير المنشآت للحياة لأغراضٍ فرديةٍ ، وعمَّت الفوضوية ، والنفعية الذاتية ، وهبَّت عواصف تقلع القيم من جذورها ، وذهبت الحضارات والمدنيات بجميع أشكالها ، وذخائر العلوم والآداب التي تكونت بجهودٍ مكثفة؛ أضرت لها العيون ، وتلاشت دواوين الأشعار التي رووها بدمائهم الغالية ، وانقلبت غباراً ، وتراباً ، وهشيماً تذروه الرياح.

وهذا الداء الموبق ، والمرض الفادح من الغرض الذاتي ، والنفعية الفردية قد بدت بوادره فينا نحن المسلمين ، فإننا نعاني منه منذ زمن غير بعيد ، وإنَّه لداء معضلٌ خطير ، وإنَّ ما نشاهده من فقدان الاتزان والقصد في حياتنا ، ودخول الشقاء في حياتنا لم يكن غريباً لو كانت أراضينا قفاراً

لا تزرع ، وكانت محرومةً من المناجم ، وكانت الوسائل محدودةً ، وكانت رقعة البلاد ضيقةً مع تكاثف عدد سكانها ، ولكن الحقيقة عكس ذلك ، فما هو السبب إذاً؟ لقد تغافلنا عن المصالح الذاتية ، ولا يستطيع مجتمعٌ ، أو أسرةٌ أن تعيش حياةً صالحةً ، وعيشةً مريحةً صافيةً من الأحزان ، طاهرةً من الأدناس ما لم يتمتَّع أفرادها بحقِّهم المشروع ولم يتواكل بعضهم على بعض ، ولكن مجتمعنا تجرَّد من الصفات الحسنة ، ونسي فيه الناس هدفهم المنشود؛ الذي خلقوا لأجله ، وغايتهم الصحيحة؛ التي جعلوا من أجلها خليفة الله في الأرض ، فإذا كان الوضع ما نراه؛ فلا أستطيع أن أتكهن بما في الغد القريب ، ولكنني أقول: إنَّ هذه المجهودات ، والمحاولات تذهب سدىً ، وهذه الجامعات العالية ، والمكتبات الزاخرة ، وهذه التجارب ، والاكتشافات لا تجدي فائدةً ، وهذه الآداب والدواوين التي تنفخ في الحياة روحاً جديدةً ، وتنعش الأعصاب المخدَّرة تذهب مهبَّ الرياح ، وإذا تفاقم الوضع قليلاً أوحش الطريق ، وأقفر الشوارع ، وعطَّل المحاكم ، والمكاتب ، وأقفل المستشفيات على الفقراء ، وذوي الحاجة ، ويصعب الاشتراك في الاحتفالات ، والأفراح ، ثم لا يجد الظمآن ماءً ، والجائع طعاماً ، ويتعاظم الخطر ، ويهجم على الإنسانية في قوة ، وهي في عمايتها تسعى إلى إحراز أغراضٍ هامشيَّةٍ ، وكلُّ واحد يتشهى أن يصبح صاحب ملايين بين عشيةٍ وضحاها.

والأحزاب السياسية في عصرنا هذا ركَّزت قصارى جهودها على إيجاد أسلوب مبتكرٍ ، واختراع طريق أفضل لكسب الرأي العام ، وللنَّجاح في الانتخابات ، وتولي الرئاسة ، والوزارة من غير أن يشمئز بالفظائع التي حدثت ، وإنما همُّها أن يكون ذلك كله في رعايتها ، وتحت إشرافها ، فإذا وافق القدر محاولاتها ، ونجحت في الانتخابات؛ رجعت تنتهز فرصاً سانحةً للاستغلال عن طريقٍ مشروعٍ ، أو غير مشروع ، وتنتهز كلَّ فرصةٍ لتحسو حسواً من الغلاَّت والمواردِ ، كاجتماع نفرٍ على بقرة ميتةٍ ، كلُّ شخص يريد أن يحلب منها ما استطاع ، وكلٌّ مكبٌّ على شأنه لا يلوي على أحد ، فمن أجرم في حقِّه وحقِّ بلاده سواه.

هؤلاء المغرضون ، وزعماء هذه الأحزاب السياسية المحتكرون يقطعون هذا الجذع الذي نسجوا عليه عشَّهم ، ويضربون عليه المعاول ، ويفرحون ، ويريدون أن يُغرقوا هذه السفينة التي عليها أثاثهم ، وبضاعتهم ، والتي ترتبط بها حياتُهم ، وحياة عيالهم ، إن غرقت؛ غرقت بهم ، إنَّه خطرٌ فوق العادة ، خطرٌ يجدر بأن ترتفع له الأصوات ، ويتظاهر الناس ضدَّ هؤلاء العابثين بحياة الأمم ، والمخاطرين بمستقبل الأقوام ، ويخرج الناس مغامرين بأنفسهم يحتجُّون على هذه العملية قائلين: ماذا تعملون ببلادنا؟ نحن نعيش هنا ، ونموت في هذه الأرض ، ليس لنا غيرها نلجأ فيه.

ولكنَّ هناك شيئين يمنعان الإنسان من أن يتعدَّى الحدود ، والقيم الخلقية ، ويمنعه الوقوع في هوَّة الهلاك ، ويدفعانه على تجنُّب اقتراف الظلم ، والجور ، وكسب المآثم ، والذنوب ، ويبعثانه على مراعاة حقوق الله ، وحقوق البشر ، وعلى القصد ، والاتزان ، وعلى السير في سواء السبيل ، وهما يشملان جميع أنواع البشر مهما اختلفت طبائعهم ، وتعدَّدت طبقاتهم ، وميولهم ، سواء كانوا ينشغلون بشؤون الحكومة ، أو غيرها من قطاعات الحياة شعباً وحكومةً ، أم كانوا منخرطين بنظام الأسرة أفراداً وجماعات ، أو كانوا زعماء ، أو من الدَّهماء ، كانوا أصحاب خيراتٍ وكفاءاتٍ علمية ، أو كانوا أميين ، أو علماء وفلاسفة.

أولهما: ما نعتقد فيه ، ونعتزُّ به وهو أكبر وازع ، وأعظم زاجر وهو الدِّين وتعاليمه ، من التقى ، والإيمان بالموت ، وحقيقة التمثل أمام الله ، والمحاسبة على الأعمال التي قدَّمناها ، ومراحل القبر ، وظلامه ، والمرور على الصراط ، وبيوم القيامة ، وهوله ، وفي ذلك من القوَّة الحقيقية ، والوازع الأكبر للمسلم المؤمن ، المخلص في دينه ما لا يخفى ، فإذا وُجِدت هذه القوَّة الحقيقيةُ ، والحرارة الإيمانية ، وجمرة الشوق الملتهبة لدى إنسان اليوم لتمثَّلت تلك القصص المأثورة للبطولة أمام عينيه ، مثل ما سمعتم عنها في القرون الأولى ، كما يقول التاريخ: إنَّ رجلاً من جيش

المسلمين وجد عقداً مرصعاً لملك إيران أثناء القتال ، فأسرع به إلى الحاكم العسكري في كمه ليعرضه عليه وعرضه عليه فعلاً ، فأرسل عليه نظرة عجباً ، وقال: لم تخسر الدنيا رجالاً يؤثرون على أنفسهم ، والله لو أراد أن يحجبه عني لكان عليه قادراً ، وسأله عن اسمه ، فقال الأعرابي: للّذي فعلته من أجله يعرف اسمي ، ولست بحاجة إلى أن أعرفك نفسي ، وسلم عليه وانطلق ، وكما تعرفون حقَّ المعرفة: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أعلن ألا يمزج الماء بالحليب ، ومرَّةً كان يطوف غلساً ومرَّ بمنزلٍ في الحي ، وسمع امرأة تقول لابنتها: يا ابنتي ها هو قد أسفر الصبح ، أو كاد ، تعجلي بمزج الماء بالحليب! فردَّت: يا أمي! هلا تعرفين أنَّ أمير المؤمنين نهى عنه ، وهذا أمرٌ رسمي ، فقالت الأم: من يراك في هذه الساعة؟ فأجابت: إنْ كان لا ينظر هو؛ فالله فوقه. فالقوة كلُّ القوة في هذه العقيدة التي يجب أن يتحلَّى بها كلُّ إنسانٍ ، وليس المرء بمعزلٍ عنها في أيِّ حالٍ ، وفي أي لحظةٍ أينما كان.

والثاني: الذي اتخذته أوربة كبديل عن الدين الحقيقي ، وهو الوطنية ، والحبُّ الخالص الصحيح ، والعلاقة الحقيقية الدائمة مع البلاد وأهلها ، وهذه نظرية يقبلها كلُّ شخص ويعطيها إكباراً ، وإجلالاً ، ويؤمن كلُّ فردٍ: أنَّ البلاد بلاده لا يصبر على عملية خاطئة ، ويغرِّر بنفسه لمحو الفساد الخلقي إذا عمَّ بلاده ، ولا يسمح بأن تعطى الحقوق دون ذويها ، لا يمكن في بلادنا ما يؤدي إلى انتشار الفوضى واللاقانونية ، وانحلال المجتمع إذا عمَّت هذه النظرية على أقلِّ تقدير.

وهذه النظرية ، وهذا الخيال لا شكَّ أنه خيالٌ هامشي ، ونظريَّةٌ سطحيةٌ بالنسبة إلى هذه العقيدة الدينية السامية ، وليست جذورها راسخةً وعميقةً كجذور هذه العقيدة. ولكنَّها لا تذهب سُدىً ، بل الحقيقة: أنَّ أوربة قائمةٌ على هذه النظرية ، والعمل بها ، وتطبيقها في الحياة ، يعرف كلُّ من زار أوربة: أنَّ هنالك صناديق لوضع اللقط ، من فقد شيئاً أو نسي ، وجده في هذه الأمكنة الخاصَّة بعد دفع بعض النقود من الجعل ، وليسوا ممَّن يتمسكُ بالدين ، ويتشبث بحبل العقيدة ، وليسوا مسيحيين بجميع ما تحمل الكلمة

من معنى ، ولكنهم حققوا شيئاً جوهرياً تتمكن عليه أوربة ، لا تتزحزح من مكانها رغم المساوىء الكثيرة ، والعيوب الجمَّة.

فإذا فقدنا هذين الشيئين معاً ، فماذا يبقى لنا إلا الانهيار ، والتفكك ، وكيف يتحقَّق لنا الأمن والسلام؟!

ولكن الذي هو أخطر وأدهىٰ في الوضع الذي نعيش فيه: أنه ليس هناك حزبٌ أو مجموعةٌ من البشر تضطرب لهذا الوضع السيِّىء الخطير ، فيطير النوم عن عينيها ، وإن المستنكرين له لا يقلُّ عددهم ، ولكن لا يوجد من يقدم لمواجهته ولسدِّ بابه ، فهذا شيءٌ خطير ، وأمرٌ فادحٌ ، وكثيراً ما حدثت وقائع ، وقام أهل البغي والفساد وبثوا السمَّ في البلاد ، وأفسدوا فيها ، فقامت جماعة بالإصلاح ، وعادت بأمور البلاد في مكانها ، ولكني لا أرى في هذا الوقت من يقوم بهذا العمل ، فلم تبرز أيُّ فرقةٍ ، أو منظمةٍ ، أو حزبٍ ، أو مؤسسةٍ ، أو جماعةٍ من المسلمين ، أو غيرهم لتتصدَّى لهذا الوضع الفاسد ، وتقاوم تيارات الفساد والتدمير.

لذلك فإنَّ الذي يفدح الحزن والألم ، ويبعث على اليأس والقنوط: أنَّه لا يرى من يقاوم هذه الأحوال المتصارعة ، والأوضاع المتوترة ، والظروف المؤلمة الدقيقة ، لقد انتشرت شبكات الجامعات ، والتعاليم العليا ، والمجامع العلمية ، وأقسام التخصص والاختصاص ، وكثرت مجالس الشعر والأدب ، والكتب العلمية القيمة ، بل يسود البلاد جوٌّ علميٌّ ، ولكن الذي يعوزه هو حركة إصلاح الأخلاق ، وتنظيم الأمور ، وإيجاد الثقة والاعتماد ، وإيقاظ عواطف المحبة والإخلاص ، ليست هناك حركة تعرفهم: أنَّ الإنسان عبد من عباد الله، من اجترأ عليه من غير حق؛ فقد اجترأ على الله ، واجترأ على شيءٍ محبب عند ربه ، والذي هو خليفته في الأرض.

* * *

هناك الثورة لا هنا[1]

يقول مؤلف اشتراكي: (إنَّ الإنسان ليدهش إذا تأمَّل السُّرعة الغريبة التي تغلَّب بها طوائف صغيرةٌ من الرحالين؛ الذين خرجوا من صحراء العرب مشتعلين بحماسة دينية على أقوى دولتين في الزمن القديم، لم يمض خمسون سنة على بعثة محمد ﷺ حتى غرز أتباعه علم الفتح على حدود الهند في جانب، وعلى ساحل البحر الأطلانطيكي في جانب آخر، إنَّ خلفاء دمشق الأولين حكموا على إمبراطورية لم تكن لتقطع في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل، في نهاية القرن الأول للهجرة كان الخلفاء أقوى ملوك العالم.

كلُّ نبيٍّ جاء بمعجزات آيةً لما يقول، وبرهاناً على صدقه، ولكن محمداً ﷺ هو أعظم الأنبياء وأجلُّهم؛ إذ كان انتشار الإسلام أكبر آيات الأنبياء وأروعها إعجاباً، وخرقاً للعادة. إنَّ إمبراطورية أغسطس الرومية بعد ما وسَّعها بطلها تراجان نتيجة فتوح عظيمة في سبعة قرون ولكنَّها لا تساوي المملكة العربية التي أسست في أقل من قرن. إنَّ إمبراطورية الإسكندر لم تكن في اتساعها إلا كسراً من كسور مملكة الخلفاء الواسعة، إنَّ الإمبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة، ولكنها غلبت، وسقطت أمام سيف الله في أقل من عشر سنوات.

والآن ننظر في هذا الحادث الغريب نظراً علمياً تحليلياً، ونبحث عن أسبابه الحقيقية.

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها التاسع، المجلد الرابع عشر عام ١٩٧٠ م.

الجنود والدول في هذا العالم المادي تغلب الجنود والدول في الغالب لوفرة عددها ، أو بزيادة عدَّتها ، وعتادها ، ولأنَّها أحسن في الشكة والسلاح ، وفي التنظيمات العسكرية ، وفائقة في النظام الحربي ، فنتناول جميع هذه العلل المادية التي يرجع إليها الفضل في انتصار الجيوش والدول عامة ، ونبحث فيها علَّةً علَّةً .

أما العدد فمعلوم أنَّه كانت النسبة بعيدةً بين المقاتلين في العدد في جميع المواقف الحاسمة ، والمعارك الفاصلة في كفاح الإسلام والنصرانية والمجوسية ، وكان الروم والفرس أضعاف عدد المسلمين في أكثر الوقائع هذه اليرموك كان الروم الذين نفروا لقتال المسلمين يبلغ عددهم إلى مئة ألف وثمانين ألفاً ، وفي رواية مئتي ألف ، وفي رواية أربعين ومئتي ألف ، وأقل ما روي عن عددهم عشرون ومئة ألف ، وأكثر ما ذكر عن المسلمين أنهم كانوا أربعةً وعشرين ألفاً ، كذلك كانت النسبة بعيدةً في وقعة القادسية، وهي أختها في العراق ، والنتيجة معلومةٌ ، وما يوم حليمة بسر .

وقد اعترف بقلة المسلمين ، ووفرة جنود الروم والفرس المؤرخون جميعاً ، ولم يعلِّلوا الفتح الإسلامي الغريب في التاريخ بكثرة عدد مقاتلة المسلمين ، جاء في الفصل الرابع للأستاذين (غود فروا دمونبين) و(بلانونوف) :

(إنَّ العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار لم يكونوا عصائب لا تحصى ، ولا تعدُّ تدفقت على الشرق المتمدن ، فقد أحصى مؤرخو العرب الجيش الأول للمسلمين في اليرموك بثلاثة آلاف ، ثم أرسل إليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل ، وأخيراً تتامَّ عددهم ٢٤ ألفاً وأما عدد الروم فقال العرب: إنه كان مئة ألف ، وقيل ١٢٠ ألف ، وقيل ٢٠٠ ألف مقاتل ، ولم يزده مؤرخو بيزنطية على ٤٠ ألفاً ، وعلى كل حال كان العدد الأكبر لأعداء العرب ، وهكذا في حروب فارس)[١] .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي:حواشي الأمير شكيب أرسلان ١ ص ٢٩ .

ومعلومٌ أنَّ جزيرة العرب قليلة العمران بالنسبة إلى مساحتها ، واتساع رقعتها ، ومعظمها صحراء ، ورمالٌ وعساء ، وأرضٌ قاحلةٌ جرداء ، أما البلاد التي زحف عليها المسلمون ورموا فيها بأنفسهم؛ فهي من أخصب بلاد الله ، مستبحرة العمران ، مكتظة بالسكان ، وكانت خليتها تعسل حيناً بعد حين ، وتقطع بعوثاً إثر بعوث ، وتتدفق سيولٌ من الجيوش والمقاتلة ، وتأتيهم الميرة من كلِّ مكان ، لا تكاد تنتهي ، وكان العرب الغرباء كنقطة مغمورةٍ في بحار من الأعداء ، نازحين عن بلادهم ، منقطعين عن مركزهم ، ولا يصلهم المدد إلا بشقِّ الأنفس ، وبعد شهور ، لا يجدون من الميرة إلا ما يتغلبون عليه ، وينتزعونه من أيدي أعدائهم انتزاعاً ، فلو تطوَّعت جزيرة العرب كلُّها لقتال الروم والفرس ، ونفر جميع أهاليها للجهاد في سبيل الله ـ على أن ذلك من المستحيل ـ لما وقعوا من العالم النصراني والمجوسي ـ وهما أكثر من نصف الأرض المعمورة ـ بمكان ، فكيف والذين تطوعوا للجهاد ما كانوا نصف عشر عمران الجزيرة؟

أما العُدَد والعتاد ، فكان العرب أفقر فيها ، وأقلَّ منهم في العُدَد ، فلم تكن هناك جنود مرتزقة ، ولا جيوش منظمة تعبئها الحكومة ، وتسلحها من عندها ، ثم تبعثها كاملة السلاح ، تامة الجهاز ، إنما كان متطوعون ، يجهزون أنفسهم ، وينفرون شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله ورجاء ثوابه ، ومنهم من لا يجد راحلةً ، ويلتمس عند غيره ، فلا يجد ، فيقعد متلهفاً على ما يفوته من سعادة الجهاد في سبيل الله ، وقد أنزل الله فيهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

وكان المسلمون تزدريهم أعين الروم والفرس لما خرجوا لقتالهم (وكانوا يسخرون من سلاحهم ، ونبالهم ، وثيابهم ، ويضحكون ، قال أبو وائل ـ أحد الذين شهدوا القادسية ـ كان الفرس يقولون للمسلمين: لا يد لكم ، ولا قوة ، ولا سلاح ، ما جاء بكم ارجعوا! قلنا: ما نحن براجعين ،

فكانوا يضحكون من قبلنا ، ويقولون: دوك دوك ، وشبهونا بالمغازل)[1].

قال ابن كثير: وكان سعد قد بعث طائفةً من أصحابه إلى كسرى يدعونه إلى الله قبل الوقعة ، فاستأذنوا على كسرى ، فأذن لهم ، وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم ، وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم والنعال في أرجلهم ، وخيولهم الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب: كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عَددها ، وعُددها[2].

ويقول (ماكس ماير هوف) في تأليفه (العالم الإسلامي):

(يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف أنَّ أعراباً منقسمين إلى عشائر ، ليست عندهم العُدد والأعتدة اللازمة يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الأعداد والعتاد ، وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة)[3].

ومما قيل في تعليل غلبة المسلمين: أنَّ العرب كانوا فائقين في نظامهم الحربي على الروم والفرس في ذلك العصر ، وكانت كتائبهم أحسن تنظيماً وتدريباً ، وأفضل نظاماً عسكرياً ، وأكثر انقياداً لأمرائها وقوادها من العساكر الرومية والفارسية ، وأنَّ الفضل في انتصار العرب مع قلتهم وانكسار الروم والفرس رغم كثرتهم يرجع إلى مراس العرب للقتال ، وضراوتهم بالحروب ، وولوعهم بالغزو ، والنهب ، ونشأتهم الجاهلية الأولى ، النشأة الحربية المحضة.

هذا الكلام يشبه أن يكون وجيهاً ، وأكثر صواباً من التعليلات السابقة ، ولكنك إذا انتقدته كباحث ومؤرخ وجدته مغالطةً كبيرة يغالط بها الكتاب الأوروبيون ويتعالمون بها ، وقد يفهمون؛ وقد لا يفهمون.

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص ٤ .
(٢) أيضاً ج ٧ ص ٤٢ .
(٣) حاضر العالم الإسلامي:حواشي الأمير شكيب أرسلان ج١ ص ٢٩ .

قد ثبت في تواريخ القرون الوسطى: أنَّ الروم (وكذا الفرس) كانوا راقين في نظامهم الحربي في ذلك العصر، وقد بلغت الدولة البزنطية في بداية القرن السابع المسيحي زهوها، وأوج فتوحها الحربية، ففي ذلك العهد دحر الروم الفرس، وردُّوهم على أعقابهم، وجاسوا خلال الديار، وعبر هرقل جبال الكرد، ونهر دجلة غازياً منتصراً، وبعد حربٍ داميةٍ في ساباط ومعركةٍ فاصلةٍ في نينوى دخل دسجرد، وتقدَّم إلى المدائن، وغرز علم الفتح الرومي في قلب فارس، وذلك كلّه في سنة ٦٢٥ م يعني قبل زحف المسلمين على الشام باثنتي عشرة سنة فقط.

وقد أفادت هذه الحروب الطاحنة التي بدأت من سنة ٦٠٣ الفريقين (الروم وفارس) من جهة الحرب والتدريب كثيراً، وقد استفاد الفريقان أساليب جديدةً للقتال، وحنكةً وحسنَ بلاءٍ في الحرب، وتعلَّم كلُّ فريقٍ منهما من الآخر، كما كان الشأن في الحروب الصليبية في القرون الوسطى.

وقد اعترف جيون مؤرخ رومة الكبير بفضل الروم على العرب في الحروب، ونظامها، فقد قال في كتابه (المجلد الخامس ص ٤٧٨):

(أنا ألاحظ هنا وسأكرره مراراً: أنَّ هجوم العرب وقتالهم لم يكن مثل الرومان واليونان؛ الذين كانت لهم رجالة قوية مستحكمة، كانت القوة العسكرية للعرب مركبة من فرسان ورماة، وكانت الحرب التي قد تقاطعها مبارزات شخصية ومناوشات من القتال قد تستمرُّ، وتطول بغير حادثة فاصلةٍ إلى عدَّة أيام).

أما ما قيل من مراس العرب للقتال وتدربهم عليها بفضل حروبهم القبلية التي كادت تكون مستمرةً وتمكنهم من الانتصار على الروم والفرس فلم تكن هذه المناوشات والغزوات الطائفية بحيث يتمكَّن بها العرب من قهر الإمبراطوريتين الكبيرتين الرومية والفارسية، وقد خضع العرب مع هذا كلِّه للحبشة ولفارس في جنوب العرب، وانسحبوا أمام جيوش أبرهة في زحفه على مكة، وأنَّ الله هو الذي تولَّى حراسة بيته، وكفى قريشاً القتال، وجعل أصحاب الفيل كعصفٍ مأكول، ولماذا لم يجسر العرب على الخروج من

جزيرتهم ، وغزو البلاد ، وفتحها في هذه القرون الطويلة التي قضوها في شبه جزيرتهم في خمودٍ ، وخمولٍ تام؟ لماذا لم يهاجموا الروم والفرس كما فعلوا بعد بعثة محمد ﷺ بغير تراخ؟ ولماذا لبثوا الأحقاب والأجيال الطوال (معكومين على رأس حجر بين الأسدين: فارس والروم) كما يقول قتادة أحد التابعين الكبار[1].

أما ما قيل عن النظام؛ فلا ننكر حسن نظام العرب في حروبهم ، وغزواتهم ، وروح التعاون والتفادي الساري في جنودهم ، والطاعة ، والانقياد لأمراء الجيوش وقوّادها ، والتفاني والاستماتة في سبيل الله ، ولكن يعلم الخبير: أنَّ النظام ليس شيئاً صناعياً ميكانيكياً يحصل بمجرد تنظيمات عسكرية وفنون حربية ، وقواعد رياضية ، ولو صففت الحجارة تصفيفاً بديعاً ، أو أقيمت العمد والسواري على نظام فنيٍّ رياضيٍّ كاملٍ لم تنفع شيئاً ، وقد قرأت في التاريخ: أنَّ الروم والفرس قد كانوا في بعض المواقف الجليلة يسلسلون أنفسهم ، ويحفرون لهم في الأرض لئلا يندحروا ، أو ينسحبوا من ميدان القتال ، ثم لا يغني عنهم هذا شيئاً ، فليس الشأن كلُّه في النظام في الحرب ، إنما الشأن الكبير التأثير البليغ للروح ، والمبدأ ، والغاية؛ التي يقاتل لأجلها الجنود ، وتمكنها من النفوس ، وهي منبع القوة الخارقة للعادة ، ومبعث الشجاعة التي تبهر العقول ، وسبب الفتوح العظيمة التي يندهش لها المؤرخون ، والفلاسفة.

وعن هذا المنبع نبحث في نفوس العرب الأوَّلين الذين خرجوا لفتح العالم ، وفتحوا نصف الأرض في نصف قرن.

منبع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم؛ الذي لا يوجد له مثيل في التاريخ: أنَّ العرب أصبحوا بفضل تعليم محمد ﷺ أصحاب دين ورسالةٍ ، فبُعثوا بعثاً جديداً ، وخُلقوا من جديد ، وانقلبوا في داخل أنفسهم ، فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت ، وانقلبوا غير ما كانوا رأوا إلى العالم

---

(١) تفسير ابن جرير: ج٤ ص ٢٢.

حولهم ، ـ وطالما رأوا في جاهليتهم بدهشةٍ واستغراب ـ فإذا الفساد ضارب أطنابه ، وإذا الظلم مادٌّ رواقه ، وإذا الظلام مخيمٌ على العالم كلِّه ، وكلُّ شيءٍ في غير محلِّه ، فمقتوه ، وأبغضوه ، ورأوا إلى الأمم وطوائف البشر حول جزيرتهم ـ وطالما رأوها بتعظيم ، وإجلالٍ ، وغبطةٍ ، وإكبارٍ ـ فإذا أنعامٌ ودوابُّ في صورة البشر ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢] وإذا صورٌ ودمىً قد كسيت ملابس الإنسان ، فاستهانوا بهم ، وبما هم فيه من ترفٍ ، ونعيم ، وزخارف ، وزينةٍ ، وقرؤوا قول الله تعالى ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وأورثهم أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وأرضاً لم يطؤوها ، واستخلفهم في الأرض ، ومكَّنهم فيها ، وقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥] وتعلقوا بقول نبيهم ﷺ:

«إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ، ومغاربها ، وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض»(١).

وقوله: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»(٢).

وعرفوا أنَّ الله قد ضمن لهم النصر ووعدهم بالفتح ، فوثقوا بنصر الله ،

(١) رواه الترمذي: (٢١٧٧).
(٢) رواه الترمذي: (٢٢١٧).

ووعد رسوله ، واستهانوا بالقلّة والكثرة ، واستخفّوا بالمخاوف والأخطار ، وذكروا قول الله تعالى ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وقوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقد فطن لهذه الحقيقة بعض معاصري المسلمين ، وأعدائهم ، وأهل النظر والتمييز في ذلك العصر من الروم ، والفرس ، فمن ذلك ما روى ابن كثير: أنَّ هرقل لما انتهى إليه خبر زحف المسلمين قال لأهل الشام: ويحكم! إنَّ هؤلاء أهل دينٍ جديد ، وإنَّهم لا قبل لأحدٍ منهم ، فأطيعوني وصالحوهم بما يصالحونكم على نصف خراج الشام ، ويبقى لكم جبال الروم ، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام ، وضيقوا عليكم جبال الروم(١).

أما عقيدة المسلمين: أنَّهم مبعوثون إلى الأمم ، موكَّلون بإخراج الناس إلى عبادة الله وحده ، وأنَّ الله متولي نصرهم ، ضامنٌ بظفرهم؛ فستلمحه وتسلمه في كلٍّ ما كان يصدر من المسلمين من كلام ، وفعالٍ ، ومن ثقتهم ، وسكينة قلوبهم.

ومن ذلك ما روي: أنَّ الأمراء لما كتبوا إلى أبي بكر وعمر في اليرموك يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم ، وما يقابلون من خطر داهم ، وعددٍ لا قبل لهم به ، كتبا إليهم: أن اجتمعوا ، وكونوا جنداً ، واحتلوا ، والقوا جنود المشركين ، فأنتم أنصار الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم عن قلَّةٍ ، ولكن من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا منها(٢).

ولما استشار عمر أصحابه في مسيره إلى العراق بوقعة نهاوند؛ قال له

---

(١) البداية والنهاية:ج٧ ص ٥.
(٢) البداية والنهاية:ج٧ ص ١٠٧.

عليُّ بن أبي طالب: «يا أمير المؤمنين! إنَّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرةٍ، ولا قلَّةٍ، هو دينه الذي أظهره، وجنده الذي أعزَّه، وأمدَّه بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعودٍ من الله، والله منجز وعده، وناصر جنده[1].

ولذلك كانوا يخاطرون بأنفسهم، ويأتون بأعاجيب، وأعمالٍ خارقةٍ للعادة ثقةً بنصر الله، واعتماداً على موعوده، حتى إنَّهم خاضوا بخيولهم في دجلة، وكانوا يتحدثون مطمئنين، كأنَّهم سائرون على البرِّ، وكان منظراً غريباً، وجعل الفرس يقولون (ديوان آمدند) يعنون: الجن، والعفاريت ويقولون: (ديوانه! ديوانه!) يعنون: المجانين، وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي، فجعل سعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرنَّ الله وليه، وليظهرن الله دينه، وليهزمنَّ الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغيٌ، أو ذنوب تغلب الحسنات. فقال له سلمان: إنَّ الإسلام جديد. ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البرُّ، أما والذي نفس سلمان بيده! ليخرُجُنَّ منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً! فخرجوا منه كما قال سلمان: لم يغرق منهم أحد، ولم يفقدوا شيئاً[2].

بعثت هذه العقيدة والنفسية طمأنينة في أنفسهم، وسكينةً في قلوبهم وشجاعةً خارقةً للعادة، واستهانةً بالعَدَد والعُدَد وعدم عبادة للمادَّة، وعدم اتخاذ الأسباب أرباباً، وعرفوا أنَّهم يقاتلون بقوة الدِّين، ويظفرون، ويغلبون بفضل الإسلام، فكانوا شديدي الاحتفاظ، كثيري الاعتداد بها، يتمثل ذلك فيما قال عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ روى يونس عن ابن إسحاق: أنَّ المسلمين بلغهم أن هرقل نزل بمآب في مئة ألف من الروم ومئة ألف من المستعربة (والمسلمون لا يزيدون على ثلاثة آلاف) فلما بلغ المسلمين ذلك؛ أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا نكتب

---

(١) البداية والنهاية:ج ٧ ص ٦٥.

(٢) البداية والنهاية:ج ٧ ص ٦٦.

إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدوِّنا ، فإما أن يمدَّنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ، قال: فشجع الناس عبد الله بن رواحة ، وقال: يا قوم! والله إنَّ التي تكرهون للَّتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعددٍ ، ولا قوَّةٍ ، ولا كثرةٍ ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنَّما هي إحدى الحسنيين ، إما ظهور ، وإما شهادة! قال: فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة! فمضى الناس[1].

* * *

(١) البداية والنهاية: ج٤ ص ٢٤٣.

هذه هي المعركة[1]

نحن في معركة عقلية ثقافية مبدئية ، صراع بين عقيدةٍ وعقيدة ، وحضارةٍ وحضارة ، ودعوةٍ ودعوة.

أما العقيدة فقد تطوَّر مفهومها ، وتوسعت دائرتها ، كما تَطوَّر مفهوم حقائق كثيرة ، وتوسعت أو ضاقت دوائرها في هذا العصر ، فالعقيدة الأساسية التي تركَّز فيها الصِّراع في هذا الوقت ، وانحصرت فيها المعركة ، وشملت الحياة كلها ، والمجتمع كله ، هي: هل لا بدَّ من تأسيس الحياة ـ بما فيها من الأفكار والاتجاهات والتصرفات والكفاح ـ على حقائق جاء بها الرسل في عصورهم ودعوا إليها في أممهم، وجاء بها الرسول الأعظم ﷺ للأبد وللجميع ، أم تؤسس حياتنا ـ بأوسع معانيها ـ على مشاهداتنا وتجاربنا ، وميولنا ورغباتنا؟ وهل وراء الحسِّ غيب هو أوسع منه ، وبعد هذا العالم عالم لا آخر له ، أم ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩]؟

وأما الحضارة: فهنالك حضارتان متنافستان لا أعرف لهما ثالثة ، حضارة أسسها إبراهيم مؤسس العهد الجديد وأبو الجيل المؤمن الجديد ، وجدَّدها ، وكمَّلها حفيده ، ووارث دعوته محمد بن عبد الله العربي القرشي خاتم الرسل ، إمام الكل ، ومنير السبيل ، حضارة تتسم بسمات وشعائر كثيرة ، أبرزها أربعة:

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الأول المجلد الخامس عشر ، عام ١٩٧٠ م.

أولاً: إنها غمست باسم الله والإيمان به ، وغمست في هذه الصبغة غمساً لا تفارقها هذه الصبغة ، ولا يغلب عليها لون آخر ، وإذا استعرضت حياة المسلم ـ الذي انفرد بتمثيل هذه الحضارة ، لأسباب تاريخية ، وفعل عوامل كثيرة ليس هنا موضع شرحها ـ وجدت هذا الاسم الكريم واستحضار مسماه ، واللهج بذكره لا يفارقه من المهد إلى اللحد ، من الأذان في أذني المولود إلى الصلاة عليه ميتاً ، إلى أن يوضع في لحده.

والشعار الثاني: هو التوحيد النقي الخالص الذي قرره الرسل جميعاً ، وحمل لواءه إبراهيم وهاجر في سبيله ، ودعا إليه محمد ﷺ الناس جميعاً ، وجاهد في سبيله.

والشعار الثالث: هو الإيمان بشرف الإنسان ، وكرامة بني آدم ، والمساواة بين أعضاء الأسرة الإنسانية بصرف النظر عن ألوانهم وأوطانهم ، وأجناسهم ، وطبقاتهم ، فكلُّهم من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتقوى.

الشعار الرابع: الكفاح في سبيل الدعوة إلى الله ، وإسعاد البشرية عامَّةً: ومحاربة الأوثان بجميع أنواعها ، وباختلاف أسمائها ، الكفاح لإعلاء كلمة الله وإجراء حكم الله على خلق الله ، وقد أكرم الله به المنتمين إلى هذه الدوحة الإبراهيمية التي بعث فيها محمد ﷺ بالكفاح المقدس المجيد الفريد ، وخصهم به حتى أصبح لهم شعاراً وفيهم وراثة ، يتوارثونها كابراً عن كابر ، وجيلاً عن جيل.

وتقابل هذه الحضارة حضارة مؤسسة على الغفلة عن الله ، والبعد عنه ، وعلى الإشراك به ، وعلى التمييز بين لونٍ ولون ، وجنسٍ وجنس ، وسلالةٍ وسلالة ، ووطنٍ ووطن ، والتفريق بين السود والبيض ، والسادة والعبيد ، والأغنياء والفقراء ، وبين شعوبٍ وشعوب ، وبلاد وبلاد ، يخطُّون بين البشرية خطوطاً عريضةً ودقيقة ، جامدةً ورقيقة ، منها البحار ، ومنها الأنهار ، ومنها الجبال ، ومنها الحدود المصطنعة ، ومنها الكلمات

المصطلحة ، كلُّها من صنع الإنسان ، ودعاوى فارغة ما أنزل الله بها من سلطان.

وأمّا الدعوة ، فهل تستحق هذه العقيدة الأبدية المتميزة ، وهذه الحضارة المشرقة المنصفة ، أن تكون غايةً نجند لها قوانا ، ومواهبنا ، ونحشر لها وسائلنا ، وذخائرنا ، ونجعلها موضوع تفكيرنا ، وأدبنا ، وجهادنا ، وأن نميِّز بينها وبين ما نضطر إليه من دعوة وتنظيم ، وكفاحٍ ونضالٍ ، وأهدافٍ مؤقتة محليَّة ، أم نعتقد أنَّ الأولى قد مضى أوانها ، وانتهت رسالتها ، فلا بدَّ من دعوة جديدة ، دعوة قائمة على قومية ، أو وطنية ، أو نظامٍ اقتصادي ، أو معسكرٍ سياسيٍّ ، نزجُّ لها كلَّ ما عندنا من مواهب وطاقاتٍ ، نعظِّمها كاملةً ، وندعو إليها كدين ، ونجاهد في سبيلها كعقيدةٍ ، ونستهين بما عداها من عقائد دينية ، وقيم خلقية ، وذخائر معنوية ، ونعتبرها هي الجامعة ، ونستخف بالجامعة التي تربط الإنسان بالإنسان ، وتجمع بين الشرقي ، والغربي ، والعجمي ، والعربي ، والأبيض والأسود ، والغني والفقير ، وتمتدُّ من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن أدنى البشرية إلى أعلاها ، الجامعة التي لا سبيل بعدها إلى الحروب ، ولا سبيل بعدها إلى الاستعمار ، والجنسية ، والعنصرية ، والعصبية الجاهلية ، وجميع النزعات الممزِّقة ، والمذاهب الهدامة.

هذه هي المعركة ، والمسلمون فيها جنود.

هذه هي المعركة ، والمجلَّات ، والصحفُ تستطيع أن تمثِّل فيها دوراً لا يمثِّله أحد ، فهي التي تحمل الفكرة ، وهي التي تنشر الفكرة ، وتزرعها في عقولٍ ونفوسٍ لا يحصيها إلا الله ، ثم تتعهدها حيناً بعد حين ، وتغذيها ، وتسقيها ، وتراقبها.

وهي التي تحمل الرسالة من ناحيةٍ في العالم إلى ناحيةٍ بعيدةٍ منه ، ومن رأسٍ إلى رؤوسٍ كثيرة ، ويسمع صرير أقلامها ، ودبيب أفكارها في قرارة النفوس ، وسويداء القلوب ، وأعماق العقول.

وهي التي تمشي بين أعضاء أسرةٍ آمنت بفكرةٍ ، والتقت على عقيدةٍ ،

فتحمل تحية بعضها إلى بعض ورسالة بعضها إلى بعض ، فتكون رسول حبٍّ ، وسلامٍ ، ووسيلة إلى التعارف ، وصلة الأرحام.

وهي التي تقيم العوج من الأفكار ، وتصلح الفاسد من الآراء ، وتعلم الجاهل ، وتقوي ملكة الكاتب الناهض ، وتعرض أمثلة من الفكر السديد ، والأدب الرفيع ، والاطِّلاع الدقيق ، والملاحظات الصائبة ، فهي مدرسة ينشأ فيها تلاميذ ، ويتخرج فيها فضلاء ، هم أبناء اليوم ، وأساتذة الغد.

* * *

دورُ الإسلام في نهضة الشُّعوب(١)

إنَّ عملية المقارنة بين الأرباح والخسائر عمليةٌ حيوية ، وشرطٌ من شروط الحياة السعيدة ، إنَّ هذه العملية لا يستغني عنها أي رجل يعرف قيمة حياته ، ويعرف قيمة صناعته ، ويعرف قيمة الحقل الذي يعمل فيه .

إنه لا يستغني عنها تاجر مهما تفهت تجارته ، وقلَّت قيمتها ، فإنَّه إذا لم يقارن في آخر السنة بين الربح والخسارة ، وبين الإنتاج والعقم ، فإنه يكون مغروراً بنفسه ، وإنَّه يكون تاجراً خاسراً ، قد يعلم فجاءة أنه قد أفلس . إنَّ هذه العملية لا يستغني عنها الفلاَّح الذي يصب عرق جبينه ، ويقوم في يوم صائفٍ لافح ، أو في يوم شاتٍ شديد البرد ، ويبكر ، ويبذر البذور الطيبة؛ التي أودع الله فيها أمانة الزرع الكريم ، إنه إذا لم يحاسب نفسه ، ويحاسب إنتاجه ، ولم يقارن بين الربح والخسارة ، وبين الزرع والحصاد؛ كان فلاحاً مغروراً ، وكان معرضاً لخطر عظيم .

كذلك الجندي لا يستغني عن هذه المقارنة ، إنَّه يفرض عليه أن يقارن بين فتوحه ، وانتصاراته ، وبين هزائمه ونكباته ، وبين وفائه لبلاده ، أو بين غدره بها ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ وبين ما اكتسبه ، وبين ما ضيَّع . وكذلك المعلِّم يجب عليه أن يقارن بين إنتاجه وبين فشله أو إخفاقه ، إنَّ مدير أي ثانوية ، أو مدرسة ابتدائية ، أو جامعة كبيرة ، إذا لم يقارن بين إنتاجه وبين خيبته ، وبين ما وفق له ، وبينما خسره من جهوده وطاقاته ،

(١) نشر هذا المقال في مجلة (البعث الإسلامي) بعنوان (الدور الإسلامي في تقدم البلاد) في عددها السابع ، المجلد الخامس عشر ، عام ١٩٧١ م .

وآماله وأمانيه ، بين الشباب الذين أكرمه الله بالإشراف عليهم وتربيتهم ، فإنه في الحقيقة مديرٌ فاشل.

وإنَّ تقدُّم العلم والمدنية مدينٌ في الشيء الكثير لهذه المقارنة الأمينة المحايدة المخلصة ، فالأمم ، والمدنيات ، والمجتمعات البشرية ، والفلسفات كلُّها تعيش على هذه المحاسبة الدقيقة الأمينة ، كذلك الحكومات التي هي عرضةٌ لنواميس الرقي والتقدُّم والازدهار ، والسقوط والزوال ، كلُّها مكلفةٌ بأن تحاسب نفسها ، وأن تحاسب تاريخها ، ورجالها ، وأدباءها ، وزعماءها ، وهنالك كتب ألفت في موضوع أسباب ارتقاء الحكومات ، وتقدُّمها ، ثم سقوطها ، وانهيارها ، وتكاد هذه المؤلفات في كلِّ لغةٍ من لغات العالم المتمدن تكون مكتبة عظيمة ، ومن خيار هذه الكتب على ما عندي من علم محدود ، الكتاب الشهير الذي دوَّى اسمه في الآفاق ، والذي استحقَّ به مؤلفه أن يعدَّ من كبار المؤلفين ، والكتاب العالميين ، ليس من كبار مؤلفي بلادٍ وشعبٍ فحسب ، ألا وهو جبون (Gibbon) الذي ألف كتابه الشهير (Decline and Fall of the Roman Empire) يعني: (انحطاط إمبراطورية روما وسقوطها).

والذي يتهرب من هذه المقارنة التي قد تكون ثقيلةً بغيضةً ، وقد تكون عسيرةً دقيقةً ، فإنَّه يتهرب من مسؤوليةٍ عظيمةٍ ملقاةٍ على عاتقه ، إنَّ من يتهرب عن أداء هذه الرسالة ـ في صالحه هو شخصه ، أو في صالح أمته ، وفي صالح مجتمعه ـ فإنَّه إما خادع ، وإما مخدوع. إنَّ الفرد إذا تهرَّب عن أداء هذه الرسالة ، وعن القيام بهذا الواجب الطبيعي الخلقي الشرعي ، الاجتماعي ، المدني ، السياسي؛ فإنه معرَّضٌ لخطرٍ عظيمٍ في حياته المحدودة ، وإذا كانت أمة تتهرب عن هذه المسؤولية التي يقوم بها الشجعان الأبطال الناصحون لأنفسهم ، المخلصون لأمَّتهم ، فإنما هي فريسة انهيار ، أو فريسة سقوطٍ بين عشية وضحاها.

إنَّ من عيوب مجتمعنا الذي يعيش فيه المجتمع الإسلامي العربي: أنّه يتنصَّل من أن ينوء بهذا العبء الثقيل ، بهذه المسؤولية الضخمة ، إنَّه يُحب

الإطراء ، إنه يحب المتملقين المجاملين؛ الذين لا يتقون الله في ضمائر هذه الأمة ، وفي عقولها ، وفي نفوسها ، وفي مصيرها.

إنَّ الحكومات التي كانت تقوم في العصر القديم على أساس شخصي «أرستقراطي» ملوكي ، فقد اعتبر كبار المؤرخين ـ من عهد ابن خلدون ، ذلك الفيلسوف العربي المؤرخ الناقد إلى عصرنا هذا ـ من أكبر عيوب هذه الحكومات الشخصية إعجابها بالمطرين ، وانخداعها بشعراء البلاط ، شعراء «السراي» الذي كانوا يكيلون المدح جزافاً ، فكان أحبهم إليهم أقدرهم على هذا الملق والإطراء ، وعلى المبالغات التي قيل عنها: «إن أعذب الشعر أكذبه» لقد زخر أدبنا الشرقي ـ مع الأسف الشديد ـ وبصفةٍ خاصةٍ الأدب الفارسي الذي أعتبر نفسي أحد تلاميذه ، والمعجبين به ، وزخر أدبنا العربي ـ من العهد الأموي إلى عهد المماليك ـ بهذا النوع من التملق ، والمجاملة ، والإطراء المتجرِّد عن كلِّ صدقٍ وحقيقةٍ ، وعن كلِّ صراحةٍ وشجاعةٍ.

لقد اتسمت هذه الحكومات على اختلاف مناهج حكمها ، وعلى اختلاف مذاهبها ، واتجاهاتها ، وبيئاتها ، وأزمنتها وعصورها ، بهذا العيب القادح ، الذي جنى على هذه الحكومات ، وجنى على ذلك الجيل الذي ابتلي بهذه الحكومات ، ولكن ليس عيب المجتمع الحاضر الذي نعيش فيه أقل من عيب تلك الحكومات التي قامت على تمجيد الأسر ، والأعراق ، وعلى تقديس الدماء ، والعناصر ، وعلى تمجيد الذين فتحوا الدنيا بحدِّ سيفهم ، إنَّ هذا المجتمع الذي نعيش فيه ملك شيئاً كثيراً من وسائل الثقافة ، ومن وسائل الوعي ، ومن وسائل إيقاظ الشعور ، ومن وسائل فهم القضايا على حقيقتها ، لقد تقدَّمت فيه الصحافة ، والإذاعة ، واستحدثت فيه آلات التعريف بالحقائق ، ولكن مع ذلك ليس مجتمعنا الحاضر الذي ننتسب إليه جميعاً أقلَّ اندفاعاً إلى المجاملة ، والمجاملين ، والتملُّق ، والمتملقين من الحكومات الشخصية ، إنَّ هذا المجتمع الذي يدّعي الوعي ، ويدَّعي بلوغ سن الرشد ، ويدَّعي التقدم في المدنية ، والحضارة ، وفي السياسة ، والصحافة ، لا يزال طفلاً قاصراً ، لا يزال

ضعيف العقلية ، ضعيف النفس ، ضعيف الإرادة ، ضعيف الثقة ، قليل المعرفة بعيوبه ، وبنفسه.

إنَّ الفرد إذا ابتلي بهذا المرض ، مرض الإعجاب بالتملُّق والمجاملة ، وستر العيوب ، فإنَّه فردٌ سائر في سبيل التلف والهلاك ، في سبيل الدَّمار والضياع ، فكيف بشعب بأسره يعيش في الأحلام ، والأوهام ، ويعيش في البرج العاجي؟!

إنَّ المقارنة بين الأرباح والخسائر ـ كما قلت ـ من ضرورات الحياة المتمدنة الواعية ، يجب علينا أن ننصف أنفسنا ، وأن نكون شجعانَ أبطالاً مغاوير ، مجازفين بالحياة ، صرحاء صادقين فيما يخصُّ أنفسنا ، ويتَّصل بحياتنا ، فلنشهد على أنفسنا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥]. هكذا يقول القرآن ، ويقول: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

إنَّني أريد أن أقارن بين أرباح الشعوب العربية وهذه البلاد التي نجتمع فيها وننظر: ماذا ربحت ، وماذا خسرت؟

أريد أن نكون جميعاً رياضيين واقعيين ، غير خطابيين ، وخياليين.

يجب علينا أن نحدِّد تلك المقاييس الصحيحة التي نستطيع أن نقيس بها نجاح شعب ، وانتصاره ، وفشله ، وإخفاقه.

وأول هذه المقاييس هو انتشار الدعوة والعقيدة التي يحملها هذا الشعب. إنِّي لا أوافق على من يعتبر أنَّ المقياس الأول الذي تقاس به انتصارات أمة ونجاحها؛ هو قيام إمبراطورية ، وقيام ملكٍ عريض ، وحكمٍ واسع ، وفتح أكبر مساحةٍ من الأرض ، إنني سأتحدث إليكم عن هذه الناحية وهي ناحيةٌ لها قيمتها وحسابها ، ولكن اسمحوا لي أن أقدِّم قضية العقيدة ، وقضية الدعوة؛ لأنَّ الأمَّة التي تعرف قيمتها ، وتعرف قيمة الحياة الإنسانية ، وتعرف قيمة هؤلاء البشر؛ الذين يعدُّون بالملايين ، فإنها تعتبر العقيدة التي تؤمن بها ، والدَّعوة التي تحتضنها ، وتحملها ، أعزَّ وأثمن من

قيام إمبراطورية من غير عقيدة ، ومن غير دعوة .

فأولاً تعالوا نقس مقدار النجاح الذي حققته هذه الأمَّة في مجال انتشار الدعوة التي أكرمها الله وخصَّها بها ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]. إنه المقياس الأول الذي يجب أن نتمسَّك به ، ونعضَّ عليه بالنواجذ ، إذا كنا أمة ذات ضميرٍ ومبدأ ، أمةً ذات أهداف معينةٍ ورسالة ، أمةً ذات ارتباط بمصير الإنسانية .

فأقول: أولاً تعالوا نستعرض مقدار النجاح الذي نالته هذه الأمة في سبيل انتشار هذه الدعوة ، كيف انتشرت هذه الدعوة التي حملها العرب من هذه المدينة المقدسة لمَّا خرج المسلمون يحملون المشعل الإسلامي ، يحملون الشعلة الإيمانية ، والدَّعوة الإسلامية ، كيف انتشرت دعوتهم في مشارق الأرض ومغاربها .

إنَّني أيها الإخوان! أستطيع أن أصور لكم ، ذلك العالم الجاهلي الذي كان يعيش في القرن السابع المسيحي ، ولكن لست في حاجة لاستعراضه وتصويره ، فقد تكوَّنت مكتباتٌ ضخمةٌ واسعةٌ ، ساهم في تدوينها وتكوينها كبار الكتَّاب ، والمؤلفين ، لقد انتشرت هذه الدعوة في نصف قرن في نصف المعمورة ، كما يقول المؤرخون الأوربيون ، ولا أقول كيف انتشرت فحسب ، بل: كيف تغلغلت هذه الدعوة الإسلامية في أحشاء الأسر الإنسانية؟ وكيف استطاعت أن تتسرب إلى بيوت وأسر ، وإلى أعماق النفوس؟ وامتزجت بعقول الناس امتزاجاً لم يكن لأكبر كيمياوي وأكبر محلل في ذلك العصر أن يفصل هذه الأجزاء التي امتزجت بالعقول الإنسانية وبالمشاعر الإنسانية مهما بلغ من قوَّة التحليل ، ومن قدرة التجزئة ، ومن قدرة الفصل .

إننا إذا أخذنا ـ على سبيل المثال ـ قضية الهند فقط ، فإنَّ الحضارة الإسلامية قد امتزجت بالحضارة الهندية العتيقة ، وقد تغلغلت في أحشائها ، وقد أصبحت جزءاً لا يفصل ، ولا يتجزأ من هذه الحضارة ،

فإذا وضعنا هذه الحضارة في أكبر معمل كيماوي تاريخي تُحلَّل فيه الحضارات ، كما تُحلَّل فيه الأجزاء البسيطة ، كما تُحلَّل فيه الأدوية؛ لم تستطع هذه المعامل على دقَّتها ودقَّة آلاتها من تحليل وفصل هذه الأجزاء الكريمة الدقيقة الناعمة؛ التي دخلت في أجزاء هذه الحضارات والفلسفات.

هذا أكبر انتصار حقَّقه العرب في أقل مدَّةٍ عرفها التاريخ ، وهو انتشار الدعوة ، وانتشار أسلوب التفكير ، وتغلغل هذا الأسلوب الخاص في التفكير في عقول هذه الشعوب التي قبلت الإسلام ، ولا تزال هذه الأجزاء ممتزجةً مقرونةً بالحضارات الشرقية العصرية إلى هذا اليومَ ، خذوا أيَّ مسلمٍ في الهند ، واستعرضوا حياته من الصباح إلى المساء ، ومن اليوم الذي ولد فيه إلى أن يوضع في قبره ، تناولوه بالتحليل الكيمياوي ، وتناولوه بالتدقيق؛ تجدوا مظاهر العقيدة الإسلامية ، وتجدوا شعائر الإسلام ممتزجةً بلحمه ودمه ، وبتفكيره وعقليته.

ماذا يسمع الإنسان في ربوع الهند وباكستان ، وإيران ، أيَّ صوتٍ يسمع هنا؟ الصوت الرخيم المدوي في الآفاق ، أول صوت يسمعه حين تسكت جميع الأصوات ، وحين يسود الظلام المطبق ، وحين يحكم الصمت الرهيب ، هنالك يسمع الصوت الوحيد «الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أنَّ محمداً رسول الله ، أشهد أنَّ محمداً رسول الله» باللفظ العربي البليغ ، اللفظ العربي الذي سمعناه الآن في أذان العشاء في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام.

هذه الرسالة التي بعث الله بها نبيه ، واختار لها هذه الأمَّة الكريمة ، من كان يستطيع أن يتكهَّن مهما أوتي من الألمعية ، ومن الفراسة ، وبعد النظر ، إنَّ هذا الصوت يسمع في وقت قريب في أقاصي الشرق ، وفي أقاصي الغرب.

إنكم تعودتم أن تسمعوا هذا الأذان في ربوع المدينة ، فاستهنتم بقيمة

صوت تسمعونه خمس مرات ، يرتفع في هذه الأجواء الممتزجة بالإسلام ، فلا تستغربونه ، ولا تحسبون له حساباً ، ولكن افرضوا وتصوروا أيها الإخوان! أنَّكم في أقاصي الهند ، وحولكم أوثان ، وأصنام؛ حولكم معابد ، وهياكل ، حولكم كلُّ شيءٍ يدلُّ على أن هذا المجتمع لم يعرف خالقه؛ وليس له صلة بخالق هذا الكون ، وإذا عرفه لم يعرفه إلا عن طريق الوثنية ، وعن طريق الخرافة ، تنامون نوماً هادئاً لا عهد لكم بشيءٍ ، فلا تستيقظون إلا على هذا الصوت ، أيُّ قريةٍ من قرى الهند ، أيُّ قرية منعزلة مفصولة تعيش في عزلة عن العالم لا يسمع فيها إنسان زائر من هذه البلاد العريقة في الإسلام إلا هذا الصوت الجميل ، هذا الصوت الذي أَذِن الله أن يرفع ، ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ [النور: ٣٦] إنه لا يسمع ناقوساً ، ولا يسمع أصوات الباعة ، إنَّه لا يسمع شيئاً إلا هذا الأذان.

ثم يجد هناك على مرِّ العصور ، وعلى قسوة العوامل التي اشتغلت هذه المدَّة الطويلة في فصل الإنسان عن هذه المنابع الكريمة ، منابع الإيمان؛ يجد آلافاً من الذين يحفظون القرآن الكريم ، ويستطيعون أن يقرؤوه كما نزل ، غضّاً طرياً ، وأيام رمضان ليست ببعيدة ، فسترون كلَّ مسجد في حي من أحياء كلِّ مدينةٍ ، أو قرية عامراً بالمصلِّين ، يختم فيه القرآن ، إنَّه لمسجد مهجور ، إنه مسجد يرثي له أهله ، ويستحي منه أهل بلده لا يختم فيه القرآن ، إذا أردتم أن تعرفوا عدد الحفاظ الذين يقرؤون القرآن بظهر القلب فإنَّ عددهم يبلغ إلى آلافٍ ، وآلافٍ بتجويدٍ ، وبكلِّ دقَّةٍ.

ثم هناك مدارس دينية تعنى بلغة القرآن ، وبعلوم القرآن ، وعلوم الدين ، هذه مظاهر حياة قد مضت عليها أحقابٌ طويلةٌ ، وقسا عليها الزمان ، وتآمرت عليها العوامل المدمِّرة المخرِّبة التي كانت كفيلةً بالقضاء عليها ولكن لا تزال هذه المظاهر موجودةً في كلِّ بلدٍ إسلامي.

ثم هناك تجدون قوة العاطفة الإسلامية ، وقوة العقيدة الإسلامية ، وكيف ملكت القلوب والعقول ، وكيف دخل حبُّ النبيِّ العربيِّ في أعماق النفوس ، وكيف ترون هناك شباباً قد استهواهم الشباب ، وقد فتنتهم

زخارف الدنيا ، وأفسدتهم التربية العصرية ، واستحوذت عليهم المادة ، ولكن إذا سمعوا هذا الاسم الحبيب ترونهم يكادون يفقدون رشدهم ، إنَّهم يتهالكون في سبيل الحفاظ على شرفه ، وفي سبيل الدفاع عنه ، وقد كان مـن الحقائق المقررة التي سجلها التاريـخ في الهند: أنَّه ما أُفلِت أحدٌ في شبه القارة الهندية إذا تناول شخصية النبي الكريم بإهانةٍ ، أو إساءةٍ ، لم يفلت من عقوبة ينالها من المسلمين ، إنَّه لم يسلم من هؤلاء أحدٌ ، ولم ينج بحياته ، هذا ما سجلته دواوين الحكومة الإنكليزية.

وليس في الهند وباكستان اللذين كثر حديثي عنهما ، بل في كلِّ بلد إسلامي ، هذه تركيا قد اجتمع فيها زعماء من أقوى الزعماء الذين أوجدهم الشرق ، لو وجد مثل هؤلاء الزعماء العصاميين الذين قويت إرادتهم ، والذين اجتمعت في شخصيتهم أقوى عناصر الزعامة ، لو وجد هؤلاء الزعماء في أيِّ بلدٍ من بلاد العالم لقضي على الإسلام والعقيدة في ذلك الشعب ، ولخبا مصباح تلك العقيدة ، ولكن بفضل قوة العقيدة استطاع الشعب التركي أن يحافظ على عقيدته ، وأن يخرج من هذه المعركة ظافراً منتصراً لم يلحقه غبار.

إنَّ هنالك مقياساً آخر ، هو مقياس انتشار الثقافة ، وانتشار اللغة ، وهذا مقياس عزيزٌ لدى الشعوب ، وقد يرضى شعبٌ بأن يتخلَّى عن إمبراطورية عظيمة ، ولا يرضى أن يتخلَّى عن تأثير ثقافته ، ولغته ، وحضارته في بلاد قد حكمها مدَّةً طويلة ، خذوا الإنكليز مثلاً ، هؤلاء الإنكليز فضَّلوا أن يتخلَّوا عن الهند ، الدرَّة الفريدة في تاج إمبراطور بريطانيا ، لقد رضي الإنكليز أن يتخلَّوا عن هذه الإمبراطورية مادِّياً ، وجغرافياً ، لأجل بقاء حضارتهم ، وثقافتهم ، ولغتهم ، ومدنيتهم ، ففضَّلوا بقاء الحضارة ، وبقاء الصلات الطيبة بين هذا الشعب وبين الشعب الإنكليزي على حكمهم في هذه البلاد ، هذه اللغة الإنكليزية لا تزال هي اللغة الزعيمة؛ التي تحتلُّ المكان الأول في المجتمع الهندي ، وفي الصحافة ، والإذاعة ، وفي المجالس التشريعية ، وفي الجامعات ، هذه سلوى يتسلَّى بها كلُّ إنكليزي ،

وله كلُّ حقٍّ أن يتسلَّى بذلك ، فبقاء هذه الثقافة ، وهذه اللغة ، انتصارٌ كبيرٌ يتباهى به كلُّ شعب .

قيسوا مقدار انتصاركم الذي حققتموه أيها العرب! في الحقبة التي كان الإسلام يسود فيها في بلاد العجم ، وكانت له الكلمة العليا ، وكان القرآن يتلى ، والعلوم الدينية تدرس في بيوتها ، ومدارسها ، وفي مساجدها ، هل تعرفون مقدار الانتصار الذي أكرمكم الله به ، وحقَّقتموه عن طريق الدعوة الإسلامية؟

إنني أشك أيها الإخوان في أنكم تقدِّرون هذا الانتصار تقديراً صحيحاً. إنَّ هذه الشعوب العجمية قد احتضنت لغتكم ، وثقافتكم ، وضمتها إلى صدرها ، وفضَّلتها على ثقافاتها ، وعلى لغاتها التي توارثتها من آلاف السنين ، وتخلَّت عن لغتها ، هذه البلاد قد أحبَّت اللغة العربية ، واعتنقها ، وأحلتها من نفوسها وقلوبها مكاناً لم تشغله لغاتها القديمة ، ونبغ فيها عبقريون ، نبغ فيها أئمة مجتهدون ، نبغ فيها صيارفة كلام العرب ، لا أتحدَّث عن عدد المحدِّثين ، ولا أتحدَّث عن إنتاجهم في فنِّ الحديث ، فإنَّ هذه ضريبة العلوم الدينية عليهم ، كانوا يؤدُّونها عن طيبة نفس ، لا أتحدَّث عن العلوم الدينية ، ولا عن عدد المفسرين ، وعن عدد الفقهاء فلأنَّهم بحكم إسلامهم كان يجب عليهم أن يدرسوا العلوم الدينية ، كما تدرسونها أنتم ، وألا يكونوا أقلَّ نصيباً في هذه العلوم الدينية منكم ، لكنَّني أحدثكم عن اللغة العربية ، عن خدمتهم للمعاجم العربية ، عن انقطاعهم إلى دراسة اللغة العربية الفصحى ، عن تحقيق غريبها ، وجمع شواردها ، وتدوين معاجمها ، فهنالك مآثر لغوية تتجمَّل بها المكتبة الإسلامية العامَّة ، فضلاً عن المكتبة الهندية ، هنالك معاجم ألفت في إيران ، ألفت في شبه القارة الهندية ، وهي تعتبر في طليعة المعاجم العربية ، ومصدراً للمعاجم العربية التي تبعتها.

ما الذي دفع هذا الرجل العجمي الذي قضى حياته في بلاد الهند كالعلامة الشيخ حسن بن محمد الصغاني اللاهوري (م ٦٥٠ هـ) إلى أن

يؤلف كتابه العظيم العباب الزاخر في اللغة ، إنني لا أستغرب أنَّه ألف كتابه مشارق الأنوار في الحديث ، ولكنني أستغرب أن يؤلف معجماً كبيراً في اللغة العربية.

وكتاب «تاج العروس شرح القاموس»[1] من ألفه؟ ألفه رجلٌ هندي صميم من ذؤابة أسرةٍ هنديةٍ قديمة تنتمي إلى بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، إنَّه العلامة السيد مرتضى الزبيدي (م ١٢٠٥ هـ) غلب عليه لقب الزَّبيدي لطول إقامته في زبيد اليمن ، إنما هو البلكرامي ، وبلكرام تقع في الولاية الغربية قريب من بلدي.

أنشدكم بالله! إذا لم تكن هناك قوة العاطفة الإسلامية وقدسية اللغة العربية التي حلَّت في قرارة النفوس ، أيُّ دافع ، وأيُّ طمعٍ في المال والمادَّة كان يدفع مثل هذا الرجل إلى تأليف مأثرته العظيمة ؟!

هل يوجد لذلك نظير في تاريخ الثقافة الإنكليزية المنتشرة في الهند ، لقد حكم الإنكليز في الهند أكثر من قرن ، ونشأت تحت حكمهم أجيال ، وتعلم في جامعاتهم أذكى شباب الهند ، وتخرج فيها ألوف الآلاف ، فهل وجد محقق لغوي ألف معجماً يعترف به أدباء الإنكليز ، أو صاحب أسلوب خاص يعرف به ، أو مؤرخٌ كبير ، أو مؤلفٌ نال إعجاب الإنكليز؟ إنني سألت في الهند ، وسألت في إنجلترا: هل يعترف أدباء الإنكليز بأديبٍ مسلمٍ هندي ، أو بأديب هندوسي ؟ قالوا: لا يعترفون إلا ببضعة أشخاص وفي نطاق محدود ، هل استطاع الذين تعمَّقوا في الدراسة اللغوية في كيمبرج ، وأكسفورد ، وفي جامعات الهند الكبيرة أن يخرِّجوا للعالم أديباً يفتن به الإنكليز ، ولماذا لم تستطع اللغة الإنكليزية مع أنها لغة عصرية يتكلَّم بها ملايين من البشر ، والآداب الإنكليزية التي تدرس في جامعاتٍ كثيرةٍ أن تخرِّج نوابغ وعبقريين فيها في الهند ؟! ولماذا لم يتيسر للشعوب المحكومة للإنكليز أن تنجب رجالاً يزاحمون الإنكليز في هذه الآداب ، مع

(١) كتاب تاج العروس شرح القاموس في عشرة مجلدات كبار ، وفي خمسة آلاف صفحة.

كثرة الـدوافع بأسباب التشجيع؟! وتيسر ذلـك لعلماء الهنـد في العلـوم العربية، وآدابها في ظل حكومات غير عربية؟ هذا لأن صلة الشعوب المحكومة باللغة الإنكليزية ، صلة مادِّيةٌ سياسيةٌ ، أو اقتصاديةٌ مجردةٌ عن كلِّ عقيدةٍ وعاطفةٍ ، أمَّا صلة المسلمين باللغة العربية فهي صلة روحيةٌ ، دينيةٌ ، عاطفيةٌ ، وجدانيةٌ ، وشتان بين الصلتين!!

أسألكم بالله! ما الذي دفع السيد مرتضى البلكرامي إلى تأليف شرح القاموس؟ هل القاموس كتاب مقدَّس؟ هل القاموس صحيح البخاري؟ هل القاموس كتاب فقه؟ لا ، إنما هو كتاب يخدم اللغة العربية التي نزل فيها القرآن ، لولا هذه الصلة الكريمة ، لولا هذه الصلة الحبيبة ، هذه الصلة التي يحرص عليها الهندي والإيراني ، وكل عجمي؛ لما توفر هذا الرجل العظيم ، هذا العبقري على دراسة هذه اللغة ، والتعمُّق فيها ، والنزول في أحشائها ، إلى أن يستطيع أن يتبع هذا الكتاب العظيم أيها الإخوان! إنها معجزة الإسلام ، أيها القوميون هاتوا معجزة تساوي هذه المعجزة الخالدة!

هل أزيدكم أيها الإخوان استغراباً وإعجاباً؟! هل أزيدكم الشواهد والدلائل على إعجاز هذا الدين؟ ما هي أكبر المصادر في شرح المصطلحات الفنية العربية ، إنَّ هناك كتابين لا ثالث لهما بهذه المكانة العلمية ، اسألوا أهل الاختصاص في هذا الفن ، لم يؤلف في التاريخ الإسلامي الطويل كتاب أحسن في شرح المصطلحات العلمية من كتاب «كشَّاف اصطلاحات الفنون» للشيخ محمد علي التهانوي من رجال القرن الثاني عشر ، وكتاب «دستور العلماء» للشيخ عبد النبي الأحمد نكري ، وكلُّ كتاب من هذين الكتابين ، إنما ألف في الهند ، يؤلفان في بيئة لا يتكلَّم بها أحد بالعربية ، ولكنَّها معجزة الإسلام ، نعم ولكنها نتيجة هذه الصلة العزيزة ، هذه الصلة الروحية العميقة التي تقوم بين اللغة وبين هذا الرجل ، وبين شعب هذا الرجل ، وبين عواطف ومشاعر هذا الرجل ، وهذه قطرةٌ من بحر.

أيها الإخوان! إذا حدثتكم عن إنتاج علماء القارة الهندية في حقل اللغة العربية ، في حقل الثقافة الإسلامية ، في حقل العلوم التي نبعت ، وانبثقت

من القرآن ، كالصَّرف ، والنحو ، وعلوم البلاغة؛ وأيُّ صلةٍ للعجم بعلمي الصرف ، والنحو ، وبالعروض العربي ، والبديع ، والمعاني ، والبيان ، وبعلوم البلاغة؟ أيُّ صلةٍ بينهم ، وبين هذه العلوم؟ إنَّهم في زحمةٍ من علومهم، ومن الفنون التي قد تفنن فيها آباؤهم ، وبلغوا الذروة العليا فيها ، وقد كانوا في شغل شاغل عن الاعتناء بهذه العلوم العربية ، لعلكم لا تصدقونني ، إذا قلت لكم: إنَّ رجلاً قد رأيته بعيني ، ومات قريباً في سنة ١٣٦٦ هـ اسمه الشيخ محمود حسن التونكي ، هو شقيق أستاذي[١] الذي قرأت عليه علم الحديث ، هذا ألَّف كتاباً اسمه «معجم المصنفين» قد ذكر فيه كل من وصل إليه علمه ممن أثر عنه تأليف في العلوم العربية ، أو في العلوم الإسلامية هذا كتاب يقع في ستين مجلداً ، اشتمل على عشرين ألفاً من الصفحات ، وفيه تراجم أربعين ألف شخص ، قد طبع من هذا الكتاب أربعة أجزاء في بيروت على نفقة حكومة حيدر آباد.

أيُّ معجزةٍ أعظم من هذه المعجزة في هذا العصر ، هاتوا أيها القوميون دليلاً واحداً على إخراج هذه القومية العربية آيةً يؤمن بها أيُّ شاهد على نجاحها في حقل نشر اللغة العربية التي يتبجحون بها كثيراً ، والتي يستغلُّون اسمها كثيراً ، هذه معجزات الإسلام ، فأين معجزات القومية العربية؟

والنظرة العجلى على كتاب والدي مولانا عبد الحي الحسني رحمه الله «الثقافة الإسلامية في الهند» هذا الكتاب طبعه مجمع اللغة العربية في دمشق تكفي لمعرفة ضخامة إنتاج علماء شبه القارة الهندية في حقل الثقافة الإسلامية ، وفي كلِّ فن من الفنون العربية مئاتٌ من المؤلفات ، من الذي دفعهم إلى هذا الإنتاج الضخم ، لا حكومة كانت تكافىء ، ولا مجتمع يعترف بفضلهم ، ولا جائزةً تقدَّم ، ولا تشجيع ينالونه ، لا شيء ، إنما هو في سبيل الإسلام ، في سبيل خدمة العقيدة الإسلامية ، في سبيل خدمة تلك اللغة التي أحبوها ، وأحلّوها في حبات قلوبهم ، وسويداء نفوسهم ، أحبُّوها أكثر من لغتهم ، لأنَّها لغة رسولهم ، لأنَّها لغة كتابهم الذي أخرجهم

---

(١) هو العلامة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطُّونكي.

من الظلمات إلى النور؛ الذي أخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام؛ الذي أخرجهم من حكم الناس للناس ، ومن استعباد الناس للناس إلى حكم الله وحده.

هذه معجزات الإسلام الخالدة ، وإذا زرتم هذه البلاد ترونها متمسكةً بأهداب اللغة العربية ، عاضَّةً عليها بالنواجذ ، وكلُّ شيءٍ يزهدهم فيها. إنَّ كلَّ عاملٍ من العوامل السياسية والثقافية والاقتصادية ، والاجتماعية كلُّها يغري بزهدهم وانصرافهم عنها؛ ولكن قوة الإسلام هي التي تربطهم بهذه الفنون.

وأتحدَّث الآن عن الناحية التي أخَّرتها ، ناحية الإمبراطورية ، هل تعرفون الإمبراطورية التي حكمها العرب بفضل الدَّعوة الإسلامية ، فلولا الدَّعوة الإسلامية لما كانت لهم كلمة مسموعة ، ولا راية مرفوعة ، ولما خرجوا من هذا السجن الضيق الذي عاشوا فيه قروناً لولا دعوة الإسلام ، ولولا تفانيهم في سبيل الإسلام ، ولولا حرصهم على إسعاد البشرية؛ لما خرجوا من هذا القفص المظلم الذي كانوا يعيشون فيه ، لا شرف ، ولا قوة ، ولا رزق ، ولا علم ، ولا ثقافة ، لا طموح ، ولا استشراف؛ فلما خرجوا من هذا القفص ، لا أقول القفص الذهبي الذي كان يعيش فيه الفرس والرومان ، لا ، هذا القفص الحديدي المظلم الضيق ، لما خرجوا يحملون الدَّعوة الإسلامية ، هل تعرفون ما هي المساحة التي فتحوها في نصف قرن ، وما هي المساحة التي كانوا يحكمونها أيام حكمهم في العهد الأموي ، وفي العهد العباسي؟ هل تصدقون إذا قلت لكم شهادة المؤرخين الغربيين: أنَّ الإمبراطورية الأموية الإسلامية العربية التي كان يحكمها الوليد بن عبد الملك ، ما كان يمكن لأحد أن يقطعها على أسرع جملٍ في أقل من خمسة أشهر.

وهل تحفظون هذه الكلمة التاريخية الخالدة المجلجلة الغريبة التي انطلقت من شفتي ملك من ملوك العرب المسلمين الخليفة هارون الرشيد ، ماذا قال لما رأى قطعةً من السحاب «تمرُّ مرَّ السحاب» هل تذكرون ماذا قال

لها: «**أمطري حيث شئت، فسيأتيني خراجك**» إلى هنا بلغت الإمبراطورية العربية الإسلامية التي قامت على أساس الدعوة الإسلامية: «أمطري حيث شئت، فسيأتيني خراجك» انظروا إلى هذه القطعة من السحاب، هذه القطعة المتجوِّلة الحرَّة التي تطير في الفضاء لا تستطيع أن تتجاوز حدود مملكته؛ من استطاع أن يقول مثل هذه الكلمة من الملوك السابقين؟

ولماذا لا يستطيع زعماؤنا القوميون أن يؤسسوا هذه الإمبراطورية؟ اتركوا حديث الإمبراطورية، هذا حديث ماضٍ وأسطورةٌ من أساطير الأولين، هل استطاع الزعماء القوميون أن يحلُّوا مشكلةً من مشكلاتهم؟ هل استطاعوا أن يحلُّوا مشكلة فلسطين؟ هل استطاعوا أن يستردُّوا هذه الدرة المغصوبة التي ضيعوها بالأمس القريب؟ ماذا أنتجت القومية العربية؟ أين هذه الدعاوي العريضة الطويلة؟ هؤلاء الأجلاف من العرب، «لا تؤاخذوني» هؤلاء البدو، الأميون، استطاعوا أن يؤسسوا هذه الإمبراطورية التي خفقت أعلامها في مشارق الأرض، ومغاربها.

وماذا حققنا من الانتصارات الباهرة في هذا العصر الذي ظهرت فيه القومية العربية، والذي اقتصر فيه العرب على نفوسهم، وعلى مسائلهم، وعلى قضاياهم، وعلى مشكلاتهم؟

ماذا فعلوا؟

أولاً: خسروا مركز القيادة العالمية، كانوا يفكرون التفكير العالمي، كانوا يفكرون في مصير الإنسانية، كان يهمُّهم أبعد رجلٍ في العالم؛ تنادي امرأة في أقصى الهند، وهي تقول: (واحجاجاه) وكان الحجاج يعتبر نفسه مسؤولاً عن عرض هذه المرأة، وتنادي مرَّة أخرى امرأة في عمورية[1] في أقصى الشمال الغربي، وهي تقول: وامعتصماه! والمعتصم يعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله عن هذه المرأة الضائعة المهددة، وكانت العاقبة، انطوينا على أنفسنا، انطوينا على قضايانا، وانحسرنا في برك صغيرة كالأسماك،

---

(١) ولاية بيزنطينية في الأناضول.

والضفادع ، لا تؤاخذوني أيها الإخوان! إنني صريح ، إنني قاسٍ ، إنكم كنتم سيد الغابة ، كنتم سيدَ البحار ، كنتم سيد البراري ، كنتم تفكرون في مصير الإنسانية كلِّها ، رجل يناشدكم الله ، ويناشدكم الإسلام ، فتسرعون إلى نجدته ، ماذا أعطانا هؤلاء الزعماء؟ هؤلاء الأسياد الذين أشبعونا كلاماً ودعاوى ، ماذا كان تأثيرهم في حياة العرب ، وفي حياة البلاد التي يحكمونها؟ أطفؤوا هذه الجمرة الإيمانية ، جففوا الينابيع الإيمانية التي كانت كفيلة بكل انتصار ، وجففوا هذه المنابع ، سلطوا عليها عناصر خارجية ، وعناصر داخلية ، سلطوا عليها الصحافة الماجنة ، سلطوا عليها هذا الأدب الداعر ، سلطوا عليها هذه الإذاعات الرقيعة ، سلَّطوا عليها هذه الروايات الخليعة ، سلطوا عليها السكارى الماجنين؛ الذين عبثوا بهذه المنابع التي فجَّرها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفجَّرها الإيمان ، التي فجرتها التربية الإسلامية ، بمَ رجعوا؟ رجعوا بخفي حنين!

ثم ماذا كان ؟ توزع العرب في معسكرات معارضةٍ ، متباغضةٍ ، متنافسةٍ ، كان الإيمان يجمعهم ، انحلَّت عقدة الإيمان ، انتشرت المعسكرات ، انتشرت الألوية والرايات ، زعامة ضدُّ زعامة ، وقيادةٌ ضدُّ قيادة ، وسيادةٌ ضدُّ سيادة ، ثم ضاعت الجهود ، الجهود الجبَّارة التي كانت تستطيع أن تصنع معجزةً ، هذه الجهود ضاعت في المؤامرات ، في قلب نظام الحكومة.

ثم ماذا استفدنا من الاشتراكية؟ إنَّ هذه البلاد التي «سعدت» بهذه الاشتراكية أصبحت كشجرةٍ جرداء في الخريف ، تجرَّدت من كلِّ ورق ، تجرَّدت من كلِّ ثمر ، تجرَّدت من كلِّ صلاحية النماء ، لا خبز ، ولا ثياب ، ولا كرامة ، ولا شرف ، ولا عقيدة ، ولا مبدأ ، ولا حرية الرأي ، ولا حرية الصحافة ، فلنقارن ماذا ربحنا ، وماذا خسرنا؟

سلوا هذه البلاد ، أين الرجال النوابغ الذين أنجبتهم هذه البلاد في الماضي القريب؟ أين العلماء الكبار؟ أين الكتاب؟ أين المفكرون؟ أين السياسيون النابغون؟ أين القادة المحنَّكون؟ أين رجال الحرب ، تجرَّدت

هذه البلاد تجرُّداً كاملاً عن هذه العناصر الطيبة.

هل استطعنا أن نستردَّ ما فقدناه من صميم بلادنا، من قطع نفوسنا؟ أسَّسنا حكومات قوية ثابتة مستقرة، هل استقرت الأوضاع، هل سار الهدوء والسَّلام؟ هل اطمأنَّ الناس؟ هل انتشر الرخاء؟ هل تمتع الناس بالحرية؟ هل وثق الناس بعضهم ببعض؟ هل انتقلت من جحيم إلى نعيم؟.

إنَّني أطلت معكم أيها الإخوان! إنَّني أشعر بأني قسوت، وإنما قسوت معكم لإرضاء ضميري، ولأؤدي شهادةً في عنقي، فإنني لا أحتاج إلى اعتذار.

إنَّ قيمة كلمتي أيها الإخوان! إذا كانت لها قيمة، ليست القيمة الأدبية، وليست القيمة الخطابية، فإنَّها الصراحة، فإنَّها الصدق. إنَّها الثقة بأن أؤدي الشهادة، وإني أبلغ الأمانة، وإنكم لما طبعكم الله عليه من السماحة، وكبر الهمة والنفوس، ومن الاحتمال الكريم، إنكم تستمعون لكلمتي الصريحة بكلِّ سماحةٍ، واحتمالٍ، وصبرٍ، وإنني أشكركم على ذلك، أرجو أني قد قمت ببعض واجبي، وإنني أرجو أن يغفر الله تقصيري، وأن يسامحني فيما قلت، وأن ينفعني وينفعكم جميعاً بهذه الكلمة التي ما دفع إليها إلا الإخلاص وحبُّ هذا الدين؛ الذي ارتبط مصيره بكم، وارتبط مصيركم به أكثر مما ارتبط مصيره بكم.

إنَّ وراء البحار شعوباً قد ربطت مصيرها بالإسلام، واستعدَّت لأداء قيمتها الباهظة، قيمة هذا العزم. لو اندمجوا في القوميات المحلية، لو تفانوا، وذابوا في هذه البوتقة الهندية، المجوسية، النصرانية، في البيئات التي يعيشون فيها من قرون؛ لاستطاعوا أن يعيشوا هناك أحراراً مكرمين، لا يتعرضون لأيِّ خطرٍ، وأيِّ تهديد، ولكن كلُّ هذه العقوبات التي تنزل بهم، وكلُّ هذه الغرامات التي تفرض عليهم إنَّما في سبيل الانتماء إلى الإسلام، في سبيل الانتساب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي سبيل عطفهم على القضايا الإسلامية.

* * *

دورُ الإسلام في تقدُّم البلاد التي دخلها ، ودورُ المسلمين في التعريف بالأقطار التي عمروها ، وحَكموها[(١)]

إذا صَحَّ أنَّ الوطن المألوف بمنزلة الأم ، لها حقٌّ لا يُضاع ، وإليها حنين لا يُنكر ، فقد سجَّل تاريخ العلم والأدب والكتابة والتأليف أمثلةً رائعةً ، وآياتٍ باهرةً من هذا الوفاء الكريم والبر السامي النزيه لأبناء البلاد البررة لأمتهم الحنون التي ولدتهم وأرضعتهم ، والتي قضوا في أحضانها أطيب أيام حياتهم وأصفاها ، وعاشوا فيها ، ودفن آباؤهم الذين يحبونهم ويجلُّونهم ، ولهم فيها آثار وذكريات ، وتغنَّى بها الشعراء قديماً وحديثاً ، فقال ابن الرومي :

ولي وطنٌ آليت أن لا أبيعه ... وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
وحبَّب أوطان الرجال إليهم ... مآربُ قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وقال الآخر :

بلادٌ بها نيطت علي تمائميَ ... وأول أرض مسَّ جسمي ترابها

---

(١) هذا المقال في الواقع مقدمة العلامة الندوي لكتاب والده العلامة عبد الحي الحسني (جنة المشرق ومطلع النور المشرق) . وقد نشر في مجلة (البعث الإسلامي) في عددها السابع ، والمجلد الخامس عشر ، عام ١٩٧١ م .

وقد كان المسلمون بفضل التعاليم الإنسانية الخلقية التي تلقوها في مدرسة الرسالة المحمدية من أوفى الأمم والشعوب للبلاد التي ولدتهم ، وأنشأتهم ، أو آوتهم ، واحتضنتهم ، ومن أبرِّ الأبناء لتلك الأمهات المعنوية ، ومن أحرص عباد الله على شكر النعمة ومعرفة الحق والفضل ، وأحرصهم على تسجيل الأخبار ، وتخليد الآثار ، وإثارة الدَّفائن وإيضاح المعالم ، والكشف عن المجاهل ، والبحث عن الحقيقة ، وتحرِّي الصدق ، والدقة ، والأمانة في الحكاية والرواية ، ساعدهم في ذلك ذوقهم التاريخي الذي يفهم منذ أول رحلتهم وفجر نشأتهم ، وطبيعة التحقيق التي اقترنت بحياتهم وأخلاقهم من عنوا بفن الحديث والرواية ، ودونوا علم الأصول في أسماء الرجال ، فكانوا رائد البحث العلمي ، وحامل فن التاريخ الأمين في كثير من البلاد التي وردوا فيها.

وإذا أراد الله ببلد خيراً ، وأراد أن يخرجه من الظلمات إلى النور؛ ومن الخفاء إلى الظهور؛ ومن حياة العزلة والخمول ، والقناعة بالنزر اليسير ، والانطواء على النفس إلى حياة الشهرة والاتصال ببقية الأسرة الإنسانية ، والعالم المترامي الواسع ، وركب الحياة السيَّار ، وأراد أن يسلِّط عليه أضواءً قويةً من العلم ، والتحقيق؛ ساق إليه المسلمين ، فاتخذوه وطناً ، وسكناً ، ومعاشاً ، ومدفناً ، ولم يعتبروه بقرةً حلوباً ، أو ناقةً ركوباً ، يحلبون ضرعها ، ويركبون ظهرها ، ويجزُّون صوفها ، ثم يتركونها هزيلةً أو منتوفةً شوهاء؛ ولا يعتبرون نفوسهم كالإسفنج يتشرَّب الثروة في مكان ، ويصبُّها في مكان[1] ، بل وهبوا هذه البلاد أفضل ما عندهم من عقيدةٍ ، ورسالةٍ ، وأخلاقٍ ، وسجايا ، ومقدرةٍ ، وكفاية ، وتنظيمٍ ، وإدارةٍ ، وأقبلوا عليها بالعقل النابغ ، والشعور الرقيق ، والذوق الرفيع ، والقلب الولوع ، واليد الحاذقة الصناع ، فنقلوها من طور البداوة إلى طور الحضارة ، ومن عهد الطفولة إلى عهد الشباب الغض ، وأمنت بعد خوف ،

(١) كما كان شأن الإنكليز في الهند ، وفرنسا في الجزائر والمغرب الأقصى ، وإيطاليا في طرابلس وبرقة.

واستقرّت بعد اضطراب ، وأخذت الأرض زخرفها ، وبلغت المدنية أوجها ، وتحوّلت الصحارى الموحشة والأراضي القاحلة إلى مدن زاخرة ، وأراضٍ خصبة ، وتحوّلت الغابات حدائق ذات بهجة ، وأثمرت البرية أشجاراً مثمرة مدنية ، ونشأت علوم لا علم بها للأولين ، وفنون وأساليب في الحضارة ، والحكم ، والفن لا عهد بها في الماضي ، وانتشرت التجارة ، وازدهرت الزراعة ، فكأنما ولدت هذه البلاد في العهد الإسلامي ميلاداً جديداً ، ولبست ثوباً قشيباً.

هذه قصة إسبانيا التي سمَّاها المسلمون بلاد الأندلس ، فلم يكن العالم يعرف عنها إلا الشيء القليل الذي لا يشرح الصدر ، ولا يبعث الآمال ، فلما دخلت هذه البلاد في ولاية العرب المسلمين وفي حضانة الإسلام بلفظٍ أصح ، انتقلت من الظلام إلى النور ، ولفظت الأرض خزائنها ، وصبَّت خيراتها ، فكانت أمنية الفاتحين ، وأغنية الشعراء والمتغزلين ، وموضوع المؤرخين والجغرافيين ، وكانت جنة الدنيا ، وسوق العلم ، ومثابة العلماء ، ومنتجع الشعراء ، وكانت ذات مدرسة في الفقه ، والشعر ، والأدب ، والفلسفة ، والفن المعماري ، وكانت فيها «مرسية ، وبلنسية ، وجيان ، وشاطبة» وقرطبة ، وإشبيلية ، وغرناطة ، وكانت فيها مدينة الزهراء ، وقصر الحمراء.

وهذه قصة مصر ، والشام ، والعراق ، وإيران ، وتركستان بعد الفتح الإسلامي؛ فكانت كماءٍ راكدٍ قد أسنَ؛ وكانت مطيةً للرومان والفرس ينعمون بثرواتها وحاصلاتها ، وبكدح عَمَلَتِها وفلاحيها ، ولم تكن هذه البلاد قبل فتح المسلمين ذات طابع خاص في المدنية ، والآداب ، والفن ، ولم ينبغ فيها علماء ، وشعراء ، وفقهاء ، ومشرعون ، وحقوقيون ، ومبدعون ، وعمالقة الفكر ، وعباقرة الفن ، دوَّى اسمهم في الآفاق ، وسارت بمصنفاتهم الآفاق ، وردَّد العالم صوتهم من أقصاه إلى أقصاه ، وسُمِعَ صدى أفكارهم وتحقيقاتهم في الشرق والغرب ، حتى جاء الإسلام فكانت البصرة ، والكوفة ، والموصل ، وبغداد في العراق ، ودمشق ، وحلب ، وحمص ، ونابلس ، والقدس الإسلامي ، وطرابلس ، وحماة

في الشام ، والفسطاط ، والقطائع ، والقاهرة ، وأسيوط ، والمنصورة في مصر ، وسمرقند ، وبخارى ، والشاس[1] وخوارزم في تركستان. والري ، وهمدان ، ونيسابور ، وشيراز ، وطوس وأصفهان في إيران[2] ظهر فيهم نوابغ لا يحصيهم إلا من أحصى حصى البطحاء ، ورمال الدَّهناء.

وهذه قصة شمال إفريقية من ليبيا إلى مراكش ، فلم تُعرف هذه البلاد إلا بالقسوة ، والفروسية ، وشدة الشكيمة ، واستعصاء أهلها على الفاتحين حتى ضرب بأهلها البربر المثل في الوحشية ، والنخوة ، وتشاغلها بالحروب الداخلية ، وشدَّة تمسكها بالعادات القديمة ، والتقاليد القبلية ، لا لغة راقية ، ولا حضارة رقيقة ، ولا دين معقول ، ولا مدينة مشهورة ، حتى جاء الإسلام ، فكانت فيها مدينة قيروان ، وفاس ، ومكناس ، ومراكش ، وباجة ، وسوسة ، وسرقسطة ، وبجاية ، وتلمسان ، وتونس ، أنجبت أفذاذاً في الحديث ، والتفسير ، والفقه ، والتصوف ، والشعر ، والأدب ، والنقد ، والتاريخ ، والفلسفة يطول استقصاؤهم ، وكانت فيها مدارس ، كجامع القرويين ، وجامع زيتونة ، تخرَّج فيها ، وعلَّم أئمة في العلوم ، والفنون ، وخلَّفوا آثاراً باقيةً ما دامت اللغة العربية والعلوم الإسلامية.

وهذه قصة الهند ، كانت تعيش في عزلة عن العالم ، يحجزها عن العالم المتمدن البحر في الجنوب والشرق وسلسلة الجبال من أكثر جبال العالم ارتفاعاً وطولاً في الشمال والغرب ، لا يتمثلها العالم المتمدن ولا يراها إلا في مرآة العقائد المتطرفة ، والأساطير الشائعة عن الرياضات المرهقة ، والزهد المتبتل ، وتعذيب الجسم ، والتغلب على مطالب النفس ، وقهرها ، والتمسك بفلسفة وحدة الوجود ، والبراعة في بعض العلوم

---

(١) وتسمَّى الآن: طاشقند.

(٢) وقد اقتصر العلاَّمة الندوي على قليل من أسماء المدن التي لمعت في التاريخ الإسلامي على سبيل المثال ، وإلا هي أكثر من أن تستقصى.

الـريـاضيـة ، والفلـك ، واتسـاع المسـاحـة ، وخصـب الأرض ووفـور الخيرات ، ولا تفتح نافذة ينظر منها العالم إلى هذه البلاد المطوية المغلقة إلا عن طريق بعض الفاتحين كالإسكندر المقدوني ، أو عن طريق بعض المحققين الباحثين كأبي الريحان البيروني[1] (م ـ ٤٤٠ هـ) قد وقفت مدنيتها على ما كانت عليه قبل آلاف السنين ، ولم تشتغل اليد الحاذقة في زيادة الثروة ، وتسهيل الحياة ، وترقيق المدنية ، وتوسيع الثقافة كما اشتغلت في بلاد مجاورة ، فبقيت على ما كانت عليه[2] من مدنيةٍ ، وفن ، وزراعة ، وأساليب للحياة ، حتى دخلها المسلمون فحملوا إليها أجمل ما عندهم من عقيدة توحيد ، ومساواة إنسانية ، وحقوق عامة لجميع الطبقات ، ومدنية رقَّت حواشيها ، وطالت ذيولها ، وثقافة شارك في توسيعها وتهذيبها نظريات عدة شعوب ، وتجارب عدة أمم ، وإدارة قد مارسوها وأتقنوها وميادين شتَّى ، فدخل معهم الهواء الطري النقي ، ولقاح الأفكار المتباينة ، والفن الذي نضج واختمر ، وتنظيم البلاد ، وسياسة الحكم التي طالت فيها؛ والتقت الفروسية التركية ، وقوة الإرادة المغولية ، والنخوة الأفغانية مع الشريعة الإسلامية السمحة ، والطموح العسكري الإداري الذي لا يخضع لصعوبة ، ولا يؤمن بخطر ، ومع طبيعة البلاد والشعوب التي اختلطوا بها الرقيقة الوادعة؛ التي تتدفق برسالة الحبِّ ، والرفق ، والغناء ، والطرب ، والشعر الرقيق ، والكرم الأصيل ، وحب التعمق في كل علم وفن ، التقى كل ذلك في إنشاء حضارةٍ جديدةٍ تستحقُّ أن تسمَّى «الحضارة الهندية الإسلامية» وفي تجربةٍ سياسيَّةٍ إداريَّةٍ تجدر بأن تسمى «الحكم التركي الإسلامي الهندي» أو «الحكم المغولي الإسلامي

---

(١) يرجع إلى كتابه (تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة في العقل أو مرذولة).

(٢) اقرأ صفة الهند وما كانت عليه من مدنية وإنتاج ، وصناعة ، وثمار ، وفواكه ، وأدوات مدنية ، ومرافق الحياة في آخر القرن العاشر الهجري بقلم السلطان باير التيموري الرسام المصور في كتابه الخالد (تزك بابري) أو اقرأ ترجمته بالعربية في كتاب العلاَّمة الندوي (المسلمون في الهند) ص ٢٦ ـ ٢٧ .

الهندي» فإذا تجلَّت هذه العبقرية الممزوجة المركبة في أساليب الحكم والإدارة والتنظيم؛ كانت عبقرية علاء الدين الخلجي (م ٧١٦ هـ) في قوانين التجارة والمعاملة والتسعير، ورخص المواد الغذائية، وصلاح أخلاق التُّجار وأهل الحرف.

٢) وإذا كانت عبقرية تجلَّت في الحبِّ والحنان، والأنغام، والألحان؛ كانت عبقرية الأمير التركي الهندي الأمير خسرو[١] أمير شعراء السند (م ٧٢٥ هـ) فظهرت في شعره الرقيق الرائق، الذي كاد يسيل رقَّةً وعذوبة، وكان يضرب على أوتار القلب، وظهرت في تفننه في أغراض الشعر، وضروبه، واقتداره على عدَّة لغات.

٣) وإذا كانت عبقريةٌ تجلَّت في الإنسانية السامية والأخلاق الفاضلة والحياة النافعة؛ كانت عبقرية الشيخ نظام الدين محمد الباموتي الدهلوي (م ٧٢٥ هـ) التي ظهرت في زهده، وشفقته على الخلق، وإيثارهم على النفس.

٤) وإذا تجلَّت هذه العبقرية في طيب القلب، وتأمين البلاد، وخدمة العباد؛ كانت عبقرية فيروز تغلق (م ٧٩٩ هـ) التي تجلت في الأمن المنقطع النظير؛ الذي لم تعرفه البلاد من قبل، وفي كثرة الأنهار وتنظيم الري، وتعايش أهل البلاد السلمي، وارتفاع المظالم، وقلة نسبة الجنايات.

٥) وكانت عبقرية شير شاه السوري (م ٩٥٢ هـ) في سنِّ القوانين، وضبط البلاد، وترفيه السكان، وتجلَّت في هذا الشارع الذي كان يبتدىء من ماء نيلاب في أقصى الشمال الغربي إلى ستار كازن في أقصى الشرق، وبناء الخانات وتهيئة أسباب الراحة والحفاوة للقوافل، والسابلة، وفي وضع دستور الحكم العام الحكيم، وتحقق كل ذلك في خمس سنوات.

٦) وإن تجلَّت هذه العبقرية في الجمع بين الفضائل العلمية، والعملية

---

(١) هو من أصل تركي صميم وخؤولته من الهند، ولد في (بتيالي) في الولاية الشمالية، وكان إماماً في الشعر والموسيقا، وله اختراعات واجتهادات فيهما.

وبين السيف والقلم والقدرة الأدبية الشعرية في لغات متنوعةٍ ؛ كانت عبقرية الأمير عبد الرحيم خانخانان (م ١٠٠٥ هـ) القائد العسكري الكبير ومن أركان الدولة المغولية الذي جمع بين قيادة الجيوش ، وصدارة الأدب والشعر ، وتربية الأدباء والشعراء ، ويعتبر من الشعراء المفلقين في اللغات : التركية ، والفارسية ، والهندية الوطنية[١] .

وإذا تجلَّت هذه العبقرية في الذوق الرقيق ، وحسن الاختيار ، وصفاء الحس ، ورقة الشعور ؛ كانت عبقرية جهانكير (م ١٠٣٧ هـ) في ترقية الثمار ، والفواكه ، وفي تلقيح الأشجار ، والتفنن في المأكل والمشرب .

وإذا تجلَّت هذه العبقرية المزدوجة المركبة الرقيقة المهذبة في الفن المعماري ، والهندسة ، والبناء ، والآثار الجميلة الخالدة ؛ تجلَّت في التاج محل ، الدرة الفريدة المعمارية وفي جامع شاهجهان في «دهلي» والقلعة الحمراء . وإذا تجلَّت هذه العبقرية في قوة الإرادة ، وقدرة الإدارة ، وقيادة الجيوش ، وإخضاع البلاد لحكم واحدٍ ، وقانونٍ واحد ، والإشراف عليها في وقتٍ واحد ؛ تجلَّت في عبقرية أورنك زيب في إخضاع جنوب الهند الذي تمرَّد على الفاتحين الأولين ، وبقي محافظاً على استقلاله وشخصيته أكثر الوقت ، وفي دينه ، وتقواه ، وأخذه بالعزائم ، وظهرت في تدوين «الفتاوى الهندية» وفي إحياء السنن النبوية وإزالة العادات والشعائر الجاهلية التي تمسك بها أجداده ، وعضُّوا عليها بالنواجذ . وإذا تجلت هذه العبقرية في ميدان العلم والفكر الإسلامي ، والغوص في مقاصد الشريعة وأسرار الكتاب والسنة ، وتمحيص الحق والباطل ، والخالص والزائف ؛ تجلَّت في معارف الشيخ شرف الدين يحيى المنيري (م ٧٨٦ هـ) وحمية الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م ١٠٣٤ هـ) وحكمة الشيخ ولي الله

---

(١) هو عبد الرحيم بن بيرم خان (أحد مؤسسي الدولة المغولية) من أصل تركي أصيل ، وأمه هندية ، ويعتبر من أئمة الشعر الهندي (غير الأردية) كان يتلقب فيه (برحيم) ويقرُّ بفضله أدباء الهنادك ، ويعدُّونه من شعرائهم المعدودين الذين نبغوا في المسلمين (اقرأ ترجمته الحافلة في نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر في الجزء الخامس) .

الدَّهلوي (م ١١٧٦ هـ) فكانت الهند عالماً مستقلاً لا بالمعنى القديم الذي كانت تعيش فيه قبل دخول الإسلام ، ولكن بالمعنى الجديد الذي وصلت إليه بعد الفتح الإسلامي من تفوق في أساليب الحكم ، وبراعة في كثير من العلوم الإسلامية ، وقيادة لعدة حركات إصلاحية ، وإبداع في كثيرٍ من فنون الحضارة والاجتماع.

فكانت في حاجة إلى استعراض تاريخي شامل دقيق ومقارنة أمينة بين الماضي والحاضر وما كان للهند من تراثٍ وبقايا ، وما حمل إليها المسلمون من طُـرَف وهدايا ، وكانت في حاجة إلى مؤرِّخ واسع الاطلاع ، دقيق الإحصاء ، واسع الصبر والأناة ، قد نقَّب في المكتبة الإسلامية ، وعاش فيها مدَّةً طويلة ، لا يرى اللذة إلا في إحياء مآثر السلف وإيتائهم ما يستحقون من الاعتراف والشكر.

وقد كان من سعادة الأندلس الإسلامية أن قيَّض لها مؤرخ وصَّاف ، وأديب رسَّام ، مثل محمد لسان الدين بن الخطيب من وزارة دولة غرناطة[1] فألف كتابه الفريد «الإحاطة في أخبار غرناطة» في ثلاثة أجزاء ، فكان موسوعةً صغيرة فيما يتصل بعاصمة العرب المسلمين الأخيرة في الأندلس «وقد طرق في هذا التاريخ باباً قلَّ من سبقه إليه من مؤرخي العرب ، وهو أنه افتتح الكتاب بقسم جغرافي خطَّط فيه ولاية غرناطة ، وما يتبعها من القرى والجنات ، وذكر فيه عوائد أهلها ومعائشهم ، وأزياءهم ، وجندهم ، وسلاحهم ، وكثيراً مما يتعلق بحالهم الاجتماعية بعهده[2].

وقد فاق هذا الأثر العلمي الخالد أثرٌ آخر لمؤلفٍ مغربي جاء بعده ، يجدر أن يتطاول به المغرب على بلاد الشرق الإسلامية ، وهو يحيط بالأندلس إحاطةً أكمل ، وأشمل ، وأوفى ، وأجمل وهو الكتاب الطائر الصيت «نفح الطيب لغصن الأندلس الرطيب» للعلامة أحمد المقري المغربي المالكي (م ١٠٤١ هـ) وهو دائرة معارف ، ومعجم مستقل في كل

---

(١) مات شهيداً (٧٠١ هـ).

(٢) العبارة مقتبسة من تقديم الكتاب للأستاذ رفيق العظم.

ما يتعلق بالأندلس ، مشحون بالتاريخ ، والأدب ، والشعر ، والمِلَح في أسلوبٍ أدبي وسجعٍ ، وفيه فوائد كثيرة ، ومادة غزيرة ، وعلم منثور ، ونوادر ، وحكايات تروج بأخبار غير الأندلسيين وما لا صلة له بالموضوع ، بأدنى مناسبة ، ولكنه لا يخلو من الفائدة؛ وإن كان ينقصه التنقيح ، والتأليف المرتب على النسق الجديد ـ والكتاب في أربعة أجزاء كبار؛ إلا أن الجزء الثالث والرابع في ترجمة لسان الدين بن الخطيب وحده ، وقد أولع به هواة الأدب ، والإنشاء البليغ ، والنثر الفني قديماً وحديثاً ، واعتنوا به اعتناءً كبيراً.

وكانت سعادة مصر من هذا الوصف والتصوير وتخليد الأثر ، وحفظ الأخبار أوفى وأوفر من كل قطر زها في العهد الإسلامي ، وذلك بفضل ابنها البار العلامة تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزي (م ٨٤٥ هـ) فقد ألَّف كتابه العظيم «كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» المشهور بخطط مصر (في جزءين كبيرين) وقد استقصى فيه الدقيق والجليل ، ولم يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها ، ذكر فيه المدن والمسالك ، والشوارع ، والحارات؛ والدروب ، والأزقَّة ، والخوخ ، والرحاب ، والدور والقصور ، والحمامات والمارستانات ، والقياسرة ، والخانات ، والفنادق ، والأسواق ، والقناطر ، والجسور ، والبرك ، والسجون ، والمساجد والمدارس ، والخانكاهات والربط ، والمشاهد والجواسق ، والمقابر والكنائس. وذكر الأعياد والمواسم ، والدواوين ، ورتب الأمراء ، والخزائن ، ورتبة الوزارة ، وهيئة خلعهم ، ومقدار جاريتهم ، وذكر فيه صلاة العيد وما يتعلق بها ، وذكر المناظر ، والمتنزهات ، والعوائد التي كانت بقصبة القاهرة ، والمكوس ، والصناعات ، والنظر في المظالم والجيوش والحجبة ، وأحكام السياسة ، ومذاهب أهل مصر ، ونحلهم ، ولكن الحديث أكثره منصرف إلى القاهرة ، ودائر حولها ، وما كانت عليه القاهرة المعزية في حياته من مدنيةٍ ، وعمارةٍ ، وعاداتٍ ، واجتماعٍ ، وطرازٍ للحياة ، وآثار باقية؛ وقد مضى على وفاة المؤلف أكثر من خمسة قرون

وما جاء بعده ـ على كثرة المؤلفين والمؤرخين في مصر ـ من يخلفه في تسجيل ما جدَّ وتغيَّر وفي وصل الحاضر بالغابر، وعلى كلٍّ فالكتاب مأثرة علمية تأليفية تتباهى بها مصر، وبرهانٌ ساطعٌ على وفاء علماء المسلمين ومؤلفيهم لأوطانهم وهمتهم السامية في التأليف، والتدوين، وتخليد الآثار.

أما الشام فقد صنف ابن عساكر (م ٥٧١ هـ) كتابه المشهور «تاريخ دمشق»[١] الذي هو بمكتبة أو بدائرة معارف أشبه منه بكتاب مفرد، وأكثره تراجم رجال. ثم وقعت فترة طويلة في صفة الشام وذكر أخباره، وآثاره، ومدنيته، وحضارته. وما حباه الله من جمال، وكمال، وسحرٍ، وشعر؛ وما طرأ عليه من تطورات، وحكومات، وعادات، وصناعات، وأوضاع، وتصوير ما عليه هذا البلد من حياة واجتماع؛ وحاصلات ومعايش، حتى قام أحد أبنائه الأوفياء وهو الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق سابقاً، فألف كتابه القيم «خطط الشام» فسد هذه الثغرة، وملأ هذا الفراغ، واستحقَّ شكر أبناء وطنه، وكلٍّ معجب بالشام، معترفٍ بفضله في تاريخ الإسلام.

وقد كانت للهند[٢] الإسلامية شخصية إسلامية ممتازة، ودور مستقل في توسيع الحضارة الإسلامية، وتجارب الحكم، ومجال العلوم الدينية إذ لم يكن لها دور في إنشائها، وتكوينها، كما قدمنا في السطور الماضية، وهي حلقة ذهبية في سلسلة الذهب التي يتحلَّى بها جيد الإسلام، ويتحلَّى بها تاريخ المسلمين، وقد نشطت حركة التأليف والتدوين منذ فجر الإسلام في هذه البلاد، ونبغ فيها مؤلفون ومؤرخون، يعدُّون بالمئات، ولكن جلُّ

---

(١) قال العماد عن أجزاء (تاريخ دمشق): وهو يحتوي على سبعمئة كراسة، كل كراسة عشرون ورقة، وقال: إنه في خمسمئة وسبعين جزءاً، والنسخة الجديدة في ثمانمئة جزء.

(٢) إذا أطلقنا كلمة الهند فإنما نعني بها شبه القارة الهندية والقطر الهندي كله قبل التقسيم.

مؤلفاتهم وآثارهم العلمية إما تدور حول البلاد وشخصيات الملوك ، وإما تدور حول الزوايا ، ومن كان فيها من الشيوخ الكبار ، وأكبر همِّهم تدوين أخبار الفتوح ، وأخبار الشجاعة والكرم ، وتسجيل الخوارق والكرامات ، والمجاهدات ، والرياضات ، والقليل النادر منها ما يتحدث عن العلماء والأدباء ، ويسجل أخبارهم ، وهذا القليل النادر يتجرَّد عن ذكر التفاصيل التي تتكون بها سيرهم الحقيقية ، وتتمثل بها صورتهم الواقعية . أما ما كانت عليه البلاد في مختلف العهود من حضارة ، ومدنية ، ورقيٍّ ، وتقدُّمٍ ، وما كانت عليه سياسة البلاد وأساليب الحكم والتنظيم الإداري ، وتحصيل المالية والجبايات ، وقيادة الجيوش ونظام الحروب ، وكيف كانت الحالة الاقتصادية ، وإلى أين وصلت مجابي البلاد ومواردها في حكومات مختلفة ، وعهودٍ مختلفة ، وكيف كانت طريقة الملوك الإسلاميين في القضاء والعدل ، وفصل الخصومات ، وما هي عاداتهم في الجلوس للناس ، والخروج في المدن ، والجولات في المملكة ، وما هي عاداتهم ، وسننهم في الأعياد والمواسم . وما هي الأيام التي كانوا يحتفلون بها ، وكيف كانوا يظهرون سرورهم في الأفراح ، وعطفهم على الرعية ، وما هي الرتب والمناصب الرئيسية في دور حكمهم ، وكيف كانوا يقلدونها أهلها ، وما هي جرايات أهل المناصب ومرتباتهم ، وما هي الحقوق والتكريمات التي كانوا يتمتعون بها ، ثم ما هي الأمور الخيرية التي وفق لها الملوك المسلمون في عهدهم الطويل ، وما هي المآثر والمبرَّات التي شادوها لترقية البلاد وترفية العباد ، وإطعام الجائع ، وإغاثة الملهوف ، وتأمين السبل ، وما هي سوابقهم ، وأولياتهم ، ومخترعاتهم في السياسة ، والحكم ، وتنظيم البلاد ، وتحصيل الخراج ، وترقية الزراعة ، والتجارة ، وما هو طرازهم الخاص في الفنّ المعماري ، وما هي التحسينات التي أدخلوها على المدنية ، إلى غير ذلك ممَّا تهمُّ معرفته . فقد صوَّرهم بعض المؤرخين المتحيزين إلى فئة خاضعين لأغراض سياسية ، أو طائفية ، ملوكاً جبارين ، غلاظاً شداداً ، قساةً جفاةً ، لا يحملون إلا السيف ، ولا يحسنون إلا صناعة الحرب ، ولا يعرفون إلا لغة الدم والدِّرهم ،

لا ذوق عندهم ، ولا ذكاء ، ولا أصالة في فنهم ، ولا اختراع .

وكان الذي يطالع مؤلفات مؤرخي الهند المسلمين ـ وجلُّها بالفارسية ـ لا يستطيع أن يقدم لهذا العهد صورةً مشرقةً ، أو يهتدي إلى مآثرهم في ضوء هذه الكتب ، فإمَّا يتجرَّد أكثرها عن هذه المواد تجرداً يمكن المؤرخين المتشائمين المغرضين من تأييد دعواهم ، وإمَّا يجدها القارىء مبعثرةً في هذه الكتب الكبيرة الضخمة ، مطمورةً تحت ركام أخبار الحروب والفتوح ، وقصص السطوة والقسوة ، والصلات السنية السخية ، والجوائز المدهشة للعقول ، وكان القارىء يشعر في أثناء قراءته بأنه يمشي في ليلٍ مظلمٍ ، لا ضوء فيه ولا هواء ، فلا يتبين من يمر به في هذه الرحلة ، ولا يرى الأزياء ، ولا يعرف النقود التي كانوا يتعاملون بها ، والقواعد التي يلتزمونها ، وأسس الحكم التي يسيرون عليها ، إلا بعض اللمعات البسيطة .

* * *

دولة الوثنية والخلاعة(١)!

في مدينةٍ من المدن الروميّة الكبرى ـ إذا شئت سميتها أفسس أو أفسوس ـ في فجر التاريخ المسيحي بلغت الماديّة ، وما يتبعها من الوثنية السَّافرة ، والأبيقورية الوقحةِ أوجها ، وزهوَّها ، وقد شهد التاريخ بأن الوثنية تقترن بها الخلاعة ، والشهوانية دائماً ، كأن بينهما عهداً وحلفاً ، كذلك كان في الهند القديمة ، كما دلَّت الآثار والحفريات وكذلك كان في يونان ومصر ، وجزيرة العرب في الجاهلية ، واستهترت الحكومة ورجالها في عبادة الأصنام ، وعبادة الشهوات ، وعبادة المادة والقوة ، وانطلقت موجةٌ عنيفةٌ من الوثنية والشهوانية ، جرفت كلَّ القيم الروحية والخلقية ، وأصبح المجتمع ـ في هذه العاصمة ـ مجتمعاً مادياً محضاً ، لا يدين إلا بالمظاهر والمحسوسات ، ولا يؤمن إلا باللذات العاجلة ، والمنافع الحاضرة ، واستولت الحكومة ـ بطبيعة الحال ـ على جميع وسائل المعيشة والرفاهية في حدود المملكة ، وأصبحت مصدر الرخاء والثراء والمجد والشرف ، وأصبح اتِّباعُ عقيدتها واتجاهها ، وتقليدُ رجالها القنطرةَ الوحيدة للوصول إلى الحكم والغنى ، والمجد والشرف ، والتف حولها «الانتهازيون» وأصحاب الطموح من كلِّ جانب ، وأصبح الناس طرازاً واحداً ، أو قطعةً واحدةً ، من عبّاد الشهوات ، وعشّاق المناصب والوظائف ، وهواة الإقطاعات والولايات .

وألحّت الحكومة ، وأسرفت في تطبيق عقيدتها ، وفرض اتجاهها على

(١) نشر هذا المقال في مجلة (البعث الإسلامي) في عددها الأول ، المجلد السادس عشر ، عام ١٩٧١ م .

أهل البلاد ، وتتبَّعت كلَّ من يخالفها في دين الوثنية ، واتجاه الإباحية ، والتمتُّع بالحياة ، فحرمته نعمة الحياة ، وسلبته حقوقه المدنية ، فأصبحت الحياة في هذه البلاد أسلوباً واحداً ، وصبغةً واحدةً من الخرافة والخلاعة ، لا يحتمل اختلافاً في اللون ، أو تنوعاً في العقيدة والأخلاق ، وأصبح الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم ، وأعمارهم ومدارك عقولهم نسخةً واحدةً من كتابٍ مطبوعٍ في مطبعة متقنة .

ثوار مؤمنون: في هذه الدولة الوثنية الجائرة ، وفي هذا المجتمع المتهتك الخليع ، وفي هذا المحيط الضيق المطبق ، وفي هذا الجوِّ القاتم الخانق ، وجد رهط من الناس تسرَّبت إليهم دعوة المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فصادفت منهم عقولاً واعيةً وقلوباً خاشعة ، وضمائر حيَّةً ، ففتحتها ، وملكتها ، وشغلت من نفوسهم كلَّ مكان ، ومن قلوبهم وتفكيرهم كلَّ جانب ، وأصبحت لهم إيماناً وعقيدةً ، ولذَّةً وقوَّةً ، وبداهةً ويقيناً ، فأصبحوا لا يعيشون بغيرها ، ولا يبيعونها بأكبر ثمن في العالم ، ولو كان هذا الثمن نفوسَهم وحياتهم .

ومن هنا بدأ الصراع ، بدأ ذلك في نفوسهم أولاً ، ثمَّ في الخارج ثانياً ، وكذلك الصراع يبدأ دائماً في النفوس ، لقد اتجهوا اتجاهاً معارضاً للحكومة والمجتمع ، فالحكومة وثنيةٌ ، لا تقبل إلا الوثنية ، والمجتمع خليعٌ لا يرضى إلا بالخلاعة ، ولا حياة ـ فضلاً عن الحكم والغنى ـ إلا بالحكومة والمجتمع ، إنَّ فلسفة الأسباب والمسببات وإنَّ دراسة المدنية والمجتمع ، وإنَّ واقع الحياة ، كلُّ ذلك يفرض عليهم أن يخضعوا للحكومة والمجتمع ، فلا شبع من غير طعام ، ولا طعام من غير مال؛ ولا مال إلا عند الحكومة ، ولا شرف ولا سمعة إلا بالجاه ، ولا جاه إلا بالوظيفة ، ولا وظيفة إلا عند الحكومة ، ولا هدوء ولا سلامة إلا بمسايرة الناس وموافقة المجتمع ، ولا موافقة إلا باتباع العقيدة السائدة والاتجاه العام! هذا هو المنطق الماديُّ يقوم على المشاهدة والتجربة ، وهذه طبيعة الأشياء .

ولكنَّهم يعارضون هذا المنطق «السليم» كما يسمِّيه أنصاره ، ويستوحون

إيمانهم وعقيدتهم ، فتجاوز نظرتهم النافذة المشهودَ الموجود ، ويتمثَّل أمامهم ما وراء هذا المشهود ، فيرون : أنَّ وراء هذه الأسباب التي استولت عليها الحكومات واستحوذ عليها المجتمع سبباً آخر ، وهو الإرادة الإلهية ؛ التي خلقت هذه الأسباب ، وهي التي تسيرها من وراء الستار ، فمن أيدته هذه الإرادة القاهرة ؛ لم تؤثر فيه هذه الأسباب ، وأربابها ، ولم يحتج إلى أصحابها ، وسخَّر الله له الأحوال ، والأوضاع ، وجعلها مطابقةً لحاله وحاجته ، وهيأ له من أمره رشداً ، ومرفقاً ، وآتاهُ من لدنه رحمةً ونعمةً ، فلا حاجة إلى الخضوع إلى الأسباب الظاهرة ، والاستكانة إلى أصحابه الضعفاء الفقراء ، ولا بدَّ من الثبات على العقيدة .

وهنا ينتصر الإيمان على التفكير المادي ، ويغلب المنطق الإيماني على المنطق البرهاني ، وذلك موضع الاعتبار في القصة ، ومفتاحها : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف : ١٣ ـ ١٥] .

حياة من غير عقيدة ، أو عقيدة من غير حياة : ولكن ما هو السبيل إلى البقاء على العقيدة ، وقد ضاقت الأرض على أهل الإيمان بما رَحُبَتْ ، وجعلت الحكومة البلاد عليهم كفة حابل ، وسدت في وجوههم أبواب الرزق والحياة ، فإمَّا حياة من غير عقيدة وخلق ، وإمَّا عقيدة من غير حياة وحرية .

وهنالك يسعفهم الإيمان ، وينير لهم الطريق ، ويقنعهم بأنَّ في أرض الله سعةً ، وفي نصرة الله ثقةً ، وأنَّهم ليسوا مضطرين ـ بعد ما تخلوا عن اللَّذات والمطامع ـ إلى البقاء في هذه القرية الظالم أهلها ، وجرى على لسانهم : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف : ١٦] .

منهج الصواب في حياة الانسحاب : لقد كان لهم أن يهيموا في أرض الله

على وجوههم ، ويمضي كلُّ واحد منهم لسبيله ، أو يأوي كلُّ فردٍ منهم إلى مغارة أرض ، أو قمة جبل ، كما فعل المسيحيون في عصر رهبنتهم وانحطاطهم ، ولكنَّ الله ألهمهم أن يخرجوا مجتمعين ، فارين بدينهم وعقيدتهم ، لاجئين إلى الله ، منتظرين منه الفرج القريب ، والنصر المبين. هذا هو منهج الصواب: والطريق الأقوم ، كلّما ضاقت على أهل الإيمان الأرض ، وانسدت في وجوههم الأبواب ، وأشرف إيمانهم ودينهم على خطرٍ وضياع.

جائزة الإيمان والفتوة والفرار إلى الله: ثم ماذا كان؟ لقد حققوا فيهم صفة الإيمان والفتوة ، وهما الصفتان الأساسيتان في دستور النصرة الإلهية ، والتأييد الربَّاني: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣] ، فحقق الله لهم جميع مواعيده: وعد الزيادة في الهداية ، ووعد التثبيت ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٤] وما أحوج المؤمن المهاجر ـ الثائر على مجتمعه وبيئته ، الثائر على القوة القاهرة ، والحكم المطلق ـ إلى الهداية والتثبيت ، وإلى أن يربط الله على قلبه الخفَّاق ، ونفسه المضطربة ، وقد أنجز الله وعده في هؤلاء الفتية الكرام ، فزادهم هدى ، وربط على قلوبهم ، وأخرج منها الجبن والخوف ، والحيرة والاضطراب ، وملأها شجاعةً وسكينةً ، وقوةً ويقيناً ، وفرحاً وسروراً ، ورضاً بالله وأفعاله ، وذلك زاد المهاجر في سبيل الله ، وسلاح المجاهد في سبيل الله ، الثائر على عصره ، المتمرد على بيئته.

ثم ماذا كان؟ لقد خرجوا من البلد ، تاركين المدنية وزخارفها وراءهم ، نابذين أسباب الحياة ، قد غادروا وطنهم العزيز ومساكنهم الكريمة ـ فالظاهر أنَّهم كانوا من بيوت رفيعةٍ ، ومحتدٍ كريم[1] ، فكان جزاء ذلك ،

---

(١) قال الآلوسي في تفسيره: إنهم كانوا شباباً من أبناء أشراف الروم وعظمائهم ، روح المعاني ج ٥ ص ١١. وقد مر نقلاً عن دائرة المعارف للأخلاق والديانات: (إنَّهم كانوا من أبناء البلاط ، وكانوا يسكنون في السرائي).

أن هداهم الله إلى كهف واسع ضحى[١] ، ولا تستطيع المنظمات الكبيرة أن تبني مثل هذه الكهوف ، والملاجىء الواسعة النظيفة الصحية ، فكان شأنه أن يستفيد من منافع الشمس ـ وهو النور والدفء ـ ويسلم من مضارها ، وهي الحرارة الزائدة ، ويدخله الهواء النقي فيضفي على أهله الحياة والنشاط : ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف : ١٧][٢] .

وهكذا انقطعت صلتهم عن المدنية الدنسة المتعفنة ، وعن أصحابها الغاشمين الفاسقين، واتصلت بأسباب الحياة البريئة، والعالم النقي الخارجي، فكانوا يعيشون في عزلةٍ عن العالم، متمتعين بخيراته ، ومنافعه ، وليس ذلك إلا جزاء الإيمان الراسخ ، والجهاد الصادق ، ومن تيسير الله وحده وهدايته ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ [الكهف : ١٧] .

لقد حاول الثائرون على نواميس الله وشرائعه وعلى الطبيعة ، وبذلوا جهدهم ومواهبهم ، وعلومهم وذكاءهم في الحصول على حياة رخية ، صافية هنيئة ، وسخَّروا لأنفسهم القوى الكونية ، وأخضعوا لهم أسباب الراحة والرخاء ، وهناء البال ، فحرموا النتيجة ، وثارت عليهم الحياة والطبيعة ، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وأصبحوا فريسة اكتشافاتهم ووسائلهم ، وفريسة الأمراض الطريفة والمشاكل الغريبة ، والحروب المدمرة ، ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] .

* * *

---

(١) في لسان العرب : (الكهف كالمغارة في الجبل إلا أنه أوسع منها ، فإذا صغر فهو غار) وفي الصحاح : (الكهف كالبيت المنقور في الجبل) .

(٢) في روح المعاني : إنَّهم كانوا لا تصيبهم الشمس أصلاً فتؤذيهم ، وهم في وسط الكهف بحيث ينالهم روح الهواء ، ولا يؤذيهم كرب الغار ، ولا حرُّ الشمس (ج ٥ ص ٢٠) وفي تفسير الرازي : أن باب الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال ، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله (ج ٥ ص ٤٦٦) .

محنة الإيمان بين الأمس واليوم[1]

(ملخص الخطاب الذي ألقاه في «بريتون» بتاريخ ٢٣ يونيه ١٩٦٩ م في جمع من الشباب المسلم والعاملين في حقل الدعوة).

إنكم تعرفون جميعاً أنَّ الله سبحانه وتعالى قال في كتابه الحكيم في مواضع كثيرةٍ: إنَّ حب الأنبياء والمرسلين لله جلَّ وعلا أشدُّ من حبِّ الآخرين لله ، وليس على وجه الأرض أحد يضارعهم في ذلك الحبِّ أو يدَّعيه لنفسه ، وقد مر الأنبياء والمرسلون بمحنٍ مختلفة ، وخرجوا منها من غير أن تضعف ثقتهم بالله وحبهم لله ، بل ازدادوا إيماناً إلى إيمانهم ، أمر الله واحداً منهم أن يدخل النار ، وما كان ذلك إلا لأنهم نادوا بالتوحيد ، ورفضوا الخضوع أمام أي سلطان قاهر! إننا نقرأ قصة إبراهيم عليه السلام ونمرُّ بالآية ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ، ولكننا لا نتأمل فيها كثيراً ، الحقُّ أن النار أصبحت برداً وسلاماً ، ولكن متى؟ بعد أن خاض إبراهيم عليه السلام النار ونسي كل شيءٍ غير الله جلَّ وعلا ، وذلك يدل على شيءٍ خطير ، وهو أن الله يُحَوِّلُ الجحيم جنة ، والنار برداً وسلاماً ، ولكن بعد أن يمتحن قلب عبده ، ويرى صدق نيته ، وصحة عزمه ، وحسن وفائه ، إنَّ النار التي كانت تلتهب في صدره وتضطرم ، إنَّ نار الحبِّ التي امتدت ألسنتها ، وتطايرت شرارتها تغلبت على هذه النار المادِّية المحدودة ، ولم تستطع هذه النار الحقيرة أن تقف في وجه حبِّ الله ، وتصدَّ سبيله!

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة (البعث الإسلامي) في عددها السادس ، المجلد السادس عشر ، عام ١٩٧٢ م.

إنَّ سيدنا إبراهيم عليه السلام دخل النار وهو يعلم علم اليقين أنها تحوله في ثوانٍ ودقائق إلى رماد ، ولكنَّه كان يعلم كذلك: أنه يذكر الله ويحبُّه ، ولا ينساه لثانيةٍ واحدةٍ ، بل أقل منها!.

وهكذا امتحن الله نبيه سيدنا موسى عليه السلام ، حين وقف بجماعته أمام الأمواج الزاخرة ، فأمره بأن يخوض النهر مع رجاله وأتباعه ، وكان سيدنا موسى يعلم علم اليقين أنَّ الإنسان يغرق في النهر إذا لم يتعلم السباحة ، أو لم يركب سفينة ، ولم تكن هناك تجربة غير هذه التجربة الوحيدة ، فدعاه أمر ربه وحبُّه أن يدخل النهر مع جماعته ورجاله ولم يبال ، فماذا كان؟ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٤].

وتشابهت التجربة الأولى والثانية في روحها وجوهرها إلا أنَّ تجربة سيدنا إبراهيم فاقتها في هول المطلع ، ودقة الموقف ، ولا غرو فهو الأب ، والجدُّ ، ومؤسس الملة الإبراهيمية ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

وكانت هناك محنةٌ ثانيةٌ لسيدنا إبراهيم ، وذلك حين أمره الله بالهجرة ولم يكن عنده أولاد من قبل حتى تقبَّل الله دعاءه أخيراً ورزق طفلاً سعيداً ، فلما أصبح عنده ولد يحبُّه ، أمر بأن يترك هذا الولد وأمَّه في وادٍ غير ذي زرع ، في صحراء قاحلةٍ ، لا ماء فيها ، ولا نبات ، فتأملوا في هذا الموقف العجيب الحرج ، الدقيق ، هل في البشر من يتشجع على هذا التصرف ، ويقدر على تسليم فلذة كبده ونور عينه لتصاريف الزمان ، وطوارق الحدثان ، ولكنه لم يتردد ، ولم يبال ، وترك ولده وأهله وسط هذا البحر من الرمال ، ولم يهيىء لهما المؤنة ، والغذاء ، والماء ، بل هجرهما متوكلاً على الله.

وتأتي التجربة الثالثة وذلك حين يصبح هذا الرضيع ولداً يسعى ، ويفرح ، ويمرح ، ويلعب ، ويداعب ، ويستأنس به الأبوان ، فقد رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ولده ، وتتوالى الرؤيا ، فيقول:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فما كان جواب ولده السعيد ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾ [الصافات: ١٠٢] ثم حدث ما يعرفه الجميع، وامتثل سيدنا إبراهيم أمر ربه امتثالاً كاملاً، وحالت قدرة الله بين سكينه وذبح ولده ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٧] فلم يذبح إسماعيل ولكن ذبح حبّ إسماعيل، وكان هذا هو المقصود المطلوب، وقد تحقق!

وهكذا توالت المحن للأنبياء فماذا كانت النتيجة! لقد كانوا يحبون الله، أما الآن فقد أحبهم الله ﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص: ٤٧]. ولما أحبهم الله؛ فقد أصبح كل ما قاموا به من قولٍ، أو عملٍ وإثباتٍ وإنكارٍ مقياسَ الرضا، ومقياس الكمال والفلاح، وأصبحت حياتهم اليومية، وآدابهم الاجتماعية، وأصبح مأكلهم وملبسهم، وكلامهم وسكوتهم، وقيامهم، وقعودهم، وجميع حركاتهم، وسكناتهم، وروحاتهم، وغدواتهم مثاليةً مقبولةً في عين الرضا، وجيهة عند الله، فأصبحوا المقياس الأكمل والأفضل للناس أجمعين.

إننا نرى أنَّ الإنسان إذا أحبَّ أحداً أحب سمته، ودلَّه، وطوره، وعادته، والأم إذا أحبَّت ولدها؛ فقد أحبت عاداته الخرقاء، وقد أحبت تصرفاته الشائنة، وقبائحه بعض الحين، والأبوان يحبان طفلهما، ويفرحان كثيراً حين يحاول أن يتكلم، ويتلعثم في كلامه ويخطىء، ولكنهما يحبان أخطاءه اللغوية، وتعبيراته الصبيانية، بل عجزه عن التعبير أكثر من بلاغة الأدباء وبراعة الخطباء، لماذا؟ إنَّه الحبُّ الذي يملي عليهما إرادته، فإذا وجدا طفلاً يشبه طفلهما، ويتكلم مثل كلام ولدهما أحبَّا ذلك الطفل أيضاً، وترى الأم صورةً ورسماً يشبه صورة ولدها الذي هجر الوطن طلباً للعلم، أو طلباً للرزق فتبعث هذه الصورة فيها الشجا، والشوق، وتودُّ لو تضم هذه الصورة إلى صدرها، وتعتنقها مع أن هذه الصورة صورة غير حقيقية، صورة ولد أجنبي لا صلة له بها، ولكن سماته وملامحه التي

شابهت ملامح ولده الحبيب تثير فيها كامن الحبِّ ، ولوعة الشوق ، فتحبه، كما أحبت ولدها.

وتأمل الآن في حال الأنبياء وأمرهم مع الله ، لقد أحبهم الله ، فأحبَّ سماتهم ، وعاداتهم ، وسلوكهم ، وطريقة حياتهم ، وأحبَّ من أحبَّهم وأبغض من أبغضهم ، فأصبح تقليدهم ، واتِّباعهم ، ومحاكاتهم مقياس الحب ، ولذلك جاء في القرآن:

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

ويقول في موضع آخر: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص: ٤٦].

فهم الآن القدوة والمثال ، ونموذج الخير والكمال ، وعلى كل من يريد وجهي ، ويلتمس حبي أن يحتذي حذوهم ، ويقتفي آثارهم ، ويتبع مناهجهم وعاداتهم ، بل يأكل كما يأكلون ، ويشرب كما يشربون.

إنها سنة الله في الأرض ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

إنه لما قال لنبيه سيدنا محمد ﷺ ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٣] فماذا قال لعامة المسلمين؟

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

لقد أتى على بلادنا الهند زمان أصبح التفرنج فيه مقياس الرقي والتقدم ، وإني أذكر أنَّ هؤلاء الذين كانوا يعتبرون الإنجليز شعباً مثالياً كانوا يحبون كلَّ إنجليزي مرَّ بهم في الشارع، ولو كان جاهلاً، ولو كان من أصل غير أصلهم، ولو كان ملوناً اعتنق دينهم، ولكنه مركب النقص والشعور بالهوان.

وقد رأيت هؤلاء يحاكون الإنجليز حتى في طريقة المضغ ، وأسلوب الكلام ، وإني أضرب لذلك مثلاً ، لقد كان الإنجليز ـ بحكم العادة والظروف ، وطقس البلاد ـ يدخنون أكثر ، وكانوا يتحدثون أثناء التدخين ، فتتقطع الكلمات ، وتلتوي الحروف ، لأن السيجارة تمنعهم عن الكلام

الواضح الفصل ، فرأيت بعض «العقلاء» في بلادنا يتكلمون مثل كلامهم تقليداً ، ومحاكاة ، ويظهرون عجزهم ، ويلوون ألسنتهم.

ورأيتهم يمشون مشيةً إنجليزية ، ويمشون في الأرض مرحاً ، ويصعِّرون خدَّهم للناس ، وهم في سراويلهم ، وأزيائهم القومية.

ورأينا النساء يقلدن الأفرنجيات ذوات الكعب العالي ، ويقفزن مثل قفزتهن ، وهن في أحذيتهن الوطنية ، وما هو إلا محاكاة وتقليد ، محاكاة الأعمى الضرير الذي لا يفرق بين النور والظلام ، وهو كلٌّ على مولاه ، أو عيال على عصاه.

وإذا تكلم أحدهم في ذلك الحين بالإنجليزية ولو جملةً واحدة عاش يومه فرحاً جذلاً.

وإني أذكر أمامكم قصةً تدور حول نفسي ، وهي قصة قد تسيء إليَّ ، ولكن الحقَّ يملي علي أن أسردها أمامكم من غير تأويل.

كان عمري في ذلك الحين لم يتجاوز الثلاثة عشر عاماً ، وكنت أمرُّ بحيٍّ من أحياء مدينة لكهنؤ؛ إذ لمحت رجلاً قد قُبِض عليه ، والتف حوله الناس يسوقونه ، ورأيت بجانبه شاباً مسيحياً لم يكن من أصل إنجليزي إلا أنه مثقف ثقافةً إنجليزية ، ولا يعرف غيرها ، فسألته بالإنجليزية What is the matter? يعني ما أمر الرجل؟ فردَّ علي قائلاً: This Gentleman has killed his wife إنَّ هذا الرجل قتل زوجته.

ولا أزال أذكر حتى الآن أنني فرحت كثيراً بأني تكلَّمت الإنجليزية ، وبقيت النهار كلَّه فرحاً مسروراً بهذه المأثرة أو البطولة ، وما زلت أتلذَّذ بهذا التصور حتى غلبني النوم ، رأيت نفسي سعيدةً؛ إذ أنها تلقت رداً جميلاً من إنجليزي ، وكانت جديرةً بأن يوجه إليها ذلك الشاب العظيم كلمة؟ مع أني من أسرة دينٍ وعلمٍ ، وتربيت في أحضانها ، أسرة توارثت الدين والعلم منذ قرن ونصف!

ولا تستغربوا ، فقد كان جد الإنجليز وطالعهم في الهند لامعاً في هذا الوقت ، وكانت هيبتهم وشوكتهم قد ضربت أطنابها على طول البلاد

وعرضها ، وقد قدر للمسلمين والهنود هذه الذلة والمهانة لحينٍ من الدهر .

أما الآن فقد تغيَّرت الأحوال ، وزال هذا السحر ، أو هذا الطلسم ، لقد أحبوا الإنجليز ، فأحبوا كلامهم بطبيعة الحال ، وأحبوا أخطاءهم وعثرات لسانهم ، وأدهى من ذلك وأمرُّ: أنَّ بعضهم كانوا يتكلمون في لغتهم الشعبية ، فيلحنون فيها كما يلحن الإنجليز ، كانوا يتكلمون باللغة الأردية في اللحن الإنجليزي ، ويخطئون فيها أخطاءً لغويةً فاحشةً تعمُّداً ، ولا عجب في ذلك أيضاً ، فحبُّك الشيء يعمي ويصم ، وذلك حكم الفطرة ، ولا يطلع عليه إلا من لامس الحبَّ شغافه ، أو هز أوتاره .

إنَّ الله تعالى نفسه يثني على إبراهيم ويقول: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وكلُّنا يعلم أنَّ إبراهيم يدعى بخليل الله ، ولما أحبَّه الله ، أحبَّ كل أمر من أموره ، وكل سنة من سننه ، وجعله أمةً باقية لها حضارتها وسماتها، ولها خصائصها وصفاتها ، وهي ملة إبراهيم ، وحضارته الخالدة المحبوبة عند الله ، وقد كانت الأمم التي توالت بعده نسيت أو تناست هذه الحضارة ، ووقعت في وثنيات وعبادات ذات شرك وأوثان ، فبعث الله نبياً من ذريته ، وهو النبي الخاتم محمد ﷺ ، وأحيا عن طريقه حضارة إبراهيم وملته ، فقال رسول الله ﷺ: «**إنها سنة جدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام**» .

وتلك هي الحضارة الإبراهيمية التي سميت الحضارة الإسلامية ، وختم الله عليها الحضارات كلها ، والمدنيات بأسرها ، وطبعها بطابعه الخاص فزاد من قيمتها ، ورفع من شأنها ، كالرسائل والوثائق ، لا قيمة لها ما لم يوضع عليها طابع البريد ، أو خاتم الحكومة .

ولكن هناك حضارات كثيرة اختلقها الناس ، ووضعوها من عند أنفسهم ، وطبعوها بطابعهم الخاص ، غير أنها لا قيمة لها في عين الله؛ إذ إنها حضارات صناعية ، ومدنيات موضوعة ، لا تقوم على أساس؛ ولا تعتمد على قوام ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣] .

لقد كان الناس في أيام الحكم الإنجليزي يعجبهم ما يعجب الإنجليز ،

وكل ما كان يقوم به الإنجليز من عادات وأعمال ينال منهم تقديراً كاملاً وإجلالاً كبيراً ، وكل ما كان يحبه الإنجليز يحبونه لمجرد أنَّ الإنجليز يحبه بصرف النظر عما إذا كان ذلك الشيء أضراره كثيرة ، وعاقبته سيئة . وأحكي لكم قصة: أخبرني بعض أصدقائي أنه أهديت إليه كمية من البرتقال الحامض ، ولم يستطع هو ولا أولاده أن يأكلوه من شدة حموضته ، فدعا عدة طلاب من الكلية ، وقدم إليهم البرتقال ، فقالوا: إنه جد حامض ، فقال لهم: إن الإنجليزي إنما كان يحب البرتقال الحامض ، وما إن سمعوا هذا الكلام إلا وتهافتوا على البرتقال ، وأكلوه من فورهم .

فإذا كان مقياس الخير والشر هو الحكم ورجال الحكم فإننا لا نرضى بمقياس الحكام في الدنيا ، ومقياس الشعوب الضالة والحضارات الصناعية وإنما نرضى بمقياس ربنا الكريم ، ونحبُّ ما أحبه هو من حضارةٍ ومدنية ، ومن ملة وعقيدة ، ومن دين وسنة .

سادتي وإخواني! إنَّ الحضارة الحقيقية هي حضارة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وحضارة أتباعهم ، وفي هذه الحضارة صيانة للبشرية وضمان لسعادة البشر ، إنني أقول لكم بكل صراحة: إن مقياس الحبِّ والإعجاب ليس في تقليد الإنجليز ولا غيره ، إنما المقياس الأصيل هو ما قال الله تعالى يخاطب به نبيه الكريم ﷺ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] يعني: إنَّ صيانتكم ، وسعادتكم كامنةٌ في اتِّباع محمد ﷺ ، وإلا فإنَّ الشيطان يتخطفكم ، ويعبث بكرامتكم ، ويأمركم بما يضحك عليه الأولاد ، ولا شكَّ فإن ما يدور اليوم في العالم بأسره باسم الحضارة ، والعقل والفلسفة والعلم ، والتقدم والحرية ، وباسم الديموقراطية والاشتراكية تستحي منه البهائم والأنعام .

إنَّ أوربة اليوم جحيمٌ لا تطاق ، ظاهرها سعادةٌ ، وباطنها شقاء ، وهي تبدو من بعيد كأنها جنة ، ولكنها جهنَّم من قريب ، لا يهم أهلها إلا إشباع النفس والمعدة ، ومن غير أن يهتم أحدٌ بغيره ، ومن غير أن يفكر الزوج في راحة زوجته ، والأب في إسعاد ابنه ، والأم في تربية طفلها ، إنما هو

الشيطان الذي يزين لهم الحياة الدنيا ، ويعجل لهم الشهوات ، ويأمرهم بنهب اللذات ، والإغراق في اللهو واللعب ، واتباع خطواته.

نزلتُ مرَّةً في أحد فنادق باريس لثلاثة أيام ، وكانت أيام الشتاء ذات الليالي الطويلة ، فكان من توفيق الله أنني كنت أقوم من النوم مبكراً ، وأصلي ركعات من التهجد ، وفي نفس الوقت كان يرجع شخص نازل في الفندق من نزهته الليلية مع زوجته ، وقد صادف ذلك كل ليلة في نفس الوقت ، إنه كان يقضي ليله كله في لهو ومجون ، ويرجع إلى الفراش قبيل الفجر ، فما الفائدة في مثل هذه الحياة ، وما هي متعة العيش ولذته عند هؤلاء ، عند أتباع هذه الحضارة الحديثة الذين يقلِّدون الإنجليز في كل شيء ، أما المسلم فإنه يرجع من عمله مساءً إلى أهله ، وأولاده ، يجلس إليهم ، ويتحدَّث معهم ، ويتعشى معهم ، ثم يبكر في النوم ليقوم مبكراً في الصبح ، ويقوم بواجبه نحو ربه ، وبوظيفته في مكتبه ، في دعةٍ وطمأنينة ، لا يطالب زوجته أن تتكسب ، ولا يكلفها أن تتجول معه ليالي الشتاء في الملاهي والأسواق ، والنوادي.

إنَّ الله لا يحبُّ حياة اللهو ، والمجون ، والغفلة ، وإنَّه يعاقب أهلها بسلب نعمة الهدوء ، والطمأنينة ، والتفريق بين القلوب ، ومحو الحبِّ والإخاء ، والعافية ، فالمجتمع كلُّه مليء بالفساد والتناحر ، والبغضاء ، والأحقاد ، والمؤامرات ، إنَّ أوربة تعيش في مثل هذه الأحوال ، إنها تتقلب اليوم على نار العداوات والصراعات النفسية ، وتحنُّ اليوم إلى ركنٍ من الدعة والهدوء تأوي إليه ، إلى ظلالٍ من العافية والسلام تقف تحتها.

إنَّكم أيها الإخوان أصحاب تلك الظلال ، وذلك الركن العظيم ، وكنتم أحقَّ بإيواء أوربة إلى كنفكم وجواركم ، ولكنني أراكم تنظرون إلى أوربة بنظر ملؤه غبطةً ، وكأنكم تتأسفون على ما فاتكم من حضارة الغرب ، فتهرعون إليها من غير تفكير ، ولا تدبُّر في العاقبة ، بدأتم تقلدونها في حياتها المهلهلة ، وتقاليدها الشائنة ، وأساليب عيشها الفضفاضة.

إخوتي! إنَّ الفرصة لا تزال سانحةً لكم ، ولم ينفلت زمام الأمر من

أيديكم فتيقظوا من غفلة التقليد والمحاكاة ، ولا بأس أن تقيموا في أوربة وتشتغلوا فيها بالتجارة ، أو بوظائف أخرى. وركزوا عليها جهودكم وهممكم ، ولكن لا تقلدوا حضارتها ، ولا تصطبغوا بصبغتها ، فإنَّ هذه الحضارة كالسوس ينخر حياتكم ويترككم هيكلاً فارغاً لا روح فيه ولا حياة. ثم إن هذه الحضارة تكلفكم مصاريف باهظة ، وتلزمكم أموراً لا تحتملها تجارتكم ، ولا تسدها مواردكم ، وأما الآن فتستطيعون أن تقنعوا بالقليل ، وترضوا بالكفاف من العيش ، وتعيشوا في مستوى الحضارة الإسلامية التي تعلمكم القناعة ، والزهد ، وتنهاكم عن الترف والإسراف.

إنني أنذركم بما في هذه الحضارة من متاعب ، ومصائب ، وشقاء ، لا تبدو في ظاهر الأمر ، ولكنها أهلكت أمماً ، وأبادت شعوباً ، وحتى أوربة نفسها تعاني من متاعب حضارتها قسطاً كبيراً ، وتبحث عن سفينة نجاة تنقذها من مصيرها المؤلم.

اهتموا أيها الإخوان بأمور دينكم وشريعتكم ، وحافظوا على صلواتكم ، والزموا مساجدكم التي تشرفون اليوم على تأسيسها في هذا البلد البعيد عن مراكز دينكم ، فإن مساجدكم لا تقوم ما لم تعمروها ، وتؤدوا فيها شعائر الإسلام ، إنَّ المنائر التي ترفعونها فوق مساجدكم هي علامة حضارتكم الإسلامية ومن سمات مجتمعكم الإسلامي ، فإن بقيت المساجد عامرة ، وبقيت منائرها شامخة ، وظلَّت تدوي أصوات الأذان خارقةً عنان السماء ، فمعناها أنَّ دينكم باق ، وإيمانكم راسخ ، وإلا فلا عفة ، ولا حياء ، ولا لذة في الحياة ، ولا متعة في العيش ، إنما هو صراخٌ ، وبكاءٌ ، وذلةٌ وشقاء ، ولا دين يبقى لكم ، ولا دنيا تتحصل لكم.

إنَّ الغرب اليوم يولول بالبكاء ، ويصرخ بالعويل ، إنه يبكي دماً لأنه حرم سرور العيش ، ولذة الحياة ، وهدوء القلب ، وطمأنينة الضمير ، اقرؤوا كتب حكماء الغرب وفلاسفته ؛ تجدوا فيها أنَّ الحياة خلت من كلّ لذة ومتعة ، وأنَّ الإنسان عاد بهيمة لا يهمها سوى إشباع النفس والبطن والغريزة ، وتروا أنَّ السآمة غزت مجتمعاتهم وبيوتهم ، وعقر ديارهم تلك

التي تسلب منهم كل سلوة وبهاء في الحياة ، وتؤديهم إلى الانتحار ، وما أكثر حوادثه في أوربة ، إنَّ السويد في أوربة قد تفوق في بعض نواحي المدنية على أمريكا ، ولكنَّها أكثر بلاد أوربة وأمريكا انتحاراً.

ولا شكَّ أنَّ الحياة أصبحت سهلةً للغاية في هذه البلدان التي تجري فيها أنهار اللبن والعسل ، وتزخر بالترفيهات والكماليات ، ولكنَّ القلب فيها محروم الهدوء ، والضمير مسلوب الطمأنينة ، فلا مودة بين المرء وزوجه ، ولا حلاوة في البيت ، إنما هي سآمة وملل ، وتضجر ويأس ، وأخيراً الانتحار . . . بالارتماء إلى أمواج البحر تارةً ، والقفزة من سقوف البيوت ، وشرب السم ، وابتلاع كميات من أقراص النوم تارةً أخرى.

إنني أهيب بكم أيها الإخوة ، أن تحذروا التقليد كلَّ الحذر ، وأنذركم من الاندماج إلى حضارة الغرب والانصباغ بصبغتها ، فإن فعلتم ذلك احتفظتم بدينكم ، وحافظتم على طمأنينة قلبكم ، وسرور نفسكم ، وهنالك تستطيعون أن تقوموا بدور القيادة والإمامة في هذا البلد ، وإن لم تفعلوا ـ لا قدر الله ـ ما أقول لكم ، فاتقوا جحيم الغرب التي يتلظى فيها أهل الغرب ، ويذوقون من عذابها ، ولا أقول جهنم الآخرة ، فسوف يقيكم الله منها ، أما جحيم الدنيا التي أضرمها الغرب فإنهم يسعرون فيها ، ولا مناص منها لأي مقلِّد يقلد حضارة الجحيم.

وأحمد الله على أنَّ تقاليد الإسلام وشعائره باقيةٌ عندكم وفي حياتكم ، فما دامت تعيش فيكم ، وتنال منكم تقديراً؛ تزدهر فيكم حضارة الإسلام ، وسرعان ما تنتهي هي من حياتكم تنهار كرامتكم ، وتنطمس معالمكم ، وأكرر لكم كلام الله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وصدق الله العظيم.

* * *

كيف يساهم الإسلام
في بناء مجتمع هندي أفضل؟[1]

إنَّ دور المجتمعات في تاريخ الشعوب والأمم غير دور الفلسفات والآداب ، والثقافات واللغات ، والحدود الجغرافية والمساحة الأرضية ، فإنَّ وجود مجتمع فاضل عادل في أي بلد مجتمع يجدر بالبقاء والاستمرار ، ويملك الضمير الحي السليم ، ويميِّز الخبيث من الطيب ، والظلم من العدل ، ويتألَّم قلبه على الإثم والعدوان ، منحةً غالية ، ونعمةً سابغة من الله سبحانه على عباده ، إنَّ القضاء على الظلم برمته مستحيل ، وإنَّ ذلك لم يقع إلا في عهد الأنبياء والمرسلين ، وأتباعهم المخلصين الصادقين ، إنَّ مثل هذا المجتمع المثالي لم يتكوَّن في التاريخ إلا في فترات خاصَّةٍ ، وأدوارٍ معلومة ، ولكن المطلوب من هذا المجتمع على كلِّ حال أن يتألَّم على الظلم ، ويؤنبه ضميره الحي على غمط الحق ، وإهدار الشرف ، ولا ينساق مع التيار ، ولا يسيل مع الإغراءات المادية ، وشهوات النفس العارمة بل يحافظ على شخصيته ووجوده ، إنَّ الوقوف في وجه الظالم وإمساكه عن تنفيذ إرادته شيء كبير ، ولكنَّ الجهر بالحق والصراحة والصدق ، واعتبار الظالم ظالماً ، والخائن خائناً شيء لا يستهان به ، ولذلك فإنَّ المجتمع الذي لم يضرب ضميره عن العمل ، وصمد أمام الهجمات المتتابعة ، والضربات الشديدة المتوالية لا يزال يؤدي دوره

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة (البعث الإسلامي) في عددها الأول ، المجلد السابع عشر ، عام ١٩٧٢ م.

ووظيفته بأمانةٍ ، وجدارةٍ ، وقوّة حاجة البلاد كلِّها من غير نزاع ، ومهما هبَّت العواصف الهوجاء ، وحدثت القلاقل ، والاضطرابات ، والزلازل ، والأهوال ، وطالت الفوضى الخلقية ، والسياسية ودامت؛ فإن وجود مجتمعٍ صالحٍ سليمٍ ضمان لحفاظه عن هذه الزعازع والأعاصير. إنَّ مثل هذا المجتمع هو بارقة أمل للإنسانية؛ لأنه لم يتعاون على الإثم والعدوان ، ولم يقل «نعم» للظالم أيّاً كان. إنني لا أريد أن يكون هذا المجتمع مثلاً مجرَّداً ، أو معنى أدبياً كريماً فحسب ، ويتطهَّر من كل سوء ، ويترفَّع عن كلِّ شرٍّ ، وإنَّما أريد أن يستهوي الأقدار الخلقية والإنسانية قلبه وضميره على أقل تقدير ، ويكون عنده شعورٌ بقدرة الله العليم البصير ، وتكون عقيدة التوحيد راسخةً في أذهانه ، متغلغلةً في أحشائه ، وبذلك يستطيع هذا المجتمع أن يقاوم أيَّ مؤامرةٍ ضدَّ الأخلاق ، والإنسانية ، وأيَّ انحرافٍ سياسيٍّ من الحكومة ، وحيفٍ من الحكام.

وإذا تجرَّد بلدٌ من البلاد من مثل هذا المجتمع الطيب الصالح ، النظيف ، فلا يمكن له أن يعوِّض هذا الفراغ بأقوى حكومة ، وأرقى جامعة ، ولا بأروع مظاهر دينية وصلاح شخصي ، وليس هناك شيء يملأ فراغه ، ويسد ثغرته ، بخلاف المجتمع الصالح فإنه يملأ كلَّ فراغ ، ويجبر كل كسر ، ويسدّ كل عوز ، ويتدارك كل ما فات ، ويبني حكماً سليماً ، وتنسيقاً حكيماً ، ويقوم عند كل حاجة ، ويؤدي واجبه ، ويسعف بلده وأهله إذا استبد بالبلاد قادةٌ مفسدون ، وتملَّكوا زمامها حتى يُردَّ الحق إلى أهله ، والماء إلى مجاريه.

ولذلك فإنَّ المؤرخ العاقل الذكي لا يعير أشكال الحكم أهميةً كبيرةً ، فقد شهد تاريخ اليونان ورومة وبلادنا الهند: أن تغييرات الحكم الطفيفة وأشكاله الظاهرة لم تدم طويلاً ، وألقاها القدر أخيراً في ملفات التاريخ أو مخلفاته ، وخلَّى هذا المنصب لقائدٍ أفضل ، وأعدل ، وأرحم ، وأكرم فالعاقل من يبحث عن هذا المجتمع المطلوب ، فإذا وجده؛ اطمأنَّ إليه ، وعلم أنَّ فساد الحكم زائلٌ لا محالة ، كالرجل القوي السليم الذي يصاب بالسهر والحمى لحينٍ من الدَّهر ، ثم يبرأ منه ، فإنَّ الطبيب يعلم يقيناً أنَّه

سيبرأ من مرضه؛ لأنَّ جسمه يملك قوة الدفاع ، وأنَّ هذه القوة ستصارع المرض في نهاية الشوط ، وإنَّما الخطر إذا فسد هذا المجتمع ، وحرم التمييز بين الظالم والمظلوم ، والخير والشر ، وآمن بشريعة الغاب ، وسجد لكل من تحكم في رقابه ، وأملى عليه إرادته ، وعبد كلَّ شمسٍ طالعةٍ ، وقمر منيرٍ ، ونجم متلألىء.

إنَّ رومة لم تلق مصيرها بالإفلاس في المدنية والحضارة ، فقد كانت عند سقوطها زاخرةً بالمراكز العلمية ، والمدارس الأدبية ، عامرةً بمظاهر الجمال والحياة ، وكلٌّ من تأمل في التاريخ بفكرٍ ثاقبٍ مستنير اطَّلع على أن الأمم التي لاقت حتفها كانت حيَّةً حضارياً ، وثقافياً حتى في حين احتضارها ، فقد كانت إيران حين فتحها المسلمون في أوج رقيِّها ، وذروة حضارتها ، وقد رقَّت حواشيها ، وحسنت ديباجتها ، ولكن هذه الحضارة الرقيقة الناعمة لم تمسك الدولة الساسانية من سقوطها وزوالها ، وقد يأخذنا العجب حينما نرى أنَّ الشام ، ومصر ، وإيران ورومة لاقت مصيراً متشابهاً مع رقيها الحضاري ، ونهضتها المادية ، والسرُّ في ذلك أنَّ مجتمعات هذه البلاد كانت فريسةَ الفوضى الخلقية العامة ، وانقلبت فيها الموازين ، حتى أصبح النهار ليلاً والليل نهاراً ، والظلم عدلاً ، والعدل ظلماً ، وتولدت فيها جماعة كبيرة من المتزلفين والطماعين يضمُّون صوتهم إلى صوت سيدهم ، ويضعون جباههم على أقدامهم ، فإذا قال واحدٌ منهم في ضوء النهار: ما أروع هذا الليل! قالوا: وما أجمل منظر الكواكب ، وضوء القمر. وقد عمَّ اليوم هذا الاتجاه المشؤوم في الهند مع كل الأسف ، وقد كان المهمُّ الأهمُّ بعد تحرير البلاد أن تركز كل القوى والمواهب والطاقات في البحث عن هذا المجتمع الصالح المنشود ، والحصول عليه بأيِّ ثمن ، ولو احتاجوا في ذلك إلى الانتفاع بخبرات غيرهم ، والتكفف أمامهم ، المجتمع الذي لا يساوم الظلم ، ولا يتفاهم مع البغي؛ يخاف الله سبحانه في سائر أحواله ، ولا يبالي في الحقِّ بلومة لائم ، إنَّ هذه القضية قضية موت وحياة بالنسبة إلى هذه البلاد ، فعلى القادة والزعماء أن يكرِّسوا جهودهم لبناء مجتمعٍ لا يرفع فيه الظلم هامته أو رايته ، وإذا فعل؛

استأصلوا شأفته ، وقلعوا جذوره ، وإن صحت نيات العاملين ، وبناة الوطن ، وتجردوا عن العصبيات ، وضيق التفكير ؛ لوجدوا الإسلام خير من يعينهم على مشكلاتهم ، وأزماتهم ، ويدلُّهم على هذا المجتمع المنشود ، إنَّ تعاليم الإسلام التي يعتنقها ملايين الملايين من أبناء هذا الوطن تجدر بالانتفاع ، والاستفادة ، والاقتباس ، ولو أنَّهم فعلوا ذلك ؛ لأدَّى الإسلام دوره الكبير في بناء الإنسانية بوجهٍ عامٍّ ، وبناء هذه البلاد بوجهٍ خاصٍّ ، وزاد في ثروة البلاد ، وشرفها ، وحسن سمعتها .

ولننظر الآن ما هي الأدواء التي تنخر هيكل البلاد ، وكيانها ، وتجعلها منخورةً جوفاء ، مشلولةً ، وتحبط جهود البناء والتعمير فإنَّ غضَّ النظر عن الأخطاء الحقيقية المحدقة بالبلاد خيانةٌ كبيرة .

الخطر الأول والأهم هو : ضعف الشعور بقيمة الإنسان ، وشرفه ، وكرامته ، وهو أكبر خطرٍ لأيِّ مجتمع في أي بلدٍ ، وإنه يؤذن بخراب المدنية والحضارة ، ونهاية مستقبل الإنسانية .

إنَّ قتل الأشقاء ، وسفك دماء الأبرياء ، داءٌ عضال لا تغني عنه كثافة السكان ، ووجود المعادن الطبيعية ، ولا مشروعات الزراعة والري ، ولا التعليم العالي ، وكثرة الوارد والصادر .

وإنَّ ذلك موضع استغراب ودهشة أنَّ هذا البلد الذي أثار قيثارة الحبِّ في زمنٍ مضى ، وتغنى برسالة الحب في لغاتها المحلية ، وذاق لذة الأخلاق الفاضلة ، والإنسانية الرحيمة عن طريق الصوفية ، والعلماء الربانيين ، والذي اعتنق أخيراً مبدأ «اللاعنف» وتغنَّى به في سائر أنحاء العالم ، وامتاز في الحبِّ ، والعاطفة ، ورقة الشعور ، هذا البلد ، لم يعرف حتى الآن ـ مع كل الأسف ـ شرف الإنسان ، وحرمة الدم الإنساني حقَّ معرفته ، ولم يقدره حقَّ قدره .

إنَّه لا بدَّ لنا أن نعرف قضايا اللغة ، والثقافة ، والخط ، قضايا الإنسان ، وهي خاضعة له ، وتابعة لإرادته ، وإنَّ كل ما فيها من جاذبية ومعنوية هي نسبية تتعلَّق بالإنسان ، وما قيمة لغةٍ ، وثقافةٍ ، وما قيمة أنهارٍ ،

وجبالٍ ، وآدابٍ ، وفنون إذا فقدنا الإنسان ، أو فقدنا إنسانيته.

إننا نريق دم مئات وآلاف من الناس لمجرد قطع شجرة ، أو ذبح حيوان ، أو لإحياء حضارةٍ عتيقة بعض الحين ، ويقع ما تقشعرُّ منه الجلود ، ويتندى له جبين الحياء ، وتثور موجةٌ عارمةٌ ، فتكتسح كلَّ ما تمرُّ عليه من أنفسٍ وأموالٍ ، وثمرات ، بل تدمر ذلك الإنسان الذي هو زينة الوجود ، والذي خضعت له الطبيعة بجميع مظاهرها ، وحسنها وجمالها ، وقامت له سوق الشعر ، والأدب ، أو الثقافة والمدنية بجميع صورها وأشكالها ، هذا الإنسان يذهب ضحية الظلم ، والهمجية ، والاضطهاد ، إننا نقتل ذلك الإنسان الذي هو أروع صنعةٍ إلهيةٍ ، وأجملها في الكون بالإطلاق ، والذي نعيش معه طول حياتنا لمجرد أسباب بسيطةٍ تافهةٍ ، إنَّ هذا الوضع وضع خطرٍ سياسي يزري بالبلاد.

إنَّ في هذه البلاد علماء وخبراء ، وعدد الجامعات فيها كبير قد يفوق على غيرها من البلاد ، ولكن تعتريها مع كل ذلك «نوبات عقلية» بين حينٍ وحينٍ ، تهبط فيها قيمة الإنسان ، والسبب الرئيسي والأساسي : أنَّ الشعور بحرمة الإنسان في هذه البلاد لم يكتمل ، ولم ينضج بعد ، وأنَّها لم تعرف حتى الآن : أنَّ الطبيعة خاضعةٌ للإنسان ، وهو غير خاضعٍ لها.

لقد أجاد أحد الفلاسفة حين قال : (**كل مولود يولد في هذه الدنيا يعلن أنَّ الله غير يائسٍ من النوع البشري ، ولكن نحن البشر نعلن بتصرفاتنا وأعمالنا : أنَّ النوع البشري غير صالح للبقاء ، إنَّ ولادة الإنسان تعلن بلسان حالها : أنه لا بدَّ له أن يبقى ويعيش ويزدهر ، فإذا نال هو ثقة الله ؛ فلماذا لا نثق به نحن**).

إنَّ البلاد اليوم في حاجةٍ إلى مئات الآلاف من الكتَّاب ، والشعراء ، والأدباء ، والخطباء ، ورجال الفكر والإصلاح ينبذون سائر مشكلاتهم وراء ظهورهم ، ليتجولوا في المدن ، والقرى ، والأرياف ، ويطرقوا كلَّ بابٍ من الأبواب مهما كانت المادة الأولى في الدستور الهندي ، فإن المادة الأولى لدستور الحياة أنَّ الإنسان يستحقُّ أن يعيش ، فلماذا نقف متفرجين

صامتين ، ونحن نرى هذا العار شوَّه وجه البلاد الجميل ، وسوَّد صفحة المجتمع الناصعة.

إنَّ مبادىء الإسلام تساعدنا في هذه الناحية بأكبر نصيب، فمبدؤه الأول: أنَّ الإنسان أروع ما خلق الله، وأشرف ما درج على ظهر الأرض، وهو أجمل وردةٍ في هذا الكون بالإطلاق ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

إنَّ الله وضع على رأسه تاج العزة ، والكرامة ، والشرف ، ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وأكرمه بخلافته في الأرض ، وهي كرامةٌ دونها كلُّ كرامة ، وثقة به ما بعدها ثقة ، فقال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وأمر ملائكته بأن يسجدوا له ، حتى يعلم أنه ليس على وجه الأرض من يستحق العبادة ، والعبودية ، والخضوع ، والركوع غير الله سبحانه وغالى به الثمن فقال: «الخلق عيال الله».

إنه شرح هذه الصلة الدقيقة المتينة التي تربط الإنسان بربه ، بأسلوب لا يدانيه أسلوب في القوة والتأثير ، فقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه:

«قال رسول الله ﷺ: **إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يابن آدم! مرضت؛ فلم تعدني! قال: يا رب! كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنَّ عبدي فلاناً مرض؛ فلم تعده ، أما علمت أنَّك لو عدته؛ لوجدتني عنده؟! يابن آدم! استطعمتك؛ فلم تطعمني! قال: يا رب! كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان؛ فلم تطعمه ، أما علمت أنَّك لو أطعمته؛ لوجدت ذلك عندي! يا بن آدم! استسقيتك؛ فلم تسقني ! قال: يا رب! كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان؛ فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته؛ لوجدت ذلك عندي**»(١).

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٩) ، وابن حبان (٢٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ثم إنَّه أكرم نفس الإنسان غاية الإكرام ، وصانها عن كلِّ شرٍّ ومكروه كلَّ الصيانة :

﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢].

إنَّه لا مكان هنا للتمييز بين واحدٍ ومئة وبين قلة ، وكثرة ، وفرد ، وجماعة بالنسبة إلى حرمة النفس الإنسانية ، وشرفها ، وكرامتها ، فكلُّ نفسٍ هناك غالية لا تقدَّر بثمن ، وهي من أغلى ما تعتزُّ به الإنسانية ، فلا يمكن أن يحلَّ فردٌ محلَّ جماعةٍ ، أو يوزن عضوٌ واحدٌ بميزان المجتمع .

فهل يمكن للمسلمين إذاً أن يساهموا في صيانة البلاد عن هذه الأخطار؟ والجواب بالجزم: إننا بفضل هذا الكتاب الخالد ، وبفضل أسوة النبي ﷺ نستطيع أن نعيد كرامة الإنسانية الضائعة في هذه البلاد ، ونستردَّ مكانتها اللائقة التي غصبها الغاصبون .

إنَّ زعماءنا السياسيين ، وقادة البلاد لا يعيرون هذه القضية الحسَّاسة الكبرى أيَّ اهتمام ، فهم منصرفون إلى المشكلات السياسية ، ولا تسمح لهم أشغال الانتخاب ومصالح الحزب أن يعنوا بهذه الناحية ، فلا بدَّ لنا ـ نحن المسلمين ـ أن نتقدم ونتقلَّد هذه المسؤولية ونتأكد أننا بذلك نسدي خيراً كثيراً إلى هذه البلاد ، ونخدمها خدمةً لا يستهان بها ، إننا بذلك لا نحسن إلى المسلمين فحسب ، فأنا لا أرضى أن أقبل هذا المستوى أو هذا الموقف ، فهي مشكلةٌ عامَّة ، إنها قضية الإنسان والإنسانية ، إنَّ سفك الدماء لا يقف عند حدٍّ ، أو عند طائفة معينة ، إنَّ التاريخ يشهد أن نطاقه يتسع دائماً ، إنَّ التمييز العنصري ، والحضاري ، واللغوي أذلَّ الإنسان ، ونكَّس رأس الإنسانية أكثر من التمييز الديني في أكثر الأحيان ، إنها قضية البلاد كلِّها لجميع طوائفها ، وأحزابها ، وجماعاتها ، هذه البلاد التي تغنَّى أدبها وقيمها الخلقية حيناً ، بل تغنى كثيرٌ من أبنائها أيضاً بالحبِّ ، والإنسانية ، والرحمة ، إنَّ هذه البلاد أصبحت الآن تعيش على فوهة بركان ، فمجرد نبأ في جريدة صباحية ، أو خطأ فردي لبعض المشاغبين من

المسلمين يحدث ردَّ فعلٍ جماعي عنيف لدى غير المسلمين، وقد تثور موجةٌ عارمةٌ من القتل، والإبادة أو السلب والنهب، وتكتسح إقليماً بأسره، أو ولايةً برمَّتها، ويضيع بين عشيةٍ وضحاها هذا التراث الكريم القديم من العلوم، والحضارات، والآداب، وحسن السمعة، والشهرة الذي تعتز به هذه البلاد منذ قرون، وتتثبط همة العاملين، وتنصرف تلك المؤهلات التي كانت أولى بأن تشغل في بناء الوطن، وخدمة البلاد إلى الدفاع عن النفس، ومقاومة هذه الأخطار والمحافظة على الأموال، والأرواح، والأعراض.

والخطر الثاني الذي يحدق بالبلاد هو: ضيق النظر، وعصبية اللغة، والحضارة، والبلد. إنَّ هذا الداء القديم هو الذي شتَّت شمل البلاد في الماضي، وفتح الطريق للقوى الخارجية، هذا المارد أو هذا العفريت لا يزال حياً اختفى وراء ستار تحت ضغط بعض العوامل الخارجية، والظروف الداخلية، ولكن يمكن لهذا المارد أن ينطلق من هذا القمقم في أيِّ وقت، كما قرأنا في حكايات ألف ليلة وليلة.

الإسلام يتقدَّم:

وأقول لعامة المواطنين: إنَّ الإسلام يقدر على أن يسعف هذا المجتمع في محاربة العصبية، والنزاعات اللغوية، وإيجاد التسامح، والمرونة، والوحدة الإنسانية إسعافاً نادراً، فانظروا في ضوء النزعة الوطنية الصادقة من أين أتت هذه المبادىء والأفكار؟ وخذوا منها ما صفا عندكم، وصلح لكم، إننا لا نفرق بين إنسانٍ وإنسان، وطائفةٍ وطائفةٍ عندما تأخذها الحريق، ولا نفكر من أين جاء الماء، ومن حمله، وأتى به، والمعلوم أنَّ حريق البلاد، وحريق المجتمع والوطن أخطر وأوسع من حريق المنازل، والبيوت، والأكواخ، فما دمنا نريد الخير لبلدنا، وصيانتها من الأخطار والمخاوف، وما دمنا نتمنى رقيها، ونهضتها؛ يجب أن نستفيد من هذه المبادىء القيمة، ولو كانت مستمدةً من القرآن والحديث.

إنَّ المبدأ الأول للتعاليم الإسلامية هو الاعتقاد بوحدة النوع البشري، والإسلام أعلن مراراً، وتكراراً، وصرَّح علناً وجهاراً: أنَّ ربكم واحد،

وأباكم واحد ، فالجميع أفراد أسرةٍ واحدةٍ ، وعائلةٍ واحدةٍ ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وقال في موضعٍ آخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] .

وأعلن محمد رسول الله ﷺ في حجة الوداع أمام أكثر من مئة ألف من الصحابة :

«يا أيها الناس! إنَّ ربكم واحد ، وأباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى»(١) .

وكان ﷺ يناجي ربه كلَّ ليلٍ ، فيقول : **«أنا شهيدٌ أنَّ العباد كلَّهم إخوةٌ»**(٢) .

إنَّه مقتَ سائر العصبيات ، والوطنية ، والقومية ، واللغوية ، والعنصرية ، وذمَّ الاضطهاد ، والكراهية ، والعدوان على أساس تلك العصبيات والحزازات ، وسمَّاها جاهلية ، فقال :

«ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية»(٣) .

القرآن الكريم يعتبر اختلاف اللغات نعمةً من الله ، وآيةً منه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] .

* * *

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٤١١) عن أبي نضرة .

(٢) رواه أبو داود (١٥٠٨) عن زيد بن أرقم .

(٣) رواه أبو داود (٥١٢١) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه .

موقف الإسلام من الصناعات والمخترعات[1]

إذا عُرِفت عصور التاريخ بما يميزها عن غيرها ، وأضيفت إليه ، أمكننا أن نسمِّي هذا العصر عصر الاكتشاف والاختراع ، وعصر اللاسلكي والكهرباء ، وفضلُ الأوربيين وتقدُّمهم في هذا الباب ، وعبقريةُ رجال الاكتشاف والاختراع وإبداعُهم من القضايا التي لا تقبل المكابرة.

ولكن مهما بالغ المبالغون في إطراء الصناعات والمخترعات الحديثة في أوربة ، وبرغم إعجابنا بها ، والثناء على مكتشفيها ، ومخترعيها ؛ ينبغي ألا ننسى أنَّ هذه الصناعات والمخترعات ليست غايات في نفسها ، مقصودة بالذات ، بل هي وسائط ووسائل لغايةٍ أخرى نحكم عليها بالخير والشرِّ ، والنفع والضرِّ بمقياس هذه الغاية ، وكونها خيراً أو شراً ، ونحكم عليها بالنجاح والخيبة بالقياس إلى مطابقتها للغاية التي وضعت لها ، والنظر في النتائج التي حصلت منها ، والدور الذي لعبته في حياة الناس ، ومجتمعهم ، وأخلاقهم ، وسياستهم.

الغاية من الصناعات والمخترعات ، وموقف الإسلام منها :

أما الغاية فعلى ما أرى هي التغلُّب على العقبات ، والصعوبات في سير الحياة التي سببها الجهل والضعف ، والانتفاع بقوى الطبيعة المودعة في هذا الكون ، وخيراتها ، وخزائنها المبثوثة فيها ، واستخدامها لمقاصد صحيحة من غير علوٍّ في الأرض ، ولا فساد.

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة (البعث الإسلامي) في عددها السابع ، المجلد السابع عشر ، عام ١٩٧٣ م.

كان الإنسان يسافر في الزمن القديم ماشياً ، ثم أُلهم أن يسخِّر لذلك الحيوان ، فاتخذ العجلات ، واتخذ الجياد العتاق ، ثم لم يزل يتدرَّج في السرعة ، والاختراع حتّى وصل من المركبة إلى القطار ، ومنه إلى السيارة ، ومنها إلى الطيارة ، وكذلك من السفينة الشراعية إلى البواخر ، فلا بأس ، بل يا حبذا إذا كان ذلك كلُّه تابعاً لمقاصد صحيحة ، يسافر الإنسان بها من مكان إلى مكان لغرضٍ صحيحٍ جدِّيٍّ مثمر ، ويحمل عليها أثقاله إلى بلد لم يكن بالغه إلا بشق النفس ، ويوفر الوقت والقوة وينتفع بها في الخير ، وقس على ذلك سائر القوى الطبيعية والمخترعات الحديثة التي ينتفع بها الإنسان انتفاعاً مشروعاً ، ويستخدمها لمقاصد رشيدةٍ نافعةٍ.

إنَّ موقف الإسلام في ذلك بيِّنٌ واضح ، فقد أخبر : أنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض ، قد سخَّر الله العالم لأغراضه الصحيحة بتصرف منه ، وغير تصرف ، فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة : ٢٩] ، وقال : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٠] ، ليلاحظ القارىء الإطلاق في قوله : ﴿ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء : ٧٠] وقوله : ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الإسراء : ٧٠] وقال ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٥ ـ ٨]. قد منَّ الله في هذه الآية على الإنسان بتمكينه لبلوغ غايته من غير شق النفس ، واستدل به على رأفته به ، ورحمته له ، وقال : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤] ، وما أجدر الإنسان أن يقول إذا استوى على سيارة أو طيارة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] فهو أبعد من أن يكون مقرناً لقطع من صفيح وحديد لا حياة فيها ولا حركة، يسخرها له تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ولا ينس أنَّه راجع إلى الله، ومحاسب على ما أوتي من قوة وسعة، فإن أساء استعمال هذه القدرة والتمكين عوقب على ذلك، وكذلك لا ينس أنه عبد خاضع لله منقاد لحكمه، لا يملك موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، ولا يطغ، فإنَّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.

وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. فالحديد فيه منافع للناس ومن أكبر منافعه أنه يستخدم لنصر الله ورسله، ولذلك قدم عليه ذكر إرسال الرسل، وإنزال الكتب.

فالمسلم ينتفع بكل ما خلق الله، وأودع في الكون من قوة في سبيل الجهاد في سبيل الله، وفي نشر دينه، وإظهاره على الدين كله، وإعلاء كلمته، وفيما أباح الله له ورغَّبه فيه من تجارةٍ مشروعةٍ، وكسبٍ حلال، وسفر برٍّ، ومنافع مباحة.

إنما طائركم معكم:

إنَّ المصنوعات الجمادية لا ذنب عليها، فإنَّها خاضعةٌ لإرادة الإنسان، وعقليته، وأخلاقه، فهي في ذات نفسها ليست خيراً ولا شرّاً، ولكن الإنسان هو الذي يجعلها باستعماله لها خيراً أو شراً، وكثيراً ما تكون خيراً في نفسها، فيحوِّلها الإنسان شرّاً بسوء استعماله، وخبث سريرته، وفساد تربيته، فليس الشأن في هذه الآلات والمخترعات، إنَّما الشأن فيمن يستغلُّها وفي الغرض الذي يستعملها له، وحقيق أن يقال ـ لمن أصبح يتطير في أوربة من هذه الآلات، ومن الطيارات التي تقذف القنابل، وتدمِّر

المنازل ، وتنسف القرى والمدن ، والغوّاصات التي تغرق بواخر الركاب المسالمين ، والتجار الآمنين ، واللاسلكية التي تذيع الكذب والزور ، وتنشر الخلاعة والمجون ، ويشكو منها ، ويوجه إليها الملام ـ: إنما طائركم معكم ، فإنَّ العلوم الطبيعية تسخر للإنسان القوة المادية ، وليس من شأنها أن تعلمه أيضاً كيف يستعملها وفيم يضعها ، كالكبريت يعطيك ناراً ، ولك أن تحرق بها بيتاً على سكانه ، أو تطبخ طعاماً ، أو تستدفىء بالنار ، والذي يعلم كيف يستعمل الإنسان القوة وفيما يضعها هو الدين ، فالدين يرشد الإنسان كيف ينتفع بقوته انتفاعاً حقيقياً ، وكيف يشكر نعمة الله ، ويحظر على الإنسان أن يكون بقوته التي خوله الله إياها معيناً على الظلم والجريمة ، والإثم والعدوان ، كما قال موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٧] ، وقال سليمان: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

التخليط بين الوسائط والغايات:

أما الأوربيون؛ فقد حرموا أنفسهم الدين ، فلم يبق لهم رادع من خلق أو وازع من دين ، أو مرشد من علم إلهي يرشدهم إلى الجادة ، ونسوا غاية خلقهم ومبدأهم ومصيرهم ، وقالوا: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩] فاعتقدوا بطبيعة هذه العقيدة أن ليس للإنسان وراء اللذة والراحة والانتفاع المادي والعلوِّ في الأرض ، وبسط السيطرة عليها ـ كمملكةٍ لا سيِّد لها ولا وارث ـ والتغلب على أهلها ، والاستئثار بخيراتها وخزائنها ، مقصدٌ ولا غاية ، فاستعملوا هذه القوة والعلم في حصول اللذات والتغلب على الناس وقهر المنافسين ، وتنافسوا في اختراع الآلات التي ينالون بها وطرهم ، ويعجزون بها غيرهم ، ولم يزل بهم ذلك حتى اختلطت عليه الوسائط بالغايات ، فاعتقدوا الوسائط غايات ، وافتتنوا بالمخترعات والمكتشفات كغاية في نفسها لا لغيرها ، وعكفوا عليها وتشاغلوا بها كتشاغل الصبيان باللعب والدمى ، واعتقدوا أنَّ الراحة هي الحضارة ، ثم تقدموا وصاروا يعتقدون: أنَّ السرعة هي الحضارة.

يقول الأستاذ جود:

«يقول دزرائيلي Disraeli: إنَّ المجتمع في عصره يعتقد أنَّ الحضارة هي الراحة، أما نحن فنعتقد أنَّ الحضارة عبارةٌ عن السرعة، فالسُّرعة هي إله الشباب العصري، وإنَّه يضحي على نُصبه بالهدوء، والراحة، والسلام، والعطف على الآخرين من غير رحمة»[1].

عدم تعادل القوة والأخلاق في أوربة:

إنَّ الأوربيين قد فقدوا تعادل القوة والأخلاق، والتوازن بين العلم ـ بظاهر الحياة الدنيا ـ والدين منذ قرون، فلم تزل القوة والعلم في أوربة بعد النهضة الجديدة ينموان على حساب الدين والأخلاق، ولم يزل الأولان في ارتفاع، وارتقاء، والآخران في انخفاض وانحطاط، حتى بعدت النسبة بينهما، ونشأ جيلٌ كأنه ميزان لصقت إحدى كفتيه بالأرض وهي كفة القوة والعلم، وخفَّت الثانية ـ وهي كفة الأخلاق والدين ـ حتى ارتفعت جداً، وبينما يتراءى هذا الجيل للناظر في خوارقه الصناعية، وعجائبه الكونية، وتسخيره للمادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه، كأنه فوق البشر، إذا هو لا يتميز في أخلاقه وأعماله، في شرهه وطمعه، في طيشه ونزقه، وفي قسوته وظلمه عن البهائم والسباع. وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة، إذا هو لا يدري كيف يعيش. وبينما هو قد بلغ الغايات ووراء الغايات في الكماليات وفضول الحياة، إذا هو لم يعرف المبادىء الأولية والبديهيات للحياة الإنسانية، والمدنية، والأخلاق، فتراه يصعد إلى السماء، ويريد أن يناطح الجوزاء، وهو لم يتقن شؤون الأرض، ولم يصلح ما تحت قدميه، وقد خولته العلوم الطبيعية قوةً قاهرة، وهو لا يحسن استعمالها، كطفل صغير أو سفيه أو مجنون يملك أزمة الأمور، ويؤتى مفاتيح الخزائن، فهو لا يزيد على أن يعبث بالجواهر الغالية، والنفائس المخزونة، ويعبث في دماء الناس ونفوسهم.

---

(١) Guide to Modern Wickedness p. 241.

قوة الآلهة ، وعقل الأطفال:

يقول الأستاذ (جود) الإنجليزي: (إنَّ العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش)[١].

ويقول في موضع آخر:

«إنَّ هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة ، وطفولتنا الاجتماعية المخجلة ، نواجهه على كل منعطف ومنعرج ، ونستطيع أن نتحدَّث من وراء القارات والبحار ونرسل الصور بالبرق ، وننصب اللاسلكية في منازلنا ، ونستمع في سيلان إلى دقات (Big Ben) ـ الساعة العظمى ـ تضرب في لندن ، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتهما ، والأطفال يتحدَّثون على الأسلاك البرقية ، والآلات الكاتبة صامتة ، وتُملأ الأسنان من غير إيجاع ، والزروع تنمى بالكهرباء ، والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة رونتجن (x-rays) نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصور المتحركة تتكلَّم ، وتغني ، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والغواصات تذهب إلى القطب الشمالي ، والطيارات تطير إلى القطب الجنوبي ، ومع ذلك كله لا نقدر في وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبةً يلعب فيها أطفال الفقراء في راحةٍ وسلام ، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين (٢٠٠٠) ونجرح منهم تسعين ألفاً (٩٠٠٠٠) سنوياً. قال لي فيلسوف هندي في انتقاده اللاذع لإطرائي لعجائب حضارتنا: وكان بعض سواق السيارات قد نجح في قطع ثلاثمئة أو أربعمئة ميل في ساعة على رمال (Pendine) وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في فترة قليلة من الزمن قال الفيلسوف: (نعم! إنكم تقدرون أن تطيروا في الهواء كالطير ، وتسبحوا في الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض)[٢].

---

(١) Guide to Modern Wickedness p. 261.

(٢) Guide to Modern Wickedness p. 293.

ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم:

وقد أصبحت هذه المخترعات والمكتشفات الجديدة ـ مما كانت تعود على النوع الإنساني بخير كبير لو كان مستعملها يعرف الخير ويقدر أن يتجه إليه أصبحت ضررها أكبر من نفعها، وكان كما قال القرآن عن السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، اسمع شاهداً من أهلها ينتقد هذه المخترعات ويبوح بالحقيقة وهو (جود) السابق الذكر:

(وقد استطعنا أن نسافر بسرعة زائدة من مكان إلى مكان، ولكن الأمكنة التي نسافر إليها قلَّما تصلح للسفر، وقد زويت الأرض للرحالين، وتدانت الأمم، ووطىء بعضها عتبة بعض، ولكن نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بينها، وأصبحت أسوأ مما كانت، أما المرافق التي استطعنا بها أن نتعارف بجيراننا؛ فقد عادت فحشرت العالم في الحرب، اخترعنا آلة الإذاعة، وتحدثنا بها إلى الشعوب المجاورة، والأمم الشقيقة، ولكن كان عاقبتها أن كلَّ شعب يستنفد موارد الهواء لإيذاء الشعب المجاور ومعاكسته؛ إذ يجتهد أن يقنعه بفضل نظامه السياسي على نظامه)(١).

(انظر إلى الطيارة التي تحلق في السماء يخيل إليك أنَّ صانعيها كانوا في عملهم، ولباقتهم، وصناعتهم فوق البشر، والذين طاروا عليها أولاً لا شكَّ أنهم كانوا في علوٍّ همتهم، وعزمهم، وجرأتهم أبطالاً مغاوير، ولكن انظر الآن إلى المقاصد التي استعملت لها الطيارة، وتستعمل لها في المستقبل، إنَّما هي قذف القنابل، وتمزيق جثث الإنسان، وخنق الأحياء، وإحراق الأجساد، وإلقاء الغازات السامة، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إرباً إرباً، وهذه إمَّا مقاصد الحمقى، أو الشياطين)(٢).

(وما عسى أن يقول المؤرخ غداً كيف كنا نستعمل معدن الذهب؟ سيذكر أنا توصلنا إلى أن نخبر عن الذهب باللاسلكي، وسيستعرض الصور التي

---

(١) Guide to Modern Wickedness p. 247.

(٢) Guide to Modern Wickedness p. 262.

تمثل اللياقة والمهارة التي كان أصحاب المصارف يزنون بها الذهب ويعدونه ، وكيف تحدينا قانون الجاذبية في نقله من عاصمة إلى عاصمة ، وسيسجل أنَّ أشباه الوحوش الذين كانوا ماهرين وجرآء في فتوحهم الصناعية كانوا عاجزين عن التعاون الدولي الذي كان يقتضيه ضبط الذهب والتقسيم الصحيح ، وكانوا لا يعنون إلا بأن يدفنوا المعادن بالسرعة الممكنة ، وكانوا يستخرجون الذهب والمعادن من بطون الأرض في جنوب إفريقية ، ويدفنونها في مصارف لندن ، ونيويورك ، وباريس)[١] .

ويتناول هـذا البحث ـ التفاوت بيـن العلم والصناعـة وبيـن الأخلاق الإنسانيـة، وإخفاق الحضارة الحديثة في أداء رسالتها ـ مفكر آخر يجمع بين العلم بالفلسفة والعلوم الطبيعية في تحليل أدق ، وأسلوب أعمق ، وهو الدكتور (Alexis Carrel) في كتابه ـ الإنسان ذلك المجهول ـ (Man the Unknown):

(يظهر أنَّ الحضارة العصرية لا تستطيع أن تنتج رجالاً يملكون الابتكار والذكاء والجرأة. وفي كلِّ قطر تقريباً يرى الإنسان في الطبقة التي تباشر إدارة الأمور ، وتملك زمام البلاد انحطاطاً في الاستعداد الفكري والخلقي.

إننا نلاحظ أنَّ الحضارة العصرية لم تحقق الآمال الكبيرة التي عقدتها بها الإنسانية ، وأنها أخفقت في تنشئة الرجال الذين يملكون الذكاء والإقدام الذي يسير بالحضارة على الشارع الخطر الذي تتعثر عليه ، إنَّ الأفراد والإنسانية لم تتقدم بتلك السرعة التي تقدَّمت بها المؤسسات التي نبعت من عقولها ، إنها هي نقائص القادة السياسيين الفكرية ، والخلقية ، وجهلهم الذي يعرض أمم العصر للخطر)[٢] .

(إنَّ الوسط الذي أنشأته العلوم الطبيعية وعلم الصناعات للإنسان لا يناسب الإنسان لأنَّه مرتجلٌ ، لم يقم على تصميم وتفكيرٍ سابـق ، ولم يراع فيه الانسجام مع شخصية الإنسان. إنَّ هذا الوسطَ الذي هو وليد ذكائنا

---

(١) Guide to Modern Wickedness p. 262.

(٢) (Man the Unknown).

واختراعاتنا لا يطابق قاماتنا ولا أشكالنا ، نحن غير مسرورين ، نحن في انحطاط في الأخلاق وفي العقول. إنَّ الأمم التي ازدهرت فيها الحضارة الصناعية ، وبلغت أوجها هي أضعف مما كانت ، وهي تسير سيراً حثيثاً إلى الهمجية ، ولكنها لا تدرك ذلك. إنَّه لا حارس لها من المحيط الثائر الذي أقامته العلوم الطبيعية حول هذه الأمم. الحقُّ يقال: إن حضارتنا ـ كالحضارات التي تقدمتها ـ قد فرضت شروطاً للبقاء ستجعل ـ لأسباب لا تزال مجهولة ـ الحياة محالاً ، إنَّ علمنا بالحياة ، وكيف يجب أن يعيش الإنسان متأخرٌ جداً عن علمنا بالماديات ، وهذا التأخر هو الذي جنى علينا)[1].

(لا يجنى نفع من الزيادة في عدد المخترعات الآلية . لا فائدة في أن نعلق أهمية كبرى على اكتشافات علوم الطبيعة والفلكيات وعلم الكيمياء . أي خير في الزيادة في الراحة والشرف ، والجمال والمنظر وكماليات حضارتنا إذا منع ضعفنا من الانتفاع بذلك وتوجيهه إلى صالحنا . إنَّه لا خير في إحكام طريق للحياة يقصى فيه العنصر الخلقي ، وتبعد منه أشرف عناصر الأمم العظيمة. إنَّ الأليق بنا أن نعنى بأنفسنا أكثر من أن نعنى بصناعة بواخر أسرع ، وسيارات أريح ، وراديوات أرخص ، وتلسكوبات لفحص هيكل سديم على بعدٍ سحيق)[2].

(ما هو التقدم الحقيقي الذي نحققه حينما تنقلنا إحدى الطائرات إلى أوربة أو إلى الصين في ساعات قلائل؟ هل من الضروري أن نزيد الإنتاج بلا توقف ؟ حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر فأكثر من أشياء لا جدوى منها؟ أليس هناك أي ظل من الشك في أن علوم الميكانيكا ، والطبيعة ، والكيمياء عاجزة عن إعطائنا الذكاء ، والنظام الأخلاقي ، والصحة ، والتوازن العصبي ، والأمن ، والسلام)[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

أوربة في الانتحار:

والحاصل: أنَّ الغربيين لما فقدوا الرغبة في الخير، والصلاح، وضيعوا الأصول والمبادىء الصحيحة، وزاغت قلوبهم، وانحرفت، وفسدت أذواقهم؛ لم تزدهم العلوم والمخترعات إلا ضرراً، كما أنَّ الأغذية الصالحة تستحيل في جسم الممعود والموبوء مرضاً وفساداً، بل لم تزدهم هذه الآلات والمخترعات إلا قوةً وسرعة في الإهلاك، واستعانةً على الانتحار، وقد أحسن المستر إيدن Eden رئيس وزراء بريطانيا السابق وصف ذلك في بعض خطبه سنة ١٩٣٨ م:

(إنَّ أهل الأرض كادوا يرجعون في أخريات هذا القرن إلى عهد الهمجية والوحشية، ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات، ومن الغريب المضحك: أنَّ البلاد والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها، ولكنَّها لا تنفق على ضبطها، وإني أتعجب في بعض الأحيان، وأقول: كيف لو زار العالم الجديد زائر من كوكب آخر، وهبط إلينا فما عسى أن يشاهده؟ سيجدنا نعد العدَّة لإهلاك بعضنا، ونتبادل الأنباء عنها، ويخبر بعضنا بعضاً كيف نستعمل هذه الآلات الجهنمية).

القنبلة الذرية وفظائعها:

لعلَّ المستر إيدن لما أفضى بهذا الحديث لم يدر بخلده أنَّ العالم المتمدن وعلى رأسه أمريكا رسول السلام وزعيم الحضارة والعالم الجديد سيتوصل أثناء الحرب إلى استعمال آلة تبزُّ جميع الآلات والمخترعات في التدمير والتقتيل، وتفوق ذكاء الإنسان وخياله في الهول والفظاعة. قد كانت هذه الآلة هي القنبلة الذرية التي جربتها أمريكا مرَّةً في صحراء نيومكسيكو، وثانيةً على رؤوس البشر في مدينة هيروشيما وبعدها في نجازاكي المدينتين اليابانيتين. وقد أذاع رئيس بلدة (هيروشيما) في ٢٠ أغسطس آب ١٩٤٩ م أنَّ الذين هلكوا في اليوم السادس من أغسطس آب ١٩٤٥ م من اليابانيين يتراوح عددهم بين مئتي ألف وعشرة آلاف، ومئتي ألف وأربعين ألفاً (ب ـ ت).

يقول المستر استورت (Stuart Gilder) في مقالة نشرتها صحيفة الهند الإنجليزية السيارة (Statesman) في عددها الصادر في ١٦ سبتمبر ١٩٤٥ ؛

يقول البروفسور (Plesh):

(لا يؤمن الناس الذين كانوا يبعدون عن المنطقة التي انفجرت فيها القنبلة الذرية بمئة ميل أن يكونوا قد تأثروا بها ، فينبغي أن يفحص عنهم فحصاً طبياً ، ولا يستغرب أن يصبح الناس يوماً ويقرؤوا في الجرائد أنَّ علامات الإصابة بطاعون القنبلة الذرية قد ظهرت في الذين يسكنون على آلاف أميال من اليابان).

ويقول البروفسور (م.ي. أولى فنيت) معلم جامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية في إعداد القنبلة الذرية :

(من الأمور الخرافية أن يعتقد إنسان أنَّ بريطانيا ، أو دولة أخرى تستطيع أن تحافظ على سر القنبلة الذرية. إنَّ المبادىء التي قامت عليها صناعة القنبلة الذرية مكشوفةٌ لكلِّ دولة ، إنَّ بريطانيا وأميركا استفادتا بتجارب السابقين وبلغتا إلى نهاية صناعة القنبلة الذرية ، ولكنها لا تدوم سراً حربياً إلا لأجل معدود ، لأن كل البلاد الصناعية تستطيع أن تعدَّ القنبلة الذرية في مدة خمس سنوات ، وإذا أفرغت جهودها ، ووجهت قواها إلى صناعتها ، فيمكن أن تبلغ إلى نهايتها في سنتين).

ويقول البروفسور المذكور:

(وأنا على يقين أنَّه سيظهر في مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن في قوة الانفجار ، وستليها قنابل قوتها مليون طنّ ، ولا ينفع في التوقي منها دفاع أو احتياط ، إن ستَّ قنابل فقط من هذا القبيل تكفي في تدمير إنجلترا على بكرة أبيها ، وإنَّ العلماء الروسيين ينجحون في إعداد القنابل في مدَّةٍ قصيرةٍ جداً).

وقد اخترعت أمريكا قنبلة أخرى تفوق القنبلة الذرية في القوة والفظاعة ، وهي (Hydrogen Bomb) وقد جرى اختبارها للمرة الثانية في

المحيط الهادىء يوم ٢٦ من مارس سنة ١٩٥٤.

وقد ذكر المستر شارلس - ي - ولسن (Charles E. Wilson) سكرتير وزارة الدفاع أنَّ النتائج كانت هائلةً لا تكاد تصدق.

وقد ذكر المستر لويس استراس (Lewis Strauss) رئيس لجنة القوة الذرية في أمريكا أنَّ قنبلة هيدروجينية واحدةً تستطيع أن تبيد مساحة مدينة نيويورك الواسعة.

وقال العالم الطبعي الشهير، ونائب رئيس مجلس الأمن اللواء صاحب سنج في دهلي الجديدة:

إن أربع قنابل هيدروجينية وزن كل واحدة منها مئة طن تستطيع أن تقتل كل نسمة على وجه الأرض، وقد شاع أخيراً أنَّ روسيا اكتشفت القنبلة النتروجينية (Nitrogen bomb) التي هي أدهى وأمرُّ من القنبلة الهيدروجينية.

والذي خبث لا يخرج إلا نكداً:

وقد تضعضع أساس المدنية الأوربية، كما ذكرنا بتفصيل، ولم يزل بناؤه متزعزعاً، ولم تزده الأيام ولم يزده الارتفاع إلا زيغاً واختلالاً، وفسدت بذرتها فلم تصلح شجرتها، ولم تطب ثمرتها ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وقد شرح ذلك في إيجاز الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي في أحد فصول كتابه (تنقيحات) بالأوردية قال:

(ظهرت الحضارة الغربية في أمة لم يكن عندها معينٌ صاف، ولا نبع عذب للحكمة الإلهية، لقد كان فيها قادة الدين، ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم، ولا شريعة إلهية، ولم يكن عندهم إلا شبح ديني لو حاول أن يسير بالنوع الإنساني على صراط مستقيم في طرق الفكر والعمل لما استطاع، ولم يكن له إلا أن يكون حجر عثرة، وسدّاً في سبيل ارتقاء العلم والحكمة، وهكذا كان، وكان عاقبة ذلك أنَّ الذين كانوا يريدون الرقي نبذوا

الدين بالعراء ، واختاروا طريقاً لم يكن دليلهم فيها إلا المشاهدة ، والاختبار ، والقياس ، والاستقراء ، ووثقوا بهذه الدلائل التي هي في حاجة بنفسها إلى الهداية والنور ، وجاهدوا ، واجتهدوا باحتذائها في طرق الفكر ، والنظر ، والتحقيق ، والاكتشاف ، والبناء ، والتنظيم ، ولكن ضلَّت خطوتهم الأولى في كلِّ جهة وفي كلِّ مجال ، وانصرفت فتوحهم في ميادين العلم والتحقيق ، ومحاولاتهم في سبيل الفكر والنظر إلى غاية لم تكن صحيحة ، إنهم بدؤوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية ، نظروا في الكون على أنه ليس له إله ، نظروا في الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس ، وليس وراء هذا الستار الظاهر شيء ، إنهم أدركوا نواميس الفطرة بالاختبار ، والقياس ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها ، إنهم وجدوا الموجودات مسخرةً ، واستخدموها لأغراضهم ، ولكنهم جهلوا أنهم ليسوا سادتها ومديريها ، بل هم خلفاء سيدها الحق ، فلم يروا أنفسهم مسؤولين عنها ، ولم يروا على أنفسهم عهدةً وتبعةً ، فاختل أساس مدنيتهم ، وتهذيبهم وانصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة النفس ، واتخذوا إلههم هواهم ، وفتنتهم عبادة هذا الإله ، وسارت بهم هذه العبادة في كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرقٍ زائغةٍ ، خلابةٍ ، رائعةٍ ، ولكن مصيرها إلى الهلاك .

هذا هو الذي مسخ العلوم الطبيعية ، فصارت آلة لهلاك الإنسان ، وصاغ الأخلاق في قالب الشهوات ، والرياء ، والخلاعة ، والإباحة ، وسلط على المعيشة شيطان الأثرة ، والشح ، والفتك ببني النوع ، ودسَّ في عروق الاجتماع وشرايينه سموم عبادة النفس ، والأنانية ، والإخلاد إلى الراحة والتنعيم ، ولطخ السياسة بالجنسية والوطنية وفروق اللون ، والنسل ، وعبادة إله القوة ، فجعلها لعنةً كبرى للإنسانية .

والحاصل : أنَّ الذرة الخبيثة التي ألقيت في تربة أوربة في نهضتها الثانية لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة ، ثمارها حلوة ، ولكنها سامَّة ، أزهارها جميلة ، ولكنها شائكة ، فروعها مخضرة ، ولكنها تنفث غازاً ساماً لا يرى ، ولكنه يسمم دم النوع البشري .

إنَّ أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة قد مقتوها ، وأصبحوا يتذمرون منها ، لأنها خلقت في كل ناحية من نواحي حياتهم مشاكل وعقداً لا يسعون لحلها إلا وظهرت مشاكل جديدة ، ولا يفصلون فرعاً من فروعها إلا وتطلع فروع كثيرة ذات شوك ، فهم في معالجة أدوائهم وإصلاح شؤونهم كمعالج الداء بالداء ، وناقش الشوكة بالشوكة. إنهم حاربوا الرأسمالية ، فنجمت الشيوعية ، إنهم حاولوا أن يستأصلوا الديمقراطية ، فنبعت الدكتاتورية ، أرادوا أن يحلُّوا مشاكل الاجتماع ، فنبتت حركة تذكير النساء (Feminism) وحركة منع الولادة ، أرادوا أن يشترعوا قوانين لاستئصال المفاسد الخلقية ، فاشرأبت حركة العصيان والجناية ، فلا ينتهي شر إلا إلى شر ، ولا فساد إلا إلى فساد أكبر منه ، ولا تزال هذه الشجرة تثمر شروراً ومصائب ، حتى صارت الحياة الغربية جسداً مقروحاً ، يشكو من كل جزء أوجاعاً وآلاماً ، وأعيا الداء الأطباء ، واتَّسع الخرق على الراقع ، الأمم الغربية تتململ ألماً ، قلوبها مضطربة ، وأرواحها متعطشة إلى ماء الحياة ، ولكنها لا تعلم أين معين الحياة. إنَّ الأكثرية من رجالها لا تزال تتوهم أنَّ منبع المصائب في فروع هذه الشجرة ، فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ، ويضيعون أوقاتهم وجهودهم في قطعها ، إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد في أصل الشجرة ، ومن السفاهة أن يترقب الإنسان أن ينبت فرعٌ صالح من أصلٍ فاسدٍ ، وفيهم جماعةٌ قليلةٌ من العقلاء أدركوا أنّ أصل حضارتهم فاسدٌ ، ولكنهم لما نشؤوا قروناً في ظل هذه الشجرة ـ وبأثمارها نبت لحمهم ، ونشز عظمهم ـ كلَّت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلاً آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعاً وأوراقاً صالحةً سليمةً ، وكلا الفريقين في النتيجة سواء ، إنهم يتطلبون شيئاً يعالج سقمهم ، ويريحهم من كربهم ، ولكنهم لا يعلمونه ، ولا مكانه)[1].

* * *

(١) تنقيحات : مقالة أمم العصر المريضة ص ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦.

في سبيل الجهاد[1]

بدأ المسلمون في الهند على مر الأيام يتجرَّدون عن صفات الفروسية ، وأخلاق الأمم الفاتحة التي امتازوا بها في الماضي ، وفتحوا بها هذه البلاد الواسعة بجيشٍ قليلٍ ، وعددٍ ضئيل ، وفشت فيهم الرخاوة والرقة ، وأخلدوا إلى الراحة والتنعُّم ، وضعفت فيهم الحميَّة الإسلاميَّة ، والغيرة الدينية ، فكان الثعبان الإنجليزي يبتلع بلاد المسلمين بلداً بعد بلد ، وقطعةً بعد قطعة ، وهم منغمسون في شهواتهم ، عاكفون على لذَّاتهم ، لا يحرك ذلك منهم ساكناً ، ولا يقضُّ مضجعاً ، وتفاقم[2] هذا الداء ، حتى بدؤوا ينظرون إلى حياة الفروسية ، وخلال الفتوة ، وإلى السلاح وعدة الحرب بعين الاحتقار والازدراء ، ويعتبرونها شعاراً للجهال والأجلاف[3] ، ورعاع الناس ، ويعتقدون : أنَّ ذلك لا يجتمع مع العلم ، والعبادة والوقار .

وكان السيد قد ملكته فكرة الجهاد في سبيل الله ، وتحرير بلاد المسلمين من المغتصبين وإعلاء كلمة الله ، وإعادة مجد الإسلام ، واستولت على مشاعره وأعصابه ، وأصبحت له الشغل الشاغل ، والهم الوحيد ، فكان أكثر حديثه عنه ، وأكبر اهتمامه به ، وأعظم اعتنائه بما يعينه على ذلك .

وشغف بالتربية الحربية ، والرياضات البدنية منذ ريعان الشباب ، كان أكثر لعبه وتسليته بالمعارك الحربية التي يقيمها مع أقرانه وأترابه من غلمان

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة (البعث الإسلامي) في عددها التاسع ، المجلد السابع عشر ، عام ١٩٧٣ م .

(٢) تفاقم الأمر : عظم ولم يجر على استواء .

(٣) الجلف : الغليظ الجافي الأحمق . ج أجلاف .

قريته ، وشباب عشيرته ، ودخل في سنة ١٢٢٧ هـ في جيش القائد المسلم الشهير نواب ميرخان مؤسس إمارة (تونك) الإسلامية ، وخاض معه في حروب دامية ، ومعارك فاصلة ، ورافقه في مغامراته ليتمرن على الحرب ، وعلى قيادة الجيوش ، وليحقق بها أمنيته اللذيذة العزيزة ، وهي إجلاء الغاصبين ، وإقامة حكومة إسلامية شرعية ، ولم يفارقه إلا حين صالح القائد الإنجليز ، وقبل أن يكون أميراً في منطقة صغيرة.

وقد أثرت هذه الرغبة، وهذا الذوق الذي غلب على كل ذوق في أصحابه ورفاقه ، وسرى فيهم ، فتحولت القرية الهادئة ـ التي لم تعرف في الأيام الماضية إلا العبادة ، والذكر والتسبيح ـ إلى ثكنة ، ومركز تربية حربية ، فلا ترى فيها إلا التمرن على الرمي وإطلاق النار ، والمسابقة في أنواع الفروسية وما ينفع في الحرب، يساهم فيها العلماء، والأساتذة الكبار ، وأبناء البيوتات الشريفة، وكبار الأغنياء، والجهال ، والأميُّون ، والشباب والكهول ، وكبر ذلك على بعض العلماء والعباد الذين قصدوه من أنحاء بعيدة ، لينصرفوا إلى حياة الزهد والعبادة، والانزواء والتبتل ، وحنوا إلى العهد السابق حين كنت لا تسمع إلا دوياً كدويِّ النحل ، وأزيزاً[(١)] كأزيز المراجل، وكلموه، ولكنه لم يجب طلبهم ، وأفهمهم أنَّ ذلك أفضل ، وأنَّ المسلمين إلى ذلك أحوج، وذكر لهم ما ورد في فضل الرباط في سبيل الله ، وعين تحرس[(٢)] ، وقدم تغبَّر في الجهاد[(٣)] ، فاقتنعوا ، ورافقوا إخوانهم في الاستعداد للجهاد[(٤)].

ولما زار السيد «لكناؤ» في سنة ١٢٣٤ هـ وعليه سلاحه ، قال له أحد الضباط الكبار ، وهو عبد الباقي خان: يا سيدي! إنَّ كلَّ أمرك حسن جميل

---

(١) الأزيز: الحركة والاهتياج والحدة.

(٢) روى الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً: عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله. جامع الترمذي (١٦٣٩) .

(٣) رُوي عن أبي عبس رضي الله عنه مرفوعاً « ما اغبرت قدما عبدٍ في سبيل الله فتمسه النار » أخرجه البخاري (٢٦٥٦) والبيهقي في السنن (١٨٢٩٦) .

(٤) اقرأ ما دار من حديث بين الإمام السيد أحمد الشهيد ، وبين الشيخ محمد يوسف البهلتي من كبار العلماء وعباد جماعته في (سيرة سيد أحمد شهيد) للعلاَّمة الندوي.

إلا شيئاً واحداً تلازمه ، إنَّ ذلك لم يفعله أحد من أجدادك الكرام ، وأنت من بيت دينٍ وصلاحٍ ، ومشيخةٍ وعلماء ، وكان يجمل بك أن تقلدهم في زيهم وشعارهم وأساليب حياتهم ، ولا تأتي بشيءٍ جديد ، ولا تفعل ما لم يفعلوه.

قال السيد: ما هو ذاك يا شيخ عبد الباقي خان!؟

قال الضابط: هذا السلاح الذي تلازمه ، وتخرج فيه دائماً ، إنه شعار الجهال الأجلاف ، إنه لا يجمل بك ، ولا يليق.

واحمرَّ وجه السيد غضباً ، ورُئيت الكراهة في وجهه ، ولكنه ملك نفسه وقال: سامحك الله أيها الضابط الكبير ، فما أصبت القول ، وما هُديت إلى الرشد ، وحسبك في هذه الساعة: أنَّ هذه هي أسباب الخير التي أكرم الله بها أنبياءه ليقاتلوا بها الكفار والمشركين ، وكان لنبينا ﷺ منها النصيب الأكبر ، والقسط الأوفر ، وظهر الإسلام على كلِّ دين ، وانتصر الحق على الباطل ، والعدل على الظلم ، وأنت وآباؤك مدينون لهذا الجهاد أيضاً ، فمن يدري في أي دين كنت أنت وآباؤك لولا قيام المسلمين في القرون الأولى بالدعوة والجهاد ، وماذا كان مصيرك؟! وسكت الضابط الكبير ، وأطرق رأسه حياءً.

وكان كلَّما رأى شاباً قوي العضلات مفتول الذراعين تبدو على وجهه مخايل الفتوة والشهامة ؛ فرح واستبشر ، وتلقاه بالترحيب ، وأنزله منه منزلاً خاصاً ، لأنه يرى فيه الغناء في الجهاد.

زاره أربعة فتيان من قرية قريبة ، ذوو قامات فارعة ، وأبدان قوية ، فهشَّ لهم ، وبسط لهم وجهه ، ورفع منزلتهم ، وقال: هؤلاء أحبُّ إليَّ من أبناء المشايخ ، والشباب المتنعمين ، فغناؤهم قليل في ميدان الجهاد ومعترك الحرب ، أما هؤلاء ؛ فيستطيعون أن ينصروا الإسلام ، ويكتووا بنار الحرب.

وتعجب هؤلاء ، وكانوا في الجيش يتقاضون رواتب زهيدة ، ولم يكونوا على شيءٍ من العلم والثقافة ، ولم يكونوا يتوقعون هذه الحفاوة ، والإكرام البالغ ، فأحبُّوا السيِّد ، ولزموه ، ورافقوه في الهجرة والجهاد ،

فمنهم من أكرمه الله بالشهادة ، ومنهم من طالت به الحياة ، فعاش على الدين والصَّلاح والنصح للإسلام والمسلمين لإعلاء كلمة الدين.

هدية طريفة:

عرف الناس شغف السيد بالجهاد وأسبابه ، وكل ما يعين عليه ، فصاروا يتقربون إليه بما يسرُّه ، ويقرُّ عينه ، وتسابقوا في ذلك ، وتنافسوا ، وكان أحبَّ الناس إليه من يحدثه في هذا الموضوع ، وكان أحبَّ هدية إليه ما ينفعه في الحرب من سيفٍ ماض ، وبندقيةٍ من أحدث طراز ، ومسدسٍ من أجود الأنواع ، وفرسٍ جواد ، وكان للشيخ «غلام علي» أحد كبار الأغنياء في مديرية (إله آباد) القدح المعلَّى في ذلك ، فكان لا يزور السيد إلا ومعه هدية من سلاح ، ولو كان ذلك مرَّة ، أو مرتين في يوم ، وقد قام بتهيئة كلٍّ ما تقع إليه الحاجة في السفر ، أو في ميدان الحرب ، وقد بالغ في ذلك وتطرف ، وقام بالقسط الأوفر في تجهيز الغزاة ، وتسليح المجاهدين ، وتزويد المسافرين.

ولكن أعجب هدية أهديت إليه ما تقدَّم به الشيخ (فرزند علي) أحد كبار ملاك مديرية (غازيفور) وأعيانها ، فقد جاء إلى (رائي بريلي) ومعه ولده الشاب المسمى بـ (أمجد) فقدمه إلى السيد قائلاً: إنني نذرته لله ، كما نذر إبراهيم ـ عليه السلام ـ ابنه إسماعيل لله ، فرجائي أن تأخذه معك إلى الجهاد ، فيذبح في سبيل الله بسيف الكفار.

وهكذا كان ، فقد أكرمه الله بالشهادة ، فوفى الشابُّ البارُّ نذر أبيه ، وأقرَّ عينه ، وبيَّض وجهه ، وخلد ذكره ، ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ولما علم الناس عزم السيد على الرحيل، وشاع في الناس حديث الجهاد والهجرة؛ حدا بالناس حادي الشوق، ورنَّ في آذانهم النداء الرباني: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ٤١] طرب الناس ، وهرعوا إلى الجهاد والنفير ، وتسابق الآباء والأبناء ، والإخوة والأشقاء ، حتى اقترعوا بينهم.

يقول الشيخ جعفر علي صاحب كتاب (منظورة السعداء في أحوال الغزاة والشهداء): لما بلغنا قصد السيد الهجرة، وأنَّه على جناح سفر، أراد أبونا السيد قطب علي وشقيقنا السيد حسن علي أن يلحقا به، وأردت كذلك، واستشرف كلٌّ واحدٍ منا لهذا المقصد الأسنى، ووقع التنافس، كلٌّ يريد أن ينال هذه السعادة، ويحظى بهذا الشرف، حتى وقع التحاكم إلى أمِّنا، ورفعت إليها القضية، وحكمت لي، ووجهت إلى السيد وهو في مركز المجاهدين في الحدود، فاستقبلني خارجاً من مقرِّه، ومشى بعيداً، وأطلق البنادق فرحاً بقدومي، وإعلاناً بوصول فرقة من المجاهدين من ناحية الهند، ورحَّب بي أكبر ترحيب، واختارني كاتباً لرسائله، وألحقني بفرقة الشيخ إسماعيل الشهيد.

وداعاً أيها الوطن العزيز:

مكث السيد بعد ما قفل من الحج عاماً كاملاً وعشرة أشهر(١) في وطنه، يستعدُّ للهجرة والجهاد، يكتب لذلك الرسائل البليغة التي تثير الحمية الإسلامية، وتُزَهِّدُ في حبِّ العافية والسلامة، وإيثار الأهل والوطن، ويرسل لهذا الغرض الدعاة والمرشدين من كبار العلماء والخطباء، ينفخون في الناس روح الجهاد، ويلهبون فيهم جذوة الإيمان، والشوق إلى الشهادة، ويذكرون لهم ما ورد في فضل الجهاد، والشهادة في سبيل الله في القرآن والحديث، وما وعد الله عليه من الرضا والكرامة، والأجر الجزيل، وما عوقب به المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على ترك هذا الركن الذي هو (سنام الإسلام)(٢) من ذلٍّ، وهوانٍ، وعبوديةٍ، وخزيٍ، وانقراض دولٍ وحكومات إسلامية، وانطماس معالم الدين، وزوال شعائره، وما كان لذلك من شؤم ونكد عمَّ الحياة كلها، وظهرت

---

(١) من ١ رمضان ١٢٣٩ هـ إلى ٧ جمادى الآخرة ١٢٤١ هـ.

(٢) رواه أحمد (٥/٢٣٧)، والطبراني في الكبير (٢٠/١٤٣) عن معاذ بن جبل حديثاً طويلاً جاء فيه: ثم قال ألا أدلك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد.

آثارهما في كل مجال وفي كل بلد ، حتى كان لغير المسلمين ، وللدوابِّ والأنعام ، وللزرع والضرع ، نصيب من هذا الشؤم ، وذلك كلُّه بإخلال المسلمين بواجبهم ، وانغماسهم في شهواتهم ، ومصالحهم الفردية[1].

وقد تواتر واستفاض من سوء حال المسلمين في (بنجاب) وهوانهم فيها ، وظلم الحكام ، وعدائهم للإسلام ، وإهلاكهم للحرث والنسل ، وهمجية رجال الجيش ، ونهبهم للأموال والأملاك ، واختطافهم للأولاد والنساء ، وانتهاكهم للحرمات ، وإهانتهم للمساجد ، ومنعهم عن ممارسة بعض شعائر الدين[2] ، كأنَّ المسلمين في بنجاب يخاطبون إخوانهم في الهند ، ويقولون بلسان حالهم :

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء : ٧٥].

فعزم السيد على أن يبدأ عمله من هذه المنطقة البائسة التي وقع المسلمون فيها فريسةَ حكمٍ استبداديٍّ وعداءٍ دينيٍّ ، ثم يتقدَّم منها إلى الهند التي أصبحت مطية ذلولاً للإنجليز ، يركبون ظهرها ، ويحلبون ضرعها ، وينتفون صوفها ، ويسيئون علفها وسقيها ، وكان لا بدَّ من الهجرة من منطقة نفوذهم ، ومركز حكمهم إلى منطقة حرَّة بعيدة من تأثيرهم ، يتمتع

---

(١) اقرأ الفصل الرابع الرائع من الباب الثاني من كتاب (الصراط المستقيم) الذي هو مجموع أمالي السيد ، واقرأ فيه منافع الجهاد وبركاته العامة للخلق كله (ص ٩٥ ـ ٩٦] واقرأ الرسائل البليغة التي أرسلها إلى أمراء المسلمين وملوكهم ، وكبار العلماء والمشايخ ، وإلى أقيال الهند وأمرائها من غير المسلمين في (سيرة سيدأحمد شهيد) (الطبعة الرابعة).

(٢) اقرأ ذلك مفصلاً في كتب المؤرخين الإنجليز والهندوس كـ (كولونل مالكوم) و(ليبل كريفن) و(كنهيالال) وغيرهم ، وقد صور شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال هذه الفترة التي مرت في تاريخ الهند تصويراً دقيقاً في بيت واحد يقول فيه : إن (السيخ) انتزعوا السيف والمصحف من أيدي المسلمين ، إن الإسلام قد مات في هذه المنطقة.

أهلها بالغيرة والأنفة والفروسية ، قد مارسوا صناعة الحرب زماناً ، ونشؤوا عليها ، واكتووا بنارها.

وكانت هذه المنطقة هي الحدود الشمالية بين أفغانستان وبنجاب التي عرف أهلها بشدة الشكيمة[1] والفتوة ، والاحتفاظ بالحرية ، وعدم الاستسلام للعدو الفاتح ، ودوام الاشتغال بالغزو والقتال ، وكان عدد كبير من أصحاب السيد ينحدر من هذه الأصول الأفغانية ، وينتمي إليها ، وقد نزح آباؤهم في أوقات مختلفة إلى الهند التماساً للرزق ، أو طمعاً في جاهٍ ومنصب ، ودخلوا في الجيش ، وخدموا الحكومة المغولية ، أو إمارة (أوده) الإسلامية ، وكان منهم قادة وضباط وأمراء في أنحاء الهند ، مضى ذكر بعضهم ، وكانوا مادَّةَ الجيش في لكناؤ ، وما جاورها من المدن والقرى ، وكان للسيد في هؤلاء الأفغان خير أصدقاء ، وخير تلاميذ روحيين ، ومبايعين ، وأنصار ، فحثوه على الهجرة إلى هذه المنطقة التي لا يزال لهم فيها خؤولة وأعمام ، وإخوان وأصدقاء ، وقبل السيد هذا الاقتراح ، وصمَّم على أن يهاجر إليها ، ويتخذها قاعدة لحركته ونشاطه و(نقطة انطلاق) إلى الأمام.

وتمَّ الاستعداد ، وجاء اليوم المنتظر الذي كان يعدُّ له السيد الأيام عداً ، فكان يوم عيد وسرور ، لا يعدله عيدٌ ولا سرور.

كان ذلك يوم الإثنين، اليوم السابع من جمادى الآخرة سنة ١٢٤١ هـ[2]، وكان يوماً مشرقاً زاهياً ، وكانت قد نصبت له خيمة في الجانب الجنوبي على شاطىء النهر المقابل ، وقد قضى نهار الإثنين في توديع الإخوة والأقارب ، والأصدقاء الذين جاؤوا من كلِّ صوب وناحية لتوديعه ، وللقائه الأخير الذي لا لقاء بعده ، وقد اغرورقت عيون كثير منهم بالدموع ، وغالب بعضهم البكاء ، أما السيد فكان يغلب عليه السرور ، ويعلو وجهه البشر ، فقد جاء اليوم المبارك الذي كان ينتظره بصبرٍ نافد ، ونفس توَّاقة.

---

(١) فلان ذو شكيمة: أنوف أبي لا ينقاد. والشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس.

(٢) الموافق ١٧ يناير سنة ١٨٢٦ م.

وركب السيد القارب في الليل، ورافقه كثير من أقاربه وإخوانه يشيِّعونه، ويحيونه التحية الأخيرة، فكان بعضهم في القارب، وكان بعضهم يعبر الماء، ولما وصلت السفينة الشاطىء نزل السيد فصلى ركعتين شكراً، ودعا فأطال الدعاء، وأكثر التضرع والابتهال، إنه لم يصل شكراً على فتح بلد، أو ورود بشارة، ولكنه صلى شكراً على أنَّ الله وفقه للهجرة والجهاد، وأنه خطا أول خطوة في هذا الطريق الذي سلكه الأنبياء من قبل، وسيد الأنبياء وأصحابه، والتابعون لهم بإحسان فيما بعد، وأنه قد آن أوان قضاء نحبه، والوفاء بنذره.

ألقى السيد النظرة الأخيرة على هذه القرية التي أحبَّها وأحبته، أول أرض مسَّ جسمه ترابها، وقد ولد، ونشأ، وترعرع في أحضانها، وألف حدائقها، وأشجارها، ووهادها، وأنجادها، سبح في نهرها، ولعب في رحابها، وركع وسجد في مسجدها الذي بناه جدُّه الكبير على غرار الكعبة المشرفة وهيئتها[1]، وكانت له فيها أيام طابت ولذَّت، وساعات صفت وحلت، إنه لم يملها ولم تمله، ولم ينكر من أمرها شيئاً، إنَّه لا يزال يحبُّها ويشكر أهلها، ويدعو لهم، ولكنه إيثار لمرضاة الله على مرضاته، وحظِّ الإسلام على حظه، وهدوء الضمير ونعيم القلب، على راحة الجسد ومتعة البدن، إنه نداء الإيمان والواجب، وحداء الشوق والحنين، ووقوف عند قول الله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

---

(١) بناه العارف الكبير علم الله بن محمد فضيل الحسني (١٠٣٣ هـ - ١٠٩٦ هـ) في سنة ١٠٨٣ هـ عند عودته من الحرمين على شاطىء نهر (سيء) مطابقاً للكعبة المشرفة في التصميم والمساحة والهيئة، فليست له قباب ومنابر كما جرت العادة في بناء المساجد، والسيد علم الله هو جد السيد أحمد الشهيد الرابع.

ثكنةٌ عامرةٌ ومدرسةٌ حربيةٌ[1]:

قد رسخت في المجاهدين الآداب والتعاليم التي أخذهم بها قائدهم ومربيهم ، وانصبغوا بها ، وأصبحت لهم طبيعة لا تفارقهم في الظعن والإقامة ، وفي الرضا ، والغضب ، ولا تفرق بين عدو وصديق ، وقريب وبعيد ، وهنا أنموذج من هذه الأمانة التي أصبحت لهم شعاراً؛ وخلقاً ، وطبيعة.

خرج فتح علي من عسكر المجاهدين في (بنجتار) إلى مدينة (بشاور) للعلاج ، واتفق نزوله عن ضابط من ضباط (السيخ) والحرب قائمة بينهم وبين المسلمين.

قال الضابط: من أين أنت يا أخا المسلمين! وكيف أقبلت؟! أخبرني بشأنك ولا تخف.

قال فتح علي ـ وقد تشجع وتجلد ـ: إنما جئت من الهند مع الأمير السيد أحمد ، وأنا رجل من المسلمين في جيشه.

وإنَّ رجاله أيها الرئيس قوم لا يكذبون أبداً، ولا يخدعون أحداً ، صديقاً كان أو عدواً ، فإن الأمير أدَّبهم هكذا ، وإنَّ الأمير أيها الرئيس صاحب أخلاق عالية ، صاحب كرم وسخاء ، وفتوة ومروءة ، صادق الوعد ، محافظ على العهد ، وإنَّ اللسان ليعجز عن وصفه ، وتكون مسروراً جداً إذا قابلته ، وهو ولي من أولياء الله ، فمن آذاه آذنه الله بالحرب.

قال الضابط: صدقت يا أخا المسلمين! وقد سمعت عن صاحبك من قبل ما شوقني إلى لقائه ، وأنا أنوي زيارته ، وأنتظر أن يرجع أخي من لاهور ، فإما أن أزوره أنا ، أو أرسل إليه أخي.

وتحدَّث معي يا أخا المسلمين كل يوم في السر عن صاحبك! فإنِّي أريد أن أسمع عنه كلَّ يوم.

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة (البعث الإسلامي) في عددها العاشر المجلد السابع عشر ، عام ١٩٧٣ م.

قال فتحِ علي: إنَّ الأمير أيها الرئيس! صاحب شهامة وكرامة، وهو من دماثة الخلق، ولين العريكة، بحيث إذا رآه أحد، وجلس إليه ما أحب أن يفارقه، وسأرجع إن شاء الله بعد أربعة أيام أو خمسة، وبودي أيها الرئيس أن أتفرج مرَّة على قلعة خير آباد، وقلعة (أتك) فإن الناس يسألونني عنهما ولا أدري بماذا أجيبهم.

قال الضابط: عجباً لك يا أخا المسلمين أنتم حرب لنا، ومن أنصار عدونا الأمير السيد أحمد، فكيف تجسر على هذا الكلام، وتقترح عليَّ أن أمكنك من زيارة قلاعنا الحصينة، والاطلاع على مراكز قوتنا، ومخازن سلاحنا، ألا تخاف؟

قال فتح علي: وماذا أخاف أيها الرئيس؟ إن أصحاب الأمير لا يخافون إلا الله، وقد آنست منك كرماً، ورجوت أن أزور بواسطتك تلك القلاع.

ضحك الضابط، وقال: لا تجد يا أخا المسلمين عليَّ في نفسك! فإنما قلت ذلك عن دعابة، وسأكتب لك كتاباً تسلمه إلى الحارس فيسمح لك بالدخول.

ودعا الضابط بالقلم والدواة، وكتب توصية إلى صاحب الحرس، وسلمها لفتح علي، وذهب فتح علي، وأذنوا له بالدخول، فدخل في القلعة فطاف في نواحيها.

ورجع فتح علي في آخر النهار فوجد مضيفه الضابط سكران يهذي، وفي عنقه عقد ثمين من ذهب، وفي أذنه قرط من ذهب، وبجانبه سيف قبضته من ذهب.

ولما رأى فتح علي قال: أزرت قلعة (أتك) يا أخا المسلمين؟!

قال فتح علي: نعم، وغلبت الضابط عينه فنام.

قال فتح علي: وبقي الضابط نائماً، وخفت أن يدخل بعض اللصوص - وهم في هذه الناحية كثير - فيأخذوا سلاحه وماله وهو نائم لا يشعر.

قال: فأخذت هراوة وطفقت أدور على الباب ، وأحرس البيت.

واستيقظ الضابط في نصف الليل ، فرآني أدور وأحرس فقال: ألا تزال يقظانَ يا أخا المسلمين؟!

قلت: نعم كنتَ سكران نائماً ، وهذه أموالك مطروحةٌ هنا ، فخفت أن يدخل بعض اللصوص ويأخذها ، ويصل إليك مكروه فقمت أحرس.

وأنت أيها الرئيس! ضابطٌ كبيرٌ لا يجمل بمثلك أن تذهب الخمر بلبه ، ويبقى غافلاً لا يشعر.

قال: صدقت يا أخا المسلمين! فإن من العيب أن يقع من مثلي مثل هذا ، وحملته عينه فنام.

قال فتح علي: ولما كان الصباح وتعالى النهار ، أخذني معه إلى قلعة خيرآباد ، وتفرَّجت عليها ، ورجعت.

ولبثت معه ثمانية أيام ، وكان يسألني كلَّ يوم عن أخبار السيد الإمام ، وأخبره بحديثه ، وذات يوم قال لي: يا أخا المسلمين! قد نصحت لي ذلك اليوم في شأن الخمر ، وقد تبت اليوم من إكثارها حتى لا أشعر بشيء.

قال فتح علي: ورجعت إلى المعسكر آمناً.

تأثير المحيط في أخلاق الأجانب:

كانت أخلاق المجاهدين تؤثر في كلٍّ من زار هذه المستعمرة الإسلامية، ولو بنية فاسدة ، وقدر له أن يقضي بها أياماً ، فكانوا قوماً لا يشقى بهم جليسهم ، ومما يحكى: أنَّ رجلاً من قرية قريبة اسمه (بهليلا) كان ممن اشتهر بالقسوة ، وإيذاء الناس ، وقطع الطريق ، والإغارة على الناس ، وقد عيل منه صبر أهل القرى ، وضاقوا به ذرعاً ، فاجتمعوا ، ونفوه من القرية ، وعبر (بهليلا) نهر السند ، وساكن (السيخ) وجاورهم ، وجاراهم ، فبنوا له برجاً على شاطىء النهر ، وأقطعوه أرضاً للزراعة ، فصار يسكن في هذا البرج ، والتف حوله نحو خمسين وستين من أنصاره ، فكان يغير في ضواحي قريته القديمة (توبئي) ويأتي بالغنيمة إلى برجه فيعيش

عليها ، وقد استصحب معه مرة جماعات من السيخ ، وأغار على قبيلة أفغانية ، ونهب قريتها العامرة ، وقتل من أهلها ثمانين ، واستولى على هذه القرية ، وتدبرها ، واتخذها منطلقاً لغاراته وتحركاته ، وأقلق ذلك أهل الضواحي والقرى ، وأصبح لهم الشغل الشاغل.

وذهب أهل هذه القرى إلى السيد الإمام ، وطلبوا منه أن يريحهم منه ، ويكبح جماحه ، وعدهم السيد بذلك ، وكتب رسالة إلى (بهليلا) يقول فيها: (أنت رجلٌ مسلم فما يجمل بك أن تنهب إخوانك المسلمين ، وتعاكسهم ، وأولى بك أن تلحق بنا ، نستعمرك في قريتك القديمة ، ونردُّ إليك عقارك وأرضك ، ونضيف إليها قرية نقطعك إياها).

ولما تسلم (بهليلا) هذه الرسالة استشار زملاءه، فأشاروا عليه باللحوق، وقالوا: إنه إمامنا ، وصاحب الأمر فينا ، وإذا أراد بنا شراً رأينا ، فالتحق (بهليلا) ومن معه بالسيد ، ورحب السيد بهم ، وهشَّ لهم ، وقدم (بهليلا) ثلاثة أفراس ، وأربع بنادق ، وتسعة سيوف انتهبها من السيخ ، وقدم السيد هدايا لائقة إليه وإلى أصحابه ، وملابس ونقوداً ، وبايعوا السيد وتابوا عن الفسق والفجور ، وعن جميع المنكرات ، وضيفهم السيد ثلاثة أيام ، ووعظهم ، وودعهم ، ودعا بأمراء القرية ، ودعا (بهليلا) فأصلح بينهم ، واستردَّ له ما انتزعوه من أملاكه وعقاره ، وأقطعه قريةً على نهر السند على شاطىء النهر كانت قد خربت ، وكان يقطع فيها الطريق على المسافرين.

وقد تغيَّر حال (بهليلا) وحسنت سيرته ، وظهر غناؤه ، وَحُسْنُ بلائه في الحروب ، وكان من الذين نصر الله بهم الدين ، وقوى بهم المسلمين.

وزار السيد رجلان من (السيخ) يوماً ، وهو في (بنجتار) وسألهم السيد عن غرضهما بهذه الزيارة ، قالوا: لا شيء إنما جئناك نزورك . فقال لهما: مرحباً، فأقيما عندنا ما شئتما، ورتب لهما السيد مقداراً من الدقيق والعدس والسمن لطعامهما يومياً ، وكان من عادتهما أنهما يحضران مجلس السيد بعد صلاة الفجر ، وبعد صلاة العصر ، ثم ينصرفان إلى منزلهما ، وكان السيد يؤنسهما بحديثه، ويقول لهما: أقيما على الرحب والسعة، ولا تراعا.

بعد أن مضى على ذلك عشرة أيام أو أكثر قالا للسيد: لقد مكثنا عندك مدة ، واستمعنا إلى حديثك ، فوجدنا من سيرتك وأخلاقك فوق ما سمعناه ، وقد أعجبنا دينك وطريقتك ، ونحن نريد الآن أن تدخلنا فيها ، وتعلمنا الإسلام ، وفرح السيد بكلامهم ، ولقَّنهم كلمة الشهادة ، وسمَّى أكبرهما عبد الرحمن وأصغرهما عبد الرحيم ، وأسلمهما إلى الشيخ نظام الدين الجشتي ليعلمهما أحكام الإسلام وأعماله ، وخلع عليهم ثياباً وملابس ، ورتب لهما طعاماً واختتنا ، وحسن إسلامهما.

وأخبرا السيد بأن قائد جيش السيخ أرسلهما من خير آباد جاسوسين ، ولكن الله هدانا للإسلام ، وشرح صدورنا للإيمان ، وسرَّ السيد بصدقهما ، وخيَّرهما بين أن يقيما في الجيش الإسلامي ، وبين أن يرجعا إلى خير آباد ، فاختارا العودة ومكثا في المعسكر الإسلامي شهرين ، ثم استأذنا للعودة ، فأذن لهم السيد ، وأعطاهما فرسين ، وودَّعهما.

النظام القضائي والحسبة في المستعمرة الإسلامية:

وبعد أيام قليلة نَفَّذَ السيد النظام القضائي الشرعي، وولى العالم الأفغاني الجليل الشيخ محمد حبان رئاسة القضاء ، فكان قاضي قضاة المسلمين في هذه المنطقة ، ونصب في كل قرية قاض ومفت ، وصاحب حسبة ، وجباة وعاملون على الصدقات يجمعون العشر والزكاة من غير إجبار وإرهاق ، فيجتمع كلُّ ذلك في بيت المال ، ويقسم على الطريقة الشرعية.

واستشار القاضي محمد حبان علماء المهاجرين وعلماء البلاد ، فعين غرامات وتعزيرات على ترك الفرائض الشرعية ، وعلى الأعمال التي تنافي الأخلاق والآداب الإسلامية ، وما يلحق ضرراً بالمسلمين ، فزال كثيرٌ من المنكرات ، وارتدع كثيرٌ من الشطار والمستهترين والماجنين ، وكُفَّ عن المسلمين شرُّهم وأذاهم ، وكثر عدد المصلين ، وظهر تفسير لقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

* * *

العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري[1]

أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر :

ينبغي ـ ونحن في هذه الدراسة ـ ألا نغفل حقيقةً ذات شأنٍ ، وهي : أن العصر الذي يولد فيه الإنسان ، والعالم الذي يعاصره ، والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه ، هو كالنهر الجاري ، تتَّصل كلُّ موجةٍ فيه بالموجة الأخرى ، وتتَّسق معها ، فلا يمكن ـ لأجل ذلك ـ أن يبقى بلد ـ مهما كان بعيداً نائياً يعيش في عزلةٍ عن سائر العالم ـ غير متأثرٍ بالأحداث الخطيرة والثورات العظيمة ، والقوى المتحاربة ، والحركات المؤثرة القوية؛ التي تجري في بلدان العالم الأخرى ، لاسيما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع والثورات والتطورات بلداً يشاركه في العقيدة والمذهب ، والمشرب ، ويجاوره في المكان ، ولذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب ، بل يلزمه أن يلقي نظرةً عامَّةً على العالم الإسلامي كلِّه في القرن العاشر ، لاسيما البلدان المسلمة المجاورة ؛ التي كانت بينها وبين الهند أواصر علمية ، ودينية ، وحضارية ، وكانت تصل إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة ، ونفحاتها الرخية الناعمة ، على بعد الدَّار ، وطول المسافة.

الوضع السياسي :

لقد نال الشرق الأوسط ـ وهو المنطقة المركزية للعالم الإسلامي ـ في

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها التاسع والعاشر ، المجلد السابع والعشرون ، عام ١٩٨٣ م.

أوائل القرن العاشر ـ بعد زمن طويل ـ (ولعله بعد السلطان صلاح الدين الأيوبي المتوفى ٥٨٩ هـ) استقراره السياسي ، واجتمعت البلدان العربية الواقعة في آسيا الغربية تحت الراية التي كان رافعوها يعتزُّون بلقب «حامي الإسلام ، وخادم الحرمين الشريفين ، وحارس المسلمين» وكانوا قد نفخوا في الخلافة الإسلامية ـ التي عادت في مصر كالبابوية النصرانية بعد استشهاد آخر الخلفاء العباسيين «المستعصم بالله عام ٦٥٦ هـ» حياةً جديدة ، ولو كان ذلك تحت مصالحهم السياسية ، فقد فتح ياور السلطان سليم الأول مؤسس الخلافة العثمانية ـ ٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ بلاد الشام عام ٩٢٢ هـ ، ومصر عام ٩٢٣ هـ ، التي كانت تحت حكم المماليك منذ قرنين ونصف قرن من الزمان ، وكان حاكم مصر ـ حين زحف إليها السلطان سليم ـ قانصوه الغوري ، وأعلن السلطان سليم في نفس سنة ٩٢٣ هـ إعادة الخلافة ، وأنه خادم الحرمين الشريفين ، ووصَّى أميناً عليهما من قبل المسلمين ، ودخلت بعد ذلك جزيرة العرب ، ثم البلدان العربية الإسلامية ، الواقعة في إفريقية الشمالية ـ عدا المغرب ـ تدريجياً تحت حكم السلطان سليم ، ثم تحت حكم خليفته السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ) الذي يذكره المؤرخون الغربيون باسم Sulaiman The Magnificent يعني: سليمان الكبير العظيم.

وقد كان عهد سليمان ـ الذي ولد الإمام السَّرهندي قبل وفاته بثلاث سنوات ـ عهد ازدهار الإمبراطورية العثمانية ، ورقيِّها ؛ إذ كانت ترفرف رايتها على النمسا ، والمجر في أوربة ، وتزحف جيوشها المنتصرة ـ في جانب آخر ـ إلى إيران ، وكانت العراق كذلك ، مثل الشام ومصر ، انضمت إلى مملكته الواسعة ، فكان حاكماً لأكبر إمبراطورية على الأرض في عصره ، أما في عهد السلطان مراد الثالث ٩٨٢ ـ ١٠٠٤ هـ فقد اشتملت مملكته على جزيرة قبرص ، وتونس ، وعدد من ولايات إيران ذات الخصب ، والريع الكثير ، واليمن ، وتمَّ في عصره عام ٩٨٤ هـ بناء الحرم المكي الشريف ، وكان الإمام السَّرهندي ـ إذ ذاك ـ قد بلغ سن الشعور وليس ببعيد أن يكون على علم بهذه الأحداث ، وطبيعي أن يكون المسلمون

في ذلك العصر ـ ولو كانوا مسلمي الهند ـ يشعرون بفرح ، واعتزاز إزاء فتوح الدولة العثمانية ، واتساع رقعتها ، وقد كان الأتراك العثمانيون معروفين بصلابتهم في العقيدة السنية ، وتمسكهم بالمذهب الحنفي ، الذي كانت تدين به أكثرية مسلمي الهند.

وظهرت في بداية هذا القرن عام ٩٠٥ هـ الأسرة الصفوية في إيران ، وكان مؤسس الدولة الصفوية الشاه إسماعيل الصفوي ٩٠٥ ـ ٩٣٠ هـ ، وقد أحكمت هذه الأسرة ـ تدريجياً ـ استيلاءها على هذه المنطقة كلها ، واستقلت استقلالاً تاماً ، وكانت حكومة قوية إزاء الدولة العثمانية ، وقررت المذهب الإمامي الجعفري ـ خلافاً للدولة العثمانية ـ مذهب الدولة الرسمي ، واستخدم إسماعيل الصفوي كل الوسائل ، واستغلَّ السلطة لنشر هذا المذهب ، والدعوة إليه ، وحاز في سبيل ذلك نجاحاً عظيماً منقطع النظير في تاريخ الحكومات التي تعنى بتحويل الاتجاه الديني للمصالح السياسية ، فأصبحت هذه الحكومة ـ بعد أن أقامت على حدودها سوراً بشرياً يقوم على الخلاف المذهبي ـ بمعزل عن أن تذوب في دولة العثمانيين التي انتشر فيها من يشاركهم في المذهب السنِّي الحنفي ، من القسطنطينية إلى لاهور ودلهي ، وكانت الأسرة الصفوية تحكم من بغداد إلى هرات.

وكان شاه عبّاس ٩٩٥ ـ ١٠٣٧ هـ الذي هو أعظم سلاطين هذه الأسرة ، ويعرف في التاريخ بشاه عباس الكبير ، والذي يستحقُّ لأعماله البنائية أن يدعى شاهجان[1] أسرته ، معاصراً للإمام السَّرهندي ، وقد بلغت الدولة الصفوية في عصره أوجها ، وذروة مجدها ، فحارب الأتراك ، واحتلَّ نجف ، وكربلاء ، وكان هو معاصراً للملك جلال الدين أكبر ، والملك نور الدين جهانكير ، وأصيبت هذه الأسرة بعد شاه عباس بالضعف والزوال.

وكانت البقعة الثانية من بقاع العالم الإسلامي الهامة بلاد تركستان التي دامت لقرون طويلة مركزاً للحضارة الإسلامية ، والثقافية العربية الدينية ،

---

(١) هو الإمبراطور شهاب الدين شاهجهان بن جهانكير التيموري (م ١٠٧٥ هـ) باني التاج محل في آكره ، والجامع الكبير في دلهي.

وتعرف في الكتب القديمة بـ «ما وراء النهر» وكانت لها مساهمةٌ كبيرةٌ ـ بعد العراق ـ في تدوين الفقه الحنفي ، وخلفت عدداً من الكتب القيمة الخالدة[1] التي لا تزال مقررةً في مناهج الجامعات الإسلامية في الهند ، ونشأت فيها الطريقة النقشبندية ـ التي ينتسب إليها الإمام السَّرهندي وشيوخه ـ ونمت ، وترعرعت ، وانتشر منها في أجزاء العالم الإسلامي ، لقد دخلت هذه البلاد ـ المخصبة الغنية بالثروات والعبقريات ـ في حكم الأسرة الشيبانية فرع الأزبكية في بداية القرن العاشر عام ٩٠٥ هـ ، وبقيت تحت سلطانهم من تلك السنة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ـ إلى ثورة روسيا البلشفية ـ إلا فترة قصيرة حمل فيها الملك ظهير الدين بابر التيموري بمساعدة الصفويين على ما وراء النهر ، وسيطر على سمرقند عاصمتها ـ آنذاك ـ ثم أصبحت «بخارى» في القرن العاشر عاصمة الدولة الشيبانية في عهد الملك عبيد الله بن محمد ٩١٨ ـ ٩٤٦ هـ ، والملك عبيد الله بن إسكندر ٩٦٤ ـ ١٠٠٦ هـ ، وعادت بسببها بخارى مرَّةً ثانيةً ، مركزاً للحياة السياسية الفكرية .

وأقرب البلدان المجاورة للهند الذي يقع غربيها ، هو أفغانستان ، تداول الحكم عليها في بداية القرن العاشر أزابكة تركستان ، وصفويو إيران وغيرهما من الغزاة الطامحين المحليين في فترات متخللة بين حكم الأسرتين المتقدم ذكرهما ، وكان يحكم «كابل» و«قندهار» المغول تارةً ، والإيرانيون أخرى ، أما هرات فلوقوعها على حدود إيران كانت أكثر الأحيان تحت سلطة الأسرة الصفوية ، وفي عام ٩٢٨ هـ فتح الملك بابر «قندهار» ثم لما أسس الدولة التيمورية في الهند ، جعل مقره كذلك في الهند ، وكان يحكم من هناك ولايات «كابر» و«بدخشان» و«قندهار» ، وافتتحت أفغانستان ـ في ذلك الوقت تحت تأثير دولتين عظيمتين قائمتين في الهند ، وإيران ـ عهداً جديداً ، أقرب إلى الأمن والتنظيم ، وكانت أن

(١) كـ «الهداية» في الفقه للمرغيناني ، و «شرح الوقاية» وغيرهما لصدر الشريعة ، وظلاَّ مقررين في المنهج الدراسي طوال قرون .

انقسمت بين هاتين الدولتين ، فدخلت ولايتا هرات وسيستان في إيران ، وإن كان الأزابكة يحملون عليهما حيناً لآخر ، وأصبح «كابل» جزءاً من الدولة المغولية ، وكان قندهار يتداول السلطة عليه المغول والإيرانيون ، وأنشأ الحاكم سليمان مرزا ابن أخي الملك بابر ـ الذي ولاه بابر ولاية بدخشان ـ في شمال كوهستان حكومة شبه مستقلة ، أما ماعدا هذه الولايات من سائر المناطق ، فكانت تحت حكم الشيبانيين ، وفي عام ٩٦٥ هـ احتل طهماسب ملك إيران ولاية «قندهار» واستمرَّت تحت احتلال الإيرانيين إلى عام ١٠٠٣ هـ ، ثم سلمها ولي العهد مظفر حسين عام ١٠٠٣ هـ إلى الملك أكبر ، ومن ثم كانت أفغانستان ولايةً من ولايات الدولة المغولية في الهند ، ودام الحال على ذلك إلى القرن الثاني عشر ، حتى زالت دولة آل بابر التي استمرَّت مئتين وأربعين ٢٤٠ عاماً على أيدي نادر شاه أفشار عام ١١٥١ هـ.

ولما بدأ القرن العاشر كانت الأسرة اللودهية تحكم الهند ، وقد قتل آخر ملوكها إبراهيم اللودهي عام ٩٣٢ هـ على يد مؤسس الدولة المغولية الملك ظهير الدين محمد بابر الكوركاني (٨٨٨ ـ ٩٣٩ هـ) وتأسست على أنقاض الدولة اللودهية المملكة المغولية ، التي كانت من أكثر دول الهند استحكاماً ، وتنظيماً ، وأوسعها رقعةً ، وأطولها عمراً ، وكانت الأسرة اللودهية ـ لتمسكها بالتقاليد الأفغانية ، والنسب الأفغاني ـ متمسكةً بالإسلام ، متقيدةً بالمذهب السُّنِّي الحنفي ، لم تعرف التجديد و«العلمانية» والسياسة اللادينية ، وكان من أكثر هذه الأسرة تديناً ، وتقديراً للعلماء ، وتشجيعاً للعلوم الإسلامية الملك سكندر اللودهي (م ٩٢٣ هـ) وسعدت الهند خمس سنوات من هذا القرن بحكم الملك شير شاه السوري (٩٤٦ ـ ٩٥٢ هـ) ، الذي لم ينهض في تاريخ الهند الإسلامي ملك متدين عالم أحسن منه تنظيماً وتقنيناً ، وأكثر منه توفيقاً للأعمال الخيرية ، وتحقيق المشاريع الهائلة في المصلحة العامة ، ولم يحصل للهند بعد وفاة الملك شير شاه السوري إلى تولي الملك أكبر للدولة الاستقرار السياسي ، والتنظيم السليم ، ولم يقر للحكومة قرار ، ولم يذق سكان البلاد طعم

الأمن ، والرخاء ، والراحة ، فقد كان الملك سليم شاه خليفة أبيه العبقري السلطان شير شاه السوري لا يمتُّ إلى أبيه في تنظيمه ، وتدبير مملكته بسبب ، ولم يستطع كذلك الملك نصير الدين همايون خليفة الملك بابر (٩٣٧ ـ ٩٦٣ هـ) أن يحكم الهند في أمنٍ واستقرار ، فقد شردته حملات الملك شير شاه السوري الظافرة وخذلان إخوته كلَّ مشرد ، وكان شأنه هذا حتى اتصل بطهماسب الصفوي ملك إيران ، وطلب منه المساعدة ، فتهيأ له الاستقرار ، واعتلى الملك أكبر عام ٩٦٣ هـ عرش الدولة المغولية ، ودام في الحكم نصف قرن بأبهته وعظمته ، وسلطانه غير منازع .

وتولى نور الدين جهانكير الملك في عصر الإمام السَّرهندي نفسه ، حينما كان ابن ثلاث وأربعين سنة ، وتوفي الإمام السَّرهندي في عهده ، وكانت هناك ـ عدا هذه الدولة المركزية التي جعلت عاصمتها دلهي ـ حكومات إقليمية في ولاية كجرات ، وبيجافور ، وكولكنده ، وأحمد نكر ، كانت تحكم هذه المناطق بصورة مستقلة ، وكانت الحكومات الثلاث المؤخرة الذكر من الحكومات التي كانت تعتنق المذهب الشيعي .

الوضع الديني والروحي :

لقد كان التدين سمةً سائدةً ـ إذ ذاك ـ على العالم الإسلامي كلِّه ، فكان عامة الناس ـ رغم انحطاطهم الخلقي والعلمي ـ راسخي الإيمان ، محبين للإسلام ، موالين له ، وكانوا يمتازون بالحمية الدينية ، والحماسة الإسلامية ، على تصورهم الخاص ، وبالرغم من أنهم كانوا يقترفون كثيراً من البدع ، ويرتكبون ما يخالف الإسلام ـ أحياناً ـ ولكن كانوا شديدي الكراهية للكفر ، والإلحاد ، يشمئزون منهما ، ويتبرؤون .

ولأجل هذا الذوق الديني العام ، والطبيعة الإيمانية السائدة ، كان الملوك المسلمون ـ الذين لا يعبؤون بأيِّ قوة مناوئة كبيرة ، وكانت أوربة ترتعد من قوتهم العسكرية ـ مضطرين لاحترام شعائر الإسلام ، وإعلان صيانة الدين ، وحماية بيضة الإسلام والمسلمين ، ولم تكن قلوب العامة من الناس ، تستشعر عظمتهم ، وتحبهم ، حتى يتظاهروا بهذه الناحية

الدينية ، ولذلك لم تتوطد حكومة السلطان سليم الأول ، ولم تثبت جذورها ، حتى لقب نفسه بخليفة المسلمين ، وخادم الحرمين الشريفين ، وأبدى أثناء إقامته بدمشق الحبَّ ، والتقديس للديار المقدسة ، والإجلال لهما ، وأنفذ في شهر ذي الحجة عام ٩٢٣ هـ قافلةً للحجاج من دمشق ، وبعث معهم ـ لأول مرَّةٍ في الدول العثمانية ـ بهدية كسوة الكعبة ، ومن ذلك اليوم تسمى السلاطين الأتراك بـ «خادمي الحرمين الشريفين» ومهد لهم طريق المجد ، وعظمت أقدارهم في أعين الناس ، ونجد أمثلةً عديدةً في حياة السلطان سليمان الكبير للتواضع ، والعواطف الدينية العميقة ، فقد انتسخ بيده ثمانية مصاحف للقرآن الكريم ، لا تزال محفوظةً في المكتبة السليمانية ، ويظهر من ديوان شعره أنَّه مسلمٌ راسخ العقيدة في الإسلام ، وأنه جدَّد عمارة الكعبة المشرفة بعد أن أخذ فتوى العلامة أبي السعود (م ٩٥٢ هـ) صاحب «تفسير أبي السعود» ، وبنى جداول مخصصة مجصصة في مكة المكرمة ، وأكمل السلطان مراد (م ٩٨٤ هـ) بناء الكعبة المشرفة ـ وهو البناء الذي لا يزال إلى الآن ـ هذه بعض مآثر السلاطين العثمانيين في القرن العاشر الهجري.

وكان الناس في الدولة الشيعية بإيران كذلك متدينين ، عقليتهم عقلية دينية ، ويغلب عليهم الطابع الديني ، وكان السلاطين الصفويون يغذون هذه الناحية الدينية ، وينمون هذه العواطف ، ويتظاهرون بحبِّ آل البيت وإجلالهم ، ويستغلون ذلك لقوتهم السياسية ، وإحكام الدولة ، ووقوعهم موضع القبول في الناس ، فقد تجشم شاه عباس الأول ـ أعظم سلطان في الدولة الصفوية ـ مشقة السفر من أصفهان إلى «المشهد» (مدفن علي الرضا) حوالي ثمانمئة ميل ، مشياً على الأقدام ، وحضر النجف ، وقام بخدمة الكناسة لضريح سيدنا علي ، كرم الله وجهه.

وبلغ حب الناس لشاه عباس واعتقادهم فيه ، وغلوهم في إجلاله إلى حدِّ الخرافات والسخف العقلي ، وشاعت في الناس عنه قصص غريبة ، وروايات طريفة.

أما سكان تركستان وأفغانستان ، فإنَّ رسوخهم في العقيدة ، وصلابتهم في التدين ، وتمسكهم بالسنية والمذهب الحنفي شيء يضرب به المثل ، فكان الحكام ، والأمراء ، والوزراء ، وأصحاب البلاط ـ كلٌّ حسب مستواه في المعيشة وحاله من الترف ـ يتفقون معهم ، ويسايرونهم في كلٍّ ذلك .

وكان تأسيس الدولة الإسلامية في الهند على أيدي الحكام من الأسر الأفغانية أو التركية ، فكان ـ لأجل ذلك ـ تأثير الدين عميقاً في قلوب أهل هذه البلاد ، وإن كان هذا التأثير ساذجاً بسيطاً ، شأن العقلية الأفغانية والتركية ، وذوقها الخاص ، وما زال الناس متمسكين بالسنية ، والمذهب الحنفي ـ باستثناء بعض المدن الساحلية ، ومنطقة مالابار في جنوب الهند ـ وكان المذهب الحنفي هو الذي يطبق في الدولة ، ويتحكم في المحاكم ، وألفت هنا بعض الكتب المهمة في الفقه الحنفي كـ «الفتاوى التتار خانية» ، و«فتاوى قاضي خان»[1] .

ويمتاز عدد من السلاطين في تاريخ الهند الإسلامي بحمايتهم الشريعة الإسلامية ، والسنة المطهرة ، وكراهة الكفر ، والإلحاد ، ومحاربة البدع والمنكرات ، والحمية الدينية ، والغيرة الإسلامية ، ويكفينا أن نذكر «محمد تغلق» ، و«فيروز تغلق» في القرن الثامن ، والسلطان سكندر اللودهي في القرن العاشر ، فقد كان التدين ـ حسب ما يروي لنا مؤلفو «طبقات أكبرى» و«تاريخ فرشته» و«تاريخ داؤدي» ـ سائداً في عهد السلطان سكندر ، وكان يبدو من تمسك الناس بالدين ، وشدة أخذهم به أنه نفخت في الحياة روح جديدة ، وكان الدين أعزَّ وأحبَّ إلى السلطان من نفسه ، وكان السلطان من أول حياته ـ كما يصفه هؤلاء المؤلفون ـ متحمساً للدين ، يحبُّ المذاكرة العلمية ، وبدأ الهنادك في عهده بدراسة اللغة الفارسية ، وقبلت طائفة «كائسته» الهندكية توجيه السلطان إلى دراسة اللغة الفارسية لغة الديوان ، فدرسوها ، وتولوا وظائف الكتابة والديوان في المملكة ، ونهى

---

(١) وهذا قبل تدوين «الفتاوى العالمكيرية» بزمن طويل ، وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في العالم الإسلامي ، ويعرف بـ «الفتاوىٰ الهندية» في مصر ، والشام ، والعراق .

السلطان عن بدعة حمل الأعلام باسم السيد سالار مسعود غازي[١] التي كانت تحمل وفاءً بالنذر، واعتقاداً في البركة والنصر، وكانت عادة سنوية مقدسة، كما أصدر أوامر مشددة في منع النساء من زيارة الضرائح والمشاهد، ويقول بعض المؤرخين: إنَّه نهىٰ حمل «الضرائح» المصنوعة من القرطاس والقصب المنسوبة إلى سيدنا الحسين بن علي الشهيد وعبادة «سِتلا» ـ آلهة الجدري ـ نهياً قاطعاً[٢]، ويقول مشاقي: إنه هدم كثيراً من المشاهد المزورة، وسواها بالأرض، وأجرى مكانها الأنهار[٣].

وكان السلطان سليم شاه السوري يؤم الناس في الصلوات في المسجد، وكان يجتنب المسكرات أشدَّ الاجتناب.

لقد كان هذا العصر عصر رقي التصوف، وازدهار السلاسل، والطرق، حتى لم تبق بقعة من بقاع العالم الإسلامي خاليةً من طريقة من طرق الصوفية، وكانت الطرق حديث المجالس والنوادي، وكانت «بخارى» و«سمرقند» ـ المركزان العلميان، والروحيان، والمدينتان المعروفتان ـ في تركستان، و«بدخشان» و«هرات» في أفغانستان، و«طنطا» و«الإسكندرية» في مصر و«تعز، وصنعاء» في اليمن، و«شحر» و«تريم» و«سيون» في حضرموت مراكز كبيرة للعلماء والصوفية، ومشايخ الطرق، وكانت أسرة باعلوي العيدروسية في حضرموت ذات شهرة وقبول في الناس، ومعروفة بالفضل، والعلم، وفي هذا العصر كان الشيخ أبو بكر بن عبد الله بن أبي بكر شيخاً ذا مكانة مرموقة يعرف بقطب العالم، وكانت مدينة «تريم» مركز أشراف آل باعلوي، ومن مشاهير أولياء هذا العصر الشيخ سعد بن علي السويني بامدحج السعيد، الذي ذكره الشيخ

---

(١) هو السيد سالار مسعود الغازي دفين مدينة بهرائج في الولاية الشمالية الغربية، وهو من أشهر الأعلام في الهند، مات شهيداً سنة ٦٨٨ هـ، بنى على قبره ملوك الهند عمارة سامقة البناء، والناس يفدون إليه من بلاد شاسعة، ويزعمون أنه كان عزباً شاباً لم يتزوج، فيحتفلون لعرسه، وينذرون له أعلاماً ينصبونها على قبره.

(٢) تاريخ هندوستان، لذكاء الله الدهلوي ج ٢ ص ٣٧٤.

(٣) انظر «واقعات مشاقي».

محيي الدين عبد القادر العيدروسي (٩٧٨ ، ١٠٣٧ هـ) في كتابه الشهير «النور السافر في رجال القرن العاشر» ، وختم بترجمته ـ التي تمتد من صفحة ٤٦٦ إلى ٤٨٠ ـ الكتاب[١].

وقد كان للطريقة القادرية ، وللطريقة الجشتية ـ بفرعيها النظامية والصابرية ـ رواج وانتشار ، نبغ فيها شخصياتٌ عديدةٌ معروفةٌ بالعلم ، والفضل ، والصلاح ، والزهادة ، ولكن من الحق أن يقال: إنَّ هذا القرن قرن الشطارية العشقية التي تسلمت زمام القيادة الروحية لهذه البلاد من الطريقة الجشتية ، وسخرت الهند كلها. أسس الطريقة الشطارية الشيخ عبد الله الخراساني الذي نزل الهند في أوائل القرن التاسع بالتقريب ، واستوطن «ماندو» عاصمة الولاية الخليجية في الهند الوسطى ، وتوفي سنة ٨٣٢ هـ ، ودفن داخل القلعة في ماندو ، كانت حياته حياة الأمراء ، يمتاز بالجذب والتأثير ، انتفع به خلقٌ كثيرٌ ، وانتشرت طريقته في الهند بسرعةٍ فائقةٍ ، ولهذه الطريقة فرعان ، ينتمي فرع منهما إلى الشيخ محمد غوث الكوالياري ، وبينه وبين الشيخ الشطاري ثلاث وسائط ، وينتمي الفرع الثاني إلى الشيخ علي بن قوام الجونبوري ، المعروف بشيخ علي عاشقان السرائي ميري[٢] ـ بينه وبين الشيخ عبد الله الشطاري واسطتان ، وقد مزجت هذه الطريقة لأول مرة تعاليم «يوكا[٣]» بالتعاليم الصوفية ، واختارت من الأولى بعض الرياضات والأوراد ، وحبس النفس ، ولقنت هذه التعاليم المريدين والسالكين ، كما ضمت إلى الطريقة «علم السيمياء» وقد جاءت تفاصيل هذه الأوراد ، وشروح الرياضات الخاصة في الرسالة الشطارية التي ألفها الشيخ بهاء الدين بن إبراهيم الأنصاري القادري[٤] ، وتوجد قصيدة

---

(١) ألف هذا الكتاب في أحمد آباد عام ١٠١٢ هـ.

(٢) اقرأ ترجمته الحافلة في «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني الجزء الرابع.

(٣) نظام الرياضات الروحية ، والبدنية في الهند القديمة.

(٤) وكان في هذا القرن من الطرق المنتشرة في الهند الطريقة المدارية ، التي أسسها الشيخ بديع الدين المكن بوري (م ٨٤٤ هـ) وكان أساس هذه الطريقة على فكرة =

للشيخ محمد الشطاري في كتابه «كليد مخازن» ـ مفتاح الخزائن ـ تفيد عقيدة وحدة الوجود ، وعدم التفريق بين المسجد والبيعة ، والمسلم والبرهمي ، وعقيدة ظهور الإله ، وتجليه في هذه المخلوقات كلها ، لأنَّ كل ذلك ناشىء من هذه الوحدة ، وهي ألوانها ومظاهرها المتنوعة ، وجاء في آداب هذه الطريقة وشعرها ماقد يقلل من قيمة العلم الذي هو «الحجاب الأكبر» ، ومن قيمة العبادات ، ومن أهمية الإيمان وضرورته ، ويرفع شأن الحب الإلهي ، والسكر والتفاني فيه ، والتجرد عن كل ما يتصل بالمادة والجسم ، والحياة الدنيا.

وكان أشهر رجال هذه الطريقة الشطارية ، وأكثرها تأثيراً ، الشيخ محمد غوث الكواليارى (م ٩٧٠ هـ) الذي حصل له القبول العام ، وأصبح المرجع للناس ، وكانت تضاهي أبهته وفخفختهم أبهة الملوك والأمراء ، وفخفختهم ، وتوازي دولته الروحية دولة البلاط ، وكان دخل عقاراته تسعمئة ألف عملة فضية[1] ، وكان له أربعون فيلاً ، وجنود مجندة من الحاشية والخدم ، وكان عندما يخرج في سوق مدينة «آكره» تحتشد الحشود ، ويقف جموع الناس ، فكان يسلم على كلٍّ واحدٍ منهم بانحناء ، حتى إنه لا يستقر جلوسه على السرج ، ولا تعود فقار ظهره إلى مكانها ، وكان قد استمال الملك أكبر ، كما جاء في تصريح العلامة عبد القادر البدايوني ـ وأدخله في حلقة مريديه ، ولكن الملك لم يلبث أن خلع من رقبته طوق إرادته وبيعته ، وكان لزهده ـ رغم هذه الأبهة الملوكية والثروة

= وحدة الوجود ، والكشف عن معانيها ومحتوياتها ، والتجريد الظاهري ـ حتى يقتصر على ستر العورة الغليظة ـ والتوكيل الصرف ، وكلما تطاول الزمن مالت هذه الطريقة إلى التحلل والانحطاط ، حتى أطلق لفظ «مداري» على التكسب بالألعاب البهلوانية ، وقد فقدت هذه الطريقة في القرن العاشر تأثيرها وقبولها في الخاصة ، ولم نعثر بعد البحث والتنقيب في «نزهة الخواطر» ـ الجزء الرابع ـ الذي أحصى فيه مشايخ كلِّ طريقة إحصاءً كاملاً تقريباً إلا على رجلين كانا منخرطين في سلك الطريقة المدارية.

(١) وفي بعض الروايات عشرة ملايين.

الأميرية ـ صيت ذائع ، يتناقل الناس أخباره ، ويتحدَّثون ، وكان عند تسليمه على الناس ينحني كانحناءة الركوع ، ولو كان من يسلم عليه مسلماً ، أو كافراً ، وكان العلماء ينتقدون ذلك ، ويعترضون عليه ، ومن مؤلفاته «جواهر خمسة» و«معراجية»[(١)] ، و«كنز الوحدة» و«بحر الحياة»[(٢)] وكان له تأثير كبير على الهند ، وراجت الطريقة الشطارية[(٣)] وانتشرت ، وكانت ولادة الإمام السَّرهندي بعد وفاته بعام.

وكان من كبار أصحاب هذه الطريقة ومشايخها الأجلة: الشيخ علي بن قوام الجونبوري المعروف بعلي عاشقان السرائميري (م ٩٥٥ هـ) ، والشيخ لشكر محمد البرهانبوري (م ٩٩٣ هـ) ، والشيخ الله بخش الكده مكتيسري (م ١٠٠٢ هـ) كانوا مرجع خلق كثير من عباده الله ، وقد ذكر بعض المؤرخين عن الشيخ علي عاشقان السرائي ميري: أنه لم تظهر الكرامات العجيبة على يد أحد بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني مثل ما ظهرت على يديه[(٤)] ، وكان خليفة الشيخ محمد غوث الكوالياري الشيخ ضياء الله الأكبر آبادي (م ١٠٠٥ هـ) تلميذ العلامة الشيخ وجيه الدين ، سكن في «أكبر آباد» ـ وكانت عاصمة الملك أكبر ـ ٣٥ عاماً ، وحصل له القبول في الناس ، ودعي إلى بلاط الملك أكبر عدة مرات ، يقول العلامة عبد القادر البدايوني: «سلمت عليه مَرَّةً ، فثقل عليه ، وساءه ، وشعر بأني أهنته» ، واستهزأ بهذا الشعار الإسلامي والسنة الطيبة ، وقد صوّره البدايوني تصويراً

---

(١) كان ادعى لنفسه أنه عُرِج به إلى السماء مثل معراج الرسول ـ ﷺ ـ وأحدث ذلك فوضى وشغباً في علماء كجرات.

(٢) هذا الكتاب ترجمة لكتاب «امزت كند» ، يقول الأستاذ محمد إكرام عنه في كتابه «رود كوثر»: «نقل فيه تفاصيل العادات ، والأعمال والأوراد ، التي يشتغل بها العباد الهنادكة ، وأصحاب «اليوك» إلى اللغة الفارسية ، وكان تعرض لهذه الأعمال في كتابه الذي ألفه من قبل جواهر خمسة» تعرضاً قليلاً ، وتدل هذه المعلومات على علاقة الطريقة الشطارية بـ«اليوك الهندكي» (ص ٣٤ ـ ٣٦).

(٣) راجع للتفصيل في تاريخ المشايخ الشطارية. «نزهة الخواطر» ، ج ٤.

(٤) راجع للتفصيل «العاشقية» تأليف عارف علي ، و«نزهة الخواطر» ج ٥.

سيئاً ، وذكر أخباراً وروايات تدلُّ على استخفافه بالشريعة الإسلامية[١].

عدا هؤلاء المشايخ المذكورين ـ أعلاه ـ كان الشيخ عبد الله السنديلوي (٩٢٤ ـ ١٠١٠ هـ) والشيخ عيسى بن قاسم السندي خليفة الشيخ لشكر محمد عارف بالله ـ وكان معاصراً للإمام السَّرهندي ، ويقاربه في السن ـ من مشاهير مشايخ الطريقة الشطارية العشقية[٢].

وكان هناك مشايخ كبار ـ غير هؤلاء المشايخ المشهورين من السلسلة الشطارية العشقية ـ ينتمون إلى سلاسل وطرق أخرى ، كان منهم الشيخ جائين لده السهنوي[٣] (م ٩٩٨ هـ) كان يدرس كتاب «الفصوص» و«نقد النصوص» ، وكان الملك أكبر يعتقد فيه ، ويجلُّه ، وشاهده يوماً يصلي «الصلاة المعكوسة» فانصرف عنه ، وشيخ آخر يسمى الشيخ عبد الرزاق الجهنجهانوي (٨٨٦ ـ ٩٤٩ هـ) كان من أصحاب الطريقة القادرية الجشتية ، وكان ـ رغم ـ كونه عالماً كبيراً يزاول التدريس والتصنيف ـ يدعو إلى «وحدة الوجود» ، ويتحمَّس لمذهب الشيخ محيي الدين بن عربي ، وقد ألف في هذا الموضوع عدة رسائل ، وكان الشيخ عبد العزيز شكربار (٨٥٨ ـ ٩٧٥ هـ) كذلك يقول «بوحدة الوجود» ، وكان صوفياً يمتاز بالأحوال والمقامات ، وكان يلقي دروساً في «فصوص الحكم» وشروحه ، وهو من أجداد الإمام ولي الله الدهلوي لأمه.

ونبغ في هذا القرن الشيخ عبد القدوس الكنكوهي (م ٩٤٤ هـ) وعلا صيته ، وطنت حصاته ، ونالت الطريقة الجشتية الصابرية منه حياةً جديدةً ، وعادت غضّةً طريّة ، مؤثرةً قويةً ، وكان يبوح بأسرار «وحدة الوجود» على ملأ من الناس ، يدعو إليها ، وينادي بها ، وكان الشيخ قطب الدين بينادل (٧٧٦ ـ ٩٢٥ هـ) مرشد الطريقة القلندرية ، والشيخ كمال الدين

---

(١) راجع للتفصيل «منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر ، و«الإعلام بمن في الهند من الأعلام» ج ٥.

(٢) انظر «الإعلام بمن في الهند من الأعلام» ، ج ٥.

(٣) سهنة : قرية في مديرية كركانوه في بنجاب الشرقية ، يوجد فيها عين حارة مشهورة.

(م ٩٧١ هـ) في قرية كيتهل ـ بمديرية أنبالة ـ من رؤساء الطريقة القادرية ، ومرشديها الكبار ، وقد استعادت بهما هاتان الطريقتان رونقهما ، ورواءهما ، وذكر الإمام السَّرهندي عن الشيخ كمال المذكور ـ أعلاه ـ نقلاً عن والده الشيخ عبد الأحد ، أنه قال: عندما ينظر بنظر «الكشف» يبين لنا أنه لم يوجد في السلسلة القادرية العالمية بعد شيخ المشايخ الشيخ عبد القادر الجيلاني أفضل ، ولا أكمل حالاً من الشيخ كمال»[١] .

وكان الشيخ نظام الدين الأميتهوي (٩٠٠ ـ ٩٧٩ هـ) في ولاية «أوده» من كبار رجال السلسلة الجشتية مع الدفاع عن الشريعة الإسلامية والاتِّباع للسنة النبوية، وصلاح السيرة ، كان يعتمد على «إحياء العلوم» و«العوارف» و«الرسالة المكية»، وقع بصره على كتاب «الفصوص» في يد بعض الناس ، فنزعه من يده ، وأعطاه كتاباً آخر للمطالعة والقراءة ، وكان «السماع[٢]» عادةً متبعةً في طريقته ، إلا أنه كان يجتنب ذلك ، ويتحاشاه»[٣] .

هذه هي الأوضاع الروحية والدينية السائدة في العالم الإسلامي ـ آنذاك ـ وهؤلاء هم مشايخ الطرق ، وأصحاب السلاسل في الهند على اختلاف مسالكهم ومشاربهم ، وتفاوت مراتبهم ودرجاتهم؛ الذين كانوا أسسوا في القرن العاشر الهجري ـ في الأماكن المختلفة مراكز تربوية روحية ، وكان أصحاب العاطفة الدينية العميقة من الطالبين للسلوك والمحبين للزهاد والصالحين من عامة الناس وخاصتهم يتصلون بهم ، وينتمون إليهم ، ويتمسكون بطريقتهم ، وقد شرحت هذه الأوضاع ، وتناولت هذا التاريخ بشيءٍ من الإفاضة ، وإطالة النفس ، ليتيسر للقارىء تقدير الجو الذي تنفس فيه الإمام السَّرهندي ، والعهد الذي عاصره ، وذوقه ، وميوله ، وما كانت من الإمكانيات والصعوبات للعمل الإصلاحي التجديدي العظيم الذي قام به الإمام خير قيام.

---

(١) انظر «زبدة المقامات» ، ص ١٠٨ .

(٢) الغناء تارةً بالمزامير ، وتارةً بغيرها.

(٣) راجع للتفصيل «الإعلام بمن في الهند من الأعلام» ، ج ٤ .

الوضع العلمي:

لم يكن القرن العاشر الهجري قرن الابتكار والاختراع في العلوم، والفنون، والأصالة العلمية، والنظر الدقيق الذي يتسم «بالاجتهاد» والتدوين الجديد للعلوم، والزيادات ذات القيمة العلمية الكبيرة، فإنَّ هذه الميزات إنما تتجلَّى بوضوح إلى منتصف القرن الثامن الهجري، حيث ظهر نوابغ الرجال، والعبقريون في فنونٍ كثيرةٍ، كشيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الحرَّاني الدمشقي (م ٧٢٨ هـ)، وشيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد (م ٧٠٢ هـ)، والعلامة علاء الدين الباجي (م ٧١٤ هـ) والعلامة الحافظ جمال الدين أبو الحجاج المزي (م ٧٤٢ هـ)، والعلامة الحافظ شمس الدين الذهبي (م ٧٤٨ هـ)، والعلامة أبو حيان النحوي (م ٧٤٥ هـ) الذين خلفوا لنا في علوم الحديث، والأصول، والكلام، وأسماء الرجال والعربية آثاراً عظيمةً، ومؤلفاتٍ ضخمةً ثمينةً، وكان عصر الحافظ ابن حجر العسقلاني (م ٨٥٢ هـ) إمام العصر في الحديث، وصاحب «فتح الباري» الذي وصفه بعض الناس بقولهم: «لا هجرة بعد الفتح» كذلك ولَّى من غير رجعة.

فكان القرن العاشر الهجري قرن الجمع، والترتيب، والتسهيل، والتلخيص لكتب المتقدمين، وإن كان يتجمل رأس هذا القرن بوجود أمثال العلامة شمس الدين السَّخاوي (م ٩٠٢ هـ) والعلامة الحافظ جلال الدين السيوطي (م ٩١١ هـ) من بحور العلم الزاخرة، وكبار المؤلفين في تاريخ الإسلام، يقول بعض العلماء عن الحافظ السَّخاوي: إنَّه لم ينجب التاريخ مثله في علم الحديث، وفنِّ الرجال، والتاريخ بعد الإمام الحافظ الذهبي، وآذن علم الحديث بعده بالانحطاط والتدهور، ويعدُّ كتابه «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» في أصول الحديث ومصطلحه، و«الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» في التاريخ والرجال، من الكتب التي لا يوجد لها نظير. والعلامة السيوطي غني عن التعريف، فإنَّه من نبغاء الرجال المؤلفين، ومشاهيرهم في تاريخ الإسلام، وتقوم بعض مؤلفاته مقام

الموسوعات العلمية في مواضِعها ، ولا يزال اسمه حيّاً خالداً في الأوساط العلمية بتأليفه النصف الأول من تفسير الجلالين ، وبقي مقرراً ـ إلى يومنا هذا ـ في المناهج الدراسية في شبه القارة الهندية، وبعض البلاد الإسلاميَّة .

يمتاز هذا القرن بازدهار علوم الحديث والرجال في مصر ، والشام ، والعراق ، وبازدهار العلوم العقلية ـ المنطق والفلسفة ـ في إيران ، وازدهار الفقه الحنفي في الهند ، وتركستان ، وكانت هذه العلوم المختلفة في البلدان المشار إليها ـ آنفاً ـ مقياس الفضل ، والنبوغ ، والكمال ، فكانت مصر تزدان بالعلامة أحمد بن محمد القسطلاني مؤلف «إرشاد الساري» شرح صحيح البخاري (م ٩٢٣ هـ) وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (م ٩٢٥ هـ) وكان زينة تركيا العلامة أبو السعود صاحب التفسير (م ٩٥٢ هـ) وكان في الحجاز العلامة ابن حجر المكيُّ الهيثمي (م ٩٧٤ هـ) مؤلف «الصواعق المحرقة» وكتب أخرى كثيرة ، والعلامة علاء الدين علي المتقي البرهانفوري المكي مؤلف «كنز العمال» (م ٩٧٥ هـ) وكان رواد العلم يردون مناهل علمهم فيرونهم ، وطبقت علومهم الآفاق ، وعمَّت إفادتهم الخلائق ، وكان العلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المعروف بملاَّ علي القاري ـ العالم الحنفي المحقق؛ الذي اتسمت كتبه بالإنصاف العلمي ـ رغم أنه ولد في «هرات» من أفغانستان إلا أنه بتديُّره[1] بمكة المكرمة نشر علمه في منتجعي العلم والمعرفة من أطراف العالم الإسلامي ، وهو ـ وإن كانت وفاته في أوائل القرن الحادي عشر عام ١٠١٤ هـ ـ إلا أن عهد خدماته العلمية والتأليفية هو القرن العاشر . وتوفي في أواخر هذا القرن العلامة الأديب والمؤرخ الكبير الشيخ قطب الدين النهروالي[2] ، صاحب «الأعلام في أخبار بيت الله الحرام» سنة ٩٩٠ هـ؛

---

(١) أي : اتخذها داراً لسكناه .

(٢) «نهروالة» في الأصل معرب «انهلواره» وهو اسم مدينة في ولاية كجرات قديماً ، فتحها السلطان محمود الغزنوي عام ٤١٦ هـ وتسمى الآن بـ «بتن» وإليها ينسب العلامة محمد طاهر الفتني مؤلف «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار» (م ٩٨٦ هـ).

الذي يرجع في أصله إلى أرض الهند ، وخضع لعلمه وفضله سلاطين تركيا ، وأمراء الحجاز ، وأكرموه ، وبجّلوه.

وكانت إيران تزهو وتفتخر بالعلامة جلال الدين الدواني (م ٩١٨ هـ) والعلامة عماد بن محمود الطارمي (م ٩٤١ هـ) والعلامة غياث الدين منصور (م ٩٤٨ هـ) الذين أفاضوا العلوم ، وكانت تتفجر منهم ينابيع العلوم الحكمية ، وقد وصلت أمواج علومهم الزاخرة إلى الهند ، وأوغلت فيها ، وكان من بين كبار علماء هذا العصر الشيخ محمد بن الشيخ أبي الحسن الصديقي الشافعي الأشعري المصري ، الذي يُذكر في كتب الرجال «بالأستاذ الأعظم» و«قطب العارفين» كان فريد عصره في بيان دقائق المعاني ، ولطائف الأسرار ، ونسيج وحده في بيان نظم القرآن ، والتفسير ، والحديث والفقه ، كان يدرس في الجامع الأزهر ، ويتهافت عليه طلاب العلم تهافت الفراش على النور ، وكان يجمع إلى هذا العلم الغزير صلاح الباطن ، وتقوى السر ، وشياخة الطريق ، وذوق الشعر والأدب[1] ، توفي عام ٩٩٣ هـ ، وكذلك المحدث الهندي الشهير الشيخ رحمة الله بن عبد الله السندي الحنفي (م ٩٩٤ هـ) الذي بقي في ربوع الحجاز يوزع تراث الحديث النبوي الشريف ، وأثبت براعته في فن الحديث ، وعبقريته فيه ، وكان ملك العلماء العلامة وجيه الدين بن نصر الله الكجراتي؛ الذي استمر يدرس طوال نصف قرن من الزمن في العلوم النقلية ، والعقلية ، وبقي تلامذته يملؤون الدنيا علماً وبحثاً ، ويدرسون ويفيدون أكثر من قرن ـ بركة النصف الأخير من هذا القرن ، وتوفي في أواخر هذا القرن عام ٩٩٨ هـ ـ وكانت بلاد اليمن الميمونة ـ إذ ذاك ـ مركزاً لرواية الحديث ، والاعتناء بالأسانيد ، وكان محدث اليمن الشيخ طه بن حسين بن عبد الرحمن الأهدل يزين كرسي التدريس للحديث ، وتوفي هو أيضاً في العام نفسه ٩٩٨ هـ[2].

---

(١) راجع للتفصيل «النور السافر» ص ٤١٤ ـ ٤٣٩.

(٢) راجع للوقوف على فضائله وسجاياه الطيبة «البدر الطالع» للعلامة محمد بن علي الشوكاني.

بدأت في هذا العصر رحلات العلماء الأفاضل الذين تتلمذوا على العلامة جلال الدين الدواني ، والعلامة عماد الدين محمود الطارمي ، والشيخ مير غياث الدين منصور من إيران إلى الهند ، وجاء في عهد الملك همايون بن بابر التيموري الشيخ زين الدين محمود كمان كربهدائي ـ تلميذ مولانا عبد الرحمن الجامي ، ومولانا عبد الغفور اللاري ـ إلى الهند ، واستقبله الملك بحفاوة بالغة ، وأكرم مثواه ، وعظمه ، وتوجه في عهد الملك أكبر الحكيم أبو الفتح الكيلاني ، والطبيب همايون (المعروف بحكيم همام) ونور الدين قراري الإخوة الثلاثة إلى الهند ، وحازوا ثقة الملك والحظوة لديه ، ثم جاء بعد فترة العلامة محمد اليزدي من إيران ، ونزل الأمير فتح الله الشيرازي ـ وقد مرَّ في طريقه بيجابور ، ومكث فيها مدَّةً يسيرةً ـ ببلاط الملك أكبر ، وكان تلميذ الشيخ غياث الدين منصور ، وتولى منصب الرئاسة للعلماء سنة ٩٩٣ هـ ، وهو الذي جلب مؤلفات علماء إيران ، وترك آثاراً بعيدة المدى على المناهج الدراسية ، وأسلوب التدريس في الهند ، حتى كانت نتيجة هذا التأثير أخيراً المنهج الدراسي النظامي[(١)] ؛ الذي لا يزال هو المنهج المقرر ، والسائد على الأوساط العلمية والتدريسية ، ويسيطر عليها[(٢)] .

ونقف في هذا العصر على أسماء لعدد وجيه من العلماء والأدباء المنسوبين إلى «نيسابور» و«استرآباد» و«جرجان» و«مازندران» و«كيلان» كانوا في الهند ، ولاسيما في جنوب الهند ، وكان لهم تأثير على الأمراء ، ومكانة محترمة في البلاط[(٣)] .

---

(١) هذا هو المنهج المقبول المقرر للدراسة ، والمقياس للتحصيل والكمال في شبه القارة الهندية ، وأفغانستان ، وتركستان أخيراً ، وينسب إلى العلامة نظام الدين بن قطب الدين اللكنوي (م ١١٦١ هـ) الذي تناوله بالتهذيب والإكمال ، ولا يزال مطبقاً تطبيقاً حرفياً في مدارس الهند القديمة على غرار الأزهر القديم .

(٢) راجع للتفصيل «الثقافة الإسلامية في الهند» (طبع المجمع العلمي بدمشق) للعلامة عبد الحي الحسني ، ومقالاً له بعنوان «المنهج الدراسي في الهند» .

(٣) راجع للتفصيل «الإعلام بمن في الهند من الأعلام» ج ٤ .

ولم تكن أفغانستان رغم روح الجندية والعسكرية ، وحمل السيف والسنان أقلَّ شأناً في العلم ، والتدريس ، والتقعير في المسائل العلمية ، فكان القاضي محمد أسلم الهروي ، (الذي توفي في الهند سنة ١٠٦١ هـ) ولد في هرات ، وأخذ العلم عن الشيخ محمد فاضل البدخشاني في أفغانستان ، وكان الشيخ محمد صادق الحلواني كذلك من جهة علماء عصره ، وكانت «هرات» لوقوعها على تخوم إيران مركزاً للعلوم العقلية ، وقد اشتهر من أبنائها القاضي محمد أسلم الهروي ، ونجله النابغة المعروف بالشيخ محمد زاهد ـ الذي يعرف في أوساط المدارس الدينية في الهند بـ«مير زاهد» ، في العلوم العقلية ، وطبق صيتهما الآفاق ، وكان لشروح الشيخ محمد زاهد ، التي تعرف بالزواهد الثلاثة صولةٌ وقبولٌ عند العلماء وأساتذة الفن، ويعتنون بها اعتناءً كبيراً ، ويقيسون بمعرفتها العلم والنبوغ.

ولم يقتصر تتلمذ أبناء الهند ، واستفادتهم العلمية على علماء إيران ، وأفغانستان ، وأساتذتها البارعين ، بل استفادوا من علماء مصر والحجاز ، واليمن ، ومحدثيها النابغين ، فكان الشيخ راجح بن داود الكجراتي (م ٩٠٤ هـ) من تلامذة العلامة السخاوي ، أخذ عنه الحديث ، وأرشده العلامة السخاوي إلى رأي الشيخ العلاء البخاري الحنفي في ابن عربي ، وموقفه منه ، ليحمل هذا الرأي إلى علماء الهند ومشايخها ، ويعلمهم بذلك ، حتى يصححوا موقفهم منه ، ويزول اعتقادهم فيه[1] ، وقد ذكر العلامة السخاوي ، ترجمة تلميذه الهندي في كتابه «الضوء اللامع» واعترف بفضله ، ونبوغه العلمي ، وكان الشيخ علي بن حسام الدين المتقي ـ إمام فن الحديث في عصره ، ومؤلف «كنز العمال» ـ الذي قيل عنه: «إنَّ للسيوطي منةً على الدنيا ، وإن لعلي المتقي منةً على السيوطي» ـ كان من التلامذة النجباء لأبي الحسن الشافعي البكري، مدرس الحرم المكي، والعلامة شهاب الدين أحمد بن حجر المكي، مفتي مكة المكرمة ، ومحدِّثها في عصره.

---

(١) راجع «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» ج ٤ .

ظهر لنا مما تقدم: أنَّ الهند ـ رغم إحاطة البحر والجبال الشاهقة بها حيث لم يبق طريق للعلاقة بينها وبين العالم الخارجي ، إلا ممر بولان في بلوجستان وممر خيبر في الحدود الغربية الشمالية ـ لم تكن بمعزل في الحياة العلمية والثقافية عن البلاد الأخرى ، بل كانت تأخذ وتعطي وتستفيد ، وتفيد ، وإن كانت استفادتها أكثر من إفادتها ، ودائرة استيرادها أوسع من دائرة تصديرها ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ لأنَّ الدين والعلم لم يصلا إلى الهند إلا عن طريق إيران ، وتركستان.

الاضطراب في الأفكار ، والفوضى في العقائد:

إنَّ الدراسة العلمية ، والدينية ، والسياسية للقرن العاشر تبقى غير مستكملة إذا لم نتعرض لذلك الاضطراب الفكري ، والفوضى في العقائد ، التي نلمس آثارها في الهند ، وفيما يجاورها من البلدان في العصر الذي نؤرخه حتى تتضح ملامح هذا القرن ، والأوضاع السائدة فيه ، وحتى لا يقع القارىء في الخطأ ، ويظنَّ: أن بحر الحياة الزاخر ـ الذي كان يمتدُّ ، ويفيض على آلاف الأميال ـ كان في هدوء تام ، وكان من السهل تجديف سفينة التعليم والتربية ، والتزكية ، والإصلاح والتجديد فيه ، وأنه لم يكن هناك داع للإشفاق من طغيان هذا البحر ، أو تورط السفينة في لجته ، إذا كان هذا التصور صحيحاً لكان هذا العصر أحقَّ بأن يختار له عنوان «التعليم والتربية» و«النشر والتوزيع» بدلاً من أن يكون له عنوان «الإصلاح والتجديد» ولقد تضافرت عوامل كثيرة من أهمها: بعد الهند عن مركز الإسلام الديني والثقافي ـ بلاد الحجاز ، ومصر ، والشام ، والعراق ـ ووصول الإسلام إلى الهند بعد تعريجه على تركستان ، وإيران ، وقلة شيوع اللغة العربية فيها ، وعدم الاعتناء بنشر علم الحديث ـ الذي لا يزال يبثُّ روح الدين الصحيح ، ويميز السنة عن البدعة ، ويقوِّي الشعور بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويوجد ملكة الاحتساب الديني الصحيح ـ ومنها: صعوبة السفر للحجِّ ، والرحلة في طلب العلم إلى البلدان الأخرى ، وبقاء أقلية المسلمين مغمورةً في أكثرية غير المسلمين ـ الذين كانوا متشبثين بعقائدهم ،

متمسكين بتقاليدهم وعاداتهم غير الإسلامية ، وغارقين في الخرافات والأوهام ، وتضافرت هذه العوامل كلُّها على تحويل المسلمين مرتعاً خصباً ، للدعوات المضطربة ، والفرق الضَّالة ، والمحترفين بالدين؛ الذين خرجوا يُمثِّلون دورهم ، ويُجرِّبون حظَّهم في إضلال المسلمين.

وكان في مقدمة هذه الدعوات الهدامة ذلك التشيُّع المتطرف المهاجم الذي نشأ ، وترعرع بتأثير الإيرانيين في بعض مناطق الهند الجنوبية ، وفي كشمير ، فقد اعتنق برهان نظام شاه ـ أمير ولاية أحمد نكر ـ في أواسط القرن العاشر المذهب الشيعي بتأثير الشيخ طاهر بن رضا الإسماعيلي القزويني ـ الذي فرَّ من إيران خوفاً من الشاه إسماعيل الصفوي إلى أحمد نكر ، وسكن هنا ـ وغلا برهان نظام شاه في مذهبه الجديد ، وتطرَّف ، حتى أمر الناس بسبِّ الخلفاء الراشدين الثلاثة ـ علناً وجهراً ـ في المساجد والرباطات ، وعلى الشوارع ، وفي الأسواق ، وعين رواتب ضخمة مغرية لمن يقومون بهذه «الخدمة» ، وقتل كثيراً من أهل السنة والجماعة ، رأسر كثيراً منهم[١] وانتشر المذهب الشيعي في كشمير بجهود مير شمس الدين العراقي ، الذي بذل مساعي كبيرة في نشر هذا المذهب ، وتحمَّس للدعوة إليه ، ويقال: إنه أدخل ٣٤ ألفاً من الهنادك في المذهب الشيعي ، كما يذكر أيضاً: أنه اخترع ديناً جديداً سماه «نور بخشي» ، وألف كتاباً في الفقه ، يخالف فقه أهل السنة ، وفقه الإمامية كذلك ، ويقولون: إن فرقةً جديدة نشأت في كشمير كانت تعتقد: أنَّ السيد محمد نور بخش «مهدي موعود»[٢].

ولما توجه الملك همايون عام ٩٥٠ هـ إلى إيران لطلب المساعدة العسكرية ، وكسب تأييد المملكة الإيرانية ، كان شاه طهماسب يتولى الحكم فيها ، فعرض على الملك همايون مذهب الشيعة ، وراوده إلى أن

---

(١) راجع للتفصيل «تاريخ فرشته» تأليف محمد قاسم البيجابوري (وكان محمد قاسم هذا من الفرقة الإمامية).

(٢) راجع «تاريخ فرشته» لمحمد قاسم البيجابوري.

يعتنق هذا المذهب ، فقال همايون: «**أرى أن تكتبوا إليَّ جميع عقائد الشيعة ، فلما كتبوا له ، قرأها همايون بنية الإسماع**»[(١)] .

ولا توجد لدينا وثيقة صحيحة تثبت اعتناق همايون للتشيع ، ولكن لا يستبعد ـ بعد إقامته في إيران ، وضيافة شاه إيران له بسخاء ، وأريحية ، وإكرام وفادته ، وإيواء هذا الغريب ، والمساعدة العسكرية السخيَّة ، وما أنتج كلُّ ذلك من عواطف تقدير وشكر، أن يكون قلبه قد مال إلى المذهب الإمامي ، الذي لم يكن مذهب سلفه التيموريين ، وكانوا متمسكين بالعقيدة السنية ، والمذهب الحنفي ، وكان بعضهم له ارتباط وثيق بالمشايخ النقشبندية فما كان لأفراد أسرته ورجال بلاطه أن يقبلوه ، أو يفسحوا له صدورهم ، وصحب الملك همايون إلى الهند أمراء قزلباش لمساعدته ، وكان الملك همايون في نفسه طيب القلب ، سليم الصدر ، متخلقاً بأخلاقٍ كريمةٍ ، وثقافةٍ واسعة ، يحافظ على الوضوء ، وكان لا يسمِّي الرسول ﷺ إلا على طهارةٍ تأدباً معه ، وتعظيماً لحرمته ، وكان نازلاً من درج مكتبته يوماً من الأيام؛ إذ سمع الأذان ، فجلس تأدباً ، فزلَّت قدمه ، وسقط ، ثم توفي في ١٥ ربيع الأول عام ٩٦٣ هـ.

وكان من خاصَّة أصحابه وأمراء البلاط ، وأركان دولته بيرم خانخانان الذي كان متفنناً في الفضائل العلمية ، والعملية ، وكان من خيار القادة العسكريين ، والأمراء النابغين ، يمتاز برقة القلب ، والمحافظة على الجمعة ، والجماعة ، يكرم العلماء ، والمشايخ ، ويحترمهم ، ولكنه يعتقد تفضيل علي رضي الله عنه على غيره من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، وله بيت معروف ، يقول فيه:

«**إنَّ الملك الكبير الذي يبلغ علمه عنان السماء ، إذا لم يكن من خدم علي رضي الله عنه؛ فقد تربت يمينه ، ورغم أنفه**».

وكان لمير شريف الآملي اليد الطولى في العلوم العقلية ، نزل الهند في

---

(١) انظر «منتخب التواريخ» ج ١ ص ٤٤٥ .

عهد الأكبر ، فاستقبله أكبر بحفاوةٍ بالغةٍ ، وعظم شأنه ، وولّاه رئاسة كابل ٩٩٣ هـ ، ثم رئاسة بنكالة عام ٩٩٩ هـ ، وأقطعه الأرضي في «أجمير» و«موهان» يقول خاني خان مؤلف «مآثر الأمراء» :

«إنَّه كان ملحداً زنديقاً، خلط التصوف بالفلسفة، وكان يقول بـ «العينية» وكانت ـ إذ ذاك ـ في الهند حركتان هدامتان تشكلان الخطر على الإسلام ، تثيران الفوضى والاضطراب في العقائد والأفكار ، إحداهما حركة ذكرى؛ التي كانت مؤسسة على عقيدة انتهاء نبوة محمد ﷺ عند انتهاء الألف الأول من الهجرة ، وبداية نبوة جديدة ، ودعوة جديدة لبداية الألف الثاني ، نشأت هذه الحركة في بلوجستان ، ونمت ، وقويت ، وقد ظهر ملاًّ محمد الذي تزعم هذه الفرقة في قرية «اتك» عام ٩٧٧ هـ ، يقول مؤلف كتاب «من هم ذكرى»؟ الذي هو الكتاب المعتمد عند هذه الفرقة والحركة ـ عن مؤسسها ملاًّ محمد :

«ظهر (مـلاًّ محمد) ليلة الإثنين عند السَّحر ، نازلاً من بلد «قطب» إلى الأرض بالصورة الإنسانية ، وفي كسوة أهل الفقر والزهد ، في منطقة اتكا الجبلية ، وضع قدميه المباركتين على جبل عال عام ٩٧٧ هـ»(١).

ويعتبر أتباع حركة «ذكرى» : أنَّ مؤسسها ملاًّ محمد ، أفضل الرسل ، وخاتم النبيين ، نور الأولين والآخرين ، جاء في «موسى نامه» النسخة الخطية :

قال الله تعالى : «**يا موسى لم أخلق نبياً بعد المهدي ، وهذا هو نور الأولين والآخرين ، الذي سأخلقه بعد**»(٢).

وقد وردت في كتب هذه الفرقة مثل «معراج نامه» و«ثناء مهدي» و«سفر نامه مهدي» و«ذكر إلهي» وغيرها من الكتب عبارات صريحة تدل على العقائد المتطرفة، في تنزيه ملاًّ محمد مؤسس هذه الفرقة ، وتقديسه ، وترجيحه على

---

(١) انظر كتاب «من هم ذكرى؟» ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق:ص ١١٨ .

جميع الأنبياء والمرسلين ، وتفضيله على خاتم النبيين محمد ﷺ ، وتتجلّى فيها نماذج غريبة للكذب، والافتراء، والتدجيل، والتلبيس بالباطل، والجرأة الوقحة على الله ورسوله ، وكانوا ابتدعوا كلمة جديدة إزاء كلمة التوحيد ، وهي «**لا إله إلا الله نور باك محمد مهدي رسول الله**» وكانوا يضحكون على المصلين، ويستهزئون بهم، ويكفرونهم[١] ، ويكفرون القائمين بالصوم، والزكاة ، والحج من المسلمين ، ويرون حج جبل «مراد» واجباً بدل حج بيت الله[٢]، يقول مؤلف «تاريخ خوانين بلوج» إنَّ هذه الديانة «الذكرية» المعارضة للإسلام كانت سائدة في بعض مناطق بلوجستان ، وكان أتباع هذه الديانة يرون قتل المسلمين بجناية إقامتهم للصلوات المكتوبة ، ومحافظتهم عليها ، فقال الأمير مير نصير خان حاكم بلوجستان بتنفيذ الشريعة الإسلامية ، وقتال «الذكريين» ومكافحة بدعهم ، وشركهم ، وعداوتهم للإسلام ، حتى وقعت معارك دامية حاسمة استؤصلت على أثرها شوكة هؤلاء المارقين ، وقضي على بدعهم وخرافاتهم[٣] .

والفرقة الثانية المشبوهة في الهند كانت «الفرقة الروشنائية» وأن ما قامت به هذه الفرقة من مساندة قوة العنصر الأفغاني السياسي والعسكري الذي آل إلى الانقراض ، ومقاومة السيطرة المغولية التي كانت تمتد شرقاً وغرباً، وما قامت به في هذا الصدد من دور كبير[٤] ، يجعل كتابات المؤلفين

---

(١) انظر «اعتقاد نامه» (النسخة الخطية).

(٢) راجع مؤلفات أصحاب الفرقة الذكرية «ذكر توحيد» (مطبوع) و«أنا ذكرى» و«تفسير ذكر الله» (مطبوع) ، الكتب المذكورة أعلاه ، وراجع (Baluchistan District Gazettier 1) التي جاءت فيه تصريحات أنَّ عقائد الفرقة الذكرية تختلف عن عقائد أهل السنة اختلافاً جذرياً (ص ١١٦ من المطبوعة).

(٣) انظر «تاريخ بلوج» ، استفدت في موضوع الفرقة الذكرية من مقال نشر في مجلة «الحق» الصادرة من «أكوره ختك» مجلد ١٩٧٩ م ، كتبه الشيخ عبد الحق رئيس المعلمين بدار العلوم تربت بلوجستان ، وراجع أيضاً مقالاً بعنوان «دراسة تفصيلية للديانة الذكرية» مجلة «الحق» عدد شهر يناير ١٩٨٠ م.

(٤) من الممكن ـ بالنظر إلى ما كان للتصوف من تأثير وقبول عام في ذلك العصر ـ أن يكون بعض الطامحين البعيدي النظر يريدون من وراء هذه الحركة جمع شمل =

في هذا العصر وتصريحاتهم في حاجة إلى التأمل الكثير ، والتحقيق الدقيق ، ليعلم إلى أيِّ حدٍّ عملت فيه المصالح السياسية ، وما هي حقيقتها التاريخية الصحيحة؟ فإنه يوجد هناك تعارض واسع المدى في تصريحات أتباع هذه الفرقة وحملتها ، وتصريحات مخالفيها وأعدائها ، فيسمي أتباعها مؤسس الفرقة بـ «بير روشن» (أي: الشيخ المنور) ويسميه المعارضون بـ «بير تاريك» (أي الشيخ المظلم) ، وكان مؤسس هذه الفرقة «بايزيد الأنصاري» ، وكان يقال له: «بير روشان» ، (أوروشن).

ولد بايزيد بن عبد الله عام ٩٣١ هـ في «جالندهر» قبل تولي الملك بابر بسنة واحدة ، ولقد قضى طفولته ويفاعته في صراعٍ قائم في أسرته ، وفي عدم اهتمام بشأنه ، وقلة مبالاة به ، فشبَّ ولم يكملْ دراسته ، واتفق أنه في بعض أسفاره التقى ـ كما تقول بعض الروايات ـ بسليمان الإسماعيلي ، ويذكر أيضاً: أنه صحب «اليوكيين»[١] ، ويقول المترجمون له: إنه بدأ من ذلك الحين يرى رؤى ، ويسمع أصواتاً تناديه من وراء الغيب ، فاشتغل بالذكر الخفي ، ثم استغرق في ورد «الاسم الأعظم» فلما بلغ الحادية والأربعين من عمره ، هتف به هاتف من السماء: أنه لم يعد في حاجة إلى الطهارة الشرعية ، وينبغي له أن يصلِّي صلاة الأنبياء[٢] ، بدل صلاة المسلمين ، ثم جعل يعتقد أنَّ الناس كلهم منافقون ، ومشركون ، وانصرف إلى «الرياضة الأربعينية» ، ثم أمر بأن يصدع بدعوته ، ويبلغ دينه ، واهتم بدعوى المهدية ، والإلهامات الربانية[٣] وظل مريدوه يزدادون كل يومٍ ،

= الأفغان ، وتوحيد كلمتهم تحت راية حركة دينية ؛ لمحاربة الدولة المغولية الفتية ، واستعادة سلطة الأفغان الذاهبة ، وإقامة دولتهم من جديد.

(١) أصحاب الرياضات من البراهمة ، والنساك منهم.

(٢) وقد صرح الشيخ بايزيد نفسه في كتابه «مقصود المؤمنين»: «إن الشريعة مثل لحاء الشجرة ، وأنه لا حياة للشجرة بدون لحاء» ص ٤٤٤ النسخة الخطية ، مكتبة جامعة بنجاب.

(٣) وقد ردَّ الشيخ بايزيد نفسه على هذا الاتهام بأنه «مهدي» كما جاء في المناقشة التي جرت بينه وبين قاضي خان الكابلي (انظر النسخة الخطية بجامعة بنجاب).

وعين بعضاً منهم خلفاء ليقوموا بالدَّعوة والتبليغ ، ويوسعوا نطاق حركته.

ولكن تعاليمه التي وردت في كتابه «صراط التوحيد» يظهر عليها أثر التعاليم الصوفية الغالية ، والاعتداد بالنفس المتطرف الذي نشأ عند أصحاب الرياضات والمجاهدات الذين لا يرجعون فيها إلى مرشد روحي خبير ، ولا يحملون العلم الصحيح من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، كما ذكر فيها شيئاً من عقائده وأصوله ، ولعلها عنده أصول الحرب وقواعدها حسب مستوى تلك الفترة التي كان يحارب فيها المغول ، والقبائل الأفغانية المعارضة.

وبايعته عدَّة قبائل أفغانية بمنطقة بشاور ، ودخلت في دائرة مريديه وأتباعه ، وبدأت قبيلة «مهمندزئي» بنشر هذه الدعوة، وتأثر بذلك السنديون ، والبلوجيون ، وكتب له النجاح الكبير رغم معارضة العلماء ، ومشايخ الطرق، وبعث الشيخ بايزيد دعاته إلى حكام البلدان المجاورة ، وأمرائها ، وعلمائها ، فجاء حاكم من هؤلاء الحكام إلى بلاط الملك أكبر ، وقضى عامين وشطر عام من أيام حياته الأخيرة في حرب مع المغول ، وأدركه الأجل عام ٩٨٠ هـ بمنطقة «كالا باني» ، ودفن في «هشت نكر» ، وبقيت من مؤلفاته ثلاثة كتب ، وهي «خير البيان» و«مقصود المؤمنين» و«صراط التوحيد» ، التي تناول فيها أصول فرقته وعقائدها بالإيضاح ، والتفصيل ، ويعتبر «خير البيان» و«مقصود المؤمنين» كتابين شبه مقدسين عند أتباع هذه الفرقة ، وكان أكبر معارضيه أخوند درويزه ، الذي كان مريداً للسيد علي الترمذي المعروف بـ «بير بابا» (م ٩٩١ هـ) ، وألف في الردِّ عليه كتاب «مخزن الإسلام» ، وألف الشيخ بايزيد ترجمة حياته باسم «حال نامه بير دستكير» (بالفارسية) ورتبه علي محمد مخلص مع زيادات وإضافات ترتيباً جديداً.

وتفرق أتباع هذه الفرقة بسبب الحروب الداخلية والخارجية الطاحنة ومعارضة العلماء الشديدة في مختلف أنحاء الهند ، وما زال ينقص عدد

المعتنقين لها حتى انقرضوا وانقرضت هذه الفرقة[1].

يتحدَّث مرزا نصر الله خان فدائي مؤلف «داستان تركتازان هند» (قصة غزاة الهند) عن هذه الفرقة، فيقول:

«إنَّ الفرقة الروشنائية هي تلك الفرقة التي أسسها «بايزيد» أحد أبناء الهند، إنه دخل في الأفغان، وادَّعى النبوة، وتسمى بـ «النبي الروشنائي»، وكسب أتباعاً وأنصاراً، فرفضوا الصحف السماوية، ونبذوا عبادة الله، وتفيد أقواله أنه كان يقول بوحدة الوجود[2]، ويعتقد أنه ليس هناك إلا «واجب الوجود» وكان يمجد الرسول العربي ﷺ، وكان يبشر الناس بقرب اليوم الذي تخضع فيه الدنيا كلها لحكمه، يتصرَّف فيها كما يشاء».

«ويستفاد من كتاب بايزيد في ترجمة حياته: أنَّه كان مخاطباً بالإلهامات، وأن جبريل كان ينزل عليه، وأنَّ الله شرفه بالنبوة، وكان هو نفسه يعتقد فيه النبوة، وكان يصلي إلا أنه لم يكن يرى للتوجه إلى القبلة لزوماً، وكان يستدل على مسلكه هذا بقول تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] ولم يكن يرى الغسل بالماء واجباً، وكان يعتقد جواز قتل معارضيه»[3].

وذكر مرزا نصر الله شيئاً من أقواله التي يغلب عليها طابع التصوف، والمعاني الروحية، إلا أنه يتجاوز إلى آراء غير إسلامية، وأفكار غير سليمة، يقول:

«كان أهم ما يعتني به ويحثُّ عليه معرفة الله، ومعرفة الذات، فإذا وجد هندوكياً، يعرف نفسه، يرجحه على المسلم الذي لا يعرف نفسه، ويأخذ الجزية من المسلمين، وكان يضع الخمس في بيت المال عنده، ويوزِّع منه

---

(١) استفاد صاحب المقال هذه المعلومات من مقال المرحوم البروفيسور محمد شفيع، تضمنته دائرة المعارف الإسلامية (باللغة الأردية) ج ٤.

(٢) ولم يكن ذلك بدعاً في ذلك العصر، فقد كان أكثر الصوفية والمشايخ (لاسيما في الهند) يبالغون في هذه العقيدة (المؤلف).

(٣) انظر «داستان تركتازان هند» ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

على الفقراء والمساكين ، وكان جميع أبنائه يجتنبون الفسق ، والفجور ، والظلم ، والعدوان ، له مؤلفات عديدة في العربية والفارسية ، والهندية والبشتوية ، وله كتاب «خير البيان» ، الذي ألفه في أربع لغات ، وهو ـ كما يعتقدون ـ كلام الله المباشر إليه ، والصحيفة السماوية ، المنزلة عليه»(١) .

وتدل كتب التاريخ التي ألفت في عصره : أنَّ الشيخ بايزيد كان قد جمع حوله عدداً كبيراً من الأفغان ، وكوّن منهم قوةً مهابةً ، واستولى على ممر خيبر بعد أن جعل مقره في «كوه سليمان» وكان يقوم بالغارات على القرى المجاورة ، فأنفذ الملك أكبر جيشاً لمقاومته ، وكسر شوكته ، ولكن لم يستطع هذا الجيش التغلب عليه ، واستئصال شأفة هذه الحركة ، واستمرَّ أبناء بايزيد وخلفاؤه بعد وفاته على معارضة الحكومة المغولية خطراً دائماً لهذه الدولة ، ولم يستطع كبار قواد الدولة المغولية ، كراجه مان سنكه ، وبيربل ، وزين خان أن ينتصروا عليهم ، بل إنَّ «بيربل» لقي حتفه في معركة من المعارك معهم ، وباء مان سنكه كذلك بالفشل والخذلان عام ٩٩٥ هـ ، في كرة على الروشنائيين ، ولم يقض على هذه الفتنة إلا في عهد الملك شاه جهان عام ١٠٥٨ هـ(٢) .

المهدوية :

وكان من أنشط الحركات المتطرفة وأقواها في ذلك العصر حركة المهدوية ، التي هزت المجتمع الإسلامي في شبه القارة الهندية ، وما جاورها من البلاد هزّاً لم يعرفه تاريخ الحركات والدعوات منذ زمنٍ بعيد ، منشئها السيد محمد بن يوسف الجونبوري الذي ولد عام ٨٧٤ هـ ، وتوفي في أوائل القرن العاشر عام ٩١٠ هـ ، إلا أنَّ حركته القوية خلفت آثاراً تمتد إلى أواخر القرن العاشر ، ونستنتج مما كتبه المؤرخون المعاصرون لهذه الحركة من معارضين وموافقين ما يلي :

---

(١) نقلاً عن «حال نامه بايزيد» المندرج في «دبستان مذاهب» للملاَّ حسن خان ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٩ .

(٢) ملخص من كتاب «داستان تركتازان هند» .

١ ـ كان السيد محمد الجونفوري من نوابغ الرجال خلقاً وديناً ، وتأثيراً روحياً قوياً ، لا تنجب أمثالهم الدُّنيا إلا بعد قرون ، وعهود طويلة ، كان شجاعاً جريئاً منذ ريعان شبابه ، قلقاً على أوضاع عصره ، وظروفه ، صادعاً بالحقِّ ، جاهراً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، زاجراً عن المناهي ، مشدداً في الإنكار ، ولقب لأجل هذه الخصال في عصره بأسد العلماء ، أخذ علم السلوك والإحسان من الشيخ دانيال ، والتزم المجاهدات الشاقة ، والرياضات الشديدة ، وقضى أعواماً في الأودية والجبال معتزلاً عن الناس ، وذلك ما يؤدي في الغالب ـ لاسيما إذ لم تكن هذه التدريبات الروحية تحت إشراف مرشد خبير ، وإرشاداته وتعاليمه ـ إلى وقوع الإشارات الغيبية ، والواردات القلبية التي يخاف منها زلة الأقدام ، والخطأ في الفهم والتفسير ، ويحمل مثل هذا الإنسان ـ الذي لم ترسخ قدمه في العلم ، ولم يبلغ درجة البحث والتحقيق ـ الكلمات على غير محاملها ، ويفهم الإشارات الغيبية في غير معانيها ، فكان منه أن ادعى في رحلة من رحلاته أنه «المهدي» وأعلن بعد ذلك عدَّة مرات في أمكنةٍ مختلفةٍ: أنه المهدي الموعود ، ودعا الناس إلى الإيمان به.

٢ ـ وكان ـ لكثرة مجاهداته ورياضاته ، وقوته الروحية ، واهتمامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ يملك تأثيراً قوياً ، فكان يسحر الناس بشخصيته ، ومعاشرته ، ويأخذ بألباب الناس بحديثه وخطابه ، حتى كان من يحضره من العامة والملوك والأمراء ويجلسون عنده كأن على رؤوسهم الطير ، ويستمعون إليه في دهشةٍ ، وتأثرٍ ، وانبهارٍ ، ويهون عليهم رفض المناصب الكبيرة ، والإعراض عن الجاه والسلطان ، والزهد في الدنيا ، وهجر الأوطان ، ومرافقته في السفر والحضر ، والتسليم له ، والانقياد لأمره ، حدث ذلك مع السلطان غياث الدين شاه الخلجي ، في عاصمة حكومته «ماندو» ، وكان ذلك شأن السلطان محمود شاه الكجراتي في جانبانير بكجرات ، وشوهد له هذا التأثير السحري العجيب في «أحمد نكر» و«أحمد آباد» و«بيدر» و«كلبركه» حيث تهافت عليه الناس ، وبايعه خلق كثير ، وانضم إلى ركبه آلاف من الناس ، وشهدت منطقة السند اجتماعاً

حاشداً ، وجموعاً متدفقةً كالسيل ، وكان لخطابه في «قندهار» دوي عظيم حرك ساكن البلد ، وهزَّ الأرض ، ومال إليه حاكم قندهار مرزا شاه بيك ، وأكبره.

٣ ـ وكانت حياته حياة زهدٍ وتجرُّد ، واستغناء ، وانقطاع كامل إلى الله تعالى ، وكان الناس يشاهدون منه ـ سفراً كان أو حضراً ـ مظاهر الزهد والإيثار ، والذكر والعبادة ، يوزع الطعام على الناس بالسوية من غير تمييز بين غني وفقير ، وكان أهله وأفراد أسرته لا يمتازون عن الناس في شيءٍ ، فكان هذا الجو الإيماني يؤثر على جميع الوافدين ، فلا يرجعون من عنده إلا معجبين به ، مأخوذين بتأثيره.

٤ ـ أنجبت هذه الحركة رجالاً أقوياء، مخلصين، يستميتون في الدعوة، ويجاهدون في سبيلها ، ولا يخافون سلطة وسطوة ، ويقومون بواجب «كلمة حق عند سلطان جائر» بشجاعةٍ نادرةٍ، وجرأةٍ خارقةٍ، يتحمَّلون مشاق التعذيب والإيذاء الشديد في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وقد وهبوا نفوسهم ومهجهم في هذا الطريق راضين مسرورين ، لا يقف الإنسان على هذه البطولات والمواقف الجريئة إلا بإعجاب، وإكبار، وانفعال، ويضطر إلى أن يعترف بتأثير تربية السيد محمد الجونبوري ، وصحبته.

واقرأ ـ على سبيل المثال ـ ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوي (الشيخ العلائي ـ م ٩٥٧ هـ) الذي قام بمسؤولية الدَّعوة ، والوعظ والتذكير في بلاط السلطان سليم بن شير شاه السوري ، واقتصر على تحية الإسلام عند السلطان ، ولم يفعل كما كان يفعله أصحاب البلاط ، والوافدون على السلطان من التزام الكلمات المعينة ، والانحناء ، والخضوع ، وضرب بالسياط ـ ذات مرة ـ في حال إصابته بمرض الطاعون ، وإعيائه بعد السفر ، فلم يتحمل هذا الضرب ، ومات ، وربط جسمه برجل الفيل ، وطيف به في المعسكر[١].

---

(١) راجع للتفصيل ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوي ، «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» ج ٤ ، و«منتخب التواريخ» للعلاَّمة عبد القادر البدايوني.

٥ ـ كانت دعوته مؤسسةً على خمسة أصول:

١ ـ الانصراف عن الدنيا.

٢ ـ العزلة عن الخلق.

٣ ـ الهجرة عن الوطن.

٤ ـ مصاحبة الصدِّيقين.

٥ ـ دوام الذكر (على طريقة حفظ الأنفاس)، وكان يرى مشاهدة الرب عز وجل ـ سواء كانت بالعين، أو بالقلب، في اليقظة أو في المنام ـ شرطاً لازماً لتحقق الإيمان.

٦ ـ وقد صدرت عنه في حال السكر، أو بسبب خطئه في فهم المعنى والمراد كلماتٌ وأقوال صريحة ودعاوى واضحة ـ مرَّاتٍ عديدة ـ أدعى فيها لنفسه ما لا نجد له تأويلاً أو محملاً سائغاً إلا بتكلُّفٍ شديد، والتي أدت بأتباعه ـ مهما كانت نيتهم في بداية الأمر، ومهما كانت عواطفهم الدينية الطيبة ـ إلى استحالتهم فرقةً جديدةً، تخالف ما عليه الجمهور، وتعارض أهل السنة والجماعة، وتستند إلى هذه الأقوال الشاذة، وتؤسس عليها عقائدها وأصول ديانتها، ثم أضاف فيها الغلاة من أتباعهم ـ كما هو المعروف في تاريخ الفرق ـ وبالغوا في تعظيمه، وتقديسه، حتى ساووه بالأنبياء والمرسلين، بل فضَّلوه عليهم أحياناً، وبلغ به بعض المتطرفين الغلاة إلى مرتبة النبيِّ الخاتم ﷺ، وإنَّ السيد محمد في زعمهم واعتقادهم تابعٌ لسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ومتقيد بالشريعة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وبلغ ببعضهم الغلوُّ المفرط، والتطرف الجامع إلى أن الكتاب والسنة إذا خالفا قولاً من أقواله، أو فعلاً من أفعاله، فكتاب الله وسنة رسوله تبع لأقواله وأفعاله، وغلوا غلواً عجيباً في عقيدة مشاهدة الله تعالى، فمن لم يشاهد «الأنوار الإلهية» بعين الرأس، أو عن طريق القلب، أو في حال اليقظة، أو المنام، فليس بمؤمن، وبدأ الخليج بين عامة المسلمين وبين هذه الفرقة ـ بعد ظهور هذه العقائد ـ يتَّسع، ويعمل على مرِّ الزمان حتى شذت هذه الفرقة المدعوة بـ «المهدوية» عن أهل السنة

والجماعة ، وانقطعت صلتها بهم بصورةٍ كاملة ، وضاعت تلك الأهداف التي أنشئت لها هذه الحركة ، وكان يستهدفها مؤسسها ويرمي إليها .

واستمرت آثار هذه الحركة على أفغانستان والهند إلى أواسط القرن العاشر ، وقامت لحماتها وأنصارها عدة دول في ولاية دكن ، ويقدر عدد أتباع هذه الفرقة وقوتها السياسية التي ظهرت في أواخر القرن العاشر بأن جمال خان المهدوي ـ الذي كان من كبار أصحاب المناصب في البلاط ـ لما تولى زمام الشؤون الملكية بولاية «أحمد نكر» في عهد السلطان إسماعيل نظام شاه بن برهان نظام شاه الثاني (٩٩٦ ـ ٩٩٨ هـ) استمال السلطان إسماعيل نظام شاه ـ وكان صغير السن إذ ذاك ـ إلى نحلته ، ثم لم يمض على ذلك كثير زمن حتى اجتمعت لديه طوائف من المهدوية من مختلف أنحاء البلاد ، والتفَّ حول جمال خان من المهدويين حوالي عشرة آلاف شخص ، وخضعت له ولاية أحمد نكر ، واستولى عليها استيلاءً كاملاً ، ثم لما عاد برهان شاه ـ وكان قد خرج في رحلة من الرحلات ـ إلى أحمد نكر ٩٩٨ هـ ، قضى على النحلة المهدوية التي كانت انتشرت انتشاراً واسعاً ، ونشر المذهب الإمامي الذي كان عليه من قبله ، وأحياه من جديد[١] .

وظهر في أواخر القرن العاشر إعياءٌ وضعفٌ شديدٌ في الحركة المهدوية وقد كانت هذه الدعوة ، وادعاءات السيد محمد الجونبوري ، وتشدد أتباعه الغلاة المتطرفين تحدث رجةً في معتقدات المجتمع المسلم ، واضطراباً في الأفكار ، وقلقاً في الأوضاع ، وهال ذلك ، وأفزع العلماء الراسخين ـ في ذلك العصر ـ الذين كانوا على بصيرة من الكتاب والسنة ، ومعرفةٍ تامَّةٍ بالعلوم الدينية ، وكانوا يتوجسون خيفة من هذه الفتنة العمياء ، ويرونها تمهيداً لضلال مستطير ، وانحراف كبير ، فنهض العلامة محمد طاهر الفتني مؤلف «مجمع بحار الأنوار» (٩١٣ ـ ٩٨٦ هـ) وهو أكبر عالم ، ومحدِّث في عصره بتفنيد هذه الدعاوى والردِّ عليها ، وسدَّ هذه الثلمة في الدين ، وعاهد الله تعالى على محاربة هذه البدعة ـ التي سادت في ولاية كجرات ،

(١) ملخص من «تاريخ هندوستان» ج ٤ . تأليف الأستاذ ذكاء الله الدهلوي .

وقام لها دعاةٌ وأنصار ـ والقضاء عليها ، وأنه لا يَلُوث العمامة حتى يزهق هذا الباطل ، وينتصر للحق ، ثم لما فتح الملك أكبر ولاية كجرات عام ٩٨٠ هـ ، وقابله العلامة محمد طاهر الفتني ، لاث العمامة على رأسه بنفسه ، وقال له: «**إنَّ ما عاهدت الله عليه من نصر الدين وحمايته ، واستئصال هذه الفرقة الناشئة عليَّ تنجيزه والقيام به**» ، وولى بعد ذلك مرزا عزيز الدين أخاه من الرضاعة حاكم «كجرات» الذي شدَّ أزر العلامة الفتني ، وساعده في عمله ، حتى كسر شوكتهم ، ولكن لما أقبل مرزا عزيز الدين من هذه الولاية ، وولى مكانه عبد الرحيم خانخانان ، قامت قائمة المهدويين من جديد ، وعادوا إلى نشاطهم ودعوتهم ، وبارزوا في الميدان ، فحسر العلامة الفتني رأسه من العمامة ، وقصد العاصمة ، وتبعته طائفة من المهدويين ، ولم يصل مدينة أجين حتى قتلوه غيلةً[١] .

أسباب القلق والفوضى في الأفكار :

إنَّ دراسة التاريخ والتعمق في فلسفته يدلُّ على أنَّ الأسباب الأصيلة والدوافع القوية لمثل هذا القلق والاضطراب ، والحركات الهدَّامة الناشئة من ردود الفعل ، والفوضى في المعتقدات والأفكار تتحدَّد ـ بصفة عامة ـ فيما يأتي :

١ ـ تعارض القول والفعل ، والعقيدة والحياة ، والتناقض الموجود في المجتمع كان يحمل القلوب الحساسة ، والمشاعر المرهفة على القلق والتوجع ، وهذا القلق ـ عندما يبلغ مرحلةً خاصَّةً من مراحل تطوره ـ يجد متنفساً في الدعوات الثورية ، والحركات الهدامة ، وأصحاب النفوس المضطربة القلقة إذا لم يساعدهم الحظ في إنشاء حركةٍ أو دعوةٍ إيجابية بناءة ، فإنَّهم يصابون دائماً بالشك والارتياب ، وتزعزع العقائد ، والأفكار ، وتتحوَّل مثل هذه الحركات ـ بصفةٍ عامَّةٍ ـ إلى دعوات سلبية متطرفة ، ومعتقدات شاذة ، وتصبح أكثر فساداً ، وأعمق ضلالاً ، وأوسع

---

(١) راجع «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» ج ٤ .

خطراً واضطراباً للبلاد ، وإثارة للفتن من ذلك المجتمع الفاسد الذي تقوم هذه الدعوات لإصلاحه ومعالجة فساده.

ويخيل إلينا: أنّ الترف ، وكثرة الأموال ، والطمع في المناصب والوظائف والتنافس في الحصول عليها جرَّ الناس إلى هذا التناقض ، والنفاق العملي ، ووجدت طبقة كبيرة من عباد المادة وأبناء الدنيا ، الذين تخطوا حدود التعاليم الدينية والخلقية ، وتهافتوا على نيل الجاه والمنصب ، وتساقطوا على المتع واللذائذ في حِلٍّ وغير حِلٍّ غير مبالين بالقيم والآداب والحدود الإسلامية ، وتنشأ مثل هذه الطبقة ـ دائماً ـ في ظلِّ حكوماتٍ واسعةٍ قوية ، وفي عهود الأمن والاستقرار ، والرخاء ، ويبدو أنَّ المجتمع الهندي في آخر عهد حكومة الأسرة السورية ، وبعد قيام الدولة المغولية أصيب بهذا الداء العضال ، واتجه هذا الاتجاه المتهور ، ونفذت قوانين معارضة للإسلام ، وطبقت عادات وأعمال تناوىء الدين ، ولا تمتُّ إليه بأيِّ صلة[1] وقد منيت الدولة الأموية ، والدولة العباسية أيضاً ، بظهور هذه الطبقة المترفة ، وهي الطبقة التي يسميهم سيدنا الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ (م ١١٠ هـ) بـ «المنافقين».

٢ ـ استبداد الحكام والسلاطين ، وسلطتهم المطلقة ، وظلمهم ، وعدوانهم ، وإعراضهم عن أحكام الشريعة الإسلامية ، وعبادتهم للنفس والأهواء ، مما يحمل الرجال الأقوياء الطامحين على ثوراتٍ وحركاتٍ قويةٍ تهزُّ الدولة ، وتلحق الأضرار بالمسلمين.

٣ ـ غلبة الطقوس والتقاليد ، والاهتمام البالغ بالمظاهر الجوفاء ،

---

(١) يستفاد من كتب التاريخ: أنَّه في عهد السلطان سليم شاه (أو إسلام شاه) كان يجتمع في عاصمة كل ولاية كبار أصحاب المناصب من الأمراء والوزراء يوم الجمعة ، ويوضع حذاء السلطان سليم شاه على كرسي في خيمة كبيرة ، فيحنون له رؤوسهم ، ويقرأ عليهم مجموعة القوانين الملكية (انظر تاريخ الهند للسيد هاشمي الفريد آبادي ، ج ٣ ص ٤٠.

وانحطاط المجتمع الخلقي ، والعقلي ، وجمود الأوساط العلمية ، وسيطرة التقليد الأعمى عليها[1] .

وفقدان المناهج التعليمية المليئة بالحيوية والنشاط ، وبعدها عن الواقعية ، وفقرها في إقناع العقول المتطلعة ، والأذهان المتشككة ، كلُّ ذلك يدفع الناس إلى اعتناق دعوات وحركات تروي ظمأهم ويجدون فيها سلواهم ، وتنهج لهم مسالك جديدة ـ خاطئة أو صحيحة ـ وتخرج بهم عن الدائرة الضيقة المحدودة ، كما أنَّ من البواعث الأساسية ، والدوافع القوية ، لهذا الاضطراب الفكري: غفلة المجتمع عن تعاليم الكتاب والسنة ، وقلَّة العلم بالحديث الذي يساعد على تكوين تصور سليم ، وفهم صحيح للدين ، ويعرف من خلال دراسته مدى بعد المسلمين وانحرافهم عن الإدراك الصحيح لأصول الدين ، والعمل المستقيم وأسوة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومنهاج الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

٤ ـ عدم وجود شخصية دينية قوية تسمو على المستوى العام في مقدرته العقلية ، والروحية ، تملك التأثير القوي ، وتجذب النفوس ، وتأخذ بمجامع القلوب ، وتزيل الريب والشكوك ، وتعالج الروح القلقة ، والنفس المضطربة ، وتنفخ في جسم المجتمع الخامد روحاً جديداً ، وتعيد الثقة

---

(١) يصور البروفيسور خليق أحمد نظامي رئيس قسم التاريخ في جامعة عليكراه الإسلامية هذا العهد ، ويشخص هذا الداء تشخيصاً صحيحاً ، فيقول: «كانت أوضاع المسلمين الاجتماعية الخلقية تسير ـ بسرعةٍ ـ نحو التدنِّي والانحطاط ، وإنَّ ما جاء من القصص والروايات الغريبة في «أفسانه شاهان» و«تاريخ داؤدي» تنمُّ عن التسفل الخلقي المشين ، والاضطراب العقائدي العظيم ، إنَّ حياة «الدراوشة» المترفة الناعمة ، وانحراف طلبة العلم ، والعقائد الخرافية ، في التمائم والحجب وأساطير السعالى والجن ، وروايات «مصباح سليمان» ليست علائم على مجتمع سليم ، ونظام خلقي قويم ، وقد كانت الحركة المهدوية ـ في حقيقة الأمر ـ محاولة للقضاء على هذا الانحطاط العقلي ، والتزمُّت الفكري ، والجمود المذهبي. انظر «سلاطين دهلي كي مذهبي رجحانات ـ الميول الدينية لدى سلاطين دهلي» (ص ٤٥١).

والاعتماد على خلود الإسلام ، وصدق الرسالة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، وأنَّ أسباب الرقي والكمال موصولةٌ بها ، وراجعةٌ إليها .

وتدلنا دراسة تاريخ القرن العاشر ـ في ضوء كتب السير والتراجم ، وسجلات الوقائع والحوادث ـ على أنَّ هذه الدوافع والأسباب الطبيعية للفوضى والاضطراب تضاعفت في الهند ـ على أقل تقدير ـ بالنسبة للقرون الماضية ، وكان من نتيجة ذلك ، ظهور هذا القلق الفكري ، والحركات الثورية الهدامة ، على هذا النطاق الواسع في القرن العاشر .

* * *

العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري(١)

أهمية دراسة أوضاع البلاد الإسلامية وتطوراتها وأحداثها في القرن الثاني عشر الهجري:

لقد كان كاتب هذا المقال صرَّح في بداية الجزء الثالث لكتابه «رجال الفكر والدعوة» الذي يختص بحياة الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) وتاريخ عصره، ومآثره الإصلاحية، والتجديدية العظيمة؛ لبيان أهميَّة الدراسة التاريخية للقرن العاشر الهجري (الذي ولد فيه الإمام السَّرهندي، ونشأ نشأته العقلية والعملية) بما يلي:

«وينبغي ـ ونحن في هذه الدراسة ـ ألا نغفل حقيقةً ذات شأنٍ، وهي: أن العصر الذي ولد فيه الإنسان، والعالم الذي يعاصره، والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه هو كالنهر الجاري، تتَّصل كلُّ موجةٍ فيه بالموجة الأخرى، وتتَّسق معها، فلا يمكن لأجل ذلك، أن يبقى بلدٌ ـ مهما كان بعيداً نائياً، يعيش في عزلةٍ عن سائر العالم ـ غير متأثرٍ بالأحداث الخطيرة، والثورات العظيمة، والقوى المتحاربة، والحركات المؤثرة القوية؛ التي تجري في بلدان العالم الأخرى، لاسيما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع، والثورات، والتطورات بلداً يشاركه في العقيدة، والمذهب، والمشرب، ويجاوره في المكان، ولذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الخامس، المجلد التاسع والعشرون، عام ١٩٨٤ م.

التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب ، بل يلزمه أن يلقي نظرةً عامَّةً على العالم الإسلامي كلِّه في القرن العاشر ، لاسيَّما البلدان المسلمة المجاورة التي كانت بينها وبين الهند أواصر علميةٍ ، ودينيةٍ ، وحضاريةٍ ، وكانت تصل إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة ، ونفحاتها الرخيَّة الناعمة على بعد الدار ، وطول المسافة»[1] .

إنَّ الحاجة إلى مراعاة هذه الحقيقة التاريخية ، وتطبيق هذا الأصل المهمِّ في دراسة حياة الإمام الدَّهلوي ، وإلقاء الأضواء على أعماله التجديدية الكبيرة أشدُّ وأكثر؛ إذ إنَّ تربيته الفكرية ، والعلمية تدين لبلاد الحرمين الشريفين ، وأنَّ لهما الدور الأساسي في تكوين عقليته ، وثقافته ، حيث أقام الإمام الدَّهلوي أكثر من عامٍ واحدٍ في الفترة الواقعة بين ١١٤٣ ـ و١١٤٤ هـ[2] ، ودرس علم الحديث الشريف على المحدِّث الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني أحد أئمة الفن وعلماء الحديث الكبار في عصره؛ الذي كان يؤمُّه طلاب الحديث من مختلف الأقطار والأمصار ، وتخرَّج على يديه وأسند عنه جميع مروياته ، وجالس علماء الحرمين الشريفين (الذين كانوا من مختلف البلدان الإسلامية والعربية) وصحبه مدَّةً من الزمن ، وقد كان الحجاز آنذاك في ولاية الدولة العثمانية وإدارتها ، وكان أشراف مكة يتبوؤون منصب الإمارة كنواب عن السلاطين العثمانيين ، وقد كان الحرمان الشريفان ـ لاسيما المدينة المنورة على صاحبها الصَّلاة والسلام ـ اللذان يجمعان في غير أيام الحج أيضاً في رحابهما كلَّ عام صفوة العقول ، والقلوب ، وفراشات الإيمان والنور ـ مركزاً كبيراً لعلم الحديث الشريف ، حيث يلتقي طلَّاب هذا العلم وهواته من كلِّ بقعةٍ من بقاع العالم الإسلاميِّ ، وكان من الميسور لمن يقيم بها أن يستعرض العالم الإسلامي كلَّه ويدرسه روحياً ، وعلمياً ، وخلقياً ، واجتماعياً ، ومدنياً ، وسياسياً ، وأن يقدِّر ـ بسهولةٍ رقيَّ البلدان الإسلامية

---

(١) الإمام السَّرهندي ـ حياته وأعماله ، ص ١٨ .

(٢) لقد كان الإمام الدَّهلوي وصل إلى الحجاز في أواخر عام ١١٤٣ هـ وعاد منها إلى الهند في أوائل عام ١١٤٥ هـ ، وحجَّ حجتين .

والعربية، أو ازدهارها، أو سقوطها وانحطاطها من هذه النواحي كلِّها، ويطَّلع على مختلف رجالها وشخصياتها ونوابغها، وحركاتها ودعواتها الإصلاحية، وجهودها، ومؤامراتها الثورية الباعثة للفوضى والاضطرابات، بل كان من الممكن أن يجسَّ نبض العالم الإسلاميِّ، ويقدِّر سيره، ويسمع خفقات قلبه، ومن اللازم أنَّ إماماً نابغةً كالإمام الدهلوي في ألمعيته، وتوقد ذكائه، ولوعة قلبه، وتوجعه يكون استفاد من كلٍّ ذلك، وتأثر به، واستخدمه في توسيع نطاق فكره، وبعد نظره، وآفاقية دعوته، وفلسفته، ومنهجه.

زد على ذلك أنَّ الهند كانت ـ عبر قرونٍ وأجيالٍ ـ عرضةً للغزاة والفاتحين من الأسر الأفغانية، والتركية بآسيا الوسطى، ولم تزل هذه البلاد تحت وصايتهم سياسياً وإدارياً، وهم الذين كانوا يزودون حكوماتها الضعيفة النحيلة، وهيكلها التنظيمي، والإداري بدماء جديدةٍ حارَّة، ويهبون إدارتها المفككة المهلهلة، وقوتها العسكرية المتخاذلة قسطاً جديداً من القوة والحيوية والحرارة، وإذا أشرقت أسرة حاكمة ـ طال عهد حكمها ـ على مرحلة الشيخوخة والهرم؛ أقبلت من ممرٍّ «خيبر» أو ممرٍّ «بولان» قوةٌ عسكريةٌ جديدةٌ دافقةٌ بالحيوية والحرارة إلى الهند، وطعَّمَتْ سلسلة الحكومات التي كانت تدين بدينٍ واحدٍ (الإسلام) وعقيدةٍ واحدة (عقيدة أهل السنة والجماعة) وقانونٍ واحدٍ (الشريعة الإسلامية) ولغةٍ واحدةٍ (التركية أو الفارسية) وحضارةٍ واحدةٍ (وهي الحضارة التي مزجت بين الحضارات العربية، والإيرانية، والتركية، والهندية) بالقوَّة والنشاط، ووهبتها قسطاً جديداً من الحياة.

ثم إنَّه لا ينبغي أن ننسى حقيقةً تاريخيَّةً، وهي أنَّ أفغانستان، وولايتها الكبيرة المهمة «كابل» و«قندهار» لم تزل منذ عهد استيلاء الملك بابر، وقيام الدولة المغولية جزءاً من الحكومة الإسلامية الهندية، وقلعةً خارجيةً لها، وسوراً منيعاً، وقد كان دخول الملك نادر شاه، ملك إيران في الهند، وزحفه إلى دلهي في عهد الإمام الدهلوي نفسه، كما غزا الهند في عهده أحمد شاه الأبدالي عدَّة مرات، حتى كانت أخيراً عام ١١٧٤ هـ

الموافق عام ١٧٦١ م تلك المعركة الحامية في ساحة «باني بت» التي هزم فيها المرهتنة هزيمةً نكراء ، وغيَّر وجهة التاريخ ، وتيار الأحداث ، وأعطى الدولة المغولية فرصةً صالحةً تستدرك ما فات ، وتعود إلى الحياة ، والمجتمع المسلم ، وطبقة الأمراء ، والولاة فرصةً سانحة للقيام بدورٍ جديدٍ لم يستطيعوا أن يقوموا به لعدم كفاءتهم ، وسوء تصرفاتهم ، لقد كانت هذه الأحداث كلُّها في عهد الإمام الدهلوي بل كان الحدث الأخير منها بإشارة منه ، وإرشاد ، وكان صاحبا هاتين الغزوتين ينتميان إلى إيران ، وأفغانستان ، ولأجل ذلك لا يمكن في دراسة عهد الإمام الدَّهلوي واستعراض القرن الثاني عشر الهجري التغاضي عن أوضاعهما ، وانقلابات الدول بجرَّاء كل ذلك.

تأثير «إيران» الحضاري والثقافي على الهند:

ثم إنَّ الهند كما كانت في القرن الخامس الهجري تحت تأثير تركستان ، وأفغانستان من النواحي السياسية والعسكرية ، كذلك كانت في قليلٍ أو كثيرٍ تحت تأثير إيران ، من النواحي العلمية ، والأدبية ، والثقافية ، والحضارية ، والفكرية ، فتجد على فكرتها وعقليتها ظلال أدبها وشعرها ، وطرق تصوفها ، وأخيراً: ظلال مناهجها الدراسية ، ونظمها التعليمية ، ومؤلفات علمائها ، ونوابغها ، لاسيما منذ دخول الملك همايون إلى إيران ، واستعادة الدولة الهندية بمناصرتها وتأييدها ، ثم منذ مقدم الأمير فتح الله الشيرازي ، والحكيم علي الكيلاني في عهد الملك أكبر أصبحت الهند ـ كلياً ـ عالةً على إيران ، في مناهجها الدراسية ، وطرق التعليم ، وتحديد مقاييس الفضل والنبوغ ، وفي مجال العلوم العقلية ، والحكمية ، تقلِّدها ، وتدين لها ، وتمشي في أثرها ، وتمَّت بذلك السلطة العليا لإيران على الهند في هذا الصَّدد ، فلا يمكننا ـ نظراً إلى هذه الحقيقة التاريخية ـ أن نغفل الأحداث الجارية فيها في هذه الدراسة التاريخية.

أهمية الدولة العثمانية وعظمتها:

كذلك لا يمكننا التغاضي ـ عدا بلاد أفغانستان وإيران المجاورة ـ عن

الدولة العثمانية (التي كانت تتولّى من القرن العاشر الهجري منصب الخلافة) وهي وإن كان موقعها الجغرافي على مسافةٍ شاسعةٍ من الهند في أوربة ، وآسيا الصغرى ، ولكنها كانت تحتضن جميع البلدان العربية تقريباً (مصر ، الشام ، العراق ، اليمن ، نجداً ، الحجاز ، والجزء الكبير من إفريقية الشمالية) وقد كان المسلمون كلُّهم ينظرون إليها ـ من حيث كونها حاميةً للديار المقدسة ، وحاملةً عبء الخلافة الإسلامية ، ولأنها كانت قوةً ، ومملكةً كبرى ، ورمزاً للجبهة الإسلامية في نظر الغرب ، والقوى المعادية للإسلام ، ومحافظةً على كثيرٍ من المصالح الإسلامية ـ نظرة تقدير ، واحترام ، ولم يكونوا يهتمُّون بما يجري فيها من وقائع ، وأحداث فحسب ، بل كانوا يتأثرون بها ، ويتكيَّفون معها ، فلم يكن يمكن مثل الإمام الدَّهلوي في سعة أفقه ، وعالمية تفكيره ، والذي كان اطلاعه على التاريخ الإسلاميِّ اطِّلاعاً واسعاً عميقاً أن يغضَّ النظر عن الدولة العثمانية ، فقد كان خبيراً بموقف الشريعة الإسلامية من الخلافة ، وأهميتها السياسية ، والاجتماعية ، وكان يرى: أنَّه لابدَّ للدين والأخلاق الصالحة والمجتمع الصالح ، والمدنية الصحيحة، والحياة الإسلاميَّة من حكومةٍ مستقلةٍ حرَّةٍ ، وقوة سياسيةٍ صالحةٍ ، وكان يتمنى أن يرى المسلمين قوةً موثرةً ، آمرةً ناهيةً ، لا في بلادهم فحسب ، بل في العالم كلِّه ، فكيف كان من الممكن أن يتغاضى عن رقي أعظم مملكةٍ للمسلمين وسقوطها ، وصعودها ، وهبوطها ، وهدوئها الدَّاخلي ، واضطرابها ، لاسيما وقد عاش في أحبِّ البقاع ، وأكرمها في نطاق دولتها ، وهي الحجاز ، بعيونٍ مفتوحةٍ ، وذهنٍ وقَّادٍ ، وعقلٍ حاضرٍ ، وقلبٍ شاعرٍ ، وكان قد درس تلك التأثيرات ، وسمع أخبارها عن طريق الوافدين من ممتلكاتها ، وولاياتها ، والبلدان التي كانت تحت وصايتها ، كمصر ، والشام ، والعراق؛ التي كانت تترك على أوساط هذه البلدان العلمية ، والدينية بصماتها؛ نتيجة لميول سلاطينها العثمانيين ووزرائها ، و«شيوخ الإسلام» والعلماء الأتراك فيها ، وعقليتهم، ونزعاتهم ، فلابـدَّ إذاً من إلقاء نظرةٍ إجمالية على المملكة العثمانيـة في القرن الثاني عشـر الهجري (القـرن الثـامن عشر المسيحي) وعلاقاتها مع

البلدان الغربية المسيحية المجاورة ، وتفكُّكها ، وانحلالها ، وتماسكها ، واستحكامها ودورات المدِّ والجزر في قوَّتها السياسية.

الوضع السياسي في العالم الإسلامي :

سننظر ـ أولاً ـ في حالة العالم الإسلامي السياسية ، وانقلاب الدول والحكومات ، وأهم الوقائع والأحداث ، ثم ندرس أوضاع العالم الإسلاميِّ العلمية ، والدينية ، والخلقية.

الدولة العثمانية في القرن الثاني عشر :

كان الإمام الدَّهلوي ولد عام ١١١٤ هـ وتوفي عام ١١٧٦ هـ ، وقد توالى في هذه الفترة (٦٢ عاماً) على عرش الدولة العثمانية خمسة سلاطين وهم: مصطفى الثاني (م ١١١٥ هـ) أحمد الثالث (م١١٤٣ هـ) محمود الأول (م ١١٦٧) عثمان الثالث (م ١١٧١ هـ) ومصطفى الثالث (١١٧١ هـ ـ ١١٨٧ هـ). تولى أربعة من هؤلاء السلاطين : أحمد الثالث ، محمود الأول ، عثمان الثالث ، ومصطفى الثالث زمام الأمور في عهدٍ بلغ فيه الإمام الدَّهلوي أشدَّه ، واكتمل وعيه ، وبدأ عمله ، وتفكيره ، إلا أنَّ أهم الفترات الزمنية من حياته (وهي السنوات الخمس الأخيرة) قضاها في عهد مصطفى الثالث.

حكم مصطفى الثالث ١٦ عاماً و٨ أشهر ، واندلعت في عهده نار الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا ، انهزمت فيها الدولة العثمانية عام ١٧٦٩م ولكن لم يكن لروسيا فيها أيُّ مفخرةٍ ومكرمةٍ ، بل كانت هذه الهزيمة بسبب بعض الأحداث ، والخلل في بعض التدابير والإجراءات[1] وأراد الجنرال الروسي «الفنستن» أن يحمل على القسطنطينية أيضاً ، إلا أنه منع من ذلك ، واتخذ مصطفى خان إجراءات لتعزيز جنوده ، واهتمَّ بالإصلاحات العسكرية ، وأحرز مكاسب عسكرية ، وتقدَّمت روسيا بشروط للمهادنة ، كانت تشتمل على الإهانة لتركيا ، وجرح كرامتها ،

---

(١) انظر للتفصيل «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك المحامي ـ ط ، بيروت.

وعقد في «بخارست» في ١٣/ شعبان عام ١١٨٦ هـ (أي بعد وفاة الإمام الدِّهلوي بعشرة أعوام) الموافق ٩/ نوفمبر عام ١٧٧٢م مؤتمر ، قدمت فيه بعض الشروط ، ولكن رفضتها الدولة العثمانية ، وأصدرت أوامرها للجيش التركي بإعلان الحرب ضدَّ روسيا ، فلقيت فيها روسيا هزيمةً منكرةً ، ودخل في قلوبهم الرُّعبُ ، حتى عندما مرَّ الجيش التركي بسوق «جق» (التي تدعى اليوم Tobulkhin) خلَّى سكان هذه المدينة الروس المدينة بأكملها ، يقول المؤرخ هيمر (Hemer): «إنَّ العثمانيين وجدوا قدوراً موضوعةً على المراجل والأثافي ، كان يُطبخ فيها اللحم» ، توفي السلطان مصطفى الثالث في ٨/ ذي القعدة عام ١١٨٧ هـ الموافق ٢١/ يناير عام ١٧٧٤م) ويثني المؤرخون على عدله ، ورغبته ، وجهوده في أمور الخير ، وكان قد أقام في عهده كثيراً من المدارس ، والرباطات[(١)].

وقد انتشرت المطابع في الدولة العثمانية حين كان الإمام الدِّهلوي شاباً ، وقامت المطبعة في القسطنطينية ، وظهرت في هذا العهد نفسه حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ)[(٢)].

واستولى علي بك الذي كان يدعى «بشيخ البلد» في عهد عثمان الثالث على حكومة مصر وإدارتها ، وتآمر مع الجنرال الروسي الذي كان قد عين لبحر الروم ، واشترط عليه مساعدته بالسلاح ، والذخيرة حتى تستقلَّ مصر ، ونجح علي بك بمساعدته في سيطرته على غزة ، ونابلس ، والقدس ، ويافا ، ودمشق ، وكان يريد التوجه إلى أناطوليا ؛ إذ خرج عليه أحد القادة المماليك المدعو بمحمد بك المعروف بأبي الذهب؛ الذي اضطر علي بك للعودة إلى مصر ، ولقي هزيمةً على يديه ، كان من نتيجة

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٩ ـ ٣٤٠.

(٢) واستولى بعد ذلك الأمير سعود بن عبد العزيز (١١٦٣ هـ ـ ١٢٢٩ هـ) أمير نجد بقوة التنظيم العسكري ، وحماسه للجهاد وبهذه الدَّعوة على الجزء الأكبر من الحجاز ، وجزيرة العرب عام ١٢١٨ هـ ، ثم عادت هذه البقعة بجهود الخديوي محمد علي والي مصر إلى قبضة الدولة التركية عام ١٢٣٤ هـ ونفي الأمير النجدي عبد الله بن سعود بن عبد العزيز إلى قسطنطينية ، وقُتل بها.

هذه الحروب الداخلية والفوضى أن أطلقت الأساطيل الروسية النيران على بيروت ، وانهدم بسببها حوالي ثلاثمئة بيت ، ثم وقعت الحرب بين جيوش علي بك ، وجيوش محمد بك في شهر محرم عام ١١٨٧ هـ ، انتصر فيها محمد بك وأسر علي بك ، ومات بجروحه ، وفصل رأسه من جسده ، وبعث به مع أربعة ضباط روس إلى الوالي العثماني خليل باشا ، الذي أرسله إلى القسطنطينية ، وعادت مصر مرّةً ثانية إلى حكم الدولة العثمانية.

الوضع السياسي في الحجاز:

عندما سافر الإمام الدَّهلوي إلى الحجاز ، وأقام في الحرمين الشريفين مدَّة عام، كان ذلك عهد خلافة السلطان محمود الأول (١١٤٣ هـ - ١١٦٧ هـ) وكان يمثل السلطان العثماني ، وينوب عنه في الحجاز محمد بن عبد الله[١] بن سعيد بن زيد بن محسن الحسني (م ١١٦٩ هـ) واليه على الحجاز (الذي كان يقال له: شريف مكة) وكان قد ولي الحجاز بعد وفاة والده عام ١١٤٣ هـ[٢] وقد كان عهده عهد الحروب الداخلية ، والصراع بين أفراد الأسرة على الإمارة ، فقد عزله عمُّه مسعود بن سعيد عام ١١٤٥ هـ وتسلَّط على الإمارة ، ولكنه استعاد منصبه عام ١١٤٦ هـ، ثم عزله عمه، وبقي والياً عليها إلى آخر عمره عام ١١٦٥ هـ ، وساد في عهده

---

(١) ذكر اسمه في بعض الكتب محمد عبد الله ، ولعلَّ ذلك لأجل تجنب المماثلة اللفظية لاسم محمد بن عبد الله تأدباً واحتراماً.

(٢) لم يزل أشراف مكة (الذين كانوا يختارون من السادة الحسنيين نسبة إلى الحسن بن علي - رضي الله عنه - ولذلك كانوا يدعون بالأشراف) يتولون شؤون الحجاز من الثلث الأول للقرن الرابع الهجري ، فقد عين الشريف الأول بمكة في عهد الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) ثم كانت تولية الأشراف إلى عهد استيلاء السلطان سليم على الشام ومصر ، وولايته للحرمين الشريفين من قبل أسرة المماليك في مصر ، فلما استولى السلطان سليم أقرَّ شريف مكة في عهده السيد بركات ، وابنه على منصبهما ، وكانا شريفي مكة ، واستمرت هذه الإمارة في الأشراف إلى الشريف حسين الذي خرج على العثمانيين في يونيو عام ١٩١٦ م الموافق شعبان عام ١٣٣٤ هـ وخلع في يناير عام ١٩٢٦ م بعد استيلاء السلطان ابن سعود على الحجاز.

الأمن والسلام في الحجاز ، ويصفه المؤرخون بأنَّه كان ذكياً متيقظاً ، وسياسياً محنكاً[1].

وإننا نجد كتب التاريخ ، والرحلات ، ومذكَّرات الحجِّ؛ التي ألفت في منتصف القرن الثاني عشر الهجري أو تؤرخ ذلك العهد ، إنها تشكو قلَّة الأمن في الطرق ، وغارات البدو ، وفساد النظام ، وسوء الإدارة: الذي كان نتيجة بُعْدِ مركز الدولة العثمانية (القسطنطينية) وسياسة عدم التدخل من جانب الأتراك إلى حدِّ المستطاع في الأمور الداخلية للحجاز ، والتسامح الزائد مع أشراف مكة (الذين كانوا من الأسرة الحسنية ، وكان نسبهم صحيحاً معلوماً) والإجلال الزائد للعرب ، واحترامهم ، وسياسة التغاضي عن تجاوزاتهم ، وسوء تصرفاتهم ، وعلاوةً على ذلك نظام الوراثة في إمارة الحجاز ، وانحصارها في أسرةٍ واحدة ، ومن الممكن أن يقطع بأنَّ الإمام الدَّهلوي كان قد نظر في هذه الأوضاع القلقة المضطربة ، والصراع الداخلي على منصب الإمارة ، وقلَّة النظام ، وضعف الإدارة بعين بصيرته ، وشعر بفداحة الأمر بقلبه العامر بالحميَّة الدينية ، ولعلَّ الصِّراع بين العمِّ وابن أخيه على الإمارة الذي كان عام ١١٤٥ هـ قد يكون وقع في مدة إقامته بالحجاز ، ولعلَّه توصل بهذه الأوضاع إلى نتائج بعيدة المدى ، وأخذ منها شواهد على الانحطاط الخلقي الذي أصيبت به هذه البلاد.

اليمن:

وكان يسود في اليمن أيضاً مثل هذا النظام السياسي ، فكانت اليمن تحت السلطة العثمانية من الناحية السياسية بصفةٍ عامَّة ، والسياسة الخارجية بصفةٍ خاصَّة ، فكان يوجد بها حاكمٌ من الحكام العثمانيين يعيَّن من قبل الدولة العثمانية ، ولكنَّها رغم ذلك يسود فيها نظام الإمامة كذلك ، الذي كان يستمرُّ فيها من القرن الثالث الهجري. وكان يتولاها الأشراف

---

(١) الأعلام ج ص ١١١ ـ ١١٢ نقلاً عن خلاصة الكلام وعنوان المجد وتذييل «شفاء الغرام لأخبار البلد الحرام» ج ٢ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ «باب ولاة مكة».

الزيديون[١] ، فكان أهل اليمن يبايعونهم بيعة الخلافة ، ويدعونهم «الإمام» وكان من يتولى هذا المنصب يعتقد فيه أنه بلغ رتبة الاجتهاد والإمامة في المذهب ، وأنه عالمٌ متبحّر فيه ، مسلمٌ له الزعامة والقيادة.

دخلت اليمن في حوزة الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني ابن ياور سليم ، وكان يحكمها ـ آنذاك ـ «إمامها» وخليفة الأئمة الأشراف فيها السيد المطهر ابن الإمام شرف الدين (م ٩٨٠ م) فكانت بينه وبين القائد التركي سنان باشا حرب أسفرت عن خضوع اليمن للدولة العثمانية[٢] إلا أنَّ الأتراك العثمانيين أبقوا هنا كالحجاز على نظام الإمارة ، وأعطوا الإمام الحرية في الشؤون الداخلية ، ولما كان الإمام الدّهلوي في الحجاز كان الإمام المنصور بالله الحسين ابن المتوكل على الله قاسم بن حسين إمام اليمن؛ الذي استمرَّ عهد إمامته وإمارته من ١١٣٩ هـ إلى ١١٦١ هـ ، وكان أكثر سكان اليمن ـ رغم سلطة المذهب الزيدي ، ورعايته الحكومية ـ من أهل السنة في العقائد ، والشوافع في المذهب.

وقد كانت اليمن مركزاً كبيراً لعلم الحديث الشريف في القرنين الثاني عشر ، والثالث عشر ، حيث ولد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير (م ١١٤٢ هـ) صاحب سبل السلام في القرن الثاني عشر ، والعلامة محمد بن علي الشوكاني (م ١٢٥٥ هـ) صاحب «نيل الأوطار» في القرن

(١) يرى العلامة محمد أبو زهرة في كتابه «تاريخ المذاهب الإسلامية» أنَّ الفرقة الشيعية الزيدية أقرب الفرق الشيعية إلى أهل السنة والجماعة ، وأكثرها اتزاناً؛ إذ إنهم لم يعدلوا أئمتهم بالأنبياء ، بل يقولون بأفضليتهم على غيرهم بعد رسول الله ﷺ ولا يكفرون الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ويرون أنَّ الإمام الذي أوصى له النبي ﷺ بالإمامة ، لم يعينه اسماً وشخصاً ، بل حدد صفات كانت تتوفر في عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقد حقق العلامة أبو زهرة: أنَّ مؤسس هذه الفرقة الإمام زيد بن الإمام زين العابدين كان يقول بصحة خلافة أبي بكر ، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ وجلالة شأنهما (انظر تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٤٧ ـ ٤٩).

(٢) راجع للتفصيل «البرق اليماني في الفتح العثماني» للعلامة قطب الدين النهروالي الفتني الحنفي.

الثالث عشر ، ولعلَّ الإمام الدهلوي أثناء إقامته بالحجاز يكون ـ لقرب المسافة والعلاقات العلمية ـ قد استفاد من مؤلفات علماء اليمن في خدماتهم الجليلة في الحديث الشريف.

إيـران:

كان قد مضى في إيران على الأسرة الصفوية الحاكمة قرنان من الزمن ، وجرى عليها حسب سنة الله ـ تعالى ـ من الضعف ، والهرم ما يقول عنه المؤرخ الفيلسوف العلامة ابن خلدون: «**إن الهرم إذا نزل بدولةٍ لا يرتفع**»[1]. وقد استغلَّ هذا الوضع في إيران البلد المجاور أفغانستان ، وحمل عليها في قيادة حاكمها الطموح الشجاع محمود خان غازئي عام ١١٣٤ هـ وفتح أصفهان ، فأسر حسين شاه ، ثم أراد الأفغانيون فتح ما بقي من المدن ، والأمصار ، ولكن لم يكن عندهم من العدد ما يكفي للاستيلاء على مناطق أخرى ، والبقاء فيها ، ومات محمود خان بعد أن حكم ثلاثة أعوام ، عام ١١٣٧ هـ الموافق ١٧٢٤ م وانتشرت الفوضى في البلاد في عهد خلفه أشرف خان ، فزحف حاكم الروس «البطرس الأعظم» على المديريات الشمالية في إيران ، واضطر ملك إيران إلى الصلح ، وخسرت إيران بذلك كثيراً من مناطقها الخصبة المهمَّة ، وكان «شاه إيران» في الأسر؛ إذ رزق خلفه وولي عهده طهماسب قائداً محنكاً صاحب عزيمةٍ، وتدبيرٍ، وسياسةٍ ، وهو رغم كونه ينتسب إلى أسرة خاملة ، وكونه رجلاً من عامة الناس ـ استطاع بكفاءاته الممتازة ، وصلاحيته للقيادة أن ينخرط في سلك أولئك العصاميين الذين يؤسسون الدول والحكومات ، كان ذلك نادرشاه أفشار.

نـادرشـاه أفشـار:

أجلس نادرشاه ، ولي العهد طهماسب على عرش آبائه ، وكانت الدولة الصفوية تعاني السقوط والانهيار ، ولم تكن هناك علائم العودة إلى الحياة والنشاط وكانت الفوضى تسود البلاد ، وفقدت الثقة بين الناس ، فأحسن

---

(١) مقدمة ابن خلدون.

نادرشاه استغلال هذا الوضع ونظَّم قوةً عسكريةً جديدةً ، ونفخت رجولته وطموحه وشجاعته روحاً جديدةً في الإيرانيين ، فهبَّ كالعاصفة العاتية ، وقبض على البلاد ، وطرد الأفغانيين كلّياً من إيران عام ١١٤٣ هـ الموافق عام ١٧٣٠ م ، وأوقف الجيوش الروسية عام ١١٤٦ هـ الموافق عام ١٧٣٣ م على بحيرة الخزر (Caspiansea) وصالحهم مصالحة عزيزةً مع إباءٍ وشممٍ ، ولم يدع العرب يتجاوزون الحدود الغربية ، واضطرَّ سلطان الروم إلى الانسحاب من الشمال ، واستعاد ولايات المملكة الإيرانية القديمة من القابضين عليها ، وتوسعت إيران نتيجة لكل ذلك حتى عادت عام ١١٤٨ هـ الموافق ١٧٣٥ م إلى حدودها وثغورها القديمة ، وانتهت الأسرة الصفوية عام ١١٥٠ هـ الموافق ١٧٣٧ م ، وسيطر نادر شاه على إيران كلِّها ، فكان ملكها الوحيد غير منازع[١] .

كان نادر شاه ـ حسب تصريح ـ مؤلف موسوعة تاريخ العالم ـ قبل عرش المملكة على شرط أن يتخلَّى الإيرانيون عن التشيُّع ، ويتبرؤوا منه ، وكان نادر سنياً عقيدةً ، تركياً نسبةً ـ والأتراك معروفون بشدة تمسُّكهم بالسنية ـ ولكن نادر شاه لم ينجح في استمالة الإيرانيين إلى قبول المذهب السنِّي ، لقد استولى قواده عام ١٧٣٧ م على بلوجستان ، وبلخ ، وتم استيلاؤهم عام ١٧٣٨ م على قندهار ، ثم توجه للاستيلاء على الهند إلى كابل ، وبشاور ، ولاهور ، واستولى عليها ، وهزم عام ١٧٣٩ م جيش الملك المغولي الجرار قرب دلهي ، واستولى على دلهي ، ووضع في رقاب أهلها السيف ، فأقام مجزرةً رهيبةً[٢] ، ولم يسلب نادر شاه عرش المغول ، بل أخذ منهم جباية خمسمئة مليون دولار ، كما أدخل المناطق الشمالية الغربية من نهر السند في مملكته ، وتمَّ استيلاؤه على بخارى ، وخوارزم (خيوه) عام ١٧٤٠ م ، وكان هذا نهاية حملاته التوسعية وسيطرته ، ومن هنا بدأ التحوُّل في حياته .

---

(١) ملخص من كتب تاريخ إيران والهند .

(٢) انظر تفاصيل هذه الوقائع في الصفحات التالية .

لقد كان نادر شاه قائداً عصامياً كبيراً ، ولكنه لم يكن يملك من التدبير السياسي ، وصلاحية الإدارة والتنظيم شيئاً ، وكان من نتيجة محاولاته القضاء على التشيُّع[1] أن اضطربت الأمور ، وعمَّت الفوضى ، وتعوَّد نادرشاه لقمع هذه الاضطرابات ، والقضاء عليها على الجور والظلم والعدوان ، وأتلف بلاده بجباياته الباهظة ، ومكوسه الظالمة ، وقتل أخيراً بيد أحد أبناء قبيلته عام ١٧٤٧ م.

حالة إيران بعد مقتل نادر شاه:

لقد أدى مقتل نادر شاه في إيران إلى فساد الأمن ، واضطراب الأوضاع ، وطوائف الملوك ، وبدأ يحلم قادة جيشه بحكوماتهم المستقلة ، وتربع على عرشه بعد قتله ابن أخيه علي قلى عادل شاه (١٧٤٧ م) الذي أعمل السيف في أسرته ، وقتل جميع أفرادها ، ولم ينج من بطشه إلا «شاه رخ» أحد أبناء الملك المقتول الذي كان حينئذ ابن أربع عشرة سنة ، وعُزِل عادل شاه في ظرف عام واحد بيد أخيه إبراهيم ، وسملت عيناه ، أعقب ذلك ثورةٌ في جيش إبراهيم ، فأسره ضباط جيشه ، ثم قتلوه ، ثم قتل عادل شاه كذلك ، ثم استولت على إيران أسرة «زند» وحكم كريم خان زند (١١٦٤ هـ ـ ١١٩٣ هـ) الموافق (١٧٥٠ م ـ ١٧٧٩ م) على إيران تسعة عشر عاماً ، وجعل مدينة شيراز عاصمة مملكته ، وكان معروفاً بعدله ، ورأفته ، وأعاد إلى إيران بعد الحروب والمعارك الدامية الأمن ، والطمأنينة ، والسَّلام ، ولذلك بكاه الناس عند موته ، ورثوه ، وخلفه عدد من الملوك الضعاف ، حتى انقرضت حكومة هذه الأسرة في

---

(١) يمكن أن تثار شبهة في تصريحات المؤرخين الغربيين ، وبعض المؤلفين المسلمين أن نادر شاه أراد استئصال مذهب التشيع من إيران بجدٍّ وإصرارٍ ، وأنَّه كان سنياً متعصباً: أنَّه هل كان ذلك منه محاولةً لتغيير العقائد نفسها ، والمذهب نفسه ، أم كانت سياسة اتخذها لأغراضٍ أخرى ، فإنَّه لا يتَّضح لنا في حملاته على دلهي وإقامته بها بأي شيءٍ في حياته أنه كان سنِّيَّ المعتقد ، وأنه كان يريد سوق إيران إلى راية السنية ، وتحت حكمها.

عهد لطف علي انقراضاً كلياً ، فقتل لطف علي عام ١٢٠٩ هـ الموافق عام ١٧٩٤ م ، وخلا عرش إيران من أسرة قاجار ، ولا نريد أن نتعرض لهذا العهد وما يليه لأنَّه لا علاقة له بعهد الإمام الدَّهلوي.

أفغانستان وأحمد شاه الأبدالي:

لقد كانت بعض الأجزاء من بلاد أفغانستان قبل القرن الثامن عشر الميلادي تحت سلطة إيران ، والجزء الآخر تحت سلطة الهند ، وكان يحكم الجزء الثالث خوانين بخارى ، واستقلت قندهار عام ١٧٠٦ م ، ثم استولى نادر شاه على قندهار عام ١٧٣٧ م وأخذ الحكم من أيدي الأفغانيين ، ثم استولى على أفغانستان كلِّها ، والجانب الغربيِّ من الهند.

وجيء إلى نادر شاه في تلك الأيام بشخصٍ كان يُعرف بأحمد خان كأسير من أسرى الحرب ، وأعجب نادر شاه به ، وجعله في حاشيته ، وخدمه ، فصار أحمد خان يتدرَّج في مراتب الرقي ، ويحوز على ثقة الملك ، ويتمكَّن من نفسه ، فلما قُتِل نادرشاه ، انتدب هو نفسه ، وتولى زمام الولايات الأفغانية ، وكان ينتمي إلى الفرع الدراني (سدوزئي) من القبيلة الأبدالية ، ولقب ـ «در دوران» وسميت أسرته لأجل ذلك بالدرانية.

لقد أرسى أحمد شاه قواعد الحكومة للأسرة الدرانية ، بل أسس المملكة الدرانية ، وكانت المملكة الأفغانية حين وفاته تحتوي على شرق إيران (مشهد) وبلاد أفغانستان كلِّها ، وبلوجستان كلِّها ، وعلى كشمير ، وبنجاب في الناحية الشرقية ، وهو يستحقُّ أن يعدَّ من كبار المؤسسين للدول والحكومات ، والقادة المحنكين العصاميين ، والحكَّام العادلين الطيبين؛ الذين يخشون الله ، ويستحقُّ من حيث مجموع صفاته وخصائصه (إذا نظرنا إلى بيئته ، وحياته البدائية ، وفقره ، وقلة وسائله) أن يعدَّ من الشخصيات العبقرية (Genius) النابغة ، إنه جعل الهند كالسلطان محمود الغزنوي ساحة لحروبه وغزواته من عام ١٧٤٧ م إلى ١٧٦٩ م وقد اعترف عددٌ من معاصريه المعروفين الكبار بحنكته ، وذكائه ، وصلاحيته العسكرية ، وتدينه وحبِّه للعلم ، والعلماء ، وطيب نفسه ، وكرم طبعه ، إنَّه وحد أفغانستان التي

كانت تشتمل على وحداتٍ متعددةٍ منتثرةٍ بعد مدَّةٍ طويلة من الزمن ، وضمَّ هذه الوحدات بعضها إلى بعض في صورة وحدةٍ قويةٍ محكمةٍ ثابتةٍ.

أفغانستان بعد أحمد شاه الأبدالي :

توفي أحمد شاه الأبدالي عام ١١٨٦ هـ الموافق ٢٣ ـ أكتوبر عام ١٧٧٢ م بقندهار ، ومن المؤسف : أنَّ خلفاءه كخلفاء السلطان العادل أورنك زيب عالمكير ، كانوا ضعفاء غير أكفاء (وقد وقعت هذه المأساة مع أكثر مؤسسي الدول والحكومات ، والفاتحين المظفرين ، والحكام الأقوياء) فكان تيمور شاه الذي خلفه في السلطان ، وورث عنه هذه المملكة العظيمة الناشئة؛ لا يمت إلى والده العظيم العبقري الطموح بأيٍّ صلةٍ في خصائصه ومزاياه ، فقد حكم عشرين سنة في ضعفٍ واختلالٍ ، كانت تظهر أثناءها على مملكته الناشئة علائم السقوط والانهيار ، ومات عام ١٧٩٣ م ، وانتقلت السلطة أيام حكم ابنه محمود إلى أسرة «بارك زئي»[١] التي لم تزل تحكم أفغانستان إلى ثورة عام ١٩٧٥ م[٢].

وضع العالم الإسلامي العلمي والدِّيني[٣] :

تفيدنا دراسة تاريخ المسلمين العلمي والفكري ، وقصة نشاطاتهم العلمية ، والتحقيقية ، والتأليفية : أنَّ حياتهم العلمية ، والفكرية ، ونشاطاتهم في مجالات العلم والبحث ، والتصنيف ، والتأليف لم تكن مرتبطةً بالتقدُّم السياسي ، ورقيِّ الدول ، وازدهارها ، وفتوحها ، وانتصاراتها مثلما نجد في تاريخ الشعوب والملل غير الإسلامية ، فإنَّها

---

(١) انظر للتفصيل في «سيرة سيد أحمد شهيد» بالأردية ، الجزء الأول «سقوط الأسرة الدرانية وأسبابه» ص ٤٢٠ ـ ٤٢٣.

(٢) كانت هذه هي الأسرة التي واجهها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وأصحابه ، وانتهى فرعها الأخير على الملك ظاهر شاه عام ١٩٧٥ م.

(٣) سنتعرض ـ بعد أن استعرضنا العالم الإسلامي سياسياً وإدارياً ـ لدراسته علمياً ودينياً؛ إذ إنَّ لهما صلةً قريبةً بحياة الإمام الدَّهلوي ، وموضوعه ، وتخصصه ، وذوقه ، وعمله الإصلاحي ، والتجديدي. نوابغ القرن الثاني عشر الهجري (العلاَّمة الندوي).

تعاني من الانحطاط العلمي، وأزمة الرجال مع الانحطاط السياسي وانقلاب الحكومات، وسوء الإدارة، والفوضى في البلاد، وإذا فقدت تشجيع الحكومات وإشرافها، واحتضانها، وفقدت الثقة بالنفس، والشعور بالاستعلاء؛ فإنها تجفُّ منابع فكرها وذكائها، وتموت فيها عواطف المسابقة، والمنافسة، وحب التقدُّم، وتضعف دوافع العمل، وأسباب الإنتاج.

أمَّا المسلمون فإن شأنهم يختلف في ذلك عن غيرهم، فقد نبغ فيهم مراراً وتكراراً ـ رغم انحطاطهم السياسي، والفوضى الداخلية، واضطراب الأوضاع ـ عباقرةٌ، ونوابغُ لا يبدو أنَّهم وليدو عهد السقوط والانهيار، ففي آخر القرن السابع الهجري بعد سقوط بغداد ـ عاصمة المسلمين ودار خلافتهم ـ على أثر هجمات التتار ـ ذلك الجراد المنتشر ـ الذي حطَّم شرق العالم الإسلامي، وأهلك الحرث والنسل، وخرَّب الديار والبلدان؛ التي كانت مراكز العلم والمعرفة منذ عدة قرون، بعد كلِّ هذا الدمار، والسقوط، والانهيار نجد في أواخر هذا القرن وأوائل القرن الثامن رجالاً من نوابغ العلماء، كشيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العيد (م ٧٠٢ هـ) محدثاً، والعلامة علاء الدين الباجي (م ٧١٤ هـ) أصولياً ومتكلماً، وشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني (م ٧٢٨ هـ) إماماً مجتهداً، والعلامة شمس الدين الذهبي (م ٧٤٨ هـ) محدثاً ومؤرخاً، والعلامة أبي حيان النحوي (م ٧٤٥ هـ) نحوياً، ومفسراً، وأمثالهم من نوابغ العلماء وعباقرة الفنون.

والسرُّ في ذلك أنَّ دوافع النبوغ في العلوم الدينية، والبواعث على خدمتها، ونشرها، والحفاظ عليها مما تستقرُّ في داخل هذه الأمة، وباطنها، لا في الخارج من إشراف الحكومات، وتقديرها، وتشجيعها، وهذه الدوافع الخفيَّة الباطنة هي الرغبة في الحصول على رضا الله ـ تعالى ـ والقيام بواجب نيابة الأنبياء والمرسلين، والشعور القوي بالحفاظ على الدين، ونقله مصوناً من جيلٍ إلى جيل.

فبالرغم من أن هذا العهد الذي نؤرخه هو عهد الاضطرابات السياسية،

والفوضى الداخلية في البلاد ، وقد بدت في الأفق علائم سقوط الدول والحكومات المسلمة ، حتى المملكة العثمانية العظيمة ظهرت عليها أمارات الهرم والسقوط ، وكانت البلدان الإسلامية حتى بلاد الحجاز تشهد صراعاتٍ وحروباً داخليةً للتوصل إلى الإمارة والسلطان ، وكان العلماء في مصر ، والشام ، والعراق ، والحجاز ، واليمن ، وإيران ، والهند ، وغيرها من بلدان العالم الإسلامي منصرفين إلى التدريس ، والإفادة ، وكان الباحثون ، والمحققون مقبلين على التأليف ، والتصنيف ، والبحث ، والتحقيق ، وكان المشايخ والصوفية الربّانيون متجهين إلى إصلاح النفوس وتزكية القلوب متَّصفين بالفضائل الروحية من صفاء القلب ، وإشراق الرُّوح ، وقد بلغ بعضهم من علوِّ المكانة ، وجلالة الشأن مالا يوجد له نظير في الأقطار المترامية ، والبلاد القاصية ، والدانية في الماضي القريب.

خذ مثلاً علم الحديث الشريف ؛ تجد فيه المحدثين الكبار كالعلامة أبي الحسن السندي : الكبير (م ١١٣٨ هـ) الذي درَّس مدَّةً طويلة في الحرم الشريف ، وتعليقاته على الكتب الستة معروفة بالهوامش الستَّة ، والشيخ محمد حياة السندي (م ١١٩٣ هـ) الذي يزدان به كذلك هذا العهد ، والشيخ إسماعيل العجلوني المشهور بالجراحي (م ١١٦٢ هـ) الذي كان من المحدثين الكبار في الشام وكتابه «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»[(١)] من أنفع الكتب وأجمعها في هذا الموضوع ، ولعلَّه أكبر مجموعة من مجاميع الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ويتضح من دراسة الكتب ما يملكه المؤلف من سعة النظر ، والإحاطة بالموضوع ، والأخذ بالإنصاف ، والاحتياط ، وتشتمل هذه المجموعة ـ عدا الأحاديث الضعيفة والموضوعة على تلك الأحاديث المشتهرة بين الناس التي لا يعرف تخريجها ـ بصفة عامة ـ فعرَّف بها المؤلف ، وخرجها.

وكان الحرمان الشريفان من أكبر المراكز لتدريس الحديث الشريف ،

---

(١) نشرته مكتبة التراث الإسلامي بحلب ـ سورية ـ.

حيث كان الشيخ أبو طاهر الكوراني الكردي ، والشيخ حسن العجيمي يلقيان الدروس ، وكان في اليمن الشيخ سليمان بن يحيى الأهدل (م ١١٩٧ هـ) محدث اليمن الجليل ومن أكبر المحدثين وأجلهم في عصره خدمةً للحديث ، ونشراً لعلوم السنة المطهرة ، وكان الشيخ محمد بن أحمد السفاريني (م ١١٨٨ هـ) من كبار علماء الحديث والأصول وهو صاحب «الدرر المصنوعات في الأحاديث الموضوعات» وكان الأمير محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني (م ١١٤٢ هـ) محدثاً جليلاً ، ومحققاً كبيراً ، ومن مؤلفاته الجليلة «سبل السلام» شرح «بلوغ المرام» و«توضيح الأفكار» شرح «تنقيح الأنظار» ولمع في نوابغ هذا القرن أيضاً اسم العلامة الشيخ محمد سعيد السنبل (م ١١٧٥ هـ) الذي يعتمد أكثر شيوخ الحديث على أوائله لكتب الحديث[١] في رواياتهم وإجازاتهم ، ومن كبار المحدثين كذلك العلامة محمد بن عبد الباقي الزرقاني (م ١١٢٢ هـ) الذي وصفه المؤرخون بقولهم: «خاتمة المحدثين بالديار المصرية»[٢] .

ومن العلماء البارزين في هذا العهد في تبحُّرهم العلمي ، وكثرة التدريس والإفادة ، والتصنيف ، والتأليف الشيخ عبد الغني النابلسي (م ١١٤٣ هـ) الذي كثر تلامذته والآخذون عنه ، ويصفونه «بالأستاذ الأعظم» ويقال: إن مؤلفاته تبلغ مئتين وثلاثة وعشرين ، وقد كان العلامة إسماعيل الحقي (م ١١٢٧ هـ) أيضاً من علماء هذا العصر؛ الذي ألف كتابه «روح البيان في تفسير القرآن» ويعرف بالتفسير الحقِّي كذلك ، وكان الشيخ عبد الله بن حسين السويدي (م ١١٧٤ هـ) من علماء بغداد ، صاحب مؤلفات كثيرة[٣] .

---

(١) وهو المعروف بالأوائل السنبلية في أوائل كتب الحديث.

(٢) انظر للتفصيل «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للعلامة محمد بن علي الشوكاني صاحب «نيل الأوطار» و«سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للمرادي.

(٣) انظر سلك الدرر ، والبدر الطالع.

وتوجد في هذا العصر عدا المدارس والجامعات القديمة كالجامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس، وجامعة القرويين بفاس ـ المغرب ـ أسماء المدارس الأخرى بدمشق كالمدرسة الحافظية، والمدرسة الشلية، والمدرسة العذراوية[١] ويتكرَّر من بين الطرق الصوفية ذكر الطرق النقشبندية، والخلوتية، والشاذلية والقادرية والرفاعية، ويظهر أن مشايخها، وأصحابها منتشرون من تركيا إلى إندونيسيا.

نظرة على الذوق العلمي والأدبي والروحي في العالم الإسلامي:

يغلب على أصحاب العلم والمثقفين في هذا العصر ذوق الأدب والشعر، وقلة المجالس والنوادي، واللطائف، والطرائف، والألغاز، والأحاجي، ولا يبدو أنَّهم حازوا فيها الفضل والسبق، أو ابتكروا نوعاً جديداً، بل يطرد فيه السجع، وتكثر القوافي، ويغلب التكلف والتعمل، ويتجلَّى تأثير الحكومة التركية[٢] على الأوساط العلمية والأدبية، فلا يعثر على باحثٍ محقِّقٍ، ومفكرٍ كبير إلا بعد بحثٍ كبيرٍ، وتزخر المجلدات الأربعة لسلك الدرر للمرادي بالقصائد، والغزليات، والأبيات، والمقطوعات الشعرية، ويكثر فيها ذكر المكاشفات، والكرامات، والأوهام، والخرافات، ويتوجَّه علماء البلدان التي هي تحت السلطة العثمانية ونوابغها، وأصحاب الفضل، والكمال فيها إلى دار الخلافة (القسطنطينية) ويتولون مناصب الحكومة، والعلوم العقلية، والحساب، والهندسة، وعلوم البلاغة، والفقه وشيء من الحديث هي الأجزاء الأساسية للمناهج الدراسية، وتنتشر الرقى والتمائم، وقد نظم بعض العلماء متن القدوري، والمتون الفقهية الأخرى، وكان عدد من العلماء العرب يعرفون اللغة الفارسية والتركية، وكان الناس لاسيما في الشام

---

(١) انظر: «سلك الدرر».

(٢) طبيعة الأتراك هي طبيعة السياسة، والإدارة والعسكرية (MartiaI Race) ولا نجد فيهم في عهد حكمهم الطويل كبار العلماء المحققين والمؤلفين البارزين أمثال العلامة أبي السعود، وطاش كبرى زاده، وخليفة جلبي إلا قليلاً جداً.

يألفون اللغة التركية لكونها اللغة الرسمية ، وكان عدد كبير من علماء تركيا نازلين بسورية ، ويتكلمون بالعربية الفصحى ، وكان التدريس في الجامع الأموي بدمشق من أسباب الفخر والاعتزاز ، وكان بعض العلماء والمشايخ يلقي الدروس في «الفتوحات المكية» وآخر يدرس «فصوص الحكم» وكان يدرس شرح الجامي ومختصر المعاني في الشام أيضاً ، وكان التصوف هو السمة الغالبة حتى على العلماء والمحدثين ، وكان الشيخ عبد الغني النابلسي ، وعددٌ من العلماء والمشايخ يقولون بوحدة الوجود[1] .

سيطرة العلوم العقلية في إيران وتأثيرها على البلدان المجاورة :

لقد أسس إسماعيل الصفوي (٩٠٥ ـ ٩٣٠ هـ) في بداية القرن العاشر الهجري الحكومة الصفوية في إيران ، وجعل المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي في البلاد ، ونهى عن المذهب السنِّي ، ومحا آثاره إلى حدٍّ كبير ، وبذلك انقطعت صلة إيران تلك البلاد المخصبة التي أنتجت ـ في جانب ـ أئمة فن الحديث والأساطين الأربعة لبناء الحديث الشامخ ، وهم الإمام مسلم ، والإمام أبو داود ، والإمام النَّسائي ، والإمام ابن ماجه ، الذي خضع الناس لإمامتهم ، وجلالة شأنهم ، وأنتجت في جانبٍ آخر ، كبار الفقهاء النابغين ، والعلماء المتبحرين ، كالإمام أبي إسحاق الشيرازي ، وإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني ، وحجة الإسلام أبي حامد محمد الغزالي ـ وأمثالهم من نوادر الزمن ، ونوابغ العلوم ـ لقد انقطعت صلة إيران في عهد هذه المملكة القوية العظيمة الذي يمتدُّ على قرنين وربع قرن من الزمن عن الحديث الشريف ، والفقه ، والعلوم النافعة المفيدة ، فقد كان الملوك الإيرانيون يميلون إلى الحكمة ، والفلسفة؛ لأنَّ الشيعة لم تزل متعلقةً بالفلسفة والاعتزال ، وقد كان الفيلسوف والرياضي المعروف خواجه نصير الدين الطوسي (م ٦٧٢ هـ) مؤلف «شرح إشارات ابن سينا» ـ الذي كان شيعياً ومعتزلياً ـ مستشاراً خاصاً لهلاكو خان ، وأميناً لديه[2] .

---

(١) انظر : «سلك الدرر» ، الأجزاء ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ .

(٢) انظر : «تاريخ أخبار وآثار خواجه نصير الدين الطوسي» نشر جامعة طهران ـ إيران .

وكانت هذه الثقة والزلفى عند الملك التتاري سبباً كبيراً في نشر علوم الفلسفة والرياضيات في المملكة التتارية؛ التي كانت تحتوي على تركستان ، وإيران ، والعراق ، فقويت فيها الميول إلى العلوم العقلية ، وفي عهد الحاكم الثاني الملك طهماسب. (م ٩٨٤ هـ) للمملكة الصفوية نفسها لمع نجم المير غياث الدين منصور (م ٩٤٨ هـ) الذي كان حكيماً إشراقياً ، وفيلسوفاً ، ومؤسساً للمدرسة المنصورية بشيراز ، وتولى منصب الرئاسة فيها في عهد الملك طهماسب لمدَّةٍ طويلة ، وانتشر تلامذته ، وتلامذة تلامذته إلى الهند ، فكان الأمير فتح الله الشيرازي (م ٩٥٧ هـ) من تلامذته؛ الذي قصد الهند في أواخر القرن العاشر الهجري ، وولاه أكبر منصب الصدارة، وهو الذي طبع المناهج، والمقررات الدراسية، والطرائق التعليمية في الهند بالطابع العقلي ، وترك تأثيراً عميقاً استمر مفعوله إلى القرن الثالث عشر الهجري ، ، وهو الذي جاء حسب تصريح الشيخ آزاد البلكرامي ـ بمؤلفات صدر الدين الشيرازي ، والمير غياث الدين منصور ، والفاضل مرزا جان (م ٩٤٤ هـ) إلى الهند وقرَّرها في المدارس الإسلامية.

وطلعت شخصية المير باقر داماد (م ١٠٤١ هـ) في منتصف القرن الحادي عشر الهجري ، الذي سيطر بذكائه ، وعقليته ، وأدبه على الأوساط العلمية والتعليمية من إيران إلى الهند ، وقد كان مرموقاً عظيم القدر والحظوة في بلاد السلطان عباس الصفوي (م ١٠٣٧ هـ) ، وظل كتابه «الأفق المبين» غاية ما يحلق في أجزائه المعلمون ، والكتاب النهائي في الأوساط الدراسية.

ثم برزت شخصية العلامة صدر الدين الشيرازي (م ١٠٥٠ هـ) الذي كان حكيماً إشراقياً ، وفيلسوفاً طليقاً حرَّ التفكير ، ومؤلفاه: «الأسفار الأربعة» و«شرح هداية الحكمة» المعروف «بصدرا»[1] يحملان صيتاً ذائعاً ، وشهرةً

---

(١) كتاب «صدرا» مقرر في المناهج الدراسية في الهند من القرن الحادي عشر الهجري ، ولم يكن الطالب يعدُّ قبل دراسته وإحراز البراعة فيه خريجاً فاضلاً لأيِّ مدرسةٍ من مدارس الهند.

عالمية ، لقد تعاون الذوق الإيراني ـ الذي تعوَّد منذ قرون على صنع القبَّة من الحبَّة ، وتنفيق الشعرة مع هذه النزعة العقلية الفلسفية ، وبثِّ شبكة التقعير في الألفاظ ، وتوليد الطرائف ، والنكات ، وتعقيدات الدعاوى ، والمفروضات من الحدود الغربية لإيران إلى الحدود الشرقية للهند التي لم يكن مثلها إلا كما يقال: «تمخض الجمل فولد فأراً» لقد كانت دولة العلوم العقلية والفلسفية تسيطر على الأوساط التعليمية والتأليفية من عجم القرن العاشر إلى عرب القرن الثاني عشر ، ولم تكن هناك وسيلة للعلماء لإظهار فضلهم ، ونبوغهم ، وإثبات ذكائهم وعبقريتهم إلا حل عبارات المؤلفين السابقين ، وشرحها ، والتحشية عليها ، ومحاولات فهمها ، وإفهامها ، وكان أدنى مقال وانتقاد لفائدتها وثمرتها إثباتاً للجهل والغباوة وسوء الفهم.

لقد تركت إيران تأثيرها ـ بطبيعة الحال ـ على أفغانستان ، ولاسيما على «هرات» المدينة الغربية لأفغانستان ، فكان القاضي محمد أسلم الهروي الكابلي (م ١٠٦١ هـ) كسفير لأساتذة إيران ونوابغها في المنطق والفلسفة ، ورفع ابنه القاضي محمد زاهد المعروف بميرزا زاهد (م ١١٠١ هـ) منار هذه العلوم ، وزاد في قدرها ، ومكانتها ، وقد أمضى معظم حياته في الهند ، ونالت حواشيه الثلاثة على «شرح المواقف» و«شرح التهذيب» و«الرسالة القطبية» التي تعرف ، بالزواهد الثلاثة ، قبولاً كبيراً ، ورواجاً عظيماً في الأوساط الدراسية في الهند ، ولم يكن هو بجانب فضله ونبوغه في العلوم العقلية عالي الكعب في الفقه والحديث والعلوم الشرعية ، حتى أنَّه لم يكن يثق بنفسه في تدريس كتاب متوسط متداول في الفقه «كشرح الوقاية».

فقد جاء في «ملفوظات الشيخ عبد العزيز الدهلوي» ـ وهي مجموعة كلماته التي دونها بعض أصحابه ـ: كان أحد الأمراء يقرأ على مير زاهد كتاب «شرح الوقاية» ولكنه ـ لعدم ثقته بنفسه في تدريس هذا الكتاب ـ لم يكن يدرس إلا بعد أن يحضر الجدُّ (وهو الشيخ عبد الرحيم) الذي كان أحد تلامذته نفسه في العلوم العقلية.

وكان خوضه ـ بجانب ذلك ـ في العلوم العقلية إلى حدٍّ أن يقول:

«كلام الميرزا جان هو روحي ، وكلام إخوند هو روح روحي» .

ولم يكن هذا التأثير لإيران على الهند وأفغانستان فحسب ، بل كانت إيران تترك تأثيرها على العراق والشام أيضاً ، فكان ينظر هناك كذلك إلى علماء المعقولات بعين التقدير والاحترام ، وكانت لهذه العلوم مهابةٌ في القلوب ، وجلالةٌ في النفوس ، وكانت كتبها مقررةً في المناهج الدراسية .

الوضع الخلقي والاجتماعي والعقائدي العام :

لقد كان العالم الإسلامي ـ رغم اشتغال العلماء بالعلم والبحث ، ووجود عددٍ كبير من النوابغ وأصحاب الفضل والكمال ، وانتشار السلاسل ، والطرق الصوفية في الناس ، والعناية بالحديث النبوي الشريف ، وتديُّن كثير من الملوك والحكام ، ورغم وجود تلك الحكومات المسلمة التي كانت تدين بالإسلام ، وتدين بالشريعة الإسلامية في كثيرٍ من نواحي الحياة العملية ، وقوانين الأحوال الشخصية ، ووجود المدارس آهلةً والمساجد معمورةً ، وكون الجمهور ، وعامة المسلمين يحبُّون الإسلام ، ويدينون به ، ويعتقدون في المشايخ والصالحين ، ويحافظون على أركان الدين وفرائضه ، ولا تخلو قلوبهم من الحميَّة الإسلامية ، كان العالم الإسلاميُّ رغم كل ذلك يعاني من الجمود والانحطاط ، وقد تسرَّبت الأدواء إلى الأخلاق ، والاجتماع ، وقبل المسلمون كثيراً من العادات ، والشعائر ، والتقاليد العجمية غير الإسلامية ، وكان الحكام والأمراء أنانيين قد ركبوا أنفسهم وأهواءهم ، وكانت الفوضى في الدول والحكومات ، وقد ألهت طبقة الأمراء والأثرياء أموالهم وثرواتهم ، وتسربت إليهم أخلاق «المترفين» ونزعاتهم ، وسيطرت على كثيرٍ من طبقات المجتمع عادة الكسل والتواكل والبطالة ، والتعلق بحواشي السلطان ، والتقرُّب في البلاط ، والإطراء والتملُّق ، وكانت طبقات أخرى تهيم في الأوهام ، والخرافات ، وكانت تتراءى نماذج عبادة القبور ، وتقديس الأولياء ، وتعظيمهم إلى حدِّ التأليه ، وتتعدَّى حدود التوحيد ، حتى مظاهر الشرك الجلي في بعض المواضع .

وقد صور المؤلف الأمريكي الدكتور لوثروب استودرد (Lothrop Stoddard) في كتابه الشهير (New World of Islam) «حاضر العالم الإسلامي» العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر المسيحي ، وهو وإن كان يوجد فيه إفراط وغلو في بعض المواضع ، ولكنه بمجموعه ليس تصويراً خطأً[١] للعالم الإسلامي حينذاك ، وقد جاءت فيه جوانب كثيرة لا يتنبه لها من يعيشون داخله ، والمشاهدون له كلَّ حين ، وتسترعي انتباه الزائرين الجدد ، والمشاهدين لأوّل مرة ، وسوف لا يكون خطأً ولا غير لائق بالمكان أن ننقل شيئاً من هذا التصوير بدون أن نتحمل مسؤولية صحته مئة بالمئة ، يقول المؤلف الأمريكي:

«في القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ، ومن التدني والانحطاط أعمق دركة ، فاربد جوه ، وطبقت الظلمة كلَّ صقع من أصقاعه ، ورجا من أرجائه ، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربي ، واستغرقت الأمم الإسلامية في اتِّباع الأهواء والشهوات ، وماتت الفضيلة في الناس ، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ، فليس يرى في العالم الإسلامي في ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين كسلطان تركيا وأواخر ملوك المغول في الهند ، يحكمون حكماً واهناً فاشي القوة ، متلاشي الصبغة ، وقام كثيرٌ من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التي هم في حكمها ، وينشئون حكومات مستقلة ، ولكن مستبدةً كحكومة الدولة التي خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون إخضاع من في حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثر السلب ، والنهب ، وفقد الأمن ، وصارت السماء تمطر ظلماً وجوراً ، وجاء فوق جميع ذلك رجال الدين المستبدون يزيدون الرعايا إرهاقاً فوق

---

(١) لقد صدق هذا التصوير والاستعراض العام للعالم الإسلامي واستحسنه ورآه أمس بالحقيقة والواقع أمير البيان الأمير شكيب أرسلان في حواشيه الشهيرة على ترجمة هذا الكتاب العربية التي نشرت باسم «حاضر العالم الإسلامي».

إرهاق ، فغلت الأيدي ، وقعد عن طلب الرزق ، وكاد العزم يتلاشى في نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة أيّما إهمال.

وأما الدِّين فقد غشيته غاشيةٌ سوداء ، فألبست الوحدانية التي علَّمها صاحب الرسالة الناس سجفاً من الخرافات ، وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات ، وكثر عديد الأدعياء الجهلاء ، وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكانٍ إلى مكانٍ يحملون في أعناقهم التمائم ، والتعاويذ ، والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ، ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن ، فصار يشرب الخمر والأفيون في كلِّ مكان ، وانتشرت الرذائل ، وهتكت ستر الحرمات على غير خشيةٍ ، ولا استحياء»[1].

* * *

---

(١) لو أن فيلسوفاً من فلاسفة الإسلام ، أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية أراد تشخيص حالته في هذه القرون الأخيرة ، ما أمكنه أن يصيب المحز ، وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأمريكي ستووارد. (ش).

مصدر الشقاء والاضطراب
في العالم الإسلامي[1]

إنَّه لحديث عامين ، أو ثلاثة أعوام ، كنت في زيارة بيروت ، وكان هناك صديق لي من أهل العلم والذكاء ، يجول بي في أنحاء بيروت على سيارته لكي أشاهدها ، فقال لي خلال الجولة : أستميحكم السؤال عن قضيَّةٍ هامة ، وأريد منك إجابةً مقنعةً.

إنَّ ما يموج في الدول الإسلامية من القلق الفكري ، والاضطراب السياسي ، والصراع النفسي ، لماذا لا يوجد في غيرها ، لماذا لا يوجد ـ مثلاً ـ في الهند ، واليابان ، وسيلان؟ لماذا لا يوجد في الدول غير الإسلامية ما تعهده في الدولة الإسلامية من جبهتين متعارضتين: جبهة الحكام والقادة وأولي الحل والعقد ، وجبهة الشعب الساذج الذي لا يعرف المكر والخداع ، مما يسبب الانقلابات المتكررة ، وتحول أزمة الحكومات من أيدٍ إلى أيدٍ ، وقد فقد الشعب ثقته بحكامه وقادته بتاتاً ، كما يعيش الحكام دائماً في جوٍّ من سوء الظن ، وذعرٍ من الشعب ، والواقع أنني لم أستطع أن أعطي إجابةً مشبعةً على هذا السؤال الهام ، وشغلت صاحبي بحديث ، وبآخر في الموضوع ، لكن هذا السؤال قد أثار في نفسي تساؤلاً لا عهد لي به ، ورحت أتساءل في نفسي: لماذا هذا الواقع المرير ، وما هو السبب في هذه الظاهرة المشؤومة؟ ما هوالعامل الحقيقي في هذا الاصطراع النفسي ، والتبلبل الفكري ، نسمع كلَّ يوم عن ظاهرة الصراع ، والصدام

---

(١) طبع هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها الأول ، المجلد الثامن والعشرون ، عام ١٩٨٣ م.

في الدولة الفلانية ، ونتسامع بأن هناك تصارعاً فيها بين الحضارات ، وفلسفات الأخلاق؟

وبعد تفكيرٍ هادىء توصلت إلى الإجابة ، وأريد بهذه المناسبة أن أعرضها عليكم؛ لأنَّها قد تثير في قلوبكم وفي قلوب المسؤولين عن هذه الجامعات شعوراً بضخامة المسؤولية التي تعود عليكم.

إنَّ الفلسفات التعليمية ، والتربوية؛ التي استوردتها هذه البلاد غير الإسلامية ما كانت تتصادم مع قيمتها ومعتقداتها؛ لأنَّ هذه القيم أولاً كانت باردةً ميتة ، وثانياً أنها كانت مرنةً جدّاً ، رقيقة مائعةً جداً ، تستجيب لكل فلسفة ، وتخضع لكل نظرية ، فهاهو «جواهر لال نهرو» رئيس وزراء الهند الأسبق حينما سئل عن «الهندوكي» وتعريفه ، فقال بعدما أطال التفكير: «**كلُّ من ادعى أنَّه هندوكي فهو هندوكي**» ، وقد حكى لي صديق لي ـ وكان أستاذاً في كليةٍ حكوميةٍ ـ قال: كنا جالسين في حجرة الأساتذة نتجاذب أطراف الأحاديث؛ إذ تطرق الحديث إلى الديانة الهندوكية فقلت لصديق لي هندوكي ـ وكان بروفيسوراً ـ: لو طلب منا أحد أن نوجز له تعريف الإسلام، لقلنا: إنَّه الإيمان «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**». . وإذا ما سألكم أحد أن توجزوا له التعريف بالهندوكية ، فماذا تقولون؟ ـ وقلت له: لا أريد منك فلسفةً متعمِّقةً متعقِّدةً ، فلديَّ مكتبةٌ أستطيع أن أطالع فلسفات الديانات ، وأوسع دراستي لنظرياتها ومعتقداتها ، وإنما أريد منك تعريفاً بالهندوكية بكلمة موجزة ـ فقال بعد ما أجهد الفكر: يا أخي! الواقع أنَّ الذي لا يعتقد في شيء فهو هندوكي ، والذي يعتقد في كل شيءٍ هندوكيٌّ كذلك.

إلى هذا المبلغ يبلغ نظام عقائدهم من المرونة والميوعة ، تنسجم مع كل فلسفة ، وتقبل كلَّ نظريةٍ مستوردة ، ولا تتصارع معها في قليلٍ أو كثير ، ومن هناك حينما غزا نظام التعليم الغربي الهند ، لم يحدث قلقاً ما في المجتمع الهندوكي ، اللهم إلا بعض الهنادك المتزمتين الذين قد لا يعدو عددهم رؤوس الأصابع ، كانوا يرون فيه معارضةً خفيفةً لأمورٍ تافهةٍ من معتقداتهم ، وإنما حدث القلق في المجتمع الإسلامي لأنه يؤمن

بوحدانية الله جلَّ وعلا ، لديه مفهومٌ معلومٌ محدَّدٌ للتوحيد ، لا يسمح بأن يخلص الإنسان ولاءه في وقتٍ واحدٍ لديانات شتَّى ، ويجمع بين الإشراك والتوحيد ، ثم لا يجمع بين الإيمان بأنَّ الغرب مرجع كل شيء ، ومصدر كلِّ تقدُّم وازدهار ، وهي وحدها الجديرة بالإمامة والسيادة ، والقيادة ، والوصاية ، وبين الإيمان بأنَّ النبيَّ الأعظم محمداً ﷺ هو هادي السبل ، وخاتم الرسل ، وإمام الكلِّ ، لكلِّ الأجيال البشرية في كلِّ عصرٍ. . . نعم لا يمكن له أن يؤمن بكلِّ ذلك ، ويؤمن - في ذات الوقت - بأنَّ الحضارة الغربية هي منبع كلِّ سعادة ، وخير ، وأنَّ العلم هوآخر ما وصل إليه الإنسان من التقدم ، وأنَّها نقطة الرقي الأخيرة التي لا يمكن أن يتعدَّاها أحد.

النور والظلام لا يجتمعان :

على كلٍّ فلم لم يقع اضطرابٌ ما في المجتمع الذي كان متميعاً سيالاً ، رقيقاً ، ناعماً ، يتفاعل مع كلِّ نظريةٍ ، ويتلاحم مع كلِّ غريبٍ مستورد من الأفكار ، والفلسفات ، والآراء ، والاتجاهات ، والقيم ، والحضارات ، ولم يحدث قلقٌ في الدول التي لا تحمل نظاماً إيجابياً أبياً ، شامخاً مستقلاًّ ، ولا تعرف طريق الرحمن من طريق الشيطان ، ولا تلتزم بمبدأ ، ولا تصرُّ على حقيقة ، ولا تفرق بين الضلالة والهداية ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس : ٣٢] يرى الإسلام أنَّ النُّور فرد والظلمات لا حدَّ لها ولا عدَّ ، يلحُّ على أنه هو الحقُّ وحده ، وما سواه كفر وطغيان ، وبغيٌ وعدوان ، وإلحادٌ وجاهلية ، ويحدِّد الإيمان والكفر ، ويعيِّن الخطَّ الفاصل بينهما ، ويصرُّ على أنه يحمل حضارةً خاصَّةً ، وليس هو مجرد عقائد معدودة ، وأحكام مرسومة.

فلما غزت الحضارة الغربية المجتمع الإسلامي بكلِّ ما عندها من تصوراتٍ، وقيمٍ ، وأغراضٍ ، وأهدافٍ؛ وقع بينها وبينه صدامٌ ، وصراعٌ شديدٌ عنيفٌ، وكان هذا الصراع طبيعياً. . . ثم حدثت كارثةٌ أخرى، وهي أنَّ الشباب الأذكياء من بيوتات الأغنياء والأثرياء والطبقة الأرستقراطية في هذه البلاد الإسلامية ، قد تثقفوا بالثقافة الغربية ، وبقي الشعب على حاله ، فنشأ من ذلك أنَّ هذه الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية عادت لا تعرف ما يعيش

فيه الشعب من عواطف وتصورات ، وأمان وآمال ، ومشاعر وأحاسيس ، كما يكون شأن أمة جديدةٍ بأمَّةٍ أخرى جديدةٍ ، ليس بينهما سالف تعارف ، ولا سابق لقاء. . . ومما زاد الطين بلةً ، والطنبور طنةً : أنَّ الطبقة العصرية شعرت شعوراً قويّاً ملحّاً ـ أو علمت بعد تجاربها «المريرة» ـ أنه لابدَّ ـ من أجل الإبقاء على القيادة والزعامة ، وحتى من أجل أن تستطيع أن تعيش عيشة هدوءٍ وسلامٍ ـ لابدَّ من القضاء على ما يتحلَّى به الشعب من العواطف الدينية ، والغيرة الإسلامية ـ أو على الأقل ـ لابدَّ من توهينها إلى حدٍّ يجعلها لا تقف حجر عثرة في طريق تحقيق أغراضهم الدينية.

فركزوا عنايتهم على القضاء على الحمية الدينية ، والغيرة الإسلامية ، والوعي ، والإيمان ، والذَّكاء الديني في الشعب المسلم عن طريق الثقافة ، والصحافة ، ووسائل الإعلام ، والشعر ، والأدب ، وهنالك خاضت قيادات هذه البلاد والأقطار الإسلاميةُ معركةً حاميةً مع الشعب ؛ لأنَّها رأت سرَّ حياتها ونموها ، وازدهارها في إماتة الوعي الديني لدى الشعب ، ولأنَّها أدركت : أنَّ الشعب قد يكون جبهةً متَّحدةً لمحاربتها ، ويشكِّل العقبات في طريق مطامعها. . .

الوضع في العالم الإسلامي وضع متناقض ، شعوب تغمرها روح الفداء للإسلام وحكومات تؤمن بتفوق الغرب وعظمته :

أيها السادة! إني أحكي لكم قصَّة هذه البلاد الإسلامية ، قصَّة مصر والشام ، وقصة العراق ، وتركيا ، ولا أقول إنَّ هذه القصة قد حدثت في كلِّ بلدٍ من البلاد الإسلامية ، لا قدر الله ذلك ، ولا رماكم الله بهذه المصيبة ، ولا تعرض فصولها على مسرح هذا البلد الكريم أبداً. . . لكنَّها على كلِّ حالٍ قصة الدول الإسلامية المتقدمة ، حيث نشأت طبقة لم تكن زاهدةً في الدين فحسب ، بل تنكَّرت له ، واستوحشت منه ، وكانت تنعى على الشعب تمسكه بالشريعة ، وعضَّه على جميع أجزائها وأحكامها بالنواجذ ، وكانت ترى أنَّه إذا كان هناك أفراد في المجتمع يعاقرون الخمر ، ويشاهدون على الشاشة الصغيرة والكبيرة والتلفاز كلَّ غثٍّ وسمينٍ ، ويقع

بعض التحول في أخلاقهم ، وسلوكهم ، أو يتأثَّر جانبٌ من سيرة الصغار ، فماذا يضرُّهم ، وأي شيءٍ ينقصهم ، وأيُّ خسارةٍ تلحقهم؟ . . مالهم ولهذه القضايا ، لهم أن يأكلوا ، ويتمتَّعوا ، ويعيشوا ، وينعموا ، ويكسبوا المعاش ، ويحوزوا الثروة ، ويجرِّبوا نصيبهم في الحياة ، وقد علَّم هذه الطبقة أساتذتُها من الغرب الذين تتلمذت عليهم ، والجامعات الأوربية التي تخرجت منها: أنَّ الدِّين قضيةٌ شخصية ، وخير لهذا الدين ـ إذا أراد البقاء والحياة ـ أن يظلَّ على صفته هذه . . . قد تلقنت هذا الدرس من أساتذتها ، وأساغته إساغةً كاملةً ، واقتنعت به ، فلما عادت إلى بلادها هذه الشرقية وجدت: أنَّ أفراد الشعب يتدخلون في شؤون الحكومة ، وينتقدون القيادات ، ويؤاخذونها ، ويحسبون لكل شيءٍ حساباً دقيقاً ، وحين يرون شيئاً لا يوافق ما يعتقدونه؛ يستشيطون غضباً ، ويتَّقدون حنقاً . . .

الطبقة الحاكمة ترصد كل إمكانياتها لقهر شعوبها وكبت عواطفها:

لما شهدت هذه الطبقة كل ذلك ، ورأت أن أحلامها ستتبعثر ، فتحت جبهة مستقلة لتوجيه الهجوم منها على الشعب ، قد كان ذلك في مصر في عهد جمال عبد الناصر ، فتوجهت القوى الرسمية بخيلها ورجلها وبكل أجهزتها ووسائلها وطاقاتها لتصب الويلات على الشعب المصري البريء. وحلت القوات محل الشرطة. ورصدت كل إمكانيات مصر وثرواتها وخيراتها وقواها ، وذكاء الطبقة الحاكمة لكبت عواطف الشعب التي كانت القيادة ترى أنها قد تكون كتار في الهشيم لا تبقي ولا تذر ، فتأتي على اليابس والأخضر من أمانيهم وأحلامهم . . وعلى ذلك فعاش العهد الناصري في مصر في الجهاد في غير عدو ، في محاربة الشعب الهادىء الوادع والقضاء على الحركات الإسلامية والمؤسسات الدينية ، مكان محاربة الإلحاد والشيوعية ، ومحاربة إسرائيل والقوى الصهيونية ، وإلى أي مدى تركت هذه «الحرب السلبية» مفعلوها ، وإلى أي حد استطاع «ناصر» أن يحرز النجاح في مقصده ، لا يمكن الحديث عنه بالتحديد والضبط ، ولكن هذه الحرب هي التي استنفدت كل وقته وجهده ورصيد فكره.

هذه الحرب السلبية قائمة اليوم لا تختلف معركة اليوم عن معركة الأمس

في النوعية ، نعم إنَّها حامية في مكانٍ ، وهادئةٌ في مكان آخر ، ولن أسمي لكم بلداً غير عربي ، فقد كفتني في ذلك البلاد العربية ، وليكن ملحوظاً أنَّ هذه المعركة «المصطنعة» هي من صنائع الفلسفتين المتنافستين المتقابلتين ، والنظامين الممتازين للتعليم والتربية ، فإنَّ التعليم الذي يتلقّاه طلابنا ، وأفلاذ أكبادنا في المدارس الدينية يمحوه ـ كحرفٍ مكرَّرٍ ، أو كلمةٍ خاطئة ـ ذلك النظام الغربي للتعليم.

ما فات فرعون تداركه قادة التربية الغربيون:

ومن هنالك لما اقتحم النظام الغربي التعليمي شبه القارة الهندية ، إثر نفوذ الإنجليز وسيطرتهم السياسية على الهند غير المنقسمة ، قال السيد أكبر حسين الشاعر الأردي العظيم بيته الخالد السائر؛ الذي لم يقل أحدٌ بيتاً أدقّ منه في التنديد بنظام التعليم الغربي الإلحادي، والدلالة على فعله البعيد المدى، لا أعرف نثراً أو نظماً يعبِّر هذا التعبير البليغ، البارع الدقيق ، الرائع العميق عن نظام التعليم اللاديني ، بهذه الكلمات البسيطة الخفيفة ، يقول أكبر:

«لو فتح فرعون كليةً في مصر (أراد بها نظام التعليم الغربي).. لم يكن هدف الملام والتهم من بني إسرائيل ، فقد كان مستغنياً بذلك عن قتل أطفالهم جسدياً ، ولكن المسكين لم يتفطن لهذه النكتة».

إن «أكبر» يشير إلى حقيقة كبيرة ، إنه يقول:

إنَّ فرعون بغباوته ، وبلاهة ذهنه ، وقلة عقله جرَّ عليه هذه اللعنات ، وخلق له هذه المشكلات ، ومهد الطريق لدعايات غير متناهية ضدَّه ، حتى صار رمزاً للظلم والوحشية، وقساوة القلب ، وسجلت له الصحف السماوية صفحات سوداء من استكبار، وإفسادٍ ، واستعلاءٍ ، ولو أنه غيَّر نظام التعليم لكفاه عن التقتيل والتشريد ، ولكسب سمعةً طيبة ، ولعدَّ المربي الجليل الأكبر، ووليَّ العلم والثقافة ، ولأسست باسمه جامعات ، ومجامع علمية.

يا سادة! قد بدأ هذا الصراع ـ الذي نتحدث عنه ـ في المملكة العربية السعودية أيضاً ، بفعل هذا النظام التعليمي الغربي اللاديني... وكلُّ دولة تريد أن تخدم الإسلام، وتعلي كلمته ، يجب عليها أولاً أن تتجنب هذا

الصراع النفسي الخبيث؛ لأنه يستهلك كلَّ القوى العقلية والفكرية؛ وكلَّ نصيبٍ من الذكاء والقدرة، ولا يدع هذه القوى والطاقات ، والمواهب والقدرات ، تقبل على تعمير البلاد ، وتدعيمها وصيانتها من القلق والاضطراب واللاأمن ، وتعـود كـلُّ طبقـةٍ تفكِّـر أن تتغلب هي وحدها ، وأن يكـون المسيطر على البلاد، والمقبول المتـداول فـي أرجائها ، ما لديها من فلسفـة الأخلاق، وفلسفة الحياة، أو فلسفـة ما بعد الطبيعة ليس إلاَّ . . .

التعليم العصري حامض يذيب الشخصية ويكونها من جديد:

وإني أتوقع من هذه الجامعة الموقرة[1] أنها ستخطو هذه الخطوة الإصلاحية قبل أيِّ جامعةٍ أخرى ، لأنها تنتمي إلى ذلك المفكر الإسلامي العظيم ، الذي كان عظيم الكراهية لهذا النظام التعليمي الغربي العصري ، شديد المقت له ، كثير التنديد به ، وكان كثير الخوف من تطبيقه في الأقطار الإسلامية ، وأعتقد أنه لو كان بقيد الحياة لركَّز أولاً على تغيير النظام التعليمي الحالي؛ لأنه كان يرى أنَّ نظام التعليم الحديث هو «كحامض» يذيب شخصية الإنسان ، يقول في أبياته:

«إنَّ التعليم هو «الحامض» الذي يذيب شخصية الكائن الحي ، ثم يكونها كما يشاء ، «إنَّ هذا «الحامض» هو أشدُّ قوةً وتأثيراً من أي مادَّةٍ كيميائية ، هو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة تراب».

* * *

(١) «جامعة محمد إقبال المفتوحة» في باكستان، حيث ألقى العلاَّمة الندوي هذه المحاضرة.

دور الأمَّة الإسلاميَّة في الحركة العلميَّة والتأليفيَّة

إنَّ من ألغاز التاريخ العالمية الكبرى؛ التي لم تحلَّ بعد هي أنَّ أكبر حركةٍ علميةٍ تاريخيَّةٍ معترفٍ بها في التاريخ، في العالم... انبثقت من أعظم أمَّةٍ أمِّيَّةٍ، هذه الأمَّة التي قامت بهذا الدور الكبير في توسيع آفاق العلم، وفي الابتكار العلميِّ الممتاز الضخم ابتكاراً لا يوجد له مثيل في تاريخ الديانات، في تاريخ الأمم والشعوب التي قامت على أساس الديانات، مع أنَّ نبيَّ هذه الأمة أميٌّ، إنَّها لغزةٌ تاريخيَّةٌ تطلب حَلاًّ، ولكن ليس حلُّها سهلاً، إذا عللت هذه اللغزة فإنما تعلل بإرادة الله القاهرة، وبحكمة الله الباهرة.

وقد تُحلَّل هذه اللغزة بأنَّ أول وحي نزل على سيدنا محمد ﷺ وجه فيه إلى العلم، ومن الغريب المستغرب الذي لا يزال يسترعي انتباه الفلاسفة والمفكرين في العالم: أنَّ أول ما ذكر في هذا الوحي القلم... هذه القطعة الخشبية الهينة التي كانت نادرةً غريبةً في الجزيرة العربية، فقال الله تعالى في وحيه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] إنَّه لم يكن يتوقع إنسانٌ عاقلٌ في ذلك الحين، إنسانٌ عرف طبع الجزيرة العربية، لا أقول: الشائن، ولكن الغريب، مكانة الجزيرة العربية في عالم العلم، في عالم التأليف، وفي العالم المتَّصل بالأقلام، المستعين بالأقلام، المستعين بالكتابة، إنَّ الذي اطلَّع على هذا الوضع الغريب الذي كانت تعيشه الجزيرة العربية؛ لم يكن يتوقَّع أبداً: أنَّ أوَّل وحيٍ ينزل على الرسول الأميِّ عليه الصلاة

والسلام، وأنَّ أوّل اتصالٍ للأرض بالسماء، وبالأولى اتصال السماء بالأرض بعد فترةٍ طالت، وامتدَّت خمسة قرون على الأقل، يذكر فيه القلم، هذا القلم... هذا القلم المنسي، هذا القلم المتروك، هذا القلم المستهان بقيمته؛ الذي استغني عنه حتى أصبح لقب العرب الشائع السائر «أميين» ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فهذا تناقضٌ تاريخيٌّ، وهنالك تناقضاتٌ تاريخيَّةٌ كثيرةٌ، ولكن من أهمِّ هذه التناقضات هو: انبثاق النشاط العلمي، والحماس العلمي الذي لا أجد كلمةً تحسن التعبير عن هذا التناقض وهذا الحماس، ويحقُّ لمن لا يحبُّ هذه الأمة، ولا يحبُّ هذه الدعاية أن يقول أو يسمي هذا: جنوناً، لكن هذا التفاني في سبيل العلم انبثق من دعوة نبي أمِّيٍّ لم يقرأ كتاباً، والذي سأل سيدنا عليّاً رضي الله عنه: أين اسمي؟ ووضع ﷺ أصبعه، وتنازل لمصلحة الناس في صلح الحديبية.

كيف انبثقت هذه الحركة العلمية العالمية الخالدة الممتدة على الأفق، الممتدة على الزمان والمكان... مساحتها الزمنية مساحةٌ قويةٌ من أقوى المساحات الزمنية، ومساحتها المكانية من أكبر المساحات المكانية التي عرفت في تاريخ العلم والتأليف، ومساحتها المعنوية أوسع من كلتا المساحتين، وكذلك مساحة التنوع والتفنن في العلم والموضوعات.

أذكر لكم على سبيل المثال: أنَّ عالماً هندياً اسمه العلامة محمود حسن الطونكي، ألف كتاباً في الهند في بلاد لا تتكلم اللغة العربية، وليست اللغة العربية هي لغة الديوان «في بلده» ولا لغة السياسة، ولا لغة الصحافة، ولا اللغة اليومية... يوفقه الله إلى تأليف كتاب سماه «معجم المصنفين» في ستين مجلداً يحتوي على عشرين ألفاً من الصفحات، وعلى

تراجم أربعين ألفاً من المصنفين ، وناهيك من سعة الكتاب واستقصائه أنَّ فيه ألفين من المؤلفين كلُّهم يسمَّون «أحمد» وقد لخَّص في كتابه نحو ألفٍ وخمسين من الكتب ، وذكر كل من ترك بالعربية كتاباً منذ بدأ العهد التأليفي في الإسلام إلى ١٣٥٠ هـ[١] ، أين هذا النشاط العلمي؟ أين هذا الانتصار العلمي؟ أين هذه الفتوح العلمية التي غمرت الآفاق والتي غمرت الحدود الجغرافية؟

أين هذا النشاط العلمي من هذه الأمَّة الأمِّيَّة المباركة ، التي وصف الله تبارك وتعالى نبيه الحبيب إليها ، فقال: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

السبب في هذا السرِّ: أنَّ الوحي الأول يشيد بالعلم ، وينوِّه بالقلم ، إنَّ هناك دياناتٍ أيها السادة! ترى حياتها في موت العلم ، وترى ازدهارها ، وانتصارها في انهزام العلم ، كما أنَّ هناك حكايةً تقول: إنَّ بعوضةً شكت إلى سيدنا سليمان الريح الهوجاء ، قالت: إن الريح الهوجاء تظلمنا كثيراً ، فإذا هبَّت لجأنا إلى الفرار ، فقال: لابدَّ من إحضار المدَّعى عليه ، ودعا الريح ، فإذا بالبعوضة قد طارت ، فقال: كيف نحكم على قضيةٍ في غياب مدَّعيها ، كذلك أصحاب الديانات الكثيرة ، ومن هذه الديانات ديانة البرهمية في بلادنا التي نعيش فيها ، فهي ترى سرَّ بقائها في عدم اتصال مجتمعها بالعلم ، وعدم اطلاعه على الحقائق العلمية ، بالعكس من ذلك الإسلام؛ الذي يربط مصير الدين بالعلم ومصير العلم بالدين ، كلٌّ منهما يرتبط مصيره بالآخر ، فالدِّين لا يعيش إلا بالعلم ، والعلم الحقيقي لا يعيش إلا بالدين ، إنَّ الإسلام قد أضاف إلى فتوح الإنسان ، لقد عثر على الوحدة؛ التي تربط بين وحدات العلم.

كانت وحدات العلم مبعثرةً ، بل كانت في أغلب الأحيان متناقضةً ، علم الطبيعة يخالف الدِّين ، علم الحكمة يخالف الدين. . وقد ألف علماؤنا

---

(١) ظهرت من الكتاب أربعة أجزاء طبعت في بيروت على نفقة حكومة حيدر آباد السابقة.

كثيراً في الجمع بين الدِّين والحكمة ، فالإسلام إنما أضاف إلى تقدم العلم ، وإلى مقدرته على التقدُّم في كلِّ مكانٍ وزمانٍ بأنه اكتشف تلك الوحدة التي تربط الوحدات بعضها ببعض.

ما هي هـذه الوحدة ؟ إنّها معرفـة الله تبارك وتعالى ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] إنه اكتشف الوحدة التي تجمع بين الوحدات الكونية ، وهي إرادة الله.

وحدة إرادة الله هي الوحدة التي تربط الوحدات الكونية بعضها ببعض ، والتي قد تبدو متناقضةً ، وتاريخ المكتبات في العالم تاريخٌ قديمٌ ، وتاريخٌ عريضٌ واسعٌ ، كان تأسيس المكتبات ، وإنشاء خزانات الكتب من هوايات علماء المسلمين ، وأمرائهم ، ورؤسائهم ، فقد روى تاريخ الأدب العربي: أنَّ خزانة الصاحب بن عباد اشتملت على مئتين وستة آلاف مجلد[(١)] وقد ألف حبيب بن أوس الطائي المشهور بأبي تمام كتابه الخالد الحماسة في مكتبة الأمير أبي الوفاء بن سلمة في الجبال شرق العراق حين وقع ثلج عظيم سدَّ الطرق ، فانتهز الفرصة ، وعمل ديوان الحماسة من الدواوين الوفيرة التي كانت في مكتبة أبي الوفاء[(٢)] ، وهكذا كتبٌ كثيرةٌ أُلِّفت في مكتباتٍ شخصيةٍ ، وكان ذلك شأن الأمراء ، والرؤساء فضلاً عن العلماء ، والمؤلفين في الهند[(٣)] وأنا أعرف بصفتي هندياً: أنَّ كثيراً من الأقيال ، ومن الملاك في زمن الإنجليز ، وقبلهم ، وبعدهم كانوا يحتفظون بمكتباتهم الشخصية الخاصة ، وإن كانوا لا يستطيعون أن ينتفعوا بها شخصياً ؛ لأنهم لم يكونوا أصحاب اختصاص ، ولم يكونوا أصحاب دراسات ، لكنهم كانوا يفتخرون بأنَّهم يملكون مكتبةً يرجع إليها من ينزل عليهم ضيفاً من العلماء.

---

(١) معجم الأدباء:ج ٧ ص ٩٧.

(٢) تاريخ الأدب العربي:للزيات.

(٣) يكفي للمثال خزانة خدا بخش خان في بتنه ، ومكتبة السري الفاضل الشيخ حبيب الرحمن الشرواني في عليكره ، ومكتبة الأمير سالار جنك في حيدر آباد.

فلا يسأم ، ولا يضيق صدره ، بل يشغل نفسه بقراءة الكتب.

ونظرة في الكتب التي ألفت في القديم في استعراض مؤلفات علماء المسلمين في مختلف العلوم والفنون كالفهرست لابن نديم في القرن الخامس الهجري ، وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للحاج خليفة جلبي (في القرن الحادي عشر الهجري) وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، وتاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين في العصر الحديث ، تكفي للدلالة على هيام علماء الإسلام بالكتابة والتأليف ، وتفننهم في مختلف مجالات العلم وموضوعاته ، يكفي لفهم عالمية هذه الحركة العلمية التأليفية ما كان لشبه القارة الهندية البعيدة عن مركز الإسلام ، ومهد العلوم الإسلامية من قسطٍ هائلٍ ، وإسهامٍ رائعٍ في هذه الحركة المباركة ، ونظرة عجلى في كتاب والدنا العلامة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١ هـ). «الثقافة الإسلامية في الهند» الذي طبعه المجمع العلمي العربي في دمشق ، وأصدر له الطبعة الثانية حالياً ، تكفي للدلالة على ما كان لعلماء الهند من إنتاجٍ كثيرٍ من أنواع الثقافة الإسلامية ، ولا أعرف في دراستي القاصرة لتاريخ العلوم والفنون ، وتاريخ الأمم والشعوب: أنَّ أمَّةً شغفت بالعلم خالصاً لوجه الله ، وخالصاً للعلم ، ولا أعرف أمَّةً شغفت هذا الشغف العظيم للعلم كأمَّة الإسلام الأميَّة.

ومناسبة افتتاح مكتبة المرحوم الشيخ عبد الله بن علي المحمود رمزٌ من رموز التاريخ الثقافي للمنطقة ، وهي عرفانٌ بالجميل لفضائل الفقيد ، وأرجو أن تكون هذه المكتبة نواةً لمكتبةٍ كبيرةٍ تسهم في إنشاء جيلٍ إسلامي جديدٍ ، وأنا أهنىء هذه الأسرة الكريمة أنجال الفقيد العظيم ، فقد قاموا بواجبهم ، وأحسنوا الاختيار ، وهو إنشاء هذه المكتبة.

فللمكتبات دورٌ كبيرٌ وأهميَّةٌ عظيمة في تنشئة الجيل الجديد ، وتكوينه العقلي ، والثقافي ، والتمهيد للقيام بحركاتٍ إصلاحيةٍ واعيةٍ تعتمد على فهم الإسلام ، والدراسات الإسلاميَّةِ العميقة الواسعة.

ولقد كانت الصلة التي تربطني بالشيخ صلةً دينيةً علميةً بعيدةً عن كلِّ

اعتبارٍ دنيويٍّ ، وأكثر ما أكبرته فيه هو الغيرةُ على الدين ، والإيمان ، والاحتساب في الأعمال ، لقد رافقته في الهند خلال بعض جولاته الدعوية ؛ فوجدته كان يحتسب كلَّ خطوةٍ ، ويحتسب كلَّ حركةٍ في سبيل الله تعالى ، وفي سبيل الدَّعوة الإسلاميَّة ، وفي سبيل رفع كلمة الإسلام ، ولي الفخر الكبير أن أحضر هذه المناسبة الخالصة المخلصة وفاءً لحقِّ عالمٍ ربانيٍّ عالمٍ مخلصٍ لله تعالى كما أعرفه ، وهكذا يجب أن يكون وفاء التلاميذ للأساتذة ، وهكذا يجب أن يكون حبُّ الأبناء للآباء .

* * *

المسلمون في الاتحاد السوفياتي(١)

[صدر أخيراً كتاب بالإنجليزية للكاتب الهندي البروفيسور تواري (Tiwari) عن المسلمين في «عهد زار» والثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، ويحتوي الكتاب على وثائق ومعلومات عن الحكام الروس السابقين والاشتراكيين إزاء المسلمين مستمدةً من مصادر رسمية ، ويقدِّم صورةً لصمود المسلمين في وجه التحديات والمخططات للقضاء على شخصيتهم الإسلامية والقومية ، وقدم لهذا الكتاب سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، نقدِّم فيما يلي ترجمةً لمقدمته].

يتألف اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية (U.S.S.R.) المكوَّن من قومياتٍ عديدةٍ حول السلالة السلافية كأنَّها جمهورية فدرالية ، ولكن الواقع أن المركز هو الذي يملك السلطة ، ويملك الشعب الروسي زمام الجيش والشرطة ، ويجري منذ سنين عديدة تحقيق حلم «إنسان سوفيتي جديد» تحت خطةٍ مدبَّرةٍ ، وقد صيغت هذه الخطة بطريق يبدو أنها تهدف إلى تقريب المواطنين بعضهم إلى بعض ودمج شخصياتهم القومية بعضها مع بعض في هذا النظام المعقَّد ، ولكن الهدف الأصيل الكامن في هذه الخطة هو القضاء على ثقافة الأقلية حتى تنمو الثقافة الروسية وتزدهر على حسابها ، يرمي هذا المنهج أساسياً إلى إحداث عراقيل وعوائق في سبيل نشوء الشعور القومي والوعي الإسلامي في أقليات آسيا الوسطى ؛ لأنَّ جميع قادة الاتحاد السوفياتي من «لينين» إلى «ننكو» كانوا ينظرون إلى هذا

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السابع ، المجلد التاسع والعشرون ، عام (١٩٨٥ م).

الوعي كخطرٍ مهدِّدٍ لاستيلاء العنصر الروسي على الحياة القومية للمملكة الروسية ، وقد استخدموا لإماتة هذا الشعور وسدِّ منافذه أسلحة الغرب كلِّها من الإبادة الشاملة ، وإرغام الشعوب الآسيوية على الهجرة إلى المناطق الأخرى ، واستيطان رجال السلالة السلافية في آسيا الوسطى ، والتقسيم السياسي لآسيا الوسطى على أساس القبائل ، وفرض الخطِّ الروسي ، وتشويه تاريخ القوميات السلالية المختلفة ، وبثِّ الشعور بنفعية السلطة الروسية لها، وفرض القيود على العادات الدينية ، والجامعات ، والمجامع القومية ، ووسائل المتعة ، ومراكز التسلية ، ولاستئصال شأفة الأخوَّة الإسلاميَّة اخترعت قوميات صناعية من «أزبيك» و«تاجك» و«تركمان» و«قزاق» و«خراكيز» وصودرت الأوقاف ، وهدِّمت ثمانية آلاف كتَّاب ، وألوف من المساجد سنة ١٩١٧ م، وقد تمَّت تصفية جيل المفكرين الإسلاميين بأسره ، وإقصاء كلٍّ عنصر من مواضع النفوذ إلا العنصر الروسي الذي أسندت إليه المناصب الرئيسية حتى في الجمهوريات الإسلامية من أمانة الحزب ، ورئاسة السلطة التنفيذية والشؤون الإدارية ، وإذا لم يكن بدٌّ من تعيين شخص محلي لاعتبار من الاعتبارات لمنصب رئيسي عُيِّن معه رجلٌ روسي نائباً له ، أو مساعداً له ليراقبه ، واتُّخذت هذه الإجراءات من وراء ستار توحيد المجموعات السلالية ، والدينية ، والقومية المختلفة ، ولكنَّ الهدف الأصيل من وراء ذلك كلِّه كان إرغام الأقليات على الانصهار في بوتقة اللغة الروسية ، والثقافة الروسية.

لكن إلى أيِّ مدىً أحرزت هذه المجهودات والمساعي النجاح والفوز؟

إنَّه سؤال مهمٌّ للغاية نظراً إلى النسبة المتزايدة للمسلمين الروس ، وأوضاعهم الاقتصادية والسياسية في العقود الأخيرة من هذا القرن ، وهو موضوعٌ يشغل بال المفكرين الروس وغيرهم؛ لأنهم على عكس ما خططوا له، يشعرون الآن بخطر ازدياد عدد المسلمين بقدر يتمكَّنون به في عهدٍ قريبٍ من أن يستحوذوا على السكان الآخرين ، ويتحوَّل العنصر الروسي إلى أقلية.

وأبرز نظرية في هذا العدد هي نظرية ذات الوجهات الثلاث لألكسندر بنكسن (ALEXANDER BENNEGSEN) التي تنصُّ على أنَّ مسلمي الاتحاد السوفياتي يحملون الشعور بالإخلاص لقبائلهم وشعوبهم ، وبالوفاء الدولي والإسلامي ، وقد نال هذا الأخير أهميةً كبيرةً ، وترى نظرية بنكسن: أنَّ المسلمين لا يحملون أيَّ ولاء للحكومة الروسية ، ويرى المفكر الفرنسي (Helencarrerd Encavsse) أن لا وجود للولاء في السكان الآسيويين ، إنَّه يرى: أنَّ المسلمين السوفيت لا يقرُّون بتصور الإنسان السوفيتي الجديد «لموسكو» وإنما تطفح قلوبهم بالوفاء للإسلام.

وعلى العكس من ذلك نظرية مائيكل (Michael-Zend) فإنَّ هذا المفكر المهاجر من الاتحاد السوفيتي يرى: أنَّ المسلمين الروس أصبحوا تدريجياً يعتنقون «الحضارة الروسية البدائية لما قبل الثورة» ويعدُّون أنفسهم للاندماج في الحضارة الروسية ، ترى نظريته أن استراتيجية تقريب الطبقة الخاصة من المسلمين إلى الحضارة الروسية أصبحت تتكلَّل بالنجاح . ويرى مفكر آخر ، وهو: مائيكل ريكن (Michael Rywkin) أنَّ انتشار اللغة الروسية في سكان آسيا الوسطى ، وتضلعهم منها قد كان سبباً لإنشاء وترسيخ الشعور بشخصيتهم القومية فيهم بدلاً من أن تضعف هذه العاطفة فيهم وتنطفىء ، وقد بدأ الشعور القومي الجديد المركب من عواطف ومشاعر الدين والقومية ينمو فيهم ، ويبعثهم على أن ينالوا مكانتهم المشروعة في روسيا ، وعلاوة على ذلك فإنَّ الكتب والمجلات التي تنشرها الحكومة الروسية تؤكِّد النظرية الآتية.

تقول «الموسوعة الروسية العظيمة»: إنَّ أسس الدِّين قد تهدَّمت في روسيا ولم يبق للإسلام إلا بقايا ورواسب ، وعلى العكس من ذلك يصرِّح تقرير آخر نشرته مجلة إيطالية (Lastampa) بأنَّ الاتحاد السوفيتي نشر /٤٩ كتاباً في معارضة الإسلام سنة ١٩٨٣ م بينما نشر ٢١/ كتاباً سنة ١٩٨١ م و٣٨/ كتاباً سنة ١٩٨٢ م ، وبهذا التقرير يمكن تقدير الوضع الحقيقي ، وعلى كلِّ حال فلا يمكن إنكار أنَّ المجهودات في نشر القومية

الروسية باءت بالفشل في القضاء على الوعي الإسلامي ، ووعي الأخوة الإسلامية في المسلمين ، والحقُّ أنَّ منهج الروس الاستعماري ظلَّ حائلاً دون اندماج المسلمين في القومية الروسية ، فالمحاولات التي قامت بها الحكومة الروسية إلى الآن في سبيل الوحدة القومية لم تتجاوز أصحاب المناصب في الحزب والحكم ، وعلى العكس من ذلك فإنَّ عملية التمييز نحو المسلمين في الحزب ، والحكم ، وعدم توفير الفرص لهم على طريق سواء قد اضطرتهم إلى النظر في أنَّ شعار «العقاب ذي رأسين» على علم روسيا في عهد زار قد تحوَّل إلى المنجل ، والمطرقة.

إنَّ عملية التمييز نحو المسلمين في الشؤون العادية ، وإهانة دينهم ، وأمَّتهم وتشويه تاريخهم ، وثقافتهم لم تزل تشعل العواطف ، وتنشىء الوعي القومي والإسلاميَّ ، إنَّ دينهم ، وقوميتهم قد تحوَّلا إلى وعيٍ مشتركٍ ، أو عاطفةٍ مشتركةٍ ، ونقطتها الأساسية أنَّهم يختلفون عن الروس ، وبعبارةٍ أخرى فإنَّ عاطفتهم القومية ، والإسلامية قد اصطبغت بالصبغة المعارضة لروسيا ، فإنَّ الذين لا يطبقون ركناً من أركان الدين في آسيا الوسطى يعتنقون الشعار الإسلامي في ثلاثة أمور: النكاح ، والاختتان ، والجنازة ، إنَّهم بذلك يجددون وعيهم الإسلاميَّ.

وقد فرضت في روسيا قيودٌ مختلفةٌ على الشريعة الإسلامية كي لا تتدخَّل في شؤون الحكومة ، ولكن كانت نتيجة ذلك نشوء إسلام مماثل في جنب الإسلام الرسمي ، فقد انتشرت شبكة المساجد في البلاد ، وأُنشئت مدارس خاصَّة بتعليم القرآن الكريم ، وأقيمت دوائر التزكية التي لا تزال فعاليتها في ازديادٍ مستمرٍّ على الأيام ، وهناك دلائل تشير إلى أنَّ الجهاز الحكومي يغضُّ البصر عن النشاطات الإسلامية اللاشرعية ، أو الجرائم التي تقترف على أساس الدين بتعبير الدستور الروسي ، ويقدَّر أنَّ ألف مسجد موجود ومعمور في آسيا الوسطى ، وقزاقستان؛ إذ القانون لا يسمح إلا بإقامة مئتي مسجد ، كذلك ألغيت الزكاة شرعاً ، ولكن المسلمين لا يزالون يخرجون صدقة الفطر ، وغيرها من الصدقات وفي بعض المناطق القروية يقوم الفلاحون بإخراج العشر طوعاً واحتمال تكاليف المؤسسات الإسلامية ،

وتعترف المصادر الروسية بأنه يوجد أكثر من نصف مليون شخص يتبعون أحد طرق الصوفية في مناطق جيحون ، وداغستان ، وليس هؤلاء فلاحين ، ولا عمالاً فقراء ، بل يشتمل عددٌ كبيرٌ منهم على العمال الصناعيين ، وأصبح هذا الطريق ينال القبول ، والرواج لدى الطبقة المثقفة من المسلمين منذ عدَّة سنوات ماضية .

إنَّ الوضع الاقتصادي ، والاجتماعي الراهن للكيانات الروسية المختلفة ليشير إلى التأثيرات المعقدة الملتوية للتجدد ، لاشكَّ أنَّ التجدُّد ينشيء الحركة والانسجام في جزءٍ كبيرٍ من المجتمع ، ولكنَّه ينشيء الشعور بعدم مشاركة جميع الناس في التمتُّع بمنافع العلم والتقنية بطريق سواء ، ما دامت الفوارق الاقتصادية في الطبقات المختلفة موجودةً ، وهذه هي النتيجة التي تمخَّضت عنها المساعي التقدُّمية للاتحاد السوفياتي ، فقد زادت نسبة عدم المساواة الاقتصادية لمواطنيه المسلمين ، وأدَّى ذلك إلى نشوء العداء الشديد ضدَّ الاتحاد السوفياتي ، والاشتراكية ، وقد بدؤوا يقومون بمجهودات علنية لإزالة هذه اللامساواة في السنوات الأخيرة ، وأخذوا يحاولون استرداد مكانتهم المشروعة في جمهورياتهم ، وفي المركز كذلك ، وإنَّ الفريق الآذربيجاني (Gaydarliev) قد سجل مثالاً مقلقاً ومزعجاً للروس عن طريق سيطرته على المخابرة الروسية الشهيرة (K.B.G.) والشرطة الروسية القوية كوزير الداخلية للاتحاد السوفياتي ، وإن المواطنين التتار لكريميا وإن لم يقدروا على تحقيق مطالبتهم بأن يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم ، ولكنهم ـ كما يقول (Petr-Potichnyi) ـ قد حصلوا على مواضع النفوذ إلى المجالات التعليمية ، والثقافية المهمَّة بمظاهرةٍ غريبة لعزيمتهم ، وتنسيقهم ، وقد أخذت تباشير مثل هذه الصحوة تظهر في الشعوب الأخرى من آسيا الوسطى ، وإنها بدأت تشعر بأن المؤسسة السياسية التي تمخض عنها المجتمع السوفياتي هي في حد ذاتها وسيلةٌ فعالةٌ لمقاومة الاستبداد ، وقد بدأت هذه الشعوب فعلاً تستخدم هذه المؤسسات للاحتفاظ بشخصيتها القومية الإسلامية .

لاشكَّ في أنَّ مسلمي الاتحاد السوفياتي قد يحرزون تقدماً بالانتفاع من

الإجراءات الاقتصادية ، لكنَّهم لا يزالون يحتفظون بعائقٍ فكري (Mental Resevation) في الاندماج إلى القومية الروسية ، إنهم حقّاً قبلوا من الثقافة الروسية الجانب السياسي للاشتراكية ، والزيِّ الأوربي ، ويتكلمون اللغة الروسية ، ولكن لا يعني ذلك أنَّهم اندمجوا في الثقافة الروسية كلِّياً ، إنَّهم لا يزالون غير مستعدين للتزاوج مع الروس ، وعلى الأخص يمتنعون عن تزويج بناتهم بالأبناء الروس ، كما أنَّهم يتمسَّكون بلغتهم القومية ، وكذلك لا يرغبون في الانتقال إلى المناطق الروسية رغم احتياجها الشديد إلى العمال ولا يزال يغلبهم الشعور بشخصيتهم القومية ، والدينية بحيث إنَّه أصبح من المستحيل أن يتخلَّوا عن فكرتهم الوطنية والإسلامية ، وكذلك رغم الاعتراف بتفوق الأخ الروسي الكبير يشعر الجانبان بالهوة الواسعة ، وعلى العكس يسود الظنُّ ، وفقدان الثقة ، ويعرف الجانبان النسبة المتزايدة للمسلمين ، ونتائجها التي تنبأ بها مناصر بلشفي شهير مير سعيد سلطان غالب بأنَّ سيطرة الروس على الأمم الأخرى ستتحول إلى حكومةٍ مستبدَّةٍ ، يصبح الشعب المحكوم حاكماً للروس ، وهذا هو السبب في أنَّ الاتحاد السوفياتي ـ رغم القيام بدعاية ديموقراطيته ، وسعة نظره ـ لم يتخلَّص من نظامه وتنسيقه الاستبدادي ، ومعسكرات العمل الإجباري ، إنَّه لا يزال إلى اليوم يعارض كلَّ نوع من الانتقاد ، وينكر أن يمنح الناس حقوقهم الديموقراطية ، ويرى أنَّ الجو الإرهابي هو الذي يضمن بقاءه ، إنه يطبق اليوم كذلك سياسة الاستبداد والدكتاتورية تجاه حرية الشعب ومنح الناس حقوقهم ، ولكن ذلك ينم عما وصل إليه من الضعف وانحلال النظام ، لأنَّ النظام الاجتماعي ونظرية الحياة لا يقوم على أساس الإجبار.

وقد كشف تدخل روسيا في أفغانستان القناع عما قد شاع أنَّه قوة لا تقهر ، وحطم أسطورة حصانتها ومناعتها ، كما كشف عن حقيقة سياستها السلمية ، فإنَّ روسيا متورطةٌ في الوحل منذ أربع سنوات ، ولا يزال عاجزاً عن تحطيم قوة العدو الذي ليس من التنظيم والتسلح والوحدة في شيء بالنسبة لها ، ولا تزال قواته تخسر في الأرواح والأسلحة ، وباستثناء بعض المدن الكبيرة والممرات الرئيسية لا تجد لها

سيطرة تامة على ذراع من الأرض ، وتشير المؤشرات إلى أنَّ هذا الوضع سيستمر إلى عدة سنوات ، وأنَّ احتراز روسيا عن حلٍّ هذه القضية عن طريق الحوار يشير إلى أنَّ روسيا إذا لم تحقق السيطرة الكاملة على أفغانستان ، فإنها تخشى أنها ستواجه مقاومة الروح الإسلامية الناشئة في داخل حدودها ، وإنَّ هذا كذلك يشير إلى أن استراتيجية روسيا القومية قد باءت بالفشل ، وقد أصبح هدف الاتحاد السوفياتي ؛ الذي كان يدَّعي هيمنته على العالم كله ، يفقد أهميته ، وضرورته في مواطنيه أنفسهم ، وقد تبدَّد الآن حلم روسيا حول قيادة العالم الثالث ، أي دول عدم الانحياز ، واقتصرت مساعِيها الآن على إحداث الثورات الإجبارية في الدول الأخرى ، وحشد الأسلحة ، ودعم نظم تقوم بكبت الشعوب الحرة ، ولكن إخفاقها المستمر في مثل هذه المحاولات قد كشف الستار عن سياستها المزدوجة في الشؤون الدولية.

من بواعث السرور والبهجة أنَّ عدداً كبيراً من الكتاب والمفكرين أصبحوا يقارنون الآن بين إنجازات الثورة الاشتراكية الروسية وخسائرها ، ومن بين هؤلاء الكتاب البروفيسور «تواري» مؤلف هذا الكتاب فقد اعتنى فيه باستعراض موقف الحكومة السوفياتية إزاء مواطنِيها المسلمين بعد أن عكف على دراسة التجربة الاشتراكية منذ خمسين سنة كاشتراكي متحمِّس أولاً ، ثم كرئيس للجنة معارضة البلشفية في الهند ، إنَّه بدأ استعراضه هذا من الوقت الذي لم تدخل فيه مناطق آسيا الوسطى هذه في يد «زار» وبعده في يد الاتحاد السوفياتي ، إنَّه اعتمد على البحوث العلمية ، والمصادر الرسمية للاتحاد السوفياتي إلى حدٍّ كبير في استعراض الحياة القومية للمسلمين ، ولم يعتمد على كتابات المهاجرين الروس إلا في مواضع محدودة ، إنَّه ذكر في كتابه أنَّه كيف سيطر الملوك الروس على هذه المناطق الإسلامية وكيف كان المسلمون يعيشون في عهدهم سياسياً ، وثقافياً ، واقتصادياً ، وكيف حاول المسلمون بعد الثورة الاشتراكية خلع نير الملكية الروسية عن رقبتهم ، وكيف نجح الاشتراكيون في إقرار سيطرتهم عليهم ، وذكر البروفيسور تواري أنه كيف اغترَّ المسلمون المناصرون للتجديد

بالتقدم والإصلاح ، وتعرَّضوا للاعتداء الروسي ، إنَّه قدَّم استعراضاً شاملاً للمؤسسات الروسية السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية ، ونظام الحزب الشيوعي ، ويظهر من ذلك ما هي الوسائل والطاقات التي استخدمها الاتحاد السوفياتي للسيطرة على هذه القوميات لآسيا الوسطى ، وفرض الثقافة الروسية عليها ، وكذلك يتبين من استعراض نظام الحكومة والحزب الشيوعي: أنَّ روسيا تعمَّدت أن يتخلف المسلمون تعليمياً ، ويبتعدوا عن المراكز السياسية ، والاقتصادية ، ويرتبطوا بالنواحي الاجتماعية . إنَّ دراسة البروفيسور تواري هذه تلقي الضوء على الطبيعة العدوانية للشيوعيين الروس ، ويتَّضح كيف سلبوا الأمم المضطهدة حياتهم الاجتماعية والثقافية والروحية ، إنَّه استعرض النضال الإسلامي للمسلمين الروس إلى ثمانينات هذا القرن ، وبذلك قدَّم خريطةً تامَّةً لأهمِّ صراع مصيريٍّ لهذا العصر يجري بين موسكو ومكة المكرمة ، والذي زاد كتاب البروفيسور تواري أهمية: أنه قدَّم محاولات نشر الثقافة الروسية في مسلمي آسيا الوسطى ، والنضال الذي جرى ضدَّها وعلاقات الأقلية والأغلبية فيما بينها في أسلوبٍ علميٍّ رصينٍ ، وبحيطةٍ بالغة.

* * *

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام

فهرس الأبيات الشعرية

فهرس الأماكن والبقاع والبلدان

فهرس الأمم والقبائل والجماعات

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات الكريمة

الآية	رقمها	رقم الصفحة
(١) سورة الفاتحة		
﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ... وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾	٦ ـ ٧	٨٩
(٢) سورة البقرة		
﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾	٧	٢٨٩
﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾	٢٩	١٩٧ ، ١٩٨ ، ٣٧٠
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٣٠	١٩٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨٤ ، ٣٦٥
﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾	٤٥	١٦٠ ، ٢٦٤
﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾	٤٦	٢٦٤
﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾	١٠٢	٣٧٥
﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾	١١٥	٤٢٢
﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾	١٧١	٢٩٠
﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾	١٩٣	١٥
﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾	٢٠١	١٩٩
﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾	٢٤٩	٥٣ ، ٣١٠
﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾	٢٥٦	١٩
(٣) سورة آل عمران		
﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ﴾	٣١	٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨
﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾	٧٩	٧١
﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾	١٠٣	٣٦
﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾	١٦٠	٥٣ ، ٣١٠

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ١١٠ .... ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٣٢١
﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ ١٢٩ .... ٥٤
﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ١٩١ .... ٤٦٧

(٤) سورة النساء

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم ﴾ ١ .... ٣٦٨
﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ ﴾ ٥٨ .... ١٩٢
﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ ٧٧ .... ٦٨
﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ ﴾ ١٠٤ .... ٢١٨
﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ١٢٥ .... ٣٥٥
﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ٧٥ .... ٣٨٨
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ ﴾ ١٣٥ .... ٩٧ ، ١٥٣ ،
١٩٨ ، ٣٢٠
﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ﴾ ١٤٢ .... ٢٦٤

(٥) سورة المائدة

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ ﴾ ٢ .... ٤١٦
﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ ٨ .... ١٩١ ، ٣٢٠
﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾ ١٦ .... ٥٥
﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ٣٢ .... ١٥٥ ، ٣٦٦
﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ١١٨ .... ١٦٤

(٦) سورة الأنعام

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ٢٩ .... ٣١٣ ، ٣٧٢
﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا ﴾ ٣١ .... ١٠٣
﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ ٩٠ .... ٨٩
﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾ ١٢٢ .... ١٩١
﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ ﴾ ١٢٥ .... ٢٥١
﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ١٥٢ .... ٤١٤
﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ ﴾ ١٦٥ .... ١٩٢

(٧) سورة الأعراف

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ٣١ .... ١٩٨
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ ٣٢ .... ١٩٨

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ ٥٤ .... ٣١
﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ ٥٨ .... ٣٨٠
﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ ١٢١ ـ ١٢٢ .... ٥٠
﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ ١٣٧ .... ٥٠
﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ ١٤٦ .... ١٠٣
﴿ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾ ١٥٧ .... ٤٦٦
﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ . . . يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ١٧٥ ـ ١٧٦ .... ٢٦٢

(٨) سورة الأنفال

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ ٢٥ .... ٢٣٦
﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم ﴾ ٢٦ .... ٢٠٢
﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ٦٠ .... ٥٤

(٩) سورة التوبة

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ ٢٤ .... ٣٩٠
﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ ﴾ ٤١ .... ٢٤٠ ، ٣٨٦
﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾ ٥٥ .... ٣٠٩
﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ ٩٢ .... ٣٠٥
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ ﴾ ١٢٠ .... ٨٣

(١٠) سورة يونس

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ ﴾ ٣٢ .... ٤٥٩
﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ ٤٦ .... ١٦٣
﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا ﴾ ٨٧ .... ٥٢
﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ ٨٨ .... ١٦ ، ٢١

(١١) سورة هود

﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ ٩١ .... ٢٨٧
﴿ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ ٩٧ .... ٣٧ ، ١٠٠
﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ . . . ٱلْمَرْفُودُ ﴾ ٩٨ ـ ٩٩ .... ٣٧
﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ ١١٣ .... ١٩ ، ٢١ ،
٣٧ ، ١٠٠

(١٣) سورة الرعد

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ ١٧ .... ٢٨

(١٤) سورة إبراهيم

﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ ﴾ ١٧ .... ١٠٨

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... كَفَّارٌ ﴾ ٣٢ ـ ٣٤ .... ٣٧٠

(١٥) سورة الحجر

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ ﴾ ٢٦ .... ٢٦٢

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ٢٩ .... ٢٦١

(١٦) سورة النحل

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ ... تَعْلَمُونَ ﴾ ٥ ـ ٨ .... ٣٧٠

(١٧) سورة الإسراء

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ١٤ .... ١٤٥

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ ﴾ ٧٠ .... ١٩٧ ـ ١٩٨

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ٨٥ .... ٢٦٢

(١٨) سورة الكهف

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾ ٦ .... ١٦٣

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ ٧ .... ١٩٧

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ ١٣ .... ١٢٠ ، ١٦١ ، ٢٢٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ ﴾ ١٤ .... ١٢٠ ، ١٦١ ، ٢٢٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ ﴾ ١٥ .... ١٢٠ ، ١٦١ ، ٣٤٧

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ١٦ .... ٣٤٧

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ ١٧ .... ٣٤٩

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ ... وَزْنًا ﴾ ١٠٣ ـ ١٠٥ .... ١١٧

(٢٠) سورة طه

﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى ﴾ ٥٢ .... ٥١

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ ٥٣ .... ٥١

﴿ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ ﴾ ١٣١ .... ٣٠٩

(٢١) سورة الأنبياء

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ٦٩ .... ٣٥٠

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ ١٠٥ .... ٣٠٩

(٢٢) سورة الحج

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ ٤١ .... ١١٩ ، ١٢١ ، ١٦١ ، ٣٩٥

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ ٧٨ .... ٢٨١

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ ٧٨ .... ٢٨١ ، ٣٥١

(٢٣) سورة المؤمنون

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ ٣٧ .... ٧٣ ، ٢٨٧

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ٥٢ .... ٣٥

(٢٤) سورة النور

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ ٣٦ .... ٣٢٣

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ٥٥ .... ١٩٨ ، ٣٠٩

(٢٥) سورة الفرقان

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ ٤٤ .... ٢٨٩ ، ٢٩٠

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ ٧٧ .... ١٥٩

(٢٦) سورة الشعراء

﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . . . قَالَ . . . تَعْقِلُونَ ﴾ ٢٣ ـ ٢٨ .... ٥١

﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ٦١ .... ٥١

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ٦٢ .... ٥٢

﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ . . . الْآخَرِينَ ﴾ ٦٣ ـ ٦٤ .... ٣٥١

(٢٧) سورة النمل

﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ ٣٤ .... ٢١

﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ ٤٠ .... ٣٧٢

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ﴾ ٦٦ .... ٢٨٩

(٢٨) سورة القصص

﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ ١٧ .... ٢١ ، ٣٧٢

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ ٤١ .... ٣٦

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ ٤٢ .... ٣٦ ـ ٣٧

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ﴾ ٨٣ ..... ١٢٣ ، ١٦٣ ، ١٩٢

(٢٩) سورة العنكبوت

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا﴾ ٢ .... ١٢٠ ، ١٦١

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ ٣ .... ١٢٠ ـ ١٢١ ، ١٦١

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ﴾ ٤٨ .... ٤٦٥

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ ٦٤ .... ١١٠

(٣٠) سورة الروم

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ٢٢ .... ٣٦٨

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ ٥٢ .... ٢٩٠

(٣٢) سورة السجدة

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ ٢١ .... ٢٠١

(٣٣) سورة الأحزاب

﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ﴾ ٢٢ .... ١٢١ ، ١٦١

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ ٢٣ .... ٣٨٦

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ ٦٢ .... ٩٩ ، ٢٨١

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ٧٢ .... ٢٦٠ ، ٢٨٤

(٣٧) سورة الصافات

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا . . .﴾ ١١ .... ٢٦٢

﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ ١٠٢ .... ٣٥٢

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . . . عَظِيمٍ﴾ ١٠٤ ـ ١٠٧ .... ٣٥٢

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا . . . الْغَالِبُونَ﴾ ١٧١ ـ ١٧٣ .... ٥٣

(٣٨) سورة ص

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ٤٦ .... ٣٥٣

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ٤٧ .... ٣٥٢

(٤١) سورة فصلت

﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ ٥ .... ١٠٧ ، ٢٨٨

﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ ١٦ .... ١١٧

(٤٢) سورة الشورى

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا ﴾ ٥٢ .... ٤٦٥

(٤٣) سورة الزخرف

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم ﴾ ١٢ .... ٣٧٠

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ ١٣ .... ٣٧٠ ، ٣٧١

﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ١٤ .... ٣٧١

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ ٤٤ .... ٣٢١

(٤٧) سورة محمد

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ٧ .... ٥٣

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ ﴾ ١٢ .... ٢٦٢ ، ٣٠٩

(٤٩) سورة الحجرات

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ ١٣ .... ١٩٣ ، ٣٦٨

﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ ١٧ .... ٣٦

(٥١) سورة الذاريات

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا . . . يُطْعِمُونِ ﴾ ٥٦ ـ ٥٧ .... ٢٦٠

(٥٣) سورة النجم

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ ﴾ ٢٣ .... ٣٥٥

﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ ٣٠ .... ٢٧١

(٥٥) سورة الرحمن

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ ١٤ .... ٢٦٢

(٥٧) سورة الحديد

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ ﴾ ٩ .... ٣٦

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ ١٦ .... ١٠٥

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا ﴾ ٢٥ .... ٣٧١

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ﴾ ٢٧ .... ٢٦٣

(٥٨) سورة المجادلة

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ ﴾ ٢٢ .... ٥٤

(٦٠) سورة الممتحنة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ . . . تَكْفُرُونَ﴾ ١ ـ ٢ .... ١٨

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ٤ .... ١٨ ، ١٨٨

(٦٢) سورة الجمعة

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ٢ .... ٦٥ ، ٤٦٥

(٦٣) سورة المنافقون

﴿ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ ١٠ .... ١٠٤

(٦٧) سورة الملك

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ٢ .... ١٩٧

(٧٩) سورة النازعات

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ ١٧ .... ٥٢

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ . . . ٱلْمَأْوَىٰ﴾ ٣٧ ـ ٣٩ .... ١١٠

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ . . . ٱلْمَأْوَىٰ﴾ ٤٠ ـ ٤١ .... ١١٠ ـ ١١١

(٩٥) سورة التين

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ٤ .... ٣٦٥

(٩٦) سورة العلق

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . . . يَعْلَمْ﴾ ١ ـ ٥ .... ٤٦٤

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	رقم الصفحة
ـ أ ـ	
«أتاكم أهل اليمن ، أرق أفئدة»	١٧٢
«إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده»	٣٠٩
«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»	٢١
«أفلا أكون عبداً شكوراً»	١٦٤
«الأمير راع على رعيته وهو مسؤول»	٢٤٠
«أن تعبد الله كأنك تراه»	٦٥
«إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها»	٣٠٩
«إن الله عز وجل يقول يوم القيامة»	٣٦٥
«إن من أبر البرِّ : برُّ الرجل بأهل ود أبيه»	٢٩٤
«أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»	٣٦٨
«إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله»	١٩٢
«أنت ومالك لأبيك»	٢٩٤
«وأنت ومالك لوالدك»	٤١١
«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»	١٤٩
«إنها سنة جدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام»	٣٥٥
ـ ت ـ	
«ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم»	١٥٢ ـ ١٥٣
ـ ث ـ	
«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان»	٣٦

- ح -

«حفّت الجنة بالمكاره» ١١١

- ل -

«الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد» ١٩٢

«اللهم إن تهلك هذه العصبة لن تعبد» ١٥٨

«اللهم إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني» ١٥٨

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» ١١١

«ليس منا من دعا إلى عصبية» ٣٦٨

- م -

«من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا فليس منا» ٢٩٥

- لا -

«لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط» .... ١٢٣ ، ١٦٣

- ي -

«يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وأباكم واحد» ٣٦٨

«يا عائشة أشد الناس عذاباً يوم القيامة» ٢٠٣

فهرس الأعلام

الاسم — رقم الصفحة

ـ آ ـ

آدم ١٩٣ ، ٢٣٩ ، ٣١٤
آنندا ٢٥٨

ـ أ ـ

أبا قاخان ٢٥٠
إبراهيم ٤٤٤
إبراهيم عليه السلام ١٨ ، ٧٣ ، ١٨٨ ، ٢٧٠ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٨٦
إبراهيم اللودهي ٤٠٠
أبرهة ٣٠٧
أبرويز ٢٧٠
ابن الأثير ١٤٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٩
ابن أدهم ١٠٥
ابن إسحاق ٣١١
ابن بطوطة ٢٥٥
ابن بلا ١٩٠
ابن تيمية الحراني ١٧٩ ، ٤١٠ ، ٤٤٧
ابن جدعان ٩١
ابن الجوزي ١٠٥
ابن حجر العسقلاني ٤١٠
ابن حجر المكي الهيثمي ٤١١
ابن خلدون ١٩٣ ، ٣١٩ ، ٤٤٢

الاسم — رقم الصفحة

ابن الرومي ٣٣٣
ابن سينا ٤٥١
ابن عربي = محيي الدين بن عربي
ابن عساكر ٣٤٢
ابن كثير ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٠
ابن ماجه ٤٥١
ابن النديم ٤٦٨
أبو إسحاق الشيرازي ٤٥١
أبو الأعلى المودودي ٣٨٠
أبو بكر بن عبد الله بن أبي بكر ٤٠٤
أبو بكر بن العربي ١٣٦
أبو بكر الصديق ٢٩ ، ٣٢ ، ٣١٠
أبو حامد محمد الغزالي ٤٥١
أبو حسن ٣٢
أبو الحسن الأشعري ١٧٩
أبو الحسن الخزرجي ٢٣٣
أبو الحسن السندي ٤٤٨
أبو الحسن الشافعي البكري ٤١٤
أبو الحسن علي بن سعد ١٤٤
أبو الحسن علي الحسني الندوي ٥ ، ٧ ، ٤٧٠
أبو حيان النحوي ٤١٠ ، ٤٤٧

أبو داود ٤٥١
أبو ذر ١٠٤ ، ١٣٣
أبو الريحان البيروني ٣٣٧
أبو السعود ٤٠٢ ، ٤١١
أبو سلمة ١٦٠
أبو شامة ٢٢٩
أبو طاهر الكوراني الكردي ٤٤٩
أبو طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني ٤٣٣
أبو عبد الله ١٤٤
أبو عبيدة الجراح ١٣٣
أبو العتاهية ١٠٥
أبو العلاء المعري ١٢٨ ، ٢٦٦
أبو الفتح الكيلاني ٤١٣
أبو الكلام آزاد ١٥٢
أبو المعالي عبد الملك الجويني ٤٥١
أبو الوفاء بن سلمة ٤٦٧
أبو هريرة ٣٦٥
أبيقور ٤٢٠
أجتائي خان ٢٥٨
أحمد ١٧٤
أحمد أمين ٢٠٣
أحمد بن عبد الأحد السرهندي ٣٣٩ ، ٤٣٢
أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ١٧٩
أحمد بن عرفان الشهيد ١٥١
أحمد علي اللاهوري ٧
أحمد بن محمد القسطلاني ٤١١
أحمد الثالث ٤٣٧
أحمد خان ٤٤٥
أحمد سوكارنو ١٩٠
أحمد شاه الأبدالي ٤٣٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦
أحمد المقري المغربي ٣٤٠
أخوند درويزه ٤٥٤ ، ٤٢١
أرغنة ٢٥٦
أرغون ٢٤٨ ، ٢٥٣
أرنولد ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨
استورت ٣٧٩
إسكندربنكسن ٤٧٢
الإسكندر المقدوني ١٨٤ ، ٣٣٧
إسماعيل الحقي ٤٧٥
إسماعيل الشهيد ٣٨٧
إسماعيل الصفوي ٣٩٨ ، ٤١٦ ، ٤٥١
إسماعيل العجلوني الجراحي ٤٤٨
إسماعيل عليه السلام ٣٥٢ ، ٣٨٦
إسماعيل نظام شاه ٤٢٧
أشرف خان ٤٤٢
أشوكا ٨٧
أكبر ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ٤٥٢
أكبر حسين ٤٦٢
الفنستن ٤٣٧
أم عمرو ١٠٣
أمان الله خان ١٦٧ ، ١٦٩
أمجد ٣٨٦
الأمين ٢٩٥
أناميريا جيد ١٦٩
أنس بن النضر ١٢٢ ، ٢٢٠
أنوشيروان ٨٩ ، ٩٠
أويس ١٠٤
أورنك زيب عالمكير ٣٣٩ ، ٤٤٦
أولجاتيو ٢٥٤
إيدن ٣٧٨
إيريني ٢٠٣

إيزابيلا ١٤٤ ، ١٤٦

أيزنهاور ٨٥

إيل سيان ٢٤٥

- ب -

بابر ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٢٠ ، ٤٣٤

باقر داماد ٤٥٢

بانيل جق ٢٣٧

بايزيد بن عبد الله الأنصاري ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣

البخاري ٢٠٣ ، ٣٢٧ ، ٤١١

بخش الكده مكتيسري ٤٠٧

بدر الدين لؤلؤ ٢٣٠

بديل بن طهفة ١٤٨

براق خان ٢٥٦

بركة خان ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠

برهان نظام شاه ٤١٦

بريتون ٣٥٠

بطرس ٤٤٢

البلاذري ١٤٨

بلال ٢٢٠

بلانونوف ٣٠٤

بنت ٨٧

بهاء الدين ٢٥٢

بهاء الدين بن إبراهيم الأنصاري القادري ٤٠٥

بهزاد ٨٩ ، ٩٢

بهليلا ٣٩٣ ، ٣٩٤

بولس ١٤٠

بيدوخان ٢٥٣

بيربل ٤٢٣

بيرم خانخانان ٤١٧

- ت -

تاج الدين ألدز ٢٩٥

تاج الدين السبكي ٢٤٢

تشرشل ٨٤ ، ٨٥

تغلق تيمور ٢٥٧ ، ٢٥٨

تقي الدين بن دقيق العيد ١٣٦ ، ٤١٠ ، ٤٤٧

تكودار أحمد ٢٥٠ ، ٢٥٣

تواري ٤٧٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧

توزون ٢٥٤

تيبو ٢٠

تيمورخان ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩

تيمور شاه ٤٤٦

- ج -

الجامي ٤٥١

جان بول ٨٤

جائين لده السهنوي ٤٠٨

جبار بن سلمى ١٨١

جبون ٢٤٠ ، ٣٠٧ ، ٣١٨

جرجي خان ٢٤٨

جرمانيوس ٢٠٣

جريجوري ٢٠٣

جرير ٨٢ ، ١٣٥

جعفر بن أبي طالب ٩٠

جعفر علي ٣٨٧

جغطائي بن جنكيز خان ٢٥٦

جلال الدين أكبر ٣٩٨

جلال الدين الدواني ٤١٢ ، ٤١٣

جلال الدين الرومي ٢٦٥ ، ٢٦٦

جلال الدين السيوطي ٢٤٥ ، ٤١٠ ، ٤١٤

جمال خان المهروي ٤٢٧

جمال الدين ٢٥٧

جمال الدين أبو الحجاج المزي ٤١٠

جمال الدين الأفغاني ١٥١
جمال عبد الناصر ١٩٠ ، ٤٦١
جنكيز خان ٨٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩
جهانكير ٣٣٩
جواهر لال نهرو ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٤٥٨
جوبين ٨٩
جود ٢٩٣ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥
الجوزجاني ٢٥٦
جون بول ٨٤ ، ٨٥
جيمس ٢٥٠

- ح -

حاتم الطائي ٩١
حبيب بن أوس الطائي ، أبو تمام ٤٦٧
الحجاج ١٤٨ ، ٣٣٠
الحسن البصري ١٠٥ ، ٤٢٩
الحسن بن علي ٩٠
حسن بن محمد الصغاني اللاهوري ٣٢٥
حسن العجيمي ٤٤٩
حسن علي ٣٨٧
الحسين بن علي ٩٠ ، ٤٠٤
حسين شاه ٤٤٢
حليمة ٣٠٤
حمزة بن عبد المطلب ١٢٢ ، ١٢٧
حيدر حسن خان الطونكي ٧

- خ -

خالد بن الوليد ٩٠ ، ١٣٢
خاني خان ٤١٨
خباب ٢٢٠
خبيب ١٥٩ ، ٢٢٠
خسرو ٨٩ ، ٩٠ ، ٣٣٨
خليفة الجلبي ٤٦٨
خليل باشا ٤٣٩
خوارزم شاه ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨

- د -

دانيال ٤٢٤
داهر ١٤٨
دزرائيلي ٣٧٣
دسجرد ٣٠٧
الدهلوي ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥

- ذ -

ذو النون المصري ١٠٥

- ر -

راجح بن داود الكجراتي ٤١٤
رام ٩٢
رام كرشنا ٨٧
ربعي بن عامر ١٩٢
رحمة الله بن عبد الله السندي ٤١٢
رستم ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣
الرشيد ١٢٧
رشيد الدين ٢٥٤ ، ٢٥٨
روتنجن ٣٧٤

- ز -

زار ٤٧٠ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦
الزبير ١٠٤
زردشت ٩٢
الزغل ١٤٤ ، ١٤٥
زكريا الأنصاري ٤١١
الزهراء ١٠٤
زياد بن جزء الزبيدي ١٢٥

زين خان ٤٢٣
زين الدين محمود كمان كربهدائي ٤١٣

- س -

س - م جود ٢٩٠
سالار مسعود غازي ٤٠٤
السخاوي ٤١٤
السرهندي ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩
سعد ٣٠٦
سعد بن أبي وقاص ٩٠ ، ١٢٣ ، ٣١١
سعد بن علي السويني بامدحج السعيد ٤٠٤
سعد بن معاذ ١٢٢
سعيد سلطان ٤٧٥
سكندر اللودهي ٤٠٠ ، ٤٠٣
سلمان الفارسي ٩٠ ، ٣١١
سلمة ١٦٠
سليم الأول ٣٩٧ ، ٤٠٢
سليم بن شيرشاه السوري ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٢٥
سليمان الإسماعيلي ٤٢٠
سليمان بن يحيى الأهدل ٤٤٩
سليمان عليه السلام ٣٧٢ ، ٤٦٦
سليمان القانوني ٣٩٧ ، ٤٤١
سليمان الكبير ٤٠٢
سليمان مرزا ٤٠٠
سميورنانند ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣
سنان باشا ٤٤١
سندباد البحري ١٠٧ ، ٣٩٩
سهراب ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣
السيّد (أحمد) ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥
سيف الدين قطز ٢٤٥
السيوطي = جلال الدين السيوطي

- ش -

شارل ٢٥٠
شارلس - ي - ولسن ٣٨٠
شاهجهان ٤٢٣
شاه رخ ٤٤٤
شاه عباس ٣٩٨ ، ٤٠٢
شرف الدين يحيى المنيري ٢٨٣ ، ٣٣٩
شريف الآملي ٤١٧
شقيق البلخي ١٠٥
شكيب أرسلان ١٣٧
شمس الدين الذهبي ٤١٠ ، ٤٤٧
شمس الدين السخاوي ٤١٠
شمس الدين العراقي ٤١٦
شهاب الدين أحمد بن حجر المكي ٤١٤
شوقي ٩٦
شيرشاه السوري ٣٣٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١
شيرين ٢٧٠

- ص -

الصاحب بن عباد ٤٦٧
صالح بن شريف الرندي ١٥٠
صدر الدين الشيرازي ٤٥٢
صلاح الدين ٩٨
صلاح الدين الأيوبي ١٣ ، ٢٢٨ ، ٣٩٧
صلاح عبد الغني بن فاخر ٢٣٠
صهيب ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٢٠

- ض -

ضرار بن ضمرة ١٢٤
ضياء الله الأكبر آبادي ٤٠٧

- ط -

طارق بن زياد ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٨٧
طاهر بن رضا الإسماعيلي ٤١٦
الطبري ١٢٣ ، ١٢٥
طرفة بن العبد ٢٩١
طرماشيرين ٢٥٧
طريف بن زرعة ١٣٩
طه بن حسين بن عبد الرحمن الأهدل ٤١٢
طهماسب ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤١٦ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢

- ظ -

الظاهر ٢٢٩
الظاهر بيبرس ٢٤٥ ، ٢٤٩
ظريف العظيما آبادي ٤١٩
ظهير الدين بابر التيموري ٣٩٩
ظهير الدين محمد بابر الكوركاني ٤٠٠

- ع -

العادل ٢٢٩
عادل شاه ٤٤٤
عائشة ٢٠٣
عباس الصفدي ٤٥٢
عبد الأحد ٤٠٩
عبد الباقي خان ٣٨٤ ، ٣٨٥
عبد الحليم القادياني ٢٦
عبد الحي الحسني ٧ ، ٣٢٨ ، ٤٦٨
عبد الرحمن ٣٩٥
عبد الرحمن الجامي ٤١٣
عبد الرحمن الداخل ١٤١
عبد الرحمن الغافقي ١٤٠
عبد الرحمن الناصر ١٤١
عبد الرحيم ٣٩٥ ، ٤٥٣
عبد الرحيم خانخانان ٣٣٩ ، ٤٢٨
عبد الرزاق الجهنجهاري ٤٠٨
عبد العزيز الدهلوي ٤٥٣
عبد العزيز شكربار ٤٠٨
عبد العلي الحسني ٧
عبد الغني النابلسي ٤٤٩ ، ٤٥١
عبد الغفور اللاري ٤١٣
عبد القادر البدايوني ٤٠٦ ، ٤٠٧
عبد القادر الجيلاني ٤٠٧ ، ٤٠٩
عبد القدوس الكنكوهي ٤٠٨
عبد الله بن حسين السويدي ٤٤٩
عبد الله بن رواحة ٣١١ ، ٣١٢
عبد الله بن علي المحمود ٤٦٨
عبد الله الخراساني ٤٠٥
عبد الله السنديلوي ٤٠٨
عبد الله الشطاري ٤٠٥
عبد الماجد الغوري ٦
عبد النبي الأحمد نكري ٣٢٧
عبيد الله بن إسكندر ٣٩٩
عبيد الله بن محمد ٣٩٩
عبيد الله بن نبهان ١٤٨
عثمان بن عفان ١٠٤ ، ١٣٣
عثمان بن مظعون ١٢٢ ، ٢٢٠
عثمان الثالث ٤٣٧ ، ٤٣٨
عطا محمد القادياني ٢٤
العلاء البخاري الحنفي ٤١٤
علاء بن الحسن البيانوني العلائي ٤٢٥
علاء الدين الباجي ٤١٠ ، ٤٤٧
علاء الدين الخلجي ٣٣٨
علاء الدين الطبرسي الظاهري ٢٢٩
علاء الدين علي المتقي البرهانفوري ٤١١
علاء الدين محمد خوارزم ٢٢٧ ، ٢٣٤

علي بن أبي طالب ١٦ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ، ٣١١ ، ٤٠٢ ، ٤١٧ ، ٤٦٥
علي بك ٤٣٨ ، ٤٣٩
علي بن حسام الدين المتقي ٤١٤
علي بن قوام الجونبوري ٤٠٥ ، ٤٠٧
علي الترمذي بيربابا ٤٢١
علي الدهلوي ٣٢٧
علي الرضا ٤٠٢
علي عاشقان السرائي ميري ٤٠٥ ، ٤٠٧
علي قلى ٤٤٤
علي الكيلاني ٤٣٥
علي مجد الدين أيبك المستنصري ٢٣٠
علي محمد مخلص ٤٢١
عماد بن محمود الطارمي ٤١٢ ، ٤١٣
عمّار ٢٢٠
عمر بن الخطاب ١٠٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٦٣ ، ١٩٣ ، ٣٠١ ، ٣١٠
عمر بن عبد العزيز ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠
عمرو بن العاص ١٣٩ ، ١٩٣
عمرو بن معد يكرب ١٠٤ ، ٢٩٠
عيسى بن قاسم السندي ٤٠٨

- غ -

غازان ٢٥٣ ، ٢٥٤
غاندي ١٥٢
الغزالي ١٠٥ ، ١٧٩ ، ٢٢٣
غلام أحمد القادياني ٢١ ، ٢٦ ، ٢٧
غلام علي ٣٨٦
غلام مرتضى ٢٤
غود فرواد مونبين ٣٠٤
غياث الدين ٢٥٦
غياث الدين شاه الخلجي ٤٢٤
غياث الدين منصور ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٥٢

- ف -

فتح علي ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
فتح الله الشيرازي ٤١٣ ، ٤٣٥ ، ٤٥٢
الفردوسي ٩١
فرديناند ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦
فرزند علي ٣٨٦
فرعون ١٦ ، ٢١ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١١٥ ، ٤٦٢
الفضيل بن عياض ١٠٥
فؤاد سزكين ٤٦٨
فيروز تغلق ٣٣٨ ، ٤٠٣
فيروزة ١٧٠

- ق -

قازان بن أرغون ٢٥٤
قاضي خان ٤٠٣
قانصوه الغوري ٣٩٧
قراهولاكو ٢٥٦
قريط بن أنيف ١٤٩
قسطنطين الخامس ٢٠٣
قطب الدين ٢٤٥
قطب الدين بينادل ٤٠٨
قطب الدين النهروالي ٤١١
قطب علي ٣٨٧
قلاوون ٢٥٠
قوبيلائي خان ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨
قيصر ١٢٢ ، ١٦٢ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٣٠٩

- ك -

كاتجو ٨٧ ، ٩٣

كارل بروكلمان ٤٦٨
كارل ماركس ٢١٣
كبشة بنت معد يكرب ٢٩٠
كراجه مان سنكه ٤٢٣
كرشنا ٩٢
كريم خان زند ٤٤٤
الكسائي ٢٩٥
كسرى ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٦٢ ، ١٩٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩
كعب بن زهير ١٠٤
كلوديوس ٢٠٣
كمال أتاتورك ١١٢ ، ١١٣ ، ١٩٠
كمال الدين ٤٠٨ ، ٤٠٩
كمال الدين عبد الرحمن ٢٥١
كيوك ٢٤٧

- ل -

لذريق ١٤٠
لشكر محمد البرهانبوري ٤٠٨
لطف علي ٤٤٥
لوثر ٢٠٤
لوثروب استورد ٤٥٥
لويس ٢٥٠
لويس استراس ٣٨٠
لين بول ١٤٠
لينين ٤٧٠
ليو ٢٠٣
ليو الرابع ٢٠٣

- م -

م . ي . أولى فينت ٣٧٩
المأمون ٤١٢
ماكس مايرهوف ٣٠٦
مان سنكه ٤٢٣
ماني ٨٩ ، ٩٢
مائيكل ٤٧٢
مائيكل ريكن ٤٧٢
مبارك شاه ٢٥٦
مجاهد الدين أيبك الدويدار المستنصري ٢٣٠
محمد بك ٤٣٩
محمد بن أحمد السفاريني ٤٤٩
محمد أسد ٢٢٢
محمد أسلم الهروي ٤١٤ ، ٤٥٣
محمد بن إسماعيل الأمير ٤٤١
محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني ٤٤٩
محمد إقبال ٩ ، ٢٧ ، ٦٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٩
محمد إلياس الكاندهلوي ٨
محمد بك أبو الذهب ٤٣٨ ، ٤٦٥
محمد بن أبي الحسن الصديقي الشافعي ٤١٢
محمد بن عبد الباقي الزرقاني ٤٤٩
محمد بن عبد الوهاب ٤٣٨
محمد بن عبد الله سعيد الحسني ٤٣٩
محمد بن إسماعيل الأمير ٤٤١
محمد بن علي الشوكاني ٤٤١
محمد بن العلقمي ٢٣٢ ، ٢٣٣
محمد بن القاسم ١٤٨ ، ١٨٧
محمد بن يوسف الجونبوري ٤٢٣
محمد تغلق ٤٠٣
محمد الجونبوري ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧
محمد الجونفوري ٤٢٤
محمد تقي الدين الهلالي ا لمراكشي ٧
محمد حبان ٣٩٥
محمد حياة السندي ٤٤٨

محمد خان ٢٥٠
محمد خدانبده ٢٥٤
محمد زاهد ٤١٤ ، ٤٥٣
محمد سعيد السنبل ٤٤٩
محمد الشطاري ٤٠٦
محمد صادق الحلواني ٤١٤
محمد طاهر الفتني ٤٢٧ ، ٤٢٨
محمد عبد الله العمري ١٧٠ ، ١٧٢
محمد علي ١٥٢
محمد علي التهانوي ٣٢٧
محمد غوث الكوالياري ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧
محمد الفاتح ١٨٧
محمد فاضل البدخشاني ٤١٤
محمد كرد علي ٣٤٢
محمد لسان الدين بن الخطيب ٣٤٠ ، ٣٤١
محمد معصوم ٤٠٢
محمد نور بخش ٤١٦
محمد اليزدي ٤١٣
محمود ٤٤٦
محمود الأول ٤٣٧ ، ٤٣٩
محمود حسن التونكي ٣٢٨
محمود الحسن الديوبندي ١٥٢
محمود حسن الطونكي ٤٦٥
محمود خان ٤٤٢
محمود خان غازئي ٤٤٢
محمود شاه الكجراتي ٤٢٤
محمود الغزنوي ٤٤٥
محيي الدين بن عربي ٤٠٨ ، ٤١٤
محيي الدين عبد القادر العيدروسي ٤٠٥
مراد الثالث ٣٩٧ ، ٤٠٢
المرتضى ٩
مرتضى الزبيدي البلكرامي ٣٢٦ ، ٣٢٧
مرزا جان ٤٥٢و٤٥٤
مرزا شاه بيك ٤٢٥
مرزا عزيز الدين ٤٢٨
مرزا نصر الله خان فدائي ٤٢٢
مزدك ٩٢ ، ٢١٣
المستعصم بالله ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٣٩٧
المستنصر بالله ٢٣٢
مسعود بن سعيد ٤٣٩
مسلم ٢٠٣ ، ٤٥١
المسيح عليه السلام ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٤٤ ، ٣٤٦
مششيهعس ٢٠٣
مصطفى الثالث ٤٣٧ ، ٤٣٨
مصطفى الثاني ٤٣٧
مصطفى خان ٤٣٧
مصعب بن عمير ١٢٢ ، ٢٢٠
مصلح الدين سعدي ٢٤٣
المطهر بن شرف الدين ٤٤١
مظفر حسين ٤٠٠
معاوية بن أبي سفيان ١٢٤
المعتصم ١٤٧ ، ٣٣٠
المعتمد بن عباد ١٣٦
معصومة الكاظمي ١٧٠
المغيرة بن شعبة ١٦٤
المقري ١٣٧
المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ٣٤١
ملا علي القاري ٤١١
ملا محمد ٤١٨
ممدوح رضا ١٧٠
منجوخان ٢٥٨
المنصور بن أبي عامر ١٤١

المنصور بالله ، الحسين بن المتوكل ٤٤١
المهدي ٢٢ ، ٤١٨ ، ٤٢٤
موت بيتن ٨٠
موسى ١٤٥
موسى عليه السلام ١٦ ، ٢١ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٢٦٨ ، ٣٥١ ، ٣٧٢ ، ٤١٨

- ن -

نادر شاه أفشار ٤٠٠ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥
الناصر لدين الله ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤
النجاشي ٩٠
النسائي ٤٥١
نصير خان ٤١٩
نصير الدين الطوسي ٢٤٢ ، ٤٥١
نصير الدين همايون ٤٠١
نظام الدين الأميتهوري ٤٠٩
نظام الدين الجشتي ٣٩٥
نظام الدين محمد الباموتي الدهلوي ٣٣٨
نقولا ٢٥٠
ننكو ٤٧٠
نواب ميرخان ٣٨٤
نور الدين جهانكير ٣٩٨ ، ٤٠١
نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي ٤١١
نور الدين قراري ٤١٣
نور علي القادياني ٢٦
نيقولا ٢٥٥

- هـ -

هارون الرشيد ٢٩٥ ، ٣٢٩
هاكنس ٤١٥
هرقل ١٢٣ ، ١٦٣ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١١
الهرمزان ١٢٣ ، ١٢٤
همايون بن بابر التيموري ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٣٥
هولاكو ٨٩ ، ١٨٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠
هيرلد ليمب ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧
هيمر ٤٣٨

- و -

واتر ٨٠
وجيه الدين ٤٠٧
وجيه الدين بن نصر الله الكجراتي ٤١٢
ولي الله الدهلوي ٣٣٩ ، ٤٠٨
الوليد بن عبد الملك ٣٢٩
يحيى ١٧٤
يزدجرد ١٩٢ ، ٢١٥
يونس ٣١١

Alexis correl ٣٧٦
Helencvrrerd Encavgse ٤٩
K.M. Panikkar ٢٠٤
Kitchie colder ١٦٨
N.C. Mahta ٢٠٥
Peter-Potichny ٥٠٠
Plesh ٣٧٩
Robert Briffault ٢٠٥
Tangut ٢٥٨
W. Erich beth man ١٧٤

فهرس الأبيات الشعرية

القافية	الشاعر	رقم الصفحة
	- ب -	
غضابا	ـ	٨٢
ترابُها	ـ	٣٣٣
	- ت -	
أخواتُ	أبو العلاء المعري	١٢٨
السنواتُ	أبو العلاء المعري	١٢٩
	- د -	
استعدًّا	ـ	٢٢٤
سدُّوا	ـ	٧٢
بعدي	ـ	١٣٦
تنادي	ـ	٢٨٩
الصدي	طرفة بن العبد	٢٩١
يدي	طرفة بن العبد	٢٩١
	- ر -	
المهاجرة	ـ	١٢٣ ، ١٦٣
سامرُ	ـ	١٣٦
العواثرُ	ـ	١٣٦
منبرُ	ـ	١٤١
نذروا	ـ	٨٢
	- ع -	
شفيعُ	ـ	٢٨٤

- ق -

دمشقُ	شوقي	٩٦
يدقُ	شوقي	٩٦

- ك -

لذلكا	ابن الرومي	٣٣٣
مالكا	ابن الرومي	٣٣٣
هنالكا	ابن الرومي	٣٣٣

- م -

مطعما	-	٢٩٣
لمطعم	كبشة بنت معد يكرب	٢٩٠

- ن -

إحسانا	-	٧٨ ، ١٤٩
إنسانا	-	٧٨ ، ١٤٩
برهانا	-	١٤٩
ركبانا	-	١٤٩
شيبانا	-	١٤٩
لانا	-	١٤٩
هانا	-	١٤٩
وُحدانا	-	١٤٩
إخوانُ	صالح بن شريف الرندي	١٥١
أعوانُ	صالح بن شريف الرندي	١٥١
إنسانُ	صالح بن شريف الرندي	١٥٠
إيمانُ	صالح بن شريف الرندي	١٥١
إيمانُ	-	١٨ ، ١٣٥
ركبانُ	صالح بن شريف الرندي	١٥٠
صلبانُ	صالح بن شريف الرندي	١٥٠
عمرانُ	صالح بن شريف الرندي	١٥٠
عيدانُ	صالح بن شريف الرندي	١٥٠
عيدانُ	-	١٣٥
هيمانُ	صالح بن شريف الرندي	١٥٠
بزمانِ	جرير	١٣٥
ثانِ	جرير	١٣٥

فهرس الأماكن والبقاع والبلدان

اسم المكان	رقم الصفحة

-آ-

الآستانة ٢٣
آسيا ٥٦ ، ١٧٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٦٧
آسيا الصغرى ٢٣٤ ، ٤٣٦
آسيا الغربية ٣٩٧
آسيا الوسطى ٤٣٤ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧
آكره ٤٠٦
اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ٤٧٠
الاتحاد السوفياتي ١٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧
أترابرديش ٧ ، ٨٧
أترار ٢٣٧
أتك ٤١٨
أجين ٤٢٨
أجمير ٤١٨
أُحد ١٢٧
أحمد آباد ٤٢٤
أحمد نكر ٤٠١ ، ٤١٦ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧

اسم المكان	رقم الصفحة

أراغون ١٤٤
الأردن ٨
أرغونة ٢٥٠
أزبيك ٤٩٧
الأزهر = الجامع الأزهر
إسبانيا ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢١٧ ، ٣٣٥
أستراباذ ٤١٣
إسرائيل ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ٤٦١
الإسكندرية ٤٠٤
أسيوط ٣٣٦
إشبيلية ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٣٣٥
أصفهان ٣٣٦ ، ٤٠٢ ، ٤٤٢
إفريقية ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٧٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٦٧ ، ٣٣٦
إفريقية الشمالية ٣٩٧ ، ٤٣٦
أفسس (أفسوس) ٣٤٥
أفغانستان ٢٣ ، ٢٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ٢٢٣ ، ٣٨٩ ،

٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤١١ ،
٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ،
٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٧٥ ،
٤٧٦
أكبر آباد ٤٠٧
أكسفورد ٣٢٦
ألبانيا ١٣٧
ألمانيا ١٣٧
إله آباد ٣٨٦
الإمارات العربية ٨٢
أمرتسهر ٨٠
أمروهة ٤٠٤
أمريكا ١٦ ، ٨٤ ، ١٧٦ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٣٥٩ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠
أناطوليا ٤٣٨
أنبالة ٤٠٩
إنجلترا ٢٤١ ، ٣٢٦ ، ٣٧٩
الأندلس ١٣ ، ٥٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٠٣ ، ٢٣٦ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤١
أندونيسيا ٤٩ ، ٧٠ ، ١٨٨ ، ٤٥٠
الأهواز ١٢٤
أوده ٣٨٩ ، ٤٠٩
أوربة ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٥٠ ،
٢٩٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ ، ٤٣٦
إيران ٥٨ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٧٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٣٠١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٦٢ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤

- ب -

باب توما ٢٤٤
باجة ٣٣٦
باريس ١٥١ ، ٣٥٧ ، ٣٧٦
باكستان ٧ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤
باني بت ٤٣٥
بجاية ٣٣٦
بحر الخوارزم (آرال) ٢٣٤
بحر الروم ٤٣٨
بحيرة الخزر ٤٤٣
بخارست ٤٣٨
بخارى ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، ٣٣٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥
بدخشان ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٤
بدر ١٥٨
بردى ٩٦
برشلونة ١٤١
برمنجهام ٣٧٩
بريطانيا ٨ ، ٢٠ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٣٧ ، ١٥١ ، ٢١١ ، ٢٢٦ ، ٣٢٤ ، ٣٧٩

بشاور ٣٩١ ، ٤٢١ ، ٤٤٣
البصرة ٣٣٥
البطحاء ٣٣٦
بطليوس ١٤٢
بغـــــداد ٩٧ ، ١٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٣٣٥ ، ٣٩٨ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩
بلخ ٤٤٣
بلكرام ٣٢٦
بلنسية ١٤٢ ، ٣٣٥
بلوجستان ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥
بنجاب ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤٤٥
بنجتار ٣٩١ ، ٣٩٤
بنغال ٨٠
بنكالة ٤١٨
بهرائج ٤٠٤
بور سعيد ١٥٢
بورما ٤٩
بونة ٤٠٤
بيجابور ٤١٣
بيجافور ٤٠١
البيت الحرام ٢٤٤
بيدر ٤٢٤
بئر معونة ١٢٧
بيروت ٣٢٨ ، ٤٣٩ ، ٤٥٧

- ت -

تاج محل ٣٣٩
تانجوت ٢٥٩
تركستان ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ ، ٤٥٢
تركيا ٢٢ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ١١٣ ، ١٨٨ ، ٢٧٨ ، ٣٢٤ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٣٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٥ ، ٤٦٠
تريم ٤٠٤
تعز ١٧١ ، ٤٠٤
تكية كلان ٧
تلمسان ٣٣٦
توبئي ٣٩٣
تورين ٢٠٣
تونس ٦٠ ، ٣٣٦ ، ٣٩٧ ، ٤٥٠
تونك ٣٨٤

- ج -

جالندهر ٤٢٠
الجامع الأزهر ١١٦ ، ٤١٢ ، ٤٥٠
الجامع الأموي ٤٥١
جامع الزيتونة ٤٥٠
جامع شاهجهان ٣٣٩
جامع قرطبة ١٣٥
جامع القرويين ٤٥٠
جامعة أكسفورد ٨
جامعة كابل ١٧٠
جانبانير كجرات ٤٢٤
جبال الكرد ٣٠٧
جبل مراد ٤١٩
جبليور ٩٤
جرجان ٤١٣
الجزائر ٦٠ ، ١٨٦
الجزيرة العربية (جزيرة العرب) ٢٠ ، ٧٩ ، ٢١١ ، ٣٠٥ ، ٣٤٥ ، ٣٩٧ ، ٤٦٤
جق ٤٣٨

جكارتا ١٨٩
جليان والاباغ ٨٠
الجمهورية الجزائرية ١٤٦
الجمهورية العربية المتحدة ١١٦
جنوب إفريقية ٣٧٦
جيان ٣٣٥
جيحون ٤٧٤

-ح-

الحبشة ١٤٦ ، ٣٠٧
الحجاز ١٢٧ ، ٢٣٤ ، ٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٨
الحديبية ٤٦٥
حديدة ١٧١ ، ١٧٢
الحرم ٣٩٧ ، ٤١٤ ، ٤٤٨
الحرمين ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٨
حضرموت ٤٠٤
حطين ٩٨
حلب ٢٤٤ ، ٣٣٥
حماة ٣٣٥
حمص ٣٣٥
حيدر آباد ٣٢٨

-خ-

الخليج العربي ٨٢
خليج الفرس ٢٣٤
خراسان ٢٥٤ ، ٤١٩
خراكيز ٤٩٧
خوارزم ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٣٣٦ ، ٤٤٣
خير آباد ٣٩٥

-د-

داغستان ٤٧٤
دانمرك ١٦٩
دجلة ٢٤٤ ، ٣٠٧ ، ٣١١
دكن ٤٢٧
دلهي ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٣
دمشق ٨ ، ٩٦ ، ١٢٧ ، ١٣٩ ، ٢٤٤ ، ٣٠٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٤٠٢ ، ٤٣٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٦٨
دهلي ٦١ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٨٩ ، ٣٣٩ ، ٣٨٠
الدهناء ٣٣٦
الديبل ١٤٨
ديوبند ٧

-ر-

رأي بريلي ٧ ، ٣٨٦
الربذة ١٣٣
روسيا ٢٠٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٣٨٠ ، ٣٩٩ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧
روما ١٣ ، ٥٨ ، ١٤٠ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٣٠٧ ، ٣١٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢
رومانيا ١٣٧
الرَّي ٢٤٠ ، ٣٣٦
الرياض ٨

-ز-

زبيد ٣٢٦
زنجان ٢٣٨
الزهراء ١٤١ ، ١٤٢ ، ٣٣٥

-س-

ساباط ٣٠٧
السامراء ٢٢٩
سبتمانيا ٢٠٣
ستاركازن ٣٣٨

سرقسطة ١٤٢ ، ٣٣٦
سرهند ٤٠٤
سمرقند ٢٣٨ ، ٣٣٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤
سنج ٣٨٠
السند ١٤٨ ، ٣٣٨
السودان ٦٠ ، ٨٢
سورية ٩٩ ، ٢٤٩ ، ٢٧٨ ، ٤٥١
سوسة ٣٣٦
السويد ٢٤١ ، ٣٥٩
سيام ٤٩
سيراداردا ٢٤٨
سيستان ٤٠٠
سيلان ٣٧٤ ، ٤٥٧
سيون ٤٠٤

- ش -

الشاس ٣٣٦
شاطبة ٣٣٥
الشام ٢٢ ، ٢٣ ، ٩٠ ، ١٢٢ ، ١٦٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٦٢ ، ٣٩٧ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ ، ٤٦٠
شبه القارة الهندية ٦٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٤١١ ، ٤٢٣ ، ٤٦٢ ، ٤٦٨
شحر ٤٠٤
الشرق الأوسط ١١٦ ، ١٤٥ ، ٣٩٦
شيراز ٣٣٦ ، ٤٤٤ ، ٤٥٢

- ص -

صحراء الجوبي ٢٣٧
صحراء العرب ٣٠٣
صقلية ٢٥٠
صنعاء ١٧٢ ، ٤٠٤
الصين ٤٩ ، ٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢١٧ ، ٣٧٧

- ط -

الطائف ١٢٧
طرابلس ٦٠ ، ٢٢٩ ، ٣٣٥
طليطلة ١٣٩
طنطا ٤٣٠
طوس ٣٢٦

- ع -

عدن ٨٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣٣٥
العراق ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٦٠ ، ٤٦٧
العقبة ٨٢
عليكرة ٩٤
عمورية ١٤٧ ، ٣٣٠
عين جالوت ٢٤٥

- غ -

غار ثور ١٢٧
غازيفور ٣٨٦
غرناطة ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠
غزة ٤٣٨

- ف -

فارس ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٦٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨
فاس ٣٣٦ ، ٤٥٠
فرنسا ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ، ٢٥٠
الفسطاط ٣٣٦

فلسطين ٧٩ ، ٨٢ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٥٢ ، ٣٣٠

-ق-

قادس ١٤٣
القادسية ٣٠٤ ، ٣٠٥
القاهرة ٨ ، ١٧٣ ، ١٨٩ ، ٣٣٦ ، ٣٤١
قبرص ٣٩٧
القدس ٣٣٥ ، ٤٣٨
قراقورم ٢٣٧
قرحونة ١٤٢
قرطبة ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ٣٣٥
قزاقستان ٤٧٣
قزلباش ٤١٧
قزوين ٢٣٨
القسطنطينية ٢٠٣ ، ٢٥٠ ، ٣٩٨ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٥٠
قشتالة ١٤٤
قصر الحمراء ٣٣٥
القطائع ٣٣٦
قطب ٤١٨
قلعة أتك ٣٩٢
القلعة الحمراء ٣٣٩
قلعة خير آباد ٣٩٢
قناة السويس ١٨٧
قندهار ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٢٥ ، ٤٣٤ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦
قوريليان ٢٥١
قيروان ٣٣٦

-ك-

كابر ٣٩٩
كابل ١٦٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٣٤ ، ٤٤٣
كاشغر ٢٥٧
كالاباني ٤٢١
كان سو ٢٥٨
كجرات ٤٠١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨
كراتشي ٦١ ، ١٨٩
كربلاء ٣٩٨
الكرخ ٢٣٢
كريميا ٤٧٤
كشمير ٤١٦ ، ٤٤٥
الكعبة ١٨١ ، ٢٣١ ، ٣٩٠ ، ٤٠٢
كلبركة ٤٢٤
كوريا ٢١٧
الكوفة ١٢٤ ، ٣٣٥
كولكندة ٤٠١
كوه سليمان ٤٢٣
كوهستان ٤٠٠

-ك-

كيتهل ٤٠٩
كيلان ٤١٣
كيمبرج ٢٤١ ، ٣٢٦

-ل-

لاهور ٧ ، ٣٩٨ ، ٤٤٣
لبلة ١٤٢
لكهنؤ ٨ ، ٣٥٤ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩
لندن ١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٩٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦
ليبيا ٣٣٦
ليون ٢٥٠

-م-

مآب ٣١١
مازندران ٤١٣
مالابار ٤٠٣
مالقة ١٤٢ ، ١٤٤
ماندو ٤٠٥ ، ٤٢٤
المجر ٣٩٧

المحيط الهندي ٧٠
مخا ١٧١
المدائن ١٩٧ ، ٣٠٧
المدرسة الحافظية ٤٥٠
المدرسة الشلية ٤٥٠
المدرسة العذراوية ٤٥٠
المدينة المنورة ٩ ، ٢٣ ، ٦٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٨٢ ، ٣٢٢ ، ٤٣٣
مراكش ٣٣٦
مرسية ٣٣٥
مرو ٢٣٨
المرية ١٤٢
المسجد الأقصى ٩٧ ، ١٠١ ، ٢٢٧
مشهد ٤٠٢ ، ٤٤٥
مصر ١٦ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٢ ، ٣٩٧ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
معان ٨٢
المغرب ١٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٩٧ ، ٤٥٠
المغرب الأقصى ٥٩ ، ٦١
مكناس ٣٣٦
مكة المكرمة ٨، ٢٣، ٦٠، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ٣٠٧ ، ٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٧٧
ممر بولان ٤١٥ ، ٤٣٤
ممر خيبر ٥١٥ ، ٤٢٣ ، ٤٣٤
المملكة العربية السعودية ٤٦٣
المملكة المغربية ١٤٦
المنصورة ٣٣٦
موسكو ٣٧٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٧
الموصل ٢٣٠ ، ٣٣٥
موهان ٤١٨

- ن -

نابلس ٢٢٩ ، ٣٣٥ ، ٤٣٨
ناربون ١٤٠
نجازاكي ٣٧٨
نجد ٤٣٦
نجف ٣٩٨ ، ٤٠٢
النمسا ٣٩٧
نهاوند ٣١٠
نهر السند ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٤٣
نيسابور ٢٣٨ ، ٣٣٦ ، ٤١٣
النيل ٥٠ ، ٢٢٨
نيلاب ٣٣٨
نينوى ٣٠٧
نيوميكسيكو ٣٧٨
نيويورك ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠

- هـ -

هرات ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤٥٣
هشت نكر ٤٢١
همدان ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٣٣٦
الهند ٧ ، ٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ،

٢٩٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ،
٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٩ ،
٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ،
٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ،
٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ،
٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ،
٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ،
٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ،
٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،
٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ،
٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٦

هيروشيما ٣٧٨

- و -

وادي النيل ٨٣

- ي -

اليابان ٤٩ ، ١٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٧٩ ، ٤٥٧

يافا ٤٣٨

اليرموك ٣٠٤ ، ٣١٠

اليمن ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٣٢٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٨

يوغوسلافيا ١٣٧

اليونان ١٣ ، ٥٨ ، ٢٢٣ ، ٣٠٧ ، ٣٤٥ ، ٣٦١

فهرس الأمم والقبائل والجماعات

الاسم	رقم الصفحة

- آ -

الآسيويون ٤٧٢
الآشوريون ٨٩
آل بابر ٤٠٠
آل باعلوي ٤٠٤

- أ -

الأتراك (الترك) ٥٦ ، ١٧٧ ، ٢٣٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠٢ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٦٩
الأفغان (الأفغانيون) ١٦٩ ، ٢٩٥ ، ٣٨٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥
الألمان ٨٥ ، ١٧٦
الإنجليز ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٨٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٧
الأندلسيون ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٣٤١
الأنصار ١٢٧
الأوربيون ١٣ ، ١٥ ، ٢٦ ، ٣٤ ، ١٠٧ ، ١٤٠ ، ١٦٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٢ ، ٣٠٦ ، ٣٢١ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣

الاسم	رقم الصفحة

الإيرانيون ٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٦ ، ٤٤٣ ، ٤٥١

- ب -

البربر ١٤٠ ، ٣٣٦
البلوجيون ٤٢١
بنو إسرائيل ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٢٢٧ ، ٤٦٢
بنو الأفطس ١٤٢
بنو أمية ٤٢ ، ١٣٩
بنو أيوب ٢٣١
بنو برزال ١٤٢
بنو جهور ١٤٢
بنو حمود ١٤٢
بنو ذي النون ١٤٢
بنو زيري ١٤٢
بنو شيبان ١٤٩
بنو عباد ١٤٢
بنو عبد الأسد ١٦٠
بنو العنبر ١٤٩
بنو مادح ١٤٢
بنو مروان ١٢٧
بنو المغيرة ١٦٠

بنو نصر ١٤٣
بنو هاشم ٩٠
بنو هود ١٤٢
بنو يحيى ١٤٢
بنو يربوع ١٤٨

- ت -

التتار (التتر) ١٣ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٨٩ ، ١٧٧ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٤٤٧ ، ٤٧٤

- خ -

الخوارزميون ٢٣٦

- د -

الدَّيلم ٥٦

- ر -

الروس ٤٢٨ ، ٤٤٢ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧
الروم (الرومان) ١٤٧ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٢٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٤٤٣

- س -

السلاجقة ٢٣٤ ، ٢٣٥
السنديون ٤٢١

- ش -

الشيبانيون ٤٠٠

- ص -

الصفويون ٣٩٩ ، ٤٢٨

- ع -

العامريون ١٤٢
العباسيون ٢٣١ ، ٤٢٣
العثمانيون ٣٩٨ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧
العرب ٤٩ ، ٥٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٧ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٧٥ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٥٣

- غ -

الغسانيون ٨٩
الغوريون ٢٣٥

- ف -

الفراعنة ٨٩ ، ١١٥
الفرس ٥٦ ، ٩١ ، ١٩٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥
الفيقوط ١٣٩
الفينيقيون ٨٩

- ق -

قريش ٥٣ ، ٩٠ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٦١ ، ٣٠٧

- م -

المرابطون ١٤٢
المصريون ١٣٩

المغـــــول ١٣ ، ٥٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٢١ ، ٤٤٣ ، ٤٥٥
المماليك ٣٩٧
مهمندزئي ٤٢١
الموحدون ١٤٢ ، ١٤٣

- هـ -

الهنود ١٥٢

- ي -

اليابانيون ٣٧٨
اليهود ٨٥

فهرس الموضوعات

الموضوع ... الصفحة

مقدمة الكتاب ٥

ترجمة العلامة أبي الحسن الندوي ٧

مقالات في الفكر والدعوة 1

دعوتان متنافستان ١١

القاديانية في الميزان ٢٠

أمة الحاضر وأمة المستقبل ٢٨

ردة ولا أبا بكر لها ٢٩

المشي على الأرض كإنسان أفضل وأهم من الوصول إلى القمر ٤٤

ثورة في التفكير ٤٨

نحن في معركة ٥٧

فراغ يجب أن يملأ ٦٤

المعركة المبدئية ودور المجلاَّت الإسلامية فيها ٧٣

هذه هي المعركة والمسلمون فيها جنود ٧٥

الشرق الثائر ٧٧

موقف المسلم إزاء أسلافه الجاهليين ٨٧

خطاب مفتوح ٩٦

مصرع الجاهلية ١٠٢

قوارع تبري العظم من كل نصّ ١٠٥

الطبعة الجديدة العربية للحركة الكمالية التركية ١١٢

محاولة تطوير المجتمع المصري والعربي كلياً ١١٣

سوء تأثير الثورة المصرية وقيادتها في العالم العربي ١١٦
طليعة ردة فكرية ١١٧
بين الجباية والهداية ١١٨
حب البلاد أم حب الذات ١٣١
درس من الأندلس ١٣٥
وامعتصماه ١٤٧
حاجة العالم إلى الدعوة الإسلامية ١٥٦
لابد من التخطيط وإصلاح الأوضاع ، درس من أفغانستان واليمن ١٦٧
الردة الفكرية أكبر خطر على العنصر الإسلامي ١٧٦
العالم في حاجة إلى قناة جديدة ، تحمل بضاعة الإيمان إلى الغرب ، وتنتقل الوسائل والمعلومات إلى الشرق ١٨٤
المدنية الإسلامية ١٩١
الأئمة المسلمون وخصائصهم ١٩١
دور الخلافة الراشدة مثل المدينة الصالحة ١٩٦
تأثير الإمامة الإسلامية في الحياة العامة ١٩٧
المدنية الإسلامية وتأثيرها في الاتجاه البشري ٢٠٠
كيف يعود العالم الإسلامي إلى مكانته القيادية ؟ ٢٠٧
ليتجدد الإيمان ٢٢٥
اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية ٢٠٧
استيلاء الفلسفة الأوربية على العالم ٢٠٨
الشعوب والدول الآسيوية ٢٠٩
الحلُّ الوحيد للأزمة العالمية ٢١١
العالم الإسلامي على أثر أوربة ٢١١
المسلمون على علاتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل ٢١٢
رسالة العالم الإسلامي ٢١٥
الاستعداد الروحي ٢١٧
الاستعداد الصناعي والحربي ٢٢٠
تبوُّء الزعامة في العلم والتحقيق ٢٢١
التنظيم العلمي الجديد ٢٢٢
غارة التتار على العالم الإسلامي وظهور معجزة الإسلام ٢٢٧
غارة التتار وأسبابها الحقيقية في ضوء القرآن ٢٢٧
أوضاع العالم العربي ومركز الخلافة في هذا العصر ٢٢٨

القسم الشرقي من المملكة الإسلامية ٢٣٤
خطأ الملوك الخوارزمية ٢٣٦
زحف التتار نحو العالم الإسلامي ٢٣٦
تدمير بغداد ٢٤١
التتار في الشام ٢٤٤
وقعة عين جالوت ٢٤٥
انتشار الإسلام في التتار ٢٤٦
الإنسان مزيج غريب من الروح والمادة ٢٦٠
مقتضى «الخلافة» ولوازمها ٢٦٠
تجاذب الروح والجسد إلى مركزهما وخصائصهما ٢٦١
أثر انتصار كل من الروح والجسد في حياة الإنسان ٢٦٣
مكانة «المسلم» في الوجود ٢٦٥
العالم الإسلامي على مفترق الطرق ٢٧٢
حديث عن الإنسان ٢٨٣
طغيان المادة والمعدة في الشرق الإسلامي ٢٨٦
المادية الطاغية تغطي جميع وجوه النشاط في حياتنا ٢٩٧
هناك الثورة لاهنا ٣٠٣
هذه هي المعركة ٣١٣
دور الإسلام في نهضة الشعوب ٣١٧
دور الإسلام في تقدم البلاد التي دخلها ، ودور المسلمين في التعريف بالأقطار التي عمروها ، وحكموها ٣٣٣
دولة الوثنية والخلاعة ! ٣٤٥
محنة الإيمان بين الأمس واليوم ٣٥٠
كيف يساهم الإسلام في بناء مجتمع هندي أفضل ؟ ٣٦٠
الإسلام يتقدم ٣٦٧
موقف الإسلام من الصناعات والمخترعات ٣٦٩
الغاية من الصناعات والمخترعات وموقف الإسلام منها ٣٦٩
إنما طائركم معكم ٣٧١
التخليط بين الوسائط والغايات ٣٧٢
عدم تعادل القوة والأخلاق في أوربة ٣٧٣
قوة الآلهة وعقل الطفل ٣٧٤
يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ٣٧٥
أوربة في الانتحار ٣٧٨

القنبلة الذرية وفظائعها ٣٧٨
والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ٣٨٠
في سبيل الجهاد ٣٨٣
هدية طريفة ٣٨٦
وداعاً أيها الوطن العزيز ٣٨٧
ثكنة عامرة ومدرسة حربية ٣٩١
تأثير المحيط في أخلاق الأجانب ٣٩٣
النظام القضائي والحسبة في المستعمرة الإسلامية ٣٩٥
العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري ٣٩٦
أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر ٣٩٦
الوضع السياسي ٣٩٦
الوضع الديني والروحي ٤٠١
الوضع العلمي ٤١٠
الاضطراب في الأفكار والفوضى في العقائد ٤١٥
المهدية ٤٢٣
أسباب القلق والفوضى في الأفكار ٤٢٨
العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري ٤٣٢
أهمية دراسة أوضاع البلاد الإسلامية في القرن الثاني عشر الهجري ٤٣٢
تأثير «إيران الحضاري» والثقافي على الهند ٤٣٥
أهمية الدولة العثمانية وعظمتها ٤٣٥
الوضع السياسي في العالم الإسلامي ٤٣٧
الدولة العثمانية في القرن الثاني عشر ٤٣٧
الوضع السياسي في الحجاز ٤٣٩
اليمن ٤٤٠
إيران ٤٤٢
نادر أفشار ٤٤٢
حالة إيران بعد مقتل نادر شاه ٤٤٤
أفغانستان وأحمد شاه الأبدالي ٤٤٥
أفغانستان بعد أحمد شاه الأبدالي ٤٤٦
وضع العالم العلمي والديني ٤٤٦
نظرة على الذوق العلمي والأدبي والروحي في العالم الإسلامي ٤٥٠
سيطرة العلوم العقلية في إيران وتأثيرها على البلدان المجاورة ٤٥١
الوضع الخلقي والاجتماعي والعقائدي العام ٤٥٤

مصدر الشقاء والاضطراب في العالم الإسلامي ٤٥٧
النور والظلام لا يجتمعان ٤٥٩
الوضع في العالم الإسلامي وضع متناقض ٤٦٠
الطبقة الحاكمة ترصد كلَّ إمكانياتها لقهر شعوبها ٤٦١
مات فرعون تداركه قادة التربية الغربيون ٤٦٢
التعليم العصري حامض يذيب الشخصية ٤٦٣
دور الأمة الإسلامية في الحركة العلمية والتأليفية ٤٦٤
المسلمون في الاتحاد السوفياتي ٤٧٠
الفهارس العلمية ٤٧٩
١ ـ فهرس الآيات القرآنية ٤٨١
٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية ٤٨٩
٣ ـ فهرس الأعلام ٤٩١
٤ ـ فهرس الأبيات الشعرية ٥٠١
٥ ـ فهرس الأماكن والبقاع والبلدان ٥٠٣
٦ ـ فهرس الأمم والقبائل والجماعات ٥١١
فهرس الموضوعات ٥١٤

* * *